







**إهداء 2005**

الأستاذ الدكتور / أحمد حمدي محمود  
القاهرة



كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثالث عشر

د. الشعب

١٩٨١ م / ١٤٠٢ هـ / ١٩٦١



## الشر الثاني

من الكتاب في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق

## بيان

حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترافه ، بسبب توقع مكروه في المستقبل . وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فإنهما زمامان يئمان النفس عن الخروج إلى رعوناتها وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر ، لا يبق فيها فضلة لرجاء ولا لخوف . وبالجملة فالحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب يخوف الفراق ، كان ذلك نقصا في الشهود . وإنما دوام الشهود غاية المقامات . ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول :

حال الخوف ينظم أيضا من علم ، وحال ، وعمل . أما العلم ، فهو العلم بالسبب المنفوخ إلى المكروه . وذلك كمن جنى على ملك ، ثم وقع في يده ، فيخاف القتل مثلا ، ويحوّز المفور والإفلات . ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المنفضية إلى قتله ، وهو تفاحش جنايته . وكون الملك في نفسه حقودا ، غضوبا ، منتقما . وكونه مخفوفًا بمن يحميه على الانتقام ، خاليا بمن يتشفع إليه في حقه . وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك . فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف ، وشدة تألم القلب . وبحسب ضعف هذه الأسباب يشفف الخوف . وقد يكون الخوف لاعت سبب

جناية قارنها الخائف ، بل عن صفة الخوف ، كالذي وقع في مخالب سبع ، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع ، وهي حرصه وسلوته على الاقتراس غالبا ، وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للخوف منه ، كخوف من وقع في مجرى سيل ، أو جوار حريق ، فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق قالهم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للثير لإحراق القلب وتألمه. وذلك الإحراق هو الخوف . فكذا الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أملاك المالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من البعد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعبود نفسه ، ومعرفة بحال الله تعالى واستغنائاه ، وأنه لا يستل عما فضل وهم يستلون ، تكون قوة خوفه . فأخوف الناس لربه أعزهم بنفسه وربه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «أنا أخوفكم لله» وكذلك قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحترق القلب ، ثم يفيض أثر الحرق من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات أمافي البدن فبالحول ، والصفار ، والغشية ، والزقعة ، والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفيض إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس وأمافي الجوارح فيكفها عن المعاصي ، وتقيد بها بالطاعات ، تلافيا لما فرط ، واستعدادا للمستقبل . ولذلك قيل : ليس الخائف من يسكن ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لدى النون : متى يكون البعد خائفا؟ قال إذا نزل نفسه ، نزلة السقيم الذي يحتج مخافة طول السقام وأمافي الصفات ، فإن يقع الشهوات ، ويكدر الذوات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتميه إذا عرف أن فيه ساء . فتحترق الشهوات بالخوف ، وتآدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول ، والخشوع ، والدلة ، والاستكانة ،

(١) حديث أنا أخوفكم : البخاري من حديث أنس والله أني لأخشاكم لله واتقاكم له ولا شيعين من حديث عائشة والله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

(١) قاله : ٢٨

وبفارقة الكبر ، والحقد ، والحسد ، بل بصير مستوعب لهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لذميره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة ، والمحاسبة ، والمجاهدة ، والفطنة بالأنفاس والالطافات ، ومواخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مغالب سبع ضار ، لا يدرى أنه يفعل عنه فيفعل ، أو يهجم عليه فيملك . فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه ، لا منزع فيه لذميره . هذا حال من غلبه الخوف ، واستولى عليه . وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين . وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذى هو تألم القلب واحترافه . وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بمجالات الله وصفاته وأفعاله ، وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأحوال . وأقل درجات الخوف بما يظهر أثره في الأعمال ، أن يمنع عن المحظورات . ويسى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا . فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم ، فكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه . ويسى ذلك تقوى . إذ التقوى أن تترك ما يريه إلى ما لا يريه . وقد يحمله على أن تترك ما لا بأس به ، بخافة ما به بأس . وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة ، فصار لا يبنى ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها مفارقة ، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه ، فهو الصدق وصاحبه جذير بأن يسى صديقا . ويدخل في الصدق التقوى ، ويدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفة ، فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة . فإذا آ الخوف وُزُر في الجوارح بالكف والإقدام ، ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة . وأعلى منه الورع ، فإنه أعم ، لأنه كف عن كل محظور . وأعلى منه التقوى ، فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا . ووراء اسم الصديق والمقرب ، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها بحرى الأخص من الأعم ، فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول الإنسان إما عربى وإما عجمى ، والعربى إما قرشى أو غيره ، والقرشى إما هاشمى أو غيره ، والهاشمى إما علوى أو غيره ، والعلوى إما حـ نى أو حـ نى . فإذا ذكرت أنه حـ نى مثلا ، فقد وصفته بالجميع . وإن وصف بأنه علوى ، وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه . فكذلك إذا قلت صديق ، فقد قلت إنه نقي ، وورع ، وعفيف فلا يبنى أن تظن أن كثرة هذه الأساس تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

على من طلب المعاني من الألفاظ ، ولم يتبع الألفاظ المعاني  
فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف ، وما يكتنفه من جانب العلم ، كالعرفه الموجهة له ،  
ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه ككفا وإقداما

## بيان

درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر  
كان أحمد . وهو غلط : بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ،  
لئلا يهبها رتبة القرب من الله تعالى . والأصلح للهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وكذا الصبي .  
ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود . وكذلك الخوف له قصور ، وله إفراط ،  
وله اعتدال . والمحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى  
رقة النساء ، يختر بالبال عند سماع آية من القرآن ، فيورث البكاء ، وتفيض الدموع . وكذلك  
عند مشاهدة سبب هائل . فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . فهذا  
خوف قاصر قليل الجدوى ضئيف النفع . وهو كالتضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية ،  
لا يؤلمها ألم أبرح ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها . وهكذا خوف الناس كلهم  
إلا المارفين والعلماء . ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء ، والمتسمين بأسمائهم ،  
فإنهم أبعد الناس عن الخوف . بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده  
الآن . ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت ،  
وإن قلت : نعم ، كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ، ويقيدها  
بالطاعات . وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر ، لا يستحق أن يسمى خوفا  
وأما المفرط . فإنه الذي يقوى ويتجاوز حدا الاعتدال ، حتى يخرج إلى اليأس والتقنوط .  
وهو مذموم أيضا ، لأنه يمنع من العمل . وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ،  
وإلى الوله والذهشة وزوال العقل . فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط ، وهو الحل على  
العمل ولولا ما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان ، لأن منشأه الجهل والمعجز . أما الجهل ،

فإنه ليس يدري عاقبة أمره ، ولو عرف لم يكن خائفاً ، لأن الخوف هو الذى يتردد فيه .  
وأما المعجز ، فهو أنه متعرض لحدور لا يقدر على دفعه فإذا هو محمود بالإضافة إلى نقصه لا إلى  
وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدره ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به . وما يجوز  
وصف الله به فليس بكمال فى ذاته ، وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقصه هو أعظم منه ، كما يكون  
احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من المرض والموت . فأيخرج إلى القنوط فهو مذموم  
وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل .  
وقد يخرج إلى الموت . وكل ذلك مذموم ، وهو كالضرب الذى يقتل الصبي ، والسوط  
الذى يهلك الغابة أو يعرضها ، أو يكسر عضواً من أعضائها . وإنما ذكر رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط  
أو أحد هذه الأمور . فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه .  
وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم . وفائدة الخوف الخوف ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة  
والبادة ، والفكر ، والذكر ، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى . وكل ذلك يستدعي  
الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل . فكل ما يبدح فى هذه الأسباب فهو مذموم  
فإن قلت : من خاف فاته من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموماً ؟  
فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف ، كان لا يتأهل الوماث  
فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف . فهو بالإضافة إليه فضيلة . . فأما بالإضافة إلى تقدير  
بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبيله ، فليس بفضيلة . بل للسالك إلى الله تعالى بطريق  
الفكر ، والمجاهدة ، والترقى فى درجات المعارف ، فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء . ولولا هذا  
لكانت رتبة صبي يقتل ، أو مجنون يفترسه سبع ، أعلى من رتبة نبي أوولى يموت حتف أنفه  
وهو محال . فلا ينبغي أن يظن هذا . بل أفضل السمادات طول العمر فى طاعة الله تعالى  
فمكل ما يطل العمر ، أو المقل ، أو الصحة التى تعطى العمر بمطيلها ، فهو خسران وتقصان  
بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أفعالها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخرى ، كما كانت الشهادة  
فضيلة بالإضافة إلى مادونها ، لا بالإضافة إلى درجة التقوى والمهنية  
فإذا : الخوف إن لم يؤثر فى الصل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذى لا يتردد فى حركة

الدابة . وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره . فإن لم يحمل إلا على العفة ، وهى الكف من مقتضى الشهوات ، فله درجة . فإذا أثمر الورع ، فهو أعلى . وأقصى درجاته أن يشر درجات الصديقين ، وهو أن يلب الظاهر والباطن مما سوى الله تعالى ، حتى لا يبقى لنير الله تعالى فيه منسع . فهذا أقصى ما يحد منه . وذلك مع بقاء الصحة والعقل . فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة ، فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه . ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول . ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للبريديين الملازمين للجبج أيا ما كثرة : احفظوا عقولكم ، فإنه لم يكن لله تعالى ولية ناقص العقل

## بيان

أقسام الخوف بالإحاطة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه . والمكروه إما أن يكون مكروهاً فى ذاته كالنار ، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضى إلى المكروه ، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه فى الآخرة ، كما يكره المريض الفواكه المضرّة لأدائها إلى الموت . فلا بد لكل خائف من أن يمثّل فى نفسه مكروهاً من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره فى قلبه ، حتى يجرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه . ومقام الخائفين يختلف فيما يفلب على فلوبيهم من المكروهات المخذورة فالذين يفلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره ، كالذين يفلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقص التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالتساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء المادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسنة التى اتكل عليها وتمزجها فى عباد الله ، أو خوف البطور بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بنير الله ، أو خوف الاستدراج بتوآثر النوم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يدوله من الله ما لم يكن يحسب ، أو خوف تبعات الناس عنده فى النية ، والغيابة ، والنفس ، وإضرار السوء ، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث فى بقية عمره ، أو خوف ما يبلى الموت فى الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاعتزاز بزخارف الدنيا



أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلة عنه ، أو خوف الظلم له عند الموت بضاعة السوء ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف اللارفين ولكل واحد خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر مما يفضى إلى المخوف .

فمن يخاف استيلاء المادة عليه فيواظب على الفطام عن المادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس . وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر . وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة تتبع السابقة ، وفرع يفرع عنها بعد تغلغل أسباب كثيرة . فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة ، كرجلين وقع الملك في حقبها بتوقيع ، يحتمل أن يكون فيه حزن الرقبة ، ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه . ولم يصل التوقيع إليهما بعد . فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره ، وأنه عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته ، وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب . وهذا التفات إلى السبب ، فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع . فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيمه القلم ، أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد . وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر ، قبض كفه اليمنى ثم قال (١) « هَذَا كِتَابُ اللَّهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ لَا يُرَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَضُ ، ثُمَّ قَبَضَ كَفَّهُ الْيُسْرَى وَقَالَ « هَذَا كِتَابُ اللَّهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلُ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ لَا يُرَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَضُ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ السَّعَادَةِ بِمِثْلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَالَ كَاتِبُهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِمِثْلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ كَاتِبُهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَعْرِجُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ السَّعِيدُ مِنْ سَعِيدٍ يَقْضَاهُ اللَّهُ وَالشَّقِيُّ مِنْ شَقِيٍّ يَقْضَاهُ اللَّهُ وَالْأَعْمَالُ بِأَعْمَالِهِمْ » . وهذا كاتفاق الخائفين إلى من يضاف بمصيرته وجانيته إلى من يخاف

( ١ ) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آباءهم - الحديث : الترمذي من حديث

عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حنين صحيح غريب

• الفواق : هو ما بين الحلبتين من الراحة ، وتضم فاقه وتضم

الله تعالى نفسه اصفه وجلاله، وأوصافه التي تقتضي الهيبة لاحالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبق خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة التورور. والآمن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين، وهو نعمة المعرفة بالله تعالى. وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنابة. بل المصاحي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه غفوف في نفسه لما سخره للمعصية، وسر له سبيلها، ومهد له أسبابها، فإن يسيّر أسباب المعصية لإبعاد، ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وميالة توصل بها من سرته الطاعات، ومهد له سبيل القربات فالصاحي قد قضى عليه بالمعصية شاماً أم أبى، وكذا المطيع. فالتقى يرفع محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده، ويضع أباجيل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده، جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله. فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة، وآتاه القدرة. وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة، يصير الفعل ضرورياً. والذي عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضرورياً. فليت شمري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه؟ وكيف يحال ذلك على العبد؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزل من غير جنابة ولا وسيلة، فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل. ووراء هذا المنى سر القدر الذي لا يجوز إفتاؤه

ولا يمكن فهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بئال، لولا إذن الشرع لم يستجريه على ذكره ذوبصيرة. فقد جاء في الخبر <sup>(١)</sup> أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود، خفي كما تخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المنى، وإن كان لا يقف بك على سببه. فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا بالأهله

(١) حديث أن الله تعالى أوحى إلى داود بإداده خفي كما يخاف السبع الضاري: لم أجده أصلاً ولعل المصنف قصد بإداده أنهن الأسر الخليلات لأنه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثير ما يعبر بذلك عن الأسر الخليلات التي هي غير مرفوعة

والحاصل أن السميع يخاف لاجنبية سميت إياه بك، يا ابن آدم، وبه شبه، ووطوته، وكبره، وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي. فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك، وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإيقاعاً على روحك، بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حياً كنت أو ميتاً. بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك غلة عنده على وتيرة واحدة، إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته، وما هو موصوف به من قدرته وسطوته. وفيه المثل الأعلى. ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة، بأنه صادق في قوله هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهو لا يبالي النار ولا أبالي. ويكشفك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة الطبقة الثانية من الخائفين: أن يمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدة، أو سؤال منكرو نكيره، وأعذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى، والحياء من كشف السر، والسؤال عن التقير والقطمير، أو الخوف من المسرات وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار التعيم والملك المقيم، وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكرهة في نفسها، فهي لاجالة مخوفة، وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين. وما قبل ذلك خوف الماملين، والصالحين، والزاهدين، وكافة الماملين. ومن لم تكمل معرفته، ولم تنفتح بصبرته، لم يشعر بلذة الوصال، ولا بألم البعد والفراق. وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار، وإنما يخاف الحجاب، وجد ذلك في باطنه منكراً وتمجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم؛ لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يصرِف إلا لذة البطن والفرج والعين، بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشارك فيها البهائم. فأمالدة العارفين فلا يذكرها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره

فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

## بيان

لفضلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار  
أما الاعتبار فسيبيله أن فضيلة الشيء بقدر غناؤه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى  
في الآخرة . إذ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للمبدإ إلا في لقاء مولاه والقرب منه .  
فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته . وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله  
في الآخرة إلا بتحصيل محبته ، والأنس به في الدنيا . ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة . ولا تحصل  
للمعرفة إلا بدوام الفكر . ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر . ولا يتيسر المواظبة على  
الذكر والفكر إلا باقتطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها .  
ولا يمكن ترك المشتبهات إلا بقمع الشهوات . ولا تنقم الشهوة بشئ . كانتقم بنار الخوف .  
فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ، وبقدر ما يكف  
عن العاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق . وكيف  
لا يكون الخوف ذاتية وبه تحصل العفة ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة ، وهي الأعمال  
الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زاني . وأما بطريق الانتباس من الآيات والأخبار ،  
فاورد في فضيلة الخوف خارج عن المحصر ، وناهيك دلالة على فنيته جمع الله تعالى للخائفين  
الهدى ، والرحمة ، والعلم ، والرضوان ، وهي مجامع مقامات أهل الجنان . قال الله تعالى  
( هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ  
الْعُلَمَاءُ <sup>(٢)</sup> ) وصفهم بالعلم خشيتهم . وقال عز وجل ( رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ  
لِئَلَّا يَخْشَى رَبَّهُ <sup>(٣)</sup> ) . وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف  
نمرة العلم . ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأما الخائفون فإن لهم  
الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه . فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء  
لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء . ومن يلحق بهم

(١) الأعراف : ١٥٤ (٢) طهر : ٢٨ (٣) البينة : ٨



ذَلِكَ وَمَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فَلَيْسَ فِيهِ نَصيبٌ مِنْ فَضْلِهِ تِلْكَ آيَاتُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَسْأَلُوا اللَّهَ لِيُزِيلَهُمْ مِنْ دُونِ الْخُلُوفِ يُذَكِّرُ حِسَابًا

وقال عليه الصلاة والسلام <sup>(١)</sup> «رَأْسُ الْحِكْمَةِ عَاقَةُ اللَّهِ» وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود <sup>(٢)</sup> «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَلْقَانِي فَأَكْثِرْ مِنَ الْخُلُوفِ بَعْدِي»

وقال الفضيل : من خاف الله وله الخوف على كل خير وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والمبرة ما رأيت قط . وقال يحيى بن معاذ : مامن مؤمن

يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ، ورجاء العفو ، كمثل بين أسدين وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام : وأما الوردون فإنه لا يبق أحد إلا ناقشته الحساب

وقشت عراقي يديه ، إلا الورعين ، فإني استحي منهم ، وأجلهم أن أوقفهم للحساب . والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم هذا الأساى

وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جمعه الله تعالى خصوصا بالخائفين . فقال (سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى <sup>(١)</sup>) وقال تعالى (وَلْيَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ <sup>(٢)</sup>)

وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعِزِّي <sup>(٣)</sup> لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنِ أَمِنْتِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنِ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَمَنْ خَافَ

غَيْرَ اللَّهِ خَوَّفَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « أَعْصِمْ عَقْلًا أَشَدَّكُمْ خَوْفًا لِلَّهِ تَعَالَى وَأَحْسَنَكُمْ فَيَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَهَيَّ عَنْهُ نَظَرًا »

(١) حديث رأس الحكمة عاقاة الله بابوك بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبهيق في الشعب وضعفه

من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عتبة بن عامر ولا يصح أيضا

(٢) حديث ابن أروث ان تلقاني فأكثر من الخوف بعدي قاله ابن مسعود : لم ألق له على أصل

(٣) حديث لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين : ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث

أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسل

(٤) حديث من خاف الله خافه كل شيء - الحديث : أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة

بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل وقد تقدم

(٥) حديث أعمكم عقالا أشدكم خوفا - الحديث : لم ألق له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه : مسكين ابن آدم ، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه ، واشتد قلبه جبهه ، وصح له به . وقال ذو النون أيضا : ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء ، فإذا قلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف للشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإن انقطع زمامه هلك مع المالكين وقيل ليحيى بن معاذ : من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشد من خوف اليوم . وقال سهل رحمه الله : لا تجذب الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفونا حتى تسكد قلوبنا تطير . فقال : والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما فارق الخوف قلبا إلا خرب

وقالت عائشة رضي الله عنها . قلت يا رسول الله ( الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَكُلُّهُمْ فِي سَبِيلٍ ) (١) هو الرجل يسرق ويرزق ؟ قاله لا بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه . . والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس . وكادلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء ، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له . بل تقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف ، لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا عجبوا فلا بد وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكوب بانتظاره واجبا

فالخوف والرجاء متلازمان ، يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر . فميجوز أن يقلب أحدهما على الآخر وهما عجمان ، وميجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفك عنقه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف

( ١ ) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويرزق قال

لا الحديث : الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد \* قلت : بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة

(١) للؤمنون ٦٠

فإذا المحبوب الذي يورث وجوده يمحور عذمه لآعالة . فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجا ، وتقدير عذمه يوجع القلب وهو الخوف . والتقديران يتقابلان لآعالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه . نعم أحد طرفي الشك قد يرجع على الآخر بمحذور بعض الأسباب ، وبسمى ذلك غنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر . فإذا غلب على الظن وجود المحبوب ، قوى الرجا ، وخنى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان . ولذلك قال تعالى ( وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا <sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا <sup>(٢)</sup> ) ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء . فقال تعالى ( مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا <sup>(٣)</sup> ) أى لا تخافون . وكثيرا ماورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف ، وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التمييز عن الشيء بما يلزمه

بل أقول كل ماورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفصلية الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية . فقد قال تعالى ( فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا <sup>(٥)</sup> ) وقال عز وجل ( أَقْنِ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَنْبَكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ <sup>(٦)</sup> )

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٧)</sup> « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الدُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَنَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حَرِّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٨)</sup> « إِذَا اقْشَعَرَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَبَحَّتْ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرُكْبَاهَا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٩)</sup> « لَا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَنَالَى حَتَّى يَمُودَ اللَّابَنُ فِي الْقُرْعِ »

(١) حديث ما من مؤمن يخرج من عينه دُمعة وإن كانت مثل رأس الدُّبَابِ - الحديث : الطبراني والبيهقي

في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٢) حديث إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه - الحديث : الطبراني والبيهقي فيه

من حديث العباس بسند ضعيف

(٣) حديث لا يلبغ النار عبد بكى من خشية الله - الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح والنسائي

وابن ماجه من حديث أبي هريرة

(٤) الأنبياء : ٩٠ (٥) السجدة : ١٦ (٦) نوح : ١٣ (٧) التوبة : ٨٣ (٨) الأسراء : ١٠٩ (٩) النجم : ٥٩ - ٩١





وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما ترغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قفر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه أضفا الله بأول قطرة منها محاربا من النيران . ولوائف رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان : البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى ، أحب إلى من أن أنصدق يجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لأن أدمع دموع من خشية الله أحب إلى من أن أنصدق بألف دينار

وروي <sup>(١)</sup> عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوعظنا موعظة دقت لها القلوب ، وذرقت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى ، فدنت منى المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا . ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت في نفسى قد ناقضت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرفة . فخرجت وجلت أناذى ناقض حنظلة . فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : كلاً لم ينافق حنظلة . فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول ناقض حنظلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلاً لم ينافق حنظلة . فقلت يا رسول الله ، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب ، وذرقت منها العيون وعرفنا أنفسنا . فرجعت إلى أهلى ، فأخذنا في حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم : يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصاحفحسكم ألا تنكروا في الطرقي وعلى فراشكم . ولكن يا حنظلة ساعة وساعة .

فإذا : كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء ، وفضل التقوى والورع ، وفضل العلم ومذمة الأمن ، فهو دلالة على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به ، إما تعلق السبب ، أو تعلق المسبب

(١) حديث حنظلة كناه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا - الحديث : وفيه ناقض حنظلة - الحديث : وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة لم يضر

## بيان

أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت . وربما ينظر الناظر إليهما ، فيمتريه شك في أن الأفضل أيهما . وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد ، يضاهي قول القائل الخبز أفضل أم الماء . وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للمطشان ، فإن اجتماع نظر إلى الأغلب ، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فيها متساويان : وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه . والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود . فإن كان الثالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتقاره ، فالخوف أفضل . وإن كان الأغلب هو اليأس والضيوط من رحمة الله ، فالرجاء أفضل . وكذلك إن كان الثالب على العبد المصيبة ، فالخوف أفضل

ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل ، على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكنجيين ، إذ يمالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجيين مرض الصفراء . ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل . فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ، لأن الماصي والاعتقار على الخلق أغلب

وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء ، فالرجاء أفضل ، لأنه مستق من بحر الرحمة ، ومستق الخوف من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام يؤما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضى العنف ، فلا تمازجه المحبة مما زجتها للرجاء

وعلى الجملة فإيراد تميزه ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالفظ الأفضل . فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة الماصي . فأما التي التي ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وخفيه وجليه ، فالأصلح أن يتبدل خوفه ورجاؤه . ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروي أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده:

يا بني ، خف الله خوفا ترى أنك لو أتيت به بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاءه ترى أنك لو أتيت به سيئات أهل الأرض غفرها لك . ولذلك قال صر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا ، رجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، تخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتداهما مع التوبة والاستيلاء . ولكن على سبيل التقاوم والتساوى . فقل صر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه . فأما العاصي إذا علم أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار ، كان ذلك دليلا على اغتراره . فقلت : مثل صر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغي أن يثقل رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة ، وواظب على تهديها ، وجاء بشروط الزراعة جميعها ، غلب على قلبه رجاء الإدراك ، ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين

فأعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زله . وذلك وإن أوردناه مثلا ، فليس بضامى ما نحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وتقاءها ، وصحة البذر ، وصحة الهواء ، وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها . وإنما مثال مسألتنا بذور لم يحرب جنسه ، وقد بث في أرض غريبة لم يسدها الزارع ولم يحتبرها ، وهي في بلاد ليس يدرى أن أكثر الصواعق فيها أم لا . فقل هذا الزارع وإن أدى كنهه مجهوده ، وجاء بكل مقدوره ، فلا يثقل رجاءه على خوفه . والبذر في مسألتنا هو الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفاته من الشرك الخفي ، والنفاق ، والرياء ، وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا ، والثقات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال ، وذلك مما لا يتحقق ولا يسرف بالتجربة ، إذ قد يمرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ، ولم يحرب مثله ، والصواعق هي أهوال سكرات الموت ، واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لا يحرب مثله . ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة ، وذلك لم يحرب

فمن عرف حقائق هذه الأمور ، فإن كان ضيف القلب ، جباناً في نفسه ، غلب خوفه على رجائه لعلالة ، كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين . وإن كان قوي القلب ، ثابت الجأش ، تام المعرفة ، استوى خوفه ورجاؤه ، فأما أن يئلب رجاءه فلا ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه ، حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> بعلم المنافقين . فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من غفایا النفاق والشرك الخفي ؟ وإن اعتقد نفاق قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبیس حاله عليه ، وإخفاؤه عنه وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى عام حسن الخاتمة ؟

وقد قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ تَحْسِينُ سَنَةٍ حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شَيْءٌ » وفي رواية<sup>(٣)</sup> : « لَا أَقْدُرُ فَوْاقِ نَاقَةٍ قَبِضَتْ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ » وقد روي في الناقاة لا يحتمل عملاً للجوارح ، إنما عقداً خاطراً يختلج في القلب عند الموت ، فيقتضى خاتمة السوء ، فكيف يؤمن ذلك ؟

فإذا أنصت غايات المؤمن أن يتبدل خوفه ورجاؤه . وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة . ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أمي عليهم فقال تعالى ( يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا<sup>(٤)</sup> ) وقال عز وجل ( وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا<sup>(٥)</sup> ) وأين مثل عمر رضي الله عنه ؟

فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يخرجهم

(١) حديث أن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين : مسلم من حديث حذيفة في أصحابه

اتناشر مناقاً عامه لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الرجل فيهم الحياض - الحديث :

(٢) حديث أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة تحسین سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شئ وفي رواية

الاندر فواق ناقه - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة أن الرجل ليعمل إلى زمن الطويل

يعمل أهل الجنة ثم غتم له يعمل أهل النار والبرار والطبراني في الأوسط سبعين سنة واستاده

حسن وللشيخين في أثناء حديث لابن مسعود أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون

بينه وبينها إلا ذراع - الحديث : ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شراً ولا فواق ناقه

و قد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء ناه في مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في حجة الادكار . وقال مكحول الدمشقي . من عبد الله بالخوف فهو حُروري ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ . ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد . فإذا لا بد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت . أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط البائع على العمل ، وقد اقتضى وقت العمل . فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ، ويميل على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ، ومحجب إليه ربه الذي إليه رجأؤه .

ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا لعبادته تعالى ، ليصكوث محبا للقاء الله تعالى . فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . والرجاء تقارنه المحبة . فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى ، حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه . والقدم بالموت عليه . ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدت محبته وعذابه .

فهما كان القلب النابض عليه عند الموت حب الأهل ، والولد ، والمال ، والمسكن والعقار ، والرفقاء . والأصحاب . فهذا رجل محابه كلها في الدنيا ، فالدنيا تجتته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب . فموته خروج من الجنة ، وحيالوته بينه وبين ما يشتهي . ولا ينبغي حال من يحال بينه وبين ما يشتهي . فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى ، وسوى ذكره ، ومعرفته ، والفكر فيه ، والدنيا

وعلاقتها شاغلة له عن الحبوب ، فالدينا إذا سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقرة المسانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى عابه ، فموته قدوم على محبوه وخلص من السجن . ولا يبقى حال من أفلت من السجن ، وخلي بينه وبين محبوه بلامانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب ، فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين ، مما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولا خطر على قلب بشر ، وفضلاً مما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، ورضوا بها ، وأطاعوا فيها ، من الأنكال ، والسلاسل . والأغلال ، وضروب العزري والنكال ، ففسأل الله تعالى أن ينوفانا مسلمين ، ويلحقنا بالصالحين

ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب ، وقطع الملائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ، ووطن فالأولى أن ندعو عابديه نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَلْمَاءِ الْبَارِدَةِ » والترض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح ، لأنه أجلب للمحبة . وغلبة الخوف قبل الموت أصلح ، لأنه أحرق نار الشهوات ، وأقم لمحبة الدنيا عن القلب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ » وقال تعالى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي . فليظن في ما شاء . ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة ، قال لابنه : يا بني ، حدثني بالخص ، واذكر لي الرجاء ، حتى ألقى الله على حسن الظن به . وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة ، واشتد جزعه ، جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه لابنه عند الموت : اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن

والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ، أن حبيبي إلى عبادي . فقال بماذا قال بأن تذكر لهم الآتي ونعماي فإذا غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة ، وبإخراج حب الدنيا

( ١ ) حديث الله عز وجل : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ . الحديث : الترمذي من حديث معاذ بن عمرو عن الأكار والبعوات

( ٢ ) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه . مسلم من حديث جابر وقد تقدم

من القلب ، حتى تصير الدنيا كلها كالجنة المانع من المحبوب . ولتلك رأى بعض الصالحين  
أبا سليمان الناراني في المنام وهو يطير ، فأله ، فقال الآن أفلت . فلما أصبح سأل عن حاله ،  
ف قيل له إنه مات البارحة

## بيان

الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر ، وشرحناه في كتاب الصبر والشكر ، هو كاف في هذا  
الغرض . لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء . لأن أول مقامات الدين اليقين  
الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، والجنة ، والنار . وهذا اليقين  
بالضرورة يهيج الخوف من النار ، والرجاء للجنة . والرجاء والخوف يقويان على الصبر .  
فإن الجنة قد حقت بالسلوك ، فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حقت بالشهوات  
فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف . ولتلك قال علي كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة  
سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات . ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد  
من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة ، والتجرد لذكر الله تعالى ، والفكر فيه على الدوام .  
ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة . ويؤدي كمال المعرفة والأنس  
إلى المحبة ، وينبعا مقام الرضا ، والتوكل ، وسائر المقامات . فهذا هو الترتيب في ساوكة  
منازل الدين . وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى  
الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا . ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق  
إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا  
بفعل المحبوب ، والثقة بمنايته ، وهو التوكل . فإذا ذكرناه في علاج الصبر كفاية ، ولكننا  
نقرر الخوف بكلام جملي فنقول :

الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين . أحدهما أعلى من الآخر . ومثاله أن الصبي إذا كان  
في بيت ، فدخل عليه سبع أوحية ، بما كان لا يخاف ، وريامد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها



ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل ، خاف من الحية وهرب منها . فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترعد فرائسه ، ويحتال في الحرب منها ، قام معه ، وغلب عليه الخوف ، وواقفه في الحرب . فتخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية ، وسمها ، وخاصيتها ، وسطوة السبع ، وبطشه ، وقلة مبالاته . وأما خوف الابن للإيمان بمجرد التقليد ، لأنه يحسن الظن بأبيه ، ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب يخوف في نفسه ، فيعلم أن السبع يخوف ، ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين . أحدهما الخوف من عذابه ، والثاني الخوف منه . فأما الخوف منه ، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب البارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة ، والخوف ، والحذر ، المطلقين على سر قوله تعالى ( وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ <sup>(١)</sup> ) وقوله عز وجل ( اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ <sup>(٢)</sup> )

وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية ، وضمنه بسبب النفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول النفلة بالتذكير ، والوعظ ، وملازمة الفكر في أحوال يوم القيامة ، وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ، ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم . فإن قامت المشاهدة فالسماح لا يخلو من تأثير .

وأما الثاني وهو الأعلى ، فإن يكون الله هو المخوف ، أعني أن يخاف البعد والحجاب عنه ، ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى ، خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي . وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ لَهُمْ أَلْمَاءٌ <sup>(٣)</sup> ) ولمسوم المؤمنين أيضا حفظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد ، يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة ، فلا جرم يضعف ويؤول على قرب . حتى أن الصبي ربما يرى المزمع يقدم على أخذ الحية ، فينظر إليه ويفترقه ، فيتجرأ على أخذها تقليدا له ، كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه . والمقائد التقليدية ضئيلة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام ، وبالمراطبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار

(١) آل عمران ٢٨ (٢) آل عمران ١٠٢ (٣) فاطر ٢٨

فلذا من ارتقى إلى ذروة المعرفة ، وعرف الله تعالى ، خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج جلب الخوف . كما أن من عرف السبع ، ورأى نفسه واقفا في مخالفه ، لا يحتاج إلى علاج جلب الخوف إلى قلبه ، بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام . خفى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ، ومعرفة الوقوع في مخالفه ، فلا يحتاج إلى حيلة سواء . فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالى ، ويحكم ما يريد ولا يخاف ، قرب الملازمة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سائلة . بل صفته ما ترجمه قوله تعالى . هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . وإن خطر يالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة ، فتأمل أنه لم يعد للطبع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد العاصى بدواعي المعصية حتى يصعب شأه أم أبى ، فإنه مهمل خلق الغفلة ، والشهوة ، والقدرة على قضاء الشهوة ، كان الفعل واقفا بالضرورة فإن كان أبده لأنه عصاه ، فلم حمله على المعصية . هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية ، أو يوقف لاحالة على أول لاعة له من جهة العبد ، هل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال (١) « اَحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ يَدِيهِ وَتَفَعَّيْتُكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَأَسْكَنْتَ جَنَّتَهُ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ يَحْطِيطُونَكَ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَابِحَ فِيهَا يَبْنِيَانِ كُلُّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَبِيًّا فَبَيَّنَّا فَيْكُمُ الْكِتَابَ وَجَدْتَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أُخْطَاكَ قَالَ مُوسَى يَا رَبِّينِ عَامَا قَالَ آدَمُ قَهْلٌ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَقَوَّى قَالَ ثُمَّ قَالَ أَتَقُولُونِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي يَا رَبِّينِ سَنَةً قَالَ صِلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »

لكن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية ، فهو من خصوص المارفين المظلمين على سر القدر . ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع ، فهو من عموم

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بالفاظ أخرى

المؤمنين . ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ، فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة ، وقوع الصبي الضعيف في غالب السبع . والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفتسه ، وذلك بحسب ما يفتق . ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أصيب إلى من لا يعرفه سبي اتفاقا ، وإن أصيب إلى علم الله لم يجوز أن يسمى اتفاقا . والواقع في غالب السبع لو كتلت معرفته لكان لا يخاف السبع ، لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك . فلما يخاف خالق السبع وخالق صفاته . فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الفطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأن الهلاك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب المذاب وأسباب الثواب ، وخلق لكل واحدا هلا ، يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شأوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شأوا أم أبوا . فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة . فهذه مخاوف العارفين بسر القدر . فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار ، فسيبيله أن يعالج نفسه بسباع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين الموردين ، فلا يتمازى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراغة ، والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> فهو سيد الأولين والآخرين <sup>(٢)</sup> ، وكان أشد الناس خوفا ، حتى روي <sup>(٣)</sup> أنه كان يعلى على طفل ، ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم عَذَابُ الْقَبْرِ وَعَذَابُ النَّارِ » وفي رواية ثانية <sup>(٤)</sup> أنه سمع قائلا يقول : هنيئلك

( ١ ) حديث كان سيد الأولين والآخرين : مسلم من حديث أبي هريرة أنسيدا ولأدم ولاقر - الحديث :

( ٢ ) حديث كان أشد الناس خوفا : تقدم قبل هذا خمسة وعشرين حديثا قوله والله أني لأخشاكم ولقوله والله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

( ٣ ) حديث انه كان يعلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم عَذَابُ الْقَبْرِ وَعَذَابُ النَّارِ : الطبراني في الأوسط من حديث انس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصية وقال لو كان عذابا من ضمة القبر لنجاهذا الصبي واختاف في استاده فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب ان صيادقان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أقات أحد من ضمة القبر لأقلت هذا الصبي

( ٤ ) حديث أنه سمع قائلا يقول لعقل مات هنيئلك عصور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك الحديث :

عصفور من مصافير الجنة، فنضب وقال «مَا يُدْرِيكَ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَاللَّهِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَمَا أَدْرَى مَا يُصْنَعُ بِي إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا لَا تَرَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَعُونَ مِنْهُمْ» وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة<sup>(١)</sup> عثمان بن مظعون، وكان من المهاجرين الأولين، لما قالت أم سلمة هنيئًا لك الجنة. فكانت تقول أم سلمة بمثل ذلك والله لا أذكرى أحدا بعد عثمان

<sup>١</sup> وقال محمد بن خولة الحنفية: والله لا أذكرى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أبي الذي ولدني. قال فنارت الشيعة عليه، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه. وروى في حديث آخر، عن<sup>(٢)</sup> رجل من أهل الصفة استشهد، فقالت أمه هنيئًا لك عصفور من مصافير الجنة، هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقتلت في سبيل الله. فقال صلى الله عليه وسلم «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ وَيَنْتَعِمُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ» وفي حديث آخر، أنه<sup>(٣)</sup> دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل، فسمع امرأة تقول: هنيئًا لك الجنة. فقال صلى الله عليه وسلم «مَنْ هَذِهِ الْمَتَابَةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟» فقال للريض: هي أمي يا رسول الله. فقال «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهَا كَانَتْ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ وَيَنْتَعِمُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ؟»

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول<sup>(٤)</sup> «شَيْئَتُنِي هُوَذَا

---

مسلم من حديث عائشة قالت تولى جبي قتلتي طوبى له عصفور من مصافير الجنة - الحديث : وليس فيه فضب وقد تقدم

(١) حديث لما نزل عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئًا لك الجنة - الحديث : البخاري من حديث أم الأملاء الأنصارية وهي قالت للرحمة الله عليك أبا السائب فتشاهدني عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث : يورود أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد. ولم أجده فيه ذكر أم سلمة

(٢) حديث أن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئًا لك عصفور من مصافير الجنة - الحديث : أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ أن أمه قالت هنيئًا لك يا بني الجنة ورواه البيهقي في الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئًا لك الشهادة وهو عند الترمذي إلا أنه قال أن رجلا قال لما نشر بالجنة وقد تقدم في ذم المال والخلع مع اختلاف

(٣) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئًا لك الجنة - الحديث : تقدم أيضا

(٤) حديث شيبتي هود وأخواتها - الحديث : الترمذي وحنه والحاكم وصحه من حديث ابن عباس وهو في الثنايل من حديث أبي حنيفة وقد تقدم في كتاب السباع

وَأَخَوَاتُهَا سُورَةُ الْوَاقِعَةِ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد ، كقوله تعالى ( أَلَا بُدًّا لِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ <sup>(١)</sup> ) ( أَلَا بُدًّا لِنُجُودِ <sup>(٢)</sup> ) ( أَلَا بُدًّا لِمَلَكٍ مِّنْ سَمَاءٍ مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ <sup>(٣)</sup> ) مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها

وفي سورة الواقعة ( لَيْسَ لَوْ قَتَبْنَا كَذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ <sup>(٤)</sup> ) أى جف للقلم بما هو كائن ، وتمت السابقة ، حتى نزلت الواقعة ، إما خافضة قوما كانوا صرفوعين في الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا غفوضين في الدنيا

وفي سورة التكاوير أحوال يوم القيامة وانكشاف الغلظة ، وهو قوله تعالى ( وَإِذَا الْجُحُومُ سُعِرَتْ <sup>(٥)</sup> ) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ قِيلَتْ فَسَبِّحْ مَا أُخْضِرَتْ <sup>(٦)</sup> )

وفي عم يتساءلون ( يَوْمَ يَنْظُرُ الْمُرءَاةَ مَا قَدَّمْت يَدَاهُ <sup>(٧)</sup> ) الآية ، وقوله تعالى ( لَا يَتَسَاءَلُونَ إِلَّا مَن أَدْنَى لَهُ الرُّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا <sup>(٨)</sup> )

والقرءان من أوله إلى آخره غافول لمن قرأه بتدبر . ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى ( وَإِنِّي لَنَفَارٍ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى <sup>(٩)</sup> ) لكان كافيا ، إذ على المنفردة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه قوله تعالى ( فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَتَنَّى أَن يَكُونَ مِنَ الْغَالِبِينَ <sup>(١٠)</sup> ) وقوله تعالى ( لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ <sup>(١١)</sup> ) وقوله تعالى ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ تَغْلَانِ <sup>(١٢)</sup> ) وقوله عز وجل ( فَأَمِيرًا مَّكْرَ اللَّهِ <sup>(١٣)</sup> ) الآية وقوله ( وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْءَانَ مِنِّي عَلَيْهِ إِن أَخَذَهُ أُلِيمٌ شَدِيدٌ <sup>(١٤)</sup> ) وقوله تعالى ( يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا <sup>(١٥)</sup> ) الآية وقوله تعالى ( وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا <sup>(١٦)</sup> ) الآية وقوله ( لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ <sup>(١٧)</sup> ) الآية وقوله ( قَن يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ <sup>(١٨)</sup> ) الآية وقوله تعالى ( وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ قَبْلِ <sup>(١٩)</sup> )

(١) هود : ٦٠ (٢) هود : ٦٨ (٣) هود : ٩٥ (٤) الواقعة : ٣٠ (٥) التكاوير : ٩٢ - ٩٤  
(٦) النبأ : ٤٠ (٧) النبأ : ٣٨ (٨) طه : ٨٢ (٩) القصص : ٦٧ (١٠) الأحزاب : ٨ (١١) الرحمن : ٣١  
(١٢) الأعراف : ٩٩ (١٣) هود : ١٠٣ (١٤) صريم : ٨٥ (١٥) صريم : ٧١ (١٦) فقلت : ٤٠  
(١٧) النبأ : ٢٠ (١٨) الزلزال : ٧ (١٩) القرآن : ٢٣

آية ، وكذلك قوله تعالى (وَأَلْقِمْ إِنْ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ<sup>(٢٠)</sup>) إلى آخر السورة ، فهذه أربعة شروط للخلاص من الحشران

وإنما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم ، لأنهم لم يأمروا بمكر الله تعالى ، ولا يأمروا بمكر الله إلا القوم الخاسرون ، حتى روي<sup>(٢١)</sup> أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمتكما ؟ فقالا : ومن يأمروا بمكر ! وكأنهما إذ علما أن الله هو علام النيوب ، وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمرا أن يكون قوله قد أمتكما ابتلاء وامتحانا لهما ، ومكرا بهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتا من المكر ، وما وقيا بقولهما

كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق ، قال حسبي الله . وكانت هذه من الدعوات العظام ، فامتحن وعروض يجبريل في الهواء ، حتى قال ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله . فأخبر الله تعالى عنه فقال (وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى<sup>(٢٢)</sup>) أي بموجب قوله حسبي الله

ويمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال ( إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَبْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى<sup>(٢٣)</sup>) ومع هذا لما ألقى السحرة سحرم أوجس موسى في نفسه خيفة ، إذ لم يأمروا بمكر الله ، والناس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل ( لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى<sup>(٢٤)</sup>)

ولما صنعت شوكة المسلمين<sup>(٢٥)</sup> يوم بدر ، قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ وَجْهٌ إِلَّا أَرْضٌ أَخَذَ يَمِينُكَ » فقال أبو بكر رضي الله عنه : دع عنك مناشدتك ربك ، فإنه وافك بما وعدك . فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعده الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله ، وهو أتم

(١) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيان . الحديث : ابن شاهين في شرح السنن حديث عمرو روي أنه في مجلس من أمالي أبي سعيد النخاش بسند ضعيف  
(٢) حديث قال يوم بدر اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق علي وجه الأرض أحد يبعدك : البخاري من حديث ابن عباس يلقط اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم = الحديث :

لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومساى صفاته التي يبعث من بعض ما يصدر عنها بالمكر . وما لأحد من البشر الوقوف على كنهه صفات الله تعالى . ومن عرف حقيقة المعرفة ، وقصور معرفته عن الإحاطة بكنهه الأمور ، عظم خوفه لإعالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له ( أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ <sup>(١)</sup> ) وقال ( إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَلَا تَزِمْ عِزَادَكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ <sup>(٢)</sup> ) الآية ، فوض الأمر إلى المشيئة ، وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء ، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المقولات والمألوفات ، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ، ولا حدس ؛ ولا حسابان ، فضلا عن التحقيق والاستيقان

وهذا هو الذي قطع قلوب المارقين ، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بعيشة من لا يبالى بك إن أهلكك ، فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ، ولم يزل في الدنيا يعضهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يجله المقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول ( وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكُنْتُمْ أَكْثَرًا لَئِنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْخَبَرِ لَأَسْمَعَنَّ <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عِنْدَ عَيْنَيْهِ ) الآية

فكيف لا يخاف ما حق من القول في الآزل ، ولا يطمع في تداركه . ولو كان الأمر آتفا لكانت الأملح تمتد إلى حبة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه ، واستقراره خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح . فن يستر له أسباب الشر ، ويحل بينه وبين أسباب الخير ، وأحكمت علاقته من الدنيا ، فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة . إذ كل مبسر لما خلق له . وإن كانت الخيرات كلها مبصرة ، والقلب بالكلية من الدنيا منقطعا ، ويظايره وباطنه على الله مقبلا ، كان هذا يقتضى تحقيق الخوف ، لو كان الدوام على ذلك موقوف به . ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران

(١) لآئمة : ١١٦ ، (٢) لآئمة : ١١٨ ، (٣) السجدة : ١٣ ، (٤) هود : ٩١٩

فلنخوف إشعالا ، ولا يمكنها من الانطفاء . وكيف يؤمن تنفير الحال وقلب المؤمن بين أصميين  
من أصابع الرحمن ، وأن القلب أشد تقبلا من القدر في غليانها . وقد قال مقلب القلوب عز وجل  
( إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ خَيْرٌ مِّمَّا يُؤْمِنُونَ <sup>(١)</sup> )

فأجهل الناس من آمنه وهو ينادى بالتعذير من الأمن . ولولا أن الله لطيف بعباده  
العارفين ، إذ روح قلوبهم بروح الإرجاء ، لاحترفت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء  
رحمة علواص الله ، وأسباب النفلة رحمة على عوام الخلق من وجهه ، إذ لو انكشف النطاء  
لرهقت النفوس ، وتقطعت القلوب ، من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين :  
لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة ، فأت ، لم أقطع له بالتوحيد  
لأني لأدري ما ظن له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار ، والموت  
على الإسلام عند باب الحجرة ؛ لاخترت الموت على الإسلام ، لأني لأدري ما يمرض لقلبي  
بين باب الحجرة وباب الدار .

وكان أبو الدرداء يخلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان  
سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة ، وعند كل حركة . وهم الذين  
وصفهم الله تعالى إذ قال ( وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ <sup>(٢)</sup> )

ولما احتضر سفيان جمل يبيكي ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء ، فإن عفو الله  
أعظم من ذنوبك . فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن  
أتى الله بأمثال الجبال من الخطايا

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرني الوفاة ، فاقعد  
عند رأسي ، فإن رأيتني مت على التوحيد ، فخذ جميع ما أملكه ، فاشترى به لوزا وستكرا ،  
واشتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت . وإن مت على غير التوحيد . فأعلم  
الناس بذلك حتى لا يتروا بشهود جنازتي ، ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة ، لئلا  
يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة . فرأى علامة التوحيد  
عند موته ، فاشترى السكر واللوز وفرقه



وكان سهل يقول : المرید يخاف أن يتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر  
وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد كأن في وسطى زائرا ، أخاف أن يذهب بي  
إلى البيعة ، ويبت النار ، حتى أدخل المسجد ، فينقطع عني الزائر ، فهذا لي في كل يوم خمس مرات  
وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامشر الحواريين ، أتم تخافون بالمعاصي  
ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروي في أخبار الأنبياء ، أن نبيا شكأ إلى الله تعالى  
الجوع ، والتقل ، والعري سنين . وكان لباسه الصوف . فأوحى الله تعالى إليه : عبي ، أما  
رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي ، حتى تسألني الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضه على رأسه  
وقال : بلى قد رضيت يارب ، فاعصني من الكفر

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة  
فكيف لا يخافه الضعفاء !

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والتناق ، والكبر ، وجملة من  
الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من التناق ، حتى قال الحسن : لو أعلم أني  
بريء من التناق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس . وما عتوا به التناق الذي هو عند  
أصل الإيمان ، بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان ، فيكون مسلما متافقا ، وله علامات  
كثيرة . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مَنَّاقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلَّى  
وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ التَّنَاقِ حَتَّى يَدْعَوْهَا  
مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وفي لفظه  
آخر « وَإِذَا عَاهَدَ خَدَرَ »

وقد فسر الصحابة والتابعون التناق بتفسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال  
الحسن : إن من التناق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف  
المدخل والمخرج . ومن الذي يخلو عن هذه الماني ؟ بل صارت هذه الأمور مألفة بين

( ١ ) حديث أربع من كن فيه فهو منافق - الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر  
وقد تقدم في قواعد العقائد

الناس ضئادة ، وليس كونها منكرا بالكيفية ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ؟ حتى قال <sup>(١)</sup> حذيفة رضي الله عنه . إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا ، إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات . وكان <sup>(٢)</sup> أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نمدحها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكباثر . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله ، وأن تحب على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل : من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك وقال <sup>(٣)</sup> رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تسكمتا فيهم . فقال كنا نمد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي أنه <sup>(٤)</sup> سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا ، أكنت تتكلم بما تسكمت به ؟ قال لا . قال كنا نمد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد من ذلك ما روي <sup>(٥)</sup> أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه . فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه . فقال تسكلموا فيما كنتم تقولون . فسكتوا . فقال كنا نمد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول إنه يأتي على القلب ساعة يتملأ بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبره ، ويأتي عليه ساعة

( ١ ) حديث حذيفة أن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا

الحديث : أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد

( ٢ ) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر

الحديث : البخاري من حديث أنس وأحمد والبراء من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم

من حديث حذيفة بن قيس وصح استناده وتقدم في التوبة

( ٣ ) حديث قال رجل لابن عمر إذا تدخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون - الحديث : رواه أحمد

والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد

( ٤ ) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا - الحديث :

تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج

( ٥ ) حديث أن نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا

الحديث : لم أجد له أصلا

يحتل به بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مفرز إبره  
 فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمور تنقصه ، منها  
 البدع ، ومنها المعاصي ، ومنها النفاق . ومتى يغلو العبد عن شيء من جملة ذلك ؟ وإن ظن  
 أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق : وقال بعضهم لبعض  
 العارفين . إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق . فلا يزال  
 العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة ، خائفا منهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم  
 «<sup>(١)</sup> وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ عَاقَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ  
 أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ فَاعِصٌ فِيهِ قَوْلَ الَّذِي تَفْضِي يَدُهُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَشَبٍ  
 وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ » والله المستعان

## بيان

معنى سوء الخاتمة

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فامعنى الخاتمة  
 فاعلم أن سوء الخاتمة على ربتين ، إحداها أعظم من الأخرى  
 فأما الرتبة العظيمة الهائلة ، فإن يئلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله  
 إما الشك ، وإما الجحود ، فنقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على القلب  
 من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والمذاب المخلد  
 والثانية وهي دونه ، أن يئلب على قلبه عند الموت حسب أمر من أمور الدنيا ، وشهوة  
 من شهواتها ، فيمثل ذلك في قلبه ويستترقه ، حتى لا يبق في تلك الحالة متسع لغيره ، فيفتق  
 قبض روحه في تلك الحال ، فيكون استراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا ، وصار فاقوجه  
 إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب نزل  
 العذاب ، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه . فأما المؤمن السليم قلبه عن حسب

( ) حديث العبد المؤمن بين عاقبتين من أجل قدمنى - الحديث : البقي في الشعب من رواية الحسن  
 عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب  
 الزهد بلاناً وذكره صاحب الفردوس ، من حديث جابر وغيره رحمه الله في مسند الفردوس

الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فنقول له النار : جز يا مؤمن ، فإن نورك قد أطفأ لحي  
فيها اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالأمر خطر ، لأن المرء يموت على ما عاش  
عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الثابتة عليه . إذ  
لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح ، وقد بطلت الجوارح بالموت ، فبطلت الأعمال  
فلا مطمع في عمل ، ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك . وعند ذلك تعظم الحسرة  
إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة ، وتأكد  
ذلك بالأعمال الصالحة ، فإنه يحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت . فإن  
كان إيمانه في القوة إلى حد انتقال ، أخرج من النار في زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك ، طال  
مكثته في النار . ولو لم يكن إلا مثقال نجبة ، فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين  
فإن قلت : فاذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقوب موته ، فبالله يؤخر إلى يوم  
القيامة ، ويعمل طول هذه المدة .

فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محبوب عن نور الله تعالى ، وعن نور  
القرآن ونور الإيمان . بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما صحت به الأخبار ، وهو أن<sup>(١)</sup>  
القبر إما حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة .<sup>(٢)</sup> وأنه قد يفتح إلى قبر المذنب  
سبيل باب من الجحيم كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء . إن كان  
قد شقي بسوء الحاتمة . وإنما تختلف أصناف المذاب باختلاف الأوقات . فيكون<sup>(٣)</sup> سؤال  
منكرو ونكير عند الوضع في القبر ،<sup>(٤)</sup> والتمذيب بعده ، ثم<sup>(٥)</sup> المناقشة في الحساب ،<sup>(٦)</sup> والافتضاح

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : الترمذي من حديث أبي سعيد وقال  
غريب وثقه في الأذكار

(٢) حديث أنه يفتح إلى قبر المذنب سبيل باب من الجحيم : لم أجده له أصلاً

(٣) حديث سؤال منكرو ونكير عند الوضع في القبر : تقدم في قواعد العقائد

(٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه

(٥) حديث المناقشة في الحساب : تقدم فيه

(٦) حديث الافتضاح على ملائكة الأشهداء في القيامة : أحمد والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد من اتقى  
من ولده لينضمه في الدنيا فضحه الله على رؤس الأشهاد وفي الصحيحين من حديث ابن عمر  
وأما الكافر وللنافق فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبراني  
والصغير في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض ففوح الحديث أهون منه ففوح  
الأخرة وهو حديث طويل منكر

على ملائكة من الشهداء في القيامة ، ثم بعد ذلك <sup>(١)</sup> خطر الصراط ، <sup>(٢)</sup> وهو أن الزبانية إلى آخر ماوردت به الأخبار . فلا يزال الشقي مترددا في جميع أحواله بين أصناف العذاب ، وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتممه الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح . ويدهها ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فتجتمع الأجزاء المتفرقة ، وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة ، إما في حواصل طيور . خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت واليها بالله شقية فإن قلت : فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها . أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين . أحدهما : يتصور مع تمام الورع والزهدي ، وتتمام الصالح في الأعمال ، كما يتدفع الزاهد : فإن غابته خطر جدا ، وإن كانت أعماله سالحة . ولست أعني مذهبا فأقول إنه بدعة فإن كان ذلك يطول القول فيه . بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله ، وصفاته ، وأفعاله خلاف الحق ، فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ، ومقوله ، ونظره الذي به يجادل الخصم ، وعليه يصول ، وبه يفتر ، وإما أخذ بالتقليد بمن هذا حاله . فإذا قرب الموت ، وظهرت له ناصية ملك الموت ، واضطرب القلب بما فيه ، ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ؛ إذ حال الموت حال كشف النطاء ، ومبادئ سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور . فهما بطل عنده ما كان اعتقده ، وقد كان قاطبا به متيقنا له عند نفسه ، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة ، لانتجابه فيه إلى رأيه الفاسد ، وعقله الناقص . بل ظن أن كل ما اعتقده لأصله ، إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة ، وبين اعتقاده الفاسد ؛ فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته ، أو لشك فيها .

( ١ ) حديث خطر الصراط : شدم في قواعد المائد

( ٢ ) حديث هوان الزبانية : الطبراني من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فاقة حملة الأفراد من أهل الجنة الأوثان والنيران قال صاحب الميزان حديث منكر وروى أبو حنيفة عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معذرا في خزنة جهنم ما بين مكبي أحدهم كائين للشرق والمغرب

فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة ، قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد تخم له بالسوء ، وخرجت روحه على الشرك والعباذ بالله منه . فهو لاء هم الماردون بقوله تعالى ( وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ آلَمٌ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ <sup>(١)</sup> ) ) وبقوله عز وجل ( قُلْ هَلْ يُنْزِلُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا <sup>(٢)</sup> ) . وكما أنه قد ينكشف في النوم ماسيكون في المستقبل ، وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب ، فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور . إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى المكشوف ، فيطالع مافي اللوح المحفوظ ، لتكشف له الأمور على ما هي عليه . فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ، وتكون الكشف سبب للشك في بقية الاعتقادات

وكل من اعتقد في الله تعالى ، وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به ، إمامة تقليدا ؛ وإنما نظرا بالرأى والمقول ، فهو في هذا الخطر . والزهد والصلاح لا يمكن لدفع هذا الخطر . بل لا ينبغي منه إلا الاعتقاد الحق . والبله عمز عن هذا الخطر ، أضي الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماننا بمجلا راسخا ، كالأعراب ، والسوادية ، وسائر الدوام ، الذين لم يحوضوا في البحث والنظر ، ولم يشرعوا في الكلام استقلاللا ، ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أو يلهم المختلفة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُتْلَةُ » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والحوض في الكلام ، والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جيما ، وبكل ماجاء من الظواهر ، مع اعتقاده نقي التشبيه : ومنهم عن الحوض في التأويل ، لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كؤودة : ومسالكه وعرة ، والمقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الديناعجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما أتى إليها في مبدأ النشأة آفة ، وبه متعلقة ، والتعصبات النائرة بين الخلق مسامير مؤكدة لاعمائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المسلمين في أول الأمر . ثم الطباع بحب الديناء شفوفة ، وعلمها

( ١ ) حديث أكثر أهل الجنة الله : البرار من حديث أنس وقد تقدم

( ٢ ) الزمر : ٤٧ ( ٣ ) الكهف : ١٠٣

مقبلة ، وشهوات الدنيا بخفتها آخذة ، وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمقول ، مع تفاوت الناس في قرائحهم ، واختلافهم في طبائعهم ، وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ، انطلقت ألسنتهم عابثة لكل واحد منهم ، وتعلق ذلك بقلوب المصنفين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم ، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم . فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ، ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم

ولسكن الآن قد استرخى النان ، وفشا الهذيان . ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يستقد أن ذلك علم واستيقان ، وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ماوقع به من حذس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ، ولثمان نباء بعد حين . وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف النطاء :

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالتك الالهي فأغررت بها وعند صفو الالهي يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه ، وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر . ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج ، يرميه موج إلى موج ، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك ببيد ، والهلاك عليه أغلب وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين يبضاعة عقولهم ، إما مع الأدلة التي حرروها في تمصباتهم ، أو دون الأدلة ، فإنه إن كان شاك فيه فهو فاسدالدين ، وإن كان واثقا به فهو آمن من مكر الله . ممتربسقه الناقص ، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المقول ، إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وأنى يتيسر ! وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام ، أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله ، فلم يخوضوا في هذا الفضول . فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة

وأما السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوي حب الدنيا ، فيصير يبحث لا يبق في القلب

موضع حب الله تعالى ، إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس ، والدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهالك في اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويقسو ويسود ، وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يظلم ، مافيه من نور الإيعان على ضعفه ، حتى يصير طبعاً وريناً . فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ، أغنى حب الله ضعفاً ، لما يبدو من استئثار فراق الدنيا ، وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستئثار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت ، وكراهة ذلك من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب . كما أن الذي يحب ولده حباً ضعيفاً ، إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرمها ، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً . فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة ، فقد ختم له بالسوء ، وهلك هلاكاً مؤبداً والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بأسبابها ، مع ضعف الإيمان ، الموجب لضعف حب الله تعالى . فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا ، وإن كان يحب الدنيا أيضاً ، فهو أبعد عن هذا الخطر

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق ، وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى . إذ لا يحبه إلا من عرفه . ولهذا قال تعالى ( قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّسُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ <sup>(١)</sup> )

فإذا كل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بآله ، وظهور بغض فعل الله بعباده ، في تفرقه بينهم وبين أهلهم والمساكين عابه ، فيكون موته قد واصل ما أبغضه وفراقاً لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المفضل الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال وأما الذي يتوفى على الحب ، فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشاق إلى مولاه ، الذي تحمل مشاق الأعمال ووعاء الأسفار طبعاً في لقاءه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح



والسرور بمجرد القدوم ، فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبنائع الإنعام  
وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى ، وليست مقتضية للتخلود في النار ، فلها أيضا  
سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت  
للمعاصي . وذلك لأن مقارنة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب ، بكثرة  
الإلغف والمعادة . وجميع ما ألغف الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان  
ميله الأكثر إلى الطاعات ، كان أكثر ما يخضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى  
المعاصي ، غلب ذكرها على قلبه عند الموت ، فرجما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات  
الدنيا ، ومغصبة من المعاصي ، فيتقيد بها قلبه ، ويصير محجوبا عن الله تعالى ، فالذي لا يقارف  
الذنب إلا الفشة بعد الفشة ، فهو أبعد عن هذا الخطر . والذي لم يقارف ذنبا أصلا ، فهو  
ببعد جدا عن هذا الخطر . والذي غلبت عليه المعاصي ، وكانت أكثر من طاعاته ، وقلبه بها  
أفرح منه بالطاعات ، فهذا الخطر عظيم في حقه جدا

ونعرف هذا بمثل . وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال  
التي عهد لها طول عمره ، حتى أنه لا يرى إلا ما عاين من مشاهداته في اليقظة ، وحتى أن الراحل  
الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ، ولو بقي كذلك مدة لما رأى  
عند الاحتلام صورة الواقع . ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه ، يرى من الأحوال  
المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة . والتاجر يرى من  
الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقير ، لأنه إنما يظهر في حالة  
النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلغف ، أو بسبب آخر من الأسباب

والموت شبه النوم ، ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الفشة  
قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المألوف ، وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة  
لحصول ذكره في القلب طول الإلغف . فطول الإلغف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك  
تخالف أيضا منامات الصالحين ومنامات الفساق . فتكون غلبة الإلغف سبب لأن تتشكل صورة  
فاحشة في قلبه وتعمل إليها نفسه ، فرجما تقبض عليها روحه ، فيكون ذلك سبب سوء خباثته

وإن كان أصل الإيمان بانيا بحيث يرجى له الخلاص منها  
وكان أن ما يخطر في البقطة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى، فكذلك آحاد المنامات  
لها أسباب عند الله تعالى، نعرف بعضها ولا نعرف بعضها. كما أننا نعلم أن الخطر ينتقل من الشيء  
إلى ما يناسبه إما بالمشابهة، وإما بالمضادة، وإما بالمقارنة، بأن يكون قد ورد على الحس منه  
أما بالمشابهة: فبأن ينظر إلى جيل فيتذكر جيلاً آخر

وأما بالمضادة: فبأن ينظر إلى جيل فيتذكر قبلاً ويتأمل في شدة التفاوت بينهما  
وأما بالمقارنة: فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان، فيتذكر ذلك الإنسان  
وقد ينتقل الخطر من شيء إلى شيء، ولا يدري وجه مناسبته له. وإنما يكون ذلك بواسطة  
واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني،  
ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة،  
وبين الثاني والأول مناسبة. فكذلك لا تنقلات الخواطر في المنامات أسباب من

هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت

فلي هذا، واللم عند الله، من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فلو أنك تراه يوماً إلى  
رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها، ويبل أصبعه التي لها عادة بالسكسبان، ويأخذ الإزار  
من فوقه، ويقدره ويشبهه وكأنه يجماعلي تفصيله، ثم يمديه إلى المقرض

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن الماضى والشهوات، فلا طريق له  
إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها؛ وفي قمع الشهوات عن القلب. فهذا هو القدر  
الذى يدخل تحت الاختيار، ويكون ملول المواجهة على الخير، وتخليه الفكر عن الشر، عدة  
وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه  
ولذلك نقل عن يقال أنه كان يلقي عند الموت كلتي الشهادة فيقول: خمسة، ستة، أربعة

فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال إلفه له قبل الموت

وقال بعض المارفين من السلف، العرش جوهرة تتلأ نورا، فلا يكون المبد على  
حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها، فإذا كان في سكرات الموت  
كشف له صورته من العرش، فرجما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم

القيامه، فيرى أحوال نفسه، فيأخذ من الحياء والخوف، مايجل عن الوصف . وماذكره صحيح  
وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك . فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من  
مطالعة اللوح المحفوظ ، وهي جزء من أجزاء النبوة

فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاخ الخواطر ، ومقلب القلوب هو الله  
والانفاقات المنتزعية لسوء الخواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً ، وإن كان لطول  
الإلف فيه تأثير . فهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن  
لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين ، وأحوال الطاعات والمعادات ، عسر عليه ذلك ، وإن  
كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكليّة  
تحت القنبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة ، حتى سمعت  
الشيخ أبا علي الفارسي رحمه الله عليه ، يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه ، وأن  
لا يكون في قلبه إنكار لكل مايقوله ، ولا في لسانه مجادلة عليه ، فقال : حكيت لشيخ  
أبي القاسم الكرماني مناماً لي ، قلت رأيتك قلت لي كذا ، فقلت لم ذاك ؟ قال فخرجني  
شبهراً ولم يكلمني وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة ، وإنكار ماأقوله لك ، لما  
جری ذلك على اسنانك في النوم . وهو كما قال . إذ فلما يرى الإنسان في منامه خلاف ماينبغي  
في اليقظة على قلبه . فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر  
الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة

وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير حجب  
وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية . فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير ،  
فلا بد وأن يئلب عليك من الخوف ماغلب على العارفين ، حتى يطول بسببه بكاؤك وبناحتك  
ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكى من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ، ليكون  
ذلك أحد الأسباب المبيجة لنار الخوف من قلبك

وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائلة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج  
روح ، وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً ، ولذلك كان مطرف بن  
عبدالله يقول ، إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا .

ولذلك قال حامد اللغاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدها على الخير والإسلام  
تعجبت الملائكة منه ، وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا ؟ وكان الثوري يوما  
يكي ، فقبل له علام تبكي ؟ فقال بكينا على الذنوب زمانا ، فالآن نبكي على الإسلام  
وبالجمل من وقعت سفينة في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت  
الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك . وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة  
وأمواج الخواطر أعظم التغاطم من أمواج البحر . وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء  
يخطر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ  
يَمَلُّ أَهْلَ الْجَنَّةِ تَحْسِينَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى يَنْتَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا فَوَاقُ نَافَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ  
بِمَا سَبَقَ بِهِ الْكِتَابُ » ، ولا ينفع فواق النافاة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر  
التي تضطرب وتخطر خطور البرق المخاطف

وقال سهل : رأيت كائى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثة نبي ، فسألهم ما خوف ما كنتم  
تخافون في الدنيا ؟ قالوا سوء النجاة . ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة منبؤا  
عليها ، وكانت موت الفجأة مكروها

أما الموت فجأة ، فلا ته رجما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب ، والقلب  
لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكرامة ، أو بنور المعرفة

وأما الشهادة فلائها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله  
تعالى ، وخرج حب الدنيا ، والأهل ، والمال ، والولد ، وجميع الشهوات عن القلب ، إذ  
لا يهجم على صف القتال موطن نفسه على الموت إلا حب الله ، وطلبا لمرضاته ، وبأنها دنياه  
بآخرته ، وراضيا بالبيع الذي بايحه الله به ، إذ قال تعالى ( إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ  
أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةُ <sup>(٢)</sup> ) والبائع راغب عن المبيع لاعالة ، ويخرج حبه عن  
القلب ، ويجرد حب العوض المطلوب في قلبه . ومثل هذه الحالة قد ينقلب على القلب في  
بعض الأحوال ، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصفت القتال سبب لزهوق الروح

(١) حديث ابن الزجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة - الحديث . عدم

(٢) التوبة : ١١١

على مثل هذه الحالة . هذا <sup>(١)</sup> فيمن ليس يقصد التوبة ، والنسيئة ، وحسن الصيت بالشجاعة ، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة ، فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار وإذ إن لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو غوف فيها ، فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهداً ، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك

وإياك أن تسوّف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك . فراقب قلبك في كل تطرife ، وإياك أن تهمل لحظة ، فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك . هذا ما دلت في يقظتك . وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن ينلبيك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ، لست أقول على لسانك ، فإن حركة اللسان مجردة عن حقيقة الأمر واعلم قطعاً أنه لا ينلبي عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه ، وأنه لا ينلبي في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ، ولا ينعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك . والموت والبعث شبيه النوم واليقظة . فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه . وتحقيق قطعاً وبقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك ، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك . وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب ، إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بين اليقين ونور البصيرة

وراقب أنفسك ولحظاتك ، وإياك أن تنفل عن الله طرفة عين ، فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل ! والناس كلهم هلكت إلا المألون ، والمألون

( ١ ) حديث القتل في الحرب إذا كان قصده التوبة والنسيئة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري أن رجلاً قال يا رسول الله الرجل يقاتل لدفنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حية ويقاتل رياء وفي رواية يقاتل غضباً

كلهم هلكت إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكت إلا الخاصون ، والخاصون على خطر عظيم  
واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم ،  
وملبس ، ومسكن ، والباقي كله فضول . والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ، ويسد رمقك  
فينبئ أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك  
في قضاء حاجتك ، إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ، فهما ضرورتان في  
الجبلة . وكما لا يكون قضاء الحاجة من هتك التي يشتغل بها قلبك ، فلا ينبغي أن يكون تناول  
الطعام من هتك . واعلم أنه إن كان هتك ما يدخل بطنك ، فقيمته ما يخرج من بطنك  
وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى ، كفصدك من قضاء حاجتك  
فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور من ما كوكلك : في وقته ، وقدره ، وجنسه

أما الوقت : فافقه أن يكتفي في اليوم والليلة مرة واحدة ، فيواظب على الصوم  
وأما قدره : فأن لا يزيد على ثلث البطن . وأما جنسه : فأن لا يطلب لذائد الأطعمة  
بل يقنع بما يتفق . فإن قدرت على هذه الثلاث ، وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ  
قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات ، وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله ، فإن الحلال يمز  
ولا يبق بجميع الشهوات

وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد ، وستر العورة . فكل ما دفع البرد عن  
رأسك ، ولو قلنسوة بدانت ، فطلبك غيره فضول منك ، يضع فيه زمانك ، ويأزمك  
الشغل الدائم ، والنساء القام في تحصيله بالكسب مرة ، والطمع أخرى ، من الحرام والشبهة  
وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك ، فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكنف به  
في خساسة قدره وجنسه ، لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يعلا بطنه إلا التراب  
وكذلك المسكن ، إن اكتفيت بقصوده كفنتك السماء سقفا . والأرض مستقرا . فإن  
غلبك حر أو برد فعليك بالساد . فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك ، وانصرف إليه  
أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك . ثم إن تيسر لك قصصت من الحائط سوى كونه حائلا  
ينيك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للامطار ، فأخذت ترفع الحيطان ،  
وترين السقوف ، فقد تورطت في مهواة يمدريك منها

وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتضت عليها تفرغت لله ، وتقدرت على التزود  
لآخرتك ، والاستعداد لخاتمتك . وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشبعت  
همومك ، ولم يبال الله في أي راد أهلكتك . فاقبل هذه النصيحة بمن هو أحرص إلى النصيحة منك  
واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا المر القصير . فإذا دفته يوما يوم  
في تسويقك أو غفلتك ، اختلطت نجاة في غير وقت إرادتك ، ولم تفارقك حسرتك  
وندامتك . فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك ، إذ لم يكن فينا  
وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخوفك ، فإننا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما رجو  
أن يزيل بعض التساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ،  
وعلمهم ومكانهم عند الله تعالى ، لم يكن دون عقلك ، وعملك ، ومكانك . فتأمل مع كلال  
بصيرتك ، وعش عين قلبك في أحوالهم ، لم أشد بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء  
حتى كان بعضهم يصمق ، وبعضهم يدهش ، وبعضهم يسقط منشيا عليه ، وبعضهم يخرميتا  
إلى الأرض . ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك ، فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة وأشد  
نسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ،  
وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون

## بيان

أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روى عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت  
ريح عاصفة ، يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج ، كل ذلك خوفا من  
عذاب الله<sup>(١)</sup> وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصمق وقال تعالى ( وَخَرَّ مُوسَى صُنْعًا<sup>(٢)</sup> )

( ١ ) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه - الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

( ٢ ) حديث قرأ في سورة الواقعة فصمق للمروفي في إروى من هذه القصة أنه رأى عنده إن الدنيا أنسكلا وجعيا  
وطعاما ذافضة وعذابا ألينا فصمق كالأرواء ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلًا وهكذا ذكره  
للمنف على الصواب في كتاب الجائع كاتخدم

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> سورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصق.  
 وروى أنه عليه السلام <sup>(٢)</sup> كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل  
 وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَا جَاءَنِي جِبْرِيلُ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ يَرْعُدُ قَرَقًا مِنْ الْجَبَّارِ »  
 وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طلق جبريل وميكائيل عليهما السلام يكيان فأوحى  
 الله إليهما ما لسا تكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا يارب ما نأمن منك . فقال الله تعالى :  
 ههكذا كونا ، لا تأمنا منكرى . وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار ملأت  
 أقدمة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت  
 وعن <sup>(٤)</sup> أنس أنه عليه السلام سأل جبريل « مَا لِي لَا أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ ؟ »  
 فقال جبريل . ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . ويقال إن الله تعالى ملائكة لم يضحك  
 أحد منهم منذ خلقت النار ، غافقة أن ينضب الله عليهم فيمذهبهم بها  
 وقال <sup>(٥)</sup> ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل  
 بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل . فقال « يَا ابْنَ تَمَرٍ مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ ؟ »

( ١ ) حديث أخرى سورة جبريل بالأبطح صنف : البراز من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله  
 عليه وسلم جبريل أن يراه في سورة فقال ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل الشرق فجعل  
 يرتفع ويرفد آه صق ورواه ابن المبارك عن رواة الحسن مهمل لفظ فنشئ عليه وفي الصحيحين  
 عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن عباس . وروى جبريل له سبعة جناح  
 ( ٢ ) حديث كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل : أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي  
 من حديث عبد الله بن الشحر وتقدم في كتاب الجمع

( ٣ ) حديث ما جاءني جبريل قط إلا وهو ترعد فرائسه من الجبار : لم أجدها إلا في وروى أبو الشيخ في كتاب  
 العظمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى  
 ترعد فرائسه فرقا من عذاب الله - الحديث : وفيه زميل بن حمال الخفي يحتاج إلى مرفقه  
 ( ٤ ) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل ما لي لأرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل  
 منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الحافظين من رواية ثابت عن أنس بسند جيد  
 ورواه ابن شاذان في السنة من حديث ثابت مهمل وورد ذلك أيضا في حق اسرافيل ورواه البيهقي  
 في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحافظين

( ٥ ) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط  
 من التمر ويأكل - الحديث : ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم  
 عن ابن عمر قال البيهقي هذا اسناد مجهول والجراح بن مهنا ضعيف



فقلت يا رسول الله لا أشتهي . فقال : لكنني أشتهي وهذا صبيح رآته لم أذقه . فمأنا ولم أجده . ولو سألت ربّي لأعطاني ملكاً قصيراً وكثري فكيف بك بآبائك عمر إذا بقيت في قويم مخبرون برزقي سنهم وبسببهم في قلوبهم . قال فوالله ما برحنا ولا قنا حتى نزلت ( وَكَأَيِّنْ مِنْ ذَايَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَمَوْ السَّبِيحُ الْعَلِيمُ ) قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنايكم يريد بها حياة فآية فإن الحياة بيد الله ولا لكم ولا كنز ديناراً ولا درهماً ولا أخيراً رزقاً لنبي .

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل ، خوفاً من ربه .

وقال عجلاد : بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً ليرفع رأسه ، حتى نبت المرعى من دموعه ، وحتى غطى رأسه ، فنودي بإدريس أنت قطعتم ، أم ظمان نفسي ، أم عار فكس ؟ فنحب نوبة حاج المود فاحترق من حر خوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمنفرة . فقال يا رب اجعل خطيئتي في كفي . فصارت خطيئته في كفه مكتوبة . فكان لا يسطع كفه لطعام ولا شراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته . قال وكان يؤذي بالقدح ثلثه ، فإذا تناوله أبصر خطيئته ، فإيضا على شفته حتى يفيض القدح من دموعه .

ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات ، حياة من الله من وجل . وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحها . وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلهي روي . سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليعاؤوا خطيئتي فكلمهم عليك يذلني . فيؤسوا للقائطين من رحمتك .

وقال الفضيل : بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم ، فومب صاروا واضحا يده على رأسه حتى لحق بالجلال فاجتمعت إليه السباع ، فقال ارجعوا الأريدم . إنما أريد كل بكاؤه على خطيئته ، فلا يستقبلني إلا بالبكاء . ومن لم يكن ذا خطيئة فابصم بدماء داود الخطاء . وكان يصاب

في كثرة البكاء فيقول : دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء ، قبل تخريق العظام واشتعال  
الحشا ، وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يمعنون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون  
وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته . فقال الهى مح صوقي  
في صفاء أصوات الصديقين . وروي أنه عليه السلام لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك  
صاق ذرعه ، واشتد نغمه ، فقال يارب أما ترحم بكائي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نسيت  
ذلك وذكرت بكاءك ! فقال : الهى وسيدى ، كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف  
الماء الجاري من جريه ، وسكن هبوب الريح ، وأطاني الطير على رأسى ، وأنست الوحوش  
إلى عرابى ! الهى وسيدى ، فاهذه الوحشة التى بينى وبينك ! فأوحى الله تعالى إليه : يا داود  
ذلك أنس الطاعة ، وهذه وحشة المعصية . يا داود ، آدم خلقت من خلقى ، خلقتة ييدى ،  
ونفخت فيه من روحي ، وأسجدت له ملائكتى ، وألبسته ثوب كرامتى ، وتوجته بتاج  
وقلوى . وشكالى الوحدة فزوجته حواء أمتى ، وأسكنته جنتى ، عصائى ، فطرده من  
جوارى عريانا ذليلا . يا داود اسمع منى ، والحق أقول ، أعلمتنا فأعلمناك ، وسألنا فأعطيناك  
ومعطينا فأعلمناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك

وقال يحيى بن أبى كثير . بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك  
سبعا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يقرب النساء . فإذا كان قبل ذلك يوم  
أخرج له المنبر إلى البرية . فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من  
النياض ، والآكام ، والجبال ، والبرارى ، والصوامع ، والبيع ، فنادى فيها . ألا من أراد  
أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت . قال فتأتى الوحوش من البرارى والآكام ، وتأتى السباع  
من النياض ، وتأتى الهوام من الجبال ، وتأتى الطير من الأوكار ، وتأتى المذارى من خدورهن  
وتجتمع الناس لذلك اليوم . ويأتى داود حتى يرق المنبر ، ومحيط به بنو إسرائيل ، وكل صنف  
على حدته يحيطون به ، وسليمان عليه السلام قائم على رأسه . فيأخذ فى النساء على ربه ، فيفسجون  
بالسكاه والصراخ ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار ، فتموت الهوام ، وطائفة من الوحوش  
والسباع والناس ، ثم يأخذ فى أهوال القيامة ، وفى النياحة على نفسه ، فيموت من كل نوع  
طائفة . فإذا رأى سليمان كثرة الموتى ، قال يا ابتاه . قد مزقت المستمعين كل ممزق ، وماتت

طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والبهائم ، فيأخذ في الدعاء . فيبنا هو كذلك ،  
إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك ، قال فيخبر داود  
مفشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه ، أتى بسرير فحمله عليه ، ثم أمر مناديا بنادي  
ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحملة ، فإن الذين كانوا معه قد تعلم  
ذكر الجنة والنار . فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتله ذكر النار  
يا من قتله خوف الله . ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ، ودخل بيت عبادته ، وأغلق  
بابه ، ويقول يا لله داود ، أغضبان أنت على داود ؟ ولا يزال يتأجج ربه . فيأتي سليمان ويقعد  
على الباب ، ويستأذن ، ثم يدخل ومعه قرص من شعير ، فيقول يا أباه تقو بهذا على ما تريد  
فيأكل من ذلك القرص ماشاء الله ، ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم

وقال يزيد الرقاشي : خرج داود ذات يوم بالناس بمظهم ويخوفهم . فخرج في أربعين  
ألفا ، فأت منهم ثلاثون ألفا ، وما رجع إلا في عشرة آلاف . قال وكان له جاريتان اتخذهما  
حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب ، فعدتا على صدره وعلى رجليه ، مخافة أن  
تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليا السلام بيت المقدس وهو ابن  
ثمان حجيج ، فنظر إلى عبادم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهدهم قد  
خرجوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل ، وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس . فقال له  
ذلك ، فرجع إلى أبيه . فر بصبيان يلبسون ، فقالوا له يا يحيى هلم بالنللب . فقال إني لم أخلق  
لللب . قال فإني أبيه ، فسلهما أن يدرعاه الشعر ، ففعلوا . فرجع إلى بيت المقدس ، وكان  
يخدمه نهارا ، ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولم أمواد الأرض  
وغيران الشاماب . فخرج أبواه في طلبه ، فأدركاه على بحيرة الأردن ، قد أتق رجليه في الماء  
حتى كاد العطش يذمجه ، وهو يقول وعزتك وجلالك لأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين  
مكاني منك . فسأله أبواه أن يظفر على قرص مسمما من شعير ، ويشرب من ذلك  
الماء ، ففعل وكثر عن يمينه ، فدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام  
يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يمتطي عليه .

فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديه ، وبدأت أضراسه للتاخرين . فقالت له أمه يا بني  
لو أذنت لي أن اتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين ؟ فأذن لها . فعدت إلى  
قطعتي لبود فالصقتهما على خديه ، فكان إذا قام يصلي يبكي ، فإذا استنقعت دموعه  
في القطعتين أتت إليه أمه فمصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال . اللهم  
هذه دموعي ، وهذه أمي ، وأنا عبدك ، وأنت أرحم الراحمين . فقال له زكريا يوما : يا بني ،  
إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقر عيني بك . فقال يحيى . يا أبت . إن جبريل عليه السلام  
أخبرني أن بين الجنة والنار مغارة لا يقطعها إلى كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام . يا بني فابك  
وقال المسيح عليه السلام . معاشر الحواريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان  
الصبر على المشقة ؛ ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم ، إن أكل الشحير والنوم على  
الزبال مع الكلاب في طلب الفردوس قليل

وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يشقى عليه ويسمع اضطراب  
قلبه ميلا في ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له . ربك يقرئك السلام ويقول . هل رأيت خيلا  
يخاف خيله ؟ فيقول يا جبريل ، إنى إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي .

فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام ، فدوتك والتأمل فيها ، فإنهم أعرف خلق الله بالله  
وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى كل عباد الله اللقرين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

## بيان

أحوال الصّحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف

وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لعاثر . ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشرا  
وقال أبو ذر رضي الله عنه . وددت لو أني شجرة تعضد . وكذلك قال طلحة  
وقال عثمان رضي الله عنه . وددت أني إذا مت لم أبعث . وقالت عائشة رضي  
الله عنها : وددت أني صككت نسيما مسلما

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا  
عليه ، فكان ينادي يا أماه . وأخذ يوما تنبئة من الأرض ، فقال . يا ليتني كنت هذه التنبئة ،

بالبقي لم أك شيئا مذكورا ، باليتي كنت نسبيا مذنيا ، باليتي لم تلدني أمي . وكان في وجهه  
 صمروني الله عنه خطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه : من خاف الله لم يشف غبطه  
 ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير مأروون  
 ولما قرأ عمر رضي الله عنه ( إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ <sup>(١)</sup> ) وانتهى إلى قوله تعالى ( وَإِذَا  
 الصُّحُفُ تُشِيرَتْ <sup>(٢)</sup> ) خر منشيا عليه . ومروما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة  
 ( وَالطُّور <sup>(٣)</sup> ) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى ( إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ <sup>(٤)</sup> )  
 نزل عن حماره ، واسند إلى حائط ، ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فرض شهرا يعود  
 الناس ، ولا يدرون ما مره . وقال علي كرم الله وجهه ، وقد سلم من صلاة الفجر ،  
 وقد علاه كآبة وهو يقبل يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم  
 شيئا يشبههم : لقد كانوا يصبحون شعثا ، صفرا ، غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المزمى ،  
 قد بانوا لله سجدا وقيامًا يتلون كتاب الله ، يراوون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا  
 ذكروا الله ، تعادوا كما عمد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم .  
 والله فكأنني بالقوم بأنوا غافلين . ثم قام فآروى بمد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم  
 وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف .  
 وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحنى أهلي ، فأي كآون  
 لمي ، ويحسون مرقى . وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه . فيقول  
 له أهله . ما هذا الذي يتأكد عند الوضوء ؟ فيقول . أتديرون بين يدي من أريد أن أقوم !  
 وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا ، لما نرى  
 من خوفه وجزع . وقرأ مضر القاري ، يوما ( هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ <sup>(٥)</sup> )  
 الآية ، فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لأعصبتك جهدي  
 أبدا ، فأعنى بتوفيقك على طاعتك : وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن  
 لشدة خوفه . ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح صيحة فابقل أياما ، حتى أتى عليه رجل  
 من ختم ، فقرأ عليه ( يَوْمَ تَحْشُرُهُمُ لِمَتِّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَتَسْوِقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا <sup>(٦)</sup> )

(١) التكوير : ١ (٢) التكوير : ١٠ (٣) الطور : ١ (٤) الطور : ٧ (٥) الجاثية : ٢٩ (٦) مريم : ٨٥ ، ٨٦

فقال أنا من اخبرين ولست من الملتزمين أعد عليّ القول أيها القاري.. فأعادها عليه، فشق  
شبهة فلحق بالآخرة، وقرئ عند يحيى البكاء (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُضْعَفُونَ عَلَىٰ رُسُومِهِمْ) (١١) فصاح  
صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة

وقال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت، إذ أنا بجويرة متعبدة، متعلقة بأستار  
الكعبة، وهي تقول: يارب كم شهوة ذهبت لآلتها وبقيت تيماتها! يارب أما كان لك أدب  
وعقوبة إلا النار! وتبكي. فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر. قال مالك: فلما رأيت ذلك  
وضعت يدي على رأسي صارخاً أقول: شككت مالكا أمه

وروي أن الفضيل روي يوم عرفة والناس يدعون، وهو يبكي بكاء الشكلى المحترقة  
حتى إذا كادت الشمس تترب، قبض على لحيته، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأنا  
منك وإن غفرت. ثم انقلب مع الناس. وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين  
فقال: قلوبهم بالخوف قرحة، وأعينهم باكية، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا،  
والقبر أمامنا، والقيامة موعدا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله ربنا موقفنا

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه، وهو جالس مع قوم في مجلس، فقال له  
الحسن: يا فتى، هل مررت بالصراط؟ قال لا. قال فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟  
قال لا. قال: فما هذا الضحك؟ قال فأرؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه، فيقال له لو أعلمت؟  
فيقول: تلك جلسة الأمن، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى

وقال عمر بن عبد العزيز: إنما جعل الله هذه النفقة في قلوب المباد رحمة، كيلا  
يعوتوا من خشية الله تعالى. وقال مالك بن دينار: لقد هممت إذا أنا مت أمرم أن  
يقيدوني وينقلوني، ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده

وقال حاتم الأصم: لا تنتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، وقد اتى آدم عليه  
السلام فيها مائتي. ولا تنتر بكثرة العباد. فإن ابليس بعد ما ولد تبعده لقي مائتي ولا تنتر  
بكثرة العلم، فإن بلام كان يحسن اسم الله الأعظم، فانظر ماذا لقي، ولا تنتر برؤية الصالحين

فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع ببقائه فأقربه وأعداؤه وقال السري: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات، مخافة أن يكون قد اسود وجهي وقال أبو حفص: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلى نظر السخط، وأعمالي تدل على ذلك. وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال: إني اجترأت البارحة على الله، سألته الجنة. وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها، يابني، إني أعرفك صغيرا طيبا، وكبيرا طيبا. وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع في ليك ونهارك. فقال يأأماه، ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع عليّ وأنا على بعض ذنوبي فتفتي وقال وعزتي وجلالي لأغفر لك؟ وقال الفضيل إني لأعبط نبيا مرسلًا، ولا ملكًا مقربًا، ولا

مبدأ صالحًا، أليس هؤلاء يمايتون يوم القيامة؟ إنا أعبط من لم يخلق

وروي<sup>(١)</sup> أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت. فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل عليه واعتقه، فغفر ميتا. فقال صلى الله عليه وسلم «جَهَنُّوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّ الْفَرَقَ مِنَ النَّارِ فَتَتْ كَبِدَهُ»

وروي هن ابن مبصرة، أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت له أمه يا مبصرة، إن الله تعالى قد أحسن إليك، هداك إلى الإسلام. قال أجل، ولكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها. وقيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل. فقال: بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء، لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله وعقابه، فتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الخائفين، ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا، وإنما كان يسأل الله العفو. وقيل له في مرضه. ألا تشتهي شيئا؟ فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه مارفح رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة. وأُتِرفع رأسه يوما فترفع، فسقط فانفتق في بطنه فتق. وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ. وكان إذا أصابهم ريح، أو برق، أو غلاء طمام قال هذا من أجل يصيبهم. لومات عطاء لاستراح الناس

(١) حديث ابن فتي من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت - الحديث: ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر

وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام ، وفيما كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بظهور  
الشمس ، قد تورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم في رهوسهم ، ولصقت  
جلودهم على عظامهم ، ونقيت المروق كائنها الأوتار ، يصيحون كأن جلودهم قشور البطيخ  
وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين ، وكيف أهان العاصين .  
فبينما هم يمشون ، إذ مر أحدهم بمكان فخر منشيا عليه : فجلس أصحابه حوله يسكون في  
يوم شديد البرد ، وحينئذ يرشح عرقا . فجاؤا به فمسحوا وجهه ، فأفاق ، وسأله عن أمره  
فقال . إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان

وقال صالح المري . قرأت على رجل من المتعبدين ( يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ  
يَقُولُونَ يَا كَيْفَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ )<sup>(١)</sup> فصمت ثم أفاق فقال . زدني يا صالح ، فإني  
أبجدُ غما . فقرأت ( كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا )<sup>(٢)</sup> فخر ميتا  
ودوي أن زارة بن أبي أوفى ضل بالناس النداء ، فلما قرأ ( فَإِذَا نَفَرُوا فِي النَّافُورِ )<sup>(٣)</sup>  
خَرَّ مَشْجَا عَلَيْهِ ، فحنل ميتا

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز ، فقال عظمي يا يزيد . فقال يأمر المؤمنين  
اعلم أنك لست أول خليفة يموت . فبكى ثم قال زدني . قال يأمر المؤمنين ، ليس بينك  
وبين آدم أب إلا ميت . فبكى . ثم قال زدني يا يزيد . فقال يأمر المؤمنين ، ليس بينك  
وبين الجنة والنار منزل . فخر منشيا عليه

وقال<sup>(٤)</sup> ميمون بن مهران . لما نزلت هذه الآية ( وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ )<sup>(٥)</sup>  
صاح سلمان الفارسي ، ووضع يده على رأسه ، وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر أن عليه  
ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول . يا ابتاه ، ليت شعري  
أي خديك بدأ به البود أولا . فصمت داود وسقط مكانه

وقيل مرض سفيان الثوري ، فعرض دليله على طبيب ذمي ، فقال هذا رجل قطع الحنوف  
كبده . ثم جاء وجس عروقه . ثم قال . ما علمت أن في اللثة الحنيفة مثله

( ١ ) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وان جهنم لوعدهم أجمعين صاحب سلمان الفارسي : لم أنف له على أصل

( ٢ ) الاحزاب : ٦٩ ( ٣ ) الحج : ٢٢ ( ٤ ) للدثر : ٨ ( ٥ ) الحجر : ٤٣



وقال أحمد بن حنبل رحمه الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلي ، فقلت يارب على قدر ما أطيق . فسكن قلبي

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا ، فإن لم تبكوا قبا كوا ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه . وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «لَوْ تَمَلَّؤْنَ مَا أُنْعِمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَسَكُمُ كَثِيرًا» وقال النبري : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ، فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ، وولحيته ترجف . فقال عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ليس هذا من حديث ، وإنما هذا من بكاء ، وتضرع واستكانة ، ودعاء كدعاء النريق . وإنما هذا من حفظ لسانك ، وأخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخذ ما ترف ، ودع ما تنكر . وروى الفضيل يوما وهو عشي ، فقيل له إلى أين قال لا أدري . وكان عشي والهام من الخوف . وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال التكلين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ؟ فقال يا بني ، ليست الناحية التكلية كالناحية المستأجرة وحكي أن قوما وقفوا بما يد وهو يبكي ، فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال فرحة يجدها الخائفون في قلوبهم . قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالمرض على الله عز وجل

وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته ، قد كبرت وضعف جسي عن خدمتك فاعتقني وقال صالح المري : قدم علينا ابن السالك مرة فقال . أرى شيئا من بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يمدل خواصا . فقرأت عليه ( إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَبِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ <sup>(٢)</sup> ) فشقق الرجل شهقة وخر مغمشيا عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر ، فدخلنا عليه ، فقرأت هذه الآية ، فشقق شهقة وخر مغمشيا عليه . فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا . فقرأت ( ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ <sup>(٣)</sup> ) فشقق شهقة ، فبدا الدم من منخرينه ، وجعل يتشحط في دمه حتى يبس . فتركناه على حاله وخرجنا . فأدبرته على ستة أنفس ، كل نخرج من عنده وتركة

(١) حديث لو تملؤن ما أنعم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : تقدم في قواعد العقائد

(٢) غافر : ٧١ (٢) إبراهيم : ١٤

منشياً عليه. ثم أتيت به إلى السابح، فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخصى تقول: ادخلوا فدخلنا، فإذا شيخ فأن جالس في مصلاه، فسلمنا عليه، فلم يشعر بسلامنا. فقلت بصوت عال: ألا للخلق غدا مقاما. فقال الشيخ: بين يدي من ويحك! ثم في مبهوتا فأنحأناه، شاخصا بصره، يصيح بصوت له ضعيف، أو هأوه، حتى انقطع ذلك الصوت؛ فقالت امرأة: اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى، وأما الشيخ فلمنه ميكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا، لا يؤدي فرضا، فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا، ولا ينام مضطجعا، ولا يأكل سمنأبدا. فارؤى ضاحكا، ولا مضطجعا، ولا أكل سمنأ حتى مات رحمه الله. وقال الحجاج لسعيد بن جبير: بلغني أنك لم تضحك قط. فقال كيف أضحك وجنهم قد سمرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت! وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال بخير. قال كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حال ما ظنك بناس ركبو أسفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفيتهم، فتلحق كل إنسان منهم بمشبهة، على أي حال يكون؛ فقال الرجل على حال شديدة: قال الحسن: حالي أشد من حالهم ودخلت مولد لمر بن عبد العزيز عليه، فسلمت عليه، ثم قامت إلى مسجد في بيته، فصلت فيه ركعتين، وغلبت أعيناها فرفقت، فاستبكت في منامها ثم انتبهت، فقالت يا أمير المؤمنين، إني والله رأيت عجبا. قال وما ذلك؟ قالت رأيت النار وهي ترفر على أهلها، ثم جيء بالصراط فوضع على منها. فقال هيه. قالت لبي، بعبد الملك بن مروان، فحمل عليه فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، ففوى إلى جنهم. فقال عمر هيه. قالت ثم جىء بالوليدين عبد الملك، فحمل عليه. فامضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط ففوى إلى جنهم. فقال عمر هيه. قالت ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين، فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خر منشياً عليه، فقامت إليه، فجعلت تنادى في أذنه يا أمير المؤمنين، إني وأنتك والله قد نجوت، إني وأنتك والله قد نجوت. قال وهي تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه ويحكى أنا وأوليا القرى رحمه الله: كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أولس، ثم يقوم منطلقا، فيقبه الناس فيقولون عجنون عجنون. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جمر جهنم وراءه، وكان طاووس يفرش له الفراش، فيضطجع ويتلقى

كما تنقل الحبة في القلي، ثم يشب فيدرجه ويستقبل القبة حتى الصباح، ويقول، طبر ذكر جهنم نوم الخائفين. وقال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ياليتني كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروى أنه ما ضحك أربعين سنة. قال وكنت إذا رأيته فأعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه. وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها. فإذا سكنت كأن النار تسمر بين عيذه. وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال: ما يؤمتني أن يكون الله تعالى قد اطلع في علي بعض ما بكرة، فقتني، فقال اذهب فلا غفرت لك، فأنا أعمل في غير معمل وعن ابن السكك قال وعظت يوماني مجلس، فقام شاب من القوم فقال: يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها. قلت وما هي رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين، إمامي الجنة أوفى النار. ثم غاب عني، ففقدته في المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه، فأخبرت أنه مريض بماد. فأتيته أعوده، فقلت يا أخي ما الذي أرى بك؟ قال يا أبا العباس، ذلك من قولك. لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إمامي الجنة أوفى النار. قال ثم مات رحمه الله، فرأيت في المنام، فقلت يا أخي ما فعل الله بك؟ قال غفرتي ورحمتي وأدخلني الجنة. قلت بماذا؟ قال بالكلمة. فهذه غاوى الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم. لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، بل بصفاء القلوب، وبكمال المعرفة وإفليس أمنا لقة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا، وغلبت علينا شقوتنا، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا. فلا قرب الرحيل ينهبنا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا. فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضل وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا، وغرسنا، واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخطرتنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نتق بضيان الله لنا، ولا نجاس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا، ثم إذا تلححت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قمنا بأن نقول بأستغنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي إليه رجأؤنا، وبه اعترأنا، ينادينا ويقول (وَأَنْ لَيْسَ لِلَّهِ لَاسْتَأْذِنْ إِلَّا مَعَ) (١)

( وَلَا يَنْفُتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ <sup>(١)</sup> ) وَ ( يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبَّكَ أَنْ كَرِهَ <sup>(٢)</sup> )  
ثم كل ذلك لا ينبغي ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا . فها هذه إلا محنة هائلة إن لم  
يفضل الله علينا توبة نصوح يندار كتابها ويحبرنا . فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن  
يشوق إلى التوبة سر أرقلوبنا ، وأن لا يحمل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا ، فنكون ممن  
يقول ولا يعمل ، ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعد بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا  
فلا علامة للخذلان أعظم من هذا ، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله  
ولنتقصر من حكاية أحوال الخالقين على ما أوردناه ، فإن القليل من هذا يصادف  
القلب القابل ، فيكنى ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يننى

ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني ، وكان من خيار العباد  
أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ، ما يكاد يقرأ دمه من كثرة  
البكاء ، فقال عيسى . لما رأيته هالتي منظره ، فقلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك  
فقال يا أخي بماذا أوصيك ؟ إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والحوام  
فهو خائف حذر ، يخاف أن يفعل فتفرسه السباع ، أو يسهو فتشبهه الحوام ، فهو مدعور  
القلب وجل ، فهو في الخافة ليله وإن أمن المفترقون ، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون  
ثم ولي وتركني . فقلت لو زدني شيئا عسى ينفعني ؟ فقال الظمآن يميزه من الماء أيسره وقد  
هدق ، فإن القلب الصافي يحركه أدنى غافة ، والقلب الجامد تنبوعه كل المواعظ

وبما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والحوام ، فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير ، بل  
هو تحقيق . فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك ، لرأيت مشحونا بأصناف السباع  
وأصناف الحوام ، مثل الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب  
والرياء وغيرها ، وهي التي لا تزال تفترسك وتنشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك  
محبوب العين من مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء وضعت في قبرك ، عايتها وقد تمثلت لك بصورها  
وأشكالها الواقة لما فيها ، ترى بينك المقارب والحيات وقد أهدقت بك في قبرك ، وإنما هي  
صفاتك الحاضرة الآن ، فذا انكشف لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل  
اللوث فافعل ، وإلا فلوطن نفسك على لغتها ونهشها الصميم قلبك ، فضلا عن ظاهرها بشرتك والسلام

(١) فالمر : ٥ (٢) الانظار : ٦

# كتاب الفقر والزهد

## كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبّح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتذكك من هيته الجبال . خلق الإنسان من الطين اللزب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأنتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالقدو والآصال . ثم كحل بصيرة المختلص في خدمته بنور العبدة حتى لاحظ بفضائله حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقيح دون مبادئ إشرافه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ماحرفه من مشاهدته وملازمته غاية الاستفقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تحبس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شواء عجنّت من طينة الخزي وضربت في قالب النسكال ، وهي متلففة يجلبها لتنفخ قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حباتها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والأغتيال ، ثم لا تجترىء مهمم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال . فلما انكشف للعارفين : أنها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههمهم على حضرة الجلال واثقين منها بوصال ليس دونها انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يستريحها فناء ولا زوال .  
والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آله

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله عز وجل ، بغرورها ضلّ من ضلّ ، وبمكرها زلّ من زلّ . فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأسس القربات . وقد استقصينا ما يتماق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البنفس لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات . فلامطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعث منها لنكن مقاطعها إما أن تكون بازواً عنها عن العبد ويسى ذلك فقرا ، وإما بازواً له بعد عنها

ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ، ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما ، وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب ، والزهد في شطر آخر منه ، ونبدأ بذكر الفقر فنقول

## الشرط الأول

من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا ، وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني ، وبيان أدب الفقير في فقره ، وبيان أدبه في قبوله المعطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، والله الموفق للصواب بإطفه وكرمه

## بيان

حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقر وأساميه

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه . أما فقد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا . وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه ، لم يكن المحتاج فقيرا . وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير ، لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده . فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الوجود إلا واحدا ، فليس في الوجود إلا غني واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ، ليمدوا وجودهم بالدوام . وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى ( وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ <sup>(١)</sup> ) هذا معنى الفقر مطلقا . واكتنا السنا تقصديان الفقر للمطلق ، بل الفقر من المال على الخصوصي وإلا فقير البعد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر ، لأن حاجاته لا حصر لها . ويصح جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذي نريد الآن بيانه فقطه فنقول ،

كل فاقد للمال فإنما نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذي فقده ، إذا كانت ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه . ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ، ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم ، لتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها

الحالة الأولى : وهي العلى ، أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهو بمن أخذ ، بمفضاله ، ومحتززا من شره وشغله ، وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه ، لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن يهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذوه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب في طلبه . لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة نسميه قاننا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب ، مع ما فيه من الرغبة الضعيفة

الرابعة : أن يكون تركه الطلب لمجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب . وصاحب هذه الحالة نسميه بالحرص الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه ، كالجائع للفائدة للخبز ، والعارى للفاقد للثوب . ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا ، كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية . ولعلنا تفك هذه الحالة عن الرغبة

فهذه خمسة أحوال ، أعلاها الزهد . والاضطرار إن انضم إليه الزهد ، وتصور ذلك ، فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه . ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد ، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده . فإن وجده لم يفرح به . ولم يتأذى وإن فقده فكذا . بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها ، إذ أتاه ما مائة ألف درهم من المطاء ، فأخذتها ورفقتها من يومها ، فقالت خادمتها : ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدمهم لحما فطر عليه ؟ فقالت لو ذكرتيني لقطت

فمن هذه حالة لو كانت الدنيا بخلافها في يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال في خزائنه الله تعالى لا في يده نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره .



وينبئ أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعا  
وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم النفي المطلق على الله تعالى، وعلى من كثر ماله  
من العباد. فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به؟ فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإلغا  
هو غني عن دخول المال في يده، لأن بقاءه. فهو إذا فقير من وجه. وأما هذا الشخص  
فهو غني عن دخول المال في يده، وعن بقاءه في يده، وعن خروجه من يده أيضا، فإنه  
لبس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجة، وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه، وليس فائده  
ليحتاج إلى الدخول في يده. ففتناه إلى الدوم أميل. فهو إلى النفي الذي هو وصف الله تعالى  
أقرب. وإلغا قرب العبد من الله تعالى يقرب الصفات، لا يقرب المكان  
ولكننا لانسى صاحب هذه الحالة غنيا، بل مستغنيا، ليبقى النفي اسمًا لمن له النفي المطلق  
عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودا أو عدما، فلم يستغن عن أشياء  
آخر سواه، ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإن  
القلب المقيد بحب المال رقيق، والمستغنى عنه حر، والله تعالى هو الذي أعنته من هذا  
الرق، فهو محتاج إلى دوام هذا المتق. والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة  
لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن. فلذلك لم يكن اسم النفي مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا  
واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار. وصاحب هذه الحالة من المقربين، فلا جرم  
صار الزهد في حقه تقصانا، إذ حسنت الأبرار سينات المقربين. وهذا لأن الكاره للدينا  
مشغول بالدينا، كما أن الراغب فيها مشغول بها. والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن  
الله تعالى، إذ لا بد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا، فإنه أقرب إليك من جبل  
الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه  
إلا شغلك بغيره. وشغلك بنفسك وشهو أنك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشمووات  
نفسك، فكذلك لا تزال محجوبا عنه. فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى. والمشغول  
بفرض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى. بل كل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر  
في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفقت قلب العاشق إلى الرقيب، وإلى بفضه

واستغفاله ، وكراهة حضوره ، فهو في حال اشتغال قلبه ينفذه مصروفه عن التلذذ بمشاهدة معشوقه . ولو استغفقه المشق لنقل عن غير المشوق ، ولم يلتفت إليه . فكما أن النظر إلى غير المشوق لجبه عند حضور المشوق شرك في المشق ، وتقص فيه ، فكذا النظر إلى غير المحبوب لبنضه شرك فيه وتقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بنضاً وجهاً ، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة ، فلا يجتمع أيضاً بنض وحب في حالة واحدة

فالمشغول ينفذ الدنيا غافل عن الله كالمشغول بمحبا ، إلا أن المشغول بمحبها غافل ، وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببنضها غافل ، وهو في غفلته سالك في طريق القرب إذ يرجي له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه النغلة وتبديل بالشهود ، فالكمال له ضربان ، لأن بنض الدنيا معطية توصل إلى الله

فالمحب وللبنض كرجلين في طريقي الحج ، مشغولين بركوب الناقة ، وعلقها ، وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة ، والآخر مستدبر لها . فهما سيان بالإضافة إلى الحال ، في أن كل واحد منهما محبوب من الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر ، إذ يرجي له الوصول إليها ، وليس محموداً بالإضافة إلى المتكف في الكعبة ، الملائم لها ، الذي لا يخرج منها حتى يقتدر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بنض الدنيا مقصود في عينه . بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق . ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من زهد في الدنيا واقتصصر عليه ، فقد استعجل الراحة . بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة . فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد ، كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فإذا قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة في عدمها ، فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى ، والقانع ، والمحريص ، وقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى . بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء . وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر . ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه ، كما أن الماء محتاج إليه . فلا يكون قلبك

مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ، ولا يفيض الماء الكثير . بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة ، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد  
فهكذا ينبغي أن يكون المال ، لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أخذها وكثرة الآخر . وإذا عرفت الله تعالى ، ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم ، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لاحتالة مادمت حيا ، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى

قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب إلى البيت ، نفذ الركوة \* التي أهديتها لي ، فإن العدو يوسوس لي أنت اللص قد أخذها . قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية ، قدزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فيبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال وفروا منه كل الفار فأقول : كما هربوا من الماء ، على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ، وفروا عما وراءه ، ولم يجمعوه في القرب والرايا يديرونه مع أنفسهم ، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه . لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بنضه وقد جعلت <sup>(١)</sup> خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخذوها ووضعوها في مواضعها ، وما هربوا منها . إذ كان يستوي عندهم المال ، والماء ، والذهب ، والحجر . وما نقل عنهم من امتناع ، فإما أن ينقل عن خاف أن لو أخذه أن يخذعه المال

( كتاب الفقر والزهد )

( ١ ) حديث انخزائن الارض حملت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها : هذا معروف وقد تقدم في آداب العيشة من عند البخاري تقييداً بجزء ما به من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من البحرين وكان أكثر مال أبي بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلبس القميص الصلاة جاء فجلس إليه فقفا كان يرى أحدا الألعطاء ووصله عمر بن محمد البحري في صحبه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمر بن عوف قدم أبو عبيدة بن الجراح في البحرين فسمعت الانصار يشدونه بالحديث : ولهما من حديث جابر بن جابر قال قال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من مكان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فلبأتا فقلت ان النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ثلاثا

• الركوة - الرورق الصغير

ويقيد قلبه ، فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلا جرم البنفس للمال والهرب منه في حقهم كمال . وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن يتقل من كوي بلغ السكال ، ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ، ليقتدوا به في الترك ، إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يضر الرجل للمزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ، ولكن لملية أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيه لكون والسير يسير الضعفاء ضرورة الأنبياء ، والأولياء ، والمعلماء

فقد عرفت إذا أن المراتب ست ، وأعلاهما رتبة المستغنى ، ثم الزاهد ، ثم الراضى ، ثم القانع ، ثم الحريرى . وأما المضطر فيتصور في حقه أيضا الزهد ، والرضا ، والقناعة ، ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال . واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى . بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر ، وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة ، وفي بقاء استغناؤه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها ، فإنه أحق باسم العبد من المظالمين ، وإن كان اسم العبد عاما للخلق ، فكذلك اسم الفقير عام . ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير . فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين

وإذا عرفت هذا الاشتراك ، فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ » وتوله عليه السلام <sup>(٢)</sup> « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » لا يناقض قوله <sup>(٣)</sup> « أَلْحَيْنِي مَسْكِينًا وَأَمْسِي مَسْكِينًا » إذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة ، والذلة ، والافتقار إلى الله تعالى ، هو الذى سأل في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

(١) حديث أعوذ بك من الفقر : تقدم في الأذكار والدعوات

(٢) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا : تقدم في ذم الحسد

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمسي مسكينا : الزمى من حديث أنس ، وحسنه وابن ماجه والحاكم

وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم

## بيان

فضيلة الفقر مطلقاً

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ وَأُمُومِهِمْ<sup>(١)</sup>) الآية، وقال تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ<sup>(٢)</sup>) ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالمهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر

وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى. روى عبدالله<sup>(٣)</sup> بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟» فقالوا موسى بن المسال يعطى حق الله في نفسه وماله. فقال «نعم الرجل هذا وَلَيْسَ بِهِ» قالوا فن خير الناس يارسول الله؟ قال «فَقِيرٌ يُعْطَى جُودُهُ» وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> «لَبَّالُ» أَلَمْ يَنْفَعِ اللَّهُ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا» وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا أُمَيَّالٍ» وفي الخبر المشهور<sup>(٦)</sup> «يَدْخُلُ فَقْرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ» وفي حديث آخر<sup>(٧)</sup> «بَارِعَيْنِ خَرِيفًا» أي أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الخريص على النقي الخريص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد

(١) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أي الناس خير فقالوا موسى بن المسال يعطى حق الله

من ماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الهيثمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على الأرفوع مبدون - زواله لأصحابه وسؤالهم

(٢) حديث قال لبلال التي أتته فقيرا ولا تائه غنيا: الحاكم في كتاب علامات أهل الحق من حديث لبلال

ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلطف متفقرا ولا تمت غنيا وكلاما ضعيفا

(٣) حديث أن الله يحب الفقير المتعفف أهل البيت: ابن ماجه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام: الترمذي من حديث أبي هريرة

وقال حسن صحيح وقد تقدم

(٥) حديث دخلهم قبلهم بأربعين خريفا: مسلم من حديث عبد الله بن عمر ولا أنه قال فقراء المهاجرين

والترمذي من حديث جابر وأنس

على الترتيب الرابع . وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتنا بين  
الفقراء في درجاتهم ، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير  
الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسين

ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق ،  
بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي  
يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم " الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ  
جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ ، فَإِنَّهُ تَقْدِيرٌ تَحْقِيقٌ لِمَعَالَةٍ . ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة  
تلك النسبة إلا بخمين . فأما بالتحقيق فلا . إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق  
غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص

أحدها : أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته ، والملائكة ، والدار الآخرة ،  
لا كما يعلمه غيره ، بل بخلافه بكثرة المعلومات ، وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف  
والثاني : أن له في نفسه صفة بهائم له الأنفال الغارقة للمادات ، كما أن لنا صفة بهائم الحركات  
المقرونة بإرادتنا وبأختيارنا وهي القدرة ، وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى  
والثالث : أن له صفة بهاييسر الملائكة ويشاهد ، كما أن البصير صفة بها يفارق الأعمى  
حتى يدرك به البصير . والرابع : أن له صفة بهايذكر ما سيكون في النيب ، إماني يقظة  
أوفي المنام ، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ ، فيرى ما فيه من النيب

فهذه كالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ، ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ،  
وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين ، وإلى خمسين ، وإلى ستين ، ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها  
إلى ستة وأربعين ، بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جلها . ولكن تعيين طريق  
واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين ، فلاندرى تحقيقا أن الله الذي أَرَادَهُ  
رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإننا للمعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها ،  
وكذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير

( ١ ) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة : البخاري من حديث أبي سعيد رواه  
هو مسلم من حديث أبي هريرة وعبد بن الصامت وأنس بن ظفر رؤيا المؤمن جزء الحديث ، وقد فهم

فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لم كان هذا الفقير الحرير مثل على نصف سدس درجة الفقير الزاهد ، حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة ، وانقضى ذلك التقدم بحسمائة عام ، فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوثوق على ذلك إلا بنوع من التضمين ، ولا وثوق به . والفرص التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيعان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا لمنصب النبوة عن ذلك . ولترجع إلى نقل الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا <sup>(١)</sup> « خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُرَآؤُهَا وَأَسْرَعُهَا تَصْجَعًا فِي الْجَنَّةِ ضُفْأُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ لِي جَرَفَيْنِ اثْنَيْنِ فَمَنْ أَحَبَّ مَا قَعَدَ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَ مَا قَعَدَ أَبْغَضَنِي أَفْقَرُ وَالْجَاهِدُ » . وروي <sup>(٣)</sup> أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : أتعجب أن أجمل هذه الجبال ذهابا وتكون مملكتك أينما كنت ؟ فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال « يا جبريل إن الدنيا دارٌ من لادارَ له ومالٌ من لا مالَ له ولها يجمعُ من لا عقلَ له » فقال له جبريل : يا محمد ، ثبتك الله بالقول الثابت

وروي أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عبادة ، فأيقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى . فقال ما تريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها . فقال له قم إذا يا حيي . ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب ، ونحمت رأسه لينة ، ووجهه ولحيته في التراب ، وهو متر بعبادة : فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا نائم فأوحى الله تعالى إليه يا موسى : أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن <sup>(٤)</sup> أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ، فلم يجد عنده

( ١ ) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تصجعا في الجنة ضفأوها : لم أجده له أصلا

( ٢ ) حديث أنلى حرفتين اثنتين - الحديث : وفيه الفقر والجهد لم أجده له أصلا

( ٣ ) حديث أن جبريل نزل فقال إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أتعجب أن أجمل هذه الجبال ذهابا - الحديث :

وفي أن الدنيا دار من لا دار له - الحديث : هذا ملحق من حديثين فروى الترمذي من حديث

أبي أمامة عرض على ربي ليصل لي بطحا مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما

الحديث : وقال حسن ولا محمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له . الحديث : وقد تقدم في ذم الدنيا

( ٤ ) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني

ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر ، وقال « قُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلَفَنِي  
أَوْ بُنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ » قال فأتيته ، فقال لا والله إلا برهن . فأخبرت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال « أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ  
الْأَرْضِ وَلَوْ بَاعَتْنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَا ذَنْبُ لِي بِهِ إِذْ هَبَّ بِدِرْعِي هَذَا إِلَيْهِ فَأَرَهْنَهُ » فلما  
خرجت نزلت هذه الآية ( وَلَا تَحْذَرُنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا نَسَفْتُمَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا <sup>(١)</sup> ) الآية . وهذه الآية تمزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْفَقْرَ أَزَيُّ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْإِذَارِ الْحَسَنِ عَلَى خَدِّ الْقَرَسِ »  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافٍ فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرِّهِ عِنْدَهُ  
قُوَّتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَائِهِ »

وقال كسب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام ، يا موسى ، إذا رأيت الفقر مقبلا  
فقل مرحبا بشمار الصالحين . وقال عطاء الخراساني : من نبي من الأنبياء بساحل ،  
فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال بسم الله ، وألقى الشبكة . فلم يخرج فيها شيء . ثم  
مر بآخر ، فقال باسم الشيطان ، وألقى شبكته ، فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس  
من كثرتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . يارب ، ما هذا ؟ وقد علمت أن كل ذلك بيدك  
فقال الله تعالى لللائكة . اكشفوا العبدى عن منزلتيهما . فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا  
من الكرامة ، ولذلك من الهوان ، قال رضىت يارب

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ  
وَأَطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ » وفي لفظ آخر « فَقُلْتُ أَيْنَ  
الْأَغْنِيَاءُ فَقِيلَ جِسْمُهُمْ الْجَدُّ » وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ »

ال رجل من يهود خيبر - الحديث : في نزول قوله تعالى ولا تحذن عيني الى ما نعتنا  
به أزواجا منهم الطبراني سند ضعيف

- ( ١ ) حديث المقرئ زين بالمؤمن من العذار الحسن على خد القرس : الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند  
ضعيف والمعروف انه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا  
( ٢ ) حديث من أصبح منك معافى في جسده - الحديث : الترمذى وقد تقدم  
( ٣ ) حديث أطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث : تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره



فَقُلْتُ مَا شَأْنُهُمْ فَقِيلَ شَفَلْنِ الْأَعْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزُّعْفَرَانُ ،  
 وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « سُخْفَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الْفَقْرُ » وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « آخِرُ  
 الْأَنْبِيَاءِ دُخُولُ الْجَنَّةِ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَلِكُهُ وَآخِرُ أَصْحَابِي  
 دُخُولُ الْجَنَّةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِأَجْلِ غَنَاهُ » وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « رَأَيْتُهُ دَخَلَ  
 الْجَنَّةَ زَخْفًا » . وقال للسيب صلى الله عليه وسلم . بشدة يدخل النفي الجنة  
 وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال <sup>(٤)</sup> « إِذَا  
 أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْخَلْبُ أَلْبَلِغْ اقْتِنَاهُ » قيل وما اقتناه ؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ  
 لَهُ أَهْلًا وَلَا مَالًا » . وفي الخبر <sup>(٥)</sup> « إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا فَقُلْ مَرْجَبًا بِشِعَارِ  
 الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ النَّفْيَ مُقْبِلًا فَقُلْ ذَنْبٌ عَجَلَتْ عُقُوبَتُهُ »

وقال موسى عليه السلام . يارب من أجاؤك من خلقت حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال كل  
 فقير فقير . فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر  
 وقال السيب صلوات الله عليه وسلامه : إني لأحب المسكنة وأبغض النعمة . وكان  
 أحب الأساى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يأسكين .

ولما <sup>(٦)</sup> قالت سادات العرب وأغنيائهم للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا يومًا وهم يوم ،

( ١ ) حديث نخفة المؤمن في الدنيا الفقر : رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر وأبو منصور الديلمي  
 في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه  
 من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا

( ٢ ) حديث آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان - الحديث : تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فردويه ذكره

( ٣ ) حديث رأيتني عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زخفا : تقدم وهو ضعيف

( ٤ ) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه - الحديث : الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني

( ٥ ) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا قل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت النفي مقبلا قل ذنب عجلت عقوبته  
 أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي هريرة ، ولم يسم منه قال قال  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره بزيادة  
 في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأجار غير مرفوع بإسناد ضعيف

( ٦ ) حديث قال سادات العرب وأغنيائهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما - الحديث :

في نزول قوله تعالى وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية خدم من حديث خباب وليس

فيه إمكان لبسهم الصوف ويغفون ربههم لأدعوا هذه الزيادة من حديث سلمان

يحبون إليك ولا نجي. ونجي إليك ولا يحبون، يمتون بذلك الفقراء، مثل بلال، وسلمان، وصيب، وأبي ذر، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وأبي هريرة، وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين، أجاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحهم، وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر، فإذا عرفوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتد ذلك على الأغنياء، منهم الأفرع بن حابس التيمي وعيينة بن حصن الفزاري، وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم. فأجاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجتمعهم وإيام مجلس واحد، فنزل عليه قوله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) (١) بنى الفقراء (يُرِيدُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (٢) يعنى الأغنياء (وَلَا تَطْعَمْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَائِمَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) (٣) يعنى الأغنياء (وَقُلِ اتَّقُوا مِنْ رَبِّكُمْ مَنْ قَدْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ) (٤) الآية. (٥) واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشرف قريش، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأُنْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّةُ زُرْكِي أَوْ يَذْكُرُ تَقَفُّفَهُ اللَّهُ كَرِي) (٦) يعنى ابن أم مكتوم (أَمَّا مَنْ اسْتَفْنَى فَآتَ لَهُ تُعَدِّي) (٧) يعنى هذا الشريف

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٨) «يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُمِصَتُهُ خُمِصَتُهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يَخْتَصِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ وَعِزِّي وَجَلَالِي مَا زُوِّتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لَهْوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَأَمْصِلَةَ أَخْرَجُ بِأَعْبَدِي إِلَى هَذِهِ

(١) حديث استأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشرف قريش وزول

قوله تعالى عبس وتولى: الترمذي من حديث عائشة وقال عريب قات ورحاله رجال الصحيح

(٢) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة ويمسره الله إلى كاهن الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزى وجلالى ما زويت الدنيا عنك

ما زويت الدنيا عنك لهوامك على - الحديث: أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس

بإسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدعوا إلى الله فقولوا لا اله الا الله ومن أجاهلك

فيقول ضراء للسمين ويدعون منه فيقول أما انى انروا الدنيا عنكم لهوان كان يكره على ولكن أرادت

بذلك أن أصعب لكم كرامتى اليوم تمسوا على ما شئتم اليوم - الحديث: دون آخر الحديث

وأما أول الحديث فلهو له أبو بصير في الحلية وسيأتي في الحديث الذى بعده

المشوف فن أطلعك في أو كساك في يريد بذلك وجعي فخذ يديه فهو لك والناس يومئذ قد أجمعهم الترقى فيتخلل المشوف وينظر من قبل ذلك به فيأخذ يديه ويدخله الجنة . وقال عليه السلام <sup>(١)</sup> « أذكروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأباي فإن لهم دولة » قالوا يا رسول الله وما دولهم ؟ قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطلعكم كسرة أو سقاكم شرية أو كساكم ثوبا فخذوا بيديه ثم امضوا به إلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « دخلت الجنة فسمعت حركة أباي فنظرت فإذا بلال ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل . فقلت يارب ما شأنهم قال أما النساء فاضربين الأجران الذهب والحرير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتقدت أصحا في كلم أر عبد الرحمن ابن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خلفك عني قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى بقيت النسبيات وظننت أني لأراك فقلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالي ، فانظر إلى هذا ، وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من العشرة <sup>(٣)</sup> المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « لا آمن قال بالمال هكذا وهكذا » ومع هذا فقد استقر بالنبي إلى هذا الحد

<sup>(٥)</sup> ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير ، فلم ير له شيئا . فقال « لو قمم

( ١ ) حديث أكثر ما معرفة الفقراء واخذوا عندهم الأباي فإن لهم دولة - الحديث : أبو نعيم في الحلية

من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف أخذوا عند الفقراء أيادي فإن لهم دولة يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا إلى الفقراء فيحضر إليهم كما يتنزل أحدكم إلى أخيه في الدنيا

( ٢ ) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أباي فنظرت فإذا بلال ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم الحديث : الطبراني في حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر

( ٣ ) حديث ابن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بهم من أهل الجنة : أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن يزيد قال الترمذي حسن صحيح

( ٤ ) حديث الامن قال بالمال هكذا وهكذا : متفق عليه من حديث أبي ذر في أساء حديثه عنهم

( ٥ ) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم : بإجماع

نُورٌ هَذَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَوْ سَمِعْتُمْ ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(١)</sup> : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضَفٍ أَغْبَرُ أَشْمَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَهُ » .

<sup>(٢)</sup> وقال عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء . فقال « يا عمرانُ إِنْ لَكَ عِنْدَنَا مَثْرَلَةٌ وَجَاهًا فَهَلْ لَكَ فِي عِبَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قلت نعم بَأَيِّ أَنْتَ وَبِأَيِّ رَسُولِ اللَّهِ . فقام وقت معه ، حتى وقف باب فاطمة ، ففرح الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يا رسول الله . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ » قالت ومن معك يا رسول الله ؟ قال « عمرانُ » فقالت فاطمة والذي بئسك بالحق نبيا ما عليّ إلا عبادة . قال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار يده . فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي ؟ فأتاني إليها ملاءة كانت عليه خلقة ، فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكَ » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » قالت أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ وَجَمَّةً ، وزادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله ، فقد أضر بي الجوع . فسكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَجْزَعِي يَا بِنْتَاهُ قَوْلَ اللَّهِ مَا ذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثٍ وَإِنِّي لَا كَرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْكَ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب يده على منكبها وقال لها « أُبَشِّرِي قَوْلَ اللَّهِ إِنَّكَ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قالت فإني آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ؟ قال « آسية سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكَ إِنَّكَ لَنْ تُيُوتَ مِنْ قَصَبٍ لَأَذَى فِيهَا وَلَا صُغْبٍ وَلَا نَصَبٍ » ثم قال لها « اقْنَعِي بِابْنِ عَمَلِكَ نَوَافِلَهُ لَقَدْ زَوَّجْتُكَ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا سَيِّدًا فِي الْآخِرَةِ » .

وروى عن عليٍّ كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال <sup>(٣)</sup> : « إِذَا أُنْفَضَ

(١) حديث الأاحيركم عن ملوك الجنة - الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يرفو ولا ملوك وقد تقدم ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الأاحيركم عن ملوك الجنة الحديث : دون قوله أغبر أشعث .

(٢) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران ان لك عندنا

منزلة وجاها فهل لك في عبادة فاطمة - الحديث : قد تم

(٣) حديث إذا أنفض الناس فراءهم وأظهرت امرأة الدنيا الحديث : أبو بصير البجلي يساند في جهالة وهو مكر

النَّاسُ فَقَرَاءَهُمْ وَأَعْلَبُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكَالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رِثَائِهِمُ اللَّهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ بِالْفَخْرِ مِنَ الرِّمَاقِ وَالْجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْخِيَانَةِ مِنَ وِلَاةِ الْأَحْكَامِ وَالشُّوْكَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ .

وأما الآثار : فقد قال أبو الرداء رضي الله عنه : ذو الدرمين أشد حبسا ، أو قال أشد حسابا من ذي الدرم . وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سميد بن عامر بألف دينار ، - فجاء حزينا كئيبا ، فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال أشد من ذلك . ثم قال : أرى دعوك الخلق . فشقه وجمله سررا وفرقه ، ثم قام يصلي ويبكي إلى النداء ، ثم قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يَدْخُلُ فَقْرَاءُ أُمْنِي الْجَنَّةِ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّى أَنْ الرَّسُولِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي عِمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ " .

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن ينسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد . وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله ، فقال له تخط ، لو كنت غنيا لما قربتك . وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء ، لسكرة تقريه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال للمؤمل : ما رأيت الفنى أذل منه في مجلس الثوري ، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله . وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منها جميعا . ولو رغب في الجنة كما يرغب في الفنى لفاز بها جميعا . ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في البارين جميعا . وقال ابن عباس . ملعون من أكرم بالفنى وأهان بالفقر . وقال لقمان عليه السلام لابنه : لا تحتقرن أحدا خلقك ثيابا ، فإن ربك وربيه واحد .

وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفراارك من صحبتهم من علامة المنافقين . وفي الأخبار عن الكتب

( ١ ) حديث سعيد بن عامر يدخل قراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام - الحديث : وفي أول قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها وقدرى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال سمعنا عاما وفي أسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفي رواية له باري بن سننوا لداخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة صحيحه وقد تقدم قبل هذا بورتين

السالفة، أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمثلك فتسقط من عيني، فأصب الدنيا عليك سبا

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد، بوجهها إليهم ما وية وابن عامر وغيرها، وإن درهما لم يرفع، وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تقطرين عليه؟ وكانت صائغة، فقالت لو ذكرتيني لعلت. وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال <sup>(١)</sup> «إِنَّ أَرَدْتَ اللُّحُوقَ بِي فَمَلِّكَ بَيْتِشِ الْفُقَرَاءِ وَإِيَّاكَ وَجَالَسَةَ الْإِغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزِجِي دِرْعَكَ حَتَّى تُرَقِّمِي»

وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بمشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها. فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أريد أن أعواسي من ديوان الفقراء بمشرة آلاف درهم؟ لأفعل ذلك أبدا رضي الله عنه.

## بيان

لفظة مخصوص الفقراء من إbraهيم والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «طُوبَى لِمَنْ هَدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَفَتَحَ بِهِ» وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> «يَا مُعْتَمِرُ الْفُقَرَاءُ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطْفَرُوا بِثَوَابِ فَقَرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا» فالأول القانع، وهذا الراضى. ويكاد يشمر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب له على فقره. ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه. فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه. ورب راغب في المال لا يخطر بقله إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله. تلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

(١) حديث قال لعائشة أن أردت اللحوق بي فملك بيتي الفقراء وإياك وعجالة الإغنياء - الحديث:

الترمذى وقال شريب الحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم

(٢) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقبح به - رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث يا معتمر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم - الحديث: أبو منصور الديلمي في مسند

الفردوس من حديث أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري

مهم بالكذب ووضع الحديث:

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(١)</sup> :  
 « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحًا وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسْكِينِ وَالْفَقَرَاءُ لِمَبْتَرِمٍ مِنْهُمْ  
 مُجْلَسَاءُ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وروي عن علي كرم الله وجهه . عن النبي صلى الله  
 عليه وسلم أنه قال <sup>(٢)</sup> : « أَحَبُّ الْمَبَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْفَقِيرُ الْفَانِعُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنْ  
 اللَّهِ تَعَالَى » . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوْتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَقَافَا »  
 وقال <sup>(٤)</sup> : « مَا مِنْ أَحَدٍ غَنِيَ وَلَا فَقِيرٍ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ كَانَ أَوْثَقِي قُوْتًا فِي الدُّنْيَا »  
 وأوحى الله تعالى إلى اسماعيل عليه السلام . اطلبني عند النكسرة قلوبهم . قال ومن هم  
 قال الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> : « لَا أَحَدٌ أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ  
 إِذَا كَانَ رَاضِيًا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ  
 صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي فَقُولُ الْمَلَائِكَةُ وَمَنْ هُمْ يَا رَبَّنَا فَيَقُولُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْقَاشُونَ  
 بِمَطْلَأِي الرَّاضُونَ بِقَدْرِي أَذْخِلُوهُمْ الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ  
 وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ يَتَرَدَّدُونَ »

فهذا في القانع والراضي ، وأما الزاهد فنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب  
 إن شاء الله تعالى . وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة . ولا يخفى أن القناعة يعادها  
 الطمع . وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه : إن الطمع فقر ، والياس غنى . وإنه من شس عما  
 في أيدي الناس وقع ، استغنى عنهم ، وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه : ما من يوم إلا ملك  
 ينادي من تحت العرش : يا ابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال أبو الدرداء

( ١ ) حديث ابن لسل كل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المسكين - الحديث : القارطفي في غرائب مالك

وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر

( ٢ ) حديث أحب المباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي من الله : لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه

حديث أن الله يحب الفقير للصف

( ٣ ) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كقافا : مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتاه وقد تقدم

( ٤ ) حديث ما من أحد غني ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أن كان أوثق قوتاً في الدنيا : ابن ماجه من حديث انس وقد تقدم

( ٥ ) حديث لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا : لم أجده بهذا اللفظ

( ٦ ) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتي من خلقي فتقول للملائكة ومن هم ياربنا فيقول فقراء المسلمين

الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

وخفي الله تعالى عنه ، ما من أحد إلا وفي عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً ، والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك . ويح ابن آدم ، ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ وقيل لبعض الحكماء ما للنبي ؟ قال قلّة تخميك ، ورضاك بما يكفيك . وقيل كانا إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر ، وفي يده رغيف يأكله . فلما أكل نام . فقال لبعض غلمانه إذا قام مفتني به . فلما قام جاء به إليه . فقال إبراهيم . أيها الرجل ، أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبيت ؟ قال نعم . قال ثم نمت طيباً ؟ قال نعم . فقال إبراهيم في نفسه . فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تنقع بهذا القدر ؟ . . . ومرّ رجل بماسر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً . فقال له . يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال ألا أدلك على من رضي بشرّ من هذا ؟ قال بلى ، قال من رضي بالدنيا هو صاع من الآخرة

وكان محمد بن واسع رحمه الله عليه يخرج خبزاً يابساً ، فيبله بالمد ، ويأكله بالملح ، ويقول . من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد وقال الحسن رحمه الله . لمن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه . ثم قرأ ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقُ الْآلَةِ . وكان أبو ذر رضي الله تعالى عنه يوماً جالساً في الناس ، فأنته امرأته فقالت له . أتجلس بين هؤلاء ؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة ، فقال يا هذه ، إن بين أيدينا عقبة كؤوداً ، لا ينجو منها إلا كل نحيف . فرجعت وهي راضية . وقال ذو النون رحمه الله . أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له . وقيل لبعض الحكماء . ما مالك ؟ فقال التجمل في الظاهر ، والتقص في الباطن والياس مما في أيدي الناس . وروي أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة . يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا محسن إليك وقد قيل في القناعة

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس      واقنع بئس فإن العز في اليأس  
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم      إن الفنى من استغنى عن الناس



وقد قيل في هذا المعنى أيضا

يا حاسما مانما والدمع يرمقه	مقرا أى باب منه يلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته	أغاديا أم بها يسرى فطرته
جمت ما لا قبل لي هل جمته	يا جامع المال أيا ما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه
إرفه يال فتى يفتدو على تفة	إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالمرض منه مصون ما يدنس	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يبق في ظلها هما يؤرقه

## بيان

فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا . فذهب الجنيذ ، والخواص ، والأكثر ، إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء : الذي الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنيذ دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا ، فأصابته عنة ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل . فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقا ، لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل فنقول :

إنما يتصور الشك في مقامين . أحدهما : فقير صابر ، ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض ، بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ، ليس حريصا على إسكالمال والثاني : فقير حريص ، مع غني حريص . إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص للمسك ، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص

أما الأول ، فرعا يظن أن الغني أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال ، والغني متقرب بالصدقات والخيرات ، والفقير عاجز عنه . وهذا هو الذي غلته ابن عطاء فيا نحسبه . فأما الغني التمتع بالمال ، وإن كان في مباح ، فلا يتصور . أن فضل على

الفقير القانع . وقد يشهد له ماروي في الخبر ، الفقراء <sup>(١)</sup> شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات ، والصدقات ، والحج ، والجهاد ، فلمهم كلات في التسييح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء ، تعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه : فقال عليه السلام : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » وقد استشهد به ابن عطاء أيضا لما سئل عن ذلك فقال : « الذي أفضله لأنه وصف الحق أما دليله الأول فقيه نظر ، لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك ، وهو أن ثواب الفقير في التسييح يزيد على ثواب الغني ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى <sup>(٢)</sup> زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إني رسول الفقراء إليك ، فقال « مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أَحِبُّهُمْ » قال قالوا يا رسول الله ، إن الأغنياء ذهبوا بالخير ، يحجون ولا تقدر عليه ، ويمتدرون ولا تقدر عليه ، وإذا مرضوا بمشوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بَلِّغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ أَنَّ لِيَنَّ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا مِنْكُمْ كَلَامَاتٍ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلْأَغْنِيَاءِ أَمَّا خِصْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ النَّجَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى بُحَيْرِ السَّمَاءِ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَبِيٌّ فَقِيرٌ أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ » وَالثَّانِيَةُ يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ يَنْصَفُ يَوْمٌ وَهُوَ تَحْسِبَانَةٌ عَالِمٌ وَالثَّالِثَةُ إِذَا قَالَ النَّبِيُّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَقَالَ الْفَقِيرُ مِثْلَ ذَلِكَ لَمْ يُلْحَقِ النَّبِيُّ بِالْفَقِيرِ وَلَوْ أَتَقَى

( ١ ) حديث شكى الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات - الحديث ؛

وفي آخره قال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه

( ٢ ) حديث زيد بن أسلم عن أنس بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الأغنياء ذهبوا

بالجدة يحجون ولا تقدر عليه - الحديث ؛ وفيه بلغ عن الفقراء ان الذين صبر واحتسب مكن كلات

خصال ليست للأغنياء - الحديث ؛ فأجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا المعنى ما رواه

ابن ماجه من حديث ابن عمر اشكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل

الله بهم عليهم أغنياءهم يقول يا معشر الفقراء ألا يفرحكم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم

ينصف يوم حسنة تام واستاده ضيف

فِيهَا عَشْرَةُ آلَافٍ دَرَجَةٍ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الَّذِينَ كُنْتُمْ فِيهَا فَمَنْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَأَخْبِرْهُمْ بِمَا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا ، رَضِينَا رَضِينَا .

فهذا يدل على أن قوله ذَلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، أي ميز بدواب الفقر على ذكرهم وأما قوله : إن النبي وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال . أرى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض ؟ فاقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا . إن التكبر من صفات الحق ، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع . ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات السودية أفضل للمبد ، كالخوف والرجاء ، و صفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها . ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « السَّكِينُ بِكَ رَدَائِي وَالْمُعْتَمِدُ إِزَارِي قَمَنَ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَصْتُهُ » وقال سهل . حب العز والبقا شرك في الربوبية ومنازعة فيها ، لأشهما من صفات الرب تعالى

فن هذا المجلس تكلموا في تفضيل النبي والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بمعمومات تتدلى التأويلات ، وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها . إذ كما يناقض قول من فضل النبي بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم النبي لأنه وصف للمبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والنفلة وصف المبد . وليس لأحد أن يفضل النفلة على العلم . فكشف النطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر ، وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره ، فينبغي أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله . والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى . ولا الفقر مطلوباً لعينه ، لكن لأن فيه فقد المائق عن الله تعالى ، وعدم الشاغل عنه . وكمن غي لم يشمله النبي عن الله عز وجل . مثل سليمان عليه السلام ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وكمن فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد . وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، و سلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل ، كما أن النبي قد يكون من الشواغل . وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب . والمحـب للشيء مشغول به سواء كان

( ١ ) حديث قال الله تعالى السَّكِينُ بِكَ رَدَائِي وَالْمُعْتَمِدُ إِزَارِي : تهم في العلم وغيره

في فراقه أوفى وصاله . وربما يكون شغله في الترافيق أكثر ، وربما يكون شغله في الوصال أكثر .  
والديناممشوقة النافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها .  
فإذاً إن فرصت فارغين عن حب المال ، بحيث صار المال في حقهما كالماء ، استوى الفاقده  
والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة . ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده .  
إذ الجامع يسلك سبيل الموت لا سبيل للمعرفة ، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكره فالفقير عن  
الخطر أبعد ، إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن المصمة أن لا يقدر . ولذلك قال  
الصحابه رضي الله عنهم . بلينا بفتنة الضراء فصرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه  
خلقة آدميين كلهم إلا الشاذ القذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادراً . ولما كان  
خطاب الشرع مع الكل ، لامع ذلك النادر ، والضراء أصحح للكل دون ذلك النادر ،  
وَجَزَّ الشَّرْعُ عَنِ النَّفْيِ وَذِمَّةٍ ، وَفَضَلَ الْفَقْرَ وَمَدَحَهُ ، حَتَّى قَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . لَا تَنْظُرُوا  
إِلَى أَمْوَالِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ بَرِيْقَ أَمْوَالِهِمْ يَذْهَبُ بِنُورِ إِيْمَانِكُمْ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : تَقْلِبْ  
الْأَمْوَالِ بِمِصْحَرَةِ الْإِيْمَانِ . وَفِي الْخَبَرِ إِنَّ <sup>(١)</sup> لِكُلِّ أَتَمَّةٍ عِجْلًا وَعِجْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ  
الَّذِينَ تَارُوا وَالدَّرْهَمُ ، وَكَانَ أَصْلُ عِجْلِ قَوْمِ مُوسَى مِنْ حَلِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ أَيْضًا . وَاسْتَوَاءُ  
لِلْمَالِ وَالْمَاءِ ، وَالذَّهَبِ وَالْحَجَرِ ، إِنْ تَصَوَّرَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْأَوْلِيَاءِ . ثُمَّ يَتِمُّ لَهُمْ ذَلِكَ بَعْدَ  
فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِطَوْلِ الْمَجَاهِدَةِ ، إِذْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٢)</sup> يَقُولُ لِلدُّنْيَا « إِيَّاكَ  
هَتَى » إِذْ كَانَتْ تَمَثَّلُ لَهُ بِزِينَتِهَا . وَكَانَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ يَقُولُ . يَا صَفْرَاءُ غَرَى غَيْرِي  
وَيَا بَيْضَاءُ غَرَى غَيْرِي . وَذَلِكَ لِاسْتِعْمَارِهِ فِي نَفْسِهِ ظُهُورَ مَبَادِي الْإِغْتِرَارِ بِهَا . لَوْ لَا أَنْ  
رَأَى بِرِمَانِ رَبِّهِ . وَذَلِكَ هُوَ النَّفْيُ الْمَطْلُوقُ . إِذْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ <sup>(٣)</sup> « لَا تَيْسُ الْغِنَى  
مِنْ كَثْرَةِ الرِّضَى إِنْمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

وإذا كان ذلك بعيداً ، فإذا الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وضرفوه  
إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا ، وتمتع بالقدرة عليها

( ١ ) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم : أبو منصور الديلمي عن طريق أبي عبد الرحمن

الديلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة

( ٢ ) حديث كان يقول الدنيا إليك عني - الحديث : الحاكم مع اختلاف وقد فهم

( ٣ ) حديث ليس النفي عن كثرة الرضى - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد صدم

واستشعار راحة في بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم . وبقدروا ما أنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة . وبقدروا ما أنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه . ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها . والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى ، وكان مؤمنا بالله ، انصرف لالحالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره . فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ، ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر بوقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر . ومثلها مثل المشرق والغرب ، فإنهما جهتان ، فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر . بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر . فعين حب الدنيا هو عين بنفص الله تعالى ، فببني أن يكون مطمح نظر المعارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها

فإذا فضل الفقير والنيي بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط . فإن تساوا يافيه تساوت درجاتهما إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور . فإن النفي ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقدته . فليجرب نفسه بتفريقه ، أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه التفاتاً ، فليعلم أنه كان مغروراً . فكهم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها . فيعد لزوم البيع وتسليم الجارية ، اشتملت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه ، فتحقق إذا أنه كان مغروراً ، وأن المشق كان مستكناً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد . وهذا حال كل الأغنياء ، إلا الأنبياء والأولياء

وإذا كان ذلك عالماً أو بعيداً ، فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أصنف . وبقدر ضعف علاقته تضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته . فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها ، بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور . ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول . ولذلك قال بعض السلف . مثل من تبتد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفى النار بالحلفاء ، ومثل من ينسل يده من النمر بالسمك . وقال أبو سليمان الأنباري رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها ، أفضل من عبادة غني ألف عام . وعن الضحاك قال :

من دخل السوق فرأى شيئا يشتهي ، ففسر واحتسب . كان خيرا له من ألف دينار ينمقها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله ، فقد أضربني الميال . فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز ، قاعد الله لي في ذلك الوقت ، فإن دعائك أفضل من دعائي . وكان يقول . مثل النبي المتبذ مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجواهر في جيد الحسناء .

وقد كانوا يكرهون سماع علم للرفقة من الأغنياء . وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم إني أسألك الدل عند النصف من قضى ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها ، فكيف يشك في أن فقد المال أصح من وجوده ؟ هذا مع أن أحسن أحوال النبي أن يأخذ حلالا ، ويتفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ، ويطول انتظاره . ومن نوقش الحساب فقه عذب . ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الحة ، إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحب أن لي حانونا على باب المسجد ، ولا تحطئي فيه صلاة وذكر ، وأريح كل يوم خمسين دينارا ، وأنصدق بها في سبيل الله تعالى . قيل وما تكره ؟ قال سوء الحساب .

ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء . اختار الفقراء راحة النفس ، و فراغ القلب ، وخفة الحساب . واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب ، وشدة الحساب . وما ذكره أن عطاء من أن النبي وصف الحق ، فهو بذلك أفضل ، فهو صحيح ، ولكن إذا كان البعد غنيا عن وجود المال وعدمه جيما ، بأن يستوي عنده كلاهما . فأما إذا كان غنيا بوجوده ، ومفتقر إلى بقاءه ، فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غني بذاته ، لا بما يتصور زواله . والمال يتصور زواله بأن يسرق . وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال . وما ذكر من أن صفات الحق لا تلحق بالمبد غير صحيح . بل العلم من صفاته ، وهو أفضل شيء للعبد . بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى . وقد سمعت بعض المشايخ يقول

إن سالت الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والسموات  
أوصافاً له . أى يكون له من كل واحد نصيب

وأما التكبر فلا يليق بالبدن ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات  
الله تعالى . وأما التكبر على من يستحقه ، كتكبر المؤمن على الكافر ، وتكبر العالم على الجاهل  
والمطيع على العاصي ، فيليق به . نعم قد يراد بالتكبر الزهو ، والصلف ، والإيذاء ، وليس  
ذلك من وصف الله تعالى . وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء ، وأنه يعلم أنه  
كذلك . والبعد مأمور بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما  
هو حقه ، لا بالباطل والتليس . فعلى البدن أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع  
أكبر من العاصي ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات  
وأقرب إلى الله تعالى منها . فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محقة لأشك فيها ، وكانت  
صفة التكبر حاصلة له ، ولا ثقة به ، وفضيلة في حقه . إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته ، فإن ذلك  
موقوف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكون ، وكيف تنقضي . فظلمه بذلك وجب  
أن لا يعتقد نفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يحتمل للكافر بالإيمان ، وقد يحتمل له بالكفر  
فلم يكن ذلك لاثقاً به لقصور علمه عن معرفة العاقبة

ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به ، كان العلم كمالاً في حقه ، لأنه في صفات الله تعالى  
ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضمره ، صار ذلك العلم نقصاناً في حقه . إذ ليس من أوصاف  
الله تعالى علم يضمره ، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في البدن من صفات الله  
تعالى فلا جرم هو متهم في الفضيلة ، وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء

فإذا لو استوى عنده وجود المال وعدمه ، فهذا نوع من النقي يضاهي بوجوده من الوجوه  
النقي الذي يوصف به الله سبحانه ، فهو فضيلة . أما النقي بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً  
فهذا بيان نسبة حال الفقير القائم إلى حال النقي الشاكر .

المقام الثاني : في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال النقي الحريص

ولنفرض هذا في شخص واحد ، هو طالب للمال ، وساع فيه ، وفاتق له ثم وجدته ، فله  
حالة الفقد وحالة الوجود . فأَي حالتيه أفضل ؟ فنقول . . . . . ننظر ، فإن كان مطلوبه بالابد

منه في العبثة، وكان قصده أن يسلك سبيل الدين، ويستعين به عليه، خال الوجود  
أفضل. لأن الفقر يشغله بالطلب. ومطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة  
مدخولة بشغل. ولكنني هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اللهم اجعل قوت آل  
محمد كقوتك» وقال «كأد ألقم أن يكون كفراً» أي الفقر مع الاضطراب فما لا بد منه  
وإن كان المطلوب فوق الحاجة، أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود  
الاستعانة به على سلوك سبيل الدين، فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنها استويا في الحرص  
وحب المال، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين،  
واستويا في أن كل واحد منهما ليس يترضى لمصيبة بسبب الفقر والفتنة. ولكن افتراق  
أن الواحد يأنس بما يجده فيتأكد حبه في قلبه، ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجأ  
قلبه عن الدنيا، وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبنى الخلاص منه. ومهما استوت  
الأمر كلها، وخرج من الدنيا رجلاً، أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لاحتالة، إذ  
يلتفت قلبه إلى الدنيا، ويستوحش من الآخرة، بقدر تأكد أنه بالدنيا، وقد قال صلى الله  
عليه وسلم «<sup>(١)</sup> إِنْ رُوحَ الْفَدْسِ نَفَتْ فِي رُوعِي أَحَبُّ مِنْ أُحْيَيْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»  
وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد. فينبغي أن تحب من لا يفارقه وهو الله تعالى  
ولا تحب ما يفارقه وهو الدنيا. فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون  
قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه. وكل من فارق محبوا فيكون أذاه في  
فراقه بقدر حبه وقدر أنه به. وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفائدها،  
وإن كان حربها عليها. فإذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشراف، والأفضل  
والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين: أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها، يستوى  
عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيداً له، إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين  
وجمع همهم، والثاني: الفقر عن مقدار الضرورة، فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً، ولا خير  
فيه بوجه من الوجوه، إلا إذا كان وجوده يبق حياته، ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر  
والمعاصي، ولومات جوعا كانت معاصيه أقل، فالأصلح له أن يموت جوعاً ولا يهدم ما يضطر إليه أيضاً

(١) حديث انورح القدس نفث في روعى أحب من أحببت فانك معارقه: تقدم



فهذا تفصيل القول في النفي والمقرر . ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طالب المال ، ليس له ثم سواء ، وفي غنيّ دونه في الحرص على حفظ المال . ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقدته كتنفيع الفقير بفقره ، فهذا في محل النظر . والأظهر أن مُدْمَعَيْنِ الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال ، وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقدته ، والعلم عند الله تعالى فيه

## بيان

آداب الفقير في فقره

اعلم أن للفقير آداباً في بطلته وظاهره ، وباطنه وأفعاله ، ينبغي أن يراعيها . فأما أدب باطلته فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر . أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ، وإن كان كارهاً للفقر . كالحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ، ولا يكون كارهاً فعل الحجام ، ولا كارهاً للحجام . بل ربما يتقصد منه منة . فهذا أقل درجاته ، وهو واجب ، وتقبضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام « يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ اعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطَفُّرُوا بِثَوَابِ فَقِيرِكُمْ وَلَا قَلَا » وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر ، بل يكون راضياً به

وأرفع منه أن يكون طالباً له ، وفرحاً به ، لملئه بغوائل النفي ، ويكون متوكلاً في باطلته على الله تعالى ، وانقابه في قدر ضرورته أنه يأتيه لاعالة ، ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف وقد قال علي كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ، ومثوبات بالفقر . فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة ، أن يحسن عليه خلقه ، ويوطين به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره . ومن علاماته إذا كان عقوبة ، أن يسوء عليه خلقه ، ويعصى ربه بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ، وينسخط القضاء

وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود . بل الذي لا يتسخط ويرضى ، أو يفرح بالفقر ويرضى لملئه بشمرته . إذ قيل ما أعطي عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذْه على ثلاثة أمثلاث : شغل ، وهم ، وطول حساب

وأما أدب ظاهره ، فإن يظهر التففف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستر . ففي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْيَمَالِ » وقال تعالى ( بِحَسْبِهِمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَفُّفِ <sup>(١)</sup> ) وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند الحاجة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر

وأما في أعماله ، فأدبه أن لا يتواضع لغيره لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال علي كرم الله وجهه . ما أحسن تواضع النبي للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على النبي ثقة بالله عز وجل . فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم ، لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه عمراء . وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض المارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل ويغني أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء ، وطعنا في العطاء

وأما أدبه في أفعاله فإن لا يكثر بسبب الفقر من عبادة ، ولا ينع بذل قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . <sup>(٢)</sup> روى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دَرَاهِمُ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ » قيل وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال « أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فَصَدَّقَ بِهَا وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَمًا مِنْ دِرْهَمَيْنِ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَبِيبَةً يَبْرِئُ نَفْسَهُ فَصَارَ صَاحِبُ الدَّرَاهِمِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ الْمِائَةِ أَلْفِ »

ويغني أن لا يدخر مالا ، بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي . وفي الادخار ثلاث درجات إحداها : أن لا يدخر إلا ليوومه وليلته ، وهي درجة الصديقين والثانية : أن يدخر لأربعين يوما ، فإن مازاد عليه أدخل في طول الأمل . وقد فهم العلماء

( ١ ) حديث زيد بن أسلم درم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قبل وكيف يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف - الحديث : النسائي من حديث أبي هريرة متصلا وقد تقدم في الزكاة ولأصله لمن رواية زيد بن أسلم مرحلا

ذلك من ميماد الله تعالى لموسى عليه السلام ، فتمم منه الرخصة في أمل أنبياء أربيعين يوما ، وهذه درجة المتقين

والثالثة : أن يدخر لسته ، وهي أقصى للراتب ، وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم ، خارج عن حيز الخصوص بالكلية ففنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته ، وغنى الخصوص في أربيعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهن قوت أربيعين يوما ، وبعضهن يوما وليلة ، وهو قسم عائشة وحفصة

## بيان

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير مؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاث أمور : نفس المال ، وغرض المطلب ، وغرض في الأخذ . أما نفس المال . فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها . فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه . وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابها وما يستحب . - وأما غرض المطلب . فلا يخاف إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلبه محبته ، وهو الهدية ، أو الثواب ، وهو الصدقة والزكاة ، أو الذكر والرياء والسعة ، إما على التجرد ، وإما ممزوجا ببقية الأغراض

أما الأول وهو <sup>(١)</sup> الهدية ، فلا بأس بقبولها : فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها . فإن علم أن بعضا مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض . فقد <sup>(٢)</sup> أهدى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ان يقول الهدية منة : خدم الله صلى الله عليه وسلم كان قبل الهدية

(٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم من وأقط وكبش قبل السن وأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليلى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من من وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليا الآخر وأسنده جيب وقال وكبش مرة من يلى بن مرة عن أبيه



والطيبات فقبل ذلك منه . فقال الخراساني : ما أجد في بغداد أمن علي منك . فقال الجنيدي :  
ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك

الثاني : أن يكون لاثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشبه عليه فهو عمل شبيهة . وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة ، وكان يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه . فإن كان مقارفا لمعصية في السر ، يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفرطبه ، ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه . كما لو أعطاه لظنه أنه عالم . أو علوي ، ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون مبيّنا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت . وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنا أرد صلّتهم إشفاعاً عليهم ، ونصائحهم ، لأنهم يذكركم ذلك ، ويحبون أن يعلم به ، فتذهب أموالهم ، وتحبط أجورهم

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد له منه ، أو هو مستغن عنه . فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي ، فالأفضل الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا الْمُطْعَى مِنْ سَمَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ الْآخِذِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَأَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » وفي لفظ آخره « فَلَا يَرُدُّهُ »

وقال بعض العلماء من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يُعط . وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا ، فردّه مرة ، فقال له السري . يا أحمد ، احذر آفة الرد ، فإنها أشد من آفة الأخذ . فقال له أحمد . أعذ عليّ ما قلت . فأعاده ، فقال أحمد . ما رددت

( ١ ) حديث ما المعطي من سمّة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً بالطبراني من حديث ابن عمر وقد تهم في الزكاة

( ٢ ) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإمّا هو رزق سأل الله إليه وفي لفظ آخر فلا تردّه : فهذا ما قبل هذا حديث

عليك إلا لأن عندى قوت شهر ، فأحبسلى عندك ، فإذا كان بعد شهر فأفنده إلى وقد قال  
 بعض العلماء : يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع ، أو دخول في شبهة أو غيره  
 فأما إذا كان مآثمه زائدا على حاجته ، فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه ،  
 والتكفل بأمور الفقراء ، أو الإتيان عليهم ، لما في طبعه من الرفق والسخاء . فإن كان مشغولا بنفسه  
 فلا روجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا لطريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى . وكل  
 صله ليس لله فهو في سبيل الشيطان ، أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه  
 ثم له مقامان أحدهما : أن يأخذ في الملاية ويرد في السر ، أو يأخذ في الملاية ويفرق  
 في السر ، وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس ، لا يطيقه إلا من أطاعت نفسه بالياسة  
 والثاني : أن يترك ولا يأخذ ، ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه ، أو يأخذ ويوصل  
 إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما في السر ، أو كليهما في الملاية ، وقد ذكرنا هل الأفضل  
 إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة ، مع جملة من أحكام الفقر . فيطلب من موضعه  
 وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمه الله ، فإنما كان لاستغناؤه  
 عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ، ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ، فإن في  
 ذلك آفات وأخطارا . والورع يكون حذرا من مظان الآفات ، إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه  
 وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندى دراهم أعدتها للإسقاء في سبيل الله ،  
 فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي . أنا جائع كما ترى عريان كما ترى  
 فما ترى فيما ترى ؟ يا من يرى ولا يرى . فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت  
 في نفسي . لأجد لدرامي موضعا أحسن من هذا . فحملتها إليه : فنظر إليها ، ثم أخذ منها  
 خمسة دراهم وقال أربعة غنن منزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثا ، فلا حاجة بي إلى الباقي ، فردده . قال  
 فرأيت البلية الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء . فالتفت إلي ، فأخذ  
 يدي ، فأطافني معه لسبوعا ، كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخسش تحت  
 أقدامنا إلى الكمينين ، منها ذهب ، وفضة ، وياقوت ، ولؤلؤ ، وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس  
 فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه ، وأخذ من أيدي الخلق ، لأن هذه أفتال وقتة ،  
 وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة

وللقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتة ، لينظر الله إليك ، ماذا

تعمل فيه ، وقدر الحاجة بأتيك رفقا بك فلا تنفل عن الفرق بين الرفق والابتناء  
قال الله تعالى ( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِيَبْلُوَهُمْ فِيهِمْ أَحْسَنُ مَخْلَأً )<sup>(١)</sup>  
وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَأَحَقُّ لِابْنِ آدَمَ الْإِثْمُ فِي ثَلَاثٍ طَعَامٌ يَتَقِيمُ مُصْلَبُهُ وَثَوْبٌ  
يُؤَارِي عَوْرَتَهُ وَبَيْتٌ يُكْنُهُ قَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ »

فلماذا أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تمس الله  
بمرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت معرض للعقاب  
ومن الاختبار أيضا أن تمزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى ، وكسرا لصفة  
النفس ، فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها ، فإن النفس إذا  
رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد ، وعادت لماداتها ، ولا يمكن قهرها ، فرد ذلك  
مهم ، وهو الزهد ، فإن أخذه وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون  
وأما إذا كانت حالك السخاء ، والبذل ، والتكفل بمحقوق الفقراء ، وتمهد جماعة من  
الصلحاء ، فنخذ ما زاد على حاجتك ، فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف  
إليهم ، ولا تدخره ، فإن امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحمل في  
قلبك فتنة عليك .

وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة . إلى التوسع في المال ، والتسليم في المعظم  
والمشرب ، ، وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به ، فله أن يستقرض  
على حسن الظن بالله ، لأعلى اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاء ، وإن  
مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه ، وأرضى غراماه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوفه .  
الحال عند من يقرضه ، فلا يفر المقرض ولا يخذله بالمواعيد ، بل يكشف حاله عنده ، ليقدم  
على إقرضه على بصيرة . ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ،  
ومن الزكاة ، وقد قال تعالى ( وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ )<sup>(٣)</sup> قبل معناه

( ١ ) حديث لاحق لابن آدم الآتي ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى عورته وبيت يكنه غلازا فهو حساب  
الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الحيزولاء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح

يبيع أحدكمويه، وقيل معناه فليس يستر ضيقه، فذات مما أنام الله وقال بعضهم: إن الله تعالى عبادة يتفقون على قدر بضائعهم، والله عبادة يتفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بانه ثلاث طوافات الأقبية، والأسخياء، والأغنياء فقيل من هؤلاء؟ فقال أما الأقبية فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى. فإذا هما وجدت هذه الشروط فيه، وفي المال، وفي المعطى، فليأخذ به وينفى أن يرى ما يأخذ من الله لا من المعطى، لأن المعطى واسطة قد سخر للمعطاء، وهو مضطر إليه بما سلف عليه من الدواعي، والإرادات، والإعتقادات وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول من لم يرى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام. فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم، كان دونهم في الدرجة. فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم وقال موسى عليه السلام: يارب جبلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل، يشدني هذا يوما ويمشيني هذا ليلة! فأوحى الله تعالى إليه: هكذا أصنع بأولائي، أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطى إلا من حيث أنه مسخر مأجور من الله تعالى. نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه

## بيان

تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه .

اعلم أنه قد وردت مناهج كثيرة في السؤال وتشديدات. وورده أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ»، وفي الحديث <sup>(٢)</sup> «رُدُّوا

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس: أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الأول يعل بن أبي يحيى جملة أبو حاتم ورواه ابن جبان وفي الثاني شيخ إسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه باه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق - الحديث: فإنه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده

(٢) حديث ردوا السائل ولو بظن عرق: أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي واللفظ لمن حديث أبي حميد وقال ابن عبد البر حديث مضطرب



السَّائِلَ وَلَوْ يَظْلِمُ مَحْرَقًا » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إمانته المتعدي على عدوانه والإعطاء إمانته . فالكشف للفظاء فيه أن السؤال حرام في الأصل ، وإعاليها بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة . فإن كان عنها بد فهو حرام . وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر ، وذكر لتصور نعمته تعالى عنه ، وهو عين الشكوى . وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا للضرورة كما يحل الميتة الثاني : أن فيه إزال السائل نفسه لغير الله تعالى . وليس للمؤمن أن يذل نفسه لنفسه الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه ، فإن فيه عزه . فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغي أن يذل لهم إلا للضرورة . وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤل

الثالث : أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤل غالبا ، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل من طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استنحيا وتأذى في نفسه بالمنع ، إذ يرى نفسه في صورة البخلاء . ففي البذل نقصان ماله ، وفي المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب في الإيذاء ، والإيذاء حرام إلا للضرورة ومهما فهيت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ مِنْ الْفَوَاحِشِ مَا أُحِلَّ مِنْ الْفَوَاحِشِ غَيْرُهَا » فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح للضرورة ، كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ سَأَلَ عَنْ غِيٍّ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ تَجْرِ جَهَنَّمَ »

( ١ ) حديث مثله الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها : لأجله أصلا

( ٢ ) حديث من سأل عن غيٍّ فإنما يستكثر من جمر جهنم - الحديث : أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصر على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة والحلم من حديث أبي هريرة من سأل الناس أوالهم تكثرا فأما يسأل جبرا - الحديث : والبخاري والطبراني من حديث مسعود بن عمرو لا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يغفل وجهه وفي إسناده لين ولشيوخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد

« وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا فِيهِ بَنَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهَةٌ تَعَالَى تَقَعُ عَلَيْهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حِمٌّ »  
وفي لفظ آخر « كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشًا وَكُدُوحًا فِي وَجْهِهِ » وهذه الألفاظ صريحة  
في التحريم والتشديد (٢)

وبإيعاز رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام ، فاشتراط عليهم السمع والطاعة  
ثم قال لهم كلمة خفيفة « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا  
بالتعفف عن السؤال ، فيقول (٣) « مَنْ سَأَلَنَا أُعْطِينَاهُ وَمَنْ اسْتَعْنَى أَعْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا  
فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « اسْتَفْتُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ  
فَهُوَ خَيْرٌ » قالوا ومنك يا رسول الله ؟ قال « وَمِنِّْي »

وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال لواحد من قومه : عش الرجل  
فشاه . ثم سمعه ثانيا يسأل ، فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشت . فنظر عمر  
فإذا تحت يده غلالة مملوءة خبزا . فقال . لست سائلا ، ولكنك تاجر . ثم أخذ الغلالة  
ونثرها بين يدي إبل الصدقة ، وضربه بالدرة ، وقال لا تعد . وأولاً أن سؤاله كان  
حراما لما ضربه ولا أخذ غلاله

ولعل الفقيه الضعيف النية ، الضيق الحوصلة ، يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه  
فهو تأديب ، وقد ورد الشرع بالتعزير . وأما أخذه ماله فهو مصادرة ، والشرع لم يرد  
بالمعقوبة بأخذ المال ، فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه . فأين  
يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأدلاءه على أسرار دين الله

( ١ ) حديث من سأل وله ما فيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه : أعجاب الناس من حديث  
ابن مسعود وتشم في الزكاة

( ٢ ) حديث بإيعاز قوما على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة : ولا تسألوا الناس شيئا  
مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي

( ٣ ) حديث من سألنا أُعْطِينَاهُ وَمَنْ اسْتَعْنَى أَعْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا : ابن أبي الدنيا في النفاة والحارث  
ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حصن بن هلال لم يؤمن تكلم فيه وباقين ثقات

( ٤ ) حديث استفتوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير - الحديث : الزباز والطراي من حديث  
ابن عباس استفتوا عن الناس ولو بشوش السواك وإسناده صحيح وله في حديث يمدى الحديث

تعففوا ولو بعزم الخطب وفيه من لم يسلم وفيه وما قل من السؤال الخ

ومصالح عباده . أفتري أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة ؟ أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله ؟ وحاشاه . أو أراد الزجر بالمصلحة بنير طريق شرعها نهي الله وهيبات فإن ذلك أيضا معصية . بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئا فإنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج ، وقد كان كاذبا ، فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التليس وعسر تمييز ذلك وردده إلى أصحابه . إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى مالا لا مالك له فوجب ضربه إلى المصالح ، وإيل الصدقة وعلقها من المصالح

ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا ، كأخذ المولي بقوله إني علوي وهو كاذب ، فإنه لا يملك ما يأخذه . وكأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصالحه ، وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها للمعطى لما أعطاه . وقد ذكرنا في مواضع أن ما أخذه على هذا الوجه لا يملكونه ، وهو حرام عليهم ، ويجب عليهم الرد إلى مالكه . فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء . وقد قررناه في مواضع . ولا تستبدل بفتلتك عن هذا الفقه على بطلان فصل عمر

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه ، أو محتاجا إليه حاجة مهمة ، أو حاجة خفيفة ، أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا ، وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحا ، والمسئول منه بكونه راضيا في الباطن ، وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطلان ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته . وكل من له خطأ فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله . فسؤاله حرام قطعا . وهذان طرفان واضحان

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمرضى الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه ولو لم يستعمله ولكن لا يحلو عن خوف . وكن له جبة لا قيص تحتها في الشتاء ، وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة . وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة . فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة ، لأنها أيضا حاجة محقة . ولكن الصبر عنه أولى

وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مسكروها، هما صدق في السؤال : وقال ليس تحت جيتي قيص ، والبرد يؤذيني أذى أطيقه : ولكن يشق علي . فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى

وأما الحاجة الخفيفة فنسأل سؤاله قيصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ، ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، ولكن يسأل لأجل الأدم وهو واجد لاخير . ولكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار . أو يسأل كراء الحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تليس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام . وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة ، من الشكوى ، والدل ، وإيذاء المسؤل فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات . وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة

فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟

فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ، ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ، ولكن تطابني رعونة النفس شوب فوق ثيابي ، وهو فضلة عن الحاجة وفصول من النفس . فيخرج به عن حد الشكوى

وأما الدل فيأن يسأل أباه ، أو قريبه ، أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ، ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخي الذي قد أعد ماله لمثل هذه المكالم ، فيفرح بوجود مثله ، ويتقبل منه منة بقبوله ، فيسقط عنه الدل بذلك . فإن الدل لازم للمنة لا شيء إلا

وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه ، بل يلق الكلام عرضا ، بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة . وإن كان في القوم شخص مرموق ولم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح ، بل يمرض تعريضا يبق له سبيلا إلى التغافل إن أراد . فإذا لم تغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته ، وأنه غير متأذ به . وينبغي أن يسأل من لا يستحي منه لو ردّه أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذي ، كما أن الرياء مع غير السائل يؤذي

فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ، ولو لاه لما ابتدأ به ، فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جليده بسياط الخشب ، أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف اللام . وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء . ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به ، وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّمَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ » ، فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات ، إذ لا يمكن ردم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان ، مع أنه ترجح كثير الكذب ، ولكن الضرورة دعت إليه . وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالأنسة عند سائر الحكماء ، فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتى معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتى القلوب هم علماء الآخرة ، وفتوهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة ، كما أن فتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا .

فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ، ويجب عليه رده إلى صاحبه . فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده ، فعليه أن يشبهه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ، ليتفصى عن عهده . فإن لم يقبل هديته ، فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته . فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى ، وهو حاص بالتصرف فيه ، وبالسؤال الذي حصل به الأذى

فإن قلت : فهذا أمر باطن ليسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟ فرجما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضا

فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا : فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا . فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما . وقال : لأنى علمت أنه يفرح بمخرج المال من يده ، فأنا أعينه على ما يحب . وإنما عظم التكبر في السؤال وتماكدا الأمر بالتعفف لهذا . لأن الأذى إنما يحل بضرورة ، وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ،

( ١ ) حديث إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر : لم أجده أصلا وكذا قال الزى لماسئل عنه .

ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ، ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فباح له ذلك ، كما يباح له أكل لحم الخنزير ، وأكل لحم الميتة . فكان الامتناع طريق الوديعين . ومن أرباب القلوب من كان واقفا يصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض . ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه . ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بمضاوٍرٍ بمضا ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبش والسمن والافط . وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة . ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه ، أو طلبا للرياء والسعة ، فكانوا يجترزون من ذلك

فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين :

أحدهما : الضرورة ، فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة . سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك في أنهم ماسألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني : السؤال من الأصدقاء والإخوان ، فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يرحون بمباستطهم . فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه ، وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال

وحد إباحة السؤال أن تعلم أن للسؤل بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تريف حاجتك . فأما في تحريكه بالحياه ، وإثارة دأعيته بالخيال فلا . وتصدى للسائل حالة لايشك فيها في الرضا بالباطن ، وحالة لايشك في الكراهة . ويعلم ذلك بقرينة الأحوال . فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق ، وفي الثانية حرام سحت . ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها ، فليستفت قلبه فيها ، وليترك حراز القلب ، فإنه الإثم . وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته ، وضمف حرصه وشهوته . فإن قوي الحرس وضعفت الفطنة تراه له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وهذه الدقائق يطلم على سر قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ » وقد أوتي جوامع الكلم

(١) حديث ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه : تقدم

لأن من لا كسب له ، ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته ، فيأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى يديه . ومتى يكون ياطنه بحيث لو انكشف لا يعطى يديه فيكون ما يأخذه حراما . وإن أعطى بسؤال فأين من يعطيه قلبه بالمعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ؟

فإذا قنشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله وأكثره سمحت وأن العيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك . فإذا بيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يثبتنا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عن سواه بمنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير

## بيان

مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غَنًى فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَهْرًا فَلْيَسْتَعِزَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ » صريح في التحريم . ولكن حد الغنى مشكل ، وتقديره صعب . وليس إلينا وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف

وقد ورد في الحديث <sup>(١)</sup> « اسْتَفْتُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ تَكُنْ عَنْ غَيْرِهِ » قالوا وما هو ؟ قال « عَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ » وفي حديث آخر <sup>(٢)</sup> « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ تَخْمُسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلَهَا مِنْ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِخْلَافًا » وورد في لفظ آخر أربعمائة درهم . ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فبني أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة . فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع . وغاية المسكن فيه تقرب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَأَحَقُّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ طَلَامٍ يُقِيمُ صُلبَهُ وَثَوْبَ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَيَنْتِ بِكُنْهٍ قَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ » فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات

( ١ ) حديث استمعوا بغير الله قالوا وما هو قال عداؤه يوم وعشائه ليله : تقدم في الزكاة من حديث سهل بن الحنفية

قالوا ما ينبغي قال ما يديه أو يمينه ولا أحد من حديث علي بن مسعود حسن قالوا وما ظهر غنى قال

عشائه ليله . وأما اللفظ الذي ذكره للصفه ذكره صاحب القردوس من حديث أبي هريرة

( ٢ ) حديث من سأل وله خمسمائة درهم أو عدلها من الذهب سأل إخلافا في قصه آخر أبو بكر بن عمر بن عبد الله بن الزكاة

فأما الأجناس فهي هذه الثلاث . ويلحق بها ما في منهاها . حتى يلحق بها الكراء  
للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي ، وكذلك ما يجري مجراه من المهمات . ويلحق بنفسه  
هياله وولده ، وكل من تحت كفالاته كالأبنة أيضا

وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين ، وهو ثوب واحد ، وقبص ، ومنديل  
ومراويل ، ومداس ؛ وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه . وليقس على هذا أثاث  
البيت جميعا . ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب ، وكون الأواني من النحاس والصفرة فيما يكتنى  
فيه الخرف ، فإن ذلك مستغنى عنه . فيقتصر من المدد على واحد ، ومن النوع على أخس  
أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن المادة . وأما الطعام فقدره في اليوم مد ، وهو  
ما قدره الشرع . ونوعه ما يقتات ولو كان من الشخير ، والأدم على الدوام فضلا ، وقطعه بالكفا  
إضرار ، فني طلبة في بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجزىء من حيث  
المقدار ، وذلك من غير زينة . فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى

وأما بالإضافة إلى الأوقات ، فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة ، وثوب يلبسه  
وما يرى بكنه ، فلا شك فيه . فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات

إحداها : ما يحتاج إليه في غد . والثانية : ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما  
والثالثة : ما يحتاج إليه في السنة . ولنتقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعِياله ، إن  
كان له عيال ، لسنة ، فسؤاله حرام . فإن ذلك غاية النفي . وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما  
في الحديث . فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد . أما المميل فربما لا يكفيه  
ذلك . وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا فتوته فرصته . فلا يحمل  
له السؤال ، لأنه مستغن في الحال ، وربما لا يمش إلى الند ، فيكون قد سأل ما لا يحتاج ،  
فيسكفيه غداه يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر .

وإن كان يفوته فرصة السؤال ، ولا يجد من يعطيه لو أخر ، فيباح له السؤال ، لأن  
أمل البقاء سنة غير بعيد ، فهو بتأخير السؤال خائف أن يبق مضطرا عاجزا عما يمينه  
فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضميما ، وكان المألجله السؤال خارجا  
عن محل الضرورة ، لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب



وخوف القوت، وتراخى المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط، وهو منوط باجتهاد العبد ونظرة لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستغنى فيه قلبه، وبمعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة. وكل من كان يقينه أقوى، وثقته بمجىء الرزق في المستقبل أتم، وقناعاته بقوت الوقت أظهر، فدرجته عند الله تعالى أعلى. فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعمالك إلا من ضعفه اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان. وقد قال تعالى ( فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوايَ إِنِّي كُنْتُمُ مُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( الشَّيْطَانُ يَمْدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَمْدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا<sup>(٢)</sup> )

والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة. وحال من يسأل حاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة، أشد من حال من ملك مالا موروثا وأدخره لحاجة وراء السنة. وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة، ولكنهما صادران عن حب الدنيا، وطول الأمل، وعدم الثقة بفضل الله. وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

## بيان

أحوال السائلين

كان بشرحه الله يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ. فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أعطي أخذ. فهذا مع المقرين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين : فإذا قد اتفق كلهم على ذم السؤال، وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن آدم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا. وظن أنه لما وصفهم

(١) آل عمران : ١٧٥ (٢) البقرة : ٢٦٨

ترك السؤال قد أني عليهم غاية الشناء . فقال شقيق هكذا تركت كلاب بليخ عندنا . فقال إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ . فإذا درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر ، والشكر ، والسؤال كثيرة . فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ، ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين . وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم ردى إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يرقى إلى أعلى عليين . ومن لا يعز بين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا . وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه .

وأرباب الأحوال قد تنلهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزبدا لهم في درجاتهم ، ولكن بالإضافة إلى حالهم . فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا اسحق النورى رحمه الله يعيده ويسأل الناس في بعض المواضع ، قال فاستعظمت ذلك واستعجبته له ، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال . لا يعظم هذا عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليتبينهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يَدْ الْمُنْطَلِي هِي الْمُنْطَلِي » فقال بعضهم يد المنطلي هي يد الآخذ للمال ، لأنه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه . ثم قال الجنيد . هات الميزان . فوزن مائة درهم ، ثم قبض قبضة فالتقاها على المائة ، ثم قال احملها إليه . فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به عجز ولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله . فذهبت بالصره إلى النورى ، فقال هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه ، وقل له أنا لأقبل منك أنت شيئا . وأخذنا زادا على المائة قال فزاد تعجبي ، فسأته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الجبل بطرفه ، وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل . فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ، ورددت ما جعله لنفسه . قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال . أخذ ماله ورد مالنا ، الله المستعان

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم ، وكيف خلصت قلوبهم ، حتى كان  
 يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجي  
 الأسرار ، وذلك نتيجة لكل الحلال ، وخالو القلب عن حب الدنيا ، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة  
 فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلًا قبل  
 شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنهه مجبوده ولم يصل ، فأنكر ذلك  
 لغيره ، كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه ، فأخذ ينكر كون الدواء  
 مسهلًا . وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ، ولكنه ليس خالياً عن حظ وافٍ من الجهل  
 بل البصير أحد رجلين . إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم ، فهو صاحب  
 الذوق والمعرفة ، وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق ، أو سلك ولم يصل  
 ولكنه آمن بذلك وصدق به ، فهو صاحب علم اليقين ، وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين  
 ولعلم اليقين أيضاً رتبة ، وإن كان دون عين اليقين . ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين  
 فهو خارج عن زمرة المؤمنين ، وبحسريوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين ، الذين  
 هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين ، ففسأل الله تعالى أن يحلنا من الراسخين في العلم  
 القائلين آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الأبواب

## الشرط الثاني

من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان  
 تفصيل الزهد في العلم ، والملبس ، والسكن ، والأثاث ، وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد

## بيان

حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . ويتنظم هذا المقام من علم  
 وحال ، وعمل ، كمائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد ، وقول  
 وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن . والأقليس القول

مرادا لبيته. وإن لم يكن صادرا عن حال سمي إسلاما ولم يسم إيمانا. والعلم هو السبب في الحال، يجري مجرى الثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة. فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل. أما الحال فنسفي بها ما يسمى زهدا. وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه. فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه. وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فخاله بالإضافة إلى المدلول منه يسمى زهدا، وبالإضافة إلى المدلول إليه يسمى رغبة وحبا

فإذا استدعى حال الزهد مرغوبا عنه، ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه. فنرغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا. إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا. وإنما يسمى زاهدا من ترك الدرهم والدنانير، لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة

وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه، حتى تغلب هذه الرغبة. فالبايع لا يقدم على البيع إلا المشتري عنده خير من المبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه، وبالإضافة إلى الموضع عنه رغبة فيه وحبا. ولذلك قال الله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ<sup>(١)</sup>) معناها باعوه. فقد يطلق الشراء بمعنى البيع. ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه، إذ طعموا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف، فباعوه طمعا في الموضع. فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا. وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد واسكن في الآخرة. ولكن المادة جارية بتخصيص اسم الزاهد بمن زهد في الدنيا، كاختصاص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة، وإن كان هو القليل في وضع اللسان

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجهل، لم يتصور إلا بالمدلول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بنير الأحب تعالى. والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى، حتى للقراديس، ولا يجب إلا الله تعالى، فهو الزاهد المطلق. والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا، ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة، بل طمع في الحور، والقصور، والأنهار

والفواكه فهو أيضا زاهد ، ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاه ، أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة ، فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا . ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المأصفي في التائبين . وهو زهد صحيح . كما أن التوبة عن بعض المأصفي صحيحة . فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض ، كما لا يبعد ذلك في المحظورات . وللمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً ، وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ، ولكن المادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات . فإذا لزمه عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ، وهي الدرجة العليا . وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده ، فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك ما لا يقدر عليه محال . وباترك يتيين زوال الرغبة . ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد هر بن عبد العزيز ، إذ جاءت الدنيا رائحة فتركها ، وأما أنا فقيما ذاهدت ؟

وأما العلم الذي هو مثمر لهذه الحال ، فهو العلم بكون التروك حقيقيا بالإضافة إلى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن الموضع خير من البيع فيرغب فيه . وبالمحقق هذا العلم يتصور أن تزول الرغبة عن البيع . فكذلك من عرف أن ما عند الله باق ، وأن الآخرة خير وأبقى أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى ، كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من التلج مثلا ، ولا يصير على مالك التلج يبيعها بالجواهر واللائي . فهكذا مثال الدنيا والآخرة . فالدنيا كالتلج الموضوع في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الاقتراض ، والآخرة كالجوهر الذي لأفناء له فيقدر قوة اليقين والمعرفة بالفاوت بين الدنيا والآخرة ، تقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى أن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى ( إِنْ أَفْءَى اشْتَرَى مِنْ الْإِيمَانِ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةُ )<sup>(١)</sup> ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى ( فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ )<sup>(٢)</sup>

فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى . وقد

يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه و يقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه ، وكونه مقهوراً في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم ، إلى أن يحتفظه الموت ، ولا يبق معه إلا الحسرة بعد الفوت

وإلى تعريف حساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى ( قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ <sup>(١)</sup> ) وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل ( وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ <sup>(٢)</sup> ) فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه

ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحبه منه ، <sup>(٣)</sup> قال رجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَقُلْ هَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتُمَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيقة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والبعد يراها حقيقة في حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له . ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً لأنه مستغنى عن الحشرات أصلاً ، وليس مستغنياً عن الفرس . والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ويراها متفاوتاً بالإضافة إلى غيره . والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره

وأما العمل الصادر عن حال الزهد ، فهو ترك واحد ، لأنه بيع ، ومعاملة ، واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى . فكأن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك البيع ، وإخراجه من اليد ، وأخذ الموضع ، فكذلك الزهد يجب ترك الزهود فيه بالسكينة ، وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ، ومقدماتها ، وعلاقاتها ، فيخرج من القلب حبها ، ويدخل حب الطاعات ، ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وثلث الطاعات . والإمكان كن سلم البيع ولم يأخذ الثمن . فإذا وثق بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليس يستبشر ببيعه الذي يبيع به ، فإن الذي يابعه بهذا البيع وثق بالمهدي . فمن سلم حاضر في غائب ، وسلم الحاضر

( ١ ) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك : ذكره صاحب الفردوس مختصراً اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القيصير ولم يخرج له

وأخذ يسعى في طلب الغائب ، سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العائد ممن يوثق بصدقه ، وقدرته ، ووفائه بالمهد . وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا . ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين ، وإن كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أيتامنا ، وعزموا على إعادته كما عزموا على يوسف ، حتى تشفع فيه أحدم قترك . ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عند التسليم والبيع

فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيها أخرجت فقط ، ولست زاهدا مطلقا . وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا ، لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه . وربما يستهويك الشيطان بغروره ، ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها ، فلا ينبغي أن تبدل بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله . فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها . فكف من ظان بنفسه كراهة الماضي عند تصورها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير منكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات ، فإياك أن تثق بوعدها في اللباحات . والموتق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة . فإذا وقت بما وعدت على الدوام ، مع انتفاء الصوارف والأعدار ظاهرا وباطنا ، فلا بأس أن تثق بها وثوقا تاما . ولكن تكون من تبرها أيضا على حذر فإنها سريعة النقص للمهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع .

وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى مارك فقط ، وذلك عند القدرة قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا تفتي في مسألة إلا رد علينا ؟ يعني أبا خنيفة . فقال ابن شبرمة : لأدري أهو ابن الحائك أم ماهو ! لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فزرب منها ، وهربت منا فطلبناها . وكذلك <sup>(١)</sup> قال جميع المسلمين على مبدع هول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ، ولو علمنا في أي شيء يحبته لقمناه ، حتى نزل قوله تعالى ( وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَكَّرُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ )

( ١ ) 'حديث قال المسلمون أنا نحب ربنا ولوعنا في أي شيء يحبه لقمناه حتى نزل قوله تعالى ولولا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم الآية لم أنف له على أصل

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنْتَ مِنْهُمْ »  
يعنى من القليل . قال <sup>(١)</sup> وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى  
(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ <sup>(٢)</sup>)

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة ، وعلى سبيل استمالة  
القلوب ، وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن المادات ، ولكن لا مدخل لشيء منه  
فى المبادات . وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلك بمحاربتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة . فأما  
كل نوع من الترك فإنه يتصور بمن لا يؤمن بالآخرة . فذلك قد يكون مروءة ، وفتوة ،  
وسخاء ، وحسن خلق . ولكن لا يكون زهدا . إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ  
العاجلة ، وهي الدواهنأ من المال . وكأن ترك المال على سبيل السلم طمعا فى العوض ليس  
من الزهد ، فكذلك تركه طمعا فى الذكر ، والثناء ، والاشتهار بالقوة والسخاء ، واستثقاله  
لما فى حفظ المال من المشقة والعناء ، والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد  
أصلا . بل هو استمجال حفظ آخر للنفس . بل الزاهد من أتته الدنيا رانمة ، صفوا عفوا ،  
وهو قادر على التمتع بها ، من غير نقصان جاء وقبح اسم ، ولا فوات حفظ للنفس ، فتركها خوفا  
من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ، ومحبا لماسوى الله ، ويكون مشركا فى حب الله تعالى  
غيره ، أو تركها طمعا فى ثواب الله فى الآخرة ، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا فى أشربة الجنة  
وترك التمتع بالمرارى والنسوان طمعا فى الحور العين ، وترك التفرج فى البساتين طمعا فى  
بساتين الجنة واشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينه الدنيا طمعا فى زينة الجنة ، وترك  
المطاعم اللذيذة طمعا فى فواكه الجنة ، وخوفا من أن يقال له ( أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمْ  
الدُّنْيَا <sup>(٣)</sup> ) فأثر فى جميع ذلك ما وعده فى الجنة على ما تيسر له فى الدنيا عفا وصفوا ، لعله بأن  
ما فى الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فعمالات دنيوية لا جدوى لها فى الآخرة أصلا

( ١ ) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى : يَكُنْ مِنْهُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا الْآخِرَةَ : الباقى  
فى دلائل النبوة بإسناد حسن

( ٢ ) كل حمران : ١٥٣ ( ٢ ) الإحفاف : ٢٠



## بيان

فضيلة الزهد

قال الله تعالى (خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ<sup>(١)</sup>) إلى قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ<sup>(٢)</sup>) فنسب الزهد إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم، وهو غاية البناء. وقال تعالى (وَلِلَّهِ يُوْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ عَاصِرُوا<sup>(٣)</sup>) وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا. وقال عز وجل (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا<sup>(٤)</sup>) قيل معناه أيهم أزهد فيها. فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ<sup>(٥)</sup>) وقال تعالى (وَلَا تَعْدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَثْبَقُ<sup>(٦)</sup>) وقال تعالى (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ<sup>(٧)</sup>) فوصف الكفار بذلك.

ففهو من المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه، وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا وأما الأخبار، فما ورد منها في ذم الدنيا كثير. وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات، إذ حذب الدنيا من المهلكات. ونحن الآن تقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعنى بالزهد. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٨)</sup> مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ صَنِيعَهُ وَجَمَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هِمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ صَنِيعَهُ وَجَمَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ

وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٩)</sup> إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنْبَدِّ وَقَدْ أُعْطِيَ صَنًا وَزُهْدًا فِي الدُّنْيَا

(١) حديث من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره - الحديث : ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد

والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

(٢) حديث إذا رأيتم المنبد قد أعطي صنًا وزهدًا في الدنيا فالتروا منه فإنه يلقى الحسنة : ابن ماجه من حديث

أبي خلد بسند فيه ضعف

(٣) القصص : ٧٩ (٤) القصص : ٨٠ (٥) القصص : ٨٤ (٦) الكهف : ٧ (٧) الشورى : ٣٠

(٨) طه : ١٣١ (٩) إبراهيم : ٣

فَأَقْرَبُوا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يُبْلِي الْحِكْمَةَ ۖ وَقَالَ تَعَالَى (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) (١) . ولذلك قيل : من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله بتابع الحكمة في قلبه ، وأطلق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال : (٢) قلنا يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال « كُلُّ مُؤْمِنٍ مَحْتَمٍ أَلْقَلِّبِ صَدُوقِ الْإِسْلَامِ » قلنا يا رسول الله وما محموم القلب ؟ قال « التَّيْبُ النَّبِيُّ الَّذِي لَا غِلَّ فِيهِ وَلَا غِيْشٌ وَلَا بَنِي وَلَا حَسَدَ » قلنا يا رسول الله فن على أثره ؟ قال « الَّذِي يَشْتَأُ الدُّنْيَا وَيُحِبُّ الْآخِرَةَ » ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ فَارْزُقْ فِي الدُّنْيَا » فجعل الزهد سببا للمحبة . فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات ، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل اللقائات . ومفهومه أيضا أن يحب الدنيا متعرض لينقض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت (٤) « الزُّهْدُ وَالْوَرَعُ يُجُولَانِ فِي الْقُلُوبِ كُلُّ لَيْلَةٍ فَإِنْ صَادَقَا قَلْبًا فِيهِ الْإِيمَانُ وَالْحَيَاءُ أَمَّا فِيهِ وَإِلَّا أَرْتَحَلَا » (٥) ولما قال حاتم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا فقال « وَمَا حَقِيقَةُ إِيْمَانِكَ ؟ » قال عرفت نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي حجرها وزهبيها . وكأني بالجنة والنار ، وكأني بعرش ربي بارزا . فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفْتَ فَأَلْزَمَ عَبْدُ تَوَرَّأَ اللَّهُ قَلْبُهُ بِالْإِيمَانِ » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا ، وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « عَبْدُ تَوَرَّأَ اللَّهُ قَلْبُهُ بِالْإِيمَانِ » ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ

(١) حديث قلنا يا رسول الله وما محموم القلب قال النبي ﷺ : الحديث : ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يا رسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الحارثي في مكارم الأخلاق

(٢) حديث ابن أزدت أن نبيك الله ﷺ قاله في الدنيا : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف هو قد تقدم

(٣) حديث الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة فإن صادف قلبا به الإيمان والحب ، أضافه فيه الارتفاع : لم أجده أصلا

(٤) حديث لما قاله حاتم أنه مؤمن حقا فقال وما حقيقة إيمانك - الحديث : الزائر من حديث أنس والطبراني

من حديث الحارث بن مالك وكلاهما بسند ضعيف

(٥) حديث سئل عن قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه - الحديث : الحارث وقد تقدم

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ <sup>(١)</sup> وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : « إِنَّ الثَّوْرَ إِذَا دَخَلَ فِي الْقَلْبِ انْفَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ » قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال : « نَعَمْ . التَّجَافِي عَنْ دَارِ النُّزُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِغَاذَةُ لِلثَّوْتِ قَبْلَ زُرْوِهِ » فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام ، وهو التجافي عن دار النور

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « اسْتَعْبُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قالوا إننا لنستحي منه تعالى فقال : « لَيْسَ كَذَلِكَ تَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ فَبَيْنَ أَنْ ذَلِكَ يَنْفَضَّ الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . <sup>(٣)</sup> ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال : « وَمَا عَلَامَةُ إِعْمَانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بما وقع القضاء وترك الشتمة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . فقال عليه الصلاة والسلام : « إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَجْمَعُوا مَا لَا تَأْكُلُونَ وَلَا تَبْنُوا مَا لَا تَسْكُنُونَ وَلَا تَنَافِسُوا فِيمَا عَنْهُ تَرَحُّونَ » فجعل الزهد تسكماً لإيمانهم . وقال <sup>(٤)</sup> جابر رضي الله عنه : خذينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مَنْ جَاءَ بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَا يَخْلُطُ بِهَا غَيْرَهَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما لا يخلط بها غيرها ؟ صفة لنا ، فسررنا . فقال : « حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَيُتِمُّونَ عَمَلِ الْغِيَا بِرِيقٍ قَدْ جَاءَ بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وفي الخبر <sup>(٥)</sup> « السُّحَابُ مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ وَالْبُخْلُ مِنَ الشُّكِّ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ شَكَّ » وقال أيضا <sup>(٦)</sup> « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبُخْلُ

( ١ ) حديث استعيا من الله حق الحياء - الحديث : الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف

( ٢ ) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم - الحديث : الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر

( ٣ ) حديث جابر من جاء بإلاه إلا الله لا يخلط معها شيئاً وجبت له الجنة : لم أره من حديث جابر وقرواه الترمذي المحكم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف نحوه

( ٤ ) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن - الحديث : ذكره صاحب القردوس من حديث أبي هريرة ولم يخرجوه ولله في مستنده

( ٥ ) حديث السخي قريب من الله - الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقد هدم

يَعِيدُ مِنَ اللَّهِ يُعِيدُ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، والبخل غمرة الرغبة في الدنيا ، والسخاء غمرة الزهد ، والثناء على الثمرة ثناء على الثمر لا محالة ؛ وروي عن ابن المسيب ، عن <sup>(١)</sup> أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَذْخَلَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَعَرَفَهُ ذَاةُ الدُّنْيَا وَذَوَاهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ » . وروي أنه صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مر في أصحابه بشار من النوق حفل ، وهي الحوامل ، وكانت من أحب أموالهم إليهم ، وأنفسها عندهم ، لأنها تجمع الطهر ، واللحم ، واللبن ، والوبر ، وليظمنها في قلوبهم قال الله تعالى ( وَإِذَا أَلْمَسْتَهُمْ غَطَّتْ ) <sup>(٣)</sup> » قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله ، هذه أنفس أموالنا ، لم لا تنظر إليها ؟ فقال « قَدْ نَظَرْتُ فِيهَا مِنْ ذَلِكَ » ثم تلا قوله تعالى ( وَلَا تَعْدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ <sup>(٤)</sup> ) الآية .

وروي <sup>(٥)</sup> مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، ألا تستطعم الله فيعلمك ؟ قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع . فقال « يَا عَائِشَةُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجْعِلَ لِي مِثْلَ جِبَالِ الدُّنْيَا ذَهَبًا لَأَجْرَاهَا حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنِّي اسْتَرْتُ جُوعَ الدُّنْيَا عَلَى شَبْعِي وَفَقَرُ الدُّنْيَا عَلَى غِنَاهَا وَحُزْنَ الدُّنْيَا عَلَى فَرَحِي يَا عَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْتَبِي لِمُحَمَّدٍ وَلَا لآلِ مُحَمَّدٍ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ لِأُولَى الْعَزَمِ

( ١ ) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه - الحديث : لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلًا ولا بن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة الأعمش من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث مكره وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكفها صعبة

( ٢ ) حديث مر في أصحابه بشار من النوق حفل - الحديث : وفيه ثمنا قوله تعالى - ولا تعدن عينك - الآية لم أجده لأصلا

( ٣ ) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستطعم وبك فيعلمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث : وفيه يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر - الحديث : أبو منصور الدبلي في مستند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن عبالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلني ما كانهم فقال تعالى فاصبر كاصبر أولوا العزم من الرسل وعملهم مختلف في الاحتجاج به

(١) التكميل : ٤ : ١٣١

مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا الصَّبْرَ عَلَى مَكْرُوهِ الدُّنْيَا وَالصَّبْرَ عَنْ مَحْبُوبِهَا ثُمَّ لَمْ يَرْضَ إِلَى إِلَّا أَنْ يُكَلِّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ فَقَالَ ( فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا أَنْتَزِمَ مِنَ الرُّسُلِ ) (١) وَاللَّهِ مَا لِي بِدُيُنٍ طَاعَتِي وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا صَبِيرٌ كَمَا صَبَرُوا بِجَهْدِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ »

وروي (١) عن عمر رضي الله عنه ، أنه حين فتح عليه الفتوحات ، قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها . البس ألبين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومرت بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال عمر : يا حفصة ، ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ، فقالت بلى . قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة ، لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعا عشية إلا جاعوا غدوة أو ناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله ، حتى فتح الله عليه خيبر ؟ ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّبت إليه يوم أطعما على مائدة فيها ارتفاع ، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر

(١) حديث ان عمر لما فتحت عليه الفتوحات فالتله حفصة البس لبين الثياب اذا قدمت عليك الوفود . الحديث : بطوله وثبه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاها وبكى الخ : بأجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال لما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو بن عبد الله القدري متروك . الحديث : ولترمزني من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشأه أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها لما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخاري من حديث أنس كان لا يأكل كل شيء خوان . الحديث : وتقدم في آداب الأكل ولترمزني في الثبائيل من حديث حفصة أنها سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم مسح ثلثه ثنتين فينم عليه . الحديث : ولأن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش لاني صلى الله عليه وسلم عبادة بالثنتين . الحديث : وتقدم في آداب العيشة والبزار من حديث أبي البرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخلع له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروي بهذا اللفظ إلا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن مسيرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد بن مسيرة قد كذب عني القطان وضفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم ولأن ما جاء من حديث عبادة بن الصامت صلى الله عليه وسلم زاد النطريق في جزئه المشهور فقهدها في عنقه ما عليه غيرها واسناده ضعیف وتقدم في آداب العيشة

بالمائدة فرقت، ووضع الطعام على دون ذلك، وأوضع على الأرض؛ وناشدتك الله؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية، فتثيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال ممنعتوني قيام الليلة بهذه العباءة، فأنوها بالثنتين؟ كما كنتم تثنونها؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتفسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، فأيحذ ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه، فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين، إزارا ورداء، وبشت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به،<sup>(١)</sup> ليس عليه غيره، فدعقد طرفيه إلى عنقه، وفصلى كذلك؛ فما زال يقول حتى أبكاه، وبكى عمر رضي الله عنه واتحب، حتى ظننا أن نفسه ستخرج

وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر، وهو أنه قال: كانني صاحبان سلكا طريقا، فإن سلكت غير طريقهما سلكت في طريق غير طريقهما. وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لئلي أدرك منهما عيشهما الرغيد. وعن<sup>(٢)</sup> أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَغَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ فَلَا يُلْبَسُ إِلَّا الْعَبَاءَةُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لِيُبْتَغَى بِالْقَتْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ الْقَتْلُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَطَاءِ إِلَيْكُمْ»

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا وَرَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ خُضْرَةُ الْقَبْلِ تَرَى فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهَرَالِ» فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله، وم أعرف خلق الله بالله، وبطريق الفوز في الآخرة

وفي حديث<sup>(٣)</sup> عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا عباءة - الحديث: باستدراج في أثناء

حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم يبتلى بالقتل

(٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكتنون الذهب والفضة - الآية قال تبالدينار والدرهم

الحديث: وفيه فأي شيء تدخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في التكاثر دون قوله تبالدينار

والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وأما قال للخصف أنه حديث

عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي المال يتخذ كافي رواية ابن ماجه وكرواه

البرار من حديث ابن عباس

الذهب وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُوهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(١)</sup> قَالَ صلى الله عليه وسلم « نَبَأُ الدُّنْيَا نَبَأُ  
لِلدُّنْيَا وَلِلدُّنْيَا هَمٌّ » قلنا يا رسول الله ، نأنا الله عن كنز الذهب والفضة فأبى شيء يدخِر  
فقال صلى الله عليه وسلم « لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَا كَرَامَةٍ وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً  
تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ » وفي حديث<sup>(٢)</sup> حذيفه رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
« مَنْ أَمَّرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِثَلَاثِ هَمٍّ لَا يَفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَقَرَأَ لَا يَسْتَفِي  
أَبَدًا وَحَرَصًا لَا يَشْبَعُ أَبَدًا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا يَسْتَكْمِلُ الْإِيمَانَ  
حَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يَعْرِفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ وَحَتَّى يَكُونَ قَلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ  
إِلَيْهِ مِنْ كَثَرَتِهِ » وقال المسيح صلى الله عليه وسلم : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تمروها .  
وقيل له ، يا نبي الله ، لو أمرتنا أن ننبئ الله فيه ؟ قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء

فقالوا كيف يستقيم بئان على الماء ؟ قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟  
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لَنْ رُبِّي عَنْ وَجَلِّ عَرْضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ سَكَّةَ ذَهَبًا  
فَقُلْتُ لَا يَأْرَبُ وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَنْفَرُ  
إِلَيْكَ وَأَذْعُوكَ وَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْذُكَ وَأُتَمِّي عَلَيْكَ »

وعن<sup>(٣)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات  
يوم يمشي وجبريل معه ، فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يَا جِبْرِيلُ  
وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمْسَى لَيْلٌ مُجْدِّ كَفَّ سَوْبِقِي وَلَا سَفَا دَقِيقِي » فلم يكن كلامه

( ١ ) حديث حذيفة من أثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث - الحديث - لم أجده من حديث حذيفة  
والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرب قلبه حب الدنيا التاط منها ثلاث شقاء  
لا ينفذ عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ متناه وفي آخره زيادة

( ٢ ) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أنه أحب إليه  
من كثرته - لم أجده استنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن طلحة مرسلا لا يستكمل  
عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء . أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه  
من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرج به ولده في مسند الفردوس وعلى بن أبي طلحة أخرجه لم يبلغ  
وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة فالحديث إذا معطل

( ٣ ) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث : في قول  
أما رايون وقوله أن أحييت أن أسير معك جبال تهامة ثم مرادوا ياقوتاً وذهباً وفضة - الحديث : تهتم بغيرها

بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفضتته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمَرَ اللَّهُ أَتَيْكَمَا أَنْ تَقُومَ » قال لا ، ولكن هذا إسرائيلي عليه السلام قد نزل إليك جين سمع كلامك . فأتاه إسرائيلي فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت ، فمضى بفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك ، إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً ، وياقوتاً ، وذهباً وفضة ، فقلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأوماً إليه جبريل أن تواضع لله . فقال « نَبِيًّا عَبْدًا » ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِمَبْدِ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَبَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِمُيُوبِ قَسْبِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم لرجل « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد في أيدي الناس يحبك الناس »

وقال صلوات الله عليه <sup>(٣)</sup> «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعْلَمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هُدَايَةٍ فَلْيَرْحَمْهُ فِي الدُّنْيَا» وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> «مَنْ أَشْتَقَى إِلَى الْجَنَّةِ سَارِعًا إِلَى الْخُلُقَاتِ وَمِنْ خَافَ مِنْ نَارِهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ تَرَكَ الذَّلَاتِ وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُتَعَبَاتِ» . و يروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام «أَرْبَعٌ لَا يَدْخُلْنَ إِلَّا بِحَبِيبِ الْمَسْتِ وَهُوَ أَوَّلُ الْيَبَادَةِ وَالْوَأَضِعُ وَكَثْرَةُ الدُّكْرِ وَثَلَّةُ الشَّيْءِ» . وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بنض الدنيا وضم جها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان

وأما الآثار: فقد جاء في الأثر لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما تنص من دينهم. وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفقة دينهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لإله إلا الله، قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين، وعن بعض الصحابة

(١) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً هده في الدين أو عبه في الآخرة وبصره محبوب نفسه: أبوه منصور الديلمي في مستند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد فيه في الدين وإسناده صحيح

(۲) حدیث ازہد فی الدنیا بحک اللہ - الحدیث : تقدم

( ٣ ) حديث من أراد أن يؤتیه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا : لم أجده أصلًا

( ٤ ) حديث من اشتاق الى الجملة سارع الى الحشرات - الحديث : ابن حبان في الصفاء - حديث علي بن أبي طالب

(۵) هدیه از بیم لا بد کن الا بسبب السبب من اذن العبد الخ



رضي الله عنهم أنه قال : تابعتنا الأعمال كلها فلم ترفى أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خيرا منكم . قيل ولم ذلك ؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم . وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد . وقال بلال بن سعد . كنتى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها . وقال رجل لسفيان . أشتى أن أرى عالما زاهدا . فقال ويحك ! تلك ضالة لا توجد . وقال وهب بن منبه . إن الجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا لا بدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا ، الماشقين للجنة . وقال يوسف بن أسباط رحمه الله . إنى لأشتى من الله ثلاث خصال . أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ، ولا يكون علي دين ، ولا على عظمي لحم . فأعطى ذلك كله

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بمشرة آلاف فلم يقبلها . فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه ؟ فبكى الفضيل وقال : أتدرون مامثل ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هربت ذبحوها لأجل أن ينتقموا بجلدها . وكذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سن . موتوا يا أهل جوما خير لكم من أن تذبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير . كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، وليس له ولي يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يدخر لفسد أيما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبى حازم لأبى حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ، ولا بد لنا من الطعام والياب والخطب . فقال لها أبو حازم . من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ، ثم الجنة أو النار . وقيل للحسن : لم لا تنسل ثيابك . قال الأمر أعجل من ذلك .

وقال إبراهيم بن آدم قد حبيت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للبديقين حتى ترفع هذه الحجب . الفرح بالوجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالدخ . فإذا فرحت بالوجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساهط ، والساهط مذنب ، وإذا سررت بالدخ فأنت معجب ، والمعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ركتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمد  
وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا .  
وكانه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يَخْتِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُجِبُهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ » . فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم  
وكان الثوري يقول : الدنيا دار التسواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ،  
من عرفها لم يفرح بربها ، ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لا يخلص العمل للمتبدح حتى لا يفرغ من أربعة أشياء : الجوع ، والعري ، والفقر ، والدل  
وقال الحسن البصري : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب :  
كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يطوله ثوب ، ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط . فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم : كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . فلم يزالوا على ذلك ، والله ماسدوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه

## بيان

درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ، وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه  
اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث  
الدرجة الأولى : وهي السفلى منها ، أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتبه ، وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها . وهذا يسمى التزهد . وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والتزهد يذيب أولا نفسه ، ثم كيسه

(١) حديث أنثمة يخشى عبده المؤمن من الدنيا - الحديث : تقدم

والزاهد أولا يذيب كيبه ، ثم يذيب نفسه في الطاعات ، لافي الصبر على مفارقة . والمتزهّد على خطر ، فإنه ربّ عاتقه نفسه . ويجذبه شهوته ، فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه . كالذي يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لأعالة زهده ، ويلتفت إليه ، كما يرى البائع للبيع ويلتفت إليه . فيكاد يكون ممعجا بنفسه وبزهد ، ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرامنه ، وهذا أيضا نقصان الدرجة الثالثة ، وهي العليا ، أن يزهد طوعا ، ويزهد في زهده ، فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا ، إذ عرف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تارك شيئا . والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة . أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة . فهذا هو الكمال في الزهد . وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم . في أي شيء تتكلم ! قال في الزهد . قال في أي شيء ! قال في الدنيا ، فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم في شيء ، الدنيا لا شيء ، إيش يزهد فيها

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب الممورة بالمجاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز ، فشفله بنفسه ، ودخل الباب ونال القرب عند الملك ، حتى نفذ أمره في جميع مملكته . أفترى أنه يرى نفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه ، في مقابلة ما قد ناله ؟

فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ، إن أكلت فلذتها في حال المغص ، وتنفض على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها في المعدة ، ثم تنتهي إلى النتن والقدر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل . فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها !

ونسبة الدنيا كلها ، أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة ، بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أنل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا . إذ لانسبة للتمتاعي إلى مالا نهاية له .

والدنيا متناهية على القرب. ولو كانت تمتد إلى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لسكان  
لأنسبة لها إلى نعيم الأبد. فكيف ومدة العمر قصيرة، ولذات الدنيا مكدر غير صافية !  
فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد . فإذا لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى مازهد  
فيه. ولا يلتفت إلى مازهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً ممتداً به ولا يراه شيئاً ممتداً به إلا لقصور  
معرفة. فبسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة

فهذا تفاوت درجات الزهد. وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات، إذ تعبر المتزهد  
يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهد به بقدر  
التفاته إلى زهده. وأما انقسام الزهد بالأضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات:  
الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام، كمذاب القبر  
ومناقشة الحساب، وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأحوال كما وردت به  
الأخبار. إذ فيها <sup>(١)</sup> أن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على  
هرقة لصدرت رواء. فهذا هو زهد الخائفين، وكأنهم رضوا بالدمع لو أعدموا، فإن الخلاص  
من الألم يحصل بمجرد الدمع

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه، واللذات الموعودة في جنته؛ من  
الحور، والقصور، وغيرها. وهذا زهد الراجين. فإن هؤلاء ماتوا كوا الدنيا فتاعة بالدمع  
والخلاص من الألم، بل ملمعوا في وجود دائم ونعيم سرمداً لا آخر له

الدرجة الثالثة: وهي العليا. أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى  
الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق  
الهم بالله تعالى. وهو الذي أصبح وهو مـ واحد. وهو الموحّد الحقيقي الذي لا يطالب  
غير الله تعالى. لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود وكل طالب عبداً بالإضافة  
إلى مطلبه. ومطلب غير الله من الشرك الخفي. وهذا زهد المحبين، وهم المارفون، لأنه لا يحب

(١) حديث أن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرفه لصدرت رواء: أحمد  
من حديث ابن عباس التقي مؤمنان على باب الجنة مؤمن غني ومؤمن فقير - الحديث: وفيه  
أي حديث بذلك عساً فليعلماً كرمياً ما وصاك إليك حتى سال من العرق ما ورد به الله بهياً: كذا  
- من لصدرت سنة رواء وفيه دويح غير منسوب يحتاج إلى معرفة قال أحمد حديثه مثله

الله تعالى خاصة إلا من عرفه. وكأن من عرف الدينار والدرهم، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما، لم يجب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله، وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة، وبين لذة التنعم بالخور العين، والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يجب إلا لذة النظر، ولا يؤثر غيره.

ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الخور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به. والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالمصفور، التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك، لأن اللعب بالمصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق. وأما انقسامه بالإضافة إلى الرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل. ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول، فلا نستعمل بتل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيي النفاصيل، حتى يتضح أن أكثر ما ذكره قاصر عن الإحاطة بالكل، فنقول: الرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل. وتفصيله مراتب، بعضها أشرح لآحاد الأقسام، وبعضها أجل للجمال. أما الإجمال في الدرجة الأولى فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه؛ حتى يزهد في نفسه أيضا. والإجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة. وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة، والغضب، والكبر، والرياسة، والمال، والجاه، وغيرها.

وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم، والقدرة، والدينار، والدرهم، والجاه، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه. وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة. وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب. إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كأن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها.

فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا، فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة تسبعة منها فقال (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرَ مِلْرَ الْمُنْقَطِرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَلِيلَ الْمُسَوَّمَةَ وَالْأَنْعَامَ  
وَالْحَرْثَ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا <sup>(١)</sup> ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل  
(اعْمَلُوا أَنْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَفَآخِرُ نَيْتِكُمْ وَتَكَثُرُ فِي الْأَمْوَالِ  
وَالْأَوْلَادِ <sup>(٢)</sup>) ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ  
وَلَهُمْ <sup>(٣)</sup>) ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال (وَسَوَى النَّفْسِ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ  
الْجَنَّةَ هِيَ الْآلَاءُ <sup>(٤)</sup>) فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه  
وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البض من هذه لا يخالف البض، وإذا  
يفارقه في الشرح مرة، والإجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ  
النفس كلها . ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا، فقصر أملة لا محالة، لأنه  
إنما يريد البقاء ليمتع، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء، فإن من أراد شيئا أراد دوامه . ولا معنى  
لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة . فإذا رغب عنها لم يرد لها  
ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا (رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ نُوَلِّا أُخْرَتَنَا إِلَى  
أَجَلٍ قَرِيبٍ <sup>(٥)</sup>) فقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ <sup>(٦)</sup>) أي لستم تريدون البقاء  
إلامتاع الدنيا . فظهر عند ذلك الزاهدون، وانكشف حال المنافقين

أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا  
إحدى الحسينين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة، ويبادرون إليه بمبادرة  
الظمان إلى الماء البارد، حرصا على نصره دين الله، أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم  
على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما حضر  
للموت على فراشه كان يقول . كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة  
وأنا الآن أموت موت المجازي . فلما مات عذب على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات  
هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين

وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت، فقل لهم (إِنَّ أَمْوَاتَ الَّذِينَ  
تَقْرَءُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأَ قِيَمَكُمْ <sup>(٧)</sup>) فإياهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي

<sup>(١)</sup> آل عمران : ٤ (٣، ٢) الحديد : ٢٠ <sup>(٢)</sup> النازعات : ٤٠ (٦٠٥) النساء : ٧٧ <sup>(٣)</sup> البقرة : ٨

هو سائر فلو انك القدر اشتروا الضلالة بالهدى ، فبا وبحر نجانهم وعما كانوا مستبدين  
وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فصاروا  
أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا ، أو ثلاثين سنة ، تمتع الأبد ، استبشروا بيمينهم الذي  
بأيما به فهذا بيان المزهود فيه . وإضافتم هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد  
لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه . فذكر كل واحد منهم مآراء غالبا على نفسه ، أو على من كان يخاطبه .  
فقال بشر رحمة الله تعالى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه  
خاصة وقال قاسم الجوعى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف . فيقدر ماتمك من بطنك  
كذلك تمك من الزهد . وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة . ولم يمرى هي أغلب  
الشهوات على الأكثر ، وهي المهيجة لأكثر الشهوات

وقال الفضيل : الزهد في الدنيا هو التنازع . وهذا إشارة إلى المال خاصة  
وقال الثوري : الزهد هو قصر الأمل . وهو جامع لجميع الشهوات . فإن من يميل إلى الشهوات  
يحدث نفسه بالبقاء ، فيطول أمله . ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها  
وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه . وما قصد بهذا حد الزهد ،  
ولكن جعل التوكل شرطا في الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب  
للمضمون . وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث : الدنيا هو العمل بالرأى والمقول  
والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة . وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمقول الذي  
يطلب به الجاه في الدنيا ، فهو صحيح . ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة ، أو إلى  
بعض ما هو من فضول الشهوات . فإن من المأمور مالا فائدة فيه في الآخرة ، وقد طولوا  
حتى ينقضى عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها . فشرط الزاهد أن يكون الفضول  
أول مرغوب عنه عنده . وقال الحسن . الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني  
فذهب إلى أن الزهد هو التواضع . وهذا إشارة إلى نفي الجاهو المعجب ، وهو بعض أقسام الزهد .  
وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال . وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب ،  
كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال .

وقد كان يوسف بن أسباط يقول . من صبر على الأذى ، وترك الشهوات ، وأكل الخبز من الحلال ، فقد أخذ بأصل الزهد .  
وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه ، فلم نرى نقلها فائدة . فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها غثلة ، فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق في نفسه ، وأدركه بمشاهدة من قلبه ، لا يتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق ، وأطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته . وهؤلاء كلهم اقتصروا للقصور في البصيرة ، لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكره بقدر الحاجة ، والمحامات تختلف ، فلا جرم الكلمات تختلف .

وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه ، والأحوال تختلف . فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف .

وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدا ، ولا يتصور أن يختلف . وإنما الجامع من هذه الأقاويل ، الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ، ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال : سمعنا في الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل . وقد فصل مرة وقال . من تزوج ، أو سافر في طلب الميثة ، أو كتب الحديث ، فقد ركن إلى الدنيا . فجمع ذلك صدا للزهد . وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ( إِنْ لَا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى . وإنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها الآخرة . فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ، ونقل ، وسأمة ، كما قاله إبراهيم بن آدم ، فالفرض هو الزهد في الحرام . والنقل هو الزهد في الحلال . والسأمة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام ، وذلك من الزهد ، إذ قيل للمالك بن أنس . ما للزهد ؟ قال التقوى . . وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه . فلا نهاية للزهد فيه . إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في المحطرات ، والاحظاظ ، وسائر الحالات ، لاسيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سمسرة العلماء . بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنتهي



فمن أخصى درجاته زهد عيني عليه السلام إذ نوسد حجرا في نومه ، فقال له الشيطان ، أما كنت تركت الدنيا ، فما الذي بدا لك ؟ قال وما الذي تجدد ؟ قال نوسدك الحجر . أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ، فرمى الحجر وقال . خذ مع ما تركته لك وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام ، أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس ، واستراحة حس المس . فسأله أمه أن يلبس مكان المسوح جبة من صوف ، ففعل . فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت علي الدنيا ، فيكنوزع الصوف ، وعاد إلى ما كان عليه وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من المري أن جلس في قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان ، فأقامه صاحب الحائط ، فقال ما أفتيت أنت إنا أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط

فإذا درجات الزهد ظاهرا وباطنا لاحصر لها . وأقل درجاته الزهد في كل شبهة وعظور وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لافي الشبهة والمخطور . فليس ذلك من درجاته في شيء . ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا ، فلا يتصور الزهد الآن

فإن قلت . مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله ، فكيف يتصور ذلك مع الأكل ، والشرب ، واللبس ، وغالبية الناس ، ومكالمهم ، وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرًا وفكرًا . ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء . ولا بقاء إلا بضروريات النفس . فهما اقتصرتا من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن ، وكان غرضك الاستمانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتتلا بغير الله ، فإن مالا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ، فالمشتغل بملف النافعة ويسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج . ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ، ولا غرض لك في تنم ناقتك باللبات ، بل غرضك مقصود على دفع المهلكات عنها ، حتى تسير بك إلى مقصدك . فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الخروالبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ، ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد

وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ، فاعلم أن ذلك لا يضرك . إذا لم يكن قصدك التلذذ . فإن شارب الماء البارد قد يستلذذ الشرب ، ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ، ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه . فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتسم الأسمار وصوت الأطنبار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فإصابه من ذلك بغير قصد لا يضره . ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسفار ، خيفة من الاستراحة به ، وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدينا ، وتقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بنير الله . ولذلك كان داود الطائي له حب مكشوف فيه مأوه ، فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لهذه الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين . والحزم في جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شاقا فدفته قريبة والاحتياطة بسيرة للتنم على التأييد لا يتقل على أهل المعرفة ، القاهرين لأنفسهم سياسة الشرع المتعصين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين

## بيان

تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما للناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم : فالفضول كالخليل المسومة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنيا للتزفة بركوبها ، وهو قادر على المشي . والمهم كالأكل والشرب . ولستأ تقدر على تفصيل أصناف الفضول ، فإن ذلك لا ينحصر . وإنما ينحصر المهم الضروري . والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره ، وجنسه ، وأوقاته . فلا بد من بيان وجه الزهد فيه . والمهمات ستة أمور . المطعم ، والملبس ، والسكن وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه يطلب لأغراض ، وهذه الستة من جلبها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب خب الخلق له ، وكيفية الاحتراز منه ، في كتاب الرأيا . من ربح المهلكات . ونحن الآن تقتصر على بيان هذه المهمات الستة

الأول المطعم : ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم عليه . ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن

من يملك طعام يومه فلا يقنع به . وأما عرضه ففي مقدار الطعام ، وجنسه ، ووقت تناوله  
أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل . وأقل درجات الزهد فيه الاقتصاد على قدر دفع  
الجوع ، عند شدة الجوع وخوف المرض . ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله  
لم يدخر من غذائه لمشائه ، وهذه هي الدرجة العليا  
الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر ، أو أربعين يوما

الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط . وهذه رتبة صفاء الزهاد . ومن ادخر لأكثر  
من ذلك فقسيمته زاهدا محال ، لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا ، فلا  
يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب . ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كدادود  
الطائي ، فإنه ورث عشرين دينارا ، فأمسكها وأفقها في عشرين سنة . فهذا لا يضاد أصل  
الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد

وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار . وأقل درجاته في اليوم واليلة نصف رطل ، أو سطره  
رطل ، وأعله مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في إ طعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من  
اتساع البطن والاشتغال به . ومن لم يقدر على الاقتصاد على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب  
وأما بالإضافة إلى الجنس فأفله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير  
والذرة ، وأعله خبز البر غير منخول . فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التمتع  
وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله

وأما الأدم فأفله الملح ، أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو سيرا من الأدهان أي دهن  
كان . وأعله اللحم أي لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين . فإن صار دائما ، أو  
أكثر من مرتين في الأسبوع ، خرج عن آخر أبواب الزهد ، فلم يكن صاحبه زاهدا  
في البطن أصلا . وأما بالإضافة إلى الوقت ، فأفله في اليوم واليلة مرة ، وهو أن  
يكون صائما . وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب . وأعله  
أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام ، أو أسبوعا وما زاد عليه . وقد ذكرنا طريق تقليد الطعام  
وكسر شرهه في ربيع المهلكات

ولينظر إلى أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية

زهدهم في الطعام ، وزلّ بهم الأدم . قال<sup>(١)</sup> : سائسة ربي الله تعالى عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوفد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار . قبل لهاجم كنتم تمشون ؟ قالت بالأسودين . التمر والماء . وهذا ترك اللحم ، والمرقة والأدم وقال<sup>(٢)</sup> : الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف ويتعل الخصوف ، ويلقى أصابعه ، ويأكل على الأرض ، ويقول : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ وَاجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبِيدُ » وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فخيرّ الشعير له والنوم على الزابل مع الكلاب كثير

وقال الفضيل<sup>(٣)</sup> : ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول . يا بني إسرائيل ، عليكم بالماء القراح ، والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره

وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربيع المهلكات فلا نعيد  
 « ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء ، أنهو بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال : « أَمَا إِنِّي لَأَسْتُ أَحْرَمُهُ وَلَكِنْ أَتُرْكِيهِ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى »  
 وأنى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف ، فقال . اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي : الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك . الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجامسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه . والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياة شعاره

( ١ ) حديث عائشة كانت تأتي أربعون ليلة وما يوفد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث : ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوت مدخان الحديث وفي رواية ما يوفد فيه نار ولأحمد كان يمر بها لال وهلال ما يوفد في بيت من بيوته نار وفي رواية لئلا يلهأه

( ٢ ) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار - الحديث : تقدم دون قوله إنما أنا عبد فإنه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم

( ٣ ) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر : تقدم

( ٤ ) حديث لما أتى أهل قباء أنهو بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده - الحديث : تقدم

والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيته ،  
والصبر ممتدته ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلته إن شاء الله تعالى  
المهم الثاني : الملبس . وأقل درجته ما يدفع الحر ، والبرد ، ويستر العورة . وهو كساء يتغطى به  
وأوسطه قميص ، وقلنسوة ، ونعلان . وأعلىه أن يكون معه منديل وسراويل ، وما جاوز هذا  
من حيث المقدور فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه  
بل يلزمه القمود في البيت . فإذا صار صاحب قميصين ، وسراويلين ، ومنديلين ، فقد خرج من  
جميع أبواب الزهد من حيث المقدار

أما الجنس فأقله المسوح الخشن ، وأوسطه الصوف الخشن ، وأعلىه القطن النظيف .  
وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة ، وأقله ما يبقى يوما . حتى رقع بعضهم ثوبه  
بورق الشجر ، وإن كان يتسارع الجفاف إليه . وأوسطه ما يتأسك عليه شهرا . وما يتقاربه  
فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مضاد للزهد ، إلا إذا كان  
المطلوب خشوته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه . فمن وجد زيادة من ذلك فنبهني أن  
يتصدق به . فإن أمسك لم يكن زاهدا . بل كان محبا للدنيا

ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس . قال أبو بردة <sup>(١)</sup> : أخرجت  
لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا ، وإزارا غليظا ، فقالت . قبض رسول الله صلى الله عليه  
وسلم في هذين . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُتَبَدِّلَ الَّذِي  
لَا يَبْقَى فِي مَالٍ » . وقال عمرو بن الأسود العنسي . لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام ببل  
على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملا جوفي من طعام أبدا . فقال <sup>(٣)</sup> : عمر :  
من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلي نظر إلى عمرو بن الأسود

( ١ ) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين :

الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة

( ٢ ) حديث أن الله يحب للتبدل الذي لا يلبس ملبس : لم أجده أصلا

( ٣ ) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلي نظر إلى هدي عمرو

بن الأسود وأحمد بإسناده جيد

وإن كانت عند حبيباً

(١) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم. (٢) وكانت قيمة ثوبه عشرة. (٣) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفاً. (٤) واشترى سراويل بثلاثة دراهم. (٥) وكان يلبس ثملتين يضافون من صوف. وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد. وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه القلاظ. وفي الخبر (٦) كان قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قبض زيات (٧) ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً واحداً ثوباً سيرا من سندس، قيمته مائتا

(١) - حديث مامن عبد لبس ثوب شهرة - الحديث : ابن ماجه من حديث أبي ذر بناسد جيسد

دور قوله وإن كان عنده حبيباً

(٢) - حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم : أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال دخلت يوماً السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البراذين فاشترى سراويل

بأربعة دراهم - الحديث : وإسناده ضعيف

(٣) - حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم : بإجمعه

(٤) - حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصفاً : أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلان رداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع وعرضه ذراعان ونصفه الحديث : وفيه ابن لهيعة وفي حديث ابن سعد من حديث أبي هريرة كان إزاره من نسج عمان ملوله أربعة أذرع وشبر فذراعين وشبر وفيه محمد بن عمر أبو أقي

(٥) - حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم : المعروف انه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن نيس إلا انه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح

(٦) - حديث كان يلبس ثملتين يضافون من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه القلاظ : تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه لاشمعة البرد والحبرة وأما لبسه الحلة في الصحيحين من حديث الرعاء رآته في حلة حمراء ولا يداود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحزورية وعليه أحسن ما يكون من حال اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الثياب وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب العيشة ولا يداود والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة وعابه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه والترمذي والبراء من حديث قدامة الأحملي وعليه حلة حمراء عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله النهي (٧) - حديث كان قبضه كأنه قبض زيات : الترمذي من حديث أنس بن مالك ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتخرج لحية حتى كأن ثوبه ثوب زيات

(٨) - حديث لبس يوماً واحداً ثوباً سيرا من سندس قيمته مائتا درهم أهدها للمقوقس ثم نزعها - الحديث :

درهم . فكان أصحابه يمسونه ويقولون : يا رسول الله ، أنزل عليك هذامن الجنة أنميا . وكأنه قد أهداه إليه المقوقس ملك الاسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعوه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والدياج . وكأنه إنما لبسه أولانا كيلا للتحريم كما <sup>(١)</sup> لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال . <sup>(٢)</sup> وكما قال لعائشة في شأن بريرة : اشترطي لا أهلبها آلؤلاء ، فلما اشترطته صد عليه السلام المنبر فخرمه . وكما <sup>(٣)</sup> أباح للتمعة ثلاثا ثم حرمها ، لتأكيد أمر التكاثر

وقد <sup>(٤)</sup> صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيصة لها علم . فلما سلم قال : « شَغَلَنِي النَّظَرُ إِيَّاهُ هَذِهِ أَذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَاتَّبِعُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ » . يعني كساه . فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شراك نمله قد أخلق ، فأبدل بسير جديد ، ففعل فيه ، فلما سلم قال : « أَعِيدُوا الشَّرَاكَ ائْتَلِقُوا هَذَا الْجَدِيدَ فَأَيُّ نَظَرْتُ لِأَيِّهِ فِي الصَّلَاةِ » <sup>(٥)</sup> . ولبس خاتما من ذهب ، ونظر إليه على المنبر نظرة ، فرمى به ، فقال : « شَغَلَنِي هَذَا حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَنَظَرْتُ إِلَيْكُمْ » .

وكان صلى الله عليه وسلم قد <sup>(٦)</sup> احتذى مرة ثلثين جديدين ، فأعجبه حسنها ، فخرن ساجدا وقال : « أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا فَتَوَاصَّيْتُ لِرَبِّي خَشْيَةً أَنْ عَقَّبَنِي » ، ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين يراه وعن <sup>(٧)</sup> سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء . فلما لبسها قال : « انظروا ما أحسنها ما أنيئنا » قال فقام إليه أعرابي فقال : يا رسول الله هبها لي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يخل به ، قال

- 
- (١) حديث لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزع : متفق عليه وقد تقدم
  - (٢) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لأهلبها - الحديث : متفق عليه من حديثها
  - (٣) حديث أباح للتمعة ثلاثا ثم حرمها : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع
  - (٤) حديث صلى في خيصة لها علم - الحديث : متفق عليه وقد تقدم في الصلاة
  - (٥) حديث لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال شغلني هذا عظم - الحديث : تقدم
  - (٦) حديث احتذى ثلثين جديدين فأعجبه حسنها - الحديث : تقدم
  - (٧) حديث سنان بن سعد حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من - .وف أنمار - الحديث : أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يملك لأخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الأحياء سيار بن سعد وهو غلط

فقدعها إليه ، وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فأتى صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكاة  
وعن (١) جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي  
تطحن بالرحا ، وعليها كساء من وبر الإبل ، فلما نظر إليها بكى وقال « يَا فَاطِمَةُ تَجْرَعِينَ  
مِرَاةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الْآبِدِ » فأنزل عليه ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى (٢) )  
وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنْ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي الْمَلَأَةُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ  
يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ مُؤْتَمِهِمْ عَلَى  
النَّاسِ نَفِيْفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثِقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الْخُلُقَانَ وَيَتَّبِعُونَ الرُّهْبَانَ أَجْسَامُهُمْ فِي  
الْأَرْضِ وَأَقْدَامُهُمْ عِنْدَ الْعَرْشِ »

فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس ، وقد أوصى أمته عامة باتباعه  
لذا قال (٤) « مَنْ أَحْبَبَنِي فَلْيَسْتَنْ بِسُنَّتِي » وقال (٥) « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ  
الْبَرِّ الرَّاشِدِينَ مَنْ بَعْدِي عَصَوْا عَلَيْهَا بِالْتَّوَجُّهِ » وقال تعالى ( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ  
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (٦) ) وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة  
وقال « إِنْ أَرَدْتَ الْأُخُوقَ فِي فُلَانِكَ وَفُلَانِ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا تَتْرَعِي ثَوْبًا حَتَّى تُرْقِعِيهِ »

وعند علي قيهض عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم  
واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ، وابسه وهو في الخلافة ،  
وقطع كية من الرسفين وقال : الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه

وقال الثوري وغيره : البس من الثياب مالا يشمرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجاهل .

( ١ ) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحا - الحديث : أبو بكر بن لال في تحريم الأخلاق باستادنه بن

( ٢ ) حديث ابن من خيار أتي بها آتاني العلي الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة بهم ويكون سرائر من

خوف عذابه - الحديث : تقدم وعو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعه

( ٣ ) حديث من أحبني فليستن بسنتي : تقدم في الكتاب

( ٤ ) حديث عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين - الحديث : أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه

من حديث العرباض بن سارية

( ٥ ) حديث قال لعائشة أن أردت الأخوق في فلانك وفلانة الأغنياء : الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه

من حديث عائشة وقد تقدم

( ٦ ) لانهي : ٥ (٢) آل عمران : ٣١



وكان يقول : إن الفقير ليربى وأنا أصلى فأدعه يحوز ، وجرى واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرقة فأمقته ولا أدعه يحوز .

وقال بعضهم : قومت ثوبى سفيان ونمليه بدرهم وأربعة دنانير . وقال ابن شبرمة : خير ثيابى ما خدمنى ، وشرها ما خدمته .

وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني ، الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو ما يستر العورة ، ووثوب للنفس وهو ما يطلب لينة ، ووثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه .

وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما . وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قيص ومزرحته وربعا يعطف ذيل قيصة على رأسه .

وقال بعض السلف : أول النسك للزى . وفى الخبر . البذاذة من الإيمان . وفى الخبر . من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى ، وابتناء لوجهه ، كان حقا على الله أن يدخر له من مقرى الجنة فى تحت الياقوت .

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . قل لأوليائى لا يلبسوا ملابس أعدائى ، ولا يدخلوا مداخل أعدائى ، فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال . انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ، وكان عليه ثياب رفاق . وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر فى برزته ، لجلل يتكلم فى الزهد ، فوضع أبو ذر راحته على فيه ، وجعل يضرب به . فغضب ابن عامر ، فشكا إلى صمر . فقال أنت صنعت بنفسك . تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البرقة !

وقال علي كرم الله وجهه . إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ، ليقنئى بهم النفي ، ولا يزرى بالفقر فقره . ولما عوتب فى خشونة ثيابه

قال : هو أقرب إلى التواضع ، وأجدر أن يقتدى به المسلم .  
(١) ونهى صلى الله عليه وسلم عن التتم وقال « إِنَّ لِلَّهِ تَمَالِي عِبَادًا لَيْسُوا بِالتَّامِّينَ »

( ١ ) حديث نهى عن التتم وقال ان عباد الله ليسوا بالتتممين : أحمد من حديث معاذ وقد تقدم

وروي<sup>(١)</sup> فضالة بن عبيد وهو والى مصر، أشمت حافيا، فقيل له أنت الأمير وتعمل هذا ! فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء، وأمرنا أن نحتق أحيانا .  
وقال علي لمع رضي الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبك فأرفع القميص، ونكس الإزار، وتخصف النمل، وكل دون الشبع

وقال صير : اخشوشوا ، وإياكم وزى المعجم كسرى، وقبصر  
وقال علي كرم الله وجهه : من تريا بزي قوم فهو منهم  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنْ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُوا بِالنَّعِيمِ  
يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَالْأَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ »  
وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِزْرَهُ الْمُؤْمِنُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيهَا  
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَثْبَيْنِ وَمَا اسْفُلُ مِنْ ذَلِكَ فِي النَّارِ وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ  
جَرَّ إِزْرَهُ بَطْرًا » . وقال<sup>(٤)</sup> أبو سليمان البارانى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
« لَا يَلْبَسُ الشَّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا مُرْتَابًا أَوْ أَحَقُّ »

وقال الأوزاعى : لباس الصوف فى السفر سنة ، وفى الحضرة بدعة  
ودخل محمد بن واسع على قتبية بن مسلم ، وعليه جبة صوف ، فقال له قتبية . مآدعك إلى مدرعة  
للصوف ؟ فسكت . فقال أكلك ولا يجيبنى . فقال أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى ، وأفقر  
فأشكركى . وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن واه عورتك من  
الأرض . وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ، فإنه كان يتخذ سراويلين ، فإذا  
فقد أحدهما لبس الآخر ، حتى لا يأتى عليه حال إلا وعورته مستورة  
وقيل لسلمان الفارسى رضي الله عنه . مالك لا تلبس الجيد من الثياب ا فقال وما للعبد والثوب

- ( ١ ) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء وأمرنا أن نحتق أحيانا : أبو داود بإسناد جيد  
( ٢ ) حديث من شرب شرار أمتي الذين غدوا بالنعم - الحديث : الطبرانى من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف  
ميكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام - الحديث : وآخره أولئك شرار أمتي وقد هدم  
( ٣ ) حديث أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقه - الحديث : مالك وأبو داود والنسائى وابن حبان من حديث  
أبي سعيد ورواه أيضا النسائى من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلى كلا الحديثين محفوظ  
( ٤ ) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمتي إلا مرثاء أو أحق : لم أجده استنادا

الحسن، فإذا عتق قلبه والله يبارك لأتيلي أيتها . و يروى من محمد بن عبد العزيز بن ربهان ، أنه

كان له جبة شعر وكساء شعر، يلبسهما من الليل إذا قام يصلي

وقال الحسن لفرقد السبخي: تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك؟ بلنى أن أكثر

أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين: رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط

الخرق من للزابل، ويفسها ويلفقا ويلبسها . فقلت إنك تكسى خيرا من هذا . فقال :

ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله لهم الجنة كل مصيبة . فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويكي

المهم الثالث المسكن : ولله زهد فيه أيضا ثلاث درجات :

أعلاها : أن لا يطلب موصفا خاصا لنفسه ، فيقتن بزوايا المساجد كأصحاب الصفة

وأوسعها : أن يطلب موصفا خاصا لنفسه ، مثل كوخ مبن من سف أو خص أو ما يشبهه

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية . إما شراء أو إجارة . فإن كان قدر سعة المسكن على قدر

حاجته من غير زيادة ، ولم يكن فيه زينة ، لم يخرج به هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإن

طلب التشديد ، والتجميص ، والسمة ، وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع ، فقد

جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن

فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص ، أو القصب ، أو الطين ، أو بالآجر .

واختلاف قدره بالسمة والضيق . واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات ، بأن يكون مملوكا ،

أو مستأجرا ، أو مستمرا . ولله زهد مدخل في جميع ذلك

وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا يبنى أن يحاوز حد الضرورة . وقدر الضرورة

من الدنيا آله الدين ووسيلته . وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين . والترض من المسكن دفع

المطر والبرد ، ودفع الأعين والأذى . وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول .

والفضل كله من الدنيا . وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا

وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التذريز

والتشديد ، يعني بالتذريز كف دروز الثياب ، فإنها <sup>(١)</sup> كانت تشل شلا . والتشديد هو البليان

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبتون بالسف والجريد أمثال الثياب من غير كف فروى الطبراني

والحاكم أن عمر قطع ما فضل من الأصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله

عليه وسلم وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل

بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسمن والجريد . وقد جاء في الخبر . يأتي على الناس زمان يوشون فيهم كما توشى البرود النامية . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يهدم عليه كانه قد علاها <sup>(١)</sup> وصر عليه السلام بمنجزة معلاة . فقال « لئن هذه ؟ » قالوا لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه ، فلم يكن يقبل عليه كما كان . فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم . فأخبر ، فذهب فهدمها . فرسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها ، فأخبر بأنه هدمها ، فدعاه لي بخبر

وقال <sup>(٢)</sup> الحسن . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة ، ولا قصبه على قصبه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إذا أراد الله سبحانه شيئا أهلك ماله في الماء والطين » . وقال عبد الله بن عمر . مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتناجى حصاة فقال « ما هذا ؟ » قلنا حصن لنا قدوهي . فقال « أرى الأمر أعجل من ذلك » واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب ، فقيل له . لو بيت ؟ فقال هذا كثير لمن يموت وقاله الحسن . دخلنا على صفوان بن عبيز وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له لو لمصلته ؟ فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم »

قبة السجد وجمعا عضاديه الجسارة - الحديث : ولما من حديث أبي سعيد كان السجد على عريش فكيف للسجد

(١) حديث أمر الناس أن يهدم عليه كانه قد علاها : الطبراني من رواية أبي العالاية ان الناس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها - الحديث : وهو متقطع

(٢) حديث منجزة معلاة فقال لئن هذه فقالوا فلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه - الحديث : أبو داود من حديث أنس بلسان جيد باللفظ قرأى قبة مشرفة - الحديث : والجنة العبة

(٣) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة - الحديث : ابن حبان في الثقات وأبو تميم في الحلية هكذا مرسل الطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عن أوسره أن ينظر إلى فلان ينظر إلى أنثى صاحب - مشر لم يضع لينة على لينة - الحديث : ولما من حديث عائشة بلسان جيد

(٤) حديث إذا أراه الله ببه شرا أهلك ماله في الماء والطين : أبو داود من حديث عائشة بلسان جيد شفر له في الطين والآبن حتى يبي

(٥) حديث عبد الله بن عمر مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتناجى خصالنا قدوهي - الحديث : أبو داود والترمذي ومعه وابن ماجه

(٦) حديث من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله : الظهير في من حديث ابن مسعود بلسان أبيه من واقطاع

الْقِيَامَةِ « وفي الخبر <sup>(١)</sup> » كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا نَفَقَهُ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْنِ ،  
وفي قوله تعالى ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ  
وَلَا فَسَادًا <sup>(٢)</sup> ) أنه الرياسة والتطاول في البناء

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « كُلُّ بِنَاءٍ وَقَالَ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا كُنَّ  
مِنْ حَرٍّ وَبَرٍّ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله « اتَّسِعْ فِي  
السَّمَاءِ » أي في الجنة . ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بحص  
وأجر ، فكبر وقال . ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني ببناء هامان لفرعون  
يعنى قول فرعون ( فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ <sup>(٥)</sup> ) يعنى به الآجر  
ويقال إن فرعون هو أول من بنى له بالحص والآجر ، وأول من عمله هامان ، ثم تبعهما  
الجسارة . وهذا هو الزخرف

ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد  
والسعف ، ثم رأيت مبنيا من رهص ، ثم رأيت الآن مبنيا بالبن ، فكان أصحاب السعف  
خير من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب البن  
وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنيانه ، وقصر أمله ،  
وزهد في إحكام البناء . وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه  
فإذا رجع أعاده . وكانت يوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن  
وكان ارتفاع بناء السقف قائمة وبسطة . قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله

( ١ ) حديث كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما نفقه في الماء والطين : ابن أبي عمير حديث خباب بن الأرت بإسناد

جيد بلفظ لا في التراب أو قال في البناء

( ٢ ) حديث كل بناء وقيل على صاحبه إلا ما كن من حر أو برذ : أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد

بلفظ إلا ما لا يبني ما لا يد منه

( ٣ ) حديث قال الرجل الذي شكى إليه ضيق منزله اتسع في السماء : قال المصنف أي في الجنة أبو داود في الراشدين  
من رواية اليسع بن النيرة قال شكى خالد بن الوليد فذكره . وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع  
ابن النيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد إلا أنه قال أرفع إلى السماء وأسأل الله السعة وفي إسناده ابن

صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف وقال عمرو بن دينار . إذا أعلى العبد البناء فوق  
سنة أذرع ناداه . لك . إلى أين يافسق الفاسقين ؟

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال . لو أنظر الناس لما شيدوا ، فالنظر إليه ممين عليه  
وقال الفضيل : إني لا أعجب ممن بنى وترك ، ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر .  
وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتي قوم يرفعون العاين ، ويضعون الدين ، ويستعملون  
البرازين ، يصلون إلى قبلكم ، ويعوتون على غير دينكم

المهم الرابع : أئاث البيت . ولاز هذمية أيضا درجات : أعلاها : حال عيسى المسيح صارات الله  
عليه وسلامه ، وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز ، فرأى إنسانا  
يمشط لحيته بأصابه ، فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه ، فرمى بالكوز .  
وهذا حكم كل أئاث ، فإنه إنما يراد المقصود . فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة  
ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات ، وهو الخرف في كل ما يمكن فيه الخرف  
ولا يزال بأن يكون مكسور للطرف إذا كان المقصود يحصل به .

وأوسطها : أن يكون له أئاث بقدر الحاجة ، صحيح في نفسه ، ولكن يستعمل الآلة الواحدة  
في مقاصد ، كالذي معه قصعة يأكل فيها ، ويشرب فيها ، ويحفظ المتاع فيها . وكان السلف  
يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف

وأعلاها : أن يكون له بمدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس . فإن زاد في العدد  
أو في نفاسة الجنس ، خرج عن جميع أبواب الزهد ، وركن إلى طلب الفضول  
ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين  
فتد : قالت <sup>(١)</sup> عائشة رضي الله عنها . كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام  
عليه وسادة من آدم ، حشوها ليف .

وقال الفضيل <sup>(٢)</sup> : ما كانت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ،  
ووسادة من آدم ، حشوها ليف

( ١ ) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف  
أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه

( ٢ ) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه <sup>(١)</sup> دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشریط ، فجلس ، فرأى أثر الشریط في جنبه عليه السلام . فدمعت عيناه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « مَا الَّذِي أَبْكَاكُ يَا أَبْنَى الْخَطَّابِ » قال ذكرت كسرى وقصر وماها فيه من الملك ، وذكرت أن حبيب الله ، وصفيه ، ورسوله ، نائم على سرير مرمول بالشریط . فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَا تَرْضَى يَا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهْمًا ذَائِبًا وَلَنَا الْآخِرَةُ ؟ » قال بلى يا رسول الله . قال « فَذَلِكَ كَذَلِكَ »

ودخل رجل على أبي ذر ، فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال بأبأ ذر ، مأرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا . فقال إنه لا بد من متاع مادمت ههنا . فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه

ولما قدم حمير بن سميد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له : ماملك من الدنيا؟ فقال معي عصى أتوكأ عليها ، وأقتل بها حية إن أقيتها . ومعى جرابي أحمل فيه طماي . ومعى قصصتي آكل فيها ، وأغسل فيها رأسي وثوبى . ومعى مطهرتى أحمل فيها إشراني وطهورى للعلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى . فقال عمر . صدقت رحمك الله

<sup>(٢)</sup> وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها ، فرأى على باب منزلها سئرا ، وفي يديها قلبين من فضة . فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهي تبكى . فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله أبو رافع . فقال « مِنْ أَجْلِ

الترمذى في الشمائل من حديث حفصة بقة العبادة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقة الواسدة وقد تقدم فيه بعض طرفه

( ١ ) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشریط التخل فجلس

فرأى أثر الشریط في جنبه - الحديث : متفق عليه من حديثه وقد تقدم

( ٢ ) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سئرا وفي يديها قلبين من فضة فرجع - الحديث : لم أره مجموعا ولا في دارود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع

يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعل أنظر فأرجعه - الحديث : والنسائي من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هيرة الى النبي صلى الله

عليه وسلم وفي يدها فنج من ذهب - الحديث : وفيه انه وجد في يد فاطمة سلة من ذهب وفيه

يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلة من ناز وانه خرج ولم يعد فلما رت بالسلة فيمت

فاشترت بثمنها عبدا فأعفته فلما سمع قال الحمد لله الذي نجي فاطمة من النار

السَّيِّئُ وَالسَّوْءُ لَرَيْنٌ هَ فَأُوسَاتُ بِهِمَا بِلَالًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَتْ : تَعِدُّنَا بِهِمَا ، فَضَعَمَهَا حَيْثُ تَرَى . قَالَ : إِذَا هَبَّ فِيهِمَا وَادْفَعَتْهُ إِلَى أَهْلِ الصَّفَةِ ه فَبَاعَ الْقَلْبَيْنِ بِدُرْهَمَيْنِ وَنَصْفٍ ، وَتَعِدُّنَا بِهِمَا عَلَيْهِمْ . فَدَخَلَ عَلَيْهِمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا أَبَى أَنْتَ قَدْ أَحْسَنْتَ ه . (١) وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَابِ عَائِشَةَ سَتْرًا فَنَهَكَهُ وَقَالَ : « كَلِمًا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أُرْسِلُ بِهِ إِلَى آلِ فَلَانٍ »

(٢) وَفَرَسَتْ لَهُ عَائِشَةُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَرَاشًا جَدِيدًا ، وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنَامُ عَلَى عِبَادَةِ مِثْلِيَّةٍ . فَمَّا زَالَ يَتَغَلَّبُ لَيْلَتَهُ . فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لَهَا : « أَيْعِدِي الْمَتَابَةَ الْخَلْقَةَ وَنَحْنُ هَذَا الْفَرَاشَ حَتَّى قَدْ أَسْبَرْنَا اللَّيْلَةَ »

وَكَذَلِكَ (٣) أَنَّهُ دَنَا بِرِخْسَةِ أَوْسَةِ إِيْلَا ، فَبَيْتَهَا ، فَسَهَرَ لَيْلَتَهُ حَتَّى أَخْرَجَهَا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ . قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَنَامَ حَيْثُ حَتَّى سَمِعَتْ غَطْلِبَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « مَا ظَنُّنَا مُحَمَّدٌ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَدَّيْهُ مِنْهُ »

يُقَالُ الْحَسَنُ : أَدْرَكَتْ سَبْعِينَ مِنَ الْأَخْيَارِ مَا لِأَحَدِهِمْ إِلَّا ثَوْبَةٌ ، وَمَا وَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ فِي بَيْتِ الْأَرْضِ ثَوْبًا قَطْ ، كَانَ إِذَا أَرَادَ النَّوْمَ بِأَرْضٍ يَحْسِبُهُ وَجَعَلَ ثَوْبَهُ فَوْقَهُ

لِلْمُهْمِ الْخَامِسُ : لِلتَّكْوَعِ . وَقَدْ قَالَ فَاثِلُونُ . لَا مَعْنَى لِلزَّهْدِ فِي أَصْلِ التَّكْوَعِ وَلَا فِي كَثَرَتِهِ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ : قَدْ حَبَبَ إِلَى سَيِّدِ الْأَهْدِيْنَ النَّسَاءُ ، فَكَيْفَ تَزْهَدُ فِيْهِنَّ !

(١) حَدِيثٌ رَأَى عَلَى بَابِ عَائِشَةَ سَتْرًا فَنَهَكَهُ - الْحَدِيثُ : التَّرْمِذِيُّ وَحَسَنُ وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكِبَرِيِّ مِنْ حَدِيثِهَا

(٢) حَدِيثٌ فَرَسَتْ لَهُ عَائِشَةُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَرَاشًا جَدِيدًا وَفِيهِ كَانَ يَنَامُ عَلَى عِبَادَةِ مِثْلِيَّةٍ - الْحَدِيثُ : ابْنُ حِبَّانَ فِي كِتَابِ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيثِهَا قَالَتْ دَخَلْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَرَأَتْ فَرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِبَادَةَ مِثْلِيَّةً فَانْطَلَقَتْ فَبُعِثَ إِلَيْهَا بِفَرَاشٍ حَشْوُهُ صُوفٌ يَدْخُلُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا عَلَيْهَا - الْحَدِيثُ : وَهُوَ : أَخْبَرَهَا بِرَدِّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَفَرَدَتْ وَفِيهِمَا بَيْنَ سَيِّدِ عَنَافٍ فِيهِ وَالْعُرُوفِ حَدِيثٌ حَفِظَهُ لِلتَّقْدِيمِ ذَكَرَهُ مِنَ الشَّيْخَانِ

(٣) حَدِيثٌ أَنَّهُ دَنَا بِرِخْسَةِ أَوْسَةَ فَبَيْتَهَا فَسَهَرَ لَيْلَتَهُ - الْحَدِيثُ : وَفِيهِ مَا ظَنُّنَا مُحَمَّدٌ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَدَّيْهُ مِنْهُ - وَهَذِهِ عَنْهُ : أَحَدُ مَنْ حَدَّثَ عَائِشَةَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِعَائِشَةَ : إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : وَفِي رِوَايَةٍ سَبْعَةُ أَوْ ثَمَنَةَ دَنَانِيرَ . وَلَمْ يَنْجِدْ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ شَيْخٌ أَوْجَحٌ قَالَتْ لَحَبِثَ دَلَالٌ مِنْ وَجَعٍ فَقَاتَ بِأَنَّى اللَّهُ مَا لَكَ شَيْخٌ أَوْجَحٌ قَالَ : « لَنْ أَجِدَ إِلَهُ إِلَّا نَافِيرَ السَّجَةِ الَّتِي أَتَانَا أَمْسَ أَمْسِينَا وَهِيَ خَصَمُ الْفَرَاشِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى تَأْوِيلُهَا : فَكَيْفَ تَزْهَدُ فِيْهِنَّ !



ووافقه على هذا القول ابن عينة وقال : كان أزهـد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشر سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال : كل ما شغلك عن الله من أهل ، ومال ، وولد ، فهو عليك مشغوم ، والمرأة قد تكون شاغلا عن الله

وكشف الحق فيه أنه قد تكون الزوجة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فله ، ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن ، والأنس بهن ، بحيث يشتغل عن ذكر الله ، فترك ذلك من الزهد . فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ، ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر ، والمضاجعة ، والمواقة ، فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات . واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره ، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب . وهذا كمن ترك أكل الطير وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء ، لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله

فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذه ، من غير خوف آفة أخرى وهذا ما عناه من لاهالة . ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ، في أنه لا يشغله كثرة النسوة ، ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والتنظر . ولكن أتى بتصوير ذلك لنفي الأنبياء والأولياء ! فأكثر الناس يشغلهم كثرة النساء . فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله . وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن ، أو جمال المرأة ، فليترك واحدة غير جميلة ، وليبرأ قلبه في ذلك . قال أبو سليمان . الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليئيمة ، على المرأة الجميلة والشريفة .

( ١ ) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن : خصم في النكاح

وقال الجنيد رحمه الله . أحبب للرب ، للبتي ، أن لا يشغل قلبه بثلاث ، ولا تغيب حاله التكسب ، وطلب الحديث ، والزواج . وقال : أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع له . فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل ، فاشغل عن الله فو محذور فيها جميعاً .

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه . أما الجاه فمناه ملك القلوب بطلب محل فيها ، ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال . وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته ، واقتر إلى من يخدمه ، واقتر إلى جاه لاعالة في قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته . وقيام التقدر والمحل في القلوب هو الجاه ، وهذا له أول قريب ، ولكن يتأدى به إلى هاوية لاصق لها . ومن حار حول المحي يوشك أن يقع فيه . وإننا يحتاج إلى المحل في القلوب إما جلب نفع ، أو دفع ضر ، أو خلاص من ظلم

فأما النفع فينبغي عنه المال . فإن من يخدم بأجرة يخدم ، وإن لم يكن عنده المستأجر قدر . وإننا يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة

وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ، ولا يقدر على دفع شرم إلا بحل له في قلوبهم ، أو محل له عند السلطان . وقدر الحاجة فيه لا ينضب ، لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب . والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً . فإن اشتغاله بالدين والمباة عيبد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار ، فكيف بين المسلمين ؟ فأما التوهمات والتفديرات التي تموج إلى زيادة في الجاه محل الحاصل بغير كسب ، فهي أوهام كاذبة . إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال . فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذا طلب المحل في القلوب لارخصة فيه أصلاً . واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الحر ، فليحترز من قليله وكثيره

وأما المال : فهو ضروري في الميشة . أعنى القليل منه . فإن كان كسواً ، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب . كان بمضهم إذا اكتسب حبتين رفع سقطة وقام ،

هذا شرط الزهد . فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضمه الزهاد وأقربائهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل ، فأمسك منها مقدار ما يكفي ريمه لسنة واحدة ، فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد ، بشرط أن تصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضمه الزهاد . فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نفي به أن ما وعد الزاهدين في الدار الآخرة من المقامات الممودة لا يناله . وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة .

وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المليل ، وقد قال أبو سليمان : لا ينبغي أن يهرق الرجل أهله إلى الزهد ، بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا ، وإلّا تركهم وفعل بنفسه ما شاء ، معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ، ولا يلزمه كل ذلك في عياله . ثم لا ينبغي أن يجهم أيضا فيما يخرج من حد الاعتدال ، وليتلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نصر فسن يثاب فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة

فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس يحذور . بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع . وما بينهما درجات متشابهة : فاقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر . وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر . والسم محظور شر به ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشبه أمره . فمن احتاط فإنما يحاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه . ومن استبرأ لدينه ، وترك ما يربيه إلى ما لا يربيه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة ، فهو آخذ بالخيزم ، وهو من الفرق الناجية لا الهلكة والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا : بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين ، لأنه شرط الدين ، والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ما روي أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة : فذهب إلى صديق له يستقرض شيئا ، فلم يقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه . لو سألت خليلك لأعطاك . فقال يارب ، عزفت مقتك للدنيا ، فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله تعالى إليه . ليس الحاجة من الدنيا فإذا قدر الحاجة من الدين . وما وراء ذلك وبال في الآخرة ، وهو في الدنيا أيضا كذلك

يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء ، وعلماهم من الخنة في كسب المال وجهه وحفظه واحتمال  
للذل فيه وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيا كانوا ، وربما يكونون أعداءه ، وقد يستمعون  
به على المصيبة ، فيكون هو معينا لهم عليها

ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز ، لا يزال ينسج على نفسه حياة ثم يروم  
الخروج فلا يجد مخلصا ، فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه . فكذلك كل من اتبع  
شهووات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتميه ، حتى تتظاهر عليه السلاسل  
فيقيده المال ، والجاه ، والأهل ، والوالد ، وشماتة الأعداء ، ومراعاة الأصدقاء ، وسائر حظوظ  
الدنيا . فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه ، فقصده الخروج من الدنيا ، لم يقدر عليه ، ورأى قلبه  
مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها . ولو ترك محبوبا من محابه باختياره ، كاذن أن يكون  
قاتلا لنفسه ، وسليما في هلاكه ، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة  
فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها ، فهي تجاذبه إلى الدنيا ، ومخالب ملك  
الموت قد علقت بمروق قلبه تجذبه إلى الآخرة . فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون  
كشخص ينشر بالنشر ، ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين . والذي ينشر  
بالنشر لا يتأذى من المؤلم بيده ، ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره . فهاهناك بالأم  
يمكن أولامن صميم القلب ، مخصو صا به لا بطريق السراية إليه من غيره

فهذا قول عذاب يلقيه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين ، وجوار رب العالمين .  
فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى . وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ، إذ النار  
غير مسطرة إلا على محبوب . قال الله تعالى ( كَلَّا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا رَبُّهُمْ عَنِّي ) وَمِنْذِرُهُمْ لَمَحْجُوبُونَ  
ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَفَلَا يَهْتَفُونَ <sup>(١)</sup> فترتب المذاب بالنار على ألم الحجاب . وألم الحجاب كاف من غير  
هلاوة النار . فكيف إذا أضيفت الملاوة إليه ! فנסأل الله تعالى أن يقرر أسماعنا <sup>(٢)</sup> ما نفت  
في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له . أحجب من أحبيت فإنك مفارقة  
وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر

( ١ ) حديث نفت في روعه أحجب من أحبيت فانك مفارقة : تنهم

كدود كدود القز ينسج دأنا . وبهك نغما وسط ماهو ناسجه  
ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مبهك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه ، إهلاك  
دود القز نفسه ، رفضوا الدنيا بالكلية . حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدرا كانوا فيما حل  
الله لهم أزهدهم في حرم الله عليهم . وفي لفظ آخر . كانوا بالبلاء أشد فرحاً منكم بالخصب والرخاء ،  
لورأيتهم قلم بجانين . ولورأوا خياركم قالوا ما هؤلاء من خالق ، ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن  
هؤلاء . يوم الحساب . وكان أحدهم يمرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أغاف أن يفسد علي قلبي  
فإن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساد . والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر  
الله عنهم إذ قال تعالى ( وَرَبُّوْا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْنُوْا بِهَا الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ <sup>(١)</sup> )  
وقال عز وجل ( وَلَا تُصْعِقْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا <sup>(٢)</sup> )  
وقال تعالى ( فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلِغُهُمْ  
مِنْ أَلِيمٍ <sup>(٣)</sup> ) فأحال ذلك كله على النفلة وعدم العلم . ولذلك قال رجل ليس عليه السلام :  
اجلني معك في سياحتك . فقال أخرج مالك والحقي . فقال لا أستطيع . فقال عيسى عليه  
السلام : بسبب يدخل النفي الجنة . أوقال : بشدة

وقال بعضهم : ما من يوم ذكر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ،  
ملكاً بالشرق ، وملكاً بالمغرب ، يقول أحدهم بالشرق . يباغي الخير لهم ، ويباغي الشر  
أقصر . ويقول الآخر . اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً . ويقول الثالث بالمغرب  
أحدهما لدوا الموت ، وابنوا للخراب . ويقول الآخر . كلوا وتمتوا أطول الحساب

## بيان

### علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد . وليس كذلك . فإن ترك المال وإظهار الخشوة  
سهل على من أحب المدح بالزهد . فكمن من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر  
ينير من الطعام ، ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة النائم حاله ، ونظرهم  
إليه ، ومدحهم له . فذلك لا يدل على الزهد دلائل قاطعة . لا لابد من الزهد في المال والجاه جميعاً ،

(١) يونس : ٧ (٢) الحديد : ٢٨ (٣) النجم : ٢٩ ، ٣٠

حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا . بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة : والثياب الرقيقة ، كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال :  
 وقوم ادعوا الزهد ، ولبسوا الفاخر من اللباس ، يوهون بذلك على الناس ليهدى إليهم  
 مثل لباسهم ، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا ، فيعطوا كانتعطي  
 المساكين ، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم ، وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم  
 وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون بطة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق ، وأجؤا إلى  
 المضائق . وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين ، لم يمتوا بتصفية أسرارهم ، ولا بهذيب أخلاق  
 نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم ، فغلبتهم ، فادعوا حالاً لهم فهم مائلون إلى  
 الدنيا ، متبعون للهوى : فهذا كله كلام الخواص رحمه الله  
 فإذا معرفة الزهد أمر مشكل . بل حال الزهد على الزهد مشكل . ويبني أن  
 يعول في باطنه على ثلاث علامات

العلامة الأولى : أن لا يبرح بوجوده ، ولا يحزن على مفقوده . كما قال تعالى ( لِكَيْلَا تَأْسَوْا  
 عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ )<sup>(١)</sup> . بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك ، وهو أن  
 يحزن بوجود المال ، ويفرح بفقده

العلامة الثانية : أن يستوي عنده ذاته ومادحه . فالأول علامة الزهد في المال  
 والثاني علامة الزهد في الجاه

العلامة الثالثة : أن يكون أنه بالله تعالى ، والنال على قلبه حلوة الطاعة . إذ لا يخلو  
 القلب عن حلوة المحبة . إما محبة الدنيا . وإما محبة الله . وهما في القلب كالماء والهواء في القدح  
 قلالة إذا دخل خرج الهواء ، ولا يجتمعان . وكل من أنس بالله اشتغل به ، ولم يشغل بغيره .  
 ولتلك قيل لبعضهم . إلى ماذا أفنى بهم الزهد ؟ فقال . إلى الأنس بالله فأما الأنس  
 بالدنيا وبالله فلا يجتمعان . وقد قال أهل المعرفة . إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب  
 الدنيا والآخرة جميعاً ، وعمل لهما . وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وبشره ، أبغض  
 الدنيا ، فلم ينظر إليها ، ولم يعمل لها . ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام . اللهم إني أسألك

إيماناً يباشر قلبي . وقال أبو سليمان : من شغل نفسه شغل عن الناس ، وهذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقام المارفين . والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عند المدح والمدم والوجود والمدم . ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً .

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان . أكان داود الطائي زاهداً ؟ قال نعم . قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً ، فأفقها في عشرين سنة ، فكيف كان زاهداً وهو يملك الدنانير ! فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ! وأراد الحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها . فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه ، خوفاً على قلبه وعلى دينه ، فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه . وآخره أن يترك كل ماسوى الله ، حتى لا يتوسد حجراً ، كما فعله المسيح عليه السلام .

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيباً وإن قل ، فإن أمثالنا لا يستجري ، على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه ، وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتخطاه شيء ، فلا بد في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود الجاوز لكل كمال . فإذا علامة الزهد استواء الفقر والغنى ، والمز والذل ، والمدح والدم . وذلك لقلب الأئمة بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة ، مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها وقيل فلامته أن يترك الدنيا كما هي ، فلا يقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ، السخاء بالموجود

وقال ابن خفيف : علامته ، رجود الراحة في الخروج من الملك .

وقال أيضاً : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف

وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد ، فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي

قلبه رغبة خمسة دراهم

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمه الله : علامة الزهد ، قصر الأمل

وقال سري : لا يطيب ميش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب ميش الماروف إذا اشتغل بنفسه

وقال النصر اباذي : الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف غريب في الآخرة  
وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث . عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة  
وقال أيضا : الزاهد لله يسمعك الخلق والخرذل ، والعارف يشمك المسك والعنبر  
وقال له رجل . متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزهد ، وأقدم مع الزهدين ؟ فقال :  
إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لوقطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في  
نفسك . فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة ، فجلوسك على بساط الزاهد بن جهل . ثم لا آمن عليك أن تقتضح  
وقال أيضا : الدنيا كالمرس ، ومن يطلبها ماشطتها ، والزاهد فيها يستخم وجهها ، وينتف  
شعرها ، ويحرق ثوبها . والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها  
وقال السري : مارس كل شيء من أمر الزهد ، فنلت منه ما أريد إلا الزهد في  
الناس ، فإنني لم أبلغه ولم أطلقه  
وقال الفنيل رحمه الله : جعل الله الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .  
وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا  
فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . وإذا كان الزهد لا يتم إلا  
بالتوكل ، فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى



# كتاب التوحيد والنوكل

## كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تبارك وتعالى الملك والملكوت ، المنفرد بالزعة والجبروت ، الرافع للسما بغير عداد ،  
المقدر فيها أوزاق العباد ، الذي صرف أعين ذوى القلوب والأبواب عن ملاحظة الوسائط  
والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع مهمهم عن الالتفات إلى ماعده ، والاعتماد على مدبر  
صوره ، فلم يجدوا إلا إياه ، علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقا بأن جميع أصناف  
الخلق عباد أمثالهم لا ينتنى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذوة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة  
إلا على الله وزعها . فلما تحققوا أنه لرزق عبادهم ضامن ، وبه كفيل ، توكلوا عليه فقالوا  
حسبنا الله ونعم الوكيل . والصلاة على محمد قانع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ،  
وعلى آله وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين . بل هو من ممالى  
درجات المؤمنين . وهو في نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل .  
ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد ،  
والتناقل عنها بالكيفية طعن في السنة وقدح في الشرع . والاعتماد على الأسباب من غير أن  
توى أسبابا تغيير في وجه العقل ، وانتهاش في غمرة الجليل . وتحقيق معنى التوكل على وجه  
يتوافق فيه مقتضى التوحيد ، والنقل ، والشرع ، في غاية التموض والمسر ، ولا يقوى على  
كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء لإساسة العلماء ، الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى  
بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا  
ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد في الشطر  
الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني

## بيان

فضيلة التوكل

أما من الآيات فقد قال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>) وقال عز وجل (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>(٣)</sup>) وقال سبحانه وتعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ<sup>(٤)</sup>) وأعظم بقاء موسوم بحجة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملائسته . فمن الله تعالى حسبه وكافيه ، وعبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم . فإن المحبوب لا يمتد ، ولا يبعد ولا يحجب .  
وقال تعالى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ<sup>(٥)</sup>) فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل ، وهو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا<sup>(٦)</sup>)  
وقال عز وجل (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>(٧)</sup>) أي عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذبجنا به ، والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تديره من توكل على تديره .. وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَانِكُمْ<sup>(٨)</sup>)  
بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّقُوا اللَّهَ عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقُ يُعْطَاهُ<sup>(٩)</sup>) وقال عز وجل (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَسَكِنَّ أُولَئِكَ لَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ<sup>(١٠)</sup>) وقال عز وجل (يُذَبِّرُ الْأُمْرَ مَسْنِ شَفِيعٍ إِلَّا مَنْ أَمَدَّ إِذْ بِهِ<sup>(١١)</sup>)  
وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه<sup>(١٢)</sup> ابن مسعود «أُرِيتُ الْأُمَّ فِي

( كتاب التوحيد والتوكل )

( ١ ) حديث ابن مسعود أريت الأم في الموسم فرأيت أمي قملوا السهل والجبل سألته عن حديث رواه ابن مسعود  
بإسناد حسن وافق عليه الشيخان من حديث ابن عباس

(١) للمائدة: ٢٣ (٢) إبراهيم: ١٢ (٣) الطلاق: ٣ (٤) آل عمران: ١٥٩ (٥) الزمر: ٣٩ (٦) القمر: ١٢

(٧) الاحقاف: ٤٩ (٨) الأعراف: ١٩٤ (٩) المكنوت: ١٧ (١٠) الناقور: ٧ (١١) يونس: ٣

أَلَمْ يَسْمِعْ قَرَأْتِ أُمِّي قَدْ مَلَأُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ فَأَعَجِبْتِي كَثَرَتُهُمْ وَهَيَأْتُهُمْ قَبِيلٌ لِي أَرْضَيْتِ؟  
قُلْتُ نَعَمْ قِيلَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبَّحُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ « قيل من هم  
يا رسول الله؟ قال « الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَتَطَبَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رِجْلِهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة وقال . يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ » فقام آخر فقال . يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني  
منهم فقال صلى الله عليه وسلم « سَبِّحْ بِهَا عَكَاشَةُ »

وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(١)</sup> لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ  
كَأَيُّ رِزْقٍ الطَّيْرُ تَمْدُوا بِحَافِصًا وَبَرُوحُ بِطَانًا »

وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(٢)</sup> مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مُؤْنَةٍ  
وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَّهُ اللَّهُ لِإِيَّتِهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(٣)</sup> مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِعَا عِنْدَ اللَّهِ  
أَوْتَقَى مِنْهُ بِعَا فِي يَدَيْهِ »

ويروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه «<sup>(٤)</sup> كَانَ إِذَا أَصَابَ أَهْلَهُ خِصَامَةٌ قَالَ  
« قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ » ويقول « بِهَذَا أَمَرَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ( وَأُمِرُ أَهْلَكَ  
بِالصَّلَاةِ وَاصْطَلِبْ عَلَيْهَا )<sup>(١)</sup> الْآيَةُ

( ١ ) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير - الحديث ! الترمذي والحاكم  
وصحاح من حديث عمر وقد تقدم

( ٢ ) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة - الحديث : الطبراني في الصغير وابن أبي التياوه من طريقه البيهقي  
في الشعبين برواية الحسن عن عمر بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم

( ٣ ) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوتق من الله يديه - الحديث ! الترمذي والبيهقي في الزهد  
من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف

( ٤ ) حديث كان إذا أصاب أهله خِصَامَةٌ قَالَ قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ ويقول بهذا أمرني ربِّي قال تعالى وأمر أهلك  
بالصلاة واصطبر عليها : الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال  
« كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ بِأَهْلِهِ الضَّيْقُ أَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ وَبِعَدْنِ حَزْرَةَ  
ابْنِ يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَا ذَكَرُوا لِرِوَايَتِهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ فَبِعَدْنِ سَبَاعَةَ مِنْ جَدِّ أَبِيهِ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> : « لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنْ اسْتَرْقَى وَاسْتَرْقَى »  
 وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام ، وقد رمى إلى النار بالمنجنين . أنك  
 حاجة ؟ قال أما إليك فلا . وفاء بقوله . حسبي الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي  
 فأنزل الله تعالى ( وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى )

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . يادأود ما من عبد يتصم في دون خاف فتسكده  
 السموات والأرض ، إلا جعلت له مخرجاً  
 وأما الآثار : فقد قال سميد بن جبير : لدغني عقرب ، فأقسمت عليّ أمي لتسترفين  
 فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ

وقرأ الخواص قوله تعالى ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ) <sup>(٢)</sup> إلى آخرها فقال :  
 ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى

وقيل لبعض العلماء في منامه . من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته  
 وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ،  
 فتضيع أمر آخرتك ، ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك  
 وقال يحيى بن معاذ : في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور  
 بطلب العبد . وقال إبراهيم بن آدم . سألت بعض الرهبان من أين تأكل ؟ فقال لي ليس  
 هذا العلم عندي ولكن سأل ربّي من أين يطعمني .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرني أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . قال  
 هرم : كيف الميمنة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب ، قد خالطها الشك فاتفهم الموعظة  
 وقال بعضهم : متى رصيت بائناً وكيلاً ، وجدت إلى كل خير سبيلاً . نسأل الله تعالى حسن الإجابة

( ١ ) حديث لم يتوكل من استرقى واسترقى : الترمذي وحسنه النسائي في الكبرى والطبراني واللفظ له إلا أنهما  
 أو من حديث الثوري بن شعبة وقال الترمذي من استرقى أو استرق فقد برى من التوكل وقال  
 النسائي ما توكل من استرقى أو استرق

## بيان

حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان . وجميع أبواب الإيمان لا تنظم إلا بعلم ، وحال ، وعمل . والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الفرة ، وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبداً ببيان العلم الذى هو الأصل ، وهو للمسيح إيماناً فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوي سمي يقيناً . ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما ينبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك . له الملك . والإيمان بالجدود والحكمة الذى يدل عليه قولك . وله الحمد ، فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ثم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يضير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه ، غالباً عليه

فأما التوحيد فهو الأصل . والقول فيه يطول . وهو من علم المكاشفة . ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم للعامة إلا بها . فإذا لا تعرض إلا للقدر الذى يشاق بالمعاملة . وإلا فالنوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له فنقول : للتوحيد أربع مراتب : وهو ينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب .

فالرتبة الأولى : من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله ، وقلبه غافل عنه ، أو منكراً له ، كنوحيد للمناقين

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام للمقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن براها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة : أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً ، وهي مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً . وإذا لم يرق نفسه

لكونه مستقراً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فني عن رغبة نفسه والخلق  
 فالأول : موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسيوف  
 والثاني : موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه ، وقلبه خال عن التكذيب بما انمقد  
 عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح واتساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من  
 المذاب في الآخرة إن توفي عليه ، ولم تضعف بالمعاصي عقده . ولهذا المقد حيل يقصد  
 بها تضييفه وتحليله تسمى بدعة . وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضييف ، ويقصد  
 بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدها على القلب ، وتسمى كلاماً ، والعارف به يسمى متكلاماً .  
 وهو في مقابلة المبتدع ، ومفصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام . وقد  
 ينحصر التكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحصى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب  
 السوام ، حتى لا تتحل عقده

والثالث : موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً ، إذا انكشف له الحق كما هو عليه  
 ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً . وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه  
 أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق التكلم المعاني  
 في الاعتقاد ، بل في صنعة تليق بالكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة  
 والرابع : موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث  
 إنه كثير ، بل من حيث إنه واحد . وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد  
 فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كالب ،

والرابع كالدمن المستخرج من اللب ،

وكأن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها ، بل إن أكل فهو مرّ المذاق ، وإن نظر إلى  
 باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ جطباً أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك في البيت  
 ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ، ثم يرى به عنه ، فكذلك  
 التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر  
 والباطن . لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي  
 القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف النزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق

القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة . وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده . ولما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تعون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ، ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانتراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه . إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ( قَن يُرِدَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ )<sup>(١)</sup> وبقوله عز وجل ( أَقْنِ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ )<sup>(٢)</sup>

وكأن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر ، وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للمالكين ، ولكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير ، والاتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق

فإن قلت : كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا ، وهو يشاهد السماء والأرض ، وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء امر الربوبية كفر . ثم هو غير متناق بعلم العامة . نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك بمكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار . وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفات إلى روحه ، وجسده ، وأطرافه وعروقه ، وعظامه ، وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ تقول إنه إنسان واحد . فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد . وكمن شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه ، وعروقه ، وأطرافه ، وتفصيل روحه ، وجسده ، وأعضائه . والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستبصار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق : وكأنه في عين الجمع ، والتفت إلى الكثرة في تفرقة



فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة. فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخرى سواء كثير. وبعضها أشد كثرة من بعض. ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الفرض، ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في شئ المشاهدات واحدا

ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه، وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك. كما أنك إذا آمنت بالنبوة، وإن لم تكن نبيا، كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه المشاهدات التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم، وتارة تنظر كألقاب الخاطف وهو الأكثر. والدوام نادر عزيز. وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج، حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: فيأذا أنت؟ فقال أدور في الأسفار لأصبح حالي في التوكل، وقد كان من التوكلين، فقال الحسين: قد أنفيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال

فإن قلت: فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية إنشاء التوكل عليه فأقول. أما الرابع: فلا يميز الخوض في يانه. وليس التوكل أيضا سبيل عليه. بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول: وهو النفاق فواضح.

وأما الثاني: وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذکور في علم الكلام وتذكر في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد التقدير المهم منه وأما الثالث: فهو الذي يبنى عليه التوكل. إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل، فلنذكر منه التقدير الذي يرتبط التوكل بدون تفصيله الذي لا يحتمل أمثال هذا الكتاب وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق، وورق، وغطاء، ومنع، وحياة، وموت، وغنى، وفقير، إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم، فالنفس، بأبداعه واختراعه هو الله عز وجل، لا شريك له فيه. وإذا انكشف لك هذا لم تنتظر إلى غيره.

بل كان منه خوفك ، وإليه رجائك ، وبه فتكت ، وعليه اتكالك . فإنه الفاعل على الافراد دون غيره ، وماسواه مسخرون لاستقلالهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض . وإذا افتتحت لك أبواب المكاشفة انضح لك هذا انضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر وإغايصك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتفنى به أن يطرُق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما : الالتفات إلى اختيار الحيوانات ، والثاني : الالتفات إلى الجادات

أما الالتفات إلى الجادات فكاعتدك على المطر في خروج الزرع ونباته وغائه ، وعلى النسيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع النسيم ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها . وهذا كله شرك في التوحيد ، وجهل بمقائق الأمور . ولذلك قال تعالى ( فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَحَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ <sup>(١)</sup> ) قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا

ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم أن الريح هو الهواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه بل يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا يحرك له ، ولا هو متحرك في نفسه عز وجل . فالنفات المبد في النجاة إلى الريح يضاهي النفات من أخذ لتحرّ رقبته ، فكتب الملك توقيعاً بالمفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول : لولا القلم لما تخلّصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهو غابة الجبل . ومن علم أن القلم لا يحكم له في نفسه ، وإنما هو مسخر في يد الكاتب ، لم يلتفت إليه ، ولم يشكر إلا الكاتب . بل ربما يدهشه فرح النجاة ، وشكر الملك والكاتب ، من أن يخطر بباله القلم ، والحبر ، والدواة . والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والمطر ، والنسيم ، والأرض ، وكل حيوان ومجاد مسخرات في قبضة القدرة ، كتسخير القلم في يد الكاتب . بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك للموقع هو الكاتب التوقيع . والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب ، لقوله تعالى ( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى <sup>(٢)</sup> )

فإذا انكشف لك أن جميع مافي السموات وما في الأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأناك في المهلكة

الثانية ، وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ، ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك ، وإن شاء قطع منك وهذا الشخص هو الذى يحز رقتك بسيفه ، وهو قادر عليك ، إن شاء حز رقتك ، وإن شاء عفا عنك ، فكيف لا تخافه ، وكيف لا ترجوه ، وأمرك يسده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ ويقول له أيضا : نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر ، فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو للسخر له ؟

وعند هذا زل أقدام الأكثرين ، إلا عباد الله المخلصين ، الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضمغاء كون القلم مسخرا . وعرفوا أن غلط الضمغاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد ، فترى رأس القلم يسود الكاغد أو لم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد ، فغلطت وغلطت أن القلم هو السواد للياض ، وذلك تقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدتها فكذلك من لم يشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ، ومشاهدة كونه قاهرا وراه الكل ، فوقف في الطريق على الكاتب وهو جمل محض . بل أرباب القلوب والمجاهدين قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض ! بقدرته التي بها نطق كل شيء ، حتى سموا تقديسها وتسميحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تنكلم بلا حرف ولا صوت ، لا يسمعه الذين هم من السمع معزولون . ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لا يجاوز الأصوات ، فإن الحمار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به سمع يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ، ولا هو عربي ولا عجمي

فإن قلت . فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل ، فصلى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدمت ، وكيف شهدت على نفسها بالمعجز ؟ فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر . وذلك مما لا ينعم ولا يتناهى . فلها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له .

(كُلُّ لَوْ كَانَ أَنْبَحُ مِذَاذَا لِكَلِمَاتٍ رَبِّي لَنَفَذَ أَنْبَحُ<sup>(١)</sup>) الآية. ثم إنها تتناجي بأسرار الملك والمليكوت، وإنشاء السر لزم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار. وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك، قد نوحى بمخفياها، فنادى بسرّه على ملا من الخلق، ولو جاز إنشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبْكَيْتُمْ كَثِيرًا» بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون. ولما<sup>(٣)</sup> نهى عن إنشاء سر القدر ولما قال<sup>(٤)</sup> «إِذَا ذُكِرَ النَّجْمُ فَأَمْسِكُوا إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا» ولما<sup>(٥)</sup> خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار

فإذا عن حكايات مناجاة ذوات الملك والمليكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان

أحدهما: استعالة إنشاء السر

والثاني: خروج كلماتها عن المحضر والنهاية. ولكننا في المثال الذي كتأنيه، وهي حركة القلم، نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه، وزد كلماتها إلى الحروف والأصوات، وإن لم تكن هي حروفها وأصواتها، ولكن هي ضرورة التفهم فتقول: قال بعض النازلين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد، وقد رآه أسود وجهه بالحبر. ما بال وجهك كان أبيض مشرقا، والآن قد ظهر عليه السواد؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه؟ فقال الكاغد. ما أنصفتي في هذه المقالة، فإني ماسودت وجهي بنفسى، ولكن سل الحبر، فإنه كان مجموعا في الحبرة التي هي مستقره ووطنه، فسافر عن الوطن، ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا. فقال صدقت

فسأل الحبر من ذلك فقال. ما أنصفتي، فإني كنت في الحبرة وادعاسا كنا، عازما على أن لا أبرح منها، فاعتدى عليّ القلم بطمعه الفاسد، واختطفني من وطني، وأجلاني عن بلادي

- (١) حديث لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا - الحديث : تقدم غير مرة  
(٢) حديث النبي عن إنشاء سر القدر: ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا عنه عز وجل سره فقط أبى نعيم وقال ابن عدي لا تكلموا في القدر فاه سر الله - الحديث: وهو ضيف وقد تقدم  
(٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا - الحديث: بالطبراني وابن جبان في الضعفاء وتقدم في العلم  
(٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار: تقدم

وفرق جمى ، وبدنى كما ترى على مساحة يضاء ، فالسؤال عليه لاعلى . فقال صدقت  
ثم سألت القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه ، وإخراج الخبر من أوطانه . فقال . سل  
اليده والأصابع ، فإني كنت قصبا نابجا على شط الأنهار ، متزججا بين خضرة الأشجار ،  
لجاءتني اليده بسكين ، فنحت عني قشري ، ومزقت عني ثيابي ، واقتلعتني من أصلي ، وفصلتني  
بين أنايبي ، ثم برتني وشقت رأسي ، ثم غسستني في سواد الخبر ومرارته ، وهي تستغلغلي  
وتغشيني على قة رأسي ، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك ، فتنع عني وسل  
من قهرني . فقال صدقت

ثم سألت اليده عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليده . ما أنا إلا لحم  
وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم ، أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر ،  
ركبني فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الأرض . أما ترى  
للدر ، والحجر ، والشجر ، لا يمتد شيء منها مكانه . ولا يتحرك بنفسه ، إذ لم يركبه  
مثل هذا الفارس القوي القاهر ؟ أما ترى أيدي الموتى تساوي في صورة اللحم والعظم  
والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ؟ فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ،  
فسل القدرة عن شأني ، فإني مركب أزجيني من ركبتي . فقال صدقت

ثم سألت القدرة عن شأنها في استعمالها اليده ، وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت دع  
عنك لوبي ومعايتي ، فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له . وكيف خفي عليك  
أمرى ، وكيف ظننت أنني ظلمت اليده لما ركبته ، وقد كنت لها ركة قبل التحريك ؛  
وما كنت أحركها ولا أستسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنني  
ميتة أو معدومة ، لأنني ما كنت أتحرك ولا أحرك ، حتى جادني موكل أزجيني وأرهقني  
إلى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ، ولم تكن لي قوة على مخالفته . وهذا الموكل  
يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزجيني من غمرة النوم ، وأرهقني  
إلى ما كان لي مندوحة منه لو خلاني ورأي . فقال صدقت

ثم سألت الإرادة ما الذي جراك على هذه القدرة الساكنة للطيشة ، حتى صرقتها إلى  
التحريك ، وأرهقتها إليه إذ هاقا لم تجده عنه غلصا ولا مناصا ؟ فقالت الإرادة : لا تمجل علي

قليل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإني ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت . وما نبعثت ولكن بعثت  
بمحكم قاهر وأمر جازم . وقد كنت ساكنة قبل بعثته ، ولكن ورد علي من حضرة القلب  
رسول العلم على لسان العقل ، بالإشغاض للقدرة ، فأشخصتها بانضطار . فإني مسكنة  
مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدري بأي جرم وقعت عليه ، وسخرت له ، وأزمت  
طاعته . لكني أدري أني في دعة وسكون مالم يرد علي هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم  
العادل أو الظالم ، وقد وقعت عليه وقفا ، وأزمت طاعته إلزاما ، بل لا يبق لي معه مهما جزم  
حكمه طاعة على المخالفة . لعمري مادام هو في التردد مع نفسه ، والتحير في حكمه ، فأنا ساكنة  
لكن مع استنصار وانتظار لحكمه . فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته  
وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ، ودع عن عتابك فإني كما قال القائل  
متى ترحلت عن قوم وقصد قدروا أن لا تفارقهم قالوا حلوت م

فقال صدقت

وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ، ومعاتبا إياهم على استنصار الإرادة  
وتسخيرها لإشغاض القدرة . فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتملت بنفسى ولكن أشملت  
وقال القلب : أما أنا فلوح ما نبسطت بنفسى ولكن بسطت . وقال العلم : أما أنا فنقش نقشت  
في رياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انحططت بنفسى . فكيف كان هذا اللوح قبل  
خاليا عنى فسل القلم عنى ، لأن الخط لا يكون إلا بالقلم

فمعد ذلك تتمتع السائل ولم يقنعه جواب . وقال : قد عالل تعبي في هذا الطريق ،  
وكررت منازلي ، ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ،  
ولكني كنت أظلم نفسا بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد ؛ وعذرا  
ظاهرا في دفع السؤال . فأما قولك إني خط ونقش ، وإنما خطني قلم فلست أفهمه ، فإني  
لا أعلم فلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالخير .  
ولا سراجا إلا من النار . وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح ، والسراج ، والخط ، والقلم  
ولا أشاهد من ذلك شيئا . أسمع جمعية ولا أرى طمعا . فقال له العلم : إن صدقت فيما قلت  
فبضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، وأعلم أن المالك في الطريق التي توجهت

إليها كثيرة . فالصواب لك أنت تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بمشك فادرج عنه ، فكل ميسر لما خلق له

وإن كنت راعيا في استتمام الطريق إلى المقصد ، فألق صمك وأنت شهيد ، واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أوّلها ، ولقد كان الكاغذ ، والجبر ، والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة

والثاني : عالم الملكوت ، وهو ورأى . فإذا جاوزتني انتهيت إلى منزله ، وفيه الهامه ، والفيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المنرفة ، ولا أدري كيف تلم فيها

والثالث : وهو عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت . ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها ، منزل القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها . وكل من عشى على الأرض عشى في عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن عشى في عالم الجبروت . فإن انتهى إلى أن عشى على الماء من غير سفينة عشى في عالم الملكوت من غير تمتع

فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الأرض ، وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي . وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم التي يكتب به العلم في لوح القلب ، وحصول اليقين الذي عشى به على الماء . أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام « كَوْنِ إِزْدَادَ يَقِينًا : كَشَى عَلَى الْهَوَاهِ »<sup>(١)</sup> قيل له إنه كان عشى على الماء فقال السالك السائل . قد تحيرت في أمرى واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر

الطريق ، ولست أدري أليق قطع هذه الهامه التي وصفتها أم لا ، فبل لذلك من علامة ؟ قال نعم . إفتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك ، وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم

( ١ ) حديث قيل لكان عيسى عشى على الماء قال لو ازداد يقينا لشي على الهواء : تقدم

الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت ، كوشف بالقلم . أما ترى أنت الذي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم ، إذ أنزل عليه ( إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم )<sup>(١)</sup>

فقال السالك : لقد فتحت بصري وحدقته ، فوالله ما أرى قسبا ولا خشبا ، ولا أعلم فلما إلا كذلك . فقال العلم . لقد أبدت النجوة : أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ؟ أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر القنات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأقاليم ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط ؟ وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت . فليس الله تعالى في ذاته يحسم ، ولا هو في مكان ، بخلاف غيره . ولا يده لحم وعظم ودم ، بخلاف الأيدي . ولا قلبه من قصب . ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص . فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا غنثا بين غولة التنزيه ، وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فكيف ترهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، وترهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف في يده ، وقلبه ، ولوحه ، وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكأن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا . وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالابصار ، فكأن منزها صرفا ، وموقدا خلا ، واطور الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فملك تجدد على النار هدى ، « لملك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى ( إني أنا ربك ) »<sup>(٢)</sup>

فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه ، وأنه غنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لآراء بعين النقص ، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء مولم تمسسه نار ، فلما فسخ فيه العلم بمحدثه اشتعل زيته فأصبح نورا على نور . فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك ، لملك تجدد على النار هدى . ففتح بصره



فانكشف له القلم الإلهي، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه، ماهو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلب البشر كلهم أصناف العلوم، كانه في كل قلب رأسا ولا رأس له. فقضى منه المعجب وقال. نعم الرفيق العلم، فجزاه الله تعالى عني خيرا، إذ الآن ظهر لي صدق أنبيائه عن أوصاف القلم فإني أراه قلما لا كالأقلام

فعند هذا ودع العلم وشكره، وقال: قد طال مقامي عندك، ومرادني لك، وأنا عاجز على أن أسافر إلى حضرة القلم، وأسأله عن شأنه. فسافر إليه، وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبث به الإرادات إلى أشخاص القدر وصرها إلى المقدورات؟ فقال أودنسيته ما رأيت في عالم الملك والشهادة، وممعت من جواب القلم إذ سأته، فأحالك على اليد؟ قال لم أنس ذلك. قال فجوابي مثل جوابه. قال كيف وأنت لانتشبهه؟ قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته؟ قال نعم. قال فسل عن شأن القلم الملقب بيمين الملك، فإني في قبضته، وهو الذي يردني، وأنا مقهور ومسخر، فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة. فقال فن عين الملك؟ فقال القلم: أما سمعت قوله تعالى (وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ<sup>(١)</sup>) قال نعم. قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه، هو الذي يرددها. فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم، لا يحوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه، بل لا تحوى عبادات كثيرة عشر وعشرون وصفه والجللة فيها أنه عين لا كالأيمن، يود لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع. فرأى القلم محركا في قبضته. فظهر له عذر القلم. فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال: جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهي الحوالة على القدرة، لإذ لا يحكم لها في نفسها، وإعاجيرها القدرة لا محالة.

فسافر السالك إلى عالم القدرة، ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها مقابلة، وأسأله عن تحريك اليمين فقالت إننا أنا صفة، فسأل القادر، إذ المدة على الموصولات لاعلى الصفات وعند هذا كاد أن يزغ ويلطق بالجرأة لسان السؤال، فنبت بالقول الثابت وودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ<sup>(٢)</sup>) فقشيتة هية

الحضرة، فغرسما يضطرب في غيبته. فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك، تبت إليك، وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك، الجبار، الواحد. القهار، فلا أخاف غيرك، ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بمفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، ومالي إلا أن أسألك وأتضرع إليك، وأبتهل بين يديك فأقول. اشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأتني عليك فتودي من وراء الحجاب. إليك أن تطمع في الثناء، وتزيد على سيد الأنبياء. بل أزعج إليه، فما آتاك نغمة، وما ناله عنه فائتته عنه، وما قاله لك فقله. فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال (١) «سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

فقال الحق إن لم يكن لسان جراءة على الثناء عليك، فهل للقلب مطمع في معرفتك؟ فتودي: إليك أن تتخطى رقاب الصديقين، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقته به، فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم، بأهم اقتديتم اهتديتم. أما سمعته يقول: العجز عن درك الإدراك إدراك؟ فيكفيك نميبا من حضرتنا أن نعرف أنك عروم عن حضرتنا، عاجز من ملاحظة جمالنا وجلالنا

فمن هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته، وقال لليعين، والقلم، والعلم، والإرادة، والقدرة، وما بعدها. اقبلوا عذري، فإنني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد، ولكل داخل دهشة، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن قد صبح عندي عذركم، وانكشف لي أن المنفرد بالملك والملوكوت، والعزة والجبروت، والواحد القهار، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته، وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن

فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك؛ وقيل له: كيف يكون هو الأول والآخر، وهما وصفان متناقضان؟ وكيف يكون هو الظاهر والباطن؟ فالأول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن. فقال: هو الأول بالإضافة إلى الموجودات، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد. وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه، فإنهم لا يزالون مترفين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الاتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السقر

فهو آخر في المشاهدة، أول في الوجود

وهو باطن بالإضافة إلى الماكفين في عالم الشهادة، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس  
ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتمل في قلبه بالبصيرة الباطنة، النافذة  
في عالم الملكوت . فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل، أعنى من  
انكشف له أن الفاعل واحد .

فإن قلت : فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبقى على الإيعان بعالم الملكوت ، فمن لم  
يفهم ذلك أو يبيحه فطريقه ؟

فأقول أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له . إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السنية لعالم  
الجبوت ، وم الذين حصروا الموم في الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم ،  
لأنها لا تدرك بالحواس الخمس ، فلابزمو حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس  
فإن قال : وأنا منهم ، فإني لأعتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ، ولا أعلم  
شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه بماوراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس  
الخمس ، فأنهم قالوا . ما زناه لا نتق به ، فملنا نراه في المنام

فإن قال : وأن من جلتهم ، فإني شاك أيضا في المحسوسات ، فيقال هذا شخص فسد  
مزاجه ، وامتنع علاجه ، فيترك أياما فلال . وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء .  
هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يبيحد ، ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن  
ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت . فإن وجدوها صحيحة في الأصل ، وعند  
نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية ، اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة  
فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها ، كما فضل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه  
فإن كان غير قابل للعلاج ، فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ، ولم  
يمكنه أن يسمع كلام ذوات الملك والملكوت بشهادة التوحيد ، كلوه بحرف وصوت ،  
وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه ، فإن في عالم الشهادة أيضا توحيدا ، إذ يعلم كل  
أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأمرين . فيقال له على حد عقله . إله العالم  
واحد ، والدبر واحد ، إذ لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا . فيكون ذلك على ذوق مارآه

في عالم الشهادة ، فينفرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله . وقد كلف الله أن يكلموا الناس على قدر عقولهم . ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على جداداتهم في المحاوره فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصيلا فيه ؟ فأقول نعم . فإن الاعتقاد إذا قوي حمل عمل الكشف في إثارة الأحوال . إلا أنه في الثالب يضمف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا . ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه ، أو من أبويه ، أو من أهل بيته . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا ، وإن كان يزداد وضوحا . كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ، ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته . وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري ، فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر ، لطول مشاهدتهم وتجربتهم ، رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر ، وانكشف لهم حقيقة الأمر ، فلم يكتروا بقول فرعون ( فَلَا تَقْطَعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ <sup>(١)</sup> ) بل ( قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي نَفْطَرُنَا فَأَنْتَ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنْغَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> ) فإن البيان والكشف يمنع التغير

وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثبيان ، فلما نظروا إلى عجل السامري ، وسموا خواره ، تغيروا ، وسموا قوله ( هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى <sup>(٣)</sup> ) ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . فكل من آمن بالنظر إلى ثبيان يكفر لآعاله إذا نظر إلى عجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة . والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى ، فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهم ثابت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك طاهر إلا في حركات الإنسان ، فانه يتحرك إن شاء يسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟

(١) طه : ٧١ (٢) طه : ٧٢ (٣) طه : ٨٨

فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يريد أن يشاء . لسكان هذا منزلة التقدم وموقع النلط . ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشاء أم لم يشأ ، فليست المشيئة إليه . إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى ، وتسلسل إلى غير نهاية . وإذا لم تكن المشيئة إليه ، فهما وجدت للمشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها . انصرفت القدرة لاعماله ، ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة . فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة ، والقدرة متحركة ضرورة عند انجرام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب ، فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض ، وليس للمبد أن يدفع وجود المشيئة ، ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ، ولا وجود الحركة بمد بمت المشيئة للقدرة ، فهو مضطر في الجميع فإن قلت : فهذا جبر بعض ، والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لا تنكر الاختيار ، فكيف يصحكون مجبوراً مختاراً ؟

فأقول لو انكشف النطاق لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور . فهو إذاً مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ؟ فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً ، يليق بما ذكر متطفلاً وتابعا ، فإن هذا الكتاب لم يقصد به إلا علم المعاملة ولكني أقول : لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الإنسان يكتب بالأصابع ، ويتنفس بالزئ والحنجرة ، ويحرق الماء إذا وقف عليه يحسسه . فينسب إليه الحرق في الماء ، والتنفس ، والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الامر الجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور ، فأعرب لك عنها بثلاث عبارات : فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا . ونسمى تنفسه فعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا . والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي ، لأنه مهما وقف على وجه الماء ، أو تخطى من السطح للهواء ، انخرق الهواء لاعماله ، فيكون الحرق بمد التخطي ضروريا

والتنفس في معناه ، فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة النفس ، كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن . فهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده . وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست إليه . ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرابا ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر ، مع أن تنميط الأجفان اضطرابا فصل إرادي ، ولكنه إذا

تخل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتنفيض ضرورة، وحدثت الحركة بها . ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه ، مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا

وأما الثالث: وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس ، كالكتابة والنطق ، وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة يشاء وتارة لا يشاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى الاختيار ، فلنكشف عنه

ويبانه أن الإرادة تتبع العلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك . والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ما قد يتردد للعقل فيه . فالذي تقطع به من غير تردد ، أن يقصد عينك مثلا بإبرة ، أو بدتك بسيف ، فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق . فلا جرم تنبثق الإرادة بالعلم وبالقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ، ولكن من غير روية وفكرة . ويكون ذلك بالإرادة

ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه ، فلا يدري أنموافق أم لا ، فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك . فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أخدهما خير ، التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر ، فانبثقت الإرادة ههنا كما تنبثت لدفع السيف والسنان . فإذا انبثقت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخير ، أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير ، وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه ، إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية ، بل على البدئية ، وهذا افتقر إلى الروية

فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة ، وهي التي انبثقت بإشارة العقل فيها إلى إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين ، وشر الشرين . ولا يتصور أن تنبثق الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل ، أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه ، لالعدم القدرة في اليد ، ولالعدم السكين ، ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة ، وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبثت بحكم العقل أو الحس

يكون الفعل موافقا ، وقتله نفسه ليس موافقا له ، فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه  
 إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تنطاق بمقدار العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد ، لأن تردده  
 بين شر الشرين ، فإن ترجع له بمد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه ، وإن  
 حكم بأن القتل أقل شرا ، وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه ، اتبعت الإرادة  
 والقدرة وأهلك نفسه كالذي يُتَّبَعُ بالسيف للقتل ، فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا ،  
 وإن كان مهلكا ، ولا يبالى ، ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه . فإن كان يتبع بفرض خفيف ،  
 فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي ، فوفقت أعضاؤه  
 فلا يمكنه أن يرمى نفسه ، ولا تلبست له داعية البتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم  
 العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر بالضرورة  
 فيه من حيث لا يدري ، فإنما هو محل وعجى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلا ولا  
 فإذا معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامتنة ، ومعنى كونه مختارا  
 أنه محل لإرادة حدث فيه جبرا بمد حكم العقل بكون الفعل خيرا أعضا موافقا . وحدث  
 الحكم أيضا جبرا ، فإذا هو مجبور على الاختيار . ففعل النار في الإحراق مثلا جبر محض  
 وفعل الله تعالى اختيار محض . وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين ، فإنه جبر على الاختيار ،  
 فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ؛ لأنه لما كان فنا ثالثا ، واتصافه بكتاب الله تعالى ، فسموه  
 كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار ، بل هو جامع بينهما عند من فهمه .  
 وفعل الله تعالى يسمى اختيارا ، بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بمد تحير وتردد ، فإن  
 ذلك في حقه محال . وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى  
 إلا على نوع من الاستمارة والتجوز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ، ويطول القول فيه  
 فإن قلت : فهل تقول إن العلم ولد الإرادة . والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة  
 وإن كل متوخر حدث من المتقدم ؟ فأنت قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء ، لا من قدرة  
 الله تعالى . وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض ؟  
 فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره  
 بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يبرر منه بالقدرة الأزلية . وهو الأصل الذي لم يقف

كافة المخلوق عليه إلا الراسخون في العلم ، فإيهام وقفوا على كنهه منناه ،  
والسكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيهه بقدرتنا ، وهو بعيد عن الحق ،  
وبيان ذلك بطول . ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب الشروط  
على الشرط ، فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ، ولا علم إلا بعد حياة ، ولا حياة إلا  
بعد محل الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة ، فكذلك في  
سائر درجات الترتيب . ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للامامة ، وبعضها لم يظهر إلا  
للخواص المكاشفين بنور الحق . وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم  
وكذلك جميع أفعال الله تعالى . ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهاى فعل المجانين  
تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ  
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ )<sup>(١)</sup> وقوله تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا  
لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ<sup>(٢)</sup> )

فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب : وحق لازم ، لا يتصور أن  
يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذي وجد . فما تأخر متأخر إلا لا انتظار شرطه ،  
والشروط قبل الشرط محال ، والمحال لا يوصف بكونه مقدورا . فلا يتأخر العلم عن النطفة  
إلا لفقد شرط الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم . وكل ذلك  
منهاج الواجب ، وترتيب الحق ، ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك محكمة وتدبير  
وتفهم ذلك عسير ، ولكننا نضرب لتوقف المقدور ، مع وجود القدرة ، على وجود  
الشرط مثالا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة . وذلك بأن تقدر إنسانا محدثا قد  
انغمس في الماء إلى رقبته ؛ فحدث لا يرتفع عن أعضائه ، وإن كان الماء هو الرافع ، وهو  
ملاق له . فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقة للمقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء  
ولكن لا يحصل بها المقدور ، كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط ؟ وهو غسل  
الوجه . فإذا وضع الواف في الماء وجهه على الماء ، عمل الماء في سائر أعضائه ، وارتفع  
الحدث . فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه ، لأنه حدث عقبيه

(١) الداريات : ٥٩ (٢) الحجر : ٨٥ ، ٧٩



اذ يقول : كان الماء ملائياً ولم يكن رافعا ، والماء لم يتميز بما كان ، فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل ! بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين . وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة ، والإرادة بالعلم . وكل ذلك خطأ . بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاق لها ، لا ينسل الوجه . والماء لم يتغير ، واليد لم تتغير ، ولم يحدث فيها شيء . ولكن حدث وجود الشرط ، فظهر أثر الملة

فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية ، مع أن القدرة قديمة ، والمقدورات حادثة . وهذا فرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ؛ فلنترك جميع ذلك ، فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد ، فهو الخوف والمرجوة ، وعليه التوكل والاعتقاد . ولم تقدر على أن تذكر من بجوار التوحيد إلا فطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد . واستيفاء ذلك في عمر نوح حال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه . وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعم حقيقة ولبه عند العلماء الراصين في العلم ، فكيف عند غيرهم

فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للمباد ، فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ، وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون للمبد فاعلا ، ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول : نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد . وإن كان له معنيان ، ويكون الاسم بجلا مراداً بينهما لم يتناقض . كما يقال قتل الأمير فلانا ، ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر . فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر . فمضى كون الله تعالى فاعلاً أنه المختار الموجد . ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة ؛ بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ، ارتباط الشرط بالمشروط وارتبطت القدرة بالله ارتباط المعلول بالعلة ، وارتباط المختار بالمختار .

وكل ماله ارتباط بقدرته فإن عمل القدر قيسى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاذقاتلا  
والأمير قاتلا ، لأن القتل ارتباط بقدرتهما ، ولكن على وجهين مختلفين . فذلك سمي فعلا  
لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين

ولأنجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ،  
ومرة إلى العباد ، ونسبها بينهما مرة أخرى إلى نفسه . فقال تعالى في الموت ( قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ  
مَلَائِكَةُ أَمْوَاتٍ <sup>(١)</sup> ) ثم قال عز وجل ( اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأُفْسُ حِينَ مَوْتِهَا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى  
( أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ <sup>(٣)</sup> ) أضاف إليهم قال تعالى ( أَنَا صَبَبْتُ الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ  
شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبَبَّا <sup>(٤)</sup> ) وقال عز وجل ( فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا  
سَوِيًّا <sup>(٥)</sup> ) ثم قال تعالى ( فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا <sup>(٦)</sup> ) وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما  
قال تعالى ( فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ <sup>(٧)</sup> ) قيل في التفسير معناه إذ قرأه عليك جبريل .  
وقال تعالى ( قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ <sup>(٨)</sup> ) فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى  
نفسه ، والتعذيب هو عين القتل . بل صرح وقال تعالى ( فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ <sup>(٩)</sup> )  
وقال تعالى ( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى <sup>(١٠)</sup> ) وهو جمع بين النفي والإثبات  
ظاهرا ، ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي  
يكون البعد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ( الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ  
مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ <sup>(١١)</sup> ) ثم قال ( الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ <sup>(١٢)</sup> ) وقال ( عَلَّمَهُ الْبَيِّنَاتِ <sup>(١٣)</sup> ) وقال  
( إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ <sup>(١٤)</sup> ) وقال ( أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ أَمْ تَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَخْلُقُوهُمْ <sup>(١٥)</sup> )  
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في <sup>(١٦)</sup> وصف ملك الأرحام إنه « يدخل الرحيم

( ١ ) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحيم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها حسدا - الحديث: البراء  
وإبن عدى من حديث عائشة أنها قالت: تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل  
الرحم فيقول يا رب ماذا - الحديث : وفي آخره فإمن شي ، الا وهو يخلق معه الرحم وفي سنده  
جهالة وقال ابن عدى انه منكر وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه

(١) السجدة : ١١ (٢) الزمر : ٤٣ (٣) الواقعة : ٦٣ (٤) عبس : ٢٥ - ٢٨ (٥) صريم : ١٧ (٦) النجم : ١٣

(٧) القیامة : ١٨ (٨) التوبة : ١٤ ( ٩ ) الأفعال : ١٧ (١٠) الملقن : ٥٤ ( ١١ ) الرحمن : ١٠ ( ١٢ )

(١٣) القیامة : ١٩ (١٤) الواقعة : ٥٨ ، ٥٩

فَيَأْخُذُ النُّفُتَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ يَصَوِّرُهَا جَسَدًا فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أَنَا أَسْوَى  
أَمْ مَنُوعٌ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ وَيَخْلُقُ الْمَلَكُ ، وفي لفظ آخره وَيَصَوِّرُ الْمَلَكُ ثُمَّ  
يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ .

وقد قال بعض السلف : إن الملك الذي يقال له الروح ، هو الذي يولج الأرواح في  
الأجساد وأنه يتنفس بوصفه ، فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ، ولذلك  
سمي روحا . وما ذكره في مثل هذا الملك وصفه فهو حق ، شاهد أرباب القلوب يبصائرهم  
فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل ، والحكم به دون النقل تخمين مجرد  
وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسماوات ثم قال  
( أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ <sup>(١)</sup> ) وقال ( شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ <sup>(٢)</sup> ) فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا ، بل طرقا لاستدلال مختلفة ،  
فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات  
بأنه تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لم أعرفت ربي ، وهو معنى قوله تعالى  
( أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ <sup>(٣)</sup> )

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الحي والميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين .  
ففي الخبر <sup>(٤)</sup> « أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ تَنَاطَرَا فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ أَنَا أَمِيتُ الْأَحْيَاءَ  
وَقَالَ مَلَكُ الْحَيَاةِ أَنَا أَخِي الْمَوْتِ فَأَوْخِي اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا . كُونَا عَلَى مَحَلِّكُمْ  
وَمَسَاحَرُكُمْ لَمْ يَنْصَرِحْ وَأَنَا الْمَمِيتُ وَالْمُحْيِي لَا يَمِيتُ وَلَا يُحْيِي سِوَايَ »  
فإذا الفعل يستعمل على وجوه مختلفة ، فلا تتناقض هذه للمعاني إذا فهمت . ولذلك  
<sup>(٥)</sup> قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذِي نَافِلَةَ « خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَا تَمُتْ » أضاف الإتيان

( ١ ) حديث أن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أَمِيتُ الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحي الأَمْوات  
فأوحى الله إليهما أن يكونا على محلكما - الحديث : لم أجدهما أصلا

( ٢ ) حديث قال تعالى ناوله التمرة خذها لو لم تأت بها لَأَمُتْكَ : ابن حبان في كتاب روضة العقلاء . من رواية هذيل  
ابن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ووجه رجال الصحيح

إليه وإلى الأثرة، ومعلوم أن الأثرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها. وكذلك لما قال  
 الكاتب<sup>(١)</sup> "أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد. فقال صلى الله عليه وسلم: عَرَفَ الْحَقُّ لَا هُلَا لَهُ"  
 فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة. ومن أضافه  
 إلى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه. وللتجوز وجه، كما أن للحقيقة وجهاً. واسم  
 الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فاعلا بمحركته  
 وظن أنه تحقيق، وتوهم أن نسبتته إلى الله تعالى على سبيل المجاز، مثل نسبة القتل إلى الأمير،  
 فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبتته إلى الجلال. فلما انكشف الحق لأهله، عرفوا أن الأمر بالمعس،  
 وقالوا إن الفاعل قد وضعت أيها النوبي المخترع، فلا فاعل إلا الله، فالاسم له بالحقيقة،  
 ولغيره بالمجاز، أي تجوز به عما وضعه اللغوي له. ولما جرى حقيقة للشيء على لسان بعض  
 الأعراب قصداً أو اتفاقاً، صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال<sup>(٢)</sup> "أَصْدَقُّ يَتِّ قَالَهُ  
 لِلشَّاعِرِ قَوْلُ لُبَيْدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ"

أي كل ما لا أنواع له بنفسه، وإنما قوامه بغيره، فهو باعتبار نفسه باطل، وإنما حقيقته  
 وحقيقته بغيره لا بنفسه

فإذا لاحق بالحقيقة إلا الحلي القيوم، الذي ليس كمثل شيء، فإنه قائم بذاته، وكل ما سواه قائم  
 بقدرته فهو الحق، وما سواه باطل. ولذلك قال سهل: يأسك، كان ولم تكن، ويكون ولا  
 تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا، كن الآن كما لم تكن، فإنه اليوم كما كان  
 فإن قلت: فقد ظهر الآن أن الكل جبر، فما معنى الثواب، والعقاب، والغضب،  
 والرضا، وكيف غضبه على فعل نفسه؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر  
 فلا نطول بإعادته. فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث  
 حال التوكل. ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب  
 الأسباب، والإيمان بالرحمة وسعها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم حال  
 التوكل كما سيأتي إلا بالثقة بالوكيل، وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل

(١) حديث أن قال لقي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله: تهذيب في الزكاة

(٢) حديث أمدق بيت فإنه العرب بيت لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل: متفق عليه من حديث  
 أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية سلم أشهر كلمة تكلمت بها العرب.

وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان ، وحكاية طريق الكاشفين فيه تطول  
فلنذكر حاصله ليمتدده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يترتب فيه ، وهو أن يصدق  
تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ، أن الله عز وجل لو خلق الخلق كله على عقل أعطاهم  
وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما يحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا  
منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ، ثم كشف لهم عن عوالم  
الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات ، حتى  
أطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا  
من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم ، مع التعاون والتظاهر عليه ، أن يزداد فيما دبر  
الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بموضة ، ولا أن ينقص منها جناح بموضة  
ولا أن يرفع منها ذرة ، ولا أن يخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض ، أو عيب ، أو نقص ،  
أو فقر ، أو ضرر عن بلي به ، ولا أن يزال صحة ، أو كمال ، أو غنى ، أو نفع ، عن أنعم الله به  
عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر ، وطولوا  
فيها النظر ، مارأوا فيها من تفاوت ولا فطور .. وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق  
وأجل ، وسرور وحزن ، وعجز وقدر ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية فكله عدل محض  
لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي ، وكما  
ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي : وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ، ولا أتم ، ولا أكمل .  
ولو كان ، وأدخره مع القدرة ، ولم يتفضل بفعله . لكان بخلا ينافض الجود ، وظلما يناقض  
العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان مجرا ينافض الإلهية . بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان  
من الدنيا وزيادة في الآخرة . وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص ، فهو نعيم  
بالإضافة إلى غيره . إذ لو لا الليل لما عرف قدر النهار ، ولو لا المرض لما تنعم الأصحاء  
بالصحة ، ولو لا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة

وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم ، وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم  
الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تقضيهم النعم على سكان الجحيم العقوبة على  
أهل النيران ، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل . وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل .

ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة  
فقتضى الجود والحكمة خلق الكمال والنقص جميعا

وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل ، لأنه فداء كامل بنقص ، فكذلك  
الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لا جور  
فيه ، وحق لا لب فيه . وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق ، واسع الأطراف ، مضطرب  
الأمواج ، قريب في السعة من بحر التوحيد ، فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يملوا  
أن ذلك غامض لا يعلقه إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه أكثر  
ومنع من إفشاء سره المكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضي به ، وقد كان  
ماقضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه وأمره  
بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم متظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك  
وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولتقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول  
مقام التوكل ، ونرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

## الشرط الثاني

من الكتب في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان مقاله الشيوخ في حد التوكل ، وبيان التوكل في الكسب  
المنفرد والمعين ، وبيان التوكل بترك الادخار ، وبيان التوكل في دفع المضار ، وبيان التوكل  
في إزالة الضرر بالدواوي وغيره ، والله الموفق برحمته

## بيان

حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم  
فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله ، والعمل ثمرة . وقد أكثر  
الغافضون في بيان حد التوكل ، واختلفت عباراتهم . وتكلم كل واحد عن مقام نفسه ،  
وأخبر عن حده ، كما جرت عادة أهل التصوف به . ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف

الغطاء عنه ونقول : . التوكل مشتق من الوكالة . يقال وكل أمره إلى فلان ، أى فوضه إليه ، واعتمد عليه فيه . ويسمى الموكول إليه وكيلاً ، ويسمى المفوض إليه متكللاً عليه ، ويتوكلا عليه ، مهما اطمأنت إليه نفسه ، ووثق به ، ولم تهمله فيه بتقصير ، ولم يمتد فيه بحز أو قصوراً فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتليس ، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التليس ، لم يكن متوكلاً عليه ، ولا واثقاً به ، ولا مطمئن النفس بتوكيله ، إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور :

منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة

أما الهداية : فليعرف بها موانع التليس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً وأما القدرة والقوة : فليستجري على التصريح بالحق فلا يذاهن ، ولا يخاف ، ولا يستحي ، ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تليس خصمه فيمنعه الخوف ، أو الجبن ، أو الحياء ، أو صارف آخر من الصوارف للضعفة للقلب عن التصريح به

وأما الفصاحة : فهي أيضاً من القدرة ، لأنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجراً القلب عليه ، وأشار إليه ، فلا كل عالم بمواقف التليس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التليس وأما منتهى الشفقة ، فيكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من الجهد ، فإن قدرته لا تنفى دون العناية به إذا كان لايهه أمره ، ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك . فإن كان شاكاً في هذه الأربعة ، أوفى واحدة منها ، أو جاوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه ، لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزوع القلب ، مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذر من قصور وكيله ، وسطوة خصمه . ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه . والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتاً لا ينحصر ، فلا جرم تفاوت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر ، إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل ؛ وهو الذي يسمى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية . وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة

والنجربة ، وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً ، وأقوام بياناً ، وأقدرهم على التصرف ذالمة ، بل على تصوير الحق بالباطل ، والباطل بالحق .

فإذا عرفت التوكل في هذا المثال ، فقس عليه التوكل على الله تعالى . فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم ، أنه لا فاعل إلا الله كما سبق ، واعتقدت مع ذلك ، تعلم العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام المطفئ والمناية والرحمة بحملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، انكسر لاحالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحواله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة .

فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيبها أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأهام الغالبة عليه . فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم ، وطاعة له ، عن غير نقصان في اليقين . فإن من يتناول عصا فشبّه بين يديه بالمطرقة ، ربما نفر طبعه ، وتمذر عليه تناوله . ولو كلف المائل أنه يبيت مع الميت في قبر ، أو فراش ، أو بيت ، نفر طبعه عن ذلك ، وإن كان متيقناً بكونه ميتاً ، وأنه جاد في الحال ، وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يمحشره الآن ولا يحية وإن كان قادراً عليه ، كما أنها مطردة بأن لا يقبل القلم الذي في يده حية ، ولا يقبل السنور أسداً وإن كان قادراً عليه . ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش ، أو للميت معه في البيت ، ولا ينفر عن سائر المجادات . وذلك جبن في القلب ، وهو نوع ضعف فلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضاً ، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه .

فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل نسكون القلب وعلماً أيننته . فالسكون في القلب شيء ، واليقين شيء آخر . فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام ( أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَتْ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَّيْسَ مِنِّي ) (١)



فالنفس أن يكون مشاهدا إحياء الميت بسببه ليثبت في خياله ، فإن النفس تتبع الخيال وتناحس به ، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون في البنية أصلا . وكل من مطمئن لائقين له ، كسائر أرباب الملل والمذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهم أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه . فإذا الجبن والجراءة غرائز ، ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب . وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى . وقد قيل مكتوب في التوراة : « ملعون من فتنه إنسان مثله . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> » مَنْ اسْتَعَزَّ بِالنَّبِيِّ أَدْلهُ اللَّهُ تَعَالَى » وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلا ، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات : . الدرجة الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى ، والثقة بكفالاته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل

الثانية : وهي أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه . فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفرغ إلى أحد سواها ، ولا يمتد إلا إليها . فإذا رأها تعلق في كل حال بذيلها ولم يغفل . وإن نابه أمر في غيبها كان أول سابق إلى لسانه يأمأه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه ، فإنها مفرغه . فإنه قد وثق بكفالاتها ، وكفائتها ، وشققها ، ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوبى بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تقنين لفظه ، ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه . ولكن كل ذلك وراء الإدراك . فمن كان بالله إلى الله عز وجل ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلا حقا . فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد بقي في توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته

( ١ ) حديث من اعترى بالمعبد أدله الله : القليل في الضعفاء وأبو نعيم في الحليين حديث عمر أوردته البقلى في ترجمة جبرائيل بن عبد الله الأرموي وقال لا تابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان في التواتر وقال مخالف طريقته

بل إلى التوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لتغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكليف والكسب ، وليس فائيا عن توكله ، لأن له التفاتا إلى توكله وشعورابه . وذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وحده . وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ماأذناه؟ قال : ترك الأمانى ، قيل وأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار . وهو إشارة إلى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه

الثالثة : وهي أعلاها ، أن يكون بين يدي الله تعالى في حركانه وسكنانه مثل الميت بين يدي الفاسل ، لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يده الفاسل الميت وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا ، فيكون باثنا عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبي ، فإن الصبي يفزع إلى أمه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويمدو خلفها . بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه ، وأنه وإن لم يمتلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تقامحه وتسقيه . وهذا المقام في التوكل يشتر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يستل . فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء ، وبغير الاستحقاق ، والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه ، وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها

فاعلم أن ذلك ليس بمحال ، ولكنه عزيز نادر . والمقام الثانى والثالث أعزها . والأول أقرب إلى الإسكان . ثم إذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجع . فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع ، واقتباضه عارض . كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع ، واقتباضه عارض . والوجع عبارة عن اقتباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن ، حتى تمنع من ظاهر البشرة الحجرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة . فإن البشرة ستر رقيق تراه من ورائه حمرة الدم ، واقتباضه بوجع الصفرة ، وذلك لا يدوم . وكذا اقتباض القلب بالسكينة عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم . وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم ، فإنه قد يدوم يوما ويومين . والأول يشبه صفرة مريض

استحكم مرضه ، فلا يمد أن يدوم ، ولا يمد أن يزول . فإن قلت : فهل يبق مع العبد تدير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ . ناعلم أن المقام الثالث ينفي التدير رأسا مادامت الحالة باقية . بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثاني ينفي كل تدير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال ، كتدير الطفل في التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لا ينفي أصل التدير والاختيار ، ولكن ينفي بعض التديرات ، كالمتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تديره من جهة غير الوكيل ، ولكن لا يترك التدير الذي أشار إليه وكيله به ؛ أو التدير الذي عرفه من عاداته وسنته دون صريح إشارته . فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له . لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لامحالة بالتدير للحضور ، ولا يكون هذا منافضا توكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحاجة ، ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له ، إذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له في قوله لما حضر بقوله . وأما المعلوم من عاداته وأطراد سنته فهو أن يعلم من عاداته أنه لا يحتاج الخضم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلا عليه أن يكون ممولا على سنته وعاداته ووافيا بمتطلباتها ، وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند غاصته

فإذا لا يستغنى عن التدير في الحضور وعن التدير في إحضار السجل . ولو ترك شيئا من ذلك كان نقصا في توكله ، فكيف يكون فعله نقصا فيه ! نعم بعد أن حضر وقاه بإشارته وأحضر السجل وقاه بسنته وعاداته : وقد ناظر إلى حاجته : فقد انتهى إلى المقام الثاني والثالث في حضوره ، حتى يبق كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته ، إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقدراته ونهايته . فلم يبق إلا ما أئنة النفس والثقة بالوكيل ، والانتظار لما يجري . وإذا تأملت هذا انتدع عنك كل إشكال في التوكل ، ووضعت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدير وعمل ، وأن كله تدير وعمل لا يجوز أيضا مع التوكل ، بل هو على الاقسام ، وسيأتي تفصيله في الأعمال فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل ، لأنه يعلم أنه لو لا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلا وتباعضا بلا جدوى . فإذا لا يصير مقيدا من حيث إنه حوله وقوته ، بل من حيث أن الوكيل جعله معتمدا لمحتاجته ، وعرفه ذلك بإشارته

وسنته ، فإذا لاحت ولا قوة إلا بالوكيل . إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل ؛ لأنه ليس خالفاً حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيد في أنفسهما ، ولم يكونا مفيدين لولا فعله . وإنا يصدق ذلك في حق الوكيل الحق ، وهو الله تعالى ، إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد ، وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلفه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فإذا لاحت ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً . فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار <sup>(١)</sup> فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان ، وسهولة اعتقاد القلب بفهم لفظها ؟ وهيئات ! فإنا ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد . ونسبة هذه للكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى . إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط ، وهما الحول والقوة . وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه . فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا . وكما ذكرنا من قبل أن التوحيد ثشرين ولين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات . وأكثر الخلق قيدوا بالقرشرين واطرقوا إلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » . وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالطلق هذا المقيد ، كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع ، وأضاف إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع ، والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحدث ، وحركة اللسان حديث ، وعقد القلب أيضاً حديث ، ولكنه حديث نفس . وإنا الصدق والإخلاص وراهما . ولا ينصب سرير الملك إلا للمقررين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك . أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقررين السابقين تعرض لسرير الملك فقال ( عَلَى سُرُرٍ مَوْصُوفَةٍ مُتَكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ <sup>(٣)</sup> )

( ١ ) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت في الدعوات

( ٢ ) حديث من قال لا إله إلا الله صادقاً غلباً من قلبه وجبت له الجنة : الطبراني من حديث زبد بن أرقم وأبو يعلى

من حديث أبي هريرة وقد تقدم

( ٣ ) الواقعة : ١٥ - ١٦

ولما انتهى إلى أصحاب البين ما زاد على ذكر الماء، والظل، والقواكه، والأشجار، والحوالين وكل ذلك من لذات للنظور، والمشروب، والمأكول، والمنكوح. ويتصور ذلك للبهائم على الدوام. وأين لذات البهائم من لذة الملك والتزول في أعلى عطين في جوار رب العالمين! ولو كان لهذه الالذات قدر لما وسعت على البهائم، ولما رفعت عليها درجة الملائكة

أفتري أن أحوال البهائم وهي مسبية في الرياض، متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات، متمتعة بالنزوان والسفاد، أعلى وألد وأشرف؛ وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوبة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عطين؟ هيئات هيئات، ما أبعد عن التحصيل من إذا خبر بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام

وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه، وأن النفس التي تزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من تزوعها إلى صنعة الكتابة، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتابة. وكذلك من تزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من تزوعها إلى نيل لذات الملائكة، فهو بالبهائم أشبهه بالملائكة لاهالة. وهؤلاء الذين يقال فيهم (أولئك كالأنعام بين هم أضل؟) وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة، فتركها الطلب للعجز. وأما الإنسان ففي قوته ذلك، والتأدر على نيل الكمال أخرى بالتم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال

وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فنرجع إلى المقصود، فقد ينشأ معنى قول لا إله إلا الله، ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنت من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل. فإن قلت: ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله؛ فلو قال قائل: السماء والأرض خلق الله، فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟

فأقول: لا، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه، ولا مساواة بين الدرجتين. ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة، إن جاز وصفهما بالصغر نحوراً فليست الأمور بمعظم الأشخاص. بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة

الآدميين ، بل هما من خلق الله تعالى . فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعزلة والفلاسفة ، وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمقول حتى يشق الشعر بحدة نظره ، فهي مهلكة مخطرة ، ومزلة عظيمة ، هلك فيها الفاسقون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا ، وهو شرك في التوحيد : وإثبات خالق سوى الله تعالى فن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته ، وعظمت درجته . فهو الذي يصدق قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان : إحداها النظر إلى السماء والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والنبم ، والمطر ، وسائر الجادات ، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات ، وهي أعظم المقتبين وأخطرها ، ويقطعها كمال سر التوحيد فذلك عظم ثواب هذه الكلمة ، أعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فإذا رجع حال التوكل إلى التبري من الحول والقوة ، والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى

## بيان

ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليبين أن شيئا منها لا يخرج عما ذكرنا ، ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى النبلي : قلت لأبي يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت ؟ قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ، ما تحرك لذلك شرك . فقال أبو يزيد . نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتمتعون ، وأهل النار في النار يذبون ، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل . فا ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل ، وهو المقام الثالث . وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل ، وهو العلم بالحكمة ، وأن مافله الله تعالى فله بالواجب ، فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة . وهذا أغض أنواع العلم ، ووراءه سر القدر ، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احتراز<sup>(١)</sup> أبو بكر

( ١ ) حديث أن أبا بكر سدمنا في النار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تهدم

رضي الله عنه في النار إذ سد منافذ الحيات ، إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لاني حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لأمر يرجع إلى نفسه . ولانظر في هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله . فإن احتزلم يكن اتكاله على تديره وحوله وقوته في الاحتراز ، بل على خالق الحول والقوة والتدبير . ومثل ذو النون المصري عن التوكل فقال : خلع الأرباب ، وقطع الأسباب . فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال ، وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه . فقيل له زدنا . فقال . إلقاء النفس في المبودية وإخراجها من الربوبية . وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة قطع . ومثل حمدون القصار عن التوكل فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم ، عليك دائق دين ، لم تأمن أن تموت ويبق دينك في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء ، لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك . وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسمعة القدرة ، وأن في المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة . ومثل أبو عبيد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال . فقال السائل زدي . فقال . ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالأول عام للمقامات الثلاث ، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خافية ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال أنا إليك فلا . إذ كان سؤاله سببا يفضي إلى سبب ، وهو حفظ جبريل له . فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك . وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره . وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز . وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلاسكون ، وسكون بلا اضطراب . ولعله يشير إلى المقام الثاني . فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وقتته به ، واضطراب بلاسكون إشارة إلى فزعه إليه . وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب

الطعل بيديه إلى أمه - وسكون قلبه إلى عام شفتهما - وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد . ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب التوكل ملاحظة شيء من ذلك . وللسيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه ، فلا ننظر بها ، فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل . فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه

## بيان

### أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال ، والحال يثمر الأعمال . وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكالحجم على الوضم ، وهذا ظن الجبال . فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أنشئ على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ! بل نكشف الغطاء عنه ونقول :

إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسمي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم يزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض . فقصود حركات العبد لا تمتدو هذه الفنون الأربعة ، وهو جلب النافع ، أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه . فأنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع . الفن الأول : في جاب النافع فنقول فيه :

الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون غنا يوثق به ، وهو وهم وهما لا تنق النفس به تامة ، ولا تنطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به . وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت للسبب بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف . كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك ، وأنت جائع محتاج ، ولكنك لست تعد إليه اليد وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه بسعي وحركة ،



وكذلك مضغه بالأسنان، وابتلاعه بالبلع، وأبالي الحلق، على الله، فهذا جنون محض، وليس من التوكل في شيء. فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيئا دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله تعالى. وكذلك لو لم تزرع الأرض، وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام، فكل ذلك جنون. وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه. فليس التوكل في هذا المقام بالعمل، بل بالحال، والعلم أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسنان، وقوة الحركة، وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال : فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى، لا على اليد والطعام . وكيف تتمتع على صحة يدك وربما تجف في الحال وتقلج . وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك، ويبطل قوة حركتك وكيف تعمل على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يملك عليه، أو يميت حية تزعجك عن مكانك، وتفرق بينك وبين طعامك ! وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى، فيذلك فلتفرح، وعليه فلتعمل. فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متمسك الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة، ولكن الغالب أن السببات لا تحصل دونها، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا. كالذي يفارق الأمطار والتوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرعها الناس إلا نادرا، ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطا في التوكل. بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كاسبق. ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل، ولذلك كان يسميه الخواص . فإن قلت : فهذا سمي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما : أن يكون الرجل قد راض نفسه وبخاها، وسبواها على الصبر عن الطعام أسبوعا ما يقاربه، بحيث يصبر عنه بلا صديق قلب وتشوش خاطر، وتمتد في ذكر الله تعالى . والثاني : أن يكون بحيث يقوى على التفوت الحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة. فبمذهذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمن

في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي ، أو ينتهي إلى حلة ، أو قرية ، أو إلى حشيش يجتري به ،  
فجيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل . وعلى هذا كان يمول الخواص ونظاره من المتوكلين  
والدليل عليه أن الخواص كان لا تقارقه الإبرة ، والمقراض ، والحبل ، والركوة ويقول :  
هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض .  
وما جرت سنة الله تعالى بصمود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يقلب وجود الحبل والدلو  
في البوادي كما يقلب وجود الحشيش . والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ، ولمطشه  
في كل يوم أو يومين مرة ، فإن للمسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام .  
وكذلك يكون له ثوب واحد وزبما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة  
في البوادي غالباً عند كل صلاة ، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي .  
فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلحق بالدرجة الثانية ، لأنه مظنون ظناً ليس مقطوعاً به ،  
لأنه يحتمل أن لا يتخرق الثوب ، أو يعطيه إنسان ثوباً ، أو يجد على رأس البئر من يسقيه .  
ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغاً إلى فيه . فبين الدرجتين فرقان ، ولكن الثاني في معنى الأول  
ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ، ولا بطرقة  
طارق فيه ، وجلس متوكلاً ، فهو آثم به مساع في هلاك نفسه . كما روي أن زاهداً من الزهاد فارق  
الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا قال : لا أسأل أحدا شيئاً حتى يأتيني ربي برزق . فقام سبعا ،  
فكاد يموت ولم يأت به رزق . فقال : يا رب إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي ، وإلا فاقضني  
إليك . فأوحى الله جل ذكره إليه . وعزني لا رزقتك حتى تدخل الأمصار وتقعدين الناس .  
فدخل المصرومق ، فجاهه هذا بطعام ، وهذا شراب ، فأكل وشرب ، وأوجس في نفسه من  
ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا . أما علمت أني أن أرزق  
عبدى بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه يدي قد رقت . فإذا التباعد عن الأسباب كلها سارعة  
للحكمة ، وجعل بسنة الله تعالى ، والدمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل  
دون الأسباب لا يناقض التوكل ، كما ضربناه مثلاً في الوكيل بالخصومة من قبل . ولكن الأسباب  
تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فغنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع  
سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب . فإن قلت فما قولك في القمود في البلدة

بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام، لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما. بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب، ولكن قد تأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام. وإن فتح باب البيت وهو بطلال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب. وإن كان مشغول القلب بالله، غير مستشرف إلى الناس، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل. وهو من مقامات التوكل. وهو أن يشتغل بالله تعالى، ولا يهتم برزقه، فإن الرزق يأتيه لا محالة. وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء، وهو أن البطل لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من اللوت لأدركه. وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا، ولقال له يا جاهل كيف أخفقت ولا أرزقك! . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رزق ولا ميت إلا الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَذَوُّوا خِمَامًا وَتَرَوْحُوا بِطَانًا وَزَلَّاتٍ يَدْعَا بِكُمْ الْجِبَالُ»

وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله تعالى يرزقها يوما بيوم. فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف يفيض الله تعالى لها هذا الخلق الرزق وقال أبو يعقوب السوسى. للتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي المباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكثرون. وقال بعضهم. البيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم يتعب وانتظار كالتيجار، وبعضهم يمشي كالصناع وبعضهم يمز كالصوفية، يشهدون العزير، فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الوسيلة

(١) حديث لو توكلتُم على الله حق توكله - الحديث : وزاد في آخره وثالث بدعاكم الجبال وقد تضمنها

قرينا دون هذه الزيادة فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث حماد ابن جليل بسند فيه لين نوهرتم الله حق معرفته مشتمين على البحور وثالث بدعاكم الجبال ورواه البيهقي في تازعه من رواية وهب السكي مرسل دون قوله مشتمين على البحور وقال حماد منفعة

الدرجة الثالثة : ملازمة الأسباب التي تتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصى في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه . وذلك يخرج بالسكية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم . أغنى من يكتسب بالحيل الدقيقة ( اكتساباً مباحاً لمال مباح . فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب . فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل . وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والسكي بالإضافة إلى إزالة الضر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ، ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ، ولا يأخذون من أحد شيئاً ، بل وصفهم بأنهم يتماطون هذه الأسباب . وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها وقال سهل في التوكل : إنه ترك التدبير . وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإعاجبهم بتدبيرهم . ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر ، فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية . فإذا قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل ، وإلى ما لا يخرج . وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به ، وإلى مظنون . وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه ، وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً . والمتوكلون في ملازمة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات

الأول : مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذي يدور في البوادي ينير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً ومافوقه ، أو تبسّر حشيش له أو قوت ، أو تبثيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك . فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد زاده ، أو يفشل بغيره ، ويموت جوعاً ، فذلك ممكن مع الزاد ، كما أنه يمكن مع فقده

المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد . ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول ولكنه أيضاً متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالتقوّد في الأمصار معرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره

إلى الذى يسخر له سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يفل جميعهم عنه ويضيوه لولا فضل الله تعالى بتبريهم وتحريرك دواعيهم  
المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتساباً على الوجه الذى ذكرناه في الباب الثالث  
والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعي لا يخرج أيضاً عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته ، وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة . بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يربي كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ، وإلى ماذا يجمل ، وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسباً لبياله ، أو ليفرق على المساكين فهو يبدنه مكتسب ، وقلبه عنه منقطع . خال هذا أشرف من حال القاعد في بيته

والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط ، وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق ، أن الصديق رضي الله عنه لما بيع بالخلافة أصبح أخذ الأبواب تحت حصنه والدرع يده ، ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تقبل ذلك وقد أقت بالخلافة النبوة ! فقال لا تشغلوني عن عيالي ، فإني إن أضعتهم كنت لما سوام أضيع ، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم ، وتطبيب قلوبهم ، واستنراق الوقت بمصالح المسلمين أولى . ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق في مقام التوكل . فن أولى بهذا المقام منه ! فدل على أنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعي ، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته ، والعلم بأن الله هو ميسر الأكتساب ومدير الأسباب ، وبشروط كان يراعها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار ، وتفاخر ، وادخار ، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره . فن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها . ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا . نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد

وقال أبو جعفر الحنابلة : وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما ، وكان من المتوكلين . أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق . كنت أكتسب في كل يوم ديناراً ولا أبيت منه

داقفا، ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام، بل أخرجه كله قبل الليل. وكان الجنيذ لا يتكلم في التوكل بحضرة، وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي. واهلن أن الجالوس في راحات الصوفية مع معلوم يميز من التوكل، فإن لم يكن معلوم ووقف، وأمرنا الخادم بالمرجوع للطلب لم يصح معه التوكل إلا على نصف، ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب. وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل اليهم فهذا أقوى في توكلهم. لكنه بعد اشتها القوم بذلك، فقد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق فإن قلت: فالأفضل أن يقدم في بيته أو يخرج ويكتسب؟ فأعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر، وذكر، وإخلاص، واستغراق وقت بالمبادأة، وكان الكسب يشوش عليه ذلك، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى، وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب. وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم، كان أحمد بن حنبل قد أمرا بأبكر الروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه، فردة فلما ولى قال له أحمد: الحقه وأعطه فإنه يقبل. فلققه وأعطاه فأخذه. فسأل أحمد من ذلك فقال: كان قد استشرفت نفسه فرد، فلما خرج انقطع علمه وأيس فأخذ وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في المطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا. وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره: رأيت الخضر ورضي بصحبتي، ولكني فارقه خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون قصا في توكلتي. فإذا المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط بيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصده الاستكثار، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا. فإن قلت فاعلمة عدم اتكاله على البضاعة والسكافية؟ فأقول: علامته أنه إن سرقت بضاعته، أو خسرت تجارتها أو توفى أمر من أموره كان راضيا به، ولم تبطل طمأنينته، ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا. فإن لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده. ومن اضطرر لفقد شيء فقد سكن إليه. وكان بشر بسمل المنازل فتركها، وذلك لأن البمادي كاتبه قال: بلغني أنك

استمعت على رزقك بالمنازل ، وأريت إن أخذ الله سمعك وبصرك ، الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه ، فأخرج آله للمنازل من يده وتركها . وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها . وقيل فعل ذلك لمآمات عياله ، كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها ، فلما مات عياله فرقا فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها ، وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول : بأن يعلم أن الدين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الدين كثرت بضاعتهم فسرفت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له ، فقله لو تركه كان سببا لفساد دينه ، وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك ، من غير تقصير من جهته فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها . ففي الخبر (١) « إِنَّ التَّيْبَدَ لَيْهَمٌ مِنَ اللَّيْلِ بِأَمْرِ مِنْ أُمُورِ التَّجَارَةِ مَا لَوْ قَعَلَهُ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكٌ قَيِّنُظَرُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ قَيِّنُظَرُهُ عَنْهُ قَيِّنُصَبْحُ كَثِيرًا حَزِينًا يَقْطُرُ بِجَارِهِ وَأَنْبَرُهُ مِنْ سَبْقِي مَنْ دَهَانِي وَمَا مَيَّ إِلَّا رَحْمَةً رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَا » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإني لا أدري أيهما خير لي . ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل . ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك ، فإني ما شمت منه رائحة . هذا كلامه مع صاعد قدره ، ولم ينكر كونه من اللقائات الممكنة ، ولكنه قال ما أدركته . ولعله أراد إدراك أفعاله

ومالم يكمل الإيعان بأن لا فاعل إلا الله . ولا رازق سواه ، وأن كل ما يقدره على اليد من فقر ، وغنى ، وموت ، وحياة فهو خير له مما يتناه العبد ، لم يكمل حال التوكل فهنا التوكل على قوة الإيعان بهذه الأمور كما سبق . وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبئ على أصولها من الإيعان . وبالجملة : التوكل مقام مفهوم ، ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين . ولذلك قال سهل : من طمن على التكسب فقد طمن على السنة . ومن طمن على

( ١ ) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجوز التجارة ما لو فعله لكان فيه هلاك قينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصبره عنه » - الحديث : أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بن عبد المنكر في صحيحه .

والله قال إن العبد لا يشرف على حاجة من حاجات الدنيا - الحديث نحوه

ترك التكسب فقد ظن على التوحيد . فإن قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب من الركون إلى الأسباب الظاهرة ، وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا<sup>(١)</sup>) فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تحويف الشيطان ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع . وإذا انضم إليه الجبن ، وضغف القلب ، ومشاهدة المتكلمين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها ، غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية . بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام لو أكتسبت لكان أفضل لك . فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين . فقال: إن كان صادقاً ضامنه فمكفوك في المسجد خير لك . فقال : ياهذا لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك ، إذ فضلت وعدي يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال ياشيخ أصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلقت ثم أبنيك . وينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيه عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعاً كما روي عن حذيفة المرعشي ، وقد كان خدماً إبراهيم بن أدهم ، فقيل له . ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال . بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً . ثم دخلنا الكوفة . فأومنا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال . يا حذيفة ، أرى بك الجوع . فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علي بدواة قمرطاس ، فبحث به إليه فكتب . بسم الله الرحمن الرحيم . أنت المقصود إليه بكل حال ؛ والمشار إليه بكل معنى . وكتب شعراً

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر      أنا جائع أنا ضائع أنا عارى  
هي ستة وأنا الضمين لنصفها      فكأن الضمين لنصفها يابارى



مدحى لنيرك لهب نار خضتها فآجر عبيدك من دخول النار  
ثم دفع إلي الرقة ، فقال اخرج ولا تملق فليك ينير الله تعالى ، وادفع الرقة إلى أول  
من يلقاك . فخرجت ، فأول من لقيني كان رجلا على بئلة ، فناولته الرقة فأخذها ، فلما وقف  
عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقة ؟ فقلت هو في المسجد القلاني . فدفع إلي صرة فيها  
ستمائة دينار . ثم لقيت رجلا آخر ، فسألته عن ركب البئلة ، فقال هذا نصراني . فجلست  
إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال لا تمسها فإنه يحيى الساعة . فلما كان بعد ساعة دخل  
النصراني ، وأكب على رأس إبراهيم يقبله ، وأسلم  
وقال أبو يعقوب الأقطع البصري . جمعت مرة بالحرم عشرة أيام ، فوجدت ضيفا ،  
فحدثني نفسي بالخروج . فخرجت إلى الوادي لئلي أجد شيئا يسكن ضفي . فرأيت  
منجمة مطروحة ، فأخذتها ، فوجدت في قلب منها وحشة ، وكأن قائلا يقول لي جمعت عشرة  
أيام ، وآخره يكون حظك سلجمة متفيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت . فإذا أنا  
برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي وضع قطرة ، وقال هذه لك . فقلت كيف  
خصصتني بها ؟ قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام ، وأشرفت السفينة على الفرق ،  
فندرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين .  
وأنت أول من لقيتني . فقلت . اقتضها . ففتحها فإذا فيها سيميد مصري ، ولوز مقشور ، وسكر  
كماب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصعابك هدية مني إليكم وقد  
قبلتها ، ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي  
وقال ممشاد الدينوري . كان علي دين ، فاشتغل قلبي بسببه . فرأيت في النوم كأن قائلا  
يقول : يا عجيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما  
حاسبك بعد ذلك بقالا ولا قصايا ولا غيرها  
وحكي عن بنان الجمال قال : كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد ،  
لجاءتني امرأة وقالت لي يا بنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتوهم أنه لا يرزقك !  
قال فرميت بزادي . ثم أتني علي ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخال في الطريق ، فقلت

في نفسى امله حتى ينجى صاحبه ، فربما يعطينى شيئا فأرده عليه . فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى ينجى صاحبه فأخذ منه شيئا ! ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت . أنفقها . فأكفيت بها لى قريبا من مكة

وحكى أن بناأ احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها ، وقالوا هوذا ينجى النغير فنشترى ما يوافق . فلما ورد النغير اجتمع رأيهم على واحدة ، وقالوا إنها تصلح له . فقالوا لصاحبها . بك هذه ؟ فقال إنها ليست للبيع . فألحوا عليه ، فقال إنها لبنان الحمال ، أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة

وقيل كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص . فقال إن أكلته مت . فوكل الله من وجل به ملكا وقال : إن أكله فأرزقه ، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره . فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله ، وبقي القرص عنده

وقال أبو سعيد الخراز . دخلت البادية بغير زاد ، فأصابني فاقة ، فرأيت المرحلة من بيده فصرخت بأن وصلت . ثم فكرت في نفسى أتى سكنت وانكلت على غيره ؛ وآليت أنها لأدخل المرحلة إلا أن أهل إليها . فخرت لنفسي في الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى . فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا . يا أهل المرحلة ، إن الله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه . فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية

وروي أن رجلا لازم باب ممر رضى الله عنه ، فإذا هو بقائل يقول . يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القرمات فإنه سينيك عن باب ممر . فذهب الرجل وغاب حتى افتقده ممر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالمباداة . فجاءه عمر فقال له . إني قد اشتقت إليك ، فما الذى شغلك عني ؟ فقال إني قرأت القرمات فأغتنى عن عمر وآل ممر . فقال عمر : رحمك الله ، فما الذى وجدت فيه ؟ فقال وجدت فيه ( وفي السماء رزقكم وما يؤعدون )<sup>(١)</sup> فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بمسدد ذلك يأتيه ويمجلس إليه

وقال أبو حزة الخراساني : حججت سنة من السنين ، فبينما أنا لمشى في الطريق إذ وقعت

في بئر . فنازعتني نفسي أن أستغيث ، فقلت لا والله لأستغيث : فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر . تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد . فأتوا بقصب وبارية ، وطعوا رأس البئر ، فهمت أن أصيح ، فقلت في نفسي . إلى من أصيح ؟ هو أقرب منهما . وسكنت . فبينما أنا بعد ساعة ، إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى وجهه ، وكأنه يقول . تعلق بي ، في مهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني ، فإذا هو سبيع ، فروهتف بي هاتف . يا يا حمزة ، أليس هذا أحسن ؟ نجيئك من التلف بالتلف . فشيت وأنا أقول

نهاني حياتي منك أن أكشف الهوى	وأغيتني بالفهم منك من الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي	إلى غايي واللف يدرك باللف
ترأيت لي بالنسب حتى كأنما	تبشرني بالنسب أنك في الكف
أراك وبني من هيتي لك . وحشة	فتؤنسني باللف منك وباللف
وتحيي عجباً أنت في الحب حقه	وذا عجب كون الحياة مع الحف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر . وإذا قوي الإيمان به ، وانضم إليه القدرة على الجوع قدوم أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالوت خير له عند الله عز وجل ، ولذلك حبسه عنه ، ثم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات .  
ولا فلا يتم أصلاً



## فهرست الجزء الثالث عشر

صفحة	صفحة
بيان احوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف ٢٣٨٠	٢٣٣١ الشطر الثاني من الكتاب في الخوف بيان حقيقة الخوف بواعث الخوف
٢٣٨٦ تقوى عمر رضى الله عنه خوف عمر بن عبد العزيز	٢٣٣٣ تأثير الخوف في الجوارح بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
٢٣٩٠ كتاب الفقر والزهد	٢٣٣٤ الخوف المذموم
٢٣٩١ الشطر الأول من الكتاب في الفقر بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقر وأسبابه	٢٣٣٥ بيان اقسام الخوف بالانصاف الى ما يخاف منه
٢٣٩٢ معنى الفقر مراتب الانسان عند عدم المال	٢٣٣٦ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
٢٣٩٥ قبول الصحابة للمال ومصرفه في مواضعه	٢٣٤٠ بيان الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
٢٣٩٦ بيان فضيلة الفقر مطلقا	٢٣٤٨ خوف عمر رضى الله عنه
٢٤٠٥ النار في فضيلة الفقر	٢٣٥٢ بيان النبوء الذي به يستجلب حال الخوف
٢٤٠٦ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقائمين والصادقين	٢٣٥٣ مقامات الخوف من الله تعالى
٢٤٠٩ بيان فضيلة الفقر على الفنى	٢٣٥٤ محاجة آدم وموسى عليهما السلام
٢٤١٠ وجهة ارجحية تفضيل الفقير الصابر	٢٣٥٧ تدبر القرآن يخوف العبد من ربه
٢٤١٦ اختيار الفقراء والأغنياء	٢٣٦١ اسباب سوء الخاتمة
٢٤١٧ بيان آداب الفقير في فقره	٢٣٦٣ بيان معنى سوء الخاتمة
٢٤١٨ آداب الفقير الباطنية آدابه الظاهرية	٢٣٦٤ منكر عذاب القبر مبتدع
درجات الادخار بيان آداب الفقير في قبول المعطاء اذا جاءه بفقر سؤال ٢٤١٩	٢٣٦٥ الابتداع المقضى الى سوء الخاتمة
٢٤٢١ أحكام الهدية الزكاة والصدقة	٢٣٦٦ تحفظ السلف من الخوف في الكلام
المعطاء بقصد الرياء قرض الأخذ ٢٤٢٢	٢٣٦٧ ضعف الايمان طريق الخسران
قبول الصدقة رحمة للمعطي	٣٦٩ يموت المرء على ما عاش عليه
٢٤٢٣ خدمة الفقراء للتوسع هلاك	٢٣٧٣ سبيل التجاء من سوء الخاتمة
٢٤٢٥ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المستطر فيه	٢٣٧٥ بيان احوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف
	خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله تعالى
	٢٣٧٧ خوف داود عليه السلام
	٢٣٧٩ خوف يحيى عليه السلام

صفحة	صفحة
جامع الدنيا ومتبع الشهوات كدود ٢٤٧٦	٢٤٢٥ الأصل في السؤال الحرة
٢٤٧٧ بيان علامات الزهد	٢٤٢٦ السؤال فاحشة أبحث للضرورة
٢٤٧٨ صفة مدعى الزهد	٢٤٢٦ تحرير مال السائل المستغنى عليه
علامات الزاهد حقا	٢٤٣٠ حد اباحة السؤال
٢٤٨٢ كتاب التوحيد والتوكل	٢٤٣١ بيان مقدار الفنى المحرم للسؤال
٢٤٨٣ بيان فضيلة التوكل	٢٤٣٢ درجات السؤال للمستقبل
٢٤٨٥ الآثار في فضيلة التوكل	٢٤٣٣ بيان أحوال السالكين
٢٤٨٦ بيان حقيقة التوحيد الذى هو اصل التوكل	٢٤٣٥ الشطر الثانى من الكتاب في الزهد
٢٤٨٩ مراتب التوحيد	٢٤٣٦ بيان حقيقة الزهد
٢٤٩٥ شرح مقامات التوحيد	٢٤٣٦ معنى الزهد
٢٤٩٨ طريق توحيد السالكين	٢٤٤٠ ترك الدنيا لحقارتها زهد
٢٤٩٨ وجهة وصف الله بثلثناقصين	٢٤٤١ بيان فضيلة الزهد
٢٤٩٩ علاج جاحد طريق السالكين	٢٤٤٢ الزاهد في الدنيا محبوب لله تعالى
٢٥٠٠ مثال الكاشفين والمعتدين	٢٤٤٣ علامة شرح الصدر للإسلام
٢٥٠١ شرح الاختيار في الأفعال	السخاء يقرب العبد من ربه
٢٥٠٤ مثال توقف المقدور مع القدرة على وجود الشرط	متابعة صبر مرضى الله عنه للبنى صلى الله عليه وسلم
٢٥٠٥ كيفية الجمع بين التوحيد والشرع	٢٤٤٥ العبادة مع حب الدنيا كالبناء على الماء
الشطر الثانى من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله	٢٤٤٧ الآثار في فضيلة الزهد
٢٥١٠ معنى التوكل وما ينبغى توفيره في معنى التوكل وما ينبغى توفيره في التوكل	٢٤٤٨ بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة الى نفسه وإلى المرفوب
٢٥١١ درجات التوكل	٢٤٥٠ منه وإلى المرفوب فيه
٢٥١٣ درجات التوكل	درجات الزهد
٢٥١٨ بيان ما قاله الشيخوخ في أحوال التوكل	٢٤٥١ مثال ترك الدنيا للأخرة
٢٥٢٠ بيان أعمال التوكلين	أقسام الزهد بالإضافة الى المرفوب فيه
٢٥٢١ الأسباب القاطمة لحب المصالح	٢٤٥٢ أقسام الزهد بالإضافة الى المرفوب فيه
٢٥٢١ الأسباب المظنونة لحب المنافع	٢٤٥٣ أقسام الزهد بالإضافة الى المرفوب فيه
٢٥٢٣ حكم القعود في البلد من غير كسب	٢٤٥٥ أقاويل السلف في حقيقة الزهد
٢٥٢٤ الأسباب الموهمة الانفساء الى المسيب	٢٤٥٨ بيان تفصيل الزهد فيما هو من فروديات الحياة
٢٥٢٥ درجات التوكلين الأخذين في الأسباب	تفصيل الزهد في الطعام
٢٥٢٥ الاكتساب لا ينال التوكل	تفصيل الزهد في اللباس
٢٥٢٦ علامة المكسب غير التوكل	٢٤٦٧ تفصيل الزهد في السكن
	٢٤٧٠ تفصيل الزهد في آلات البيت
	٢٤٧٥ تفصيل الكلام في المال والحياة







كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الرابع عشر

دار الشعب

١٥ شارع فلسطين - القاهرة - ١١٥١١



## بيان

توكل المعبول

اعلم أن من له عيال لحكمه يفارق المنفرد . لأن المنفرد لا يصبح توكله إلا بأمرين .  
أحدهما : قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس  
والآخر : أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جعلها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأت  
رزقه ؛ علما بأن رزقه الموت والجوع ، وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة  
فيرى أنه سبق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذي به يموت  
ويكون راضيا بذلك ، وأنه كذا قضى وقدر له ، فهذا يتم التوكل للنفرد  
ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندم الإيمان بالتوحيد  
وأن الموت على الجوع رزق مفبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا . وكذا سائر أبواب  
الإيمان . فإذا لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكنتب ، وهو المقام الثالث ، كتوكل أبي بكر  
الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب  
فأما دخول البوادي وترك العيال توكل في حقهم ، أو القعود عن الأهتمام بمصرم توكل  
في حقهم ، فهذا حرام ، وقد يفرض إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق  
أنه لا فرق بينه وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة ، وعلى الاعتداد  
بالموت على الجوع رزقا وغنمة في الآخرة ، فله أن يتوكل في حقهم . ونفسه أيضا عيال  
عنده ، ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة . فإن كان لا يطيقه ،  
ويضطرب عليه قلبه ، وتشتوش عليه عبادته ، لم يميز له التوكل  
ولذلك روي أن أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مد يده إلى قشر بطيخ ليا كله بعد  
ثلاثة أيام ، فقال له : لا يصلح لك التصوف ، ألزم السوق . أي لا تصوف إلا مع التوكل  
ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري ؛  
إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب ؛  
فإذا بدنه عياله ، وتوكله فيما يضر بدنه كتوكله في عياله . وإنما يفارقهم في شيء واحد  
وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع ، وليس له ذلك في عياله

وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على  
العبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا ، وملازمة البلاد والأمصار ،  
أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ،  
ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بانصر . والتوكل في الأمصار  
أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي . وكل ذلك من الأسباب ، إلا أن الناس  
عدلوا إلى أسباب أظهر منها ، فلم يعدوا تلك أسبابا ، وذلك لضعف إيمانهم ، وشدة حرصهم ،  
وقلة سبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة ، واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل  
. ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيق أن الله تعالى دبر الملك  
والملكوت تديرا لا يتجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب  
لم يحاوزه رزقه . أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل  
سرته بالأُم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ، ولم يكن ذلك بحيلة الجنين .  
ثم لما انفصل سبط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شامت أم أبت ، اضطرابا من الله  
تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب . ثم لما لم يكن له من يعضغ به الطعام جعل  
رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرعاية مزاجه كان لا يمتثل الغذاء الكثيف  
فأدر له اللبن اللطيف في ندي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل  
أو بحيلة الأم ؟ فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قوامع وطواحين لأجل  
للمضغ . فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلك سبيل الآخرة ، فجئته بعد البلوغ  
جبل محض ، لأنه ما نقصت أسباب مبيشته يبلوغه بل زادت ، فإنه إن لم يكن قادرا على  
الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته . نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم  
أو الأب ، وكانت شفقتها مفرطة جدا ، فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين ، وكان  
إطامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سلط الله الشفقة ، والمودة  
والرفقة ، والرحمة على قلوب المسلمين ، بل أهل البلد كافة ، حتى أن كل واحد منهم إذا أحس  
بحاجة تألم قلبه ورق عليه ، وانبشت له داعية إلى إزالة حاجته . فقد كان المشفق عليه واحدا  
والآن المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب

وهو مشفق خاص ، فأرأوه محتاجا . ولو رآوه يتينا لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين ، أو على جماعة ، حتى يأخذونه ويكفلونه . فما رآني إلى الآن في سبي الحسب يتيم قد مات جوعا ، مع أنه عاجز عن الاضطراب ، وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده . فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا ، وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ؟ نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ، ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد القرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر نصف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ، وبترك النعم ، والافتصار على قدر الضرورة . ولقد أحسن الشاعر حين ، يقول

جرى فلم القضاء بما يكون      فسيان التحرك والسكون  
جنون منك أن تسعى لرزق      ويرزق في غشاوة الجنين

فإن قلت : الناس يكفلون يتيم يرويه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ، ويقولون هو مثلنا فليجهد لنفسه

فأقول . إن كان هذا القادر بطأ لا فقد صدقوا ، فعليه الكسب ، ولا معنى للتوكل في حقه ، فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى . فما للبطل والتوكل ! وإن كان مشغولا بالله ، ملازما لمسجد أو بيت ، وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ، ولا يكفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه في قلوب الناس ، حتى يحملون إليه فوق كفايته . وإعنا عليه أن لا يفتق الباب ، ولا يهرب إلى جبل من بين الناس . وما رآني إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فسات جوعا ، ولا يرى قط . بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد ر عليه . فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له . ومن اشتغل بالله عز وجل أتى الله حبه في قلوب الناس ، وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها . فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت . فمن شاهد هذا التدبير وثق بالدبر ، واشتغل به ، وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب . نعم مادبره تدبيرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيب والسمان ، والياب الرقيقة ، والخيول النفيسة على الدوام لاعتالة . وقد يقع ذلك أيضا

في بعض الأحوال : لكن دبره تدبيراً يصل إلى كل مشغل بمبادء الله تعالى في كل أسبوع  
فرص شعير أو حشيش يتناوله لأمحالة . والغالب أنه يصل أكثر منه ، بل يصل ما يزيد  
على قدر الحاجة والكفاية . فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التتم على الدوام  
وإيس الثياب الناعمة ، وتناول الأعدية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة . وذلك  
قد لا يحصل بغير اضطراب ، وهو في الغالب أيضاً ليس يحصل مع الاضطراب ، وإنما  
يحصل نادراً . وفي النادر أيضاً قد يحصل بغير اضطراب : فأثر الاضطراب ضعف عند من  
انفتحت بصيرته لذلك لا يطمئن إلى اضطرابه ، بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيراً لا يماز  
عبداً من عباده رزقه وإن سكن ، إلا نادراً ندوراً عظيماً يتصور مثله في حق المضطرب

فإذا انكشفت هذه الأمور ، وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس ، أغر مقاله  
الحسن البصري رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدينار . وقال  
وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً ، واهتممت برزقي ، لطننت أني مشرك  
فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ، ويمكن الوصول إليه  
من غير نفسه . وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع  
بين الإفلاسين ، الإفلاسي عن وجود المقام ذوقاً ، والإفلاسي عن الإيمان به علماً

فإذا عليك بالقناعة بالنذر القليل ، والرضا بالقوت فإنه يأتيك لأمحالة وإن فررت منه  
وعند ذلك على الله أن يعمد إليك رزقك على يدي من لا تحسب . فإن اشتغلت بالتقوى  
والتوكل شاهدت التجربة مصداق قوله تعالى ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ  
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ) الآية إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذا نذر الأطمعة  
فاضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته . وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن  
واطمأن إلى ضمانه . فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهروا  
للخلق . بل مداخل الرزق لا تحصى ، ومجاريه لا يهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض  
وسببه في السماء . قال الله تعالى ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ) وأسرار السماء لا يطلع  
عليها . ولهذا دخل جماعة على الجنيد ، فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق . فقال

إن علمتم أي موضع هو عطليوه . قالوا نسال الله . قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه . فقالوا ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون . فقال التوكل على التجربة شك . قالوا الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الخراز : كنت في البادية فنانى جوع شديد ، فقلبتى نفسى أن أسأل الله تعالى طامعا ، فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطابعتى أن أسأل الله صبورا ، فلما سمعت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى ويقول

ويزعم أنه منا قرب وأنا لا نضع من أنانا  
ويسألنا على الإكثار جهدا كأننا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه ، وقوى قلبه ، ولم يضعف بالجبن باطنه ، وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى ، كان مطمئن النفس أبدا ، واثقا بالله عز وجل . فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنا

فإذا غام التوكل بقناعة من جانب ، ووفاء بالضمون من جانب . والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها صادق ، فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق المحيية التى لم تكن فى ظنك وحسابك . ولا تكن فى توكلك منتظرا للأسباب ، بل لسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب ، بل لقلب الكاتب . فإنه أصل حركة القلم . والمحرك الأول واحد ، فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادر بلا زاد ، أو يقعد فى الأمصار وهو خامل

وأما الذى له ذكر بالمادة والعلم ، فإذا فتح فى اليوم واليلة بالطعام مرة واحدة كيف كانت وإن لم يكن من اللذائذ ، وثوب خشن يلبس بأهل الدين ، فهذا يأتيه من حيث يحسب ولا يحسب على النوام . بل يأتيه أضغافه . فتركه للتوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعفه والتقصير ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار حتى انغمس مع الاكتساب . فالاهتمام بالرزق يبيع بذوى الدين ، وهو بالملاء أبيع ، لأن شرطهم القناعة ، والمالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه ، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالمالم العامل الذى سلوكه يظهر العلم والعلم ، ولم يكن له سير بالباطن . فإن للكسب بمنع من السير بالتفكر الباطن

فاستغاثه بالسلوك مع الآخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ، لأنه تفرغ لله عز وجل . وإعانة للمعطى على نيل الثواب .

ومن نظر إلى خبارى سنة الله تعالى ، علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب . ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيماً عن الأحمق المرزوق ، والماعقل المحروم ، فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه . إذ لو رزق كل عاقل ، وحرم كل أحمق ، لظن أن العقل رزق صاحبه . فلما رأوا خلافه علموا أن الرزاق غيرهم ، ولاتقنه بالأسباب الظاهرة لهم . قال الشاعر

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذا من جهلن البهائم

## بيان

أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بفرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السَّوَالِ وقفا في ميدان على باب قصر الملك ، وهم محتاجون إلى الطعام . فأخرج إليهم غلماناً كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز ، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين ، وبعضهم رغيفاً رغيفاً ، ويحتدوا في أن لا ينفلوا عن واحد منهم وأمر متادياً حتى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تملقوا بغلماناً إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغي أن يعطى كل واحد منكم في موضعه ، فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم . فن تعلق بالغلمان وآذام وأخذ رغيفين ، فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعت به غلام يكون موكلاً به ، إلى أن أقدم لمقوبته في ميعاد معلوم عندي ولكن أخفيه . ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد التلام ، وهو ساكن ، فإني أختصه بخلمة سنية في الميعاد المذكور لمقوبة الآخر . ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلاعقوبة عليه ، ولا خلعة له . ومن أخطأه غلماناً قسأوصلوا إليه شيئاً ، فبات الليلة جائلاً غير متسخط للغلمان ، ولا قاتل لآلته أوصل إلي رغيفاً ، فإني غداً أستورزه وأفوض ملكي إليه . فانقسم السَّوَالِ إلى أربعة أقسام ، قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى المقوبة الموعودة ، وقالوا من اليوم إلى غد فرج ، ونحن الآن جائعون ، فبادروا إلى الغلمان فأذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت المقوبة إليهم في الميعاد المذكور ، فندموا ولم ينفعهم الندم . وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف المقوبة ، ولكن أخذوا رغيفين لنبله الجوع ، فسلموا من المقوبة ، وما فازوا بالخلمة



وقسم قالوا إننا نجلس بمرأى من النملان حتى لا يخطونا، ولكن نأخذ إذا أعلونا وغيضا واحدا، وتقع به، فلعلنا نفوز بالخلة، وفازوا بالخلة. . . وقسم رابع اختلفوا في زوايا الديدان، وانحرفوا عن مرأى أعين النملان، وقالوا إننا نتموننا وأعطونا قمتنا برغيص واحد، وإننا خطونا قاسينا شدة الجوع الليلة، فلعلنا تقوى على ترك النسخة، فنتال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك، فاتفقهم ذلك، إذ اتبعهم النملان في كل زاوية، وأعطوا كل واحد رغيصا واحدا وجرى مثل ذلك أياما، حتى اتفق على التدور أن اختفى ثلاثة في زاوية، ولم تقع عليهم أبصار النملان، وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد. فقال اثنان منهم: ليتنا تمرصنا للنملان وأخذنا طعامنا، فلعلنا نطيق الصبر. وسكت الثالث إلى الصباح، فنال درجة القرب والوزارة. . . فهنا مثال الخلق، والديدان هو الحياة في الدنيا. وباب الديدان الموت. واليحاد المجهول يوم القيامة. والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للتوكل إذا مات جائنا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميماء القيامة، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. . . والمتلقى بالنملان هو المتدنى في الأسباب. والنملان المسخرون هم الأسباب. والجالس في ظاهر الميسدان بمرأى النملان هم القيسون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون. . . والمختفون في الزوايا هم السامعون في البوادي على هيئة التوكل، والأسباب تتبعهم، والرزق يأتيهم إلا على سبيل التدور. فإن مات واحد منهم جائنا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد اتقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة، ولعل من كل مائة تملق بالأسباب تسعون، وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتياهم، وساح في البوادي ثلاثة، وتسخط منهم اثنان، وفاز بالقرب واحد. ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة. وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف

الفن الثاني في التعرض لأسباب الأذى

فن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الأذى ثلاثة أحوال الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت، فيأكل إن كان جائنا، وليس إن كان حاربا، ويشترى منسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذ ولا يدخره

إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية . فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا ، وهي الدرجة العليا

الحالة الثانية : المقابلة لهذه ، المخرجة له عن حدود التوكل ، أن يدخر لسنة فافوقها ، فهذا ليس من التوكلين أصلا . وقد قيل : لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة ، والنملة ، وابن آدم الحالة الثالثة : أن يدخر لأربعين يوما فادونها . فهذا مل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للتوكلين ؟ اختلفوا فيه . فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ، ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المنكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار . ثم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل . فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له . وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة تلك الرتبة لها بداية ونهاية . ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين . ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات . وكذلك السابقون . وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلان معنى التقدير في مثل هذا . بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل . وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس ، فإن ذلك كالمستع وجوده . أما الناس فتفاوتون في طول الأمل وقصره . وأقل درجات الأمل يوم وليلة فادونه من الساعات . وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان . وبينهما درجات لاحصر لها . فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصود بمز يؤمل سنة . وتقبيده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد ، فإن تلك الراقمة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما ، لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام « إِنَّ اللَّهَ <sup>(١)</sup> خَرَّ طِينَةَ آدَمَ يَدَيْهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » لأن استحقاق تلك الطينة التخرم كان موقوفا على مدة ميلئها ما ذكر

فلذا ما وراء السنة لا يدخر له إلا بحكم ضمف القلب والركون إلى ظاهري الأسباب ، فهو خارج

( ١ ) حديث خرطينة آدم بيده أربعين صباحا : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسنان القاري بسناد ضعيف جدا وهو باطل

عن مقام التوكل ، غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بحقايا الأسباب ، فإن أسبابه  
الدخل في الارتفاعات والركوات تتكرر بتكرر السنين غالبا . ومن ادخر لأول من سنة فله  
درجة بحسب قصر أمه . ومن كان أمه شهرين لم تكن درجته كدرجة من أقل شهرا ،  
ولأدرجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة . ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ،  
فالأفضل أن لا يدخر أصلا وإن ضيق قلبه ، فكما قل ادخاره كان فضله أكثر . وقديري في  
« الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسماء أن يسلاه ، ففسلاه وكفناه  
ببرده ، فلما دونه قال لأصحابه : إِنَّهُ يُبَيِّتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَوْ لَا  
خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبَيَّتَ وَوَجْهَهُ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ » فلما واهمي بأمر رسول الله : قال : كَانَ  
صَوَامًا قَرَامًا كَثِيرَ الذِّكْرِ لَيْلَةَ تَمَالَى غَيْرُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ الشَّتَاءُ ادَّخَرَ خُلَّةَ الصَّيْفِ لِيَصْنِفَهُ  
وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ خُلَّةَ الشَّتَاءِ لِيَشْتَرِيهِ » ثم قال صلى الله عليه وسلم : بَلْ أَقْلُ مَا أُرِيْتُمْ  
الْيَتِيمَ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث . وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام  
في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة . وأما وب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف . وهذا  
في حق من لا يزعج قلبه بترك الادخار ، ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق ، بل لا يلتفت  
قلبه إلا إلى الوكيل الحق . فإن كان يستشرف في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة ، والذكر ،  
والفكر ، فالادخار له أولى . بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيًا بقدر كفايته ، وكان  
لا يفرغ قلبه إلا به ، فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجدد لذكر الله ، ورب  
شخص يشغله وجود المال ، ورب شخص يشغله عدمه . والحذور ما يشغل من الله عز وجل  
وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها . ولذلك بيث رسول الله صلى الله عليه وسلم  
إلى أصناف الخلق ، وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر بالتاجر  
بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفه ، ولا أمر التارك لها بالاشتغال بها . بل دعا  
الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله .

( ١ ) حديث أن قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسماء ففسله وكفنه يردته أنه يبيت يوم القيامة ووجهه

كالقمر ليلة البدر - الحديث : وفي آخره من أقل ما أتيتم اليقين وعزيمة الصبر لأجله لأصلا

وهدم آخر الحديث قبل هذا

تعالى . ومعدة الاشتغال بالله تعالى عز وجل التائب . فسوابب الضميمة ادخار قدر حاجته  
كما أن سوابب القوي ترك الادخار . وهذا كله حكم للمنفرد

فأما المليل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لمياله ، جبرا لضعفهم ، وتستكنينا  
لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل ، لأن الأسباب تتكرر عند تكرار  
السنين . فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل . فالتوكل  
هبة عن موحد قوي القلب ، مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود  
الأسباب الظاهرة . وقد <sup>(١)</sup> ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمياله قوت سنة  
<sup>(٢)</sup> ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لقد . <sup>(٣)</sup> ونهى بلالا عن الادخار في كسرة  
خبز ادخرها لفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم « أَتَقِيَّ بِلَالًا وَلَا تَخْشَى مِنْ ذِي  
الْعَرْشِ إِفْلَاحًا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إِذَا سُنِّتَ فَلَا تَمْنَعْ وَإِذَا أُعْطِيَ فَلَا تَحْبَأْ »  
اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup>

وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء يقول « مَا يَذْرِي لِي لَأَبْلُغُهُ »  
وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله ، إذ كان لا يثق بما ادخره  
ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلما للاقوياء من أمته ، فإن أتوا بأمته ، منغما بالإضافة إلى قوته  
وادخر عليه السلام لمياله سنة لا تضعف قلب فيه وفي عياله ، ولكن ليس ذلك للضعفاء من  
أمته . بل أخبر <sup>(٦)</sup> أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، تطيبها لقلوب

( ١ ) حديث ادخر لمياله قوت سنة : متفق عليه وهدم في الزكاة :

( ٢ ) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لقد : تقدم نهى أم أيمن وغيرها

( ٣ ) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إفلًا : الزرار من حديث  
ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صر من غرقم ذلك  
وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف  
من أنه ادخر كسرة خبز فلم أروه

( ٤ ) حديث قال بلال إذا سُنِّتَ فلا تمنع وأما أعطيت فلا تخبأ : الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة  
حديث أبي الله قد تقدم

( ٥ ) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال تيمم مع قرب الماء ويقول ما يذري لي لأبْلُغُهُ : ابن الدنيا في قصر  
الامل من حديث ابن عباس بسند ضعيف

( ٦ ) حديث أن الله يحب أن تؤتى رخصه - الحديث : أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم

الضعفاء ، حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتركوا الميسور من الخير عليهم  
بمجزهم عن منتهى البرجات ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإرحمة للعالمين كلهم  
على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم

وإذا فهمت هذا علمت أن الأدخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر . ويدل عليه ما روى  
أبو (١) أئمة الباهلي : أن بعض أصحاب الصفة توفي فواجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم  
« فَتَشَوْا تَوْبَهُ » فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره . فقال صلى الله عليه وسلم « كَيْتَانِ »  
وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك في حقه . وهذا يحدث  
وجيهين ، لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى (تُكَوَّى  
بِهَآ جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ) (٢) وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل  
مع الإفلاس عنه ، فهو نوع تليس . والثاني أن لا يكون ذلك عن تليس ، فيكون للمنى به  
النقصان عن درجة كماله ، كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه . وذلك لا يكون  
عن تليس ، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة ، إذ لا يؤتى أحد من  
الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة

ثم وأما بيان أن الأدخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل  
فيشهد له ما روى عن بشر ، قال الحسين المغانزي من أصحابه : كنت عنده ضحوة من النهار  
فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف المارصين ، فقام إليه بشر ، قال ومارأيت قام لأحد غيره  
قال ودفع إلي كفا من دراهم وقال : اشترى لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب .  
وما قال لي قط مثل ذلك . قال غشت بالطعام فوضعت فأكل معه ، ومارأيت أكل مع غيره  
قال فأكلنا حاجتنا . وبقي من الطعام شيء كثير ، فأخذ الرجل وجهه في ثوبه وحمله معه  
وانصرف . فنجيت من ذلك وكرهته له . فقال لي بشر : لملك أنكرت فعله ؟ قلت  
نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن . فقال ذاك أخونا فتح الموصل ، زارنا اليوم من الموصل .

(١) حديث أبي أئمة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخه إزاره فقال صلى الله عليه وسلم

كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه

فإن أراد أن يهلك أن الذئب إذا أصبح لم يفسد . . . الخ

الفن الثالث : في مياثرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال ، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكالنوم في الأرض المسببة ، أو في مجارى السبل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهي عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . ثم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة . وإلى موهومة . فترك الموهوم منها من شرط التوكل ، وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية ، فإن الكي والرقية قد يقدم به المحذور دفعا لما يتوقع . وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة ، ولم يفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل مافي معناها من الأسباب . نعم الاستغفار بأكل التوم مثلاً عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهيجاً لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب ، والتمويل عليها . فيكاد يقرب من الحكيم بخلاف الجبة

ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والنشئ فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ<sup>(١)</sup>) وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ<sup>(٢)</sup>) وقال عز وجل (وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ<sup>(٣)</sup>) وقال سبحانه وتعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا أَوَّلًا أُنْزِمَ مِنَ الرُّسُلِ<sup>(٤)</sup>) وقال تعالى (نَمَّ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ<sup>(٥)</sup>) وهذا في أذى الناس

وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والمقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل في شيء . إذ لا فائدة فيه . ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإقامته على الدين . وترتب

الأسباب ههنا أكثر تبها في الكسب وجلب المنافع ، فلا تطول بالإعادة

وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند

(١) الزمل : ٩ ، ١٠ (٢) إبراهيم : ١٢ (٣) الأحزاب : ٤٨ (٤) الأحقاف : ٣٥ (٥) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩

الخروج ، ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعاً وإما علناً ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للإعرابي لما أتت أهل البعير وقال توكلت على الله <sup>(١)</sup> « اغتلبنا وتوكلن » وقال تعالى « خذُوا حِذْرَكُمْ » <sup>(٢)</sup> وقال في كيفية صلاة الخوف (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) <sup>(٣)</sup> وقال سبحانه (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) <sup>(٤)</sup> وقال تعالى لموسى عليه السلام (فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلاً) <sup>(٥)</sup> والتحصن بالليل اختفاه عن أعين الأعداء ونوع تسبب <sup>(٦)</sup> واختفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاه عن أعين الأعداء دفعا للضرر . وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعاً كقتل الحية والمقرب فإنه دافع قطعاً . ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمنقطع ، وإما الموهوم هو الذي يقتضى التوكل تركه

فإن قلت . فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك ، فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه ، فلا ينبغي أن يترك ذلك المقام فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التلم من التبر ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات ، وليس ذلك شرطاً في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها

فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب الملامات ولكن من الملامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو مبعك في إهابك يسمى النضب ، فلا يزال يعضك وبعض غيرك فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستل إلا بإشارتك ، وكان مسخراً لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع . وكلب دارك أولى بأن يكون مسخراً لك من كلب البوادي ، وكلب إهابك أولى بأن يسخر من كلب دارك . فإذالم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطعم في استسغار الكلب الظاهر

- (١) حديث اغتلبنا وتوكل : الترمذي من حديث أنس قال بعى القبطان منكرو ورواه ابن خزيمة في التوكل والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد قيدها  
(٢) حديث اخنوخ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تهدم في قمة اختفاه في الغار عند إرادة الهجرة

فإن قلت فإذا أخذ التوكل سلاحه حذرا من العدو ، وأغلق باب حذرا من اللص ، وقتل  
بميره حذرا من أن ينطلق ، فبأي اعتبار يكون متوكلا فأقول يكون متوكلا بالعلم والحال  
فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفائته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع  
إلا بدفع الله تعالى إياه . فكم من باب يفتح ولا يفتح ، وكم من ممر يموت ويموت أو يفتل ،  
وكم من أخذ سلاحه يقتل أو يقتل . فلا تتسكل على هذه الأسباب أصلا ، بل على مسبب  
الأسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في المصومة ، فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتسكل  
على نفسه وسجله ، بل على كفاية الوكيل وقوته

وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ، ويقول : اللهم إن  
صلّيت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك ، وأنا راض بحكمك ، فإني لأدري أن  
ما أعطيتني هبة فلا أسترجمها ، أو عارية ووديعه فتستردها ، ولا أدري أنه رزقي أو سبقت  
مشيئتك في الأزل بأنه رزقي غيري ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا  
من فضائك ، وتسخطاه ، بل جريا على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك  
بمسبب الأسباب . فإذا كان هذا حاله ، وذلك الذي ذكرناه علمه ، لم يخرج عن حدود  
التوكل بعقل البعير ، وأخذ السلاح ، وإغلاق الباب . ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت ،  
فبينما أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى . وإن لم يجد له مسروقا نظر  
إلى قلبه ، فإن وجده راضيا أوفر ما بذلك علما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه  
في الآخرة ، فقد صح مقامه في التوكل ، وظهر له صدقه . وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر ،  
فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل ، لأن التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصح الزهد  
إلا بمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي ، بل يكون على العكس منه كيف  
يصح له التوكل ! نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ، ولم يكثر سعيه  
في الطلب والتجسس . وإن لم يقدّر على ذلك حتى تأذى بقلبه ، وأظهر الشكوى لبسائه  
واستقصى الطلب بيده ، فقد كانت المرة مزيداله في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره  
عن جميع المقامات ، وكذبه في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يبحث حتى لا يصدق نفسه  
في دعاويها ، ولا يتدلى بمجل غرورها ، فإنها خداعة ، أمارة بالسوء ، مدعية للخير



فإن قلت : فكيف يكون للتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول التوكل لا يخلو به من متاع  
كقصعة يأكل فيها ، وكوز يشرب منه ، وإناء يتوضأ منه ، وجراب يحفظ به زاده ، وعصا  
يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال  
وهو عسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس  
من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه ، والجراب الذي فيه زاده ، وإنما  
ذلك في المال كقول ، وفي كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير  
إلى الفقراء للتوكلين في زوايا المساجد ، وما جرت السنة بفرقة السكيزان والأئمة في كل يوم  
ولافي كل أسبوع . والمخرج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل . ولذلك كان  
الخواص يأخذ في السفر الحبل ، والركوة ، والمقراض ، والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله  
تعالى جارية بالفرق بين الأمرين . فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه  
الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشبهه فلم أمسكه ، وأغلق الباب عليه ؟  
وإن كان أمسكه لأنه يشبهه لحاجته إليه ، فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه  
وبين ما يشبهه ؟ . فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه ، إذ كان يظن أن الخير له  
في أن يكون له ذلك المتاع . ولولا أن الخير له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه . فاستدل  
على ذلك بتيسير الله عز وجل ، وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب  
دينه ، ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يتلى بفقد ذلك  
حتى ينصب في تحصيل غرضه ، ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر . فلما أخذ الله  
تعالى منه بتسليط اللص تنير ظنه ، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به . فيقول لولا أن  
الله عز وجل علم أن الخير كانت لي في وجودها إلى الآن والخير لي الآن في عدمها لما أخذها مني .  
فبمثل هذا الظن يتصور أن يتدفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب  
من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا . وهو  
كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا  
أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد توبت على احتماله لما قر به إلي . وإن أخر عنه الغذاء بعد

ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن النذاه يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه . وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقد المريض في الوالد الشفيق الحاذق يعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى ، وعرف أفعاله ، وعرف سنته في إصلاح عباده ، لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له ، كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنني لأدري أيهما خير لي . فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل بسرقة متاعه ، أو لا يسرق ، فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة ، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ، وكم من غني يتلى بواقعة لأجل غناه يقول يا ليتني كنت فقيرا

## بيان

آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه  
الأول : أن ينلق الباب ، ولا يستقمي في أسباب الحفظ . كالتماسه من الجيران الحفظ مع الناق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة . فقد كان مالك بن دينار لا ينلق بابا ، ولكن يشده بشرطه ويقول . لولا الكلاب ما شدته أيضا

الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا يمرض عليه السراق ، فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم . ولذلك لما أهدى للمغيرة إلى مالك بن دينار ركة قال خذها لاجبة لي إليها . قال لم ؟ قال يوسوس إلي المدون أن اللص أخذها . فكانه احتراز من أن يعصى السارق ، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها . ولذلك قال أبو سليمان : هذا من ضنف قلوب الصوفية . هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها !

الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ، ويقول . ما يأخذ السارق فهو منه في حل . أو هو في سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة . وإن لم يشترط الفقر فهو أولى . فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير ، إحداها : أن يكون ماله مانعا له من المعصية ، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرفة بعده ، وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جمعه في حل ،

والثانية بأن لا يظلم مسلماً آخر، فكروا ما فداء المال مسلماً آخر . وبما ينوي حراس المال غيره بال نفسه ، أو ينوي دفع المعصية عن السارق ، أو تخفيفها عليه ، فقد نصح المسلمين ، وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » ونصر الظالم أن تمنحه من الظلم ، وعفوه عنه لإعدام الظلم ومنع له . ولتحقق أن هذه النية لا تنفذه بوجه من الوجوه . إذ ليس فيها ما يسلط السارق وينير القضاء الأزلي ، ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعة دراهم ، لأنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضاً ؛ كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « فَمَنْ تَرَكَ الْمَرْزَلَ فَأَقْرَ النُّظْفَةَ فَرَارَهَا أَنْ لَهُ أَجْرُ غَلَامٍ وَلَهُ مِنْ ذَلِكَ الْجَمَاعُ ، وَعَاشَ ، وَقُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَمَالَى ، وَإِنْ لَمْ يُولَدْ لَهُ لَأَنَّهُ لَيْسَ أَمْرُ الْوَلَدِ إِلَّا الْوَفَاعُ . فَأَمَّا الْخَلْقُ ، وَالْحَيَاةُ ، وَالرِّزْقُ ، وَالْبَقَاءُ فَلَيْسَ إِلَيْهِ . فَلَوْ خَلَقَ لَكَانَ نَوَابِهِ عَلَى فَمَلِهِ ، وَفَمَلُهُ لَمْ يَنْصَدِمْ ، فَكَذَلِكَ أَمْرُ السَّرِقَةِ »

الرابع : أنه إذا وجد للمال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن ، بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى . ثم إن لم يكن قد جمعه في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه ، وفي إساءة الظن بالمسلمين . وإن كان قد جمعه في سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة . فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بمد أن كان قد جمعه في سبيل الله عز وجل . وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين . وقد روي أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال : في سبيل الله تعالى . فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين ، فجاءه رجلاً فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن ناقتك في مكان كذا . فلبس نعله وقام ، ثم قال أستغفر الله وجلس . فقيل له ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال إني كنت قلت في سبيل الله

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته ، فقلت ما فعل الله بك؟ قال غفر لي وأدخلني الجنة ، وعرض عليّ منازل في فيها فرأيتها . قال وهو مع ذلك كتيب حزين ، فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ، فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إني

(١) حديث أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً: متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

(٢) حديث من ترك المرزلة وأقر النظفة فرارها كان له أجر غلام - الحديث : لم أجده أصلاً

لا تزال حزينا إلى يوم القيامة . قلت ولم ؟ قال إني لما رأيت منازل في الجنة ، رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلهما فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما همت بدخولها نادى مناد من فوقها صر فوه عنها ، فليست هذه له ، إنما هي لمن أمضى السبيل . فقلت وما أمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ، ثم ترجع فيه . فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيتا لك وحكي . عن بعض العباد عكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه ، فأتبعه به ، فقال له كم كان في هميانك ؟ فذكر له . فحمله إلى البيت ووزنه من عنده . ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهيمان مزحاه معه ، فجاء هو وأصحابه معه ، وردوا النعيب ، فأبى وقال : خذ حلالا طيبا ، فإني كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله من زجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنا له ، وجعل يصره صررا ويبحث بها إلى الفقراء ، حتى لم يبق منه شيء . . فبكنا كانت أخلاق السلف . وكذلك من أخذ رغيما ليمطيه فقيرا فغلب عنه ؛ كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجة ، فيمطيه فقيرا آخر . وكذلك يفضل في البرام والدانير وسائر الصدقات

الخاص : وهو أقل الدرجات ، أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فإن فعل بطل تركه ، ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات ، وبطل زهده . ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فإصابه . في الخبر ( ١ ) « مَنْ دَعَا عَلَى ظَالِمٍ فَقَدْ أَتَصَّرَ »

وحكي أن الربيع بن خثيم سرق فرس له ، وكان قيمته عشرين ألفا ، وكان قائما يصلح فلم يقطع صلاته . ولم ينزعج لطلبه . فجاءه قوم يمزونه فقال . أما إني قد كنت رأيت به وهو يحله . قيل وما منكم أن ترجره ؟ قال كنت فيما هو أحب إلي من ذلك ، يعني الصلاة فعملوا يدعون عليه ، فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا ، فإني قد جعلتها صدقة عليه

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ؟ قال ما أحب أن أكون هوذا للشيطان عليه . قيل أرايت لو رد عليك فقال لا أخذه ولا أنظر إليه ، لأنني كنت قد أحللت له وقيل لآخر . ادع الله على ظالمك . فقال ما ظلمني أحد . ثم قال إنما ظلم نفسه . ألا يكفيه ذلك سكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا ؟ . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف

في ظلمه ، فقال لا تفرق في شتمه ، فإن الله تعالى يتصف بالحجاء ممن اتهمك عزمه ، كما يتصف منه لمن أخفاه ودمه . وفي الخبر (١) « إِنْ اتَّعَدَ الظُّلْمُ الظُّلْمَةَ فَلَا يَزَالُ يَشْتِمُ ظَالِمَهُ وَيَسْبُوهُ حَتَّى يَكُونَ بِمِقْدَارِ مَا ظَلَمَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عَلَيْهِ مُطَابَقَةٌ بِمَا زَادَ عَلَيْهِ يُقْتَصُّ لَهُ مِنْ الظُّلْمِ »

السادس : أن يتم لأجل السارق وعصيانه وترضه لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما ، وجعل ذلك تقصا في دنياه لا تقصا في دينه . فقد شكوا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله ، فقال . إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بما لك فما نصحت للمسلمين . وسرق من علي بن الفضل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يركب ويحزن ، فقال . أعلى الدنانير تبكي ؟ فقال لا والله ولكن على المسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة . وبجل لبعضهم . ادع علي من ظلمك ، فقال . إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه . فهذا أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين

الفن الرابع : في إزالة الضرر كدواة المرض وأمثاله  
اعلم أن الأسباب للزلة للعرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالسالم للزلة لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء للسيل ، وسائر أبواب الطب ، أعني معالجة البرودة بالحرارة ، والحرارة بالبرودة ، وهي الأسباب الظاهرة في الطب ، وإلى موهوم كالسكي والرقية .

أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف اللوث وأما الموهوم فشرط التوكل تركه ، إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم التوكلين وأقواهما السكي ، ويليه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتقاد عليها ، والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب . وأما الدرجة للتوسطة وهي المظنونة ، كالدواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فقلة ليس منافعا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس

( ١ ) حديث ابن الجوزي في الظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويُسب حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى لظالم عليه مطالبة - الحديث : تقدم

محظورا بخلاف الملقوع ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص ، فهي على درجة بين الدرجتين . ويدل على أن التساوي غير منافض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ، وأمره به

أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ما من داء إلا وله دواء عرفة من عرفة وجهه من جهه إلا السام » بمعنى الموت ؛ وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « تدأوا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء » <sup>(٣)</sup> وسئل عن الدواء والرفي هل ترد من قدر الله شيئا قال « هي من قدر الله » وفي الخبر المشهور <sup>(٤)</sup> « ما مررت بعلامة من الملأ نكة إلا قالوا أمر أمك بالحجامة » وفي الحديث أنه أمر بها وقال <sup>(٥)</sup> « احتججوا بسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبع بكم الدم فيقتلكم » فذكر أن يتبع الدم سبب الموت ، وأنه فائل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العرق من تحت الثياب ، وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كسب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفي خبر مقطوع <sup>(٦)</sup> « من احتجج يوم

( ١ ) حديث ما من داء إلا له دواء عرفة من عرفة وجهه من جهه إلا السام : أحمد والطبراني من حديث

ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفة إلى آخره . واستاده

حسن ولعله ذى وصحه من حديث أسامة بن شريك المهرم والطبراني في الأوسط والبراز

من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندها ضعيف والجاري

من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء الأنزل له شفاء . وللم من حديث جابر لعل داء دواء

( ٢ ) حديث تدأوا عباد الله : الترمذي وصحه وابن ماجه واللفظه من حديث أسامة بن شريك

( ٣ ) حديث سئل عن البراء والرفي هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله : الترمذي وابن ماجه من حديث

أبي خزامة وقيل عن أبي خزامة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح

( ٤ ) حديث ما مررت بعلامة من الملأ نكة إلا قالوا أمر أمك بالحجامة . الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن

غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف

( ٥ ) حديث احتججوا بسبع عشرة وتسعة عشرة وأحدى وعشرين . الحديث : البراز من حديث ابن عباس

بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذي بلفظ انخير ما يحتججون فيه سبع عشرة - الحديث :

دون ذكر السبع وقال حسن غريب وقال البراز ان طريقه التقديم أحسن من هذا الطريق

ولا ينبغي له من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليحجر سبعة عشر - الحديث :

( ٦ ) حديث من احتجج يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء سنة : الطبراني من حديث منقل

الثلاثاء لِسَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ كَانَ لَهُ دَوَاءٌ مِنْ ذَا سَنَةٍ .

وأما <sup>(١)</sup> أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالجمية <sup>(٢)</sup> وقطع لسعد بن معاذ عرفاً أى فصدته . <sup>(٣)</sup> وكوى سعد بن زرارة <sup>(٤)</sup> وقال لعلنى رضى الله تعالى عنه وكان رضى الدين « لَا تَأْكُلْ مِنْ هَذَا » يعنى الرطب « وَكُلْ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ » يعنى سلقاً قد يطبخ بدقيق شمير . <sup>(٥)</sup> وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تَأْكُلُ تَمَرًا وَأَنْتَ أَرْمَدٌ » فقال لى آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم وأما فعله عليه الصلاة والسلام ، فقد روي في حديث <sup>(٦)</sup> من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ، ويحتجم كل شهر ، ويشرب الدواء كل سنة . قبل السنة المكي <sup>(٧)</sup> وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من المقرب وغيرها . وروي أنه <sup>(٨)</sup> كان إذا نزل عليه الوحي

بين يمار وابن جبان في الضمء من حديث أنس واستادهما واحد اختلف على روايه في الصحابي وكلاما فيه زيد المعنى وهو ضعيف

- ( ١ ) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة : الترمذى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعرابي حين سأله تداؤوا - الحديث : وسألت عن قصة علي وصهيب في الجمية بعده
- ( ٢ ) حديث قطع عرفا لسعد بن معاذ : مسلم من حديث جابر قال روى سعد في أكله لحمة التي صلى الله عليه وسلم بيده بعشقى - الحديث :
- ( ٣ ) حديث أنه كوى سعد بن زرارة : الطبراني من حديث سهل بن حنيف يستضعف ومن حديث أبي أسامة ابن سهل بن حنيف دون ذكر سهل
- ( ٤ ) حديث قال لعلنى وكان رمدا لا تأكل من هذا - الحديث : أبو داود والترمذى وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم النضر
- ( ٥ ) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرأ أنت رمدا الحديث : تقدم في آفات اللسان
- ( ٦ ) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل بكل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الماء كل سنة : ابن عدى من حديث عائشة وقال أئمنكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين
- ( ٧ ) حديث أنه تداوى غير مرة من المقرب وغيرها . الطبراني بإسناد حسن من حديث جبهة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لغته عرق فغشى عليه فراه الناس - الحديث : يولي في الأوسط من رواة سعيد بن مسيرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى شمع كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ولا يبيلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بيده ماسم وفيه جابر الجعفي ضعه الجمهور
- ( ٨ ) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صدعه رأسه فيلقه بالحناء : البزار وابن عدى في السكيل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في استاده على الأوصاف من حكيم كان إذا خرجت بقرحة جعل عليها حناء الترمذى وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذى غريبه

صدع رأسه ، فكان يذاهبه بالزاه . وفي خبر آخر أن كان إذا خرجت به فرقة جعل عليها حناء وقد جعل على فرقة خرجت به ترابا

وماروي في تناويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صنف في ذلك كتاب وسعى ملاب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بلة ، فدخل عليه بنو إسرائيل فمرفوا عنه ، فقالوا له لو تدأويت بكذا لبرئت . فقال لا أندأوى حتى يافئني هو من غير دواء . فظالت عنته . فقالوا له . إن دواء هذه البلة معروف محرب ، وإنا تسداوي به فبرأ . فقال لا أندأوى . وأقامت عنته ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزني وجلالي لأبرئك حتى تدأوي بما ذكره لك . فقال لهم : داووني بما ذكرتم فدأوه فبرأ . فأوحى في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي ، من أودع المقابر منافع الأشياء غيري ؟

وروي في خبر آخر ، أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاه علة يجهدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكاني آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم اللبن ، فإن فيها القوة . قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روي أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل ، فإنه يحسن الولد ، ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد . وقد كانوا يطعمون الحلبى السفرجل ، والنفساء الرطب . فهذه اثبتين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارا للحكمة . والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب . فكما أن الخبز دواء الجوع ، والماء دواء العطش . فالسكنجبين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال ، لا يفارقه إلا في أحد أمرين

أحدهما : أن معالجة الجوع والمطش بالماء والخبز جلي واضح ، يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص . فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول

( ١ ) حديث جعل على فرقة خرجت يده ترابا : البخارى ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت فرقة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم يده هكذا ووضع سفيان ابن عيينة الراوى سبابة بالارض ثم رفعها وقال بسم الله تراب أرضنا وريقة بعضنا شلى سقيمنا



والثاني : أن الدواء سهل ، والسبب جبين يسكن الصفراء بشروط آخر في الباطن .  
 وأسباب في المزاج ربما تعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط ،  
 فيتقاع الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة  
 وقد يتفق من الموارض ما يوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ، ولسكنه نادر  
 واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشئتين . وإلا فالسبب يثار السبب لأعالة  
 مهمات شروط السبب . وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وتربيته ، بحكم  
 حكمته وكمال قدرته . فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب  
 والدواء ؛ فقد روي عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب من الداء والدواء ؟ فقال  
 تعالى مني . قال فما يصنع الأطباء ؟ قال يا كادون أرزاقهم ويلعبون نفوسهم ادى حتى يأتي  
 شفائي أو قضائي . فإذا معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال كما ينسب في فنون  
 الأعمال الدافعة للضرر ، الجالبة للنفع . فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيسببه  
 فإن قلت : فالكي أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك .  
 إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، وسقي البردات للضرورة  
 وأما الكي فالو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه . ولما يمتد الكي في أكثر  
 البلاد . وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب . فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى ، إلا  
 أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستثناء عنه ، فإنه مأمور بجمع بعلاج  
 بالكي إلا وله دواء يفتى عنه ليس فيه إحراق . نال إحراق بالنار جرح مغرب للبيئة ، محذور  
 السراية مع الاستثناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن رأيتهما بعيدة ، ولا يسد مسدهما غيرها  
 ولذلك <sup>(١)</sup> نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى ، وكل واحد  
 منهما بعيد عن التوكل . وروي أن عمران بن الحصين اعتل ، فأشاروا عليه بالكي  
 فامتنع . فلم يزالوا به ، وعزم عليه الأمر حتى اكتوى . فكان يقول . كنت أرى قورا ،

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى : البخاري من حديث ابن عباس وأنهى أمي عن  
 الكي وفي الصحيحين من حديث عائشة : رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذي حمة

واسمع صوتا، ونسلم على الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عنى . وكان يقول : اكتبونا  
كبات ، فوالله ما فلتحت ولا أنجحت . ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى ، فرد الله تعالى  
عليه ما كان يحد من أمر الملائكة . وقال لطرف بن عبد الله . ألم تر إلى الملائكة التي كان  
أكرمى الله بها قدردها الله تعالى عليّ بعد أن كان أخبره بفقدما  
فلذا الكي وما يجرى مجراه هو الذي لا يليق بالتوكل ، لأنه يحتاج في استنباطه إلى  
تدبير ، ثم هو مذموم ، وبذل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التمتع فيها ، والله أعلم

## بيان

أن ترك التدوى قد يحمد في بعض الأحوال ويبدل على قوة التوكل  
وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

أعلم أن الذين تداولوا من السلف لا ينحسرون . ولكن قد ترك التدوى أيضا جماعة  
من الأكابر . فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كالا لتركه رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله . وقد روي عن أبي بكر رضي الله  
عنه أنه قيل له . لو دعونا لك طيبا ؟ فقال . الطيب قد بخر إليّ وقال إني فعال لما أريد  
وقيل لأبي الدرداء في مرضه . ما تشكى ؟ قال ذنوبي . قيل فاشتهي ؟ قال مغفرة ربى  
قالوا . ألا ندعوك طيبا ؟ قال الطيب أمرضى . وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه . لو  
داويناكما ؟ قال . إني خفهما مشغول . فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يشفيك ؟ فقال : أسأله  
فيما هو أم عليّ منهما . وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، فقيل له . لو تدأويت ؟ فقال قد  
سمعت ثم ذكرت عادا وعمود وأصحاب الرس ، وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكان فيهم الأطباء  
فهلك المداوى والمداوى ، ولم تنن الرقى شيئا . وكان أحمد بن حنبل يقول . أحب لمن  
اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التدوى من شرب الدواء وغيره . وكان به علل  
فلا يخبر للتطبب بها أيضا إذا سأل . وقيل لسهل . متى يصح للعبد التوكل ؟ قال إذا دخل  
عليه الضرر في جسمه ، والنقص في ماله ، فلم يلتفت إليه مشغلا بحاله ، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه  
فإذا منهم من ترك التدوى وراءه ، ومنهم من كرهه . ولا يرضع وجهه  
الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا يحصر الصوارف عن التدوى

فنقول . إن ترك التداوى أسبابا

السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كوشف بأنه انتهى أجله ، وأن الدواء لا ينفعه . ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحس وظن ، وتارة بكشف محقق . وشبهه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لمائشة رضي الله عنها في أمر الميراث . إنما هن أختك ، وإنما كان لها أخت واحدة ، ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أختي ، فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأختي ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله . وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به

السبب الثاني : أن يكون المريض مشغولا بحاله ، وبخوف عاقبته ، وإطلاع الله تعالى عليه ، فينسبه ذلك ألم المرض ، فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله . وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال . إني عنها مشغول ، وكلام أبي الدرداء إذ قال : إنما أشتكى ذنوبي . فكان تألم قلبا خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض . ويكون هذا كالصاحب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع ، فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع . فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ، ولا طعنا فيمن أكل . . . ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال هو ذكر الحي القيوم . فقيل إنما سألتك عن القوام . فقال القوام هو العلم . قيل سألتك عن الغذاء . قال الغذاء هو الذكر . قيل سألتك عن طعمة الحسد قال مالك وللجسد ! دع من تولاه أولاً يتولاه آخره ، إذا دخل عليه علة فردّه إلى صانعه . أما رأيت الصنعة إذا عيبت ودوها إلى صانعها حتى يصلحها

السبب الثالث : أن تكون اللمة مزمنة ، والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علمه موحوم النفع ، جار مجرى السكي والرقية ، فيتركه المتوكل . وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال ذكرت عادا ونموذ وفيهم الأطباء ، فهلك المداوى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك ثقة بخاصته للطب ه وقلة تجربته له ، فلا يثلب على ظنه كونه نافعا . ولا شك في أن الطبيب المجهرب أشد اعتقادا

في الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة .  
وأكثر من ترك التداوى من المهاد والزهاد هذا مستندهم ، لأنه يبق الدواء عنده شيئاً  
موهوماً لأصله ، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح  
في البعض . ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظراً واحداً ، فيرى التداوى تعمقاً  
في الأسباب كالكي والرقي ، فيتركه توكلًا

السبب الرابع : أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض ، لينال ثواب المرض  
بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليجرب نفسه في القدرة على الصبر . فقد ورد في ثواب  
المرض ما يكثر ذكره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ  
بَلَاءً ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الْقَبْدُ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صَلْبَ الْإِيْمَانِ شَدَّدَ عَلَيْهِ  
الْبَلَاءُ وَإِنْ كَانَ فِي إِيْمَانِهِ مَنَفْعٌ خَفَّفَ عَنْهُ الْبَلَاءُ » وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى جُرَّبُ  
عَبْدِهِ بِالْبَلَاءِ كَمَا يُجَرَّبُ كَأْسُكُمْ ذَهَبُهُ بِالنَّارِ فَنُتِجُ مِنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيرِ لَا يَرْبُدُّ  
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ أَسْوَدَ مُحَرَّقًا »

وفي حديث <sup>(٣)</sup> من طريق أهل البيت « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِنْ  
صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « يُجَيَّبُونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمُرِ  
الْمُتَأَلِّهِ لَا تَمْرُسُونَ وَلَا تَسْقَمُونَ » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تجدد المؤمن أصح شيء  
قلبا ، وأمره جمعا ، وتجدد المنافق أصح شيء جمعا ، وأمره قليلا ، فلما عظم الشقاء على المرض

- (١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل - الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم  
وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد  
ابن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين
- (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أعدم ذهبه . الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف
- (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه - الحديث : ذكره صاحب الفردوس  
من حديث علي ولم يخرجوه ولله في مسنده والطبراني من حديث أبي عنية إذا أراد الله عبدا يبدخيرا  
ابتلاه وإذا ابتلاه اختاره لا يترك له أهلا ولا ولدا وسنده ضعيف
- (٤) حديث نجون أن تكونوا كالحمر المصابة لا تمرسون ولا تسقمون : ابن أبي عمير في الأحكام والكتاب وأبو نعيم  
وابن عبد البر في الصباغة واليسبي في الشعب من حديث أبي طائفة وهو صدر حديث ابن الرجل  
ليكون له للفرقة عند الله - الحديث : وقد تقدم

والبلاء أحب قوم المرض واغتروه ، لبناوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة مخفية ولا يذكرها الطبيب ، ويقاسى العلة ، ويرضى بحكم الله تعالى ، ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنا نمنع المرض جوارحه . وعلموا أن صلاتهم قوداً مثلاً مع الصبر على قضاء الله تعالى ، أفضل من الصلاة قياماً مع المافية والصحة . ففي الخبر <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِمَلَائِكَتِهِ اكْتُبُوا لِعَبْدِي صَالِحَ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ فَإِنَّهُ فِي رِثَائِي إِنْ أَطْلَقْتُهُ أَبَدَلْتُهُ خَيْرًا خَيْرًا مِنْ خَلِيهِ وَذَمًّا خَيْرًا مِنْ ذَمِّهِ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ تَوَفَّيْتُهُ إِلَى رَحْمَتِي » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُنْكَرْتَ عَلَيْهِ النَّفْسُ » فقبل منه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ <sup>(٣)</sup>) . وكان سهل يقول : ترك التدوى وإن ضف من الطاعات وقصر عن الفرائض ، أفضل من التدوى لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتدوى منها . وكان يدوى الناس منها . وكان إذا رأى العبد يصلى من قود ، ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتدوى للقيام إلى الصلاة والتموض إلى الطاعات ، بسبب من ذلك ويقول : صلاته من قود مع الرضا بحاله أفضل من التدوى للقوة والصلاة قائماً <sup>(٤)</sup> . وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سمة من الله تعالى لأهل الضعف . ومن لم يدخل في شيء منه فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ، ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضييف النفس بالجوع وكسر الشهوات ، لعلهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر ، والرضا ، والتوكل ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . والمرضى لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالباً مدهشاً وقال سهل رحمه الله : هل الأجسام رحمة ، وعلل القلوب عقوبة

( ١ ) حديث أن الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فانه في رثائي . الحديث : الطبراني

من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم

( ٢ ) حديث أفضل الأعمال ما أنكرت عليه النفس : هدم ولم أجده من رواه

السبب الخامس . أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها . عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا ، فيترك التدوى خوفا من أن يسرع زوال المرض . فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا تَزَالُ أُنْمِئُ وَالْمَلِيَّةُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَخْبِيَ عَلَى الْأَرْضِ كَالْبُرْدَةِ ، أَعْلَاهُ ذَنْبٌ وَلَا خِطَّةٌ » . وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « حَتَّى يَوْمَ كَفَّارَةِ سَنَةٍ » . فقل لأنها تهد قوة سنة ، وقيل للإنسان ثلاثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها . ويحمد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم <sup>(٣)</sup> . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحلى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموم . فلم تكن الحمى تغارقه حتى مات رحمه الله . وسأل ذلك طائفة من الأنصار ، فكانت الحمى لا تزال عليهم ولما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ أَذْهَبَ اللَّهُ كَرَمَتَيْهِ لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ » قال فقد كان من الأنصار من يتمنى المعى . وقال عيسى عليه السلام . لا يكون عالما من لم يضرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله عما يرجو في ذلك من كفارة خطاياهم . : وروي أن مرمى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال . يارب ارحمه فقال تسلى كيف أرحمه فيها به أرحمه ! أي به أكثر ذنونه وأزيد في درجاته

( ١ ) حديث لا تزال الحمى والليلة بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة : أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه . وقال الصديق بدل الحمى والطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا سحر وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفاتها ولونها وأسفله ضيقة

( ٢ ) حديث حمى يوم كفارة سنة : الفصاحي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليله بدل يوم ( ٣ ) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحلى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموم . الحديث : وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري باسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أرايت هذه الأمراض تصيبنا ما لنا فيها قال كفارات قال أبي وإن قلت قال فإن شوكا فثافوقها قال فدعا أبي أن لا يغارقه الوعل حتى يموت الحديث : والطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها بالخطف عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم أنى أسألك متى لا يمضى خروجي في حبيبك ولا خروجي إلى بيتك ولا لمسجد نبيك به الحديث : والاسناد مجهول قاله ابن اللبني

( ٤ ) حديث من أذهب الله كرمته لم يرض له ثوابا دون الجنة : تهدم للرقوع منه دوت . قوله فقد كان في الأنصار من يحمي المعى .

السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفاً من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده النغلة ، والبطر ، والطغيان أو طول الأمل ، والنسويق في تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى ، وتحرك الشهوات ، وتدعو إلى المعاصي . وأقلها أن تدعو إلى التتم في المباحات ، وهو تضييع للأوقات ، وإهمال للريح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبده خيراً لم يخله عن التنبيه بالأمراض والمصائب . ولذلك قيل ، لا يخلو المؤمن من علة ، أو قلة ، أو زلة . وقد روي أن الله تعالى يقول . الفقير سحني ، والمرض فيدي أحبس به من أحب من خلقي ، فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بملاجه من يخاف ذلك على نفسه ، فالمعافية في ترك المعاصي . فقد قال بعض المارفين لإنسان . كيف كنت بسدى ؟ قال في عافية . قال إن كنت لم تمس الله عز وجل فأنت في عافية ، وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوا من المعصية ؟ ما عوفى من عصى الله . وقال علي كرم الله وجهه ، لما رأى زينة النبط بالمراق في يوم عيد : ما هذا الذي أظهموه ؟ قالوا بأمر المؤمنين هذا يوم عيد لهم . فقال كل يوم لا يمضى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى ( مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُمْ مَعْبُودُونَ <sup>(١)</sup> ) قيل الصواف ( إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ) <sup>(٢)</sup> وكذلك إذا استغنى بالمعافية وقال بعضهم إنما قال فرعون ( أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى <sup>(٣)</sup> ) لطول المعافية ، لأنه لبث أربعين سنة لم يصدع له رأس ، ولم يحجم له جسم ، ولم يضرب عليه عرق ، فدعى الربوبية ، لكنه الله ولو أخذته الشقيقة يوماً لشفلته عن الفضول فضلاً عن دعوى الربوبية وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ الذَّاتِ » وقيل : الحى رائد الموت ، فهو مذكر له ، ودافع للتسويق . وقال تعالى ( أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَاصٍ مَرَّةٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ <sup>(٥)</sup> ) قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ويقال . إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يقب قال له ملك الموت : يا غافل ، جأك متى

(١) حديث أكثرنا ذكر هازم الذات : الترمذي وقال حسن غريب والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٢) آل عمران : ١٥٢ (٣) البقرة : ٢٤ (٤) النور : ١٢٦

رسول بعد رسول فلم يجب . وقد كان الساف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال . وقالوا . لا يخافو للزمن في كل أربعين يوماً أن يروى روعة ، أو يصاب بيلة ، حتى روي أن عمار بن ياسر تزوج امرأة ، فلم تكن تعرض ، فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> عرض عليه امرأة ، فحكى من وصفها حتى لم أن يتزوجها ، فقيل ، وإنها ممرضة قط . فقال « لأحاجة لي فيها » .

«<sup>(٢)</sup> وذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع ، كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ؟ ما عرفه . فقال صلى الله عليه وسلم « إلتيك عني من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا » وهذا لأنه ورد في الخبر «<sup>(٣)</sup> ألتحي حط كل مؤمن من النار » . وفي حديث<sup>(٤)</sup> أنس وعائشة رضي الله عنهما ، قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر أئمت كل يوم عشرين مرة » وفي لفظ آخر « الذي يذكر ذنوبه فحزبه » ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها ، إذ رأوا أن أنفسهم مزبلة فيها ، لا من حيث رأوا النداء بقصائنا . وكيف يكون نقصاناً وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

## بيان

الرد على من قال ترك النداءى افضل بكل حال

فلو قال قائل : إنما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره ، وإلا فهو حال الضملاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال : يذنب أن يكون من شرط التوكل

( ١ ) حديث مرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى لم أن يتزوجها فقيل فلما ممرضة قط فقال لا حاجة لي

فيها . يجهل من حديث أنس يشعوه بأسد جيد

( ٢ ) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع

ما عرفه فقال إليك عني - الحديث : أبو داود من حديث عامر البراء أخى الحضر

همزة وفي نسخة من ليس

( ٣ ) حديث ألتحي حط كل مؤمن من النار : الزائر من حديث عائشة وأحمد من حديث أبي أمامة والطبراني

في الأوسط من حديث أنس وأبو منصور الهيثمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود

وحديث الحسن بن ضيف وإليها حسن

( ٤ ) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال لهم من ذكر الموت

كل يوم عشرين مرة : لم أقب له على نسخة



ترك الحجامه والنصد عند تبغ الدم . فإن قيل : إن ذلك أيضا شرط ، فليكن من شرطه أن تلدغه المقرب أو الحبيه فلا ينحبها عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن ، والمقرب تلدغ الظاهر ، فأني فرق بينهما . فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ، فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العنقش بالماء ولدغ الجوع بالغز ، ولدغ البرد بالجبيه . وهذا لا قائل به . ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى ، وأجرى بها سننه .

ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه ، وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلى الجابية بلتهم الخبر أن به موتاعظا ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين . فقال بعضهم لا ندخل على الوباء ، فلتكن بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل وتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت فنكون ، كمن قال الله تعالى فيهم ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْكُلُوبِ )<sup>(١)</sup> فرجموا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال ترجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه . أنصر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر : نعم نعم من قدر الله إلى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال . أرايتم لو كان لأحدكم غنم ، فبيط واديا له شعثان أحدهما مخصبة ، والأخرى مجذبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجذبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يأمر المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر . الله أكبر : فقال عبد الرحمن<sup>(١)</sup> سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إِذَا سَجَمْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ ، ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذا كيف اتفق الصعابة

( ١ ) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سجمتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه .. الحديث : وفي أوله فمكة فخرج عمر بالناس إلى الجابية وأنه يعلم أن بالشام وباء .. الحديث : رواه البخاري

كلهم على ترك التوكل ، وهو من أعلى المقامات ، إن كان أمثال هذا من شروط التوكل فإن قلت: فلم يهمل من الخروج من البلد الذي فيه الوباء، وسبب الوباء في الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر ، فلم يرخص فيه ؟  
 اعلم أنه لا خلاف في أن الفرار من المضر غير منهي عنه ، إذ الحجابة والقصد فرار من المضر، وترك التوكل في أمثال هذا مباح . وهذا لا يدل على القصور . ولكن الذي ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى ، أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاق ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق له . فإنه إذا كان فيه عفونة ، ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق ، فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن .  
 والخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذي استحكم من قبل . ولكن يتوهم الخلاص ، فيصير هذا من جنس للوهومات كالرق والطيرة وغيرهما . ولو تجرد هذا المعنى لكان منافضا للتوكل ، ولم يكن منهيًا عنه . ولكن صار منهيًا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر ، وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقي في البلد إلا المرضى الذين أقدم الطاعون ، فانكسرت قلوبهم ، وفقدوا للمتعبدين ، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام ، وهم يجزون عن مباشرتهما بأنفسهم ، فيكون ذلك سعيًا في إهلاككم تحقيقًا . وخلاصهم منتظر ، كأن خلاص الأصحاء منتظر . فلواقموا لمنكن الإقامة قاطبة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعًا بالخلاص ، وهو قاطع في إهلاك الباقيين . والمسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضًا . وللمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي . ويتمكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد ، فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ، ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون واقتفروا إلى للمتعبدين ، وقدم عليهم قوم ، فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإغاثة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا<sup>(١)</sup> شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف لأن فيه

(١) حديث تنبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف : رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد

ومن حديث جابر بإسناد ضعيف وقد تقدم

كسراً لقلوب بنية المسلمين ، وسعياً في إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة ، فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه . وغلط المبدأ والبهاد في مثل هذا كثير . وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك

فإن قلت : ففي ترك التداءى فضل كما ذكرت ، فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداءى لبنال الفضل . فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان المافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لطبقة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لتقصيره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو نصرت بصيرته عن الإطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف النافع حتى صار في حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التعاوى ، وكان التداءى يشغله عن حاله لضمه عن الجمع . فإلى هذه المائى رجعت الصوارف في ترك التداءى . وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق ، وتقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها ، إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدانها . فإنه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم نضره الأسباب . كما أن الرغبة في المال تقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالأفهي أيضا تقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجز والذهب أكل من الحرب من الذهب دونه الحجز . وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده . وكان لا يحسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم ، لا لحوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن نضره الدنيا<sup>١</sup> وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جرياً على سنن الله تعالى ، وترخيصاً لأمتة فيما تمس إليه حاجتهم ، مع أنه لا ضرر فيه . بخلاف إدخال الأموال ، فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداءى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء تأفها دون خالق الدواء ، وهذا قد

( ١ ) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . فهدم وقفه ورفض مقتايح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها

تمنى عنه . ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستمان بها على المصاعى ، وذلك منهى عنه .  
والمؤمن فى غالب الأمر لا يقصد ذلك . وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه ، بل  
من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للشفع ، كما لا يرى الماء مرويا ، ولا الخبز مشبعا . فحكم  
التداوى فى مقصوده حكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستئمان على الطاعة أو على المعصية  
كان له حكمها . وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه . فقد ظهر بالمعنى التى أوردناها  
أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل فى بعض ،  
وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال ، والأشخاص ، والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس  
شرطا فى التوكل إلا ترك الموهومات كالكى والرقي ، فإن ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالتوكلين

## بيان

أحوال التوكلين فى إظهار المرض وكتمانانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر ، وهو من أعلى المقامات ،  
لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل ، فكتمانها أسلم عن الآفات  
ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة

الأول : أن يكون غرضه التداوى . فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لافى مرض  
الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن  
المطيب أوجاعه وكان أحد بنى حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول : إنما أصف قدرة الله تعالى فى  
الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به ، وكان مكينا فى المعرفة  
فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض ، بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى  
أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا  
حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه ، لم يكن ذلك شكوى

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة  
والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روي أنه قيل لمولى فى مرضه رضى الله عنه . كيف أنت ؟  
قال بشر . فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك ، وظنوا أنه شكاية فقال . أتجند  
على الله . فأجاب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضرورة ، وتأدب فيه بأدب النبى

صلى الله عليه وسلم إياه، حيث<sup>(١)</sup> مرض علي كرم الله وجهه، فسمعه عليه السلام وهو يقول اللهم صبرني على البلاء. فقال له صلى الله عليه وسلم «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَلْغِيَ عَنْكَ اللَّهُ الْفَاقَةَ»<sup>(٢)</sup> فهذه النيات يرخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية، والشكوى من الله تعالى حرام، كما ذكرته في تحرير السؤال على الفقراء إلا بضرورة

وبعبارة الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لعل الله تعالى . فإن خلاصه قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم، ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه، لأنه ربما يوم الشكاية، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزید في الوصف على الموجود من العلة. ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه في حقه للإظهار، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء. وقد قال بعضهم من بث لم يصبر وقيل في معنى قوله (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)<sup>(٣)</sup> لا شكوى فيه. وقيل ليمقوب عليه السلام. ما الذي أذهب بصرك؟ قال مر الزمان وطول الأحران. فأوحى الله تعالى إليه. تفرقت لشكواي إلى عبادي. فقال يارب أتوب إليك. وروي عن طاووس وعاجد أنها قالوا. يكتب على المريض أنينه في مرضه. وكانوا يكرهون أن ين المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل ما لأصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه. فجعل الأنين خطيئته وفي الخبر<sup>(٤)</sup> «إِذَا مَرِضَ أَنْتَبَهُ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْظِرُوا مَا يَقُولُ لِيُؤَدِّهِ فَإِنَّ حَيْدَ اللَّهِ وَاتَّقَى يَخْبِرُ دَعْوَاهُ وَإِنْ شَكَوْا وَذَكَرُوا شَرًّا فَلَا كَذْلِكَ تَكُونُ»

وإنما كره بعض العباد الميادة خشية الشكاية. وخوف الزيادة في الكلام. فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه، فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم. منهم فضيل، وهيب، وبشر. وكان فضيل يقول أشتى أن أمرض بلا عواد. وقال. لا أكره العلة إلا لأجل اللواد. رضي الله عنه وعنهم أجمعين

ككل كتاب التوحيد والتوكل بمون الله وحسن توفيقه. يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة، والشوق، والأنس، والرضا. والله سبحانه وتعالى الموفق

(١) حديث مرض علي فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء. فقال لقد سألت

الله البلاء. فغلب الله الفاقة: تقدم مع اختلاف

(٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملائكة أنظروا ما يقول لئلا يؤدبه. الحديث

(٣) يوسف: ٨٣



كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

### كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربيع النجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تراءى قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرت، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للمكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سُبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بقاء كبريائه وعظمت. فكلمنا اهتزت للملاحظة كنه الجلال غشياً من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته، وكلمنا هتفت بالانصراف آية نودت من سرادقات الجلال صبراً أيها الآيس عن نيل الحق يحمله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ومعرفة بنار محبته. والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكال نبوته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة وقادة الحق وأزمته، وسلم كثيراً أما بعد: فإن المحبة لله هي الناية للقصوى من المقامات، والدروة العليا من الدرجات فابعد إدراك المحبة مقام الإله وهو غمرة من غمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا وأخواتها، ولا قبل للمحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالنوبة، والصبر، والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها. وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها، حتى أنكروا بعض المأماء إمكانها، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فعال الإمعان والتمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس، والشوق، ولذة المناجاة. وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر. ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن الاستغنى للعبة لإلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم الذات لذة النظر إلى وجهه الله تعالى ثم بيان منبج زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام من معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى،



ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكرامة لمصاحبه لاتناقضه ، وكذا القرار من المصاحبه ، ثم بيان حكايات وكلمات للعبدين متفرقة . فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

## بيان

شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فرض . وكيف يفرض مالا وجود له ، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وعمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطبع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ <sup>(١)</sup> ) وقوله تعالى ( وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ <sup>(٢)</sup> ) وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال <sup>(٣)</sup> أبو رزین العقيلي : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال « أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفي حديث آخر <sup>(٤)</sup> « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفي حديث آخر <sup>(٥)</sup> « لَا يُؤْمِنُ أَنْتَبَدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وفي رواية « وَمِنْ نَفْسِهِ » كيف وقد قال تعالى ( قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُنَا أَنْعَمُوا بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّنَا لَعَلَّنَا نَبْدَأَ <sup>(٦)</sup> ) الآية . وإنما جرى

﴿ كتاب المحبة والشفقة والرضا ﴾

( ١ ) حديث أبي رزین العقيلي أنه قال يا رسول الله ما الإيمان قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة في أوله

( ٢ ) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما : متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة

( ٣ ) حديث لا يؤمن العبد حتى يكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه

متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من رواه . ورواه

وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء . الاسمى فقال

لا والله نفسي بيده حتى يكون أحب إليك من نفسك فقال عمر مات الآن والله أحب إلي

من نفسي فقال الآن يا عمر

١٦٥ : البقرة : ١٦٥ : التوبة : ٢٤

ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجة فقال <sup>(١)</sup> « أحيوا الله لي يا بقذوكم به من بئمة وأحيوني لحب الله إنيائي »  
ويروى <sup>(٢)</sup> أن رجلا قال لرسول الله إني أحبك . فقال صلى الله عليه وسلم « استمده »  
لفقره « فقال إني أحب الله تعالى . فقال « استمده للبلاء » . وعن <sup>(٣)</sup> عمر رضي الله  
عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ،  
فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انظروا إلى هذا الرجل الذي نوره الله قلبه لقد رأيته  
بين أيدي يندوا به بإطيت الطمايم والشراب قد عاه حب الله ورسوله إلى ماترون »  
وفي الخبر المشهور <sup>(٤)</sup> أن إبراهيم عليه السلام قال للملك الموت إذ جاءه لقبض روحه :  
هل رأيت خيلا يمت خيله ؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت عبدا يكره لقاء حبيبه .  
فقال يملك الموت الآن فابقض وهذا لا يحده إلا عبد يحب الله بكل قلبه ، فإذا علم أن الموت  
سبب اللقاء اترعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه  
وقد قال نينا صلى الله عليه وسلم في دعائه <sup>(٥)</sup> « اللهم ازرقني حبك وحب من أحببك وحب  
ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد » . <sup>(٦)</sup> وجاء أعرابي إلى  
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال « ما أعددت لها » فقال :  
ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « أله مع من أحب » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام  
فرحهم بذلك ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى  
شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر

( ١ ) حديث أجوا الله لما يندوكم بمن نمه - الحديث : الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب

( ٢ ) حديث أن رجلا قال لرسول الله إني أحبك فقال استمده للفقر - الحديث : الترمذي من حديث عبد الله

ابن مفضل بلفظ فأعد للفقر تحفا دون آخر - الحديث : وقال حسن غريب

( ٣ ) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به  
الحديث : أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن

( ٤ ) حديث أن إبراهيم قال للملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خيلا يمت خيله - الحديث : لم أجده أصلا

( ٥ ) حديث اللهم ازرقني حبك وحب من يحبك - الحديث : تقدم

( ٦ ) حديث قال أعرابي لرسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها - الحديث : متفق عليه من حديث أنس

ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف لدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يابو حتى يقفل  
فإذا تفكر حزن ، وقال أبو سليمان الدراوي : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها  
من النعيم عنه ؛ فكيف يشتغلون عنه بالدنيا

وبروي أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر وقد نخلت أبدانهم ، وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم  
مالذي بلغ بكم ما أرى ! فقالوا الخوف من النار . فقال حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزم  
إلى ثلاثة آخرين ، فإزاهم أشد نحولا وتغيرا فقال . مالذي بلغ بكم ما أرى ! قالوا الشوق إلى  
الجنة . فقال حق على الله أن يعطيك ما ترجون . ثم جاوزم إلى ثلاثة آخرين ، فإزاهم أشد  
نحولا وتغيرا ، كأن على وجوههم المرثى من النور ، فقال : مالذي بلغ بكم ما أرى !  
قالوا نحب الله عز وجل . فقال أنتم للمقربون ، أنتم للمقربون ، أنتم للمقربون

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج ، فقلت أمتجد البرد ؟ فقال من شغله  
حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي قال : تدعى الأم يوم القيامة بأبيائها عليهم السلام ،  
فيقال يا أمة موسى ، ويا أمة عيسى ، ويا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم يتأدون بأوليائه  
الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فكاد قلوبهم تنفلق فرحا . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف  
ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلالة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين  
الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفكرة ، وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغفر الذنوب فكيف رضوانه : ارضوانه يستغرق الآمال  
فكيف حبه ! وحبه يدهش العقول فكيف وده ! ووده ينسى مادونه فكيف لطفه !  
وفي بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحق عليك كن لي محبا

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حبه  
وقال يحيى بن معاذ : ألمى أى مقيم بفنائك ، مشغول بشنائك صغيرا ، أخذتني إليك ،  
وسرلتني بحرفتك ، وأسكنتني من لطفك ، وتقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال سترأ  
وتوبة ، وزهدا ، وشوقا ، ورضا ، وجبا ، تسقينى من حياضك ، وتملئنى في رياضك ، ملازما  
لأمرك ، ومشغولا بقولك ، ولما طر شاربنى ولا ح طائرى . فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً  
وقد اعتدت هذا منك صغيراً ! افلى ما بقيت حولك ذنبة ، وبالفراغة إليك هممة ، لأنى نحب ، وكل

هـب بمحييه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاضر، وذلك أمر ظاهر، وإنما القموض في تحقيق معناه فلنستغل به

## بيان

حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بمعرفة وإدراك، إذ لا يجب للإنسان إلا ما يعرفه. ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جاد، بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلامحه ويلذه، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاام وإلقاذ. فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة ولا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها . فإذا أكل لذيذ محبوب عند اللذ به ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه . ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوي سمي مقتا . فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته

الأصل الثاني: أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لآحالة بحسب انقسام للمدركات والحواس، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات. وللطبع بسبب تلك الالذة ميل إليها، فكانت محبوبات عند الطبع السليم. فلهذا الميل في الإبصار، وإدراك البصرات الجميلة، والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في النغامت الطيبة للوزونة. ولذة الشم في الروائح الطيبة. ولذة الذوق في الطعوم. ولذة اللمس في اللين والنعومة. ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها. حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « حُبُّ إِيَّيْ مِنْ »

(١) حديث حبيب إلى من دناكم ثلاث الطيب والنساء والحديث: النبائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم

ذُنَيْبًا كُمْ ثَلَاثُ الطَّيِّبِ وَالنَّسَاءِ وَجُعِلَ قُرْهُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ « فسمي للطيب محبوباً ، ومعلوم أنه لاحظ العين والسمع فيه ، بل للشم فقط . وسمي النساء محبوبات ، ولاحظ قيمته إلا للبصر والشم ، دون الشم ، والدوق ، والسمع . وسمي الصلاة قرّة عين ، وجعلها أبلغ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مغطته القلب ، لا يدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يشغل في الخيال فلا يجب ، فإذا قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يميز عنه إما بالنقل ، أو بالنور ، أو بالقلب ، أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه وهبها . فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر . والقلب أشد إدراكاً من العين وجمال المعاني المدركة بالقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لأعماله لذة القلب بما يدركه من الأنور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى . ولا معنى للحب إلا الميل إلى مافي إدراكه لذة ، كما سيأتي تفصيله ، فلا ينكر إذا حب الله تعالى إلا من قدم به التقصير في درجة البهائم ، فلم يحاوز إدراك الحواس أصلاً

بالأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه . وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه ؟ هذا بما قد يشكل على الضمفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ، ما لم يرجع منه حظ إلى الحب سوى إدراك ذاته . والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلتبين أسباب المحبة وأقسامها

ويانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته . ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للحب ، وأي شيء أتم ملازمة من نفسه ودوام وجوده ، وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ! فذلك يحب الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت والقتل ، لا مجرد ما يخافه بعد الموت ، ولا مجرد الخذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم ، وأميت من غير نواب ولا عقاب لم يرض به ، وكان كارها لذلك . ولا يحب الموت والنسب المحض

إلا لقضاء أسمى الحياة . ومهما كان مبتلى بلاء فحبوه زوال البلاء ، فإن أحب الدم لم يحبه لأنه عدم ، بل لأن فيه زوال البلاء ، فالحلاك والدم محبوت ، ودوام الوجود محبوب . وكان أن دوام الوجود محبوب . فكمال الوجود أيضا محبوب . لأن التافص فاقداً للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى التقدر للفقود ، وهو هلاك بالنسبة إليه . والحلاك والدم محبوت في الصفات وكمال الوجود ، كما أنه محبوت في أصل القات . ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى ( وَلَنْ نَجْذِبَهُ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا <sup>(١)</sup> ) فإذا المحبوب الأول للإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله ، وولده ، وعشيرته ، وأصدقائه . فالأعضاء محبوبة ، وسلامتها مطلوبة ، لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها . والمال محبوب ، لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله ، وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء للأعيانها ، بل لارتباط حفظه في دوام الوجود وكماله بها ، حتى أنه يحب ولده وإن كان لا يتاله منه حظ ، بل يتحمل للمشاق لأجله ، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، ففقرط حبه لبقاء نفسه يجب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه ، لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً . ثم لو خير بين قله وقتل ولده ، وكان طبعه باقياً على اعتداله ، أثر بقاء نفسه على بقاء ولده . لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه ، وليس هو بقاءه المحقق . وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كثيراً بهم ، قويا بسببهم ، متجملاً بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناس المكمّل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لاحتالة . فإذا المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ، ودوام ذلك كله . والمكروه عنده ضد ذلك . فهذا هو أول الأسباب

السبب الثاني . الإحسان ، فإن الإنسان عيد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِقَاحِرٍ عَلَيَّ بَدَأَ فَيَجِبُهُ قَلْبِي » إشارة إلى أن حب القلب للمحسن انظرار لا يستطيع

( ١ ) حديث اللهم لا تجعل لكافر على هذا فيجبه قلبي : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ ابن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم

دفعه ، وهو جلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعنون ، وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود . وكال الوجود ، وحصول المخلوط التي بها ينهى الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده ، وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له ، كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها ، والطبيب محبوب لذاته بل لأنه سبب للصحة . وكذلك العلم محبوب . والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته ، والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب ، وكذلك الطعام والشراب محبوب ، والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته ، والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فإذا يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فأحب ذاته تحقيقا ، بل أحب إحسانه ، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب ، مع بقاء ذاته تحقيقا . ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه

السبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته ، لاحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه . وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بهدوامة ، وذلك بحسب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال ، وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، محبوبة لذاتها لا لتغيرها . ولا ننظر أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة ، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى فتهب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذبة ، فيجوز أن يكون محبوبا لذاته . وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب ، لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو يتأكل منها سوى نفس الرؤية . وقد

(١) حديث كان يعجب الحفزة والماء الجاري : أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الحفزة وإلى الماء الجاري واستاده ضعيف

ما تاذأ النظر إلى الأوار ، والأزهار ، والألوان الملبنة الألوان ، الحسنة القوية ، المتناسبة  
الشكل ، حتى أن الإنسان لتفزع عنه الذنوم والحموم بالنظر إليها ، لا لطلب سطو ورائد النظر .  
فهذه الأسباب مائة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يتخلو إدراكه عن لذة  
ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع . فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند  
من انكشف له جماله وجلاله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> 'إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ' .  
الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال

اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال  
إلا تناسب الخلقة والشكل ، وحسن اللون ، وكون البياض شربا بالحمرة ، وامتداد القامة ،  
إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن  
الإبصار ، وأكثر التفاهم إلى صور الأشخاص ، فيظن أن ما ليس مبصرا ، ولا متخيلا ،  
ولا متشكلا ، ولا متلونا مقدر ، فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه  
لذة ، فلم يكن محبوبا . وهذا خطأ ظاهر . فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ،  
ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ، فإننا نقول هذا خطأ حسن ، وهذا صوت  
حسن ، وهذا فرس حسن . بل نقول هذا ثوب حسن ، وهذا إنا ، حسن . فأني معنى  
حسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ! ومعاوم أن الدين  
تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النكات الحسنة الطيبة ، وما من  
شيء من المدرجات ، إلا وهو منقسم إلى حسن ، وقبيح ، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه  
هذه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه ، وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المأملة الإطناب  
فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء ، وجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له  
فإذا كان جميع كماله الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها قل من  
الحسن والجمال بقدر ما حضره ، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة  
وشكل ، ولون ، وحسن عدو ، وتيسر كرك وفر علىه . والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط

( ١ ) حديث أن الله جميل يحب الجمال : مسلم في أثناء حديث لابن مسعود



من تناسب الحروف ، وتوابعها واسنة امة ترتيبها وحسن اقطارها ، وان كل شيء ينال بليق به  
وقد يلقى بغيره مشدده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به ، فلا ينسب الى انسان ما ينسب به الفرس  
ولا ينسب الخطيب ما ينسب به الصوت . ولا تحسن الاواني ما ينسب به الثياب وكذلك سائر الاشياء  
فان قلت : فهذه الاشياء ، وإن لم تدرك جميعا بحسن البصر مثل الأصوات ، والعطوم  
فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ، فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال المحسوسات  
ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس

فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات . إذ يقال هذا خلق حسن ، وهذا  
علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجليلة يراد بها العلم ،  
والعقل ، واللغة ، والشجاعة ، والتقوى ، والكرم ، والمروءة ، وسائر خصال الخير ، وشيء  
من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الجسدية ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه  
الخلال الجليلة محبوبة ، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن  
الأمر كذلك ، أن الطباع محبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم ، وعلى حب الصحابة  
رضي الله تعالى عنهم ، مع أنهم لم يشاهدوا ، بل على حب أبواب المذاهب ، مثل الشافعي  
وأبي حنيفة ، ومالك ، وغيرهم ، حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد المشق  
فيحمله ذلك على أن يتفق جميع ماله في نصرته مذهبه ، والذب عنه ، ويخاطر بروحه في قتال  
من يظمن في إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أريق في نصرته أبواب المذاهب ، وليت شمري  
من يحب الشافعي مثلاً فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ، ولو شاهد به ما لم يستحسن صورته  
فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن  
صورته الظاهرة قد اقلبت تراباً مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى  
وغزاة العلم والأحاطة بمدارك الدين ، واتهاضه لإفادة علم الشرع ، ولنشره هذه الخيرات في العالم  
وهذه أمور جميلة ، لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة ، فأما الحواس فقاصرة عنها ، وكذلك  
من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه  
يفضله ويتعصب له ، فلا يحجم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى

والشجاعة والكرم وغيره ، فعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلاً ، ليس  
يجب عظمه وجمه وجله وأمرافه وشكله ، إذ كل ذلك زال وتبدل واندم ، ولكن بقي  
ما كان الصديق به صديقاً ، وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجلية ، فكان  
الحب باقياً بقاء تلك الصفات ، مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع مجتمها إلى العلم  
والقدرة ، إذا علم حقائق الأمور ، وقدر على حمل نفسه عليها ، بقهر شهواته ، فجميع خلال  
الغير ينشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومعلمها من جملة البدن جزء  
لا يتجزأ ، فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر  
للبصر حتى يكون محبوباً لأجله . فإذا أجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة  
الجليلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حباً ، فالمحبوب مصدر السير الجلية ، وهي الأخلاق  
الطيدة ، والفضائل الشريفة ، وترجع مجتمها إلى كمال العلم والقدرة ، وهو محبوب بالطبع  
وغير مدرك بالحواس ، حتى أن العبي الخلق وطبعه إذا أردنا أن نحجب إليه فائياً وحاضراً حياً  
أو ميتاً لم يكن لنا سبيل إلا بالإطباب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال  
الطيدة ، فهما اعتقد ذلك لم يتألك في نفسه ، ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب حب الصحابة  
رضي الله تعالى عنهم ، وبغض أبي جهل ، وبغض إبليس لعنه الله ، إلا بالإطباب في وصف المحام  
والمقاييس التي لا تدرك بالحواس ، بل لما وصف الناس حاتمًا بالسخاء ، ووصفوا خالدًا بالشجاعة  
لأحبهم القلوب حباً ضرورياً ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ  
يتأله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل  
والإحسان ، وإضافة لغير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المجبن  
لبعد الزاوي ، ونأي الديار ، فإذا ليس حب الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه ، بل الحسن  
في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب  
والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتذكر الصور الظاهرة بالبصر الظاهر  
والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يتركها ولا يتذنها ولا يحبها  
ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للعاني  
ألبانة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشا مصوراً على الحائط لجمال

صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .  
 السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب إذ ربّ شخصين تتأكّد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْنَتَانِ تَعَارَفَا وَمَا تَنَافَرَا كَرِهَتْهُمَا اخْتَلَفَا» وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصلوة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه ، لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب ، فإذا ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه ، وحب من أحسن إليه فيأرجع إلى دوام وجوده وبين على بقاءه ودفع المهلكات عنه ، وحب من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه ، وحب لكل ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنية وحب من بينه وبينه مناسبة خفيفة في الباطن ، فلم اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لامحالة ، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التدبير ، محسن إلى الخلق ، ومحسن إلى الوالد ، كان محبوبا لامحالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات السكال كان الحب لامحالة في أعلى الدرجات ، فليبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة الحقيقية إلا الله سبحانه وتعالى

## بيان

أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود ، لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ، ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، فلا يتجاوز به إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن يرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى يجمعتها ، ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم ونحوهم ، وهو

(١) حديث فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اخْتَلَفَا: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصلوة

بجاز محض ، لاحقيقة له ، ومها ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضمناه  
 بالمقول والقلوب ، من استحالة حب الله تعالى تحقيقا ، وبأن أن التحقيق يقتضى أن  
 لا تحب أحدا غير الله تعالى . فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاؤه  
 وكأله ، ودوام وجوده ، وبفضله لهلاكه ، وعدمه ، وتقصانه ، وقوامه كآله ، فهذه جملة كل  
 شيء ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى ، فإن من عرف نفسه  
 وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته ، وإنما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكآله  
 وجوده من الله ، وإلى الله ، وبالله ، فهو المختزع للوجود له ، وهو المبتق له ، وهو المكمل  
 لوجوده بخلق صفات الكمال ، وخلق الأسباب الموصلة إليه ، وخلق الهداية إلى استكمال  
 الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محو محض ، وعدم  
 صرف ، لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده ، لولا فضل الله  
 عليه بالإبقاء . وهو ناقص بمد الوجود ، لولا فضل الله عليه بالتكميل خلقت

وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام ، إلا القيوم الحي الذى هو قائم بذاته ،  
 وكل ما سواه قائم به ، فإن أحب المارف ذاته ، ووجود ذاته مستعاد من غيره ، فبالضرورة  
 يجب المفيد لوجوده ، وللدائم له أن عرفه خالقا موجدا ، ومختزعا مبقيا ، وقيوما بنفسه ،  
 ومقوما لغيره ، فإن كان لا يجب فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة ، فتتقدم بانعدامها  
 وتضعف بضعفها ، وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف  
 ربه ، أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب  
 ربه ، الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى ببحر الشمس ، لما كان يجب الظل فيجب  
 بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو  
 كالظل بالإضافة إلى الشجر ، والنور بالإضافة إلى الشمس ، فإن الكل من آثار قدرته ،  
 ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ، ووجود الظل تابع للشجر ،  
 بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهاام العوام ، إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس ، وناقض  
 عنها ، وموجود بها ، وهو خطأ محض ، إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من  
 مشاهدة الأبصار ، أن النور حاصل من قدرة الله تعالى ، اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس

والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الفرض من الأمثلة التفهيم ، فلا يطلب فيها الحقائق ، فإذا كان حسب الإنسان نفسه ضروريا ، فجهل من به قوامه أولا ودوامه ثانيا ، في أصله وصفاته ، وظواهره وباطنه ، وجواهره وأعراضه أيضا ضروري أن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن هذا الحب ، فلا أنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه اليبهائم في التمتع به ، والاتساع فيه دون عالم الملكوت ، الذي لا يبطأ أرضه ، إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربته في الصفات من الملائكة ، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم اليبهائم وأما السبب الثاني : وهو حبه من أحسن إليه ، فواسم بآله ولاطفه بكلامه ، وأمدته بموته ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وقام بدفع شر الأشرار عنه ، واتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه ، فإنه محبوب لامحالة عنده ، وهذا بعينه يقتضى أن لا يجب إلا الله تعالى ، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فليست أعداها ، إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى (وَإِنْ تَدُونا نعمة الله لَا تُحْصوها<sup>(١)</sup>) وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ، ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى ، ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه وممكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه به وبآله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فن الذي أنعم بخلقته ، وخلق ماله ، وخلق قدرته ، وخلق إرادته وداعيته ؛ ومن الذي حببك إلى صرف وجهه إليك ، وألقى في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك ، ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعي ، وقرّر في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا في التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالحسن هو الذي اضطره لك وسخره ، وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل . وأما يده

فواسطة يصل بها إحسان الله إليك ، وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه ، فإن اعتقدهت عسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن ، لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه أما الإحسان إلى غيره فعال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل ، إما أجل وهو الثواب ، وإما عاجل وهو المنّة والاستخار ، أو الثناء والصيت ، والاشتهار بالسخاء والكرم ، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقي ماله في البحر ، إذ لا غرض له فيه ، فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصودا ، بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب ، بسبب قبضك المال ، فقد استغفرك في القبض لتوصل إلى غرض نفسه . فهو إذا محسن إلى نفسه ، وممتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجع عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا أبنته فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين

أحدهما : أنه مضطر بتسليط الله الدواعي عليه ، فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى شازن الأمير ، فإنه لا يرى عسنا بتسليم خلة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة ، والامتثال لما يرسمه ، ولا يقدر على مخالفته . ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك ، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله ، حتى سلب الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أن حظه دينا ودنيا في بذله فيذله لذلك

والثاني : أنه ممتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يبد البائع عسنا لأنه بذل بموض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب ، اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط الموض أن يكون عينا ممتولا ، بل المخطوط كلها أعراض تستعقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان في الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى البازل وذلك محال من غير الله سبحانه ، فهو الذي أنعم على المالكين إحسانا إليهم ، ولأجلهم ، لا لخطو غرض يرجع إليه ، فإنه تعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع

الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والإحسان، والطول والامتنان، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى، إذ الإحسان من غيره محال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الإحسان بشرط الجبل بمعنى الإحسان وحقيقته وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع ، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيع بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في فطر من أقطار الأرض بعيد عنك ، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متعكث شرير وهو أيضا بعيد عنك ، فإنك تجدد في قلبك تفرقة بينهما ، إذ نجد في القلب ميلا إلى الأول ، وهو الحب ونفرة عن الثاني ، وهو البغض ، مع أنك آيس من خير الأول ، وآمن من شر الثاني ، لا تقطع طمعتك عن التوغل إلى بلادها فهذا حب المحسن من حيث إنه عمن فقط لا من حيث إنه عمن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلق أو لا بإيجادهم ، وثانيا بتكليفهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم ، وثالثا بترفيهم وتنميتهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ، ورابعا بتجميلهم بالزوايا والزوائد التي هي في مظان زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم . ومثال الضروري من الأعضاء الرأس ، والقلب ، والكبد ومثال المحتاج إليه العين ، واليد ، والرجل ، ومثال الزينة استقواس الحاجبين ، وحرمة الشفتين ، وتلوذ العينين ، إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ، ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء ، ومثال الحاجة الدواء ، واللحم ، والفواكه ، ومثال المزاي والزوائد خضرة الأشجار ، وحسن أشكال الأنوار والأزهار ، ولقائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات ، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى القرش . فإذا هو المحسن ، فكيف يكون غيره عمننا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فإنه خالق المحسن ، وخالق المحسن ، وخالق الإحسان ، وخالق أسباب الإحسان . فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى

وَمَا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا بِهِ حُبٌّ كُلُّ جِبَالِ أَذَاتِ الْجَمَالِ ، لَا لُحْظَ بِنَالٍ مِنْهُ وَرَاءَ إِدْرَاكِ  
 الْجَمَالِ ، فَقَدْ بَدَأَ أَنْ ذَلِكَ مَحْمُولٌ فِي الطَّبَاعِ ، وَأَنْ الْجَمَالَ يَنْقَسِمُ إِلَى حَالِ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ  
 الْمُدْرَكَةِ بِحَسْرِ الرُّأْسِ ، وَإِلَى حَالِ الصُّورَةِ الْمُدْرَكَةِ الْبَاطِلَةِ الْمُدْرَكَةِ بِحَسْرِ الْقَلْبِ وَتَوِيرِ الْبَصِيرَةِ  
 وَالْأَوَّلُ يَدْرِكُهُ الصَّبِيانُ وَالْبَهَائِمُ ، وَالثَّانِي يَخْتَصُّ بِدْرَكِهِ أَرْبَابُ الْقُلُوبِ ، وَلَا يَشَارِكُهُمْ فِيهِ  
 مَنْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكُلُّ جِبَالٍ فَهُوَ مَحْبُوبٌ عِنْدَ مَدْرَكِ الْجَمَالِ . فَإِنْ كَانَ  
 مَدْرَكَ بِالْقَلْبِ فَهُوَ مَحْبُوبُ الْقَلْبِ . وَمِثَالُ هَذَا فِي الْمَشَاهِدَةِ حُبُّ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْعُلَمَاءِ ، وَذَوِي  
 الْمَكَارِمِ السَّنِيَةِ وَالْأَخْلَاقِ الرُّضِيَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَتَصَوِّرٌ مَعَ تَشَوُّشِ صُورَةِ الْوَجْهِ وَسَائِرِ  
 الْأَعْضَاءِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِحَسَنِ الصُّورَةِ الْبَاطِلَةِ ، وَالْحَسَنُ لَا يَدْرِكُهُ . نَعَمْ يَدْرِكُ بِحَسَنِ آثَارِهِ  
 الصَّادِرَةِ مِنْهُ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا دَلَّ الْقَلْبُ عَلَيْهِ مَالَ الْقَلْبُ إِلَيْهِ فَأَجَبَهُ ، فَمِنْ مَحَبِّ رَسُولِ  
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، أَوْ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَلَا يَحْبِبُهُمْ  
 إِلَّا لِحَسَنِ مَظَاهِرِهِ لَهُمْ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِحَسَنِ صُورِهِمْ ، وَلَا لِحَسَنِ أَفْئَالِهِمْ ، بَلْ دَلَّ حَسَنُ  
 أَفْئَالِهِمْ عَلَى حَسَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ الْأَفْئَالِ ، إِذَا الْأَفْئَالُ آثَارُ صَادِرَةٍ عَنْهَا ، وَدَالَّةٌ  
 عَلَيْهَا . فَمِنْ رَأَى حَسَنَ تَصْنِيفِ الْمُنْتَظَفِ ، وَحَسَنَ شِعْرِ الشَّاعِرِ ، بَلْ حَسَنَ نَقْشِ الْقَاشِ ،  
 وَبَنَاءِ الْبِنَاءِ ، انْكَشَفَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَفْئَالِ صِفَاتُهَا الْجَمِيلَةُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي يَرْجِعُ حَاصِلُهَا عِنْدَ  
 الْبَحْثِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ . نَعَمْ كَمَا كَانَ الْمَعْلُومُ أَشْرَفَ وَأَتَمَّ جَمَالًا وَعَظَمَةً ، كَانَ الْعِلْمُ أَشْرَفَ  
 وَأَجْمَلَ . وَكَذَا الْمَقْدُورُ كَمَا كَانَ أَعْظَمَ رَتْبَةً وَأَجَلَ مَنَزَلَةً ، كَانَتْ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ أَجَلَ رَتْبَةً وَأَشْرَفَ  
 قَدْرًا . وَأَجَلَ الْمَعْلُومَاتِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَلَا جَرَمَ أَحْسَنَ الْمَعْلُومَاتِ وَأَشْرَفَهَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى  
 وَكَذَلِكَ مَا يَخْتَارُهُ وَيَخْتَصُّ بِهِ فَتَرْفَعُ عَلَى قَدَرِ تَلَقُّهِ بِهِ

فَإِذَا جِبَالُ صِفَاتِ الصَّدِيقِينَ الَّذِينَ نَحْبِبُهُمُ الْقَاوِمَ طَبْعًا تَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةِ أُمُورٍ

أَحَدُهَا : عِلْمُهُمُ بِاللَّهِ ، وَمِلَاتُكُنْهُ ، وَكِتَابُهُ ، وَرَسُولُهُ ، وَشَرَائِعُ أَنْبِيَائِهِ

وَالثَّانِي : قَدَرَتُهُمْ عَلَى إِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَإِصْلَاحِ عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِشَادَةِ وَالسِّيَاسَةِ

وَالثَّلَاثُ : تَزَمُّمُهُمْ عَنِ الرَّذَائِلِ ، وَالْجَبَائِلِ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالِيَةِ الصَّارِفَةِ عَنْ سَبْقِ الْخَيْرِ ،

الْجَازِبَةِ إِلَى طَرِيقِ الشَّرِّ . وَبِثَلِّ هَذَا يَحْبِبُ الْأَنْبِيَاءَ ، وَالْعُلَمَاءَ ، وَالْخُلَفَاءَ ، وَالْمُلُوكَ الَّذِينَ يَمُرُّ

أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْكَرَمِ . فَاتَّيَبَ هَذِهِ الصِّفَاتُ إِلَى صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى



أما الم فإين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خافية عن النهاية ، حتى لا يرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل ( وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(١)</sup> ) بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نخله أو بعوضه لم يطاموا على عشر عشر ذلك ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذي علمه الخلاق قديم فتعليمه علومه ، كما قال تعالى ( خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ أَلْبَيَانٌ <sup>(٢)</sup> ) فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً ، وكان هو في نفسه زينة وكالاً الموصف به ، فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه . بل من عرف أعم أهل زمانه وأجمل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم ، وإن كان الأجهل لا يتخلو عن علم ما تقامه مبدئته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلق أكثر من التفاوت بين علم أعم الخلق وأجملهم ، لأن الأعم لا يغفل الأجهل إلا بساوم ممدودة متناهية ، يتصور في الأماكن أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلق كلهم خارج عن النهاية ، إذ مملوئها لانهاية لها بمعلومات الخلق متناهية

وأما صفة القدرة فهي أيضاً كمال ، والمعجز نقص ، فكل كمال ، وبهاء ، وعظمة ، ومجد ، واستيلاء ، فإنه محبوب ، وإدراكه لذيق ، حتى أن الإنسان ليسع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله تعالى عنهما ، وغيرهما من الشجعان ، وقد رتبها واستيلاءها على الأقران ، فيصادف في قلبه اهتزازاً ، وفرحاً ، وارتياحاً ضرورياً بمجرد دلالة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للتصف به ، فإنه نوع كمال . فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسمهم ملكاً ، وأقواماً بطشاً ، وأقهرهم للشهوات ، وأقهرهم لحباثات النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، ما انتهى قدرته ، وإنما غاية أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور . وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً ولا ضراً ، ولا نفعا

بل لا يقدر على حفظ عينه من المص ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض . ولا يحتاج إلى عذ ما ينجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا يتعلق به قدرته من ملكوت السموات ، وأفلاكها ، وكواكبها ، والأرض وجبالها ، وبحارها ، ورياحها ، وصواعقها ، ومعادنها ، ونباتها ، وحيواناتها ، وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفسه ، بل الله خالقهم وخالق قدرته ، وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك . ولو سلط بموصا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للمبد قدرة إلا بتسكين مولاه ، كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال ( إِنَّا مَكْنَأُكَ فِي الْأَرْضِ <sup>(١)</sup> ) فلم يكن جميع ملكه وسلطته إلا بتسكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض ، والأرض كلها مدبرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التي يحيط بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدبرة ، ثم تلك التبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبدا من عباده تعالى لقدرته ، وسياسته ، وتمكينه ، واستيلائه ، وكال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو الجبار القاهر ، والعليم القادر ، السموات مطويات بيده ، والأرض وملكها وما عليها في قبضته ، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وإن خلق أمثالهم أنت مرة لم يبي مخلوقا ، ولا يسه لنوب ولا فتور في اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أنما قدرته ، فله الجلال والبهاء ، والمنظمة والكبرياء ، والقهر والاستيلاء . فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص ، والتقديس عن الرذائل والخبائث ، فهو أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة . والأبياء والصديقون وإن كانوا منزعين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا بالواحد الخالق الملك القدوس ، ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن تقائص بل كونه عاجزا ، مخلوقا ، مسخرا ، مضطرا ، هو عين العيب والنقص ، فالكمال فهو وحده

وليس لنبره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينم جهته الكمال على غيره  
فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبداً مسخر النبره ، قائماً بنبره ، وذلك حال  
في حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص ، المقدس عن البيوب ، وشرح وجوه  
التقدس والتنزه في حقه عن النقائص بطول ، وهو من أسرار علوم المكاشفات ، فلا نطول بذكره  
فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبباً ، فلا تم حقيقته إلا له ، وكما لا غيره وتزعمه  
لا يكون مطلقاً ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصاً ، كما أن الفرس كمالاً بالإضافة إلى  
الحمار ، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس . وأمل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون  
في درجات النقصان . فإذا الجليل محبوب ، والليل المطلق هو الواحد الذي لا يده ، الفرد  
الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، النبي الذي لا حاجة له ، القائد الذي يفعل ما يشاء  
ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، المالم الذي لا يرب عن علمه مثقال  
ذرة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أصاق الجبارة ،  
ولا يغفل من سلطته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول لوجوده ، الأبدى الذي  
لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان المدم حول حضرته ، القيوم الذي  
يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والجواري  
والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والمسلوك ، ذو الفضل والجلال ،  
والبهاء والجمال ، والقدرة والكمال ، الذي تنحير في معرفة جلاله العقول ، وتغرس في وصفه  
الأنسنة ، الذي كمال معرفة المارفين الاعتراف بالمعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء  
الإقرار بالتصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين « لا آصبي  
ثاء عليك أنت كذا أثبتت على نفسي » وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه  
المعجز عن درك الإدراك إدراك ، سبحانه من يحمل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالمعجز عن معرفته  
فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى بتحقيقه ويجعله مجازاً ، أينكر أن هذه  
الأوصاف من أوصاف الجلال والمحامد ، ونعمت الكمال والمحسن ، أو ينكر كون الله تعالى  
موصوفاً بها ، أو ينكر كون الكمال والجمال ، والبهاء والمظنة ، محبباً بالطبع فتنم أدركه ؟

( ١ ) حديث لأحس ، ملك أنت كائنيت على نفسك : نعم

فسبحان من احتجب عن بصائر العيان غيره على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقته له منه الحسن ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مساح المحسوسات وشبهات البهائم يترددون ، يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم من الآخرة غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون

فالجب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان ، لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . إن أود الأوداء إلي من عبدني بنيران ، ولكن يعطى البروية حقها . وفي الزبور : من أعظم ممن عبدني لجنة أو نار ، لو لم أخلقجنة ولا نارا لم أكن أهلا أن أطاع امرئ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد غلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة ، فقال لهم . غلوا تخفم وغلوا تارجتم . وممن يقوم آخرون كذلك فقالوا لمعبده حباه وتمطيا لجلاله ، فقال . أتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم .

وقال أبو حازم . إنى لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب ، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالأمير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفي الخبر <sup>(١)</sup> « لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا » لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل »

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة للمشكلة ، لأن شبه الشيء منجذب إليه ، والشكل إلى الشكل أميل . وذلك ترى الصبي يألف الصبي ، والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه ، ويفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالمالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة ، وتشهده الأخبار والآثار ، كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصبغة فيطلب منه

وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر ، كمناسة الصبي للصبي في معنى الصبا . وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه ، كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ، أو طمع في مال أو غيره ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « أرواح الجنود مجتذعة فما تكافؤ منها اختلف وما تنكّر منها اختلف » فالتماثل هو التماسب ، والتناكر هو التباين .

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء . لم يعط أجرا لم يعمل : لأجله أصلا

وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال . بل إلى ممان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب ، وبعضها لا يجوز أن يسطر . بل يترك تحت غطاء النبرة حتى يمر عليه السالكون للطريق إذا امتكأوا شرط السلوك . فالذى يذكر هو قرب المبد من ربه عز وجل في الصفات التى أمر فيها الاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتساب عماد الصفات التى هي من صفات الإلهية ، من العلم ، والبر ، والإحسان ، والطف ، وإفانسة الخير ، والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة . فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لا بمعنى طلب القرب بالسكان ، بل الصفات وأما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الأدمي ، فهي التى يوصي إليها قوله تعالى ( وَيَتَذَكَّرُكَ عَنِ الزَّوْجِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ) (١) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى ( فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ) (٢) ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى ( إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ) (٣) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بذلك المناسبة . وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » حتى ظن القاصرون أن لاصورة إلا الصورة الظاهرة للمدر كآل حواس ، فشبها وجسموا . وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة (٥) بقوله تعالى لموسى عليه السلام : مرضت فلم تمدني فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبيد فلان فلم تمده ولوعده وجدتنى عنده : وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على التوابع بعد أحكام القرائن كما قال الله تعالى (٦) « لَا يَزَالُ يَقْرَبُ الْقَبْدُ إِلَى الْتَوَافُلِ حَتَّى أَجِبَهُ فَإِذَا أَجَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ »

وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه ، فقد منحز الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى

(١) حديث أن الله خلق آدم على صورته . تقدم

(٢) حديث قوله تعالى مرضت فلم تمدني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان - الحديث : تقدم

(٣) حديث قوله تعالى لا يزال يقرب القبد إلى التوافل حتى أجبه الحديث الجنائز من حديث أبي هريرة . تقدم

(٤) الإسراء : ٨٥ (٥) الحج : ٣٠ (٦) من : ٢٦

التشبيه الظاهر ، وإلى غايتين مسرفين جاوزوا حد التناسبة إلى الاتحاد ، وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم أننا الحق . وصل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله . وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاموت . وقال آخرون اتعبد به . وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتثليل ، واستحالة الاتحاد والحلول ، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر ، فهم الأفلون ولعل أبالحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذ غلبه الوجد في قول القائل  
لازلت أنزل من وداذك منزلا . تتحيز الأبواب عند نزوله

فلم يزل يمدق في وجدته على أجرة قد قطع قصبه أوبق أصوله حتى تشققت قدماه وتوردتا ومات من ذلك ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها ، وهو أعزها ، وأبعداها ، وأقلها وجودا فبهذه هي العلومة من أسباب الحب . وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى بتحقيقها لا مجازا . وفي أعلى الدرجات لا في أدناها . فكان المقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى قطع ، كما أن المقول الممكن عند العيان حب غير الله تعالى قطع . ثم كل من يحب من الخلق يبيس من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب ، والشركة نقصان في الحب ، وغض من كاله ، ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى ، فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي هاية الجلال والكمال ، ولا شريك له في ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إسكانا ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة ، فلا يتطرق النقصان إلى حبه ، كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته ، فهو المستحق إذ الأصل المحبة وليكال المحبة استحقاقا لا يسام فيه أصلا

## بيان

أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

لعل أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والنفائز ، ولكل قوة وغريزة للذة ، ولذتها في نيلها تمتنضي طبعها الذي خلقت له ، فإن هذه النزائز مراكبت في الإنسان عيشا ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للنشيق والانتقام ، فلا جرم للذات في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى

طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل النذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها فى نيل هذا النذاء الذى هو مقتضى طبيعها . وكذلك لذة السمع ، والبصر ، والشم ، فى الابصار ، والاستماع ، والشم . فلا تخلو غريزة من هذه الفرائز ، عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى ، لقوله تعالى ( أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ )<sup>(١)</sup> وقد تسمى العقل ، وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأشياء . فإن الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المسمى ، لأن الضعيف يطلب المسمى من الألفاظ ، وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن ، بصفة به يدرك المسمى التى ليست متغيرة ولا محسوسة كإدراكه خلق المالم ، أو افتقاره إلى خالق قديم ؛ مدبر حكيم ، موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا ؛ بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم ، وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ، فلا ينبغى أن ندم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ، فقتضى طبيعها المعرفة ، والملم وهي لذتها ، كما أنه مقتضى سائر الفرائز هو لذتها . وليس ينبغى أن فى العلم والمعرفة لذة ، حتى أن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شيء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شيء حقير ينتم به . وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحفيرة ، فالعالم باللعب بالشرط ينج على خسته لا يطبق المكوت فيه عن التمليل ، وينطلق لسانه بذكر ما يمدسه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية ، وهى منتهى الكمال

ولذلك يرتاح الطبع إذا أتى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الشئ كمال ذاته وكمال علمه ، فيعجب بنفسه ويلتذبه .

ثم ليست لذة العلم بالحراثة والمجاولة كلذة العلم بسياسة الملك وتدير أسرار الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكه ، وملكوت السموات

والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى أن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة ، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره في رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بواطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألد من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيراً ببواطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألد من علمه ببواطن أسرار الوزير ؟ وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد ، وحببه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم :

فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكل ، والأشرف ، والأعظم فالعلم به ألد المعلوم لأحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل في الوجود شيء أجل ، وأعلى ، وأشرف وأكمل ، وأعظم ، من خالق الأشياء كلها ومكملها ، ومزينها ، ومبدئها ، ومميدها ، ومديرها ، وممرتها ، وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك ، والكمال ، والجلال ، والبهاء ، والجلال ، أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟

فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الإطلاع على أسرار الربوبية ، والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات ، هو أعلى أنواع المعارف والإطلاعات ، وألدها ، وأطيبها ، وأشدها ، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الانصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يسظم به الفرح ، والارتياح ، والاستبشار

وهذا تبين أن العلم لئيد ، وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وتديره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين . فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، أعنى لذة الشهوة والغضب ، ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولاً ، كمخالفة لذة الوقاع لذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرئاسة وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المنتظم من الجماع للذة الفاجر للشهوة ، ومخالفة لذة النظر إلى الوجه الجليل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه في الجمال . وإنما تعرف أقوى اللذات



بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن الخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها ، وبين استنشاق روائح طيبة ، إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها أئذ عنده من الروائح الطيبة . وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل ، واستمر اللاعب بالشطرنج على اللب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح الذات ، فنمود ونقول :

الذات تنقسم إلى ظاهرة كالذات الحواس الحس ، وإلى باطنة كالذات الرياضة والغلبة ، والكرامة والملم ، وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ، ولا للأنف ، ولا للآذن ، ولا للعس ، ولا للذوق . والمغاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من الذات الظاهرة . فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياضة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان الخير خيس الهمة ، ميت القلب ، شديد الهمة ، اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان عليّ الهمة ، كامل العقل ، اختار الرياضة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاخياره للرياضة يدل على أنها أئذ عنده من المضمومات الطيبة . نعم النافس الذى لم تكمل معانيه الباطنة بمد كالصبي ، أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمتوه ، لا يبعد أن يؤثر لذة المضمومات على لذة الرياضة . وكأ أن لذة الرياضة والكرامة أغلب الذات على من جاوز نقصان الصبا والتمه ، فلذة معرفة الله تعالى ، ومطالعة جمال حضرة الربوبية ، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية أئذ من الرياضة التى هي أعلى الذات النالبة على الخلق غاية العبارة عنه أن يقال فلا تلم نفس ما أخفى لهم من قرأ عين ، وإنه أعد لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل ، والتفرد ، والفكر ، والذكر ، وينغمس فى بحار المعرفة ، ويترك الرياضة ، ويستحق الخلق الذين يرأسهم لعلهم بفناء رياسته ، وفناء من عليه رياسته ، وكو نه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها ، وكو نه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفا وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ، ومطالعة صفاته وأفعاله

ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن المزاومات والمكدرات ، متسعة للتواردن عليها ، لاتضيّق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير للسماوات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال المعارف بطلتها في جنة عرضها السماوات والأرض ، يرتفع في رياضها ، ويقطف من غارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ غار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة . ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم عل معرفة الله تعالى ، وعلمها الروح الذي هو أمر رباني سماوي ، وإنما الموت يغير أحوالها ، ويقطع شواغلها وعوائقها ، ويخلصها من حبسها ، فأما أن يدمرها فلا . ( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرَحِبْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ <sup>(١)</sup> ) الآية . ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة ، فإن للمعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر <sup>(٢)</sup> أن الشهيد يتنقّى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة ، وأن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء

فلذا جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ميدان المعارف ، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بحسبه وشخصه ، فهو من مطالبة جمال الملكوت في جنة عرضها السماوات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بمضمهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون في سمة منزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم وسعة معارفهم وم درجات عند الله . ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم

فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنية ، أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لاتكون لهيمة ، ولا لصبي ، ولا لمتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون للذوى الكمال مع لذة الرياسة ولصكن يؤثرون الرياسة

فأما معنى كون معرفة الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملكوت سمواته ؛ وأسرار ملكه

( ١ ) حديث ان الشهيد يتنقى أن يرد في الآخرة الى الدنيا ليقول مرة أخرى - الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء - الحديث

أعظم لذة من الرياسة ، فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاتها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا تطلب له ، لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات وجعان لذة الواقع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجعانه على لذة شم البنفسج عند المنين لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة . ولكن من سلم من آفة الغنى ، وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف

ولم يرى طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية ، فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وأحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضا معارف وعلوم ، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية . فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه ، وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشئ اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتمتع من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره . وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينهك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ! ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا عوف أي شئ هاجلك إلى العباداة والاعتقاط عن الخلق ؟ فسكت . فقال ذكر الموت ؟ فقال وأي شئ الموت ؟ فقال ذكر القبر والبرزخ ؟ فقال وأي شئ القبر ؟ فقال خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال وأي شئ هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحبته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفلك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوقا بطلب الرب تعالى ، فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما نمل أبو نصر النار ، وبعد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان ويشران قلت فأنت ؟ قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب ، فأعطاني النظر إليه

وعن علي بن الموفق قال : رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة . فرأيت رجلا قاعدا على مائدة ، ومكان عن يمينه . وشماله يلقمناه من جميع الطيبات وهو يأكل . ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس ، فيدخل بعضا ويرد بعضا . قال : ثم جاوزتها

إلى حظيرة القدس ، فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرّف ، فقلت لرضوان : من هذا ؟ فقال معروف الكرخي ، عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبّا له ، فأبّاه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لربّاعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت ما عبديته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبديته حبّا له وشوقا إليه . وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حب الهوى      وجبا لأنك أهلا لنا كما  
فأما الذي هو حب الهوى      فشغلي بذكرك عمن سواكا  
وأما الذي أنت أهل له      فكشفك لي الحجب حتى أراك  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي      ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بمحفوظ العاجلة ، وبمنحها لها ما هو أهل له الحب لجلاله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الجبين وأقوامها . ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها <sup>(١)</sup> رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ما كيا عن ربه تعالى « أَعَدَدْتُ لِمُبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ » وقد تمجّل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الناية . ولذلك قال بعضهم : إني أقول يارب يا الله ، فأجد ذلك على قلبي أنقل من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه ! وقال : إذا بلغ الرجل في هذا العلم الناية رما ما خلق بالحجارة . أي يخرج كلامه عن حد عقولهم ، فيرون ما يقولون جنونا أو كفرا

فقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما تخفى لهم منها ، وإذا حصلت انمحقت الهوى والشهوات كلها ، وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لسكال نعيمه ، وبلوغه الناية

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم ما كيا عن ربه تعالى أعددت لمبادي الصالحين ما لا عين رأت - الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة .

التي ليس فوقها غاية. وليست شعري من لم يفهم الاحب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه  
الله تعالى، وماله صور ولا يشكل، وأي معنى لو عدا الله تعالى به عبادته، وذكره أنها أعظم النعم ابل  
من عرف الله عرف أن الذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قاله بعضهم

كانت قلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأيتك العين أهوائ

فصاوي يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الوردى مذ صرت مولائ

تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك ياديني ودنياي

ولذلك قال بعضهم

وهجره أعظم من نار ووصله أطيّب من جنة

وما أرادوا بهذا إلا إشار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح.

فإن الجنة معدن تتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط

ومثال أطوار الحلق في لذاتهم ما ذكره، وهو أن الصبي في أول حركته وتعبه يظهر

فيه غريزة بهايستلذ اللب واللب، حتى يكون ذلك عنده ألد من سائر الأشياء. ثم يظهر

بعده لذة الزينة وليس الثياب وركوب الدواب، فيستحقر معها لذة اللب. ثم يظهر بعده

لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب، فيستحقر معها لذة اللب. ثم يظهر بعده لذة

الوقاع وشهوة النساء، فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها. ثم تظهر لذة الرئاسة والمار

والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا، وأعلامها، وأقوامها، كما قال تعالى (اعلموا أننا آتيا لحياة

الذين يآلئب بهم وهو زينة وتفاخر بينكم وتكاثر) الآية، ثم بعد هذا تظهر غريزة

أخرى يدرك بها معرفة الله تعالى، ومعرفة أفعاله، فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر

هو أقوى، وهذا هو الأخير، إذ يظهر حب اللب في من التميز، وحب النساء والزينة

في من البلوغ، وحب الرئاسة بعد العشرين، وحب المارم بقرب الأربعين، وهي الناية

العلية. وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللب ويشغل بعلاية النساء وطلب الرئاسة

فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشغل بمعرفة الله تعالى، والمارفون

يقولون: إن تبخروا منا فإننا نحتر منكم كما تبخرون فسوف تبخرون

## بيان

السبب في زيادة النظر في لغة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن للمدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال ، كالصور التخيلية ، والأجسام المتألونة والمشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى ما لا يدخل في الخيال ، كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم ، كالعلم ، والقدرة والإرادة وغيرها ، ومن رأى إنساناً ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها . ولكن إذا فتح العين وأبصر وأدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين ، لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلية وإنما الاتفاق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً . وهو ك شخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ، ثم يرى عند تمام الضوء ، فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف فإذا الخيال أول الإدراك ، والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال ، وهو غاية الكشف وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف ، لآلته في العين . بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية

وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن للمعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى ، والثانية استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين التخيل والمرئي ، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ، ولقاء ، ورؤية . وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكان سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بموارض البدن ومقتضى الشهوات ، وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء للمعلومات الخارجة عن الخيال . بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول في سبب كونها حجاباً يطول ، ولا يليق بهذا

العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ( لَنْ تَرَانِي )<sup>(١)</sup> وقال تعالى ( لَا تَذْكُرْهُ الْإِنْسَارُ )<sup>(٢)</sup> أى فى الدنيا . والصحيح<sup>(٣)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الله تعالى ليلة المراج فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة . فنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ ، فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الإصلاح والتصفيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نموذج بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصفيل ، فيعرض على النار عرضاً يقع منه الخبث الذى هو متدنس به ، ويكون المرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة ،<sup>(٤)</sup> وأقصاها فى حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت ولذلك قال الله تعالى ( وَإِنْ مِنْكُمْ أُولَآءُ يَارُدُّهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَمْلًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا )<sup>(٥)</sup> فكل نفس مستيقنة للورود على النار ، وغير مستيقنة للصدور عنها . فإذا أكل الله تطهيرها وتركبتها ، وبلغ الكتاب أجله ، ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ، ووافق استحقاق الجنة ، وذلك وقت مبهم لم يعلم الله عليه أحد من خلقه ، فإنه واقع بعد القيامة ، ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفاته ونقائه عن الكدورات ، حيث لا يرهق وجهه غيرة ولا فترة ، لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليته بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلى المراقب بالإضافة إلى ما تخيله . وهذه المشاهدة والتجلى هي التى تسمى رؤية

( ١ ) حديث أنه صلى الله عليه وسلم رأى الله تعالى ليلة المراج على الصحيح هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة فى الصحيحين أنها قالت من حدثكم أن محمداً رأى ربه فقد كذب \* \* \* وسلم من حديث أبى ذر سأت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ذلك قال نوراني أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وحديث أبى ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكراً وقال ابن حزيمة فى القلب من صحة استاده شيء مع اننى رواية لأحمد فى حديث أبى ذر رأيت نوراً أنى أراه ورجال استادها رجال الصحيح

( ٢ ) حديث أن أقصى للسكت فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة : الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من حديث أبى هريرة أنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكفائر من أمق - الحديث : وفيه وأطولهم مكاناً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت وذلك سبعة آلاف سنة واستاده ضعيف

(١) الأعراف : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٠٣ (٣) مريم : ٧١ ، ٧٢

فإذا الرؤية حتى بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في تخيل متصور مخصوص بجهة، مكان، فإن ذلك بما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك. بل أقول للمعرفة الحاصلة في الدنيا بينهاهي التي تستكمل، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية. فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة، فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة، لأنها هي بينها لا تقترب منها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي التخييلة بينها إلا في زيادة الكشف، وإليه الإشارة بقوله تعالى (يَسْتَوِي نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا<sup>(١)</sup>) إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يغوز بدرجة النظر والرؤية إلا الماروفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة، والحب زرعا. ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل أو من لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع أفكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة!

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة. فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر. إذ تختلف لعمالة بكثرتها، وقتها، وحسنها، وقوتها، وضعفها. وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام<sup>(٢)</sup> «إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ لِلنَّاسِ عَامَةً وَلِأَبْنَى بَكْرٍ خَاصَةً»، فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يحد من لذة النظر والمشاهدة ما يحده أبو بكر، بل لا يحد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره. ولما فضل الناس بسر

(١) حديث أن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة: ابن عدي من حديث جابر وقال باطل بهذا الإسناد وفي اليزان لأدهي أن الدارقطني رواه عن الحاملي عن علي بن عبد الله وقال الدارقطني أن علي بن عبد الله كان يفتي - الحديث: ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة



وقرى صدره، فضل لآحالة بتجل انفرده . وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على  
 للطعوم والمنكوح، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض  
 وسائر الأمور الإلهية على الرياسة، وعلى المنكوح، والطعوم، والمشروب جميعاً، فكذلك  
 يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة، إذ يرجع نعيمها  
 إلى الطعوم والمنكوح، وهؤلاء بينهم م الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إثارة لذة  
 العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح، والطعوم، والمشروب،  
 وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة: ماتقولين في الجنة؟ فقالت الجارم العار  
 فينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة، بل إلى رب الجنة

وكل من لا يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة . وكل من لم يجد لذة المعرفة في  
 الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من  
 الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يحضر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على  
 ما عاش عليه، فاصحبه من المعرفة هو الذي ينتم به بينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدة  
 بكشف الغطاء، فتضعاف اللذة به كما تضعاف لذة العاشق إذا استبدل بحيال صورة للمعشوق  
 رؤية صورته، فإن ذلك منتهى لذته . ولما طيلة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي، فن  
 لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره، بل ربما يتأذى به

فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر مترقته، فأصل السمادات  
 هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان

فإن نلت، فلهذا الرؤية وإن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها، لأن لذة المعرفة  
 في الدنيا ضئيلة، فتضعافها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها  
 فاعلم أن هذا الاستحقاق لذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة . فن خلا عن المعرفة  
 كيف يدرك لذتها، وإن انطوى على معرفة ضئيلة وقلبه مشحون بملائق الدنيا فكيف يدرك  
 لذتها، فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة  
 في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا

إلى الله القادو المشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال الممشوق إلى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح  
الأطعمة الشبيهة إلى ذوقها ، ولا للذة المس باليد إلى لذة الوقاع . وإظهار عظم التفاوت  
بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول :

لذة النظر إلى وجه الممشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب  
أحدها : كمال جمال الممشوق ونقصانه ، فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكل لآماله  
والثاني : كمال قوة الحب ، والشهوة ، والعشق ، فليس التذاذ من اشتد عشقه  
كالتذاذ من ضعفت شهوته وجهه

والثالث : كمال الإدراك ، فليس التذاذ برؤية الممشوق في ظلمة ، أو من وراء ستر  
رقيق ، أو من بعد ، كالتذاذ بإدراكه على قرب من غير ستر ، وعند كمال الضوء ،  
ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد  
والرابع : اندفاع الموانع المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ، فليس التذاذ الصحيح ،  
الفارغ ، التجرد للنظر إلى الممشوق ، كالتذاذ الخائف المذعور ، أو المريض المتألم ، أو المشغول  
قلبه بهم من المهمات . فقدّر عاشقا ضعيف العشق ، ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر  
رقيق على بعد ، بحيث يمنع انكشاف كنه صورته ، في حالة اجتمع عليه عقارب وزنا بـ  
تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة تام من مشاهدة معشوقه  
فاو طرأت على الفجاء حالة انتهك بها الستر ، وأشرق بها الضوء ، واندفع عنه المؤذيات  
وبقي سلبا فارغا ، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الثبات ،  
فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للآخرى إليها نسبة يمتد بها

فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال  
به ، والمقارب والزنا بـ مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع ، والعطش ،  
والغضب ، والدم ، والحزن ، وضعف الشهوة . والحب مثال لقصور النفس في الدنيا  
ونقصاتها عن الشوق إلى الملا الأعلى ، والتفتاها إلى أسفل السافلين ، وهو مثل قصور  
الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة ، والتفاتة إلى اللعب بالمصفور

والدارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات . ولا يتصور أن

يخلو عنها ألبنة . نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل ، وتمطم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لمظمته . ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلساً يدوم . بل يمرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه ، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منفصلة إلى الموت . وإنما الحياة الطيبة بعد الموت ، وإنما الميث عيش الآخرة ( وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ كَهَيِّ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> ) . وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يجب لقاء الله تعالى ، فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة ، فإن المعرفة كالبنذر ، وبحر المعرفة لا ساحل له ، فالأحاطة بكنهه جلال الله محال . فكلما كثرت المعرفة بالله ، وبصفاته وأفعاله ، وبأسرار مملكته وقوته ، كثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن . ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في معبد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> : « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طَوْلُ الْمُتَمَرِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتنشع في العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والالتقاط عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب . ويستدعي ذلك زماناً لا يحالة

فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفاً في المعرفة ، بالنال إلى منتهى ما يسر له . ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصيل له بطول العمر ، ورأى نفسه مقصراً عما احتمله قوته لو عمر . فهذا سبب كراهة الموت وحبّه عند أهل المعرفة ، وأساس الخلق فنظرم مقصور على شهوات الدنيا ، إن اتسمت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تنو الموت . وكل ذلك حرمان وخسائر مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة منرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة

( ١ ) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله : إبراهيم الحري في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادي عن اللطيف عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالله للطلب عبد الله بن حوطب يختلف في محبة وأحمد من حديث جابر أن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإثابة والترمدى من حديث أبي بكره أن رجلاً قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم

فقد عرفت تاذكرناه معنى المحبة ومعنى المشق، فإنه المحبة المفرطة القوية. ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية بمعنى كونها أقدم من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان، كما لم تكن الرئاسة أقد من المطومات عند الصبيان فإن قلت: فهذه الرؤية عملها القلب أو العين في الآخرة؟

فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك. وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا يظنون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهي رؤية مشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في جنبه أو في جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا ينظر إليه ولا حكم له. والحق فيه أن القدرة الأزلية واسمة، فلا يجوز أن تحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا في حكم الجواز. فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع، والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين<sup>(١)</sup> ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم

## بيان

الأسباب الخفية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى؛ فإن الآخرة منهاها التقدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقاءه، وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه بمدلول شوقه وتمسك من دوام مشاهدته أبداً لا يآبد من غير منقوص ومكدر، ومن غير زقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب. فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة. وإنما يكتب العبد حب الله تعالى في الدنيا

وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة. وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقا، فذلك ينفك عنه الأكثرون. وإنما يحصل ذلك بسببين

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة، يمتنع عليه من حديث أبي هريرة أن الناس كانوا يرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الصخرة ليلة بدر - الحديث ؛

أحدهما ، قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء (مَجْتَلَّ اللَّهُ رِجْلِي مِنْ قَلْبَيْنِ فِي خَوْفِهِ<sup>(١)</sup>) وكالـ الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله . وبقدر ما يبق من الماء في الإناء ينقص من الخل المصوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ<sup>(٢)</sup>) وبقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا<sup>(٣)</sup>) بل هو معنى قولك لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإن معبود فإن العبد هو المتقيد ، والمعبود هو المتقيد به ، وكل محب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ<sup>(٤)</sup>) وقال صلى الله عليه وسلم أُنْفَضُ إِلَهُ عَيْدِي فِي الْأَرْضِ أَتَهْوَى ، ولذلك قال عليه السلام<sup>(٥)</sup> مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خُلِصَ دَخَلَ الْجَنَّةَ . ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله ، فلا يبق فيه شرك لنير الله فيكون الله محبوب قلبه ، ومعبود قلبه ، ومقصود قلبه فقط

ومن هذا حاله بالديانة سجنه ، لأنها مأمولة من مشاهدة محبوبه . وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب . فما حال من ليس له إلا محبوب واحد ، وقد طال إليه شوقه ، وتعمد عنه حبسه ، نغى من السجن ، ومكن من المحبوب ، وروح بالأمن أبد الآباد ؟ فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ، ومنه حب الأهل ، والمال ، والولد ، والأقارب ، والمعار ، والدواب ، والبهائم ، والمتنزهات . حتى أن التفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملتفت إلى نعيم الدنيا ، ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه . فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدرة من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يتقرب الإنسان من المشرق إلا ويمد بالضرورة من المغرب بقدرة ، ولا يطيب قلب امرأته إلا يضيق به قلب زوجها . فالدينا والآخرة ضرطان ، وهما كالشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لنوى القلوب انكشافا

(١) حديث من قال لا إله إلا الله خُلِصَ دَخَلَ الْجَنَّةَ : تقدم

(٢) الأحزاب : ٤ (٣) الأنعام : ٩١ (٤) الاحقاف : ١٧ (٥) الفرقان : ٤٣

أوضح من الإبرار بالعين . وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد ،  
وملازمة الصبر ، والالتزام إليهما بزمام الخوف والرجاء ، فاذا ذكرناه من المقامات كالنوبة  
والصبر ، والزهد ، والخوف ، والرجاء ، هي مقدمات ليستسبب بها أحد ركزي المحبة ، وهو  
تخلي القلب من غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ثم ينشعب منه الخوف  
والرجاء ، وينشعب منهما التوبة والصبر عليهما ، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا ، وفي المال والجاء ،  
وكل حظوظ الدنيا ، حتى يحصل من جميعها رة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعده  
لتزول معرفة الله وجهه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ، وهو أحد ركزي المحبة ، وإليه  
الإشارة بقوله عليه السلام : <sup>(١)</sup> « الطَّهْوَرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » كذا ذكرناه في أول كتاب الطهارة  
السبب الثاني : لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها ، واستيلاؤها على القلب ،  
وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقاتها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض  
بعد تنقيتها من الحشيش ، وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة  
وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال ( حَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً  
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ <sup>(١)</sup> ) وإليها الإشارة بقوله تعالى ( إِلَيْهِ  
يَصْطَعِدُ أُنْكُلُ الْمَطِيِّ <sup>(٢)</sup> ) أي المعرفة ( وَأَتَمَلُّ الصَّالِحِينَ رِقْمُهُ <sup>(٣)</sup> ) فالعمل الصالح كالجلال  
لهذه المعرفة وكأنها دماء ، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ، ثم إدامة طهارته  
فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة . وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل . فالعلم هو الأول وهو  
الآخر ، وإنما الأول علم الماملة ، وغرضه العمل ، وغرض الماملة صفاء القلب وطهارته  
ليتضح فيه جلية الحق ، ويتزين بعلم المعرفة ، وهو علم المكاشفة . ومهما حصلت هذه  
المعرفة تبتها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجليل وأدركه بالعين  
الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع  
المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا  
بالفكر الصافي والدكر الدائم ، والجد البالغ في الطلب ، والنظر المستمر في الله تعالى

( ١ ) حديث الطهور شطر الإيمان مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم

( ٢ ) إبراهيم : ٢٤ ( ٣ ، ٢ ) طبر : ١٠

وفي صفاته ، وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأنبياء ، ويكون أول مرقيهم لله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ، وإلى الضملاء ، ويكون أول مرقيهم بالأفعال ، ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى ( أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ <sup>(١)</sup> ) وبقوله تعالى ( شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ <sup>(٢)</sup> ) ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال: عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي . وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى ( سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا بِالْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ <sup>(٣)</sup> ) الآية وبقوله مزوجيل ( أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ <sup>(٤)</sup> ) وبقوله تعالى ( قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ <sup>(٥)</sup> ) وبقوله تعالى ( الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَإِذْ جَمِيعَ الْبَصَرِ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ <sup>(٦)</sup> ) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين ، وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القراء عند الأمر بالتدبر ، والتفكير ، والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن المحصر

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل ، فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة ، فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر المخلوق فهو فاضل ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر المخلوق ، فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإن غاصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر ، واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس ، والممانع من ذكر هذا إتساعه وكثرته ، وانشغال أبوابه الخارجة عن المحصر والنهاية ، إذ مامن ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ، ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى ( قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي <sup>(٧)</sup> ) فالخوض فيه انقباض في بحار علوم

(١، ٢) فصلت: ٥٣. آل عمران: ١٨. الأعراف: ١٨٥. يونس: ١٠١. (٣) الملك: ٤٣.

(٤) الكهف: ١٠٩.

للكاشفة . ولا يمكن أن يتفصل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول .

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال ، فلتكلم فيها ولترك الأعلى . ثم الأفعال الإلهية كثيرة ، فلنطلب أقلها . وأحقرها ، وأصغرها ، ولننظر في عجائبها . فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ، أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص ، فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكتها التي هي مركزه فيه ، فإنه لانه نسبة لها إليه ، وهي في السماء الاربعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقه في فلاة ، والكرسي في العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « د الأرض في البحر كالأسيطة في الأرض » ، ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض

ثم انظر إلى الآدي الخلق من التراب الذي هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه ، فانظر في البعوض على قدر صغره قدره ، وتأمله بمقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطومًا مثل خرطوم ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاء الظاهرة ، فأثبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغازية ، والجاذبة ، والنافعة ، والماسكة ، والمهضمة ، ما ركب في سائر الحيوانات . هذا في شكله وصفاته . ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه ،

( ١ ) حديث الأرض في البحر كالاسطة في الأرض : لم أجده أصلا



وعرفه أن غذاءه دم الإنسان ، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطبران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو عود الرأس ، وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحدتها ، ثم كيف قواه حتى يفرز فيه الخرطوم ، وكيف علمه اللص والتجرج للدم ، وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه ، وينتشر في سائر أجزائه وينذيه ، ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فقلبه حيلة الحرب واستعداد آتته ، وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك اللص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد يمود ، ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه ، وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لسانه تحتل حدقته. الأجفان لصفره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والنبار ، خلق للبعوض والذباب يدين ، فتنتظر إلى الذباب قتراه على الدوام يسبح حدقتيه يديه ، وأما الإنسان والحيوان الكبير خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدها على الآخر ، وأطرافها حادة ، فيجمع النبار الذي يلحق الحدقة ويرمي به إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين ، وتعين على الإبصار ، وتحسن صورة العين ، وتشبكها عندهيجان النبار ، فينظر من وراء شبك الأهداب واشتبا كما يمنع دخول النبار ولا يمنع الإبصار. وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان ، وعلمها كيفية التصقيل باليد ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهات على السراج ، لأن بصرها ضعيف ، فهي تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم ، وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ، ويرى بنفسه إليه ، فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب السكوة ولم يقصدها على السداد ، فيمود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق .

ولعلك تظن أن هذا لنقصاتها وجهها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها . بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدنيا صورة الفرائس في التهاوت على النار ، إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهرها صورتها ، ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ، ويتقيد بها ، وبذلك هلاكا مؤبدا

فليت كان جهل الآدمي كجهل الفرائس ، فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال ، والآدمي يبقى في النار أبداً أبداً ومدة مديدة . ولتلك كان يتادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول <sup>(١)</sup> « إِنِّي مُمَسِّكٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَنَاقَتُونَ فِيهَا تَهْتَأْتِ أَفْئَرَاءِ » فهذه لمة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من المعجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ، ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهرها صورته . فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره . فانظر إلى النحل وعجائبها ، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يمشون ، وكيف استخرج من لمبها الشمع والعسل ، وجعل أحدها ضياءً وجعل الآخر شفاه . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها عن النجاسات والأقذار ، ومطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصاً ، وهو أميرها ، ثم ماسخر الله تعالى له أميرها من المدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقول على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لتفضيت منها عجباً آخر المعجب إن كنت بصيراً في نفسك ، وفارغاً من هم بطنتك وفرجك ، وشبهات نفسك في معاداة أقرانك وموالاته إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبني بيتاً مستديراً ، ولا مربعاً ، ولا خماسياً ، بل مسدساً ، وخاصة في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحوال المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائفة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيق الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائفة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب من الاحتواء من المستدير . ثم تراض الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس

(١) حديث أبي مسك مجزكم عن النار وأنتم تنافقون فيها تهات الفرائس : منقذ علي من حديث أبي هريرة مثلي ومثلي أمي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفرائس يقعن فيها أحد محرك وأنتم تنفخون فيه لئلا يطفئوا وانصر البخاري على أوله ولعلم من حديث جابر وأنا أخذ بمجزكم وأنتم تفلتون من يدي

وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صنجر جرمه ، ولطافة قدده ، لطفنا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتمنا بعيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع لطفه وامتنانه . فاعتبر بهذه اللعة البسيطة من محقرات الحيوانات ، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذي بلغه فهما القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط به علما إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه . بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى . فبانظر في هذا وأمثاله بترداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقتين ، وبزيادة المعرفة بترداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فابذل ديارك واهلك ظهرك ، واستغرق العمر في الذكر فلدائم والفكر اللازم ، ففساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيلا آخر له

## بيان

السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا اشتراكهم في أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم ، فتلقوها وحفظوها وربما تخيلوا لها ممان يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يظلموا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فلسفا ، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق ، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليقين ، والمتخيّلون هم الضالون ، والمارفون بالحقائق هم الملقبون . وقد ذكر الله حال الأنصاف الثلاثة في قوله تعالى ( فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ <sup>(١)</sup> ) الآية . فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأشياء فلنضرب لتفاوت الحب مثلا فنقول .

أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله ، الفقهاء منهم والصوام ، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ، ودينه ، وحسن سيرته ، وعامد خصاله . ولكن العامي

يعرف عليه بجملا ، والفقيه يعرفه مفصلا . فتكون معرفة الفقيه به أتم ، وإعجابه به وحيه له أشد . فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله ، أحبه لاجالة ، ومال إليه قلبه . فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب ، تضاعف لاجالة حبه ، لأنه تضاعفت معرفته بعلومه . وكذلك يمتد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذفه وصنفته ازداد به معرفة ، وازداد له حبا . وكذا سائر الصناعات والفنائل . والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف ، وأنه حسن التصنيف ، ولكن لا يدري ما في التصنيف ، فيكون له معرفة بحلة ، ويكون له بحسبه ميل بحمل . والبصير إذا فقه عن التصانيف ، وأطلع على ما فيها من العجائب ، تضاعف حبه لاجالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف . والعالم يحمله صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامي يعلم ذلك ويمتدحه . وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى في البعوض مثلا من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ، ويتحير فيه له ، ويزداد يسببه لاجالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه ، فيزداد له حبا . وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا ، استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا . وبحر هذه المعرفة ، أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى ، بحر لا ساحل له ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له

ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الحسية التي ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه ، منما عليه ، ولم يحبه لذاته ، ضغفت محبته . إذ تنفیر يتغير الإحسان ، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعاء . وأما من يحبه لذاته ، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة ، والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة ، ولذلك قال تعالى ( وَلَآ خِرَآءُ أَوْ كَبُرَتْ دَرَجَاتُہٗ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا <sup>(١)</sup> )

## بيان

السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى . وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالعقد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلها لمنى لانتميه بالإبثال وهو أننا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا ، كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات غيابة ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته للضيافة ، أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته ، وغضبه ، وخلقه ، وصحته ، ومرمته ، وكل ذلك لانعرفه . وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كقدر طول له واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته . وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ، وكونه حيوانا ، فإنه جلبي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس شيئا من الحواس الخمس ، نعم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بحياته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفته ، فمأ عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلبي واضح ووجود الله تعالى ، وقدرته وعلمه ، وسائر صفاته ، يشهد له بالضرورة كل مائشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ، ومدر ، ونبات ، وشجر ، وحيوان ، وسماء ، وأرض ، وكوكب ، وبر ، وبحر ، ونار ، وهواء ، وجوهر ، وعرض ؛ بل أول شاهد عليه أنفسنا ، وأجسامنا ، وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا . وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالقل والبعيرة . وكل واحد من هذه المدركات لمدرك واحد ، وشاهد واحد ، ودليل واحد . وجميع مافي العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ، ومدبرها ، ومصرفها ، ومحركها ، ودالة على علمه ، وقدرته ، ولطفه ، وحكمته . والموجودات المدركة لأحصر لها ، فإن كانت حياة الكائنات ظاهرة عندنا ، وليس يشهد لها إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسننا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها

إلا هو شاهد عليه ، وعلى عظمته وجلاله ، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان سالها أنه ليس وجودها بنفسها ، ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا ، واتلاف عظامنا ، ولحمنا ، وأعصابنا ، ومنابت شعورنا ، وتشكل أطرافنا ، وسائر أجزاءنا الظاهرة والباطنة ، فإننا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن للمرين في الوجود شيء مدرك ، ومحسوس ، ومقول ، وحاضر ، وغائب ، وإلا هو شاهد ومعرف ، عظم ظهوره ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه ، فإن ما نقصر عن فهمه عقولنا فله سببان :

أحدهما : خفاؤه في نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله .

والآخر : ما يقنأه وضوحه ، وهذه كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا الخفاء النهار واستناره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف بهر نوره الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره

فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستفراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفاؤه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره . واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عس إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في للدلالة على تسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ، وبزول عند غيبة الشمس . فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها ، لكننا نظن أنه لاهية في الأجسام إلا ألوانها ، وهي السواد والبياض وغيرها ؛ فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد ، وفي الأبيض إلا البياض . فأما الضوء فلا ندركه وحده . ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع ، أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلما أن الأجسام كانت قدامتضاءت بضوء ، وانصفت بصفة فارقتها عند الترويب ، ففرقنا وجود النور بمدمه ، وما كنا نعلم

عليه لولا عدمه إلا بمسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور  
هذامع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات  
فما هو ظاهر في نفسه وهو يظهر لغيره، انظر كيف تصور استنباط أمره بسبب ظهوره  
لولا طريان ضده. فأنه تعالى هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم  
أو غيبة أو تغير لانهت السموات والأرض، وبطل الملك والملكوت، ولأدرك بذلك  
التفرقة بين الحالين. ولو كان بعض الأشياء موجودا به وببعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين  
الشيئين في الدلالة، ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال  
يستحيل خلافه، فلا جرم أورت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الأنفهام  
وأما من قويت بصيرته، ولم تضعف متته، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى  
ولا يعرف غيره، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من آثار قدرته، وفيها تابعة له،  
فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن  
هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل، ويذمل عن الفعل من حيث إنه  
سماء، وأرض، وحيوان، وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق، فلا يكون  
نظره مجاوزا له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان، أو خطه أو تصنيفه، ورأى فيها الشاعري  
والمصنف، ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه جبر، وعفص، وزاج مرقوم على  
يئاض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف

وكل العالم تصنيف الله تعالى، فنظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه  
فعل الله، وأحس من حيث إنه فعل الله، لم يكن ناظرا إلا في الله، ولا عارفا إلا بالله، ولا عبدا إلا له  
وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من  
حيث أنه عبد الله. فهذا الذي يقال فيه إنه فني في التوحيد وإنه فني عن نفسه وإليه الإشارة  
بقول من قال كُنَّا بِنَا، وفنينا عنا، فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت  
لضعف الأنفهام عن دركها، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وإياتها بعبارة مفهومة موصلة  
للغرض إلى الأنفهام، أو باستفهامهم بأقسامهم واعتقادهم أن يان ذلك لغيرهم مما لا ينبيهم  
فهذا هو السبب في قصور الأنفهام عن معرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المدركات كلها

التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق في الشهوات ، وقد أنس بمركاته ومحسوساته وألفها ، فسقط وقمعا عن قلبه بطول الأنس . ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فضلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا ، انطلق لسانه بالمعرفة طبعيا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه ، وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها . ولو فرض أنكه بلغ عافلا ، ثم انقضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء ، والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان ، دفعة واحدة على سبيل الفجأة ، لحيف على عقله أن ينبر لمعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لما خلق فيها . فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة ، والسباحة في بحارها الواسعة ، فالتناس في طلبهم معرفة الله كالدعوى الذي يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجلبات إذا صارت مطلوبة صارت ممقاة ، فهذا سر هذا الأمر فليحقق ، ولذلك قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكله لا يعرف القمر  
لكن بطنت عما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من يعرف قد ستر

## بيان

معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب . ونحن ثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر ، وبطريق الأخبار والآثار . أما الاعتبار فيكن في إثباته ماسبق في إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه في غيبته لإحالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه . فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والوجود لا يطلب . ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق إليه . وما أدرك بكأله لا يشتاق إليه . وبإجمال الإدراك بالروية ،



فمن كان في مشاهدة محبوه مداراً للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق. ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، وهو من وجهين لا يتكشف إلا بمثال من المشاهدات، فنقول مثلاً من غاب عنه معشوقه، وبقي في قلبه خياله، فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، فلو انمى عن قلبه ذكره، وخياله، ومعرفة حتى نسيه، لم يتصور أن يشتاق إليه. ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية. فعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال نسياله، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا يتكشف له حقيقة صورته، فيشتاق إلى استكمال رؤيته. وتعمم الانكشاف في صورته بإشراق التنوء عليه

والثاني: أن يرى وجه محبوه ولا يرى شعره مثلاً ولا مائر محاسنه، فيشتاق لرؤيته وإن لم يرهاط، ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية، ولكنه يعلم أنه أعضاء جميلة، ولم يدرك تفصيل مجالها بالرؤية، فيشتاق إلى أن يتكشف له ما لم يره قط والوجهان جميعاً متصوران في حق الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح، فكأنه من وراء ستار رقيق، فلا يكون متضحاً غاية الانضاح، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات، فإن الخيالات لا تقتصر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مكدرات للعارف ومنقصات. وكذلك ينضاف إليها شوائب الدنيا، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتعمم إشراق التجلي، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، وذلك بالضرورة يوجب الشوق، فإنه منتهى محبوب العارفين.

فهذا أحد نوعي الشوق، وهو استكمال الوضوح فيما اتضح انضاحاً تاماً

الثاني: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يتكشف لكل عبد من العباد بعضها ويتبقى أمور لا نهاية لها غامضة للعارف يعلم وجودها، أو كونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في النار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية، ولقاء، ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا. وقد كان إبراهيم بن آدم من المشتاقين فقال: قلت ذات

يوم يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطى ذلك ، فقد  
أضر بي القلق . قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال : يا إبراهيم ، أما استحييت  
منى أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقاءى ! وهل يسكن المشتاق قبل إلقاء  
حبيه ! فقلت يارب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلنى ما أقول فقال . قل اللهم  
رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك ، وأوزعنى شكر نعمائك ، فإن هذا الشوق يسكن فى الآخرة  
وأما الشوق الثانى : فيشبه أن لا يكون له نهاية لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذ نهايته  
أن يتكشف للبدن فى الآخرة من جلال الله تعالى ، وصفاته ، وحكمته ، وأفعاله ، بمعلوم  
فه تعالى ، وهو محال ، لأن ذلك لا نهاية له ، ولا يزال المبدع عالما بأنه بقي من الجلال والجلال  
مالم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا  
أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لئذا لا يظهر  
فيه ألم . ولا يبعد أن تكون أطراف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم  
واللذة متزايدا أبد الآباد ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق  
إلى مالم يحصل ، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا  
أصلا . فإن كان ذلك غير مبنول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ، ولكن يكون  
مستمر على الدوام : وقوله سبحانه وتعالى ( نُورُهُمْ يَسْمَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْعَامِهِمْ يَقُولُونَ  
رَبَّنَا آتِنَا نُورًا <sup>(١)</sup> ) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن يتم عليه إتمام النور مهما تزود من  
الدنيا أصل النور . ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور فى غير ما استنار فى الدنيا استنارة  
محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى ( انظُرُوا  
تَفَافِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا <sup>(٢)</sup> ) يدل على أن الأنوار لا بد  
وأن يتزود أصلها فى الدنيا ، ثم يزداد فى الآخرة إشراقا . فأما أن يشهد نور فلا . والحكم  
فى هذا برجم الظنون خطر ، ولم يتكشف لنا فيه بعد ما يوثق به ، فنسأل الله تعالى أن  
يزيدنا علما ورشدا ، ويرينا الحق حقا ، فهذا التقدير من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه  
وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى . فما اشتهر من دعاء رسول الله

صلی اللہ علیہ وسلم<sup>(۱)</sup>، اَنَہ کان یقول «اللّٰہُمَّ اِنِّیْ اَسْأَلُکَ الرِّمَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ وَرَدَّ الْبَیْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَقَدْ النَّظَرَ اِلَیَّ وَجْہُکَ الْکَرِیْمِ وَالشُّوْقَ اِلَیَّ لِقَائِکَ»

وقال أبو الرداء لکعب: أخبرنی عن أخص آية، یعنی فی التوراة. فقال: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإنی إلى لقائهم لأشد شوقاً. قال ومکتوب إلى جانبها، من طلبنی وجدنی، ومن طلب غیری لم یجدنی. فقال أبو الرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا

وفي أخبار داود عليه السلام، أن الله تعالى قال: ياداد، أبلغ أهل أرضي آني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسي، ومؤنس لمن أنس بذكری، وصاحب لمن صاحبتی، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني. ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا بقلته لنفسی، وأحبته حيا لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبنی بالحق وجدنی، ومن طلب غیری لم یجدنی فأرفضوا بأهل الأرض ما أنتم عليهن غرورها، وهملوا إلى كرامتي، ومصاحبتی، ومحالستي وأنسوا بي أن أنسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحباني من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجبي، ومحمد صفی، وخلقت قلوب المشاقين من نوري، ونفستها بجلالي

وروي عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين: إن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبههم، ويشفقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكركم وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حدوث طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك، قال يارب وما علامتهم؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه، ويحتمون إلى غروب الشمس كما يحتم الطائر إلى وكرة عند الغروب، فإذا جنم الليل، واختلط الظلام وفرشت الفرش، ونصبت الأسرة، وخلخل حبيب بحبيبه، نصبوا إلي أقدامهم، واقترشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامی، وتعلقوا إلي بلانامي، فبين صارخ وبك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بيني ما يتحملون من أجلي، وبسمي ما يشكون من حبي. أول ما أعطيهم ثلاث: أفذف من نوري في قلوبهم فيخبرونني كما

(۱) حديث أنه كان يقول فدعا له اللهم اني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد البيش بعد الموت - الحديث ۲  
أحمد والحاكم ومسلم في المصنفات.

أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقلالها لهم ،  
والثالثة أقبل بوجهي عليهم ، فترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه !  
وفي أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ، يا داود ، إلى كم تذكر الجنة  
ولا تسألني الشوق إلي ! قال يا رب من المشتاقون إليك ؟ قال إن المشتاقين إلي الذين صفتهم  
من كل كدر ، ونهتهم بالخدر ، وخرقت من قلوبهم إلي خرقا ينظرون إلي ، وإنني لأهل  
قلوبهم يبدى فأضئها على سمائي ، ثم أدمع نجباء ملائكتي ، فإذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول  
إني لم أدمعكم لتسجدوا لي ، ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي ، وأباهي  
بكم أهل الشوق إلي ، فإن قلوبهم لتضي في سمائي للملائكة كما تضي الشمس لأهل الأرض  
يا داود ، إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعمتها بنور وجهي ، فأخذتهم لنفسي  
عجدي ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون  
به إلي يزدادون في كل يوم شوقا . قال داود : يا رب أرني أهل محبتك . فقال يا داود ، أنت  
جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفسا ، فيهم شبان ، وفيهم شبوخ ، وفيهم كهول فإذا أتيتهم  
فأقرتهم مني السلام ، وقل لهم : إن ربكم يقرتكم السلام ويقول لكم : ألا تسألون حاجة ؟  
فإنكم أجابني ، وأصفيائي ، وأوليائي ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود  
عليه السلام ، فوجدهم عند عين من الميون يتفكرون في عظمة الله عز وجل . فلما نظروا  
إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه . فقال داود : إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم  
رسالة ربكم . فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض . فقال  
داود : إني رسول الله إليكم ، يقرتكم السلام ، ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تنادوني  
أسمع صوتكم وكلامكم ، فإنكم أجابني ، وأصفيائي ، وأوليائي ، أفرح لفرحكم ، وأسارع  
إلى محبتكم ، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الرائدة الشفيقة الرفيقة . قال فجرت الدموع  
على خدودهم ، فقال شيخهم . سبعا نك سبعا نك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فافقر لنا  
ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أمارتنا  
وقال الآخر : سبعا نك سبعا نك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فامن علينا بحسن  
النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبعا نك سبعا نك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ،

أفنجتريء على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا ، فأدنا لنا لزوم الطريق إليك ، وأعم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك ، فأعنا علينا بمجودك وقال الآخر : من نطفة خلقنا ، ومننت علينا بالتفكر في عظمتك ، أفنجتريء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك ، ومطينا الدنو من نورك وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة متك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هدبت قلوبنا لذكرك ، وفرغتنا للاشتغال بك ، فاعف لنا تقصيرنا في شكرك

وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إننا هي النظر إلى وجهك وقال الآخر : كيف يجتريء المبدع على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بمجودك ، فهب لنا نورا تهدي به في الظلمات من أطباق السموات وقال الآخر : ندعوك أن تقبل علينا ، وتديع عندنا . . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا ، وتقضت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك ، فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تسمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها ، وتلي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم : قد سمعت كلامكم ، وأجبتكم إلى ما أحيتكم فليفارق كل واحد منكم صاحبه ، وليتخذ نفسه سربا ، فلما كشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي . فقال داود : يارب بيم نالوا هذامتك ؟ قال بحسن الظن والكشف عن الدنيا وأهلها ، والخلوات بي ، ومناجاتهم لي ، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ، ولم يشتغل بشيء من ذكرها ، وفرغ قلبه لي ، واختارني على جميع خلقي فعند ذلك أعطف عليه ، وأفرغ نفسه ، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إلي نظرة الناظر ببينة إلى الشيء ، وأريه كرامتي في كل ساعة ، وأفرغه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تعرض الوالدة للشفقة ولدها ، وإن عطش أرديته ، وأذيقه طعم ذكري

فإذا فعلت ذلك به يادود بحيث نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أحبها إليه، لا يفتقر عن الاشتغال  
بى، يستعجلنى القدوم، وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى، لا يرى غيرى  
ولا أرى غيره. فلو رأيت يادود وقد ذابت نفسه، وبخل جسمه، وتشتت أعضاؤه، وانحلخ  
قلبه إذا سمع بكى، أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى، يزداد خوفاً وعبادة، وعزفى وجلالى  
بأدود لأقعدنه فى الفردوس، ولأشفيق صدره من النظر إلى، حتى يرضى وفوق الرضا  
وفى أخبار داود أيضاً: قل لبداى التوجهن إلى محبى، ماضركم إذا احتجبت عن  
خلقى، ورفضت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بيوت قلوبكم؟ وما ماضركم ما زويت  
عنكم من الدنيا إذا بسطت دبنى لكم؟ وما ماضركم مسخطة الخلق إذا التستم رضائى؟  
وفى أخبار داود أيضاً، أنا لله تعالى أوحى إليه: تزم أنك تحبى، فإن كنت تحبى  
فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان فى قلب يادود خالص حبيب  
غائصة، وخالط أهل الدنيا غائطة. ودينك فقلدنيه، ولا تقلد دينك الرجال. أماما استبان  
لك بما وافقت محبى فتسلك به، وأماما أشكل عليك فقلدنيه، حقاً على أنى أسارع إلى سياستك  
وتقويك، وأكون قائداً لك ودليلاً، أعطيك من غير أن تسألنى، وأعينك على الشدائد.  
والى قد حلفت على نفسى أنى لأثيب الأعبدا قد عرفت من طلبته وإرادته القاء كنفه بين يدي،  
وأنه لا غنى بهنى. فإذا كنت كذلك كزعت الدلة والوحشة عنك، وأمكن الننى قلبك،  
فلأنى قد حلفت على نفسى أن لا يطلن عيلى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها، أصف  
الأمشياء إلى، لأنضاد مملك فتكون متعباً ولا ينفع بك من يصحبك، ولا تجملع فى حدا،  
فليس لها غاية. ومتى طلبت منى الزيادة أعطك، ولا تجد للزيادة منى حدا. ثم أعلم بنى اسرائيل  
أنه ليس يتى وبين أحد من خلقى نسب، فلتنظم رغبتهم وإرادتهم عندى أجمع لهم ما لا عين رأت،  
ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ضعى بين عينيك، وانظر إلى يصير قلبك،  
ولا تنظر بعينيك التى فى رأسك إلى الذين حبيت عقولهم عنى، فامرجوها وسخت باققطاع  
تواقيتها. فأنى حلفت بمنى وجلالى لأفتح أبوابى لبدخلى طامقى للتجسس والتسويف.  
واضع لمن تعلمه، ولا تطاول على المريدن، فلو علم أهل محبى منزلة المريدن عندى لكانوا  
لهم أرضاً يعيشون عليها. يادارد، لأن تخرج مريدنا من سكرة هو فيها تستنفذه فأكتبك

عندى جيداً ، ومن كنيته عندى جيداً لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخاوفين . يادادو ،  
تمسك بكلامي ، وخذ من نفسك لنفسك ، لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتى ، لا تؤيس  
عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فإنما أبحث الشهوات لضعفة خلقى . ما بال الأنبياء بأن قالوا  
الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتى . وإنما عقوبة الأنبياء عندى فى موضع تناول ، أدنى  
ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى ، فإنى لم أرى الدنيا الحبيبة وترهته عنها ، يادادو ، لا تجعل  
يمنى ويمنىك عالماً يحجبك بسكره عن محبتى ، أو لك قطع الطريق على عبادى للريدن .  
استمن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار ، فإن محبتى للصوم  
إدمانه . يادادو ، تحبب إلى بمعادة نفسك ، امنها الشهوات أنظر إليك ، وترى المحجب  
يمنى ويمنىك مرفوعة إنما أداريك مذارة لتقوى على توابى إذ امننت عليك به ، وإنى لأحبسه  
عنه وأنت متمسك بطاعتي . وأوصى الله تعالى إلى يادادو ، لويعلم للذيرود عنى كيف  
انتظارى لهم ، ووفقى بهم ، وشوقى إلى ترك ما صيهم ، لما تروا شوقاً لى ، وتقطعتم وأصلهم  
من محبتى . يادادو ، هذه إرادتى فى المديرين عنى ، فكيف إرادتى فى القلبين على ؟ يادادو  
أحوج ما يكون المبد إلى إذا استغنى عنى ، وأرسم ما أكون بيمدى إذا أدبر عنى ، وأجل  
ما يصحكون عندى إذا رجع لى . فبهذا الأخبار ونظائرهما لا يحصى تدل على إثبات المحبة  
والشوق ، والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق

## بيان

محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القران متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده ، فلا بد من معرفة معنى  
ذلك . ولتقدم الشواهد على محبته . فقد قال الله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ<sup>(١)</sup>) وقال تعالى  
(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُ وَيُحِبُّونَهُ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ  
وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ<sup>(٣)</sup>) وكذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال (كُلٌّ قَوْمٌ يَعْتَبِرُكُمْ

يَذُوبُ بِكُمْ<sup>(١)</sup> . وقد روى<sup>(٢)</sup> أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا لَمْ يَصْرِفْهُ ذَنْبٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » ثم تلا ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ<sup>(٣)</sup> ) ومنه أنه إذا أحببه تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ<sup>(٤)</sup> ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يُعْطِي الدَّائِبَ مِنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> : « مَنْ تَوَاضَعَ لِقَدْرَةِ اللَّهِ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَصَمَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ » وقال عليه السلام<sup>(٧)</sup> : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبُّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ تَحَمُّهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَيَصْرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ » والحديث وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه أن يقول أعمل ما شئت فقد غفرت لك وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن المحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والمشق عبارة عن الميل القالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضا عوناً للجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر ، وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر . فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ،

- (١) حديث أنس إذا أحب الله عبدا لم يصرفه ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجوه ولله في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة
- (٢) حديث أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب - الحديث : الحاكم وجمع استنده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود
- (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحببه الله : ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن أبي شيبة
- (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه - الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم



بل الأساسى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً ، حتى أن اسم الوجود الذى هو أعم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم ، نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر ، وليس كذلك اسم الوجود لله ولا خلقه . وهذا التباعد فى سائر الأساسى أظهر ، كالعلم ، والإرادة ، والقدرة وغيرها ، فمثل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق . وواضح اللئى إنما وضع هذه الأساسى أولاً للخلق ، فإن الخلق أسبق إلى القول والأفهام من الخالق ، فكان استمالتها فى حق الخالق بطريق الاستعارة ، والتجوز ، والنقل . . والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملامئها ، وهذا إنما يتصور فى نفس نافذة قلبها ما يوافقها ، فتستغيب بنبيله كالأ ، فتلتذ بنبيله ، وهذا عمال على الله تعالى ، فإن كل كمال ، وجمال ، وبهاء ، وجلال يمكن فى حق الإلهية ، فهو حاضر وحاصل ، وواجب الحصول أبداً وأزلاً ، ولا يتصور تجرده ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره ، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، ولبس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله . ولذلك قال الشيخ أبو سعيد المبنى رحمه الله تعالى ، لما قرئ عليه قوله تعالى (يُحْيِيهِمْ وَيُمِيتُهُمْ<sup>(١)</sup>) فقال : بحق يحبهم ، فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكلى وأن لبس فى الوجود غيره . فمن لا يحب إلا نفسه ، وأفعال نفسه ، وتصانيف نفسه ، فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته . فهو إذاً لا يحب إلا نفسه . وما ورد من الألفاظ فى حبه لمباده فهو مؤول ، ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إياه من القرب منه ، وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التى اقتضت تمكين هذا المبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث

يحدث السبب المقضى له ، كما قال تعالى : لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاه باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله في درجة القرب من ربه . فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به ، فهو معنى حبه

ولا يفهم هذا إلا بمثال ، وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ، ويأذنه في كل وقت في حضور بساطه ، ليل الملك إليه ، إما لينصره بقوته ، أو ليستربح بمشاهدته ، أو ليستشيره في رأيه ، أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه . فيقال إن الملك يحبه . ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائم له . وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه ، لاللائتفاع به ، ولا للاستنجاده ، ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك ؛ وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا عرض له فيه أصلا . فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه ، يقال قد أحبه . وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما تقتضى رفع الحجاب ، يقال قد توصل وحبيب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشرطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا ، إذ صار قريبا ببدن لم يكن ، وهو محال في حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزلي الآزال

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا ، فيتحرك الآخر ، فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر . بل القرب في الصفات أيضا كذلك ، فإن التليذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله ، والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتليذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم . فلا يزال دائما في التغير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير . فكذلك ينبغي أن

يفهم ترقى البعد في درجات القرب ، فكلمها صار أكل صفة ، وأنتم علما وإحاطة بمقتضى الأمور ، وأثبتت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل ، صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله ، وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر حاله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ ، وعلى مساواته ، وعلى مجاوزته ، وذلك في حق الله محال ، فإنه لا نهاية لكمال ، وسلوك البعد في درجات الكمال متناه ، ولا ينتهى إلا إلى حد محدود ، فلا مطمع له في المساواة

ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتهاء النهاية عن ذلك الكمال فإذا عجب الله للبعد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه ، وتطهير باطنه من كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما عجب البعد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه ، فافدله ، فلا جرم يشناق إلى مافاته ، وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به ، والشوق والحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى

فإن قلت : عجب الله للبعد أمر ملتبس ، فبم يعرف البعد أنه حبيب الله فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَتَتْهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْخَلْبُ أَتَالَيْعُ أَقْنَتُهُ » قيل وما اقنائه ؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلَا مَالًا » فعلامته عجب الله للبعد أن يوحشه من غيره ، ويحول بينه وبين غيره ، قيل لميسى عليه السلام . لم لا تشتري حماراً فتركه ؟ فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر <sup>(٢)</sup> « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَتَتْهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَنَبَهُ فَإِنْ رَمَى اصْطَفَاهُ » وقال بعض العلماء . إذا رأيتك تحبه ، ورأيتك يتليك ، فاعلم أنه يريد يضافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه . قد طوالت بشىء من المحبة . فقال يا بني ، هل ابتلاك بمحجوب سوامفأثرت عليه إياه ؟ قال لا . قال فلا تطمع في المحبة ، فإنه لا يعطيها عبداً حتى يلوه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِرًا مِنْ قَلْبِهِ »

- 
- (١) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه - الحديث : الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم  
(٢) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتنبه - الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجوه ولمه في مستند  
(٣) حديث إذا أحب الله عبدا جعل له واعظاً من نفسه - الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً

بِأَمْرِهِ وَفِيهِمَا ، وَتَمَّ قَالَ : ' إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا نَصَّرَهُ بِمُيُوبٍ نَفْسِهِ ' فأخص  
علاماته ، حبه لله ، فإن ذلك يدل على حب الله  
وَأَمَّا القمل الدال على كونه محبوبا ، فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه ، سره  
وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدير لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه  
والمسد لظواهره وباطنه ، والجاعل همومه هيا واحدا ، والمنفض للدينا في قلبه ، والموحش  
له من غيره ، والمؤنس له بآية المناجاة في خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين  
معرفة ، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فإنها  
أيضا علامات حب الله للعبد

## القول

في علامات محبة العبد لله تعالى

أعلم أن المحبة يدعيها كل أحد . وما أسهل الدعوى وما أعرز المعنى ! فلا ينبغي أن يغتر  
الإنسان بتليس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ، ما لم يتجنبها بالعلامات ،  
ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمارها  
تظهر في القلب ، واللسان ، والجوارح ، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح  
على المحبة دلالة الدخان على النار ، ودلالة الثمار على الأشجار ، وهي كثيرة  
فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام . فلا يتصور أن  
يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاؤه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من  
الدنيا ومفارقتها بالموت ، فينبغي أن يكون محبا للموت غير فارته ، فإن الحب لا يثقل عليه  
السفر عن وطنه إلى مستقر محبوه ليتنعم بمشاهدته ، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول  
إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ » وقال  
حذيفة عند الموت . حبيب جاء على فاقة لأفزع من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة

( ١ ) حديث إذا أراد الله بعبده خيرا بصره بميُوب نفسه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

أنس بزيادة فيه بلسان ضعيف

( ٢ ) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه : متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة

أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود . فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب التسلق في سبيل الله ، حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل التسلق في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا )<sup>(١)</sup> وقال عز وجل ( يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ )<sup>(٢)</sup> وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل ، وهو مع ثقله مرهق ، والباطل خفيف ، وهو مع خفته وبيء ، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرّكك ، وإن منيت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه . ويروي عن<sup>(٣)</sup> اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ فغلوا في ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسمت عليك إذا تليت المدوّ غدا فلقني رجلا شديدا بأسه ، شديدا حرده ، أنا وله فيك ويقائلي ، ثم يأخذني فيجده أعني ، وأذني ، ويقر بطني ، فإذا تليت غدا قلت يا عبد الله من جدد أعفك وأذكك ؟ فأقول فيك يارب وفي رسولك ، فتقول صدقت . قال سعد . فلقته رأيته آخر النهار وإن أفقه وأذنه لملقنان في خيط ، قال سعد بن السبيع أروجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أولا

وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان . لا يكره الموت إلا مربب ، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد . أتعب الموت ؟ فكانه توقف فقال لو كنت صادقا لأحبيته ، وتلا قوله تعالى ( فَتَسْأَلُونَ أَنْ تُكَلِّمَهُ صَادِقِينَ )<sup>(٤)</sup> فقال الرجل . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَمْنَيْنَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ » فقال : إنا قاله لضر نزل به ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب القرار منه

( ١ ) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا تليت المدوّ غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أنا وله فيك ويقائلي ويصعد أعني وأذني - الحديث : الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية واستاده جيد

( ٢ ) حديث لابن عدي أحكم الموت لضر نزل به - الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

( ٣ ) الصف : ٤ ( ٢ ) التوبة : ١١١ ( ٤ ) البقرة : ٩٤

فإن قلت : فمن لا يحب الموت قبل يتصور أن يكون محبا لله ؟  
 فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا ، والتأسف على فراق الأهل ، والمال ، والولد  
 وهذا ينافي كمال حب الله تعالى ، لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب . ولكن  
 لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضيقة ، فإن الناس  
 متفاوتون في الحب ، ويدل على التفاوت ما روي أن<sup>(١)</sup> أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن  
 عبد شمس ، لما تزوج أخته فاطمة من سالم مولاة ، عاتبته قريش في ذلك وقالوا : أنكحت  
 عقيلة من عقائل قريش لولي ! فقال والله لقد أنكحت إياها وإني لأعلم أنه خير منها  
 فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك ؟ فقال صمت  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ يَكُلِّ قَلْبِهِ  
 فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ ، فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه ، فيحبه ويحب  
 أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه  
 بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها

وأما السبب الثاني للكرهية فهو أن يكون البعد في ابتداء مقام المحبة ، وليس يكره  
 الموت ، وإنما يكره مجلته قبل أن يستمد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب ، وهو  
 كالحب الذي وصله الخبر بقدم حبيبه عليه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ،  
 ويعد له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن العوائق . فالكرهية  
 بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا . وعلامته الذؤب في العمل ، واستغراق المجهود في الاستعداد  
 ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه ، فيلزم مشاق العمل  
 ويحتجب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ، ومتقربا  
 إليه بالتواضع ، وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب المحبوب .  
 وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال ( يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً

( ١ ) حديث أبي حذيفة بن عتبة المملوك أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبته قريش في ذلك وفيه فقال  
 صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه  
 فلينظر إلى سالم بن عيسى من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية للرفوع منه من حديث عمر أن  
 سألما يحب الله حقاً من قلبه ولقد روى له ابن سينا شدة الحب فعز وجل لو غف الله عز وجل  
 ما عصاه وفيه عبد الله بن أبي حمزة

يُحِبُّ أَوْ تُوْزِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ<sup>(١)</sup> ) ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فحبوبه ما بهواه ، بل يترك الحب هوى نفسه لهوى محبوبه . كما قيل .

أريد وصاله ويريد هجرى      فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بنعيم المحبوب ، كما روي أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام ، انفردت عنه ونخلت للعبادة وما تقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافسه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار ، وقالت يا يوسف ، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فأما إذا عرفت ما أبقت محبة حبته لبسواه ، وما أريد به بدلا . حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك ، وأخبرني أنه يخرج منك ولدين ، وجاعلها نبين ، فقالت أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك ، وجعلني طريقا إليه ، فطاعة لأمر الله تعالى . ففندها سكنت إليه

فإذا من أحب الله لا يصيبه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه .

نعمى الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمري في الفعل بديع  
لو كان حبك صادقا لأطعته      إن الحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا

وأترك ما أهوى لما قد هويت      فأرضى بما ترضى وإن سخطت بنفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى . علامة الحب إثارة على نفسك ، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب الناهى . وهو كما قال ، لأن محبة الله تعالى سبب محبة الله له . كما قال تعالى ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ<sup>(٢)</sup> ) وإذا أحبه الله تولاوه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهوته ، فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهوته . ولذلك قال تعالى ( وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا<sup>(٣)</sup> )

فإن قلت : فالصبيان هل يضاد أصل المحبة ؟

فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها . فكمن من إنسان يحب نفسه ، وهو مريض ويحب الصحة ، ويأكل ما يضره ، مع العلم بأنه يضره ، وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه .

ولكن المعرفة قد تضعف ، والشهوة قد تنلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل عليه ما روي <sup>(١)</sup> أن نعيان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيحده في مصيبة يرتكبها ، إلى أن أتى به يوم أخذه . قلته رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لا تلعبن فإنه يحب الله ورسوله فلم يخرج به بالمصيبة عن المحبة . نعم فخرجه بالمصيبة عن كمال الحب ، وقد قال بعض المارفين . إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حيا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ ، وترك الماصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل . إذا قيل لك أحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إن قلت لا كبرت ، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر الوقت . ولقد قال بعض العلماء . ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يحقق بشيء من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترا يذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره ، وذكر ما يتعلق به ، فلامنة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحب كل من ينسب إليه . فإن من يحب إنسانا يحب كلب محله ، فالحبة إذا قريت تمدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف المحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحب ، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره ، بل هو دليل على كمال حبه . ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله ، لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرآن ، والرسول ، وعباد الله الصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأوعية والصحية ، ولذلك قال تعالى (عَلَّامٌ لِّمَا تُكْسِمُونَ اللَّهُ قَاتِبُورٍ يُحِبُّكُمْ اللَّهُ <sup>(١)</sup>) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَشُدُّكُمْ وَيَرْضَى نَفْسَكُمْ وَأَحِبُّوا نَفْسَكُمْ» وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فلأنما أحب الله . ومن أكرم من يكرم الله تعالى

(١) حديث أن نعيان يوم أخذه قلته رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلعبن فإنه يحب الله ورسوله البخاري وقد تقدم

(٢) حديث أحبوا الله لما يشدوكم من نفسه - الحديث : هدم



فلما يكرم الله تعالى . وحكي عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلوة  
 للنجاة في سن الإرادة ، فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ، ثم لحقتني فترة فاقطعت عن  
 التلاوة . قال فسمعت قائلا يقول في المنام : إن كنت ترعم أنك تحبني فلم جفوت كئاني ؟  
 أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي ؟ قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي حبة القرآن ، فعاودت إلى حاله  
 وقال ابن مسعود : لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن . فإن كان  
 يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل ، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله .

وقال سهل رحمه الله تعالى عليه : علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن  
 حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة  
 حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بنقض الدنيا ، وعلامة بنقض الدنيا أن  
 لا يأخذ منها إلا زادها وبلغة إلى الآخرة

ومنها أن يكون أنسه بالخلة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيوالب على التهجده  
 وينتغم هذه الليل ، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق . وأقل درجات الحب التلذذ بالخلة  
 بالحبيب ، والتنعم بمناجاته . فمن كان النوم والاستغفال بالحديث الله عنده وأطلب من مناجاة  
 الله ، كيف تصح محبة ! قيل لإبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل : من أين أتيت ؟ فقال  
 من الأنس بالله . وفي أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلقي ، فإني إنما  
 أقطع عني رجائين . رجلا استبطأ ثوابي فاقطع ، ورجلا نسبني فرفض بحاله فوعلامة ذلك  
 أن آكله إلى نفسه ، وأن أدعه في الدنيا حيران

ومهما أنس بنير الله كان بقدر أنسه بنير الله مستوحشا من الله تعالى ، سافطا عن درجة  
 محبة . وفي قصة برخ ، وهو البعد الأسود الذي استنشق به موسى عليه السلام ، أن الله تعالى  
 قال لموسى عليه السلام . إن برخا نعم البعد هولي ، إلا أن فيه عيبا . قال يارب وما عيبه ؟ قاله  
 يمجبه نسم الأسحار فيسكن إليه ، ومن أحنى لم يسكن إلى شيء

وروي أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهر أطويلا ، فنظر إلى طائر وقد عمش في شجرة  
 يأوى إليها ، ويصفر عندها ، فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فمكنت أنس

بصوت هذا الطائر . قال ففعل . فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان : قل لفلان المأيد ،  
استأنست بمخلوق لأحطتكم درجة لاتألفها بشيء من عملك أبدا  
فإذا علامة المحبة كمال الأنس بتناجاة المحبوب ، وكال التعم بالخلاوة به ، وكال الاستيحاء  
من كل ما ينفع عليه الخلاوة ويموق عن لغة المناجاة . وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله  
مستغرقا بلذة المناجاة ، كالذي يخاطب معشوقه ويتناجى . وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم  
حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب غلة أصابته  
وهو في الصلاة فلم يشعر به . ومما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه  
يدفع بها جميع المهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر  
على سمعه مرارا ، مثل الماشق واللحان ، فإنه يكلم الناس بلسانه ، وأنه في الباطن يذكر حبيبه  
فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى ( الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ  
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ )<sup>(١)</sup> قال هشت إليه ، واستأنست به  
وقال الصديق رضي الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا  
وأوحى عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر : المحب لا يسأم من حديث حبيبه  
وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتي إذا جنة الليل نام عنى  
أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ؟ فما أنا ذا موجود لمن يطلبني . وقال موسى عليه السلام :  
يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ : من أحب الله  
أبغض نفسه . وقال أيضا : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحِب ، يؤثر كلام الله تعالى  
على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق ، والعبادة على خدمة الخلق  
ومنها أن لا يتأسف على ما يغوته مما سوى الله عز وجل ، ويعظم تأسفه على فوت كل  
ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند النفيات بالاستعطاف  
والاستعتاب ، والتوبة . قال بعض المارقين . إن لله عبادا أحبوه وأطعنوا إليه ، فذهب  
عنهم التأسف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحفظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما ، وما شاء  
كان ، فاكان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبعسن تديره لهم

وحق المحب إذا رجع من غفلة في لحظة أن يقبل على محبوبه ، ويشغل بالتائب ، ويسأله ويقول . رب بأي ذنب قطعت برك عني ، وأبعدني عن حضرتك ، وشغلتني بنفسي وبتأبئة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب ، يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه

ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ، ولم ير شيئا إلا منه ، لم يتأسف ولم يشك ، واستقبل الكل بالرضا ، وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ، ويذكر قوله ( وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ <sup>(١)</sup> )

ومنها أن ينعم بالطاعة ولا يستغلقها ، ويسقط عنه تعبها ، كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة ، ثم تمتع به عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والذوب بشهوة تفرق بدنه ولا تفرق قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء . والله ما اشتق محب لله من طاعته ولو حل بظيم الوسائل

فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات ، فإن العاشق لا يستغل السعي في هوى معشوقه ، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تمارده القدرة ، وأن يفارقه المعجز حتى يشغل به . فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا فمر لا محالة ما هو دونه . فمن كان محبوه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته . وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه . وقيل لبعض المعبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء . ما كان سبب حاله هذه في المحبة ؟ فقال سمعت يوما عبدا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول ، أنا والله أحبك بقلبي كله ، وأنت معرض عني بوجهك كله . فقال له المحبوب : إن كنت تحبني فأيش تنفق علي ؟ قال يا سيدي أملكك ما أسلك ، ثم أنفق عليك روي حتى تهلك . فقلت هذا خلق خلقي ، وعيد لمبد ، فكيف بعيد لمعبود ! فكل هذا بسببه

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله ، رحيا بهم ، شديدا على جميع أعداء الله ، وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه ، كما قال الله تعالى ( أَسِئَاءَ عَلَى الْكَافِرِ رَحْمَةُ رَبِّهِمْ <sup>(٢)</sup> )

(١) البقرة : ٢١٦ (٢) الفتح : ٢٩

ولا تأخذه لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، وبه وصف الله أوليائه إذ قال :  
الذين يكفون بحمي كما يكاف الصبي بالشبي ، ويأوون إلى ذكرى كما يأوي النسر إلى وكرة  
ويضربون لمحاربي كما يضرب النمر إذا حرد ، فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى  
هذا المثال ، فإن الصبي إذا كلف بالشبي لم يمارقه أصلا . وإن أخذ منه لم يكن له شغل  
إلا البكا والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه في ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ، ومهما  
فارقه بكى ، ومهما وجده ضحك ، ومن نازمه فيه أبغضه ، ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه  
لا يملك نفسه عند الغضب ، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه

فهذه علامات اللجة ، فمن غم في هذه العلامات فقد غمت محبته وخلص حبه ، فصفا  
في الآخرة شرابه وعذب مشربه . ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه  
إذ يمزج شرابه بقدر من شراب اللقرين ، كما قال تعالى في الأبرار ( إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ )  
ثم قال ( يُنْفِقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مُخْتَلِمٍ مُخْتَلِمٌ مِنْكَ ) وفي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ  
ويزاجج من تسليم عيناً يشرب بها اللقريون<sup>(١)</sup> ) فإعاطب شراب الأبرار لشوب الشراب  
للصرف الذي هو اللقرين . والشراب عبارة عن حلة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبرة  
من جميع الأعمال فقال ( إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ )<sup>(٢)</sup> ثم قال ( يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ )<sup>(٣)</sup>  
فكان أمانة ملوك كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون . وكما أن الأبرار يحدوث  
الزبد في حالمهم ومعرفة بهم من اللقرين ، ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالمهم  
في الآخرة ( مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَتَنَفَّسُ إِلَّا مِنْ عِنْدِي )<sup>(٤)</sup> ( كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ  
تُسَبِّحُهُ )<sup>(٥)</sup> وكما قال تعالى ( جَزَاءُ وَفَاءً )<sup>(٦)</sup> أي وافق الجزاء أعمالهم . فقول الخالص  
بالصرف من الشراب ، وقول للشوب بالشوب ، وشوب كل شراب على قدر ماسبق من  
الشوب في حبه وأعماله ( قَن يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ )<sup>(٧)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا  
يَرَهُ<sup>(٨)</sup> ) و ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُبَدِّلُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ )<sup>(٩)</sup> و ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً حِصَانًا )<sup>(١٠)</sup> ( وَإِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا )

(١) الطهين : ٣٥ - ٣٨ (٢) الطهين : ١٨ (٣) الطهين : ٣٩ (٤) قبان : ٢٨

(٥) الأنبياء : ٥٠ (٦) النبا : ٣٦ (٧) الزلزلة : ٧ (٨) الزلزلة : ١١ (٩) النعام : ٦٠

وَكَفَىٰ بَنَىٰ حَاسِبِينَ<sup>(١)</sup> ) فن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحدود العيون والقصور ،  
مكن من الجنة لينبؤاً منها حيث يشاء ، فيلب مع الولدان ، ويشتم بالنسوان ، فهناك تنهى  
لذته في الآخرة ، لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشبهه نفسه وتلد عنه . ومن كان  
مقصده رب الدار ومالك الملك ، ولم يطلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق ، أنزل في مقعد  
صدق عند ملك مقتدر . فالأبرار يرتمون في البساتين . وينعمون في الجنان مع الحور العين  
والولدان ، والمقربون ملازمون للحضرة ، عاكفون بطرفهم عليها ، يستحقرون نعيم الجنان  
بالإضافة إلى ذرة منها . فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللجاسة أقوام  
آخرون . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبَلَّةُ وَعَلِيُّونَ  
لِذَوِي الْأَلْبَابِ » . ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين ، عظم أمره فقال  
( وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ<sup>(٣)</sup> ) كما قال تعالى ( الْفَارِعَةُ مَا الْفَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفَارِعَةُ<sup>(٤)</sup> )  
ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتمظيم . وقد يظن أن الخوف  
يضاد الحب ، وليس كذلك . بل إدراك المظلة يوجب الهيبة ، كما أن إدراك الجمال يوجب  
الحب . ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم . وبعض مخاوفهم أشد من  
بعض ، فأوامها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإيصاد  
وهذا المعنى في سورة هود هو الذي<sup>(٥)</sup> شيب سيد المحبين ، إذ سمع قوله تعالى ( أَلَّا بُدَآ  
لِلْمُؤَدَّ<sup>(٦)</sup> ) ( أَلَّا بُدَآ لِلْمَدِينِ كَمَا بَعِثْتَ نَحُودَ<sup>(٧)</sup> )

وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاته وتم به ، فحديث البعد  
في حق المبدئين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ، ولا يمن إلى القرب من ألف البعد  
ولا يسكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنما تدمنا أن درجات القرب لانهاية لها ، وحق البعد  
أن ينجمد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدى لألب : البزار من حديث أسد شيب بقصرا

على الشطر الأول وقد تقدم والتطير الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ولله أدريج فيه

( ٢ ) حديث شيبتي هود أخرجه : القزويني وقد تقدم غير مرة

( ٣ ) الأنبياء : ٤٧ ( ٤ ) الطغفان ١٩ ( ٥ ) الفارعة ١ : ٢ ، ٣ ( ٥٠٤ ) هود : ٩٨ : ٩٥

١٤ «مَنْ اسْتَوَى يَوْمَهُهُهُ مَعْبُورٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَسْمِهِ قَبُولٌ مَلْعُونٌ» وكذلك قال عليه السلام (٢) «إِنَّهُ لَيُخَانُ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَعْرِ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً» وإنما كان استغفاره من القدم الأول، فإنه كان بدأ بالإضافة إلى القدم الثاني. ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق، والالتفات إلى غير المحبوب، كما روي أن الله تعالى يقول: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أتر شهوات الدنيا على طاعتي، أن أسلبه لقيظ مناجاتي. فنسب المزيد بسبب الشهوات عقوبة العموم، فأما الخصوص فيحببهم عن المزيد مجرد الدعوى، والعجب، والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف، وذلك هو الذكر الخفي الذي لا يتقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته، سمع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في ميابته ومكان على جبل:

كل شيء منك منقو رسوى الإعراض هـ

قد وهبنا لك ما فات فب ما فات منا

فانضطرب وغشي عليه، فلم يبق يوما وليلة، وطراأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل: يا إبراهيم كن عبدا، فكنت عبدا واسترحمت ثم خوف السلو عنه، فإن الحب يلازمه الشوق والطلب الحديث، فلا يفتقر عن طلب للزينة، ولا ينسلي إلا باللطف جديد. فإن تسلي عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب وجعته، والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر، كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية مبارية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها. فإذا أراد الله للكره واستدراج أخفى عنه ما وود عليه من السلو، فيقف مع الرجاء، ويفتر بحسن النظر، أو بتأليه النعمة، أو الهوى، أو التسيان، فشكل ذلك من جنود الشيطان التي تملب جنود الملائكة من العلم، والعقل، والذكر، والبيان، وكأن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي

(١) حديث من استوى يومه فهو معبر ومن كان يومه شرا من اسمه فهو ملعون: لأعلم هذا الألف من

لمد المزين أبواه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم قتل يارسول الله أوسى فقال

ذلك لإبادة في آخره رواه البيهقي في آخره

(٢) حديث الميخان على قلبي: متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم

هيجان الحب ، وهى أوصاف اللطف والرحمة ، والحكمة ، فمن أوصافه مايلوح بنور  
السلو ، كأوصاف الجبرية ، والزمرة ، والاستثناء ، وذلك من مقدمات المكرو ، والشقاء ، الحرمان  
ثم خوف الاستبدال به يا تنال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو الملتق والتسليم  
مقدمة هذا المقام ، والإعراض والحجاب مقدمة السلو ، وصديق الصدر بالبر ، واقتباسه  
عن دوام الفكر ، وبلا له لوظائف الأوراد أسباب هذه المائى ومقدمتها ، وظهور هذه  
الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام الملتق نموذجاً بالله منه . وملازمة الخوف لهذه  
الأمر ، وشدة الحذر منها بصفا المرافة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئاً خاف لاعتقاله  
فقد ، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين :  
من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق  
الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاء ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف  
أحبه الله تعالى فقر به ، ومكنه ، وعلمه . فالحب لا يخلو عن خوف ، والخائف لا يخلو  
عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ، ولم يكن له من الخوف إلا يسير ،  
يقال هو فى مقام المحبة . وبعد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر  
الحب فلو غلب الحب ، واستولت المعرفة ، لم تثبت لذلك طاعة البشر ، وإنما الخوفة بعد له  
ويخفف وقمة على القلب فقد روي فى بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال  
أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، فعمل ذلك ، فهم فى الجبال وحار عقله ، ووله  
قلبه وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينفع بشئ ، ولا ينفع به شئ . فسأل له الصديق . به تلى فقال  
يارب أنقصه من الدرة بمضها . فأوحى الله تعالى إليه . إنما أعطيناك جزءاً من مائة ألف جزء  
من ذرة من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة فى الوقت الذى سألني  
هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبته فيما سألت أعطيتهم كما أعطيت  
فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك . فقال سبحانه بالحكم  
الحاكمين ، أنقصه مما أعطيت . فأذهب الله عنه جملة الجزء ببقية معه عشر معشاره ، وهو جزء من  
عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن وصار  
كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف .

قريب الوجد ذو مرمى بعيد      عن الأحرار منهم والمبيد  
غريب الوصف ذو علم غريب      كأن فؤاده زبر الحديد  
لقد عزت معانيه وجلت      عن الأبصار إلا للشهيد  
يرى الأعياد في الأوقات تجري      له في كل يوم ألف عيد  
وللأحباب أفراس بعيد      ولا يحسد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين ، وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره ، وهي هذه الأيات

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم      خفوا بقرب الماجد المتفضل  
عراسا بقرب الله في ظل قدسه      تجول بها أرواحهم وتنقل  
مواردم فيها على المز والنبى      ومصدرم عنها لما هو أكل  
تروح بمن مفرد من صفاته      وفي حلل التوحيد تمشى وترفل  
ومن بعد هذا ماتدق صفاته      وما كتبه أولى لديه وأعدل  
سأكم من علمي به ما يصونه      وأبذل منه ما أرى الحق يبذل  
وأعطى عباد الله منه حقوقهم      وأمنع منه ما أرى المتع يفضل  
على أن للرحمن سرا يصونه      إلى أهله في السر والصور أنجل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له . بل لو اشترك الناس فيها انحريت الدنيا ، فالحكمة تقتضى شمول النقلة لعامة الدنيا . بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربيز يوم انحريت الدنيا لزهدم فيها ، وبطلت الأسواق والمعيش . بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ، ولوقفت الألسنة والأقدام عن كثير مما تنشر من العلوم ولكن الله تعالى فيها هو شرف الظاهر أسرار وحكمهم ، كأن له في الخير أسارا وحكما . ولا منتهى لحكمته ؛ كما لا غاية لقدرته ومنهسا . كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والحبية تعظيما للمعجوب وإجلالا له ، وهيبة منه ، وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه ؛ فيكون ذلك من الاقتراف



وتعظم المقربة عليه في العقبى ، وتمجبل عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للمحب  
سكره في حبه حتى يدهش فيه ، وتضطرب أحواله ، فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير  
تحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقبور ، وربما تشتمل من الحب نيرانه ، فلا يطاق  
سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يدفع فيضاً به . فالقادر على الكتان يقول

وقالوا قريب قلت ما أنا صانع      يقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى  
فالى منه غدير ذكر بخاطر      يهيج نار الحب والشوق في صدرى  
والماجن عنه يقول :

يخفى فيدى الدمع أسرار      ويظهر الوجد عليه النفس  
ويقول أيضاً :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله      ومن سره في جفنه كيف يكتم  
وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بدا أكثرهم إشارة به . كأنه أراد من يكثر  
التعريض به في كل شيء ، ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد ، فهو ممقوت عند العجيين  
والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذوالنون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة ،  
فراه مبتلى بلاء ، فقال لا يحبه من وجد أمضره . فقال الرجل . لكنى أقول لا يحبه من لم  
يتذم بضره . فقال ذوالنون : واسكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه . فقال الرجل .  
أستغفر الله وأتوب إليه ، . فإن قلت . المحبة منتهى المقامات ، وإظهارها إظهار للخير ،  
فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة مخمودة ، وظهورها محمود أيضاً . وإنما المذموم التظاهر بها ،  
لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار . وحق الحب أن ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله ،  
دون أقواله وأفعاله . وينبئ أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ، ولا إلى  
إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبئ أن يكون قصد الحب اطلاع الحبيب فقط . فأما إرادته  
اطلاع غيره فشرئ في الحب ، وفادح فيه ، كما ورد في الإنجيل . إذ انصدقت فتصدق بحيث  
لا تنعم شمالك مصنعت يمينك ، فالتى يرى الخفيات يحزبك علانية وأذاصمت فاعسل وجهك  
واذهن رأسك ، لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم ، إلا إذا غلب

سكر الحبيب فاطلق اللسان ، واضطربت الأعضاء ، فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض الجانين ، ما استجله فيه ، فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله ، فتبسم ثم قال . يا أخي ، له محبوب صغار وكبار ، وعقلاء وعجائين ، فهذا الذي رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا ، وعرف أحوال الملائكة في جبههم الدائم ، وشوقهم اللازم ، الذي به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يصون الله ما أحرم ، ويملون ما يؤمرون ، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه ، وعلم قطعا أنه من أخس المحبين في مملكته ، وأن حبه أقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين . عبدت الله نال ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح ، على بذل الجهود واستفراغ الطاقة ، حتى ظننت أن لي عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها . فبلت صفاتي الملائكة بمدد جميع ما خلق الله من شيء ، فقلت من أتم ؟ فقالوا نحن المعبود لله عز وجل ، نعبده ههنا منذ ثمانية ألف سنة ، ما خطر على قلوبنا قط سواء ، ولا ذكرنا غيره . قال فاستحييت من أعمالي ، فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم

فلذا من عرف نفسه ، وعرف ربه ، واستحيامته حق الحياء ، خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . ثم يشهد على حبه حركاته ، وسكناته ، وإقدامه ، وإحجامه ، وتوردانه ، كما حكى عن الجنيد أنه قال . مرض أستاذنا السري رحمه الله ، فلم نعرف ليلته دواء ، ولا عرفنا لها سببا . فوصف لنا طبيب حاذق ، فأخذنا قارورة مائه ، فنظر إليها الطبيب ، وجعل ينظر إليه مليا ، ثم قال لي . أراه بول عاشق . قال الجنيد . فصغت وغشي علي ، ووقمت القارورة من يدي . ثم رجعت إلى السري فأخبرته ، فتبسم ثم قال . قاتله الله ما أبصره ! قلت يا أستاذ ، وتبين المجبة في البول ؟ قال نعم . وقد قال السري مرة . لو شئت أقول ما ليس جلدي على عظمي ، ولا صل جسدي إلا حبه . ثم غشي عليه . وتبدل النشبة على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات النشبة . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته

ومنها الأنس والرضا كإسني . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة أطيب ، وما لا يشمره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الأخلاق . ثم قد يحجب الله

لإحسانه إليه ، وتديجبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين . ولذلك قال الجنيد : الناس في عبة الله تعالى عام وخاص . فالنوام نالوا ذلك بمرقتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا أن أرضوه ، لأنهم تمل عبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ، فأما الخاصة فنالوا المحبة بمعظم التقدير ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة ، وأسماه الحسنى ، لم يمتنعوا أن أحبه ، إذ استحق عند المحبة بذلك ، لأنه أهل لها ، ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحب هواه وعدوا لله إبليس ، وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ، فيظن أنه يحب لله عز وجل ، وهو الذي فقدت فيه هذه الدلالات ، وأبليس بها نقا ، ورياء ، وسمعة ، وغرضه عاجل حظ الدنيا ، وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء ، وقراء السوء ، وأولئك بنضاء الله في أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إفسان قال : يادوست ، أي يا حبيب ، فقل له : قد لا يكون حبيبا ، فكيف تقول هذا ؟ فقال في أذن القائل سرا . لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا . فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس وقد قال أبو تراب النخشي في علامات المحبة أياتا :

لا تخذ عن فلاح حبيب دلائل	ولديه من تحفه الحبيب وسائل
منها تمصه بحر بلائه	وسروره في كل ماهو فاعل
فالنفع منه عطية مقبولة	والفقر إكرام وير عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألغ العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما	والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهما	لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا	متحفيا من كل ماهو قائل

وقال يحيى بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشعرا	في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه وتحنينه	بحجوف الظلام فإله من جاذل
ومن الدلائل أنه تراه صائرا	تقوى الجهاد وكل قتل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى      من دار ذل. والنعيم الزائل  
ومن الدلائل أن تراه باكيا      أن قد رآه على قبيح فمائل  
ومن الدلائل أن تراه مسلما      كل الأمور إلى الملك المادل  
ومن الدلائل أن تراه راضيا      بملكه في كل حكم نازل  
ومن الدلائل ضحكه بين الورى      والقلب محزون كقلب الناكل

## بيان

مضى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس، والخوف، والشوق، من آثار المحبة. إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يثلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب النيب إلى منتهى الجلال، واستشعر صورته عن الاطلاع على كنهه الجلال، انبثت القلب إلى الطلب، وانزعج له، وماج إليه وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب، ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه، فيسمى استبشاره أنسا

وإن كان نظره إلى صفات العز، والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد، تألم القلب بهذا الاجتثام، فيسمى تألمه خوفا

وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات. والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها. فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجلال، حتى أنه إذا غاب، وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه، وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمة ولذته. ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا. إنما الشوق إلى غائب. فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله، غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، كما يحكي أن ابراهيم

ابن آدم تزل من الجبل ، فقيل له : من اين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله ، وذلك لأن الأنس بالله يلزمه الترويح من غير الله ، بل كل ما يوق عن الخلوة فيكون من أقتل الأشياء على القلب ، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلفه ربه ، مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الفشيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ، فيخرج من القلب عذوبة ماسواه ، ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه : يا من أنسى بذكره ، وأوحشني من خلقه ، وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لي مشتاقا ، وفي مستأنسا ومن سواي مستوحشا . وقيل لرابية . بمثلت هذه المنزلة ؟ قالت بترك ما لا ينبغي ، وأنسى عن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : ياراهب ، لقد أغبيتك الوحدة ؟ فقال ياهذا ، لو ذقت حلوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . الوحدة رأس العيادة . فقلت ياراهب : ما أثل ما تجده في الوحدة ؟ قال الراحة من مداراة الناس ، والسلامة من شرم . قلت ياراهب : متى يذوق العبد حلوة الأنس بالله تعالى ؟ قال إذا ضاف الود وخلصت المعاملة . قلت ومتى يصفو الود ؟ قال إذا اجتمع المصير فصار هما واحدا في الطاعة وقال بعض الحكماء : عجباً للخلائق كيف أرادوا بك بدلا عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك ؟

فإن قلت ، فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخامة شيق الصدر من معايشة الخلق ، والتبرم بهم ، واستهتاره بمذوبة الذكر . فإن خالط فهو كنفرد في جماعة ، وجمتمع في خلوة وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، فخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بمذوبة الذكر ، كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلنوا ما استوعر الترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صبروا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله ، وهذه علامته ، وهذه شواهد

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب ، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جبال المدركات بالباطن أكثر من جبال المبصرات ، ولقد معرفتها أغلبية على ذوي القلوب ، ومنهم أحمد بن غالب يعرف بنلام الخليل ، أنكر على الجنيد ، وعلى

أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكروا بعضهم مقام الرضا وقالوا ليس إلا الصبر، فأما الرضا فغير متصور. وهذا كله كلام ناقص قاصر، لم يطلع من مقامات الدين إلا على التشور، فظن أنه لا وجود إلا للشر، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد، ووراءه اللب المطلوب. فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور ولكن عنده غير مقبول. وقد قيل.

الأنس بالله لا يحويه بطلال      وليس يدركه بالحلول محتال  
والآنسون رجال كلهم نجب      وكلهم صفوة لله عمال

## بيان

معنى الانبساط والإدلال الذي تنمونه غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينفضه خوف التنبیر والحجاب، فإنه يشر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يصحون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة. ولكنه مختل بمن أقيم في مقام الأنس ومن لم يقم في ذلك المقام، ويتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كلمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل، بعد أن تحطوا سبع سنين، وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم في سبعين ألفاً، فأوحى الله عز وجل إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم، سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري أرجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ، فقل له يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى عليه السلام، فلم يعرف. فبينما موسى ذات يوم عشي في طريق، إذا به يد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل، فسلم عليه وقال له ما مسك؟ فقال اسمي برخ. قال فأنت طلبتنا منذ حين، أخرج فاستسق لنا. فخرج فقال في كلامه: ناهضاً من قبالك، ولا هذا من حملك، وما الذي بذالك؟ أفضعت عليك عيونك! أم عاندت الرياح عن طاعتك! أم قدما عندك! أم اشتد غضبك على المذنبين

ألمست كنت غفارا ! قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة ، وأمرت بالمطف ، أم ترينا أنك مجتمع ؟ أم تضحى القوت فتعجل بالمقوبة ، قال فابرح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأبنت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب : قال فرجع برح ، فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين غاصبت ربى كيف أنصفتى . فهم موسى عليه السلام به . فأوحى الله تعالى إليه أن برحاً بضحكى كل يوم ثلاث مرات

وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة ، فبقي في وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك ، فبعث إلى صاحب الخص . قال فأنى بشيخ فقال لا بشيخ ، ما بال خصك لم يحترق ؟ قال إني أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقه . فقال أبو موسى رضى الله عنه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(١)</sup> « يَكُونُ فِي أُمَّتِي قَوْمٌ شَعْتُهُ رُؤُوسُهُمْ ذَنَسَةٌ يَأْكُرُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللَّهِ لَا يَرْمُهُمْ » قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص ، فجعل يتخطى النار : فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقنى بالنار . قال فاعزم على النار أن تطفأ . قال فلمزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشى ذات يوم ، فاستقبله رشتائى مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال مثل حمارى ولا أملك غيره . قال فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم تر ذى عليه حماره . قال فظهر حماره في الوقت ، ومر أبو حفص رحمه الله فهذا وأمثاله يجرى لنوى الأنس ، وليس لنبرم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون في كلامهم ، ومناجاتهم في خلواتهم ، أشياء هي كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعنا العموم للكفر ، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ، ويليق بهم . وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم      والعبد يزهو على مقدار مولاه  
تأهوا برويته مما سواه له      يا حسن رؤيتهم في عز ماتاهوا

ولا تستبدن رضاه عن العبد بما ينضب به على غيره مهما اختلف مقامهما . ففي القراءان

( ١ ) حديث الحسن من أبي موسى يكون في أمتي قوم شعبة رؤسهم ذنسة يأكروهم لو أقسموا على الله لا يرمهم ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهاته

تنبيهات على هذه المأني لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرمان تنبيهات لأولى البصائر والأبصار ، حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإليس ، أما تراهما كيف اشتراكا في اسم المعصية والمخالفة ، ثم تباينا في الاجتناب والمعصية ، أما إليس فأبلس عن رحمة ، وقيل إنه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيه ( وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى <sup>(١)</sup> ) وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد وهما في المبودية سيان ، ولكن في الحال مختلفان ، فقال ( وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى <sup>(٢)</sup> ) وقال في الآخر ( أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَنِيَ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى <sup>(٣)</sup> ) وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل ( وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ <sup>(٤)</sup> ) وأمره بالإعراض عن غيرهم فقال ( وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ <sup>(٥)</sup> ) حتى قال ( فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ <sup>(٦)</sup> ) وقال تعالى ( وَاصْبِرْ نَفْسُكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ <sup>(٧)</sup> )

فكذا الانبساط والإدلال ، بمحتمل من بعض العباد دون بعض. فن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام ( إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ <sup>(٨)</sup> ) وقوله في التملل والاعتذار ، لما قيل له اذهب إلى فرعون فقال ( وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ <sup>(٩)</sup> ) وقوله ( إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَدِّبُونَ وَيَضِيقُ صُدْرِي وَلَا يَنْتَظِلُّ لِسَانِي <sup>(١٠)</sup> ) وقوله ( إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّيْفُ <sup>(١١)</sup> ) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب ، لأن الذي أقيم مقام الأنس بلاطف ومحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبه ، فموقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ، ونودي عليه إلى يوم القيامة ( لَوْلَا أَنْتَ تَذَارِكُهُ نِسْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ <sup>(١٢)</sup> ) قال الحسن : الدراء هو القيامة . ونهي نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، وقيل له ( فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ <sup>(١٣)</sup> )

(١) طه : ٦٣ ، ٦٤ (٢) عبس : ٨ (٣) عبس : ٥ (٤) الأنعام : ٥٤ ، ٦٨ (٥) الكهف : ٣٨  
(٦) الشعراء : ١٤ (٧) الشعراء : ١٣ ، ١٣ (٨) طه : ٤٥ (٩) القصص : ٢٤ ، ٢٥ (١٠) الشعراء : ١٤ (١١) الشعراء : ١٣ ، ١٣ (١٢) الشعراء : ١٤ (١٣) الشعراء : ١٤



وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات ، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد . وقد قال تعالى ( وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ <sup>(١)</sup> ) وقال ( مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ <sup>(٢)</sup> ) فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ، ولإدلاله سلم على نفسه فقال ( وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِيتُ وَيَوْمَ أُتُوْتُ وَيَوْمَ أُبْتُ حَيًّا <sup>(٣)</sup> ) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام ، فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه فقال ( وَسَلَامٌ عَلَيْهِ <sup>(٤)</sup> ) . وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه يوسف ، وقد قال بعض العلماء : قد عددت من أول قوله تعالى ( إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا <sup>(٥)</sup> ) إلى رأس المشرن من إخباره تعالى عن زهدم فيه يفاو أربعين خطيئة ، بعضها أكبر من بعض . وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، ففهرلهم وعفا عنهم ، ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قبل عي من ديوان النبوة . وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء ، فأكل الدنيا بالدين ، فلم يحتمل له ذلك ، وكان آصف من السرفين ، وكانت معصيته في الجوارح ، فمفاعنه . فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام . يا رأس الما بدين ، ويا ابن حجة الزاهدين ، إلى كم عصيتني ابن خاتك آصف ، وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة ؟ ففوز في وجلالي ، لئن أخذته عصفت من عصفتني عليه ، لأتركه مثله لمن معه ، ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام ، أخبره بألوحى الله تعالى إليه ، فخرج حتى علا كتيباً من رمل ، فمرفع رأسه ويديه نحو السماء وقال ألمنى وسيدى . أنت أنت ، وأنا أنا ، فكيف أتوب إن لم تنب علي ، وكيف أستعصم إن لم تصصني لأعودن . فأوحى الله تعالى إليه . صدقت يا آصف ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أستقبل التوبة ، وقد تبت عليك ، وأنا التواب الرحيم . وهذا كلام مدله عليه ، وهارب منه إليه ، وناظره إليه وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على الهلكة . كم من ذنب واجهته به غفرته لك ، قد أهلكت فيه دونه أمة من الأمم

(١) الاسراء : ٥٥ (٢) البقرة : ٢٥٣ (٣) مريم : ٣٣ : ١٥ (٤) يوسف : ٨ :

فهذه سنة الله تعالى في عباده بالفضل، والتقديم، والتأخير، على ما سبقت به المشيئة الأزلية .  
وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فافى القراءان  
شيء ، الا وهو هدي ونور ، وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول  
( قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ <sup>(١)</sup> ) وتارة  
يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول ( أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْفُتُورُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُتَمَيِّنُ الْعَزِيزُ  
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ <sup>(٢)</sup> ) وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوة ، فيتلو عليهم سنته  
في أفعاده وفي أنبيائه فيقول ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِسَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ <sup>(٣)</sup> )  
( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْعَابِ الْفِيلِ <sup>(٤)</sup> )

ولا يمدو القراءان هذه الأقسام الثلاثة ، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ،  
أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده . ولما اشتملت سورة الإخلاص  
على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس ، وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث  
القرآن فقال <sup>(٥)</sup> « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » لأن منتهى التقديس  
أن يكون واحدا في ثلاثة أمور ، لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه ، ودل عليه قوله  
( لَمْ يَلِدْ <sup>(٦)</sup> ) ولا يكون حاصلا من هو نظيره وشبهه ، ودل عليه قوله ( وَلَمْ يُولَدْ <sup>(٦)</sup> )  
ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعاً من هو مثله ، ودل عليه قوله ( وَلَمْ يَكُنْ لَهُ  
كُفُوًا أَحَدٌ <sup>(٧)</sup> ) ويجمع جميع ذلك قوله تعالى ( قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ <sup>(٨)</sup> ) وجماعه تفصيل قول لا إله إلا الله  
فهذه أسرار القراءان ، ولا تنهاى أمثال هذه الأسرار في القراءان . ولا رعب ولا يابس  
إلا في كتاب مبين . ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : نوروا القراءان والنسوا غرابيه  
ففيه علم الأولين والآخرين ، وهو كما قال . ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فسكره  
وصفا له فهمه ، حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ، ملك قادر ، وأنه خارج  
عن حد استطاعة البشر . وأكثر أسرار القراءان معبأة في طي القصص والأخبار ، فكأن

( ١ ) حديث من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن : أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه

البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي هريرة نحوه

(١١) الصمد (٦) الحشر : ٣٣ (٧) القدر ٦ ، ٧ ، الثقل : ١ (٨) ( ٨٠٧ ، ٦٠٥ ) الصمد

حريصا على استنباطها، ليتكشف لك فيه من المعجائب ما تستحق معه المعلوم المؤخره فطارجه عنه  
فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته، ويان تفاوت عباد  
الله فيه، والله سبحانه وتعالى أعلم

## القول

في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلم أن الرضا ثمره من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين. وحقيقته فامضة  
على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى  
التأويل، وفهمه وفقهه في الدين. فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى، ثم  
قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله، فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي. وانخدع  
بذلك قوم، فرأوا الرضا بالفجور والفسوق، وترك الاعتراض والإنكار، من باب التسليم  
لقضاء الله تعالى. ولو أنكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على مظاهر الشرع، لمادما رسول الله  
صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> لابن عباس حيث قال «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»  
فلنبداً ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم نذكر حقيقة الرضا، وكيفية تصوره  
فيما يخالف الهوى، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه، كنزك الدعا والسكوت على المعاصي

## بيان

فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)<sup>(١)</sup> وقد قال تعالى (هَلْ  
جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)<sup>(٢)</sup> ومثله الإحسان رضا الله عن عبده، وهو ثواب رضا  
العبد من الله تعالى. وقال تعالى (وَمَسَاكِينُ عَلَيْهِ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ  
أَكْبَرُ)<sup>(٣)</sup> فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال  
(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)<sup>(٤)</sup> فكما أن مشاهدة المذكور

(١) حديث دعاه لابن عباس اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه  
أحمد بلفظه الزيادة وتقدم في العلم

(٢) البينه: ٨ (٣) الرحمن: ٦٠ (٤) التوبة: ٧٢ (٥) المنكوت: ٤٥:

في الصلاة أكبر من الصلاة، فرضوا أن رب الجنة أعلى من الجنة. بل هو غاية مطاب سكان الجنان وفي الحديث <sup>(١)</sup> «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ سَلُوتِي فَيَعْلَمُونَ رِضَاكَ» فسؤلهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل

وأما رضا العبد فسند ذكر حقيقته

وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته، إذ تنعمر أفهام الخلق عن دركه. ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه. وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر. فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب

وقال الله تعالى (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) <sup>(٢)</sup> قال بعض المفسرين فيه: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين. إحداها: هدية من عند الله تعالى، ليس عندكم في الجنان مثلاً. فذلك قوله تعالى (فَلَا تَذَمُّنَّ نَفْسُ مَا أَخَذِي لَهُمْ مِنْ قُرْءَانٍ عَظِيمٍ) <sup>(٣)</sup> والثانية السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً، وهو قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) <sup>(٤)</sup> والثالثة يقول الله تعالى: إني عنكم راض، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم، فذلك قوله تعالى (وَرَضُوا مِنْ اللَّهِ أَكْبَرَ) <sup>(٥)</sup> أي من النعم الذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى، وهو غمرة رضا العبد

وأما من الأخبار. فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> سأل طائفة من أصحابه «مَا أَنْتُمْ؟» فقالوا مؤمنون. فقال «مَا عَلَامَةُ إِيَّائِكُمْ؟» فقالوا صبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بما أوتى من القضاء. فقال «مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَذِبَةِ»

(١) حديث أن الله يتجلى للمؤمنين ويقول سألوني فيقولون رضاء: البرار والطيراني في الأوسطين حديث أنس في حديث طويل يسند فيه ابن ربيعة فينبغي لهم يقول أما الذي صدقتم وعدي وأبغمت عليكم نعمتي وهذا على أكرامى فلو أني سألوته الرضا - الحديث : ورواه أبو يعلى بإسقاط

ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاء - الحديث : ورواه رجال الصحيح

(٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامتكم إيمانكم - الحديث : فسلم

(٣) في: ٣٥ (٢) السجدة: ١٧ يس: ٥٨ (٤) النوبة: ٧٢

وفي خبر آخر <sup>(١)</sup> أنه قال : « حُكِّمَ عِلْمَاءُ كَادُوا مِنْ قِبَتِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ »  
وفي الخبر <sup>(٢)</sup> : « طَوَى لِيْنٌ هَدْيِي لِلْإِسْلَامِ وَكَانَ رِزْقُهُ كِفَافًا وَرِثَتِي بِهِ »  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> : « مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللَّهُ  
تَعَالَى مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ » وقال أيضا : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا أَبْتَلَاهُ فَإِنْ صَبَرَ  
أَجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ أَمْطَلَاهُ »

وقال أيضا <sup>(٤)</sup> : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَتَتْهُ تَعَالَى لِعَاطِقَةٍ مِنْ أُمَّتِي أُجْنَعَةٌ فَيَطِيرُونَ  
مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ يَسْرَحُونَ فِيهَا وَيَتَنَمَّوْنَ فِيهَا كَيْفَ شَاءُوا فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ  
هَلْ رَأَيْتُمْ الْحِسَابَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا حِسَابًا فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ جِزْمُكُمْ الْعَصْرَاطُ فَيَقُولُونَ مَلَأْنَا  
صِرَاطًا فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا شَيْئًا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أُمَّةٍ  
مَنْ أَنْتُمْ فَيَقُولُونَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ نَأْشَدُكُمْ اللَّهَ حَدَّثَنَا  
مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ خَصَلْنَا كُنَّا قَاتِلِينَ قَتَلْنَا هَذِهِ الْكَلْبَةَ فَفُضِّلَ رَحْمَةً  
اللَّهُ فَيَقُولُونَ وَمَا هُمْ فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا خَلَوْنَا نَسْتَحْيِ أَنْ نَمُصِّيَهُ وَنَرْضَى بِالْيَسِيرِ بِمَا قَسَمَ  
أَنَا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ بِحَقِّ لَكُمْ هَذَا »

وقال صلى الله عليه وسلم : « يَأْتِشُرُ الْفُقَرَاءُ » <sup>(٥)</sup> أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطْفَرُوا  
بِشَوَابِ فَقَرِّكُمْ وَإِلَّا قَلَا . . . وفي أخبار موسى عليه السلام ، أن ابن إسرائيل قالوا له  
سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت  
ما قالوا . فقال ياموسى ، قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ما روي

- ( ١ ) حديث أنه قال في حديث آخر حكاه عنه كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء : تقدم أيضا
- ( ٢ ) حديث طوى ليْنٌ هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به : الترمذى من حديث فضالة ابن عبيد بلفظ  
وقع وقال صحيح وقد تقدم
- ( ٣ ) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل : رويته في أمالي الحامل بإسناد  
ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق الحامل رواه أبو منصور الديلمى في مستند الفردوس
- ( ٤ ) حديث إذا كان يوم القيامة أتبت الله لعاطقة من أمتي أجنة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها  
رواه ابن جابر في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلى من حديث أنس مع اختلاف وفيه حميد  
ابن علقمة ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن وللأحاديث الصحيحة في ورود غيره
- ( ٥ ) حديث أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطْفَرُوا بِشَوَابِ فَقَرِّكُمْ وَالْإِسْلَامُ تَقْدَمُ

عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(١)</sup> : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ مَا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ التَّعْبِثَ حَيْثُ أُنْزِلَ التَّعْبِثُ مِنْ نَفْسِهِ » .  
وفي أخبار داود عليه السلام . ما لأوليائي والمهم بالدنيا ، إن المهم يذهب حلاوة مناجاتي  
من قلوبهم . ياد داود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون

وروي أن موسى عليه السلام قال . يارب دني على أمر فيه رضاك حتى أعمله . فأوحى  
الله تعالى إليه . إن رضائي في كرهك ، وأنت لتصبر على ما تكره . قال يارب دني عليه ،  
قال فإن رضائي في رضاك بقضائي .

وفي مناجاة موسى عليه السلام . أي رب ، أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت  
منه المحبوب سألني . قال فأني خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال من يستغيري في الأمر  
فإذا قضيت له بسخط قضائي . وقد روي ما هو أشد من ذلك ، وهو أن الله تعالى <sup>(٢)</sup> :  
قال . أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي ، ولم يرض بقضائي ، فليخذر وبأسواي  
ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(٣)</sup> : « قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى تَقَدَّرْتُ الْقَادِرَ وَدَبَّرْتُ التَّدِيرَ وَأَحْكَمْتُ الصَّنْعَ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مَنِّي حَتَّى  
يَلْقَانِي وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ مَنِّي حَتَّى يَلْقَانِي »

وفي الخبر المشهور <sup>(٤)</sup> : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ  
لِلْخَيْرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ وَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ  
لِمَنْ قِيلَ لِمَنْ قَالَ لَمْ وَكَيْفَ »

( ١ ) حديث من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما له عنده - الحديث : الحاكم من حديث جابر وصححه  
بلفظ منزله ومنزله الله

( ٢ ) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي - الحديث : الطبراني في الكبير وابن حبان  
في الضعفاء من حديث أبي هند الساري مقتصرا على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على ملائي  
فليخسر وبأسواي واستاده ضعيف

( ٣ ) حديث قال الله تعالى قدرت القادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا - الحديث :  
لم أجده بهذا اللفظ والطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القصص  
وأخذ ميثاق النبيين - الحديث : واستاده ضعيف

( ٤ ) حديث يقول الله خلقته الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه - الحديث :  
ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بسناد ضعيف

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع ، والفقر ، والقتل ،  
عشر سنين ، فأجيب إلى ما أراد . ثم أوحى الله تعالى إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدوك  
عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا  
قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا . أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ، أم تريد أن أبدل  
مآذرتك عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ؟ وعزى وجلالى  
لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأعونك من ديوان النبوة .

وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصمدون على بدنه وينزلون ، يجعل  
أحدهم رجلاه على أضلاعه كهية الدرج ، فيصمد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك ،  
وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه . فقال له بعض ولده . يا أبت أمارى ما يصنع  
هذا بك ؟ لو نبيت عن هذا ؟ فقال يابني ، إنى رأيت ما لم تروا ، وعلت ما لم تعلموا ، إنى تحركت  
حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ،  
فأخاف أن أمحرك أخرى فيصيبنى ما لا أعلم

وقال <sup>(١)</sup> أنس بن مالك رضى الله عنه . خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ،  
فأقال لى لشيء فعلته لم أفعله ، ولا لشيء لم أفعله لم أفعله ، ولا قال فى شيء كان لىته لم يكن ، ولا فى شيء  
لم يكن لىته كان . وكان إذا خاصنى غاصم من أهله يقول ( دَعُوهُ لَوْ فَضِيْ شَيْءٌ لَّكَانَ )  
وبروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ،  
فإن سلمت لما أريد كفيتهك ما تريد . وإن لم تسلم لما أريد أتيتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد  
وأما الآثام . فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين  
يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز . ما بقى لى سرور إلا فى مواقع  
القدر . وقبل له ما تشتهى ؟ فقال ما يقضى الله تعالى . وقال سيمون بن مهران من لم يرض  
بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل . إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك  
وقال عبد العزيز بن أبى رواد . ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ، ولا فى لبس  
الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل

( ١ ) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لى لشيء فعلته لم أفعله - الحديث : متفق عليه وقد قدم

وقال عبد الله بن مسعود . لأن الحس حمة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت ، أحب إلي من أن أقول شيء كان ليته لم يكن ، أو شيء لم يكن ليته كان  
ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال . إني لأرحك من هذه القرحة .  
فقال . إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني

وروي في الإسرائيليات أن عابدا عبدا لله دهر أطويلا ، فأرى في المنام : فلانة الراعية رفيقتك في الجنة . فسأل عنها إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثة ليال لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ، ويظل صائعا وتظل مفطرة . فقال أمالك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت ما هو والله إلا ما رأيت ، لأعرف غيره . فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت : خصلة واحدة هي فيا إن كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رخله ، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة ، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل . فوضع السابد يده على رأسه وقال . أمذه خصلة هذه ؟ والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد

ومن بعض السلف : أن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي على أي حال أصبحت وأُسِبت من شدة أو رخاء وقال الثوري يوما عند رابية : اللهم ارض عنا : فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال أستغفر الله : فقال جعفر بن سليمان الضبيبي : فتنى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة

وكان الفضيل يقول : إذا استرى عنده المنع والمطاء فقد رضي عن الله تعالى وقال أحمد بن أبي الحواري : قال أبو سليمان الداراني . إن الله عز وجل من كرمه قدرضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليتهم . قلت وكيف ذاك ؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه ؟ قلت نعم . قال فإن عبة الله من عبيده أن يرضوا عنه  
وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل



وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَّالَهُ جَمَلَ  
الرُّوحِ وَالْفَرَحِ فِي الرُّسَا وَالْيَقِينِ وَجَمَلَ النَّمِّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسُّخْطِ »

## بيان

حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر ، فأما الرضا فلا يتصور  
فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة . فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى ، واستغرق الهم به ،  
فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة  
ولا يدرك ألما . ومثاله الرجل المحارب ، فإنه في حال غضبه ، أو في حال خوفه ، قد تصيبه  
جراحة وهو لا يحس بها ، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة . بل القى يندو في  
شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالألم ذلك لتشتغل قلبه . بل القى يحجم  
أو يخلق رأسه بمديدة كآلة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ المزين  
والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور ، مستوفى  
به ، لم يدرك ما عداه . فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه ، قد يصيبه  
ما كان يتألم به ، أو يتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه .  
هذا إذا أصابه من غير حبيبه ، فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من  
أعظم الشواغل . وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف ، تصور في الألم العظيم  
بالحب العظيم . فإن الحب أيضا يتصور تضعفه في القوة كما يتصور تضعف الألم . وكما يقوى  
حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر ، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة  
بنور البصيرة . وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال . فمن ينكشف له  
شيء منه فقد بهر به بحيث يدهش ويفشى عليه ، فلا يحس بما يجري عليه . فقد روي أن

( ١ ) حديث أن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا - الحديث : الطبراني من حديث ابن

مسعود إلا أنه قال ينسقط وقد تقدم

امراة فتح الموصل عثرت فاقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت  
 إن لثة ثوبه أزالته عن قلبي مرارة وجهه . وكان سبيل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها  
 ولا يعالج نفسه . فقيل له في ذلك ، فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يوجع  
 وأما الوجه الثاني : فهو أن يحس به ، ويدرك ألمه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا  
 فيه ، مرينا له ، أعنى بمقله ، وإن كان كارها بطبعه . كالذي يلتبس من القصاد الفصد والحجامة  
 فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به ، وراغب فيه ، ومتقصد من الفصاد به منة بفعله . فهذا  
 حال الراضى بما يجرى عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة  
 السفر ، ولكن حبه لثمره سفره طيب عنده مشقة السفر ، وجمله راضيا بها . ومهما أصابه  
 بلية من الله تعالى ، وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاتته ، رضي به ، ورغب  
 فيه ، وأحبه ، وشكر الله عليه . هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه  
 ويمحور أن ينلحب الحب ، بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوه ورضاه ، لا للمنى آخر  
 وراءه . فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوا عنده ومطلوبا . وكل ذلك موجود في المشاهدات  
 في حب الخلق ، وقد توأصفها المتوافظون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال  
 الصورة الظاهرة بالبصر . فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم ، مشحون بالأنذار  
 والأخبار ، بدايته من نقطة مذرة ، ونهايته جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل المذرة  
 وإن نظر إلى المدرك للجمال ، فهي العين الخبيسة التي تفلط فيما ترى كثيرا ، ترى الصنوبر  
 كبيرا ، والكبير صغيرا ، والعميد قريبا ، والقيقع جيلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فن  
 أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي ، الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة  
 التي لا يمتريها الفلظ ولا يدور بها الموت ، بل تبقى بعد الموت حية عند الله ، فرحة برزق  
 الله تعالى ، مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف !

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار . ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال  
 المحبين وأقوالهم . فقد قال شقيق البلخي : من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها  
 وقال الجنيد : سألت سريا السقطي ، هل يحد الحب ألم البلاء ؟ قال لا . قلت وإن ضرب  
 بالسيف ؟ قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ، ضربة على ضربة

وقال بعضهم : أحبت كل شيء بحبه ، حتى لو أحب النار أحببت دخول النار  
وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شريعة بنجد ولم يتكلم  
ثم حمل إلى الحبس فتبنته ، فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لأنني عاشق . فقلت له : ولم سكنت ؟  
قال لأن معشوقك كانت بمحذائي ينظر إلي . فقلت : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟  
قال فزعت زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى : إذا نظر أهل  
الجنة إلى الله تعالى ، ذهب عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ، فإذ كانت سنة لا ترجع  
إليهم . فما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله ، إذا لاحظت جلالة هاب ، وإذا لاحظت  
جماله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان في بدايتي ، فإذا برجل أعشى ، عجموم ، مجنون  
قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما  
أفاق قال : من هذا القضولى الذى يدخل بينى وبين ربي ؟ لو قطعتى إربا إربا ما زددت له  
إلا حبا . قال بشر : فأرأيت بعد ذلك تقمة بين عبد وبين ربه فأفكرتها

وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء  
إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام . كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشفاهم  
جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل فى القراءان ما هو أبغ من ذلك ، وهو قطع النسوة  
أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك

وقال سعيد بن يحيى : رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مديّة ، وهو  
ينادى بأعلى صوته والناس حوله ، وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول      والموت من ألم التفرق أجل

قالوا الرجل فقلت لست براحل      لكن مهجتي التي ترحل

ثم بقى بالمديّة بطنه وخر ميتا . فسألت عنه وعن أمره ، فقيل لى : إنه كان يهودى  
ففى بعض الملوك حجب عنه يوما واحدا .

ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل : دننى على أعبد أهل الأرض فدله على رجل  
قد قطع الجذام يديه ورجليه ، وذهب يصصره ، فسمعه وهو يقول : إلهى متشتى بهما ما شئت  
أنت ، وسلبتني ما شئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل ، يا رب يا واصل

ويزوي عن عيد الله بن ممرضى الله تعالى عنهم أنه اشتكى له ابنه ، فاشتد وجده عليه ، حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ أن يحدث بهذا النلام حدث . فأت النلام يخرج ابن عمر في جنازة وما رجل أشد سروراً أبداً منه . فقيل له في ذلك فقال ابن عمر : إنما كان حزني رحمة له فمما وقع أمر الله رضينا به

وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب ، وحمار ، وديك ، فالدريك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبائهم ، والكلب يحرسهم . قال فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فغزنوا له ، وكان الرجل صالحاً فقال : عسى أن يكون خيراً . ثم جاء ذئب فغرق بطن الطائر فقتله ، فغزنوا عليه فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً . ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : عسى أن يكون خيراً . ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا ثم قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب ، والحمار ، والديكة . فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بعله على كل حال . ويزوي أن عيسى عليه السلام مر رجل أعمى ، أبرص ، مقعد مضروب الجنبين فجاءه ، وقد تآثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له عيسى : يا هذا ، أليس شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك فقال ياروح الله ، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته . فقال له : صدقت ، مات يدك . فتأوله يده ، فإذا هو أحسن الناس وجهاً ، وأفضلهم هيئة ، وقد أذهب الله عنه ما كان به . فصحب عيسى عليه السلام وتبذره

ونقطع عروة بن الزبير رجله من ركبتيه من أكلة خرجت بها . ثم قال . الحمد لله الذي أخذ مني واحدة ، وأعطك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت . ثم لم يدع وردة تلك الليلة . وكان ابن مسعود يقول : الفقر والنفي مطيتان ما أبالي أبتهما ركبت ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان النفي فإن فيه البذل

وقال أبو سليمان النخعي قد نلت من كل مقام حلاً إلا الرضا . فأت منه إلهام الزيج ، وعلى ذلك لو أدخل الخلاق كلهم الجنة ، وأدخلني النار ، كنت بذلك راضياً . وقيل لمارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما النية فلا ، ولكن مقام الرضا

فدلته . لوجئني جسرا على جهنم يمر الخلائق علي إلى الجنة ، ثم ملأني جهنم حتى ملئته ،  
وبدلا من خليته ، لأحييت ذلك من حكمه ، ورضيت به من نفسه . وهذا كلام من علم أن الحب  
فداسترق همه ، حتى منه الإحساس بألم النار ، فإن بقي إحساس فينصره ما يحصل من لذته  
في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار ، واستيلاء هذه الحالة غيظ حال في نفسه  
وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال  
الأنبياء ، ويظن أن ما هو عاجز عنه يسجز عنه الأولياء . وقال الروذباري : قلت لأبي عبد الله  
ابن الجلاء الدمشقي . قول فلان وددت أن جسدی قرض بالمقاريض ، وأن هذا الخلق أطاعوه ،  
مامناه ؟ فقال يا هذا ، إن كان هذا من طريق التظيم والإجلال فلا أعرف ، وإن كان هذا  
من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف . قال ثم غشي عليه

وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه ، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم  
ولا يقعد ، قد تقبله في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرف  
وأخوه البلاء ، فجعل يبكي لميلاده من حاله . فقال لمبكي : قال لأبي أراك على هذه الحالة  
المنظمة . قال لا تبك ، فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي . ثم قال : أحذرك شيئا لعل الله  
أن ينفعك به ، واكنم علي حتى أموت : إن الملائكة تزورني فأنس بها ، وتسلم علي فأسمع  
تسليها ، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بمقوية ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة . فمن يشاهد  
هذا في يلائه كيف لا يكون راضيا به

قال : ودخلنا على سويد بن منبة نموده ، فرأينا ثوبا ملقى ، فساغلنا أن تحت شيئا حتى  
كشف ، فقالت له امرأته : أهلي فداؤك ، مانطعك مانتيك ، فقال طالت الضجة ،  
ودبرت الخرافة ، وأصبحت نضوا لألم طامما ، ولا أسف شرابا منذ كذا ، فذكر أياما  
وما يسرني أتي نقصت من هذا قلامة ظفر

ولما قدم سند بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كف بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه  
كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا وللهذا ، وكان بحجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب  
فأتيته وأنا غلام ، فتمرفت إليه فرفني وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت نعم . فذكر  
قصة قال في آخرها . فقلت له يا عم ، أنت تدعو للناس ، فلم دعوت لنفسك فرد الله عليك

بصرى ؟ فتبسم وقال . يا بني ، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى  
وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر . فقيل له . لو سألت الله  
تعالى أن يرده عليك ؟ فقال : إغتراضى عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدى  
وعن بعض البّاد أنه قال . إني أذنبت ذنباً عظيماً . فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ،  
وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ، فقيل له وما هو ؟ قال : قلت مرة  
لشيء كان ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو فرض جسمى بالمقاريض لكان أحب  
إلي من أن أقول لشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه

وقيل لعبد الواحد بن زيد . ههنا رجل قد تمعد خمسين سنة . فقصدته فقل له يا حيي  
أخبرني عنك هل نعمت به ؟ قال لا . قال أنسيت به ؟ قال لا . قال فهل رصيت عنه ؟ قال لا  
قال فإنما مزبذك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم . قال لولا أني أستحي منك لأخبرتلك  
بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة . ومنه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات  
القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تمدّ في طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزبذك منه في أعمال  
الجوارح التي هي مزيد أهل الموم

ودخل جماعة من الناس على الشبل رحمه الله تعالى في مارستان فد حبس فيه ، وقد جمع  
بين يديه حجارة . فقال من أنتم ؟ فقالوا محبوك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة ، قهاريوا  
فقال ما بالكم ادعيت محبتي ؟ إن صدقتم فاصبروا على بلائي  
وللشبل رحمه الله تعالى

إن الهبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران  
وقال بعض عباد أهل الشام : كلّم يلقى الله عز وجل مصدقا ولله قد كذبه . وذلك  
أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل بشير بها ، ولو كان بها شلل ظل يؤايرها . يعني بذلك  
أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه  
وقيل إنه وقع الحريق في السوق ، فقيل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك .  
فقال الحمد لله . ثم قال . كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين ؟ فتاب من التجارة  
ونزك الخانوت بنية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله

فلذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا ، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا في حبال الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجوب أحدهما : الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب للوجود ، كالرضا بالقصد ، والحجامة ، وشرب الدواء انتظارا للشفاء .

والثاني : الرضا بالخطأ وراه ، بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد ينقلب الحب بحيث ينشمر مراد الحب في مراد المحبوب ، فيكون ألد الأشياء عنده مرور قلب محبوبه ورضاه ، ونفوذ إرادته ، ولو في هلاك روحه كما قيل

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم . وقد يستولى الحب بحيث يذهب عن إدراك الألم ، فالتأيس والتجربة والشاهدة الدالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكر من تقدم من نفسه ، لأنه إنفاقه لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، فالحبيب عجائب أعظم مما وصفناه وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي ، وكان معنا فتى تشفق جارية مفضية ، وكانت معنا في المجلس ، فضربت بالقضيب وغننت

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولاسيما عاشق إذا لم يجد مشكيا

فقال لها الفتى : أحسنت والله يا سيدتي ، أفأذنين لي أن أموت فقالت مت واشدا . قال فوضع رأسه على الوسادة ، وأطبق فيه ، وغمض عينيه ، فخر كناه فإذا هو ميت .

وقال الجنيد : رأيت رجلا متعلقا بكم صبي ، وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له : إلى متى هذا النفاق الذي تظهر لي فقال قد علم الله أني صادق فيما أوردته ، حتى لو قلت

لي مت لمت . فقال إن كنت صادقا فت . قال : فتنحى الرجل وغمض عينيه ، فوجد ميتا

وقال سننون الحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجلالة فجلس الرجل ليصلح لها حيا ، فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية أه . قال : فذهش الرجل ، وسقطت لللفة من يده ، وجعل يحرك ما في القدر يده حتى سقطت أصابعه . فقالت

الجارية : « ما هذا ؟ » قال هذا مكان قولك آمين . وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال :  
 رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول  
 من مات عشقا فليمت هكذا . لا خير في عشق بلا موت  
 ثم رمى نفسه إلى الأرض ، فخلوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق  
 والتصديق به في حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ؟ وجمال  
 الحضرة الربانية أوفى من كل جمال . بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال  
 نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنفثات اللوزونة  
 فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلوب

## بيان

أن الدعاء غير منافض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا . وكذلك كراهة الماضي ، ومقت أهلها ، ومقت أسبابها ،  
 والسي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضها أيضا . وقد غلط في ذلك بعض  
 البطالين المتترين ، وزعم أن الماضي ، والفجور ، والكفر ، من قضاء الله وقدره عز وجل ،  
 فيجب الرضا به . وهذا جهل بالتأويل . وغفلة عن أسرار الشرع  
 فأما الدعاء فقد تمبذنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء  
 عليهم السلام ، على ما نقلناه في كتاب الدعوات تدل عليه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 في أعلى المقامات من الرضا ، وقد أتى الله تعالى على بعض عبادته بقوله ( وَيَذْعُرُونَ قُلُوبَهُمْ لَوْلَا رِزْقُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ )  
 وأما إنكار الماضي وكراهتها ، وعدم الرضا بها ، فقد تمبذ الله به عبادته ، وذمهم على  
 الرضا به فقال ( وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُمْلَأُوا بِهَا )<sup>(١)</sup> وقال تعالى ( رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا  
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ )<sup>(٢)</sup> وفي الخبر المشهور « مَنْ شَهِدَ مُنْكَرًا فَرَضِيَ بِهِ  
 فَكَأَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ » وفي الحديث<sup>(٣)</sup> « الدُّعَاءُ عَلَى الشَّرِّ كَقَاتِلِهِ »

( ١ ) حديث إمام علي الشركفاه : أبو منصور الدبيلي في مسند المدروس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا

( ٢ ) الأنبياء : ٩٠ ( ٣ ) يونس : ٧ ( ٤ ) التوبة : ٩٣



وعن ابن مسعود . إن العبد ينجب عن المنكر وبكون عليه مثل وزر صاحبه .  
 قيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به . وفي الخبر <sup>(١)</sup> « لَوْ أَنَّ عِدَّةً قُتِلَ بِالشَّرِّقِ  
 وَرَضِيَ بِقَتْلِهِ آخَرُ بِالْمُتَرَبِّبِ كَانَ شَرِّكَاً فِي قَتْلِهِ » . وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة  
 في الخيرات وتوق الشرور ، فقال تعالى ( وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ <sup>(٢)</sup> )  
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لَأَحْسَدُ إِلَّا فِي أَمْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ  
 يَنْتَهِي فِي النَّاسِ وَيُؤْمِلُهَا وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَطَهُ عَلَى حَلَكَةِ فِي الْحَقِّ » وفي لفظ  
 آخر « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ أَنَّنِي  
 اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ »

وأما بنى الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم ، فأورد فيه من شواهد القرآن  
 والأخبار لا يحصى ، مثل قوله تعالى ( لَا يَتَّخِذُ الْكُافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
 الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ <sup>(٥)</sup> )  
 وقال تعالى ( وَكَذَلِكَ نَوَلَّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا <sup>(٦)</sup> )

وفي الخبر <sup>(٧)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ الْيَمِيقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَنْتَفِضَ كُلُّ مُتَافِقٍ وَعَلَى  
 كُلِّ مُتَافِقٍ أَنْ يَنْتَفِضَ كُلُّ مُؤْمِنٍ » وقال عليه السلام <sup>(٨)</sup> « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال  
<sup>(٩)</sup> « مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا وَوَالَاهُمْ خَيْرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

( ١ ) حديث لو أن رجلاً سلب بالشرق ورضى بقتله آخر في العرب كان شركاً في قتله : لم أحذه له أصلاً بهذا اللفظ  
 ولأن عدى من حديث أبي هريرة من حفر مصبة فكرها فكأنما غاب عنها من غاب عنها أهلها  
 فكأنما حفرها ونقدم في كتاب الأسماء بالمعروف

( ٢ ) حديث لأحد الإي اثنين - الحديث : البخارى من حديث أبي هريرة وسلم من حديث  
 ابن مسعود وقد تقدم في العلم

( ٣ ) حديث إن الله أخذ اليمين على كل مؤمن أن ينتفض كل متافق - الحديث : لم أحذه أصلاً

( ٤ ) حديث المرء مع من أحب : تقدم

( ٥ ) حديث من أحب قوماً والاهم حشر معهم : الطبراني من حديث أبي هريرة وابن عدى من حديث جابر  
 من أحب قوماً على أهلهم حشر في زمنهم زاد ابن عدى يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل

ابن يحيى التيمي ضعيف

( ٦ ) للطفنين : ٢٦ - آل عمران : ٢٨ - الثالثة : ٥١ - الأنعام : ١٢٩

وقال عليه السلام <sup>(١)</sup> «أَوْتِقْ عَرَى الْإِيمَانِ الْحُبَّ فِي اللَّهِ وَالتَّبَضُّعُ فِي اللَّهِ»  
وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والتبضع في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة  
وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده  
فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار <sup>(٢)</sup> بالرضا بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المصاحبة  
بغير قضاء الله تعالى فهو محال ، وهو قاذح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها  
ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه ؟  
وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟

فاعلم أن هذا مما يلبس على الضمفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد  
التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا ، وسموه حسن  
للخلق ، وهو جهل محض . بل تقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد  
من جهة واحدة ، على وجه واحد . فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ،  
ويرضيه من وجه ، إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك ، وساع في إهلاكه  
فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه مات عدو عدوك . وكذلك  
المصيبة لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله ، واختياره ، وإرادته ، فيرضى به  
من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ، ورضا بما فعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث  
إنه كسبه ، ووصفه ، وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده ، حيث سلبت عليه أسباب  
البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بمثل

فلتفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه : إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني  
وأنصب فيه مقيارا صادقا ، وميزانا ناطقا ، وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضره بضربا

( ١ ) حديث أوتق عرى الإيمان الحب في الله والتبضع في الله : رواه أحمد وهدم في آداب الصحبة

( ٢ ) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله : الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه  
بما قسم الله عز وجل - الحديث : وقال غريب وهدم حديث أرض بقاسم الله لك تكن أغنى الناس  
وحديث إن الله يسقطه جعل الروح والفرح في الرضا وهدم في حديث الاستخارة وأقدر لي  
الحير حيث كان ثم رضى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل  
من العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء - الحديث : وغير ذلك

ينظره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته وأخذته عدوا لى . فكل من أحب أعلم  
أيضا أنه عدوى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديق . وعجى . ثم قل ذلك ، وحصل مراده من  
الشم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب المداوة . فحق على كل  
من هو صادق فى محبته ، وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تديرك فى إيداء هذا الشخص  
وضربه وإيماده ، وترييضك إياه للبغض والمداوة ، فأنا أحب له ، وراض به ، فإنه رأيت  
وتديرك ، وفعلك وإرادتك . وأما شتمه إياك ، فإنه عدوان من جهته ، إذ كان حقه أن يصبر  
ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه . فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم للوجوب العقت  
فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتديرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل  
لكان ذلك نقصانا فى تديرك ، وتوقيفا فى مرادك ، وأنا كاره لفوات مرادك . ولكنه  
من حيث إنه وصف لهذا الشخص ، وكسب له ، وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف  
ما يقتضيه جالك ، إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره  
له من حيث نسبته إليه ، ومن حيث هو وصف له ، لامن حيث هو مرادك ومقتضى تديرك  
وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ، وعجب له ، لأنه مرادك ، وأنا على موافقتك  
أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحيب المحبوب حيبا ، ولعدوه عدوا . وأما  
بغضه لك فلأن أرمائه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك ، وسلطت  
عليه دواعى البغض ، ولكى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك البغض وكسبه وفعله ،  
وأما مقتته لذلك ، فهو محموت عندى لمقتته إياك ، وبغضه ومقتته لك أيضا عندى مكروه من  
حيث إنه وصفه ، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي ،

وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضي ، ومن حيث إنه مرادك  
مكروه . وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فعله ومراده ، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه  
فهذا لا تناقض فيه . ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ، ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى  
فإذا تسليط الله دواعى الشهوة والمصيبة عليه ، حتى يجره ذلك إلى حب المصيبة ويجره  
الحب إلى فعل المصيبة ، يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا . ليجر الضرب  
إلى الغضب ، والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه ، وإن كانت معصيته بتدبيره

يشبه بنقض المشتوم لمن شتمه ، وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده ، أعنى تسليط دواعي المعصية عليه ، يدل على أنه سبقت مشيئته بإيماده ومقتته ، فواجب على كل عبد محب لله أن ينفذ من أنفضه الله ، ويمقت من مقتته الله ، ويمادى من أيمده الله عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته وغالفته ، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإيساده قهرا ، ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقبلا بنفيسه إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإيماده

وهذا يقرر جميع ماوردت به الأخبار من البنفس في الله ، والحب في الله ، والتشديد على الكفار ، والتفليظ عليهم ، والبيانة في مقتهم ، مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لارخصة في إفشائه . وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضي به . فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل ، وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكرهية فهو أيضا مقصر . وكشف النطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَلْقَدْرُ سِرِّ اللَّهِ فَلَا تَفْشَوْهُ » وذلك يتعلق بلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تمبد به الخلق ، من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ، ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الفرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه

وهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة ، والمعصية من المعاصي ، وسائر الأسباب المنيعة على الدين ، غير منافض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تمبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر ، وخشوع القلب ، ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ، ومفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز ، وشرب الماء ، ليس منافضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش . وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبة

(١) حديث القدر سر الله فلا تفشوه : أي نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عمر في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

مسبب الأسباب ، فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به ، وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يتناقض التوكل ، واستقصيناه في كتاب التوكل ، فهو أيضا لا يتناقض الرضا ، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ، ويتصل به .  
نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى ، وإبكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا . وإظهار البلاء على سبيل الشكر ، والكشف عن قدره تعالى لا يتناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار . أي في معرض الشكاية ، وذلك في الصيف . فأما في الشتاء فهو شكر . والشكوى تنافض الرضا بكل حال . ودم الأطلمة وعيها يتناقض الرضا بقضاء الله تعالى ، لأن مذمة الصنعة مذمة الصانع ، والكل من صنع الله تعالى وقول القائل . الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب ، والاحتراف كد ومشقة ، كل ذلك قادح في الرضا . بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره ، والمملكة لملكها ، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا بألى أصبحت فنيا أو فقيرا ، فإنى لأدرى أيهما خير لي

## بيان

أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي وملتها لا يقدح في الرضا  
اعلم أن الضمير قد يظن <sup>(١)</sup> أن نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون ، يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى ، وذلك حال : بل الملة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون ؛ أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء ، وبقي فيه المرضى مهملين ، لا تمتهد لهم ، فيهلكون هرا وضرأ . ولذلك <sup>(٢)</sup> شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بغض الأخبار بالفرار من الزحف ؛ ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف . وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل  
وإذا عرف المسمى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار بما لا بد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي

( ١ ) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون : تقدم في أبواب السفر

( ٢ ) حديث انهضه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف : تقدم في

والأسباب التي تدعو إليها ، لأجل التنفير عن المصيبة ليست مذمومة ، فما زال السلف الصالح يتأدون ذلك ، حتى اتفق جماعة على ذم بندگان ، وإظهارهم ذلك ، وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد ملفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بندگان . قيل وكيف ؟ قال هو بلد تردى فيه نعمة الله ، وتستصغر فيه مصيبة الله ولما قدم خراسان قيل له . كيف رأيت بندگان ؟ قال ما رأيت بها إلا شرطيا غضبان ، أو تاجرا لهفان ، أو قارئا حيران . ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة ، لأنه لم تعرض لشخص بينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة ، وقد كان مقامه ببغداد ، يرقب استمداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينارا ، لكل يوم دينار كفارة لمقامه

وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحمار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال العراق . قال فما تصنع به ، بلنني أنه مامن أحد يسكن العراق إلا قبض الله له قرينا من البلاء

وذكر كعب الأحمار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر ، وفيه الداء المضال وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام ، وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك

وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض ، فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه ، وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال ببغداد . فأعرض عنه وقال : يأتيينا أخدم في زي الرهبان ، فإذا سأناه أين تسكن قال في عش الظلمة وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتبذ يبغداد مثال المتعبد في الحبس . وكان يقول

لأقتدوا بي في المقام بها ، من أراد أن يخرج فليخرج  
وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد أثر في نفسى . قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالنور

وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد : زاهدهم زاهد ، وشريرهم شرير فهذا يدل على أن من يلي بيعة تكثر فيها المعاصي ، ويقبل فيها الخير ، فلا عذر له في المقام بها

بل ينبغي أن يساجر . قال الله تعالى ( أَلَمْ تَكُنْ أَرْضًا مَّاءً وَهَبَ اللَّهُ مِنْهَا نَاسًا فَمُهَاجِرُوا فِيهَا<sup>(١)</sup> )  
فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة ، فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله ، مطمئن النفس إليه ،  
بل ينبغي أن يكون منزوع القلب منها ، قائلا على الدوام ( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ  
الظَّالِمِ أَهْلُهَا<sup>(٢)</sup> ) وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ، ودمر الجميع ، وشمل الطيعين .  
قال الله تعالى ( وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً<sup>(٣)</sup> )

فإذا ليس في شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق ، إلا من حيث إضافتها  
إلى فعل الله تعالى . فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث ، رجل يحب الموت شوقا إلى  
لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أَرْضَى بِمَا اخْتَارَهُ  
الله تعالى . ورفعت هذه المسألة إلى بعض المارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقبلهم ففضولا  
واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط . فقال  
الثوري : كنت أكره موت النجاة قبول اليوم ، واليوم وددت أني مت . فقال له  
يوسف : لم ؟ قال لما أعخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لكني لأكره طول البقاء . فقال  
سفيان : لم ؟ قال لئلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا . فقيل لوهيب . أبش تقول  
أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إليّ أحب إلى الله سبحانه وتعالى فقبله الثوري  
بين علييه وقال : روحانية ورب الكعبة

## بيان

جملة من حكايات الصالحين وأحوالهم ومكاشفتهم

قيل لبعض المارفين . إنك تحب . فقال : لست عبا ، إنما أنا محبوب ، والمحبة متعوب  
وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة . فقال : أنا كل السبعة . وكان يقول  
إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا : قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قيل لأني رأيت  
أربعين بدلا ، وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له . بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام

فتبسم وقال : ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه  
وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال : ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي الله  
تعالى إلا عرفته ، إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه

وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة : حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى . فصاح ثم قال :  
ويلكم ، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك . قيل : فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى  
فقال : وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال  
نعم . دعوت نفسي إلى الله فجبحت عليّ ، فغزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ، ولا أذوق  
النوم سنة ، فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ ، أنه رأى أبا يزيد في بعض  
مشاهداته ، من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزا على صدره قدميه ، رافعا أخصيه  
مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بطنه على صدره ، شاخصا بعينه لا يطفرف . قال ثم سجد عند السحر  
فأطاله ، ثم قعد فقال . اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء ، والمشي في الهواء ، فرضوا  
بذلك . وإنى أعوذ بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض ، فرضوا بذلك  
وإنى أعوذ بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض ، فرضوا بذلك ، وإنى أعوذ  
بك من ذلك . حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء . ثم التفت فرآني ، فقال  
يحيى ، قلت نعم ياسيدي . فقال مُدْمِنِي أَنْتَ ههنا ؟ قلت منذ حين . فسكت . فقلت ياسيدي  
حدثني بشيء . فقال أحذرك بما يصلح لك أَدْخَلَنِي فِي الْفَلَكَ الْأَسْفَلِ ، فدورني في الملكوت  
السفلي ، وأراني الأرضين وما تحتهما إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي ، فطوف بي في  
السموات ، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه . فقال سلني أي شيء  
رأيت حتى أهبه لك ، فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه . فقال أنت عبيدي  
حقا ، تعبدني لأجل صدقا ، لأفعلن بك ولأفعلن ، فذكر أشياء . قال يحيى : فهأنى ذلك  
وامتلائت به ، وعجبت منه ، فقلت ياسيدي لم لأسألتك المعرفة به ، وقد قال لك ملك الملوكة  
سلني ما شئت ؟ قال فصاح بي صيحة ، وقال اسكت وبك . غرت عليه مني حتى لأحب أن يعرفه سواء  
وحكي أن أبا تراب النخعي كان معجبا ببعض المريدين ، فكان يدينه ويقوم بمصالحه ، والمريد  
مشغول بمبادئه ومواجده ، فقال له أبا تراب يوما : لو رأيت أبا يزيد ؟ فقال : إنني عنه مشغول .



فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لورأيت أبا يزيد ، هاج وجد المرید فقال : ويحك ، ما أصنع بأبي يزيد ؟ قدرأيت الله تعالى فأغاثني عن أبي يزيد . قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك . فتقر بالله عز وجل ! لورأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة . قال : فهبت الفتى من قوله وأنكره ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك ، أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فمرف ما قلت ، فقال : احملى إليه . فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا على تل ننظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوى إلى غيضة فيها سبع ، قال : فربنا وقد قلب فروة على ظهره ، فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه . فنظر إليه الفتى فصمق ، فخر كناه فإذا هو ميت ، فتعانا على دفنه . فقلت لأبي يزيد : يا سيدي نظره إليك قتله . قال لا : ولكن كان صاحبكم صادقا ، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه ، فضاقت من حمله لأنه في مقام الضعفاء المریدین ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال ، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إن الله عبادا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ، ولكن لا يفعلون . قيل لم ؟ قال لأنهم لا ينجون ما لا يجب . ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال : واوسألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها

وهذه أمور ممكنة في أنفسها ، فمن لم يحظ بشئ منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة ، والفضل عميم ، ومحائب الملك والملسكوت كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول : إن أعطاك مناجاة موسى ، وروحانية عيسى ، وخلة إبراهيم ، فأطلب ما وراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضمافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حبيبك به وهذا بلا مثلهم ، ومن هو في مثل حالهم ، لأنهم الأمتل فالأمتل به . وقد قال بعض الصالحين : كوشفت بأربعين حوراء ، رأيتهن يتسعين في الهواء ، عليهن ثياب من ذهب ، وفضة وجوهر ، يتخشنخس ويتثنى معهن ، فنظرت إليهن نظرة : فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثلاثين حوراء فوقهن في الحسن والجلال ، وقيل لي انظر إليهن ، قال فسجدت ونمضت عيني في سجودي لثلا أنظر إليهن ، وقلت : أعوذ بك

نماسوك ، لا حاجة لى بهذا ، فلم أزل انضرع حتى صرفهن الله عنى  
فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن يتكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلاً ، فلو لم يثر من كل  
واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة ، وقلبه القاسى ، لضاق مجال الإيمان عليه . بل هذه  
أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ، ونيل مقامات كثيرة ، أدناها الإخلاص ، وإخراج حظوظ  
النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهراً وباطناً ، ثم مكاتبة ذلك عن الخلق بستر  
الحال ، حتى يبقى متحصناً بحسن الخمول . فبهذه أوائل سلوكهم ، وأقل مقاماتهم ، وهي  
أعز موجود فى الأتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق  
يفيض عليه نور اليقين ، وينكشف له مبادئ الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق  
يمررى يمرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة فى الحديدة إذا شككت ، وتقيت ،  
وصقلت ، وصورت بصورة المرأة ، فنظر المنكر إلى ما فى يده من زبرة حديد مظلم قد  
استولى عليه الصدا وانجبت ، وهو لا يحكى صورة من الصور ، فأنكر إمكان انكشاف  
المرئى فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضللال

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء ، إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك ، وقصور  
من رآه ، وبئس المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى . بل إنما يشم روائح المكاشفة من  
سلك شيئاً ولو من مبادئ الطريق ، كما قيل لبشر : بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال : كنت  
أكاثم الله تعالى حالى . مناه أسأله أن يكتم علي ويخفى أمرى . وروى أنه رأى الخضر عليه  
السلام فقال له : ادع الله تعالى لى . فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت : زدنى قال : وسترها  
عليك . فقيل مناه سترها عن الخلق ، وقيل مناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها  
وعن بعضهم أنه قال : أفلتني الشوق إلى الخضر عليه السلام ، فسألت الله تعالى مرة  
أن يرينى إياه ليعلمنى شيئاً كان أم الأشباه علي . قال : فرأيت ، فسا غلب علي همى ولا همى  
إلا أن قلت له : يا أبا العباس ، علمنى شيئاً إذا قلته حجب عن قلوب الخليفة فلم يكن لى فيها  
قدر ، ولا يرقى أحد بصلاح ولا ديانة . فقال : قل اللهم أسبل علي كفيف سترك ، وحط  
علي سرادقات حجيك ، واجعلنى فى مكنون غيبك واجعلنى عن قلوب خلقك . قال : ثم غاب  
فلم أره ، ولم أشتق إليه بعد ذلك . فما زلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم . فحكى أنه  
صار بحيث كان يستدل ويتمهن ، حتى كان أهل النعمة يستخرون به ، ويستخرونه فى الطرق

يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم . وكان الصبيان يلعبون به ، فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله في ذله وغضله . فبهكذا حال أولياء الله تعالى . ففي أمثال هؤلاء يقبض أن يطلبوا . والمنزورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطبالسة ، وفي المشهورين بين الخلق بالعلم ، والورع ، والرياسة . وغيره الله تعالى على أوليائه تأتي الإخفاء ، كما قال تعالى : **أُولَئِكَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَلَهُمْ أَسْمَاءٌ مِثْلُ آبَائِهِمْ لَمْ يَأْتِ** تحت قبائى ، لا يعرفهم غيرى . وقال صلى الله عليه وسلم **« رُبُّ أَشْتَأْ أَغْبَرُ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا يَرَهُ »**

وبالجملة فأبعد القلوب عن شام هذه الممانى القلوب المتكبرة ، المعجبة بأنفسها ، المستبشرة بعلمها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة ، المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واحتضن لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولا . فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه ، بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات ، فتل هذا القلب يرجي له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح . فإن فقدنا مثل هذا القلب ، وحرمانا مثل هذا الروح ، فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله . فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله ، مؤمنا بهم ، فمسي أن يحشر مع من أحب

ويشهد لهذا ماروي أن عيسى عليه السلام قال لبنى اسرائيل : **أَبْنِ بَيْتَ الزَّوْعِ** : قالوا في التراب . فقال : **يَحْقُ أَقُولُ لَكُمْ ، لَا تَبْتَئِ الْحِكْمَةَ إِلَّا فِي قَلْبٍ مِثْلِ التَّرَابِ**

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإزالة النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روي أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنية ، دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ، ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك ، حتى أدخله في المرة الرابعة . فسأله عن ذلك . فقال : **قَدْ رَضْتُ نَفْسِي عَلَى الذِّلِّ عَشْرِينَ سَنَةً ، حَتَّى صَارَتْ بَعْزَةُ الْكَلْبِ يَطْرُدُ فَيَطْرُدُ . ثُمَّ يَدْعُو فَيُرْمَى لَهُ عَظْمٌ فَيَمُودُ ، وَلَوْ رَدَدْتَنِي خَمْسِينَ مَرَّةً ثُمَّ دَعَوْتَنِي بَعْدَ ذَلِكَ لَأَجَبْتُ** وعنه أيضا أنه قال : **نَزَلْتُ فِي مَحَلَّةٍ ، فَعَرَفْتُ فِيهَا بِالصَّلَاحِ ، فَتَشَتَّ عَلَيَّ قَلْبِي ، فَدَخَلْتُ الْحَمَامَ وَعَدَلْتُ إِلَى ثِيَابٍ فَآخِرَةٌ فَسَرَقَتْهَا وَلَبَسْتُهَا ، ثُمَّ لَبَسْتُ مِرْقَعَتِي فَوْقَهَا وَخَرَجْتُ ، وَجَعَلْتُ أَمْشِي قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَلَحَقُونِي فَتَزَعُوا مِرْقَعَتِي ، وَأَخَذُوا الثِّيَابَ وَصَفَقُونِي وَأَوْجَعُونِي**

( ١ ) حديث رب أشئت أغبر ذى طمرين : سلم من حديث أبي هريرة وقد مضى

من باب فسرته بعد ذلك أعرف بعض الحام ، فسكنته نفسي

فإنما كانوا يرون أنهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ، ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محبوب عن الله تعالى ، وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلا بغيره أو بنفسها ، وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لأفطر ، وأفوم الليل لأنام ، ولا أبعد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا ، وأنا أصدق به وأحبه . فقال أبو يزيد : ولو صمت ثمانية سنة ، وقت ليلا ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محبوب بنفسك . قال فلهذا دواء ؟ قال نعم . قال قل لي حتى أعمله . قال لا تقبله . قال فاذكره لي حتى أعمله . قال اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس وانزع عبادة ، وعلق في عنقك غلالة مملوءة جوزاء واجمع الصبيان حولك ، وقل كل من صفعتي صفعة أعطيتها جوزة ، وادخل السوق ، وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك . فقال الرجل : سبحان الله ، تقول لي مثل هذا ؟ فقال أبو يزيد : قولك سبحان الله شرك . قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك . فقال هذا لأفعله ، ولكن دلني على غيره . فقال ابتدء بهذا قبل كل شيء . فقال لأطبقه . قال قد قلت لك إنك لا تقبل . فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه . ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله . فن لا يطبق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من دواى نفسه بعد المرض ، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فأقل درجات الصحة الإيمانية بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا وهذه أمور جليلة في الشرع وامنحة ، وهي مع ذلك مستبعدة عند من يمد نفسه من علماء الشرع . فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا يَسْتَكْمِلُ الْإِيمَانُ حَتَّى تَكُونَ مَلَّةٌ الشَّيْءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ وَحَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يَعْرِفَ أَحَبُّ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ » وقد قال

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلبه الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب

إليه من أن يعرف : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل لعلي

ابن أبي طلحة ما سمع من التابعين ولم أجده له أصلا .

عليه السلام<sup>(١)</sup> ثلاث من كن فيهن استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمر أن أحد لها الدنيا والآخرة للآخرة آخر أمر الآخرة على الدنيا وقال عليه السلام<sup>(٢)</sup> ولا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غلب لم يخرج غلبته عن الحق وإذا رغب لم يدخله رجاءه في باطل وإذا قدر لم يتأول ما أوله<sup>(٣)</sup> . وفي حديث آخر<sup>(٤)</sup> ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود الندى في الرضا والنصب والقص في التقي والفقر وخشية الله في السر والعلانية . فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولي الإيمان ، فالعجب من يدعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عالية وراء الإيمان وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه . إنما أخذ خلق من لا يفترون ذكراً ولا يكون له مغيرى ، ولا يؤثر علي شيئاً من خلقى ، وإن حرق بالنار لم يجحد لحرق النار وجما ، وإن قطع بالناشيز لم يجحد لس الحديد الما

فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فنأين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب ، والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وقاوتها في الزيادة والنقصان لاحصر له ، ولذلك قال عليه السلام<sup>(٥)</sup> للصديق رضي الله عنه إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمئى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن بي من ولد آدم . وفي حديث آخر<sup>(٦)</sup> إن الله تعالى ثلث ما خلق خلقاً من لقيه يخلق منها مع الثو جيد دخل الجنة . فقال أبو بكر . يا رسول الله هل مني خلق ؟ فقال « كلتها فيك

( ١ ) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم - الحديث : أبو منصور العبدى في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادى صحبه ابن معين والشافى ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد

( ٢ ) حديث لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غلب لم يخرج غلبته عن الحق - الحديث : الطبرانى في المعجم لم يلق ثلاث من أخلاق الإيمان واستاده صحيح

( ٣ ) حديث ثلاث من أوتي فقد أوتي ما أوتي آل داود الندى في الرضا والنصب : غريب بهذا اللفظ والمروى ثلاث صحبات ذكرهن نحوه وقد تقدم

( ٤ ) حديث أنه قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمئى - الحديث : أبو منصور العبدى في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقدم وأحمر والحارث صحيح

( ٥ ) حديث إن الله تعالى ثلث ما خلق خلقاً من لقيه يخلق منها مع التوحيد دخل الجنة - الحديث : الطبرانى في الأوسط

يَا أَبَا بَكْرٍ وَأُحِبُّهَا إِلَى اللَّهِ سَخَاءً . وقال عليه السلام " رَأَيْتُ مِزَانًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُشْبِي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَتْ بِهِمْ وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَرَحِيءُ يَأْتِي فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ " ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره ، فقال " لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَا تَخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى ، يَمْنَى بِنَفْسِهِ

## خاتمة الكتاب

بكلمات متفرقة تنطق بالهبة ينطق بها

قال سفيان . الحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره . دوام الذكر . وقال غيره . إشار المحبوب ، وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة ، فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه ، وتنتعج الألسن عن عبارته . وقال الجيد . حرم الله تعالى المحبة على صاحب الملاقة . وقال : كل محبة تكون بموض ، فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله إحدرك أن تذلل لغير الله . وقيل للشبل رحمه الله . صف لنا العارف والمحِب فقال . العارف إن تكلم ملك والمحِب إن سكنت ملك . وقال الشبل رحمه الله

يأبها السيد العكرم	حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفوني	أنت بما مر في علم
عجبت لمن يقول ذكرت إني	وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا	ولولا حسن ظني ما حييت
غأبيا بالتي . وأموت شوقا	فكم أحيا عليك وكم أموت

من حديث أنس مرفوعا عن الله خلقت بضعة عشر وللمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثمانية عشرية وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي الكبير من رواية الثيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الإيمان والبرار من حديث عثمان بن عفان أن الله تعالى ثمانية وسبعة عشر شريعة - الحديث : وليس فيها كلها كعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة

( ١ ) حديث رأيت ميزانك من السماء فوضت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجعت بهم - الحديث : أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

( ٢ ) حديث لو كنت متخذًا من الناس خليلًا لا تخذت أبا بكر خليلًا - الحديث : منفق عليه وقد تقدم

شربت الحب كأساً بمد كاس      فاقذ الشراب وما رويت  
فليت خياله نصب لىنى      فإن قصرت في نظري هيمت

وقالت : زابسة المدوية يوما : من يدلنا على حبيبتنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبتنا معنا  
ولكن الدنيا قطمتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى  
عليه السلام . إني إذا طلعت على سر عبدك أجد فيه حب الدنيا والآخرة ، ملائمة من حبي ،  
وتوليتة بحفظي . وقيل : تكلم سمعون يوما في المحبة ، فإذا بطائر تزل بين يديه ، فله يزل  
ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فات . وقال إبراهيم بن آدم : ألهي أنك تعلم  
أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك ، وأتستنى بذكرك ،  
وفرغتي للتفكير في عظمتك . وقال السري رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال  
إلى الدنيا طاش ، والأحق بقدر ويروح في لاش ، والعافل عن عيوبه فتاش

وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت والله إني لأحبه حباً شديداً ، ولكن  
حب الخالق شغلي عن حب المخلوقين . وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال ، فقال  
الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : الحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة ، إنما يحب  
من مولاه مولاه . وقال الشبلي : الحب دهش في لذة ، وحيرة في تعظيم ، وقيل : المحبة أن تمحو  
أثرك عنك ، حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك . وقيل : المحبة قرب القلب من المحبوب  
بالاستبشار والفرح . وقال الخواص : المحبة نحو الإرادات ، واحتراق جميع الصفات والحاجات  
وسئل سهل عن المحبة فقال : عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم المراد منه وقيل :  
معاملة المحب على أربع منازل . على المحبة ، والهبة ، والحياء ، والتعظيم . وأفضلها التعظيم والمحبة ، لأن  
هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن جبان : المؤمن  
إذا عرف به عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد خلوة الأقبال عليه لم ينظر إلى  
الدنيا بين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا ، وتروحه في الآخرة  
وقال عبد الله بن محمد : سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية ، والدموع على خدها جارية  
والله لقد سمعت من الحياء ، حتى لو وجدت الموت يباع لا شترته شوقاً إلى الله تعالى ، وحباً للقائه ؛  
قال : فقلت لها . فلي ثقة أنت من مملك ؟ قالت لا . ولكن لحبي إياه ، وحسن ظني به ، أفتراه يخذلني  
وأنا أحبه ؟ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . لو يعلم اللدبرون عن كيف انتظاري لهم

ورفتي بهم، وشوقى إلى ترك معاصيهم، لما تواشوقا إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي . ياداوذه  
إرادتي في المديرين عني ، فكيف إرادتي في القبلين علي ! ياداوذه ، أحوج ما يكون العبد إلي  
إذا استغنى عني ، وأرحم ما أكون بسبدي إذا أدبر عني ، وأجل ما يكون عدى إذا رجع إلي  
وقال أبو خالد الصفار : لقي نبي من الأنبياء عابدا ، فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لينا  
ممشر الأنبياء تعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء ، ونحن نعمل على المحبة والشوق  
وقال الشيلي رحمه الله : أرحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداوذه ، دكرى للذاكرين ،  
وجفتي للمطمئنين ، وزيارتي للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام  
يا آدم ، من أحب حبيبا صدق قوله . ومن أنس بحبيبه رضي فعله ، ومن اشتاق إليه جدي مسيره  
وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول . واشوقاه لمن يراني ولا أراه  
وقال الجنيد رحمه الله . بكى يونس عليه السلام حتى مى ، وقام حتى انخنى ، وصلى حتى أنعد

وقال . وعنك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار خلصته إليك شوقا مني إليك  
وعن <sup>(١)</sup> علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ستة فقال  
« المرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنبيى  
والثقة كثرى والخزنة رفيق والعلم سلاحى والصبر رداي والرصانة غيبتى والعجز نفري  
والزهد حرمتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حبي والجهاد خلقتي وقرة  
عيني في الصلاة » . وقال ذوالنون . سبحانه من جعل الأرواح جنودا مجنده ، فأرواح العارفين  
جلالية قدسية ، فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية ، فلذلك حنوا إلى  
الجنة ، وأرواح النافلين هوائية ، فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ : رأيت في  
جبل الكام رجلا أسمر اللون ، ضيف البدن ، وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال : الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه ، حتى يحرق بهما في قلوبهم من الخواطر  
والإرادات ، والموارض والحاجات . فهذا القدر كاف في شرح المحبة ، والأنس ، والشوق  
والرضا ، فلتقتصر عليه ، والله الموفق للصواب

تم كتاب المحبة ، والشوق ، والرضا ، والأنس ، يتلوه كتاب النية والإخلاص ، والصدق

( ١ ) حديث على سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ستة فقال المرفة رأس مالي والعقل أصل ديني

الحديث : ذكره القاضي عياض من حديث على بن أبي طالب ولم أجد له إسنادا



كتاب النية والإخلاص والصدق

### كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربيع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدا نيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين . وغالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة للتقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى ( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ <sup>(١)</sup> ) فما لله إلا الدين الخالص للدين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين ، وعلى جميع النبيين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب بيسيرة الإيمان وأنوار القراءة أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكت إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكت إلا الماملون ، والماملون كلهم هلكت إلا المخلصون ، والمخلصون كلهم هلكت إلا المخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق ومحقق هباء . وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً بمغموراً ( وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى مَا عَمِلُوا مِنْ حَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ مَبْغَضًا <sup>(٢)</sup> )

وليت شمرى كيف يصح نيته من لا يعرف حقيقة النية ، أو كيف يخلص من صحيح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه . فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصحبها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص ، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص . ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب .

الباب الأول : في حقيقة النية ومعناها

الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته

الباب الثالث : في الصدق وحقيقته

## الباب الأول

في النية

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيراً من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار

## بيان

لفضيلة النية

قال الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (١) والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مِثْلُهُ مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ أَمْرٍ يُنْكِبُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَكْثَرُ شَهَادَةِ أَشْيَى أَصْحَابُ الْقُرْشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفِينِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ ». وقال تعالى (إِنْ يُرِيدِ إِلَّا خَيْرًا لَكُمْ يُوقِظُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) (٤) فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَئِنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » وإنما نطرق إلى القلوب لأنها مظنة النية. وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنَّ الْقَمِيدَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالًا حَسَنَةً تَقْصِدُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُحُفٍ مَحْتَمَةٍ فَتُلْقَى بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ أَلْقُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يَرُدَّ بِهَا فِئًا وَجَبِي ثُمَّ يُبَادِي الْمَلَائِكَةَ أَكْتَبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا أَكْتَبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّهُ تَوَّاهُ ».

(كتاب النية والاخلاص والصدق)

- (١) حديث أفعال الأعمال بالنيات - الحديث : متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم  
(٢) حديث أكثر شهداء أمي أصحاب القرش ورب قنبل بين الصفين الله أعلم بنية : أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن أبيه  
(٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم  
(٤) حديث إن البديل يعمل أعمالاً حسنة تقصدها الملائكة - الحديث : الدارقطني من حديث أنس بن مالك قد تقدم

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «النَّاسُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمًا وَمَالًا فَهُوَ يَمْلِكُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ يَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِي اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَمْلِكُ فِيمَا فِي الْأَجْرِ سِوَاهُ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَتَحَبَّطُ بِحِمْلِهِ فِي مَالِهِ يَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَمْلِكُ فِيمَا فِي الْوُزْرِ سِوَاهُ، أَلَا تَرَى كَيْفَ شَرَكُهُ بِالْثَنَةِ فِي عَاسِنٍ عَمَلُهُ وَمِثْلُوه

وكذلك في حديث أنس بن مالك . لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك <sup>(٢)</sup> قال «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَفْوَاجًا مَاقُطَعًا وَادِيًا وَلَا وَطِنًا مَوْطِنًا يَنْفِطُ الْكُفَّارَ وَلَا أَتَقَنَّا نَفَقَةً وَلَا أَصَابُنَا غَمَصَةٌ إِلَّا شَرَكُونَا فِي ذَلِكَ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالُوا كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنَّا قَالَ «حَبَسَهُمُ الْمَذْرُ» فشرَكُوا بحسن النية

وفي حديث <sup>(٣)</sup> ابن مسعود «مَنْ هَاجَرَ يَتَنَبَّيْ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ» فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس . وكذلك جاء في الخبر <sup>(٤)</sup> أن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قاتل الحمار ، لأنه قاتل رجلا يأخذ سلبه وسحاره ، فقتل على ذلك ، فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> «مَنْ غَزَا وَهُوَ لَا يَنْوِي إِلَّا عَقْلًا فَلَهُ مَا نَوَى» وقال <sup>(٦)</sup> «أَبَى اسْتَمْتِ رَجُلًا يَنْزُو مَعِي ، فَقَالَ لَاحِقِي تَجْعَلِي لِي جَمَلًا . فَجَلَّتْ لَهُ . فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ «لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ إِلَّا مَا جَمَلَتْ لَهُ»

(١) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا الحديث : ابن ماجه من حديث أبي كشاة الأعمري : صحيح بلفظ مثل هذه الأمة قتل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه والله تبارك وتعالى أربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح

(٢) حديث أنس بن مالك قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك : حديث ابن مسعود من هاجر يتنبي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : الطبراني بإسناد جيد  
(٣) حديث ابن مسعود من هاجر يتنبي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : الطبراني بإسناد جيد  
(٤) حديث ابن مسعود من هاجر يتنبي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : الطبراني بإسناد جيد  
(٥) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا : الحديث : البخاري عن عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة  
(٦) حديث أبي استمتمت رجلا ينزومي فقال لاحق تجملي لي جملا فجعلت له ذكرك ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جمعت له : الطبراني في مستند الشاميين ولأبي داود من حديث يعل بن أبيه أنها استأجر أجير للغزو وسعى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما جمعت له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي سعى

وروي في الاسرائيليات . أن رجلا مرَّ بكثبان من رمل في مجاعة ، فقال في نفسه . لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له : إن الله تعالى قد قبل صدقتك ، وقد شكر حسن نيتك ، وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به وقد ورد في أخبار كثيرة <sup>(١)</sup> « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » وفي حديث <sup>(٢)</sup> عبد الله بن عمرو « مَنْ كَانَتْ الذَّنْبَا يَنْتَه جَمَلَ اللَّهُ فَقَرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَهَا أَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِيهَا وَمَنْ تَكَرَّرَ الْآخِرَةُ يَنْتَه جَمَلَ اللَّهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَعَّ عَلَيْهِ مَنَبَتُهُ وَفَارَقَهَا أَزْهَدَ مَا يَكُونُ فِيهَا »

وفي حديث <sup>(٣)</sup> أم سلمة . أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يا رسول الله : يكون فيهم المكره والأجير . فقال « يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ »

وقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(٤)</sup> « إِنْ تَقَاتَلَ يُقْتَلُ الْمُقَاتِلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ » وقال عليه السلام <sup>(٥)</sup> « إِذَا اتَّعَى الصَّفَانِ تَرَكْتَ أَمْلَاسَكَ تَكْتَبُ الْخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فَلَانٌ يُقَاتِلُ لِلذَّنْبِ فَلَانٌ يُقَاتِلُ سَمِيَةً فَلَانٌ يُقَاتِلُ عَصِيَّةً أَلَا فَلَا تَقُولُوا فَلَانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ أَمْلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . وعن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(٦)</sup> « يُبْعَثُ

( ١ ) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة : متفق عليه وقد تقدم

( ٢ ) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل جعل الله فقره بين يديه . الحديث : ابن ماجه

من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد قوله وطرقها أرغب ما يكون فيها ردون قوله وفارقتها

أزهد ما يكون فيها وفيه زيادة وإلجأه من حديث عبد الله بن عمرو

( ٣ ) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم : مسلم وأبو داود وقد تقدم

( ٤ ) حديث إنا يقتل القتاتون على النيات : ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص والنية من حديث عمر بن الخطاب

بلفظ أنا يبعث وروياه في فوائد عام بلفظ أنا يبعث للمسلمين على النيات ولا ابن ماجه من حديث

أبي هريرة أنا يبعث الناس على نياتهم وفيه ليش بن أبي سليم يختلف فيه

( ٥ ) حديث اذا اتت الصفان تركت الاملاسة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقايل الدنيا . الحديث : ابن المبارك

في الزهد موقفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى

من قال لكون كلمة الله هي العليا هو في سبيل الله

( ٦ ) حديث جابر يبعث كل عبد على ملامته عليه : رواه مسلم

كُلُّ قَبِيلٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وفي حديث <sup>(١)</sup> : الأحنف عن أبي بكرة « إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا قَاتِلًا وَلِلْقَتُولِ فِي النَّارِ » قيل يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « لِأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » . وفي حديث <sup>(٢)</sup> : أبي هريرة « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لَا يَتَوَرَّى أَدَاءَهُ فَهُوَ زَانٌ وَمَنْ إِذَا نَ دَنَسًا وَهُوَ لَا يَتَوَرَّى فَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ »  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ طَلَبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ وَمَنْ طَلَبَ لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَتْنُ مِنْ الْجِيفَةِ »

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما اقترض الله تعالى ، والورع معارم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى  
وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز . اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن قصت قص بغيره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تمظله النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي : البرُّ همة التقوى ، فلو تملت جميع جوارحه بالديار لردته نيته يوم إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك  
وقال الثوري : كانوا يعملون النية للعمل كما تعملون العمل

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل . ومادمت تنوي الخير فانت بخير  
فكان بعض الرديين يطوف على العلماء يقول : من يدلي على عمل لأزال فيه عاملاً  
فقال تعالى ، فإنّي لأحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمّال الله .  
فقبل له : قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير ما استطعت ، فإذا قترت أو تركته فهُم بعمله  
فإنّ الهام بعمل الخير كماله . وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها ، وإن ذنوبكم أغنى من أن تملوها ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمساوا توابين  
ينظر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ناسى ولا هم بمقصية ،

(١) حديث الأحنف عن أبي بكرة إذا التقى المسلمان بسيفيهما قاتلا وللقاتل في النار : متفق عليه

(٢) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا يتورى أداءه فهو زان : أحمد من حديث صحيح

ودرواه ابن ماجه مقتصر على قصة العيين دون ذكر الصداق

(٣) حديث من طلب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك - الحديث : أبو الوليد الصغار في كتابه

الخلاصة من حديث الحسن بن أبي طلحة مرسلا

وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ )<sup>(١)</sup> يبكى ويرودها ويقول : إنك إن بولتنا فضحتنا وهنتك أستاذنا . وقال الحسن : إنما خلق أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات .

وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة . ما أريد به وجهي فقليله كثير ، وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن ، فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله ، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه . فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالطري أن يصلح مادون ذلك . فإذا ثبت عماد الأعمال النيات ، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية في نفسها خير وإن تنذر العمل بمائق

## بيان

### حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل ، العلم مقدمه لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لأنه ثمرة وفرعه . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون ، اختيارى ، فإنه لا يتم إلا بتلطف أمور علم ، وإرادة ، وقدرة ، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم . ولا يعمل ما لم يرد . فلا بد من إرادة ، ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للفرض ، إما في الحال أو في المال ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلزم غرضه ، ويخالقه بعض الأمور . فيحتاج إلى جلب اللامم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المناق إلى نفسه . فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراكه للشيء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها . فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسبابا وهي الخواص الظاهرة والباطنة ، وليس ذلك من غرضنا

ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له ، فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه ، وشهوة له باثثة عليه . إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ، ولا يمكنه تناول لدم الرغبة والميل ، ولقد الداعية المحركة إليه . فخلق الله تعالى له الميل ، والرغبة والإرادة ، وأعطى به نزوعاً في نفسه إليه ، وتوجهاً في قلبه إليه

ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طاماً راغب فيه ، مرید تناوله ، عاجز عنه لكونه زمناً . فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به تناول العضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباثثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة ، أو الظن والاعتقاد ، وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له ، فإذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ، ولا بد وأن يفعل ، وسلمت عن ممارسة باعث آخر صارف عنه ، أثبتت الإرادة ، وتحقق الميل فإذا ابثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء . فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالتية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للفرض ، إما في الحال وإما في المال

فالحرك الأول هو الفرض المطلوب ، وهو الباعث ، والفرض الباعث هو المقصد المنزوي والانبعاث هو القصد والتية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد ، وقد يكون يبايعين اجتماعاً في فعل واحد . وإذا كان يبايعين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر ، لكن الآخر انتهىض عاضداً له ومعاوناً ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام ، فلنذكر لكل واحد مثلاً واسماً أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد ، كما إذا هجم على الإنسان سبع ، فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الحرب من السبع ، فإنه رأى السبع وعرفته صاراً ، فانبثت نفسه إلى الحرب ورغبت فيه ، فانهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال نيته الفرار من السبع ، لانية له في القيام لنيره . وهذه التية تسمى خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصاً بالإضافة إلى الفرض الباعث ، ومعناه أنه خلاص عن مشاركة غيره وممازجته وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد ، ومثاله من المحسوس



أن يتماون رجلان على حملاشي، عقدا من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة، فيقضيها للفقير، وعلم أنه لو لا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لو لا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجني فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطيب بترك الطعام ، ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حية، ولو لا الحلية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل، وكان الباعث الثاني رفيق الأول، فلنسم هذا مرافقة للبواعث والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي بمجموعهما على إتهاض القدرة . ومثاله في المحسوس أن يتماون ضعيفان على حمل مالا ينفرد أحدهما به . ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجني الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكونا نيمات داعيته بمجموع الباعثين، وهو القرابة والفقر . وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لفرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا ييمته مجرد قصد الثواب على المطاء، ولو كان الطالب فاستقلا ثواب في التصديق عليه لكان لا ييمته مجرد الراء على المطاء، ولو اجتمعا أو رتبا مجموعهما تحريك القلب، وانسم هذا الجنس مشاركة والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يماون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل، ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة، وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى التية، ولنسم هذا الجنس الماونة فالباعث الثاني إيمان أن يكون رفيقا، أو شريكا، أو معينا وسنذكر حكمها في باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه، فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل . إنما الأعمال بالنيات، لأنها تابعة لأحكامها في نفسها، وإنما الحكم للمتبوع

## بيان

مر قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ »

أعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر ، ولعمل السر فضل ، وهذا صحيح . ولكن ليس هو المراد ، لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه ، أو يتفكر في مصالح المسلمين ، فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر . وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل ، والأعمال لا تدوم ، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك ؛ فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة ، والأعمال تدوم . والعموم يقتضى أن تكون نية خير من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجرد ما خير من العمل بمجرد دون النية ، وهو كذلك ، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على النقلة لا خير فيه أصلا ، والنية بمجرد ما خير . وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير

بل المعنى به أن كل طاعة تنظم بنية وعمل ، وكانت النية من جملة الخيرات ، وكان العمل من جملة الخيرات ، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود ، وأثر النية أكثر من أثر العمل . فعناء نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته . والنرض أن للمبد اختيارا في النية وفي العمل ، فهما محالان ، والنية من الجملة خيرهما . فهذا معناه

وأما سبب كونها خيرا ومرتجحة على العمل ، فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد ، وقاس بعض الأئمة ببعض ، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فن قال الخبز خير من الفاكهة فإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن الغذاء مقصود وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد ، وقاس بعضها ببعض . فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها ، وبقاؤها ، وسلامتها في الآخرة

( ١ ) حديث نية المؤمن خير من عمله : الطبراني في حديث سهل بن سعد ومن حديث الترمذي بن مسعود وكلامه ضعيف

وسعادتها ، وتنعمها بقاء الله تعالى . فالتقصّد لذة السعادة بقاء الله فقط ، ولن ينعم بقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى ، عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والحببة تنبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها ، حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضاً له . وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوعة بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعله بأن سلامته فيها

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة ، فإنما يقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى النضاد والقوت لتلك الصفة ، حتى ترشح الصفة وتقوى بسببها ، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه التزوع . وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر ، وزبحا زال وانعقد . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة والمخالطة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختباره ، فلا يقدر على التزوع عنه . ولو قطع نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والنضاد عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبوا ودفعاً في وجهه ، حتى يضعف وينكسر بسببه ، وينقمع وينمحي .

وهكذا جميع الصفات ، والخبرات ، والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة ، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة ، حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بلمه بموت عزيز من أعزته ، أو بهجوم أمر مخوف تأثر به الأعضاء ، وارتعدت القرائن ، وتغير اللون . إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعي ، والجوارح كالخدم

والرمايا والأنباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه . فالقلب هو المقصود ، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ » وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةَ » وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُجُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالَهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ <sup>(٣)</sup>) وهي صفة القلب

فإن هذا الوجه يجب لاحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملة أفضل ، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ، ويؤكد فيه الميل إليه ، ليفرح من شهوات الدنيا ، ويكبح على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض ، لأنه متمكن من نفس المقصود . وهذا كما أن المعدة إذا تأملت فقد تدأوى بأن يوضع الطفل على الصدر ، وتدأوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر ، لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة ، فإيلاق عين المعدة فهو خير وأرفع فكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح . فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم المادة يؤكد صفة التواضع في القلب ، فإن من يحدد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد في قلبه رقة على يتيم ، فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه . ولهذا لم يكن العمل بشير نية مفيدا أصلا ، لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، أو ظان أنه يمسح ثوبا ، لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة . وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا . فيقال : العبادة بشير نية باطلة . وهذا معناه إذا فصل عن غفلة .

( ١ ) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد نفعه

( ٢ ) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية . تقدم ولم أجده

فلذا قصده رياء أو تعظيم شخص آخر، لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قبحها، وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيراً من العمل . وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَنَّ مَنَّمٌ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَمَعْلَهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » لأنَّ القلب هو ميله إلى الخير، وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا، وهي غاية الحسنات . وإنما الإتمام بالعمل يزيد بها تأكيدها . فليس المقصود من إرافة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلك إشارته لوجه الله تعالى . وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإن عاقب من العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منك . والتقوى هنا أمضى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ قَوْمًا بِالْمَدِينَةِ قَدْ شَرَكُونَا فِي جِهَادِنَا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير، وبذل المال والنفس، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى، كقلوب الخارجين في الجهاد . وإنما فارقوم بالأبدان لموافق شخص الأسباب الخارجية عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية، فأعرضنا عليها لينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة

## بيان

### تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل، وقول، وحركة، وسكون، وجلب، ودفع، وفكر، وذكر، وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقفاؤه، فهي ثلاثة أقسام : طاعات، ومعاص، ومباحات . القسم الأول : المعاصي وهي لا تنير عن موضعها بالنية . فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالقبيح ينقلب إنساناً مرآة لقلبه غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبنى مدرسة أو مسجداً أو رابطاً بحال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جليل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظالماً وعدواناً، ومعصية . بل قصده الخير بالشرع، بخلاف مقتضى الشرع شر آخر . فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله

فروعاص بجبله ، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم . والحجرات إنما يعرف كونها خيرات  
بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ؟ هيئات ، بل المروج لذلك على القلب خفي  
الشهوة وباطن الهوى ، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه ، واستمالة قلوب الناس ،  
وسائر حظوظ النفس ، يوصل الشيطان به إلى التلييس على الجاهل . ولذلك قال سهل رحمه  
الله تعالى : معاصي الله تعالى بمصيبة أعظم من الجهل . قيل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من  
الجهل ؟ قال نعم : الجهل بالجهل . وهو كما قال : لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم .  
فن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما طبع الله تعالى به العلم ،  
ورأس العلم العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل . فإنت من لا يعلم العلم النافع من العلم  
الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائهم إلى الدنيا ، وذلك  
هو مادة الجهل ، ومنبع فساد العالم . والمقصود أن من قصد الخير بمصيبة عن جهل فهو غير  
معدور ، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ، ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه  
( قَاتِلُوا أَهْلَ اللَّهِ كُرْ إِنَّكُمْ لَأَتَقَلَّبُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم  
( لَا يَفْزَحُ الْجَاهِلُ عَلَى الْجَاهِلِ وَلَا يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ وَلَا لِلتَّائِمِ أَنْ  
يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ ، ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ،  
تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ، للشقويين بالفسق والفجور ، للقاصرين  
همهم على محاربة العلماء ، ومباراة السفهاء ، واستمالة وجوه الناس ، وجمع حطام الدنيا ،  
وأخذ أموال السلاطين ، والتأني ، والسكينة ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله ،  
وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال ، يتكالب على الدنيا ، ويتبع الهوى ، ويتباعد  
عن التقوى ، ويستجري الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله . ثم قد ينتشر ذلك العلم  
إلى مثله وأمثاله ، ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه  
يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده : ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله

( ١ ) حديث لا يضر الجاهل على الجاهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله - الحديث : الطبراني في الأوسط  
وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يضر الجاهل  
على الجاهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد شذم في العلم

وأفعاله ، وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً ، وألفي سنة ، وطوبى لمن إذا مات مات مع ذنوبه . ثم السبب من جبهه حيث يقول : إن الأعمال بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ، فإن استعمله هو في الفساد فالمصيبة منه لأمي ، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإعاجيب الرياسة ، والاستتباع ، والتفاخر يملو العلم ، يحسن ذلك في قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه ، وليت شرى ما جوابه عن وهب سيفاً من قاطع طريق ، وأعدله بخيلاً وأسيباً يستعين به على مقصوده ، ويقول : إن أردت البذل والسخاء ، والتخلي بأخلاق الله الجليلة ، وقصدت به أن ينزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله ، فإن إعداد الخيل ، والرباط ، والقوة للفرزة من أفضل القربات ، فإن هو صيرفه إلى قطع الطريق فهو الماصي . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام ، مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «إِنَّ قُرْبَى تَعَالَى تَلَفَاتِيَةً خُلِقَ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَحَبُّ إِلَيَّ السَّخَاءُ» فليت شرى لم حرم هذا السخاء ؟ ولموجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم ؟ فإذا لاح له من عاداته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه ، لأن يده بيده . والمسلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله ، وقد يماون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى . فمن لا يزال مؤثراً لدينه على دينه ، ولهواء على آخرته ، وهو عاجز عنها لقلة فضله ، فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهوته

بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلو رأوا منه تقصيراً في قتل من التوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلل حرام هجروه ، وفقوه عن مجالسهم ، وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه ، لهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تموز جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة ، وما تموزوا من الفاجر الجاهل حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنيين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد ، وهجره وصار لا يكلمه ، فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو لا يذكره حتى

(١) حديث أن الله تعالى خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحب إليه السخاء ، يخدم في كتاب المهج والشوق

قال: بلنى أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع، وقد أخذت قدر سمك الطين، وهو أغلة، من شارع المسلمين، فلا تصلح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا وأمثاله مما يلبس على الأغبياء وأتباع الشيطان، وإن كانوا أرباب الطيبات والأحكام الواسعة، وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعنى الفضل من العلوم التى لا تشمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها، والترغيب فى الآخرة والدعاء إليها، بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق، ويتوصل بها إلى جمع الحطام، واستتباع الناس، والتقدم على الأقران فإذا قوله عليه السلام: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد. فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً. نعم للنية دخل فيها، وهو أنه إذا انضاف إليها قصد خيثة تضاعف وزرها، وعظم وبالها، كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة

القسم الثانى: الطاعات. وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها، وفى تضاعف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة. (١) تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد بالخبر. ومثاله القعود فى المسجد فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين، ويبلغ به درجات المقربين

أولها: أن يتمتد أنه بيت الله، وأن داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (٢) «مَنْ قَعَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ تَعَالَى وَحَقَّ عَلَى الْزُورِ إِكْرَامُ زَائِرِهِ»

(١) حديث تضعيف الحسنة بشرة أمثالها: تقدم

(٢) حديث من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور إكرام زائره: ابن حبان فى الضعفاء

من حديث سلمان والبيهقى فى الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسيوا بل ينادى جميع وقد تقدم فى الصلاة



وثانيها : أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فيكوث في جلة انتظاره في الصلاة ، وهو معنى قوله تعالى ( وَرَآيَطُوا <sup>(١)</sup> )

وثالثها : الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فإن الاعتكاف كف ، وهو في معنى الصوم ، وهو نوع ترهب . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « رَهْبَانِيَّةٌ أُتِمِّي الْقَمَرُودُ فِي الْمَسْجِدِ »

ورابعها : عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد

وخامسها : التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره ، وللتذكر به ، كما روي في الخبر <sup>(٣)</sup> « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى أَوْ يَذْكُرَ بِهِ كَأَنَّهُ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى » وسادسها : أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو ممن يسيء في صلاته ، أو يتماطى ما لا يحل له ، فيأمره بالمعروف ، ويرشده إلى الدين ، فيكون شريكاً معه في غيره الذي يعلم منه ، فتضاعف خيراته

وسابعها : أن يستفيد أعنا في الله ، فإن ذلك مغنمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معش أحبل الدين المحبين لله وفي الله

وثامنها : أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى ، وحياء من أن يتماطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمه . وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدام الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أنها مستفاداً في الله . أو رحمة مستنزلة . أو علامة مستظرفة أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه عن ردى . أو يترك الذنوب خشية أو حياء

(١) حديث رهبانية أمي القمود في المسجد : لم يجد له أملاً

(٢) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كأنه مجاهد في سبيل الله تعالى : هو معروف من قول كتب الأخبار رويته في جزء بن طوق والطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد الآن يعلم خيراً أو يعلمه كأنه كأجر حج تاما حجه وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أرواح أعداء الله في الجنة نزلاً كلما غدا أرواح

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والبسات ، إذ ما من طاعة إلا  
وتحتل نيات كثيرة ، وإنما نحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير ، وتشمه له ،  
وتفكره فيه ، فهذا تركو الأعمال ، وتضاعف الحسنات

القسم الثالث : المباحات . وما من شيء من المباحات إلا ويحتل نية أو نيات يصير بها  
من محاسن القربات ، وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يفقل عنها ، وشاغلها  
تعاظم البهائم الممثلة من سهو وغفلة : ولا ينبغي أن يستحق العبد شيئا من الخطرات ،  
واغطوات ، والمعضات ، فكل ذلك يستل عنه يوم القيامة أنه لم فعله ؟ وما الذي قصد به ؟  
هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حَلَّاهُ حَسَابٌ  
وَحَرَّاهُ عِقَابٌ » وفي حديث <sup>(٢)</sup> معاذ بن جبل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ التَّعَبِيرَ  
لَيَسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُفْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فِتَاتِ الطَّيْنَةِ بِأَصْبَحَتِهِ وَعَنْ  
تَمَسُّهُ نَوْبَ أَخِيهِ » وفي خبر آخر « مَنْ تَطَلَّبَ فِيهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ  
مِنْ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَلَّبَ لِيَتَرَى اللَّهَ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَتْنَنٌ مِنْ الْجَنَّةِ »  
فاحتتمل الطيب مباح ، ولكن لا بد فيه من نية

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حط من حظوظ النفس ، وكيف يتطيب لله  
فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة ، وفي سائر الأوقات ، يتصور أن  
يقصد التمتع بلبات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ،  
أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به إلى قلوب  
النساء الأجنيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن ، ولأمور آخر لا تحصى . وكل هذا يعمل  
التطيب معصية ، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة ، إلا القصد الأول وهو التلذذ  
والتمتع ، فإن ذلك ليس بمعصية ، إلا أنه يستل عنه . ومن نوقش الحساب عذب ، ومن  
أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ، ولكن ينقص من نعيم الآخرة له  
بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستعمل ما يغني ، ويخسر زيادة نعيم لا يغني

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب : قدّم

(٢) حديث معاذ أن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كمل عينية وعن فئات الطين بأصبعيه

ومن له نوب أخيه : لم أجده مستنداً

وأما<sup>(١)</sup> النيات الحسنة ، فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوي بذلك أيضا تعظيم المسجد ، واحترام بيت الله ، فلا يرى أن يدخله زائر الله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويع جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته برواحمه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخاطبه ، وأن يقصد حسم باب النية عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة ، فيحسون الله بسببه ، فمن تعرض للنية وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المصيبة ، كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا - أن لا تشاركهم فالأحلو م  
وقال الله تعالى ( وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ )<sup>(٢)</sup>  
أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر . وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيده بفضله وذكاه  
ويسهل عليه درك مهمات دينه بالتفكير ، فقد قال الشافعي رحمه الله : من طالب بحمزه زاد عقله  
فهذا وأمثاله من النيات لا يسجد الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبية  
على قلبه . وإذا لم ينل على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات ، وإن ذكرت له لم  
يلبث لها قلبه ، فلا يكون معه منها إلا حديث النفس ، وليس ذلك من النية في شيء .

والمباحات كثيرة ، ولا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس بهذا الواحد ما عده . ولهذا  
قال بعض العارفين من السلف : إنني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في  
أكل ، وشرب ، ونوم ، ودخول إلى الخلاء . وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب  
إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن ، وفراغ القلب من مهمات البدن ، فهو معين  
على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقوع تحصين دينه ، وتطهير  
قلب أهله ، والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده ، فتكثر به أمة محمد صلى الله

( ١ ) حديث أن ليس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة : أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد  
من اعتدل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه - الحديث : ولأبي داود  
وابن ماجة من حديث عبد الله بن سلام ما نقل أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي  
مهمته وفي أسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة ساء عند باب المسجد فقال يا رسول الله  
لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة

عليه وسلم، كان مطيعاً بأكله ونكاحه . وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع ، وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه مـ الآخرة . ولذلك ينبغي أن يحسن نيته منهما صانع له مال ويقول : هو في سبيل الله ، وإذا باعته إغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحصل سيئاته وسينقل إلى ديوانه حسناته ، ولن يوى ذلك بسكوته عن الجواب ، ففي الخبر <sup>(١)</sup> « إِنْ الْعَبْدَ لَيُجَاسَبُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْآفَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ ثُمَّ يُنْشَرُ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْجَنَّةَ فَيَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ يَا رَبِّ هَذِهِ أَعْمَالٌ مَاعَمِلْتُهَا قَطُّ فَيَقَالَ هَذِهِ أَعْمَالُ الَّذِينَ اغْتَابُوكَ وَأَذَوْكَ وَظَلَمُوكَ »

وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « إِنْ أَلْبَسَ الْيَوَاقِي الْقِيَامَةَ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالَ الْجِبَالِ لَوُحِّلْصَتْ لَهُ لَدَخْلُ الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَذَابُ هَذَا وَشَمَّ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْتَصِمُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ قَدْ قَنِيتَ حَسَنَاتُهُ وَبَقِيَ طَائِلُ بَوْنٍ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَلْفُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صُكَّا إِلَى النَّارِ »

وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحق شيئا من حركاتك ، فلا تتهترز من غرورها وشرورها ، ولا تمد جولبا يوم السؤال والحساب ، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لي ، فتهرجت ، ثم قلت تراب وماتراب ؟ فتربته ، فتهتج في هاتف : سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدامن سوء الحساب . وصلى رجل مع الثوري ، فراه مقلوب الثوب ، فرفقه ، فهدأ يده ليصلحه ، ثم قبضها فلم يسوه ، فسأله عن ذلك فقال : إني لبسته لله تعالى ، ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول يبنى وبينك الله ، فيقول : والله ما عرفك ، فيقول : بلى أنت أخذت لبنه من حائطي ، وأخذت خيطا من ثوبي

(١) حديث ابن العبد ليحاسب قبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشله من الأعمال الحسنة ما يستوجب الجنة - الحديث : وفيه هذه أعمال الدين اغتابوك - الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم عن حديث شيب بن سعد الباقوي عن عاصم أن العبد ليأتي كتابه يوم القيامة منتشر فينظر فيه فيرى حسناته لم يصلها فيقول هذا لي ولم أصلها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تعرف وفيه ابن أبي عمير

(٢) حديث ابن العبد ليأتي القيامة بحسنات أَمْثَالَ الْجِبَالِ وفيه يأتي قد ظلم هذا وشتم هذا - الحديث : يجمع مع اختلاف

فهذا وأمثاله من الأجبار قطع قلوب الخائفين . فإن كنت من أولى الزم والنهي ، ولم تكن من المترين ، فانظر لنفسك الآن ، ودين الحساب على نفسك قبل أن يدق عليك ، وراقب أحوالك ، ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أو لأنك لم تتحرك ؟ وماذا تقصد ؟ وما الذي تنال به من الدنيا ؟ وما الذي يفوتك من الآخرة ، وبمناذا ترجع الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين نامض عزمك وما خطر ببالك ، وإلا فأمسك . ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك ، فإن ترك الذم فعل ، ولا بد له من نية صحيحة ، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا ينزك غير اهر الأمور ، ومشهورات الخيرات ، والظن للأنوار والأسرار يخرج من حيز أهل الاعتراض ، فقد روي عن زكريا عليه السلام ، أنه كان يعمل في حائط بالطين ، وكان أجيرا للقوم ، فقدموا له رغبته ، إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ، فدخل عليه قوم ، فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من ضحاكته وزهده ، وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام ، فقال : إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلي الرغيف لأقوى به على عملهم ، فلما أكلتم مني لم يكفكم ولم يكفى ، وضمت من عملهم . فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله ، فإن ضعفه من العمل نقص في فرض ، وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ، ولا حكم للفضائل مع القرض

وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل . فما كلني حتى لقم أصابه ثم قال : لو لا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه ، فإن أجابه فأكل فعليه وزر ، وإن لم يأكل فعليه وزر واحد ، وأراد بأحد الوزرين النفاق ، وبالثاني تمر يرضه أخاه لما يكره لوعله . فهكذا ينبغي أن يتفقد البعد نيته في سائر الأعمال ، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تحضره النية توقف ، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار

## بيان

أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيقول في نفسه عند تدريسه ، أو تجارته ، أو أكله : نويت أن أدرس لله ، أو أتعلم لله ، أو آكل لله . ويظن ذلك نية . وهيات ، فذلك حديث قبيح ،

وحديث لسان وفكر، أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بعزل من جميع ذلك. وإنما النية انبعثت النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها، إما عاجلاً، وإما آجلاً. والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمعبر الإرادة، بل ذلك كقول الشيعان: نويت أن أشتى الطعام وأميل إليه. أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي. فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء، وميله إليه، وتوجه نحوه، إلا باكتساب أسبابه. وذلك مما قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعت النفس إلى الفعل إجابة للعرض الباعث الموافق للنفس، اللائق لها. ومالم يمتد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده. وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين. وإذا اعتقد فلاناً يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغير شاغل أقوى منه. وذلك لا يمكن في كل وقت. والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص، وبالأحوال، وبالأعمال. فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً، ولم يمتد غرضاً صحيحاً في الولد دنياً، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد وإذا لم يقلب على قلبه<sup>(١)</sup> أن إقامة سنة النكاح اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها، لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية.

ثم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوى أولاً إيمانه بالشرع، ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن الولد من نقل المونة، وطول التعب، وغيره، فإذا فعل ذلك رجا انبثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب، فتحركة تلك الرغبة، وتتحرك أعضاؤه لبشارة المقد. فإذا انتبهت القدرة المحركة للسان بقبول المقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب، كان ناوياً. فإن لم يكن كذلك، فاقدره في نفسه، ويردده في قلبه من قصد الولد، وسواس وهذيان. ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات، إذ لم تحضرم النية. وكانوا يقولون. ليس تحضرناً فيه نية، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته، وكان يسرح شعره، أن هات المدرى. فقالت: أجيء

(١) حديث النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: تقدم في آداب النكاح

بالمرأة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم . فقتيل له في ذلك ، فقال : كان لي في المدرى نية ، ولم تحضرني في المرأة نية ، فتوقفت حتى هياها الله تعالى

ومات حماد بن سليمان ، وكان أحد علماء أهل الكوفة ، فقتيل للثوري : ألا تشهد جنازته ؟ فقال لو كان لي نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل ملامن أعمال البر يقول : إن رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاموس لا يحدث إلا بنية . وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسئل فينتدى .

فقتيل له في ذلك ، قال : أتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرني نية فعلت

وحكى أن داود بن الحجير لما صنف كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل ، فطلبه منه ، فنظر فيه أحمد صفحا ورده ، فقال : مالك ؟ قال فيه أسانيد ضفاف . فقال له داود : أنا لم أخرجها على الأسانيد ، فأنظر فيه بعين الخبر ، إن غانظرت فيه بعين العمل فانتفعت . قال أحمد : فردته علي حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت . فأخذوه مكث عنده طويلا ثم قال : جزاك الله خيرا ، فقد انتفعت به وقيل لطاموس : ادع لنا . فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا في طلب نية لزيادة

وجل منذ شهر فما صحت لي بعد

وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران ، فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه المشاء ؟ قال ليس من نيتي : وهذا لأن النية تتبع النظر ، فإذا تغير النظر تغيرت النية . وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية ، لعلمهم بأن النية روح العمل ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب . وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت ، بل هو انبعاث القلب بحرى مجرى الفتح من الله تعالى ، فقد تتيسر في بعض الأوقات ، وقد تتمتع في بعضها

نعم من كانت الغالب على قلبه أمر الدين تتيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه ، لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له في القرائض إلا بجهد جيد ، وغايته أن يذكر النار ، ويحذر نفسه عقابها ، أو نعيم الجنة ، ويرغب نفسه فيها ، فربما تلبست له داعية ضعيفة ، فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة اليهودية ، فلا تتيسر للراغب إلى الدنيا ،

وهذه أعز النيات وأعلامها ، ويمز على بسيط الأرض من يفهما فضلا عن بشاطاها  
ونيات الناس في الطاعات أقسام . إذ منهم من يكون عمله لإجابة لباعث الخوف ، فإنه  
يتقى النار . ومنهم من يعمل لإجابة لباعث الرجاء ، وهو الرغبة في الجنة ، وهذا وإن كان  
نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتمظيمه لقائه وجلاله للأمر سواء ، فهو من جملة النيات  
الصحيحة ، لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة ، وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا . وأغلب  
البواحث باعث الفرج والبطن ، وموضع قضاء وطرها الجنة . فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه  
وفرجه ، كالأجير السوء ، ودرجته درجة البله ، وإنه لينالها بعمله ، إذ أكثر أهل الجنة بلبه  
وأما عبادة ذوى الأبواب فإنها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه ، حيا لجماله وجلاله  
وسائر الأعمال تكون مؤكيات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح  
والطموم في الجنة ، فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعمون ربهم بالنداء والتشجيع يريدون  
وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم . فلاجرم يتعمدون بالنظر إلى وجهه الكريم ،  
ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين ، كإيسخر المتعتم بالنظر إلى الحور العين ممن  
يتعتم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ، بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة  
الربوبية وجمال الحور العين ، أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور  
المصنوعة من الطين . بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان  
وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم ، يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإفها لها ،  
وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فسمى أكثر القلوب عن إيسار جمال الله وجلاله  
يضاهي عى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعربه أصلا ، ولا تلتفت إليه . ولو كان  
لها عقل وذكرن لها لاستحسنن عقل من يلتفت إليهن ، ولا يزالون مختلفين ، كل حزب  
بما لديهم فرحون ، ولعلك خلقهم

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام ، فقال له : كل الناس يطلبون منى  
الجنة إلا أبائزيد ، فإنه يطلبني . ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال : يارب ، كيف الطريق إليك ؟  
فقال اترك نفسك وتعال إلى . . . ورؤي الشبلي يدموته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال  
لم يطلبني على الدعوى بالبرهان الأعلى قول واحد ، قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟



فقال أي خسارة اعظم من خسران لثائي !

والفرض أن هذه الثياب متفاوتة الدرجات ، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له المدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإننا نقول : من حضرت له نية في مباح ، ولم تحضر في فضيلة ، فالأباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه بوصارت التفضيلة في حقه قبيصة ، لأن الأعمال بالنيات ، وذلك مثل المغو ، فإنه أفضل من الانتصار في الظلم ، وربما تحضره نية في الانتصار دون المغو ، فيكون ذلك أفضل

ومثل أن يكون له نية في الأكل ، ولشرب ، والنوم ، ليربح نفسه ، ويتقوى على العبادات في المستقبل ، وليس تنبئت نيته في الحالين للصوم ، والصلاة ، والأكل ، والنوم هو الأفضل له . بل لو لم يلبس المبادلة لواطبته عليها لم يكن نشاطه ، وضغطت رغبته ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بهو وحديث عاد نشاطه ، فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عوناً لي على الحق . وقال علي كرم الله وجهه . روحوا القلوب فلها إذا أكرهت محبت وهذه دقائق لا يدركها إلا مهارة العلماء دون الحشوية منهم . بل الحاذق بالطب قديم المالح المحرور بالحم مغ حرارته ، ويستعمله القاصر في الطب ، وإنما يتنقى به أن يمد أو لا قوته ليحتمل المعالجة بالصد . والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس عجافاً ، ليتوصل بذلك إلى التلبسة . والضعيف البصيرة قد يضحك به ، ويستعجب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قريته ، ويولي به دبره ، حيلة منه ليستجره إلى مضيق ، فيكر عليه فيقتله

فكذلك سلوك طريق الله تعالى ، كله قتال مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستعملها الضعفاء ، فلا ينبغي للمريد أن يضر إنكاراً على ما يراه من شيخه ، ولا لتعلم أن يسترضى على أستاذه ، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته ، وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن يكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما ، وينال درجتهما ، ومن الله حسن التوفيق

## الباب الثاني

في الإخلاص وفصيلته وحقيقته ودرجاته

### فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ<sup>(١)</sup>) وقال (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْفَتْحَالِصُ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ<sup>(٣)</sup>) وقال تعالى (فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا<sup>(٤)</sup>) نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه

وقال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> «ثَلَاثٌ لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِلَّا خَلَّصَ التَّمَلُّقَ<sup>(٦)</sup>» وعن<sup>(٧)</sup> مصعب بن سعد، عن أبيه قال: ظن أبي أن له فضلا على من هودونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّمَا تَصْرَ اللَّهُ تَعَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ يَضْفَأُهَا وَدَعْوَتَهُمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ» وعن<sup>(٨)</sup> الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى الْإِخْلَاصُ مِيرَاثُ مَنْ سَرَى اسْتَوْدَعَتْهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبَتْ مِنْ عِبَادِي» وقال علي بن أبي طالب كرم

#### ( الباب الثاني في الاخلاص )

- (١) حديث ثلاث لا ينزل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله: الترمذي وصححه من حديث الثعلباني بن بشير
- (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلا على من هودونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخلاص هذه الأمة يضفأها ودعوتهم وإخلاصهم رواء الناسا وهو عند البخاري يلفظ هل تصرون وترزقون الاضفأناكم
- (٣) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي ورواه في جزء من مسلمات الترمذي وسلسلا يقول كل واحد من رواه من رواه فلان عن الاخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء المجيعي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروكوا من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف

الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا لقبول ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> قال لمعاذ بن جبل « أخْلِصْ أَمَلَكَ لِمَنْ يَخْلُصُ بِهِ أَمَلُكَ مِنْ أَتْلِيلٍ »

وقال عليه السلام<sup>(٢)</sup> « مَا مِنْ عَبْدٍ يَخْلُصُ بِهِ أَمَلُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا ظَهَرَتْ بَيْنَا بَيْتُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ » وقال عليه السلام<sup>(٣)</sup> « أَوَّلُ مَنْ يُسْتَلُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةً رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ أَلِيمٌ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا صَنَعْتَ فِيمَا عَلِمْتَ يَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَقْرَمُ بِهِ أَنَا الْإِيلُ وَأَطْرَافُ النَّهَارِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَقَوْلُ الْإِيلِ لِمَكَّةُ كَذَبْتَ .

بَلْ أُرَدْتُ أَنْ يُقَالَ فَلَنْ عَالِمٌ أَلَا قَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَقَدْ أَفْعَمْتُ عَلَيْكَ كَذَا صَنَعْتَ يَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَصْدَقُ بِهِ أَنَا الْإِيلُ وَأَطْرَافُ اللَّيْلِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَقَوْلُ الْإِيلِ لِمَكَّةُ كَذَبْتَ بَلْ أُرَدْتُ أَنْ يُقَالَ فَلَنْ

جَوَادٌ أَلَا قَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ تَلَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ يَقُولُ يَارَبِّ أَمَرْتُ بِالْجِهَادِ فَتَأْتَلَتْ حَتَّى قُتِلْتُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَقَوْلُ الْإِيلِ لِمَكَّةُ كَذَبْتَ بَلْ أُرَدْتُ أَنْ يُقَالَ فَلَنْ شَجَاعٌ أَلَا قَدْ قِيلَ ذَلِكَ » قال أبو هريرة . ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على نخذه وقال « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقِي يُسَمَّرُ نَارُ

جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فدخل راوى هذا الحديث على معاوية ، وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ) الآية

وفي الامراتيات أن هابدا كان يبعد الله دهرها طويلا ، فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قوما

يعبدون شجرة من دون الله تعالى . فنضب لذلك ، وأخذ فأسه على عاتقه ، وقصد الشجرة ليقطعها . فاستقبله إبليس في صورة شيخ ، فقال : أين تريد رحلك الله ؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة : قال وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك

( ١ ) حديث ائمه لمعاذ اخلص العمل يترك منه التلليل : أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس من حديث

معاذ واستاده منقطع

( ٢ ) حديث ما من عبد يخلص لله أربعين يوما باين عصى ومن طريقه ابن الجوزي في اللوحونات

عن أبي موسى وقد تقدم

( ٣ ) حديث اول من يستل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم . الحديث : وقد تقدم

فقال: إن هذا من عبادي. قال: فإني لأتركك أن تقطعها. فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض، وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقتني حتى أكلك. فقام عنه، فقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أرسلني<sup>١</sup> عنك هذا ولم يرضه عليك، وما تمبدها أنت، وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض، ولو شاء لبمشمهم إلى أهلها، وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لي من قطعها. فبأنه للقتال، فعليه العابد وصرعه، وقعد على صدره، فعجز إبليس، فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك، وهو خير لك وأنتفع؟ قال وما هو؟ قال أطلقتني حتى أقول لك. فأطلقه، فقال إبليس: أنت رجل فقير لاشي لك، إنما أنت كل على الناس يولونك، ولعلك تحب أن تفضل على إخوانك، وتوأمي جيرانك، وتشيع وتستني من الناس، قال نعم. قال فارجع عن هذا الأمر، ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك، وتصدق على إخوانك، فيكون ذلك أنتفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يترس بكانها، ولا يضرم قطعها شيئا، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها. فتفكر العابد فيما قال، وقال صدق الشيخ، لست بني فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها، فأكون عاصيا بتركها، وما ذكره أكثر منفعة. فمأهده على الوفاء بذلك، وحلف له. فرجع العابد إلى متعبه فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه، فأخذهما، وكذلك الفد، ثم أصبح اليوم الثالث وما يمه فلم ير شيئا، فغضب وأخذ فأسه على مائة، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين؟ قال أقطع تلك الشجرة. فقال كذبت والله، ما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة، فقال هيبات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالمصفور بين رجله، وقعد إبليس على صدره وقال: لتتبهن عن هذا الأمر أو لأدبحنك. فنظر العابد، فإذا لامة له به. قال يا هذا غلبتني فخجل عني، وأخبرني كيف غلبتني أولا وغلبتني الآن. فقال لأنك غضبت أول مرة لله، وكانت نيتك الآخرة، ففسخرني الله لك. وهذه المرة غضبت لنفسك والدنيا، فصرعتك وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ<sup>٢</sup>) (إذ لا يخلص

المعبود من الشيطان إلا بالإخلاص . وذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تنخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ؟ وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى . وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس . وكتب بعض الأولياء إلى أخيه : أخلص النية في أعمالك ، يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السخيتاني : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صفي له ، ومن خلط خلط عليه . ورؤي بعضهم في المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك ؟ فقال : كل شيء عملته لله وجدتته ، حتى حبة رمان لقطتها من طريق ، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات . وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيت في كفة السيئات ، وكان قد نقت حماري قيمته مائة دينار . فصارأيت له ثوبا فقلت موت سنور في كفة الحسنات ، وموت حمار ليس فيما أقتيل لي إنه قد وجّه حيث يمشي به ، فإنه لما قيل لك قدماء ، قلت في لمة الله ، فبطل أجر كفاه . ولوفات : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك ، وفي رواية ، قال : وكنت قد تصدقت بعدة بين الناس فأعجبني نظرم إلي ، فوجدت ذلك لأعني ولألي ، قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه ، وقال يحيى بن معاذ : الإخلاص يميز العمل من الميوّب . كتميز اللبن من الفرث ، والدم ، وقيل . كان رجل يخرج في زِي النساء ، ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء ، من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه يجمع للنساء ، فسرقبت درة ، فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفثش ، فكانوا يهتشون واحدة واحدة ، حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فلما أتاهم بالإخلاص ، وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لأعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة ، فصاحوا أن أطلقوا الحرة فوجدنا الدرة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحتر أرضه يمد المهر من يوم عرفة ، فترّ به بعض إخوانه من الأبدال ، فسار به شيء ، فقال أبو عبيد . لا ، فر كالحساب يمسح الأرض حتى غاب من عيني ، فقلت لأبي عبيد . ما قال لك ؟ فقال . سألني أن أحج معه ، قلت . لا ، قلت ، فهل فعلت ، قال ليس لي في الحج نية . وقد نويت

أَنْ أَتَمَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَشْيَةَ فَأَخَافُ أَنْ حُجِجْتُ مَعَهُ لِأَجَلِهِ تَمَرَضْتُ لَمَقْتُ اللَّهَ تَعَالَى ، لِأَنِّي  
أَدْخَلْتُ فِي حِمْلِ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَهُ ، فَيَكُونُ مَا أَنَا فِيهِ أَعْظَمَ عِنْدِي مِنْ سَبْعِينَ حِجَّةً ، وَيُرَوَّى عَنْ  
بَعْضِهِمْ ، قَالَ : غَزَوْتُ فِي الْبَحْرِ فَفَرَضَ بَعْضُنَا غِلَاةً ، فَقُلْتُ : أَشْتَرِيهَا ، نَأْتِفَعُ بِهَا فِي غَزْوِي  
فَإِذَا دَخَلْتُ مَدِينَةً كَذَا بَعَثَ بِهَا فَرِيحَتَ فِيهَا ، فَاشْتَرَيْتُهَا ، فَرَأَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي النَّوْمِ كَأَن  
بَشْرَيْنِ قَدْ نَزَلَا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : اكْتُبْ الْفَزَاةَ فَأَمْلَى عَلَيْهِ . خَرَجَ  
فَلَانَ مَتَزُهَا ، وَفَلَانٌ مَرَاتِيَا ، وَفَلَانٌ تَاجِرًا ، وَفَلَانٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ ، وَقَالَ :  
اِكْتُبْ فَلَانَ خَرِجَ تَاجِرًا ، فَقُلْتُ : اللَّهُ فِي أَمْرِي ، مَا خَرَجْتَ أَتَجَرُ ، وَمَا مَعِيَ تِجَارَةٌ  
أَتَجَرُ فِيهَا ، مَا خَرَجْتَ إِلَّا لِلْفَزْوِ ، فَقَالَ يَا شَيْخُ قَدْ اشْتَرَيْتُ أَمْسَ غِلَاةً تَرِيدُ أَنْ تَرِيعَ  
فِيهَا فَبِكَيْتَ ، وَقُلْتُ : لَا تَكْتُبُونِي تَاجِرًا فَظُنَرْتُ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَقَالَ : مَا تَرَى فَقَالَ : اِكْتُبْ  
( خَرِجَ فَلَانٌ فَازِيًا إِلَّا أَنَّهُ اشْتَرَى فِي طَرِيقِهِ غِلَاةً لِيَرِيعَ فِيهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ بِمَا يَرَى )  
وَقَالَ سِرِّي السَّقَطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : لِأَنِّي تَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ فِي صَلَاةٍ يُخْلَصُهُمَا ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ  
أَنْ تَكْتُبَ سَبْعِينَ حِدِيثًا أَوْ سَبْعِمِائَةً بَلَاوَةً ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : فِي إِخْلَاصِ سَاعَةِ نَجَاةِ الْأَبَدِ ، وَلَكِنْ  
الْإِخْلَاصُ عَزِيزٌ ، وَيُقَالُ : الْعِلْمُ يَنْزِعُ ، وَالْعَمَلُ يَزْعُ ، وَمَاؤُهُ الْإِخْلَاصُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ :  
إِذَا أَبْغَضَ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ ثَلَاثًا ، وَمِنْهُ ثَلَاثًا ، أَعْطَاهُ صَحْبَةَ الصَّالِحِينَ ، وَمِنْهُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ  
وَأَعْطَاهُ الْأُمُحَالَ الصَّالِحَةَ ، وَمِنْهُ الْإِخْلَاصُ فِيهَا ، وَأَعْطَاهُ الْحِكْمَةَ ، وَمِنْهُ الصَّدَقُ فِيهَا ،  
وَقَالَ السُّوسِيُّ : مَرَادُ اللَّهِ مِنْ حِمْلِ الْخَلَائِقِ الْإِخْلَاصُ فَقَطْ ، وَقَالَ الْجَنِيدُ : إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا  
عَقَلُوا ، فَلَمَّا عَقَلُوا عَمَلُوا ، فَلَمَّا عَمَلُوا أَخْلَصُوا ، فَاسْتَدْعَامُ الْإِخْلَاصِ إِلَى أَبْوَابِ الْبَرِّ أَجْمَعِ  
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَمِيدٍ الْمُرُوزِيُّ : الْأَمْرُ كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلَيْنِ ، فَعِلَ مِنْهُ بَكَ ، وَفَعَلَ مِنْكَ لَهُ ،  
فَقَرَضِي مَا فَعَلَ ، وَتَخَلَّصَ فِيمَا تَعَمَّلَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ سَعَدْتَ بِهَذَيْنِ وَفَزْتَ فِي الدَّارَيْنِ

## بيان

### حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا سفا عن شوبه ويخلص عنه سمي خالصا  
ويسمى الفعل المصنوع الخالص إخلاصا ، قال الله تعالى ( مَنْ يَتَزَيَّرْ قَرَّتْ وَدَمِ كَبْتًا خَالِصًا )

سَائِلًا لِلشَّارِبِينَ<sup>(١)</sup> فَإِنَّمَا خُلُوصُ الْإِيمَانِ أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ شُوبٌ مِنَ الدَّمِ وَالْفَرَسِ ، وَمِنْ كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَجَرَّبَ بِهِ . وَالْإِخْلَاصُ بِضَادَةِ الْإِشْرَافِ ، فَمَنْ لَيْسَ خُلَاصًا فَهُوَ مُشْرِكٌ ، إِلَّا أَنْ الشَّرْكَ دَرَجَاتٌ ، فَالْإِخْلَاصُ فِي التَّوْحِيدِ بِضَادَةِ التَّنْشِيرِكِ ، فِي الْإِيمَانِ ، وَالشَّرْكَ مِنْهُ خَفِيَ ، وَمِنْهُ جَلِيَ ، وَكَذَا الْإِخْلَاصُ ، وَالْإِخْلَاصُ وَضَدُهُ يَتَوَارَدَانِ عَلَى الْقَلْبِ ، فَحُلُّهُ الْقَلْبُ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْقَصُودِ وَالنِّيَّاتِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا حَقِيقَةَ النِّيَّةِ ، وَأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى إِبَابَةِ الْبَوَاسِثِ ، فَهِيَ مَا كَانَ الْبَاعِثُ وَاحِدًا عَلَى التَّجَرُّدِ سَمِيَ الْقَعْلُ الْمَصَادِرُ عَنْهُ إِخْلَاصًا ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْمَوْجِي ، فَمَنْ تَصَدَّقَ وَغَرَضُهُ مَحْضُ الرِّيَاءِ فَهُوَ مَخْلُصٌ ، وَمَنْ كَانَ غَرَضُهُ مَحْضُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مَخْلُصٌ ، وَلَكِنَّ الْمَادَّةَ جَارِيَةً بِتَخْصِصِ اسْمِ الْإِخْلَاصِ بِتَجَرُّدِ تَصَدُّقِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ جَمِيعِ الشُّوَابِ ، كَمَا أَنَّ الْإِتِّحَادَ هَبَارَةٌ عَنِ اللَّيْلِ ، وَلَكِنَّ خُصَصَتِ الْمَادَّةُ بِالْمِيلِ عَنِ الْحَقِّ ، وَمَنْ كَانَ بَاعِثُهُ بِمَجْرَدِ الرِّيَاءِ فَهُوَ مَعْرُضٌ لِلْسَّلَاقِ ، وَلَسْنَا نَتَكَلَّمُ فِيهِ ، إِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فِي كِتَابِ الرِّيَاءِ مِنْ رُبْعِ الْمَهْلَكَاتِ ، وَأَقْلَ أُمُورِهِ مَا وَرَدَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ ، مِنْ أَنَّ الْمَرَامِي يَدْعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعِ أَسْمَاءٍ ، بِأَمْرَائِي ، بِإِضَافَةٍ ، بِأَمْرُكُ ، بِكَافَرٍ ، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ الْآنَ فِيْمَنْ أُنْبِئَتْ لِقَعْدِ التَّقَرُّبِ ، وَلَكِنَّ امْتِزَاجَ هَذِهِ الْبِائِثَاتِ بَاعِثٌ آخَرٌ ، إِمَّا مِنْ الرِّيَاءِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ حِفْظِ النَّفْسِ ، وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَصُومَ لِيَتَشَبَّعَ بِالْغَنِيمَةِ الْحَاصِلَةِ بِالصُّومِ مَعَ قَعْدِ التَّقَرُّبِ ، أَوْ يَمْتَقِنَ عِبَادَةً لِيَتَخَلَّصَ مِنْ مَوْثِقَتِهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ ، أَوْ يَحْبِجَ لِيَصْبَحَ زَاجِحًا بِمَحْرَكَةِ السَّفَرِ ، أَوْ يَتَخَلَّصَ مِنْ شَرِّ يَرْضَاهُ فِي بَلَدِهِ ، أَوْ لِيَهْرَبَ عَنْ عَدُوِّ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ ، أَوْ يَتَبَرَّمَ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، أَوْ يَشْتَغَلَ بِهِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَرْجِعَ مِنْهُ أَيْامًا ، أَوْ لِيُزَوِّجَ لِيَمَارِسَ الْحَرْبَ وَيَتَعَلَّمَ أَسْبَابَهُ وَيَقْدِرَ بِهِ عَلَى تَهْيِئَةِ السَّائِكِ وَجَرِّهَا ، أَوْ يَصَلِّيَ بِاللَّيْلِ وَلَهُ غَرَضٌ فِي دَفْعِ النَّعَاسِ عَنْ نَفْسِهِ بِإِرَائِبِ أَهْلِهِ ، أَوْ رَحَلَهُ ، أَوْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيَسْهَلَ عَلَيْهِ طَلَبُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الْمَالِ ، أَوْ لِيَكُونَ حَزِينًا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ ، أَوْ لِيَكُونَ عَقَّارَهُ أَوْ مَالَهُ مَحْرُوسًا بِمَنْ الْعِلْمُ عَنِ الْأَطْعَامِ أَوْ لِيَشْتَغَلَ بِالدَّرْسِ وَالْوَعظِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ كَرْبِ الصَّمْتِ وَيَتَفَرَّجَ بِلَذَّةِ الْحَدِيثِ ، أَوْ تَكْفُلَ بِخُدْمَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْفِيَةِ لِتَكُونَ حَرَمَتُهُ وَافرةً عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ النَّاسِ ، أَوْ لِيُنَالَهُ بِهِ رِقَا فِي الدُّنْيَا

(١) حدث ابن الراملي يدعي يوم القيامة بأمرائي بإضافة - الحديث: بابن أبي الله تعالى كتاب السنن الإخلاص وقد تقدم

أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه، أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراه أو تواضعا لينتظف، أو يتبرد، أو اغتسل لتطيب رائحته، أو روى الحديث ليعرف بصلو الإسناد، أو اعتكف في المسجد ليخفف كراه المسكن، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طيخ الطعام، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه، أو يمود مريضا ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جنازة أهله، أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه، بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك، وقد قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشركه وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه متمسك في شهواته، قلما ينفك قل من أفضاله، وعبادة من عباداته، من حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فذلك قيل. من سلم له من صمر لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجما، وذلك لمة الإخلاص، وثمر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا يباحث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى، وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يمتحن شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيها إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب، إما أن تكون في رتبة الموافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية

وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني، أو أقوى منه، أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره، وإنما الإخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها، قليلا وكثيرا، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من حب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا، بل تكون رغبته فيه كرهفته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى،



ويشع أن لو كفي شر الجوع ، حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا شيء في قلبه من ظلم الله عز وجل الزاوية على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطاوعا عنده ، لأنه ضرورة دينه ، فيكون له من الألفه تعالى ، فقل هذا الشخص لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته ، فإن خالف السماع بصحح التوبة في جميع حركاته وسكناته ، فإني أمثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده ، فإن لم يجد عبادة ، وكان له درجة المخالفة فيه ، ومن أسير كذلك في باب الإخلاص ، في الأعمال مرسوم عليه إلى أعلى التدور ، وكان من غاب عليه حب الله وحب الآخرة ، فأكسبت حركاته الأفعال في صفة همه وصارت إخلاصا ، فإني يغلب على نفسه الدنيا والآخرة والرياسة وبالجملة فير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك العفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك ، إلا نادرا فإذا علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن الدنيا ، والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذا ذلك يتيسر الإخلاص . وكمن أعمال يشب الإنسان فيها ويظن أنهاخالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغرورا ، لأنه لا يرى وجه الآلة فيها ، كالحكي من بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول ، لأنى تأخرت يومالمدر فصليت في الصف الثاني ، فاعتزني شجرة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني ، فمرت أنظر الناس إلي في الصف الأول كان معمرى ، فوسب استراحة تلي ، من حيث لا أشعر ، وهذا دقيق غامض فلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من يتبناه إلى الأمن وقعه الله تعالى ، والنافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات ومالرادون بقوله تعالى (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ آفَةٍ مَا لَهُمْ بِكَوْنُوا يَحْسِبُونَ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا ) (٥) وبقوله تعالى (فَلَمْ تَنْبَسْكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالُ الَّذِينَ مِثْلَ شُعْبَةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ مَعْمَالَهُمْ ) (٦) وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فإن أليات للأكثرين على نشر العلم لئلا الاستيلاء والفرح بالاستنباع ، والاستبشار بالهد والتناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ، ويقول : غررتم نشر دين الله ، والتغافل عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترى الواضعين على الله تعالى ينصبه الخلق .

ووعظه السلاطين ، وهرج بقرول الناس قوله وإنما نسأله عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسره  
من نصرة الدين ، ولو تأخر من أنراه من هو أحسن منه وعظا ، وانصرف الناس عنه  
وأقبلوا عليه ساء ذلك ، وغمه ، ولو كان بأشبه الدين لشكر الله تعالى ، إذ كثرة الله تعالى هذا  
الهم بغيره ، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ، ويقول : إنما نملك لا تقطع الثواب عنك ،  
لا لنصرف وجوه الناس عنك إلى غيرك ، إذ لو انظروا بقولك لكنبت أنت المئاب وانغمامت  
لقوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن اتقياده للحق ، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل  
ثوابا ، وأعود عليه في الآخرة من انفراد

وليت شعري لو اتهم صر رضي الله عنه بتصدى أبى بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان  
فيه محمودا أو مذموما ؟ ولا يسررب ذودين أن لو كان ذلك لكان مذموما ، لأن اتقياده للحق  
وتسليمه الأمر إلى من هو أصح منه ، أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق ، مع ما فيه  
من الثواب الجزيل ، بل فرح صر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال  
المسلم لا يفرحون بمثل ذلك ، وقد ينخدع بعض أهل العلم بفرور الشيطان ، فيحدث نفسه  
بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به . وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة ، والامتحان  
نحس الجبل والفرور ، فإن النفس سهلة القيادة في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا داهاه  
الأمر تيبوررج ، ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان ، والنفس ، وطال  
اشتغاله بامتحانها . فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بعميق ، يفرق فيه الجميع ، إلا الشاذ النادر  
والفرد القذ ، وهو المستثنى في قوله تعالى ( إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ <sup>(١)</sup> ) فليكن المبدأ  
شديد التقيد والمراقبة لهذه الدقائق ، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

## بيان

### أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسي : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص  
فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل ،  
فإن الالتفات إلى الاخلاص والنظر إليه بحجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ماصفا

عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سول رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون البعد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطها بالتعرض ، وفي معناه قول إبراهيم بن آدم . الإخلاص صدق النية مع الله تعالى ، وقيل لسهل أي شيء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب ، وقال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجال ومآجلا ، والمآبد لأجل تنم النفس بالشهوات في الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى ، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين ، وهو الإخلاص المطلق ، فأمان يعمل لوجه الجنة وخوف النار ، فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ المأجلة ، وإلا فهو في طلب حفظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق للوى الأبواب وجهه الله تعالى فقط ، وهو الثاقب لا يتحرك الإنسان إلا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ ، وقال هذا من صفات الإلهية ، وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا بالبراءة مما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط ، فأما التلذذ بمجرد المعرفة ، والمناجاة والنظر إلى وجهه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعمد الناس حظا بل يستجيبون منه ، وهؤلاء لو عوضوا مما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة ، وملازمة الشهود ، لحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعم الجنة لاستحقره ، ولم يلتفتوا إليه فتركهم لحظ ، وطاعتهم لحظ ، ولكن معظم معبودهم فقط دون غيره .

وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط ، وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ، ولذلك قال بعضهم : الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ، ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء ، وقد قيل : الإخلاص ما استتر من الخلاق وصفًا عن المخلوق ، وهذا أجمع للمقاصد ، وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب ، وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء ، وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية ، وقال الخواريون ليس على السلام ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمد عليه أحد ، وهذا أيضا

تعرض ترك الرياء وإغما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص، وقال الجنيد: للإخلاص تعفبه العمل من الكدورات، وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما، وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الخطوط كلها.

وهذا هو البيان الكامل، والأقوال في هذا كثيرة، ولا فائدة في تكرير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإغما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صل الله عليه وسلم، <sup>(١)</sup> إذ سئل عن الإخلاص فقال: «أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ» أي لا تعبدواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك؛ وتستقيم في عبادته، كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله من مجرى النظر وهو الإخلاص حقا.

## بيان

### درجات الغوالب والآفات المكثرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص، بعضها جلي وبعضها خفي، وبعضها ضئيف منع الجلاء، وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء، فلنذكر منه مثالا فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المعنى مهما كان غلصا في صلاته، ثم نظر إليه جماعة، أو دخل عليه داخل، فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوفاق والصلاح، ولا يزدريك، ولا يشاكك، فتشعج جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المتبينين من المريدين.

للنتيجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير.

(١) حديث سئل عن الإخلاص قال: أن تقول ربِّيَ اللَّهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ: لم أره بهذا اللفظ للترمذي وصححه ابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثوري قلت يارسول الله حدثني بأمر أعظم به قال قل ربِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ وهو عند مسلم بلفظ قل في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم.

ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ، ومنظور إليك ، وما تفعله يؤثر عنك ، ويتأمر بك  
غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت ، وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين  
يديه ، ففساد يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة ، وهذا أغصم من الأول وقد ينخسج  
به من لا يندفع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ، ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى  
الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه ، فلم لم يرض لنفسه ذلك في الخلوة .  
ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ، فهذا محض التلبس ، بل المقتدى به  
هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه ، فانتشر نوره إلى غيره ، فيكون له ثواب عليه .  
فأما هذا فمحض النفاق والتلبس ، فن اقتدى به أثيب عليه ، وأما هو فيطالب بتلبسه .  
ويعاقب على إظهاره من نفسه مالم يس متصفا به

الدرجة الثالثة : وهي أدق عما قبلها أن يجرب البعد نفسه في ذلك ، ويتنبه لكيد الشيطان ؛  
ويعلم أن غافلته بين الخلوة والمجاهدة للتبرع محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون  
صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يخشع لمشاهدة خلقه  
تحماسا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرضى في الملأ .  
وبصلي في الملأ أيضا كذلك ، فهذا أيضا من الرياء النامض ، لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسين  
في الملأ فلا يكون قد فرق بينها ، فالتفاتة في الخلوة والملا إلى الخلق ، بل الإخلاص أن تكون  
مشاهدة البهايم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة ، فكان نفس هذا ليست تسمح بإساءة  
الصلاة بين أظهر الناس ، ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ، ويظن أنه  
ذلك يزول بأن تسترى صلاته في الخلأ والملا ، وهيئات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى  
الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلأ والملا جميعا ، وهذا من شخص مشغول بهم بالخلق  
في الملأ والخلأ جميعا ، وهذا من المكاييد الخفية للشيطان

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان  
عن أن يقول له اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه تقطن لذلك فيقول له الشيطان عكسك في  
عظمة الله تعالى وجلاله ، ومن أنت وأنت بين يديه ، واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك  
وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه ، وتخشع جوارحه ، ويظن أن ذلك عين الإخلاص .

وهو عين السمكة والخداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله ليكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ، ولسكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر بما يألفه في الخلوة ، كما يألفه في الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر ، كما لا يكون حضور البهيمة سببا ، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو يعد خارج عن صفو الإخلاص ، مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا <sup>(١)</sup> الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دينب النملة السوداء في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره ، وحمد بمصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للبشرين لعبادة الله تعالى لا ينفصل عنهم لحظة حتى يحلمهم على الرياء في كل حركة من الحركات ، حتى في كحل العين ، وقصر الثارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثياب ، فإن هذه سنن في أوقات خصوصية ، وللنفس فيها حظ خفي ، لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ، ويقول هذه سنة لا يبنى أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها ، لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حيل الإخلاص بسببه ، وما لا يعلم من هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع ، فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف

وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد ، واستراحة الطبع إليه ، وينبئ ذلك في عياله إلى أحد المسجدين ، أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج شوائب الطبع ، وكدورات النفس ، ومبطل حقيقة الإخلاص ، لعمري النفس التي يخرج بخالص الذهب له درجات متفاوتة ، فمنها ما يظلب ، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ، ومنها ما يدرك لا يدرك إلا الناقد البصير ، وغش القلب ، ودغل الشيطان وخبت النفس ، أنقص من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأكثر به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال ، حتى يخاف منها ، فإن الجاهل نظره

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دينب النملة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة الصماء

فهدم في الدم وفي دم الجاه والرياء

إلى ظاهر العبادة واقتراحها، كنظر السوادى إلى حرمة الدين بالموت واستناده، وهو منشوش زائف في نفسه، وقبراً طم من الخالص الذى برئ فيه الناقد البصير، وغير من دينار يرتفعه التمر النجى فكذا يتفوت أسرار العبادات، بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المنطوقة إلى قنوت للأعمال، لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فليتنفع بما ذكرناه مثلاً، والفتن ببنية القليل عن الكبير، والبلد لا ينبه التطويل أيضاً، فلا فائدة في التفصيل

## بيان

حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس، فقد اختلف الناس في إن ذلك هل يقتضى ثواباً، أم لا يقتضى عقاباً، أم لا يقتضى شيئاً أصلاً، فلا يكون له ولا عليه، وأما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً، وهو سبب المقت والمقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب وظاهره (١) الأخبار تدل على أنه لا ثواب له، وليس تحلوا الأخبار عن تعارض فيه، والذى ينقدح لنا فيه، والمعلم عند الله، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الدينى مساوياً للباعث النفسى تقاوماً وتساوياً، وصار العمل لاله ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومغض للمقاب، ثم المقاب الذى فيه أنصف من عقاب العمل الذى مجرد للرياء، ولم يستزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى، وهذا لقوله تعالى (مَنْ يَمَلِكْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَمَلِكْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١))

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تحلوا الأخبار عن تعارض: أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله رجل يبتغى الجهاد في سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له - الحديث - وللنسائي من حديث أبي أمامة بأسناد حسن أرأيت رجلاً غزى ابتغى الأجر والذكر ماله فقال لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً واجتنى به وجهه ولترمذى وقال غريب وابن جبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإنا اطعن عليه أهيبه قاله أجرين أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في فم الجاه والرياء

ولقوله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا <sup>(١)</sup> ) فلا ينبغي أن يضع قصد الخير ، بل إن كان غالباً على قصد الرياء جبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وإغنا غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وقته ، وداعية الخير من المنجيات ، وإغنا قوتها بالعمل على وقتها ، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوتى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب ، فقد قوتى أيضاً تلك الصفة ، وأحدهما مهلك ، والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناوله كما أنه لم يتناولهما ، وإن كان أحدهما غالباً لم يحل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ، ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ، ولا ينفك عن تأثير في إثارة القلب أو تسويده وفق تقريبه من الله ، أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده ، فقد عاد إلى ما كان ، فلم يكن له ولا عليه . وإن كان الفعل بما يقربه شبرين ، والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لاهلة شبر . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةُ تَمْحُهَا » فإذا كان المحض يحويه الإخلاص المحض عقيبها ، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة

ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة ، صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حط من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة ، وتجارته غير . وقوفة عليه ، فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ، ولا نواجب فيه . هما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي ، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع ، فلا ينفك نفس السافر عن ثوابه .

( ١ ) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها : تقدم في رياضة النفس وفي التوبة



وما عدى أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الفتناء، وبين جهة لا غنية فيها. ويعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحيط بالكلية ثواب جهادهم. بل المصل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلي، والمزج القوي، هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في النعمة على حبيل التبعة، فلا يحبط به الثواب. نعم لا يساوى ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى النعمة أصلاً، فإن هذا الالتفات قصاص لأعماله

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب، وفي معناه شوب طلب النعمة، والتجارة، وسائر الحظوظ، فقد روى <sup>(١)</sup> طاوس وغيره من التابعين، أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يصدق في حبس أن يحمدا ويؤجر، فلم يدر ما يقول له، حتى زلت (فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِمِכَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) <sup>(٢)</sup> وقد قصد الأجر والحمد جميعاً. وروى <sup>(٣)</sup> معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم : يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ خُذْ أَجْرَكَ رِمْنًا مَمْلُوءًا

وروي عن عبادة، أن الله عز وجل يقول أنا أغني الأغنياء عن الشرك، من عمل في محله فأشرك معي غيره ودعت نصيبي لشريكى. وروى <sup>(٤)</sup> أبو موسى أن أعرابياً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، الرجل يقاتل حية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليوى مكانه في سبيل الله. فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ

(١) حديث طاوس وعده من التابعين أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يصدق للعروف أو قال يصدق فيجب أن يحمدا ويؤجر فزلت فن كان يرجوا لقاء ربه : ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلًا وقد تقدم فيهم الجاه والرياء

(٢) حديث معاذ أدنى الرياء شرك : الطبراني والحاكم وتقدم فيه

(٣) حديث أبي هريرة قال ابن أشرك في عمله خذ أجرك من عملته : تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل محلا أشرك فيه من غيرى تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله

(٤) حديث أبي موسى من قال لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله : تقدم فيه

هِيَ أَتْلُبُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالَ صِرَاحِي اللَّهِ عَنْهُ : تَقُولُونَ فَلَانِ شَيْئِهِ ، وَلَمْ يَلَهُ أَنْ  
يَكُونَ قَدْ مَلَاحَ دَقِي رَاحِلَتِهِ وَرَقَا . وَقَالَ <sup>(١)</sup> ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ هَاجَرَ يَتَنَبَّئَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ .

فَقُولُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ لَا تَنَافُضُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، بَلِ الْمُرَادُ بِهَا مَنْ لَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الدُّنْيَا ،  
كَقَوْلِهِ : مَنْ هَاجَرَ يَتَنَبَّئَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا ، وَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الْأَغْلَبُ عَلَى هَمِّهِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا  
أَنَّ ذَلِكَ عَصِيَانٌ وَعُدْوَانٌ ، لَا لِأَنْ تُلَبَّ الدُّنْيَا حَرَامٌ ، وَلَكِنْ تُلَبُّهَا بِأَعْمَالِ الدِّينِ حَرَامٌ ، لِمَا  
فِيهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَتَقْيِيرِ الْبِسَادَةِ عَنْ مَوْضِعِهَا . وَأَمَّا لَفْظُ الشَّرْكَهَ حَيْثُ وَرَدَ فُطِّلَ لِلتَّسَاوَى  
وَقَدْ يَبْنَاهُ إِذَا تَسَاوَى التَّعَمُّدَانِ تَقَاوَمَا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَا عَلَيْهِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْجَى عَلَيْهِ ثَوَابٌ  
ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ الشَّرْكَهَ أَبَدًا فِي خَطَرِهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَغْلَبَ عَلَى قَصْدِهِ  
فَرَمَاهُ يَكُونُ عَلَيْهِ وَيَالَا ، وَلِلَّذَلِكَ قَالَ تَعَالَى ( فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيُتِمِّمْ شَأْنَهُ صَالِحًا )  
وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا <sup>(٢)</sup> ) أَيُّ لَا يَرْجَى الْقِيَامُ مَعَ الشَّرْكَهَ الَّتِي أَحْسَنَ أَحْوَالُهَا التَّسَاقُطُ  
وَيُجَوِّزُ أَنْ يُقَالَ أَيْضًا : مَنْ سَبَّ الشَّهَادَةَ لَا يَنَالُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ فِي النَّزْوِ ، وَبِإِدْنِ الْقَالَ  
مَنْ كَانَتْ قَامَتِهِ لِلدُّنْيَةِ بِحَيْثُ تَرْجَاهُ إِلَى عِمْدِ النَّزْوِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَنِيَةً ، وَقَدْ عَزَى عَلَى غَزْوِ  
طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ ، إِحْدَاهُمَا غَنِيَةٌ ، وَالْأُخْرَى فَقِيرَةٌ ، قَالَ إِلَى جِهَةِ الْأَغْنِيَاءِ لِإِعْلَافِ كَلِمَةِ  
اللَّهِ وَالنَّبِيَّةِ ، لِثَوَابِ لَهُ عَلَى غَزْوِهِ أَبَتَهُ : وَنَمُودُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . فَإِنَّ هَذَا  
مُخْرَجٌ فِي الدِّينِ ، وَمُدْخَلٌ لِلْيَأْسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الشَّوَابِ التَّائِبَةِ قَطُّ لَا يَنْفَكُ  
الْإِنْسَانُ عَنْهَا إِلَى الْعَدْوِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ هَذَا فِي نَقْصَانِ الثَّوَابِ . فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي إِجْبَاطِهِ فَلَا  
ثُمَّ الْإِنْسَانُ فِيهِ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ ، لِأَنَّهُ رَجَا يَطْنُ أَنْ الْبَاعِثَ الْأَفْوَى هُوَ قَصْدُ التَّقَرُّبِ  
إِلَى اللَّهِ ، وَيَكُونُ الْأَغْلَبُ عَلَى سِرِّهِ الْحِفْظُ النَّفْسِي ، وَذَلِكَ مِمَّا يَمْنَعُ غَايَةَ الْغَفَاءِ ، فَلَا يَحْصُلُ  
الْأَجْرُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ ، وَالْإِخْلَاصُ قَلْبًا يَسْتَيْقِنُ الْعَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَإِنْ بَالِغٌ فِي الْإِحْتِيَاظِ  
فَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَبَدًا بَعْدَ كَالِ الْاجْتِهَادِ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّدِّ وَالْقَبُولِ ، خَافِقًا أَنْ  
تَكُونُ فِي عِبَادَتِهِ آفَةٌ يَكُونُ وَبِهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَوَابِهَا وَهَكَذَا كَانَ الْعُلَمَاءُ قَدْ ذَوِيَ الْبَصَائِرِ

( ١ ) حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ هَاجَرَ يَتَنَبَّئُ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا لَهُ : تَقَدَّمَ فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَهُ

وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة ، ولذلك قال سفيان رحمه الله : لا أعد بما ظهر من علي . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : جاورت هذا البيت ستين سنة ، وحجبت ستين حجة ، فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي ، فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالي ولا علي . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، فإن ذلك منتهى بنية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أباسميد الخراز ويخف في أعماله ، فتكلم أبو سميد في الإخلاص يوما يريد إخلاص الحركات ، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطلبه بالإخلاص ، فتعذر عليه قضاء الحاجات ، واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره ، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص ، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فتركها . فقال أبو سميد : لا تقبل ، إذ الإخلاص لا يقطع العامة ، فواظب على العمل ، واجتهد في تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل ، وإنما قلت لك أخلص العمل . وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء ، وفعله لأجل الخلق شرك

### الباب الثالث

في الصدق وفضيلته وحقيقته

### فضيلة الصدق

قال الله تعالى ( رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَالْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »

ويكنى في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه ، والله تعالى وصف الأنبياء في معرض

( الباب الثالث في الصدق )

( ١ ) حديث أن الصدق يهدي إلى البر - الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

الملاح والنساء فقال ( وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا <sup>(١)</sup> ) وقال ( وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَكَانَ صَادِقًا وَعُذِّدَ ) وقال تعالى ( وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ آدِرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا <sup>(٢)</sup> )

وقال ابن عباس : أربع من كن فيه فقد ربح ، الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقال أبو عبد الله الرملي : رأيت منصور الدينوري في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك قال : غفر لي ، ورحمني ، وأعطاني مالم أؤمل . فقلت له : أحسن ما توجه المبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق . وأفصح ما توجه به الكذب

وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله تعالى غاية مطلبتك . وقال رجل الحكيم : ما رأيت صدقا فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد ابن علي الكتاني قال : وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان : على الحق ، والصدق ، والعدل . فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب ، والصدق على القول

وقال الثوري في قوله تعالى ( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ <sup>(٣)</sup> ) قال : هم الذين ادعوا عبادة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ، من صدقتني في سريره صدقتني عند المخلوقين في علانيته

وصاح رجل في مجلس الشبلي ، ورمى نفسه في دجلة ، فقال الشبلي : إن كان صادقا فإله تعالى ينجيهِ كما ينجي موسى عليه السلام ، وإن كان كاذبا فإله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون

وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال ، أنها إذا صحت ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة . اثنين وعشرين حرفا ، كان صلاحه بني إسرائيل يحتسمون فيقرئونها ويتدارسونها . لا كنز أرفع من العلم ، ولا مال أرفع من الحلم ، ولا حسب أرفع من الغضب ، ولا قرن أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفسك ،

(١) مريم : ٤١ (٢) مريم : ٥٤ (٣) مريم : ٥٦ (٤) الزمر : ٦٠

ولاحسنة أعلى من الصبر ، ولا شئة أخزى من الكبر ، ولادواء ألين من الرفق ، ولاداء أوجع من الخرق ، ولارسل أعدل من الحق ، ولادلل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا غنى أشقى من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا مديشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت ، . وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة يمدك حتى تبصر كل شيء من مجائب الدنيا والآخرة .

وقال أبو بكر الوراق : أحفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى ، والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لدى النون . هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعاوى الهوى تحف علينا وخلاف الهوى علينا ثقل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه ؟ فقال : الصدق ، والسخاء ، والشجاعة فقل زدنا : فقال : التقى ، والحياء ، وطيب الغذاء

وعن <sup>(١)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال « قَوْلُ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِالصَّدْقِ » . وعن الجنيد في قوله تعالى ( لِيَسْأَلَ الْعَادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ <sup>(٢)</sup> ) قال يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر

## بيان

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والإرادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها . فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق ، لأنه مبالغة في الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه

( ١ ) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ

(٢) الاحزاب : ٨

الصدق الأول : صدق اللسان . وذلك لا يكون إلا في الأخبار ، أو فيما يتضمن الأخبار وبنه عليه ، والخبر إما أن يخلق بالماضي أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ أفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كالان . أحدهما : الاحتراز عن الماريض ، فقد قيل : في الماريض مندوحة عن الكذب . وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه . إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال ، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجرام ، وفي الحذر من الظلمة ، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه ، لأن الصدق مأوريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه

ثم لم يثل هذا الموضع ينبغي أن يدل إلى الماريض ما وجد إليه سبيلا <sup>(١)</sup> كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره ، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ أَمَى خَيْرًا » وخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب . والصدق هنا يتحول إلى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فيها صحت قصده ، وصدقت نيته . وتجردت للخبر إرادته ، صار صادقاً وصدقاً كيفما كان لفظه ثم التزمين فيه أولى . وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره ، فقال لزوجته . خفي بأصبعك دائرة ، وضى الأصبع على الدائرة ، وفوى ليس

( ١ ) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره : خفي عليه من حديث كعب بن مالك

( ٢ ) حديث ليس بكذاب من أصلح بين الناس . الحديث : متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة

ابن أبي ميمون وقد فهم

هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ، ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدقا موافقا  
الظالم أنه ليس في الدار .

فالكمال الأول في اللفظ : أن يحتز من صريح اللفظ عن المعارض أيضا إلا عند الضرورة  
والكمال الثاني ، أن يراعي معنى الصدق في الفاظه التي يناجي بهاربه ، كقوله : وجهت  
وجهي للذي فطر السموات والأرض ، فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى ، مشغولا  
بأماني الدنيا وشهواته ، فهو كذب . وكقوله : إياك نريد . وقوله : أنا عبد الله . فإنه إذا لم  
يتصف بحقيقة العبودية ، وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامه صدقا . ولو طوب يوم  
القيامة بالصدق في قوله : أنا عبد الله ، لحجز عن تحقيقه ، فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبداً لدنيا  
أو عبداً لشهواته ، لم يكن صادقا في قوله .

وكل ما تقيد العبد به فهو عبده . كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدنيا . وقال نبينا  
صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « تَمَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ تَمَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمْ وَعَبْدُ الْحُلَّةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ »  
سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له . وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير  
الله تعالى ، فصار حرا مطلقا . فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا ، غلقت فيه العبودية  
لله ، فتشغله بالله وبعبادته ، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته ، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى  
ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية ، وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من  
حيث هو ، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد ، فتغنى إرادته في إرادة الله تعالى .  
وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا ، وصار مفقودا  
لنفسه ، موجودا لسيده ومولاه ، إن حرره كتحرك ، وإن سكنه سكن ، وإن ابتلاه رضي  
لم يبق فيه متسع لطلب ، والتامس ، واعتراض ، بل هو بين يدي الله كاليتيم بين يدي الناسل  
وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى ، فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه  
وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبسببها تتحقق  
العبودية لله تعالى . وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا .  
فهذا هو معنى الصدق في القول

الصدق الثاني : في النية والإرادة . ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن ما زجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا ، كما رويناه في فضيلة الإخلاص من حديث <sup>(١)</sup> الثلاثة ، حين يسأل العالم ما عملت فبما عملت ، فقال : فملت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ، فإنه لم يكذب به ، ولم يقل له لم تعمل ، ولكنه كذب به في إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد . وكذلك قول الله تعالى ( وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ كَانُوا فِي كَذِبٍ ) <sup>(٢)</sup> وقد قالوا إنك لرسول الله ، وهذا صدق ، ولكن كذبهم لأنهم حيث نطقوا اللسان ، بل من حيث ضمير القلب ، وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر ، وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول ، فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه . فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به . فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص ، فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا

الصدق الثالث : صدق الزم ، فإن الإنسان قد يقدم الزم على العمل . فيقول في نفسه . إن وزعني الله ما لا تصدقت بجميعة ، أو بشرطه ، أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم بال وإن قُتلت ، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه الزمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل ، وتردد ، وضعف يضاد الصدق في الزمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة ، كما يقال لفلان شهوة صادقة ، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة ، مهمالم تكن شهوته من سبب ثابت قوي ، أو كانت ضعيفة . فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصادق هو الذي تصادف عزيمته في الخبرات كلها قوة تامة ، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبدا بالزم المصمم الجازم على الخبرات . وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلي من أن تأمر على قوم بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه الزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أي بكر رضي الله عنه وأكده ذلك بما ذكره من القتل

( ١ ) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فبما عملت - الحديث : تقدم .

( ٢ ) النفاقون : ١٠ .



ومراتب الصديقين في الزائم تختلف ، فقد يصادف الزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خلى ورايه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق .

الصدق الرابع : في الوفاء بالزم . فإن النفس قد تسخو بالزم في الحال ، إذ لا مشقة في الوعد والزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات انحلت الزمية ، وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالزم . وهذا يضاد الصدق فيه . ولذلك قال الله تعالى ( رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> ) فقد روي <sup>(٢)</sup> عن أنس أن هبة أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أرايت الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما صنع . قال فشهد أحدنا في العام القابل ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال واهل الرح الجنة ، إلى أجد ريمحادون أحد . فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ، مائة رمية ، وضربة ، وطلعة ، فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخي إلا بشيائه . فنزلت هذه الآية ( رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ <sup>(٣)</sup> ) <sup>(٤)</sup> وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير ، وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ( رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَبِهِمْ مِنْ قَضَى حُبِّهِ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ <sup>(٥)</sup> ) . وقال <sup>(٦)</sup> فضالة بن عبيد : سمعت

( ١ ) حديث أنس أن هبة أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث : في قوله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطلعة وتزول رجال صدقوا الآية الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصرا ان هذه الآية نزلت في أنس بن النضر

( ٢ ) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية : أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسل

( ٣ ) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشداء أربعة رجل مؤمن جيد الايمان - الحديث : الترمذي وقال حسن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
 « الشهادَةُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَبَدُ الْإِيمَانِ لِيَّ الْقَدْوُ فَصَدَّقَ اللَّهُ حَتَّى  
 قُتِلَ فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا » ورفع رأسه حتى  
 وقمت قلنسوته . قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 « وَرَجُلٌ جَبَدُ الْإِيمَانِ إِذَا لَقِيَ الْقَدْوُ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ أَنَاهُ سَهْمٌ عَابِرٌ  
 فَقَتَلَهُ قَبْلُ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْقَدْوُ  
 فَصَدَّقَ اللَّهُ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَرَجُلٌ أَشْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْقَدْوُ فَصَدَّقَ  
 اللَّهُ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ » . وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملاء من  
 الناس فمود ، فقالا إن رزقنا الله تعالى ما لا نتصدقن ، فبخلوا به ، فترلت ( وبسببهم من عاهد الله  
 لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين <sup>(١)</sup> )

وقال بعضهم : إنهم شيء ، نووه في أنفسهم لم يتكلموا به ، فقال ( وبسببهم من عاهد الله  
 لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به  
 وتولوا وهم مبرءون فأغشيتهم أهواءهم فلو لم يؤم إلي يوم يلحقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه  
 وبما كانوا يكذبون <sup>(٢)</sup> ) فجعل العزم عبداً وجعل الخلف فيه كذبا ، والوفاء بصدقا

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن النفس قد تسخو بالعزم ، ثم تكيع عند الوفاء  
 لشدة عليها ، ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضي  
 الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرب عني أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ،  
 اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئا لأجده الآن ، لأنى لا آمن أن يقتل عليها ذلك  
 فتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم

وقال أبو سعيد الخراز . رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى : ما الصدق ؟  
 قلت الوفاء بالهد . فقالا لى : صدقت . ورجعا إلى البقاء

الصدق الخامس : فى الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى  
 باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق  
 الظاهر . وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء ، لأن المرأى هو الذى يقصد ذلك ويرب

واقف على هيئة الخشوع في صلاته ؛ ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يديه الله تعالى ، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته . فهذه أعمال تمرب بلسان الحال عن الباطن إغرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال . وكذلك قد يمشی الرجل على هيئة السكون والوقار ، وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله ، وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ، ولا مراثيا لإيام ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والملائية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ، وليس ثياب الأشرار ، كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره ، فيكون كاذبا في دلالة الظاهر على الباطن

فإذا مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ، وفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد ففوت بها الصدق . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « اللَّهُمَّ اجْعَلْ سِرِّي خَيْرًا مِنْ عِلَائِي وَاجْعَلْ عِلَائِي صَاحِبَةً » وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلايته فذلك النصف . وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل . وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدا .

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا  
فإن خالف الإعلان سرا فإله على سمية فضل سوى الكد والمنا  
فما خالص الدينار في السوق نافق ومنشوشه المزدود لا يقتضى المنا  
وقال عطية بن عبد النافر . إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة ، يقول :  
هذا عبدى حقا ؛ وقال معاوية بن قرة : من بدلى على بكاء الليل بسأم النهار أو قال عبداً الواحد  
ابن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمال الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من  
أترك الناس له ، ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بملائية منه

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى ، عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة  
وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ، ويسكى . وقال أبو بقوب الهرجوري : الصدق  
مواقة الحق في السر والعلانية ؛ فإذا مساواة السريرة للملائية أحد أنواع الصدق  
الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها ، الصدق في مقامات الدين ، كالصدق

( ١ ) حديث اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي - الحديث - تقدم ولم أجده

في الخوف، والرجاء، والتنظيم، والزهّد، والرضا، والتوكل، والحب، وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها. وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته، سمي صاحبه صادقاً فيه كما يقال. فلان صدق القتال، ويقال هذا هو الخوف الصادق. وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا<sup>(١)</sup>) إلى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (وَلَيْكِنَّا لَبَرٍّ مِّنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ<sup>(٣)</sup>) إلى قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا<sup>(٤)</sup>)<sup>(٥)</sup> وسئل أبو ذر عن الإيمان، فقرأ هذه الآية فقيل له سألناك عن الإيمان. فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية ولنضرب للخوف مثلاً. فامن عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق، أي غير بالغ درجة الحقيقة. أما تراه إذا خاف سلطاناً، أو قاطع طريق في سفره، كيف يصفر لونه، وترتعد فرائضه. ويتنصص عليه عيشه، ويتمنّز عليه أكله ونومه، وينقسم عليه فكرة حتى لا ينتفع به أهله ولده؟ وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التيب والمشفة، والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريأت مصيبة عليه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> «لَمْ أَرْ مِثْلَ النَّارِ نَأَمَ هَارِباً وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَأَمَ طَالِباً»

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله، إما ضئيف وإما قوي. فإذا قوي سمي صادقاً فيه

فمعرفة الله وتنظيمه والخوف منه لانهائية لها، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام «أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك» فقال لا تطيق ذلك<sup>(٧)</sup>

(١) حديث أبي ذر سأله عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر إلى قوله أولئك

الذين صدقوا رواه محمد بن نصر للروزي في تنظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجدها إلا سائداً

(٢) حديث لم أر مثل النار نأماً هارباً - الحديث : تقدم

(٣) حديث قال جبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك - الحديث : تقدم

في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

قال « بَلْ أَرِني » فواعده البغيح في يسلة مقمرة ، فأناه ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قدس الأتق بنى جوانب السماء فوقه النبي صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه ، فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ هَكَذَا » قال وكيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن المرش لمي كاهله ، وإن رجله قد مرفقاً تحت تحوم الأرض السفلى ، وإنه ليتصا بر من عظمة الله حتى يصير كالوضع ، بنى كالصغور الصغير . فانظر ما الذي ينشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة لبسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة ، فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرَى بِبَنِي وَجَيْرِيلَ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى كَالْحُلَسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، بَنَى الْكِسَاءَ الَّذِي يَلْقَى عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ . وَكَذَلِكَ الصَّحَابَةُ كَانُوا شَائِفِينَ ، وَمَا كَانُوا يَخَافُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِلَّذَلِكَ قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لَنْ يَبْلُغَ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ حَتَّى تَنْظُرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ حَقِّي فِي دِينِ اللَّهِ . وَقَالَ مَطْرَفُ : مَا مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ أَحَقُّ قِيَامِيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ ، إِلَّا أَنْ بَعْضُ الْخَلْقِ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٢)</sup> « لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَأَلَا بِعَمْرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِدَهَا أَحَقَرَ حَقِيرٍ ، فَالصَّادِقُ إِذَا فَيَ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ عَزِيزٌ ، ثُمَّ دَرَجَاتِ الصَّدَقِ لِأَهْيَاةِ لَهَا . وَقَدْ يَكُونُ لِلْعَبْدِ صَدَقٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِي الْجَمِيعِ فَهُوَ الصَّدِيقُ حَقًّا . قَالَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ : ثَلَاثَةٌ أَنَا فَيَهِنْ قَوِي ، وَفَيَا سَوَاهِنْ ضَعِيفٌ : مَا صَلَيْتُ صَلَاةً مِنْذُ أَسَلَمْتُ لَخْدَمْتُ نَفْسِي حَتَّى أَفْرَغَ مِنْهَا . وَلا شَيْعَتْ جَنَازَةٌ لَخَدَمْتُ نَفْسِي بِغَيْرِ مَا هِيَ قَائِلَةٌ وَمَا هُوَ مَقُولٌ لَهَا حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا . وَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَوْلًا لَّا أَعْلَقْتُ أَنَّهُ حَقٌّ ، فَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ : مَا ظَنَنْتُ أَنْ هَذِهِ الْخَصَالُ تَجْتَمِعُ إِلَّا فِي النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَهَذَا صَدَقَ

( ١ ) حَدِيثٌ مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرَى بِبَنِي وَجَيْرِيلَ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى كَالْحُلَسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ - الْحَدِيثُ : مُحَمَّدٌ بْنُ نَعْسَرٍ فِي كِتَابِ تَعْلِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ وَالْبَيْتِ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَفِيهَا الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْوَادِي ضَعْفُ الْجَهْلُورِ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ وَرَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَةَ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمِيرٍ ابْنِ عَطَّارٍ وَهَذَا مَرْسَلٌ

( ٢ ) حَدِيثٌ لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَأَلَا بِعَمْرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِدَهَا أَحَقَرَ حَقِيرٍ : لَمْ أَجِدْ لَهُ أَصْلًا فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ

في هذا الأمور . وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة ، واتبعوا الجنائز ، ولم يبلغوا هذا المبلغ  
فهذه هي درجات الصدق ومآنيه ، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق  
في الأغلب لا تعرض إلا لأحد هذه المآني . نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة : صدق  
التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لامة المؤمنين . قال الله تعالى .  
(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ<sup>(١)</sup>) وصدق الطاعة ، لأهل العلم والورع ،  
وصديق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض . وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق  
السادس ، ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق ، وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام

وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة ، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك  
غيرك ، فقال تعالى (هُوَ اجْتَبَاكُمْ<sup>(٢)</sup>) . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام  
إني إذا أحببت عبداً ابتليت به بلالاً لا تقوم لها الجبال ، لأنظر كيف صدقه . فإن وجدته صابرا  
اتخذته وليا وحييا ، وإن وجدته جزوعا يشكوني إلى خلقي خذك ولا أبالي .

فإذا من علامات الصدق كتابان المصاب والطاعات جميعا ، وكراهة اطلاع الخلق عليهما  
تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والمحمد لله

## فهرست الابیوة فی اربع عشر

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
٢٥٨٥	حب المحسن في نفسه	٢٥٣٣	بيان توكل المعيل
	حب الجمال لذاته . مجمل الصفات		الفرق بين توكل المنفرد والمعيل
٢٥٨١	المحبة للقلوب	٢٥٣٧	اهتمام العلماء بالرزق قبيح
	بيان ان نجل الثنايات واعلامه معرفة		بيان احوال المتوكلين في اللهات
٢٥٩٢	الله تعالى وانتزاع في وجهه الكريم		بالاسباب بضرب مثال . مثال
٢٥٩٤	العلم بالله تعالى الدال المأمور	٢٥٣٨	الغافل مع خلقه
٢٥٩٨	العبادة حيا لله تعالى أعلى المنازل	٢٥٣٩	احوال المدخر اناء ماله
٢٦٥٩	مثال اطوار النطق في اللغات	٢٥٤٢	الادخار للمعيل سنة غير مبطل للتوكل
	بيان السبب في زيادة النظر في الله		ترك الاسباب الرافعة للضرر مبطل
٢٦٠٠	الاخرة على التفرقة في الدنيا	٢٥٤٤	للتوكل
	المسعى تحجب المرء عن رؤية ربه	٢٥٤٨	بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم
٢٦٠٣	تعالى	٢٥٥٣	امره صلى الله عليه وسلم بالتداوى
٢٦٠٥	السعادة طول العمر في طاعة الله	٢٥٥٥	ليس من التوكل الكى وما يشبهه
٢٦٠٦	بيان الاسباب القوية لحب الله تعالى		بيان ان ترك التداوى قد يعمد في
	اسباب ضعف حب الله تعالى في		بعض الاحوال ويصل على قوة
	القلوب		التوكل وان ذلك لا يناقض فعل
٢٦٠٧	الانشغال بحب الدنيا	٢٥٥٦	رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٦٠٨	سبيل قلع حب الدنيا من القلب	٢٥٥٧	اسباب ترك التداوى
	بعض عجائب قدرة الله تعالى في خلق		بيان الرد على من قال ترك التداوى
٢٦١٠	البعوضة	٢٥٦٢	افضل بكل حال
٢٦١٢	عجائب قدرة الله في النحل		بيان احوال المتوكلين في اظهار المرض
٢٦١٣	بيان السبب في تفاوت الناس في الحب	٢٥٦٦	وكتمائه
	مثال لتفاوت الحب عند الناس		مقاصد اظهار المرض
	بيان السبب في قصور الفهم الفلاني		
٢٦١٥	عن معرفة الله سبحانه		
٢٦١٨	بيان معنى الشوق الى الله تعالى		
	الاضطرار الى الشوق عقلا		
٢٦٢٠	الاخبار والآثار في الشوق		
٢٦٢٥	بيان محبة الله للعبد ومعناها		
٢٦٢٧	حقيقة المحبة		
٢٦٢٩	علامة معرفة حب الله للعبد		
٢٦٣٠	القول في ملامت محبة العبد لله تعالى		
٢٦٣٢	المحب لله لا يصعب		
٢٦٣٦	علامة المحبة كمال الاتس بالحبوب		
٢٦٤٥	علامة المحبة نظما		
	بيان معنى الالاس بالله تعالى . معنى		
٢٦٤٦	الانس		
		٢٥٨٢	حب الانسان لنفسه
		٢٥٨٣	حب المحسن لاحسنة

## كتاب المحبة والشوق والانس والرضا

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

بيان ان المستحق للمحبة هو الله وحده

معنى محبة العبد لله تعالى

الاحسان

حب الشوق لذاته

تناسب الأرواح

بيان المستحق للمحبة هو الله وحده

حب الانسان لنفسه

حب المحسن لاحسنة

٢١٨٩	بيان حقيقة النية
٢١٩٠	الإخلاص وصاله
٢١٩١	الرافقة ومساها
	المشاركة ومساها . العارضة ومساها
٢١٩٢	بيان صفة قوله صلى الله عليه وسلم
	نية المؤمن خير من عمله
٢١٩٥	وجبة كون النية خيرا من العمل
	بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية
	المعاصي بالنسبة للنية .
٢١٩٦	المجاهل لا يسدر
٢١٩٧	كياسة العالم مرافعة تلميذه
٢١٩٨	الطاعة بالنسبة للنية
	تكسر النيات يبلغ الى درجات المقربين
٢٢٠٠	المباحات بالنسبة للنية
٢٢٠٣	بيان ان النية غير داخلية تحت الاختيار
٢٢٠٤	طريق اكتساب النية
٢٢٠٥	تيسر احضار النية للمندبين
٢٢٠٦	تفاوت نيات الناس في الطاعات
٢٢٠٧	تفاوت درجات النيات
	الباب الثاني : في الاخلاص وفصيلته
٢٢٠٨	وحقيقته ودرجاته
	فضيلة الاخلاص
٢٢٠٩	الاخلاص اساس النجاح في الاعمال
٢٢١٢	بيان حقيقة الاخلاص
٢٢١٥	خلاج الاخلاص كسر حظوظ النفس
٢٢١٦	بيان اقوال الشيوخ في الاخلاص
	بيان درجات الشوائب والآفات
٢٢١٨	الكثرة للاخلاص - الرياء
٢٢١٩	اعتماد الاشتغال بالخلق
	بيان حكم العمل المشوب واستحقاق
٢٢٢١	التواب به
	الباب الثالث : في الصدق وفصيلته
٢٢٢٥	وحقيقته
	فضيلة الصدق
٢٢٢٧	بيان حقيقة الصدق وممنه ومراتبه
٢٢٢٨	الصدق في القول
٢٢٣٠	الصدق في النية - الصدق في العزم
٢٢٣١	الصدق في الوفاء
٢٢٣٢	الصدق في الاموال
٢٢٣٣	الصدق في مقامات الدين

٢٢٤٧	ملامحه
	بيان صفة الصدق والصدق
٢٢٤٨	تأثيره عليه الناس
٢٢٥٠	المعاني الباقية في عصر القرآن
	القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى
٢٢٥٢	رحمته وما ورد في فضيلته
	بيان حقيقة الرضا
٢٢٥٤	ردوا ان الله غايه ما يشاء المرء
٢٢٥٧	الآثار في الرضا
	بيان حقيقة الرضا وتفسيره فيها
٢٢٥٩	يخالف الآراء
	ان الحب الرضا بفعل الحبيب
	عظمة سعد بن أبي وقاص في الرضا
٢٢٦٢	بقضاء الله
٢٢٦٥	امكان الرضا بما يضاف اليه
٢٢٦٦	بيان ان الرضا غير منافض الرضا
	وجه الجمع بين الرضا والتراهة في
	شيء واحد
٢٢٦٨	السواء بالمفارقة غير منافض للقضاء
٢٢٧٠	الشكوى تناقض الرضا
٢٢٧١	بيان ان الغرار من البلاد التي هي
	مقارن المعاصي وملمعتها لا يقع في
	الرضا
	بيان جملة من حكايات المحبين
٢٢٧٢	واقوالهم ومكاشفاتهم
٢٢٧٦	مفامات المحبين لا يتكرها عاقل
	ابعد القلوب من الله المتكبره واقربها
٢٢٧٧	المنكسرة
	بشارة النبي صلى الله عليه وسلم
	لا يكره الله منه . خاتمة
	التكثيف بكلمات متفرقة تتعلق
٢٢٨٠	بالحبة ينتفع بها
	كتاب النية والاخلاص
	والصدق
٢٢٨٤	الباب الأول : في النية
	بيان فضيلة النية
٢٢٨٥	الاجر بقدر النية
٢٢٨٦	الاخبار في فضل النية
٢٢٨٧	الانذار في فضيلة النية
٢٢٨٨	



كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الخامس عشر

دار الشعب

15 شارع مصطفى كامل - القاهرة - ٢١٨٤



# كتاب المراقبة والمحاسبة

### مكتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من دبع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

#### بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد لله التقيم على كل نفس بما كتبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست . الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذي لا يثرب عن ملته متقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على التقير والتقطير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتعول بالفقر عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت ، وتنتظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة غابيت وخمرت . فسبحان من عمّت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت ، فينفحات فضله اتسمت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبمين توفيقه قيدت الجوارح بالعبادات وتأديت ، وبمحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجبل وانقشعت ، وبثأيده ونصرته انقطعت مكابد الشيطان واندمت وبلغت غنايته بترجع كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتييسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت منه العطاء ، والجزاء ، والإياد ، والإدناء ، والإسماء ، والإشقاء

والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله سادة الأصفياء ، وعلى أصحابه قادة الأنبياء أما بعد : فقد قال الله تعالى ( وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِي مَا فِيهِ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا <sup>(٢)</sup> )

وقال تعالى (يَوْمَ يَبْسُطُ اللَّهُ جَمِيعًا قِيَمَتَهُمْ عَمَّا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ<sup>(١)</sup>) وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسُ أَمْثَانًا لِيُزَوَّا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (ثُمَّ نُوَفِّي كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ<sup>(٣)</sup>) وقال تعالى (يَوْمَ نَجْذِ كُلَّ نَفْسٍ مَعَ عَمَلِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَحْضَرًا وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ أَنْ يَنْبَغَ أَنْ يَنْبَغَ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ<sup>(٤)</sup>) وقال تعالى (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ<sup>(٥)</sup>) فعرف أرباب البصائر من جملة المباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون في الحساب . ويطالبون بمثاقيل القدر من الخطرات واللحظات . وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة . وصدق المراقبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسبه ، وحصر عند السؤال جوابه ، وحسن منقبله وما به . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وفاته ، وقادته إلى الخزي والمقت سيبثانه

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عز من قائل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِصُوا<sup>(٦)</sup>) فربطوا أنفسهم أولا بالمشاركة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاقبة ، فكانت لهم في المراقبة ست مقامات ، ولا بد من شرحها بيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها ، وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فيمد مشاركة ومراقبة ، ويقع عند الحسran المعاقبة والمعاقبة ، فلنذكر شرح هذه المقامات وباقه التوفيق

## المقام الأول من المراقبة

المشاركة

اعلم أن مطلب المتاملين في التجارات ، المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه . فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل

(١) المجادلة : ٦ (٢) الزلزلة : ٦ ، ٧ ، ٨ (٣) البقرة : ٢٨١ (٤) آل عمران : ٣٠ (٥) البقرة : ٢٥٣

(٦) آل عمران : ٢٠٠

هو التاجر في طريق الآخرة ، وإنما مطلبه وربحه تركية النفس ، لأن بذلك فلاحها . قال الله تعالى ( قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا <sup>(١)</sup> ) وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة ، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يركبها كما يستعين التاجر بشريكه وغلामه الذي يتجر في ماله

وكان الشريك يصير خصما متازعا يحاذيه في الربح ، فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ، ورافقه ثانيا ، وبجانبه ثالثا ، ويساقبه أو يمانه رابعا ، فكذا العقل يحتاج إلى مشاركة النفس أولا ، فيوظف عليها الوظائف ، ويشترط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طرق الفلاح ويحزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا ينفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال ، كالعبد الخائن إذا خلا له الحوت وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء عما شرط عليها ، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أم كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا ، مع أنها عتقة بالإضافة إلى نعيم المقيّم ثم كيف كانت قصيرها إلى التصرم والانتقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ، ولذلك قيل :

أشد النعم هندی فی سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

لنعم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا ينفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها ، وسكناتها ، وخطواتها ، وحظواتها ، فإن كل نفس من أنفاس الممرجوهرة قيسة لا عوض لها ، يمكن أن يشتريها كثر من الكنوز لا ينهاه نعيمه بالأباد . فانقضاء هذه الأنفاس ضائلة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة النفس ، كأن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس : مالي بضاعة إلا العمر ، ومهابتي فتدقي رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ،

وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ؛ وأنسا في أجلى ، وأنعم عليّ به ، ولو توفاني لكنت  
أتخى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا . فاحسب أنك قد توفيت ، ثم قد رُدّت ،  
فإياك ثم إياك أن تمضي هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها ، واعلم  
يا نفس أن اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر أنه <sup>(١)</sup> ينشر للمعبود كل يوم ويلة  
أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها  
في تلك الساعة ؛ فينال من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته  
عند الملك الجبار ، ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار .  
ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ، يفوح منها ، وينشأ ظلامها ، وهي الساعة التي عصى  
الله فيها ، فينال من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لتنفص عليهم نعيمها . ويفتح له  
خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ، وهي الساعة التي نام فيها ، أو غفل ،  
أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ، فيتحرر على خلوها ، ويناله من غين ذلك ما ينال القادر  
على الريح الكثير والمالك الكبير ، إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته ، وناهيها به حسرة وغنبا .  
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم في أن تمرى  
خزانتك ، ولا تدعها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ، ولا تميل إلى الكسل والدعة  
والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يبركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك  
وإن دخلت الجنة ، فألم النين وحسرتك لا يطاق وإن كان دون ألم النار

وقد قال بعضهم : هب أن المصطفى قد عفي عنه ، أليس قد فاتته ثواب المحسنين ؟ أشاربا  
إلى النين والحسرة : وقال الله تعالى . ( يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّبَٰئُنِ ) <sup>(١)</sup>  
فهذه وصيته لنفسه في أوقاته . ثم يستأنف لمساوية في أعضائه السبعة : وهي العين ،  
والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل ، وتسليمها إليها ، فلما راعيا خادمة  
نفسه في هذه التجارة ، وبها تم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء

( كتاب الهاتية والبرائة )

( ١ ) حديث ينشر للمعبود كل يوم ويلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة  
من حسنة - الحديث : بطوله لأجد له أصلا

مقسوم. وإثنتين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فبوصفها يحفظها عن معاصيها أما الدين، فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بين الاحتقار، بل عن كل فضول مستثنى عنه. فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر، كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعمى الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله، ومطالعة كتب الحكمة للتماطل والاستفادة. وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو، لاسيا اللسان والبطن أما اللسان فلا منه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجناته عظيمة بالغبية، والكذب، والغيبة، وتركبة النفس، ومذمة الخلق والأطعمة، واللحن، والدعاء على الأعداء والمارة في الكلام، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان، فهو يصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر، والتذكير، وتكرار العلم، والتعلم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين، وسائر خيراتِه فليشترط على نفسه أن لا يجرّك اللسان طول النهار إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر، ونظرة عبدة، وصسته فكرة، وما يلفظ من قول إلا لاديه رقيب عتيد وأما البطن فيكلفه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات، وبمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالنع عن شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها

وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها. ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، ثم في النوافل التي يقدر عليها، ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها، وكيفيتها، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها. وهذه شروط يفترق إليها في كل يوم، ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما، وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها، استثنى من المشاركة فيها. وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديده المشاركة فيما بقي، ولكن لا يخار كل يوم عن مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، وثه عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية، أو تجارة، أو تدريس، إذ فلما يخار يوم



من وافية جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها . فليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها ، والالتزام للحق في مجاريها ، ويحذرها منبهة الإهمال ، ويصطفا كما يوظف العبد الآبق للتمرّد ، فإن النفس بالطبع متردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين

فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس ، وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل ، وتارة قبله التحذير . قال الله تعالى ( وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْتَظِمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ <sup>(١)</sup> ) وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة ومقدار لمرقة زيادة وقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة . وقد قال الله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْنُوا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( وَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَلَّمُوا مَكُونُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ <sup>(٤)</sup> ) ذكر ذلك تحذيرا وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى <sup>(٥)</sup> عباد بن الصامت ، أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رُشدًا فامض به وإن كان غيا فاقبضه . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة ، فإن مكنت للندامة في القلب أكثر من مكنت خفة الشهوة . وقال لقمان :

إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة

وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(٦)</sup> « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَجَمَلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَخْفَى مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ ، دَانَ نَفْسَهُ أَيْ حَاسِبَهَا . ويوم الدين يوم الحساب . وقوله ( إِنَّا لَنَدِينُونَ <sup>(٧)</sup> ) أي لحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتنبؤوا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعري : حاسب نفسك في الرخاء قبل

( ١ ) حديث عباد بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته - الحديث : تقدم

( ٢ ) حديث الكيس من دان نفسه وجمل لما بعد الموت - الحديث : هدم

( ٣ ) البقرة : ٢٣٥ ( ٤ ) النساء : ٩٤ ( ٥ ) المجرات : ٦ ( ٦ ) في ١٦١ ( ٧ ) الصافات : ٥٧

حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب الله ؟ قال ويل لبيتان الأرض من  
 ذلالة السوء ، فلهذا بالدرة وقال : إلا من حسب نفسه . فقال كعب : يا أمير المؤمنين ، إنها  
 إلى جنبها في التوراة ، ما بينهما حرف ، إلا من حسب نفسه  
 وهذا كله إشارة إلى الحاسبة للمستقبل ، إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت  
 ومنه وزن الأمور أولا ، وقد رها ، ونظر فيها ، وتدبرها ، ثم أقدم عليها فباشرها

## المراقبة الثانية

### المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ما ذكرناه ، فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض  
 في الأعمال ، وملاحظتها بالعين الكائنة ، فإنها إن تركت غفلت وفسدت .  
 ولندكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها

أما الفضيلة فقد <sup>(١)</sup> سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه . وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَلْيَنْتَهِ بِرَأْسِكَ »  
 وقد قال تعالى ( أَفَنُحْيِيهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ غَافِلًا ) <sup>(٣)</sup> وقال تعالى ( أَلَمْ يَنْتَهِ بِرَأْسِكَ )  
 بَأَنَّ اللَّهَ بَرَى <sup>(٤)</sup> وقال الله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ) <sup>(٥)</sup> وقال تعالى  
 ( وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ ) رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ <sup>(٦)</sup>

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى . فسأله عن تفسيره ، فقال : كن أبدا كأنك  
 ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيقا علي فلا أبالي بغيره  
 وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة ،  
 وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات  
 وقال الجرجري : أمرنا ههنا بمشي على أصليين بأن نلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ، ويكون  
 العلم على ظاهره قائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص : إذا جلست للناس فكفر واعظا

( ١ ) حديث سأل جبريل عن الإحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث أبي هريرة

ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم

( ٢ ) حديث عبد الله كأنك تراه . الحديث : وهم

(١) الرعد : ٣٣ ، البقرة : ١٤٠ ، النساء : ١٠٢ ، المارج : ٣٢ ، ٣٣

لنفسك وفلّيك، ولا يترك اجتماعهم عليك، فإهم يراكون ظاهرك، والله رقيب على باطنك وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب، وكان يكرمه ويقدمه، فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ! فدعا بعدة طيور، وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا، وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد. ودفع إلى الشاب مثل ذلك، وقال له كما قال لهم. فرجع كل واحد بطائره مذبوحا، ورجع الشاب والطائر حي في يده. فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد، إذ أنه مطلع على كل مكان؛ فلتستحسنوا منه هذه المراقبة، وقالوا حق لك أن تكرم وحكي أن زليخا لما خلعت يوسف عليه السلام، قامت فغطت وجهه ضم كان لها، فقال يوسف: مالك؟ أنت حين من مراقبة جاد، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار!

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها، فقالت له: ألا تستحي؟ فقال ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت فأين مكوكبها؟ وقال رجل للجنيذ: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بملك أن ينظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. وقال الجنيذ: إنا نحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ومن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس، وفيها حور خلقن من وود الجنة. قيل له ومن يسكنها؟ قال: يقول الله عز وجل: إنا يسكن جنات عدن الذين إناهموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبوني، ولذين اتقنا أصلاهم من خشيتي. وعزق وجلالي، إني لأنم بمذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والمطش من غافقي صرفت عنهم المذاب وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالى

وقال للمرنش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة النيب مع كل لحظة ولقطة ويروى أن الله تعالى قال للملائكة: أنتم موكلون بالظاهر، وأنا أرايب على الباطن وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تنيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع لسمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لا يخرج عن ملكه وسلطانه وقال سهل: لم يقرب القلب بشئ أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان

وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ<sup>(١)</sup>)  
فقال : معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل ، وحاسب نفسه ، وتزود لماده  
وسئل ذواتون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال : بخمس استقامة ليس فيها روغان ،  
واجتهاد ليس معه سهو ، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ،  
وحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب  
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب  
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب  
وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عطفي فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت  
أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم . ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت  
وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك  
الوقت ، وعليك بالحدز ممن يملك المقوبة<sup>١</sup>

وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر ، فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء ، وإعمايراقب  
الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبدة بن دينار : خرجت مع ممر بن الخطاب رضي الله  
عنه إلى مكة ، فمررنا في بعض الطريق ، فأنحدر عليه راع من الجبل فقال له : ياراعى ،  
يعنى شاة من هذه النعم . فقال إني مملوك : فقال قل لسيدك أكلها الذئب : قال فأين الله ؟  
قال فيكي ممر رضي الله عنه ، ثم غدا إلى المملوك فاشترأه من مولاه وأعتقه ، وقال أعنتقتك  
في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تمتك في الآخرة

## بيان

حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهم إليه . فن احتز من أمر من  
الأمر بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه . وبني هذه المراقبة حالة للقلب  
يشمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب

(١) البينة : ٨

أما الحالة فهي مراعاة القلب للربيب ، واشتغاله به ، والنفاته إليه ، وملاحظته إياه ، وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضائر ، عالم بالمرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت . وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشارة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت بقينا ، أعنى أنها خلقت عن الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته ، فرب علم لاشك فيه لا يقلب على القلب ، كالملم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب ، وصرفت همه إليه .

والموفقون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين ، وإلى أصحاب اليقين فراقبتهم على درجتين :

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه منسج للالتفات إلى الغير أصلا . وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها ، فإنها مقصورة على القلب أما الجوارح فإنها تتمطل عن الالتفات إلى المباحات فضلا عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها ، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سائر السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي ، والقلب هو الراعي ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف

وهذا هو الذي صار همه هما وإحدا ، فكفاه الله سائر المهموم ، وبين نال هذه الدرجة فقد ينفل عن الخلق ، حتى لا يصير من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به . وقد ير على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا صرحت بي فركني

ولا تستبعد هذا ، فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى أن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم . بل قد يستغل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا ، فينصت الرجل في الفسك فيه وعشى ، فربما يجاوز للموضع الذي قصده ، وينسى الشغل الذي نهض له ، وقد قيل لبيد الواحد بن زيد :

هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليك الساعة . فما كان إلا سرهما حتى دخل غيبة اللئام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا غيبة ؟ فقال : من موضع كذا ، وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت في الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحداً

ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة ، فدفعها فسقطت على وجهها ، فقبل له لم فعلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جداراً

وحكي عن بعضهم أنه قال : مررت بمجاعة يترامون ، وواحد جالس يبسدا منهم ، فتقدمت إليه فأردت أن أكله ، فقال : ذكر الله تعالى أشهى . فقلت أنت وحدك : فقال : معي ربي وملكي . فقلت من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء ، وقام ومشى وقال : أكرت خلقك شاغل عنك

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى ، لا يتكلم إلا منه ، ولا يسمع إلا فيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه

ودخل الشيلي على أبي الحسين النوري وهو متكف ، فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال من صنور كانت لنا ، فكانت إذا أرادت الصيد رابت رأس الحجر لا تتحرك لها شعرة

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد : إن في صور شاباً وكله قد اجتمع على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لملك ، تستفيد منهما . فدخلت صور وأنا جائع عطشان ،

وفي وسطى خرفة بوليس على كتي شيء . فدخلت المسجد ، فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبة فسلمت عليهما فأجاباني . فسلمت ثانية وثالثة ، فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله لا أردنما علي السلام . ففرع الشاب رأسه من مرقعته ، فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف ،

الدنيا قليل ، وما بقي من القليل إلا القليل ، فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف ، ما أكل شئك حتى تفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتي ثم طأ رأسه في المكان ، فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والمصر ، فذهب جويعي وعطشي وعنائِي . فلما كان وقت العصر قلت : عظمي

فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف ، نحن أصحاب المصائب ، ليس لسان المغلة بقيت عندهما ثلاث أيام لآكل ولا شرب ولا أنام ، ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا . فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعطاني لى أن أتقع بمظتهما . فرفع الشاب رأسه وقال لى : يا ابن خفيف ، عليك بصحبة من يذكر الله رؤيته ؛ وتقع هيته على قلبك ، يعطك بلسان فله ، ولا يعطك بلسان قوله والسلام ، قم عنا . فهذه درجة للمراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم ، فلم يبق فيهم منسح لنير ذلك

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرم وباطنهم على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال ، بل بقيت قلوبهم على حد الاحتال ، منسمة للتفتت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو من المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون من كل ما يفتضحون به في القيامة ، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة

وتعرف اختلاف الدرجتين بالشاهدات ، فإنك في خلوتك قد تتماطلى أعمالا ، فيحضرك صبي أو امرأة ، فتعلم أنه مطلق عليك ، فتستحي منه ، فتحسن جلوسك ، وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتعظيم ، بل عن حياء . فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تسترقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك ، أو كبير من الأكابر ، فيسترقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه

فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى . ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته ، وسكناته ، وخطراته ، ولطفاته ، وبألجة جميع اختياراته وله فيها نظران ، نظرا قبل العمل ، ونظرا في العمل

أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره ، أهو له خاصة ؟ أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت ، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ؛ فإن كان لله تعالى أمضاء وإن كان لنير الله استحياء من الله وانكشف عنه ، ثم لام نفسه على رغبته فيه ،

وهبه : وميله إليه ، وعرفها سوء فعلها ، وسعيا في فضيحتها ، وأنها عذوة نفسها وإن لم يتداركها الله بمصمته . وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب عتوم لا يحصى لأحدهم ، فإن في الخبر أنه <sup>(١)</sup> ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صرفت ثلاثة دواوين ، الديوان الأول لم ؟ والثاني كيف ؟ والثالث لمن ؟ ومعنى لم أي لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعل لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلمت به بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه مثل عن الديوان الثاني ، فقبل له كيف فعلت هذا ؟ فإن لله في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ، ووقته ، وصفته إلا بعلم ، فيقال له كيف فعلت ، أبعلم محقق ، أم جهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث ، وهو المطالبة بالإخلاص ، فيقال له : لمن عملت ؟ الوجه الله خالصا وفاء بوعده لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله ؟ أو لم آت خلقا مثلك ، فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك ، فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ، أم عملته بسهو وغفلة ؟ فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقى وعقابي ، إذ كنت عبدالي ، تأكل رزقي ، وترفقه بنعمتي ، ثم تعمل لغيري . أما سمعتي أقول ( إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمْنَاكُمْ ) <sup>(٢)</sup> ( إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ) <sup>(٣)</sup> ويحك ، أما سمعتي أقول ( أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ) <sup>(٤)</sup>

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جوابا ، وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدى ولا يبيد إلا بعد الثبوت ، ولا يحرك جفنا ولا أغلة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذ <sup>(٥)</sup> ( إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْتَلُ عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ قَتَرِ الطَّيْنِ بِأَصْبَعِهِ وَعَنْ لَمَسِهِ نَوْبَ أَخِيهِ ، وقال الحسن : كان أحدم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظرت وثبت ، فإن كان لله أمضاء . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عنده ، فإن كان لله مضي ، وإن كان لغيره تأخر

( ١ ) حديث ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صرفت ثلاثة دواوين الأول لحوالي كيف والثالث

لمن : بألف هـ على أصل

( ٢ ) حديث قال لما ذ إن الرجل يسأل عن كل عينيه - الحديث : هدم في الذي قبله

( ٣ ) الأعراف : ١٩٤ ( ٤ ) المائدة : ١٧ ( ٥ ) الرمز : ٣



وقال في حديث '١' سعد حين أوصاه سلمان : اتق الله عندك إذا هممت . وقال محمد بن علي : إن المؤمن وقاف متأن ، يقف عنده ، ليس كحاطب لبل هذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ، ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين ؛ والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال ، وأغوار النفس ، ومكايد الشيطان . فبني لم يعرف نفسه ، وربه وعدوه ، إبليس ، ولم يعرف ما يوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمة ، وفكرته ، وسكونه ، وحرركته ، فلا يسلم في هذه المراقبة ، بل الأكثرون يرتكبون الجهول فيها يكرهه الله تعالى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يمذر . هيات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركبتان من عالم أفضل من ألف ركة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور ، فيتق ذلك . والجاهل لا يعرفه ، فكيف يجترأ منه ! فلا يزال الجاهل في تمب ، والشيطان منه في فرح وشمنة . فعمود بالله من الجبل والنفلة ، فهو رأس كل شقاوة ، وأساس كل خسران

فحك الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عنده بالفضل وسميه بالجارحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه ، أو هو لهوى النفس فينتقيه ، ويرجر القلب عن الفكر فيه ، وعن الهم به . فإن الخطرة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت . فينبني أن نحسم مادة الشر من منبعه الأول ، وهو الخاطر ، فإن جميع ما وراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك ، وأضلت الواقعة فلم ينكشف له ، فيتفكر في ذلك بنور العلم ، ويستعبد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى . فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستغنى بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان ، بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي ، وأنتك قطع الطريق على

( ١ ) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عندك إذا هممت : يا أحمد والحاكم وصحبه وهذا القصر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم

مبادى . فالقلوب المظلمة بحجب الدنيا ، وشدة الشره ، والتكالب عليها بحجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الروبية ، فكيف يستضيء بها من استدروها وأقبل على سطوها ، وعشق بينضا ومقبتها ، وهي شهوات الدنيا

فلتكن حمة للمريد أولاً في أحكام العلم ، أو في طلب عالم معرض عن الدنيا ، أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو هديم الرغبة فيها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تَصْرَ النَّافِدَ عِنْدَ وَرُودِ الشَّيْئَاتِ وَالْمَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ » جمع بين الأمرين ، وهما متلازمان حقا . فمن ليس له عقل وإزع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات . ولذلك قال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « مَنْ قَارَفَ دَنَابًا قَارَفَهُ عَقْلٌ لَا يَمُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا » فإقدر العقل الضعيف الذي سمد الآدمي به ، حتى يسمد إلى عموده وعمقه بمقارفة الذنوب

ومعرفة آفات الأفعال قد اندرست في هذه الأعصار ، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم ، واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات النائرة في اتباع الشهوات ، وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين من جملة العلوم ، ومجردوا الفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليخترق لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفي الخبر <sup>(٣)</sup> « أُنْتُمْ الْيَوْمَ فِي زَمَانٍ خَيْرٌ كُمْ فِيهِ الْمُسَارِعُ وَسَيَأْتِي عَلَى كُمْ زَمَانٌ خَيْرٌ كُمْ فِيهِ الْتَبَتُ » ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام ، لما أشكل عليهم الأمر ، كسمد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم

فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه ، منجياً برأيه ، وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال <sup>(٤)</sup> « فَإِذَا رَأَيْتَ شَعًا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ قَمَلَيْكَ بِخَاصَّةِ قَلْبِكَ » وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى

(١) حديث الله سبحانه بحب البحر الناقد عند ورود الشبهات - الحديث : أبو نعيم في الحلية من حديث عمران

ابن حصين وفيه حصص بن عمر المدني نسخة الجمهور

(٢) حديث من قارف ذبا فرقه عقل لا يموده إليه أيها : هدم وإلجأه

(٣) حديث أنتم اليوم في زمان خيركم في المسارع وسيتأت عليكم زمان خيركم فيه التثبت : إلجأه

(٤) حديث فإذا رأيت شعاً مطاعاً وهوى متبعاً - الحديث : هدم

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ<sup>(١)</sup>) وقوله عليه السلام<sup>(٢)</sup> « يَا كُمْ وَالظَّنُّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وأراد به ظنا بنير دليل ، كما يستغنى بمض العوام قلبه فيها أشكل عليه ويقيم ظنه . ولعموبه هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضي الله تعالى عنه : اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ، ولا تجعله متشابها علي فأتابع الهوى<sup>(٣)</sup> وقال عيسى عليه السلام : الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فكله إلى عاله . وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي الدِّينِ يَنْفِرُ مِنْهُ » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم ، وكشف الحق والإيمان عبارة من نوع كشف وعلم ، ولذلك قال تعالى امتننا على عبده (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا<sup>(٥)</sup>) وأراد به العلم . وقال تعالى (فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ<sup>(٦)</sup>) وقال تعالى (إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى<sup>(٧)</sup>) وقال (ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا نَبَإَهُ<sup>(٨)</sup>) وقال (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ<sup>(٩)</sup>)

وقال علي كرم الله وجهه : الهوى شريك المعى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونم طاردهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفي الصدق السلامة . رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه . ولا يملك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق المرى الثقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب يملك وبين الله تعالى . إنما لك من دنياك ما أصلحت به متواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أهلك ، وإن كنت جازما على ما أصيب بما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسهه درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه . فإنا لك من دنياك فلا تكثرن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا . وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا

(١) حديث الإمام والظن - الحديث : تهم

(٢) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة - الحديث : الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف

(٣) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين ينفر علم : لم أجده

(٤) الاسراء : ٣٦ (٥) النساء : ١١٣ (٦) النحل : ٤٣ (٧) الليل : ١٢ (٨) القيامة : ١٩ (٩) النحل : ٩

من نقل هذه الكلمات فإنه ومن التوفيق التوقف عند الخبرة  
فإذا نظر الأول للعراقب نظره في الهم والحركة، أي أنه أم الهوى وقد قال صلى الله  
عليه وسلم <sup>(١)</sup> «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلُ إِيمَانَهُ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَلَا يَرَأِي  
بَشِيئَةً مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عَرِضَ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ أَمَرَ الْآخِرَةَ  
فَلْيَلْهُ الدُّنْيَا» وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحا، ولكن لا يسيه فيتركه لقوله  
صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «مَنْ حُسِنَ إِسْلَامُ الرَّءْ تَرَكَهُ مَا لَا يَنْبَغِي»

النظر الثاني: للعراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله  
فيه، وبحسن النية في إتمامه، وبكل صورته، وبتماطاه على أكل ما يمكنه وهذا ملازم له  
في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون. فإذا راقب الله تعالى في جميع  
ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية، وحسن الفعل، ومراعاة الأدب. فإن كان قاعدا  
مثلا، فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة، لقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> «خَيْرُ الْمَجَالِسِ مَا اسْتَقْبَلَ  
بِهِ الْقِبْلَةَ» ولا يجلس متربدا، إذ لا يجالس الملوك كذلك، ومثل الملوك مطلع عليه. قال  
ابراهيم بن آدم رحمه الله: جلست مرة متربدا، فسمعت هاتفا يقول: هكذا يجالس الملوك؟  
فلم أجلس بعد ذلك متربدا. وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة، مع سائر  
الآداب التي ذكرناها في مواضعها، فكل ذلك داخل في المراقبة. بل لو كان في قضاء الحاجة  
فراغته لأدائها وفاء بالمراقبة. فإذا لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو معصية،  
أو في مباح. فراقبته في الطاعة بالإخلاص، والإقبال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات.  
وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة، والندم، والإقلاع، والحياء، والاشتغال بالتفكير. وإن كان  
في مباح فراقبته بمراعاة الأدب، ثم يشهود المنعم في النعمة، وبالشكر عليها

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها. ونعمة لا بد له من الشكر  
عليها. وكل ذلك من المراقبة. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه ما فصل

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم - الحديث: أبو منصور الديلمي في مسند.

الفرديوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يسيه: تقدم

(٣) حديث خير المجالس ما استقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس: وقد تقدم

يلزمه مباشرته ، أو يحظر يلزمه تركه ، أو يندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ، ويسابق به عباد الله ، أو يباح فيه صلاح جسمه وقلبه ، وفيه هون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المرافقة ( وَمَنْ يَتَمَدَّ حُدُودُ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ <sup>(١)</sup> ) فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة . فإذا كان فارغا من الفرائض ، وقدر على الفضائل ، فينبغي أن يتلصص أفضل الأعمال ليشتمل بها ، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو منبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبد من دينه لآخرته ، كما قال تعالى ( وَلَا تَنْسَ نَفْسُكَ مِنَ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> )

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة ، فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تسب فيها على العبد كيفما اقتضت في مشقة أو راحة ، وساعة مستقبلية لم تأت بعد ، لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري ما يقضي الله فيها ، وساعة راحة يبنى أن يجاهد فيها نفسه ، ويراقب فيها ربه . فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحصر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمه خمسين سنة فيطول عليه الزم على المرافقة فيها ، بل يكون ابن وقته ، كأنه في آخر أنفاسه ، فله آخر أنفاسه وهو لا يدري . وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على مارواه <sup>(١)</sup> أبو ذر رضي الله تعالى عنه ، من قوله عليه السلام « لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ تَرَوْدُ لِمَا دُورَ مَرْمِيَةِ كِلَاشٍ أَوْ لَذَةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ » وما روي عنه أيضا في معناه <sup>(٢)</sup> « وَ عَلَى الْمَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُتَاجَى فِيهَا رَبُّهُ وَسَاعَةٌ يُخَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِلْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ » فإن في هذه الساعة عون له على بقية الساعات ، ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول

( ١ ) حديث أبي ذر لا يكون للمؤمن ظاعنا إلا في ثلاث تزود لماد - الحديث : أحمد وابن حبان والحاكم وصححه

أنه صلى الله عليه وسلم قال أنه في صحب موسى وقد همم

( ٢ ) حديث وعلى الماقل أن يكون له ثلاث ساعات يتاجى فيها به - الحديث : وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله

الجوارح بالمطعم وللشرب لا يبنى أن يخلو من صل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والتفكير ، فإن الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من المجائب ما لو تفكر فيه وفطن له ، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح

والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في مجائب صنعه ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباطنة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، كما فصلنا بمضه في كتاب الشكر ، وهذا مقام ذوى الألباب

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكرامة ، ويلاحظون وجه الاضطراب إليه ، ويودم لو استنوا عنه ، ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه ، مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين . وقوم يرون في الصنعة الصانع ، ويتفكرون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات السارفين وعلامات المحبين ، إذ المذهب إذا رأى صنعة حبيبه ، وكتابه ، وتصنيفه ، نسي الصنعة ، واشتغل قلبه بالصانع . وكل ما يتردد البعد فيه صنع الله تعالى ، فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على ما فاتهم منه ، ويغروحن بما حضرم من مجلته ، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ، ويبيبونه وينمون فاعله ، فيذمون الطيبخ والطباخ ، ولا يملكون أن التفاعل للطيبخ والطباخ ولقدرة وللمله هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بنير إذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ »

فهذه المراجعة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال . وشرح ذلك بطول ، وفيما ذكرناه تنبيه على التهاج لمن أحكم الأصول

(١) حديث لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر : مسلم من حديث أبي هريرة

## المرابطة الشاملة

محاسبة النفس بعد العمل . ولتذكر لفيلة المحاسبة ثم حقيقها

أما الفضيلة فقد قال الله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدْ تُمَتَّعَتْ يُنذِرُ ) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضى من الأعمال . ولذلك قال صررضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا . وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني . فقال « أُمْسِتَوْصِي أَنْتَ » فقال نعم : قال « إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ حَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غِيًّا فَانْتِهِ عَنْهُ » وفي الخبر ، وينبغي للعامل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى ( وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ تَعْلِيلٌ<sup>(١)</sup> ) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً » وقال الله تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ<sup>(٣)</sup> ) . وعن صررضي الله تعالى عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالذرة إذا جته الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم ؟

وعن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من التقيين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه . والشريكان يتحاسبان بعد العمل

وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر . ثم قال لها : كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال ، فقال : لا أحد أعمر علي من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة ، فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها . وحديث<sup>(٤)</sup> أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته ، فتدبر ذلك ، فجعل حائله صدقة لله تعالى ندما ورجاء للموض مما فاتته

( ١ ) حديث أنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة : تقدم غير مرة

( ٢ ) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديثه صدقة : تقدم غير مرة

( ٣ ) الحشر : ١٧ ( ٢ ) التور : ٣١ ( ٤ ) الاعراف : ٣٠١

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب ، فقيل له ياأبا يوسف ، قد كان في  
 بئيك وغلافك ما يكتفونك هذا . فقال : أردت أن أجرب نفسي هل تنكره .  
 وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله . وإنما خف الحساب على قوم ياسبوا  
 أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .  
 ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن ينجوه الشيء بمحبته فيقول : والله إنك لتنجيني ، وإنك  
 من حاجتي ، ولكن هيأت ، حيل بيني وبينك . وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : ويفرط  
 منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود  
 لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه  
 يوما ، وقد أخرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً ، فسمته يقول ، وبينى وبينه جدار  
 وهو في الحائط . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! يخ بـخ ، والله لتتقين الله أو ليمذبنك  
 وقال الحسن في قوله تعالى (وَلَا تُقْسِمُ بِاللِّوَاءِ<sup>(١)</sup>) قال لا يلقى المؤمن إلا  
 يائب نفسه ، ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بأكلتي ؟ ماذا أردت بشريتي ؟ والقاسم  
 يحضى قدما لا يائب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه  
 ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ، ثم خطبها ، ثم أزمها كتاب الله تعالى  
 فكان له فائدة . وهذا من معانيبة النفس كما سيأتي في موضعه

وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح  
 وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها  
 وأمانتي أبكارها . ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج  
 سلاسلها وأغلالها . فقلت لنفسي : يا نفس ، أي شيء تريدني ، فقالت أريد أن أريد إلى الدنيا  
 فأعمل صالحا . قلت : فأنت في الأمانة فاعمل

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول . رحم الله أمرا أحسب نفسه  
 قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله أمرا أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم  
 الله أمرا أنظر في مكياها ، رحم الله أمرا أنظر في ميزانه . فما زال يقول حتى أبكاني

(١) القيامة : ٢



وحكى صاحب اللائحة بن قيس قال : كنت أحسبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء  
وكان يحجى إلى المصباح فيضع أصبه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه . يا حنيف ،  
ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟

## بيان

حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق  
فينبئ أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها  
وسكناتها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصا  
منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها مالوفاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ، ولو  
حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما فلائلا . فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر  
الشقاوة والسعادة أبد الأباد ! ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ،  
نعموذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح  
والخسران ، ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره  
وإن كان من خسران طالبه بضائه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في  
دينه القرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه الماضى . وموسم هذه التجارة جملة  
النهار ، ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على القرائض أولا ، فإن أداها على وجهها  
شكر الله تعالى عليه . ورغبها في مثلها ، وإن فوَّتها من أصابها طالبها بالقضاء ، وإن أداها  
ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب ممصبة اشتغل بمقومتها ، وتمذيبها ، ومعاتبتها  
ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه  
وإذا أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة واللقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان  
حتى لا يتبين في شيء منها ، فينبئ أن يتق غيبة النفس ومكرها ، فإنها خدعة ملبسة سكاره  
فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليشكل بنفسه من  
الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره

وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته إنه لم سكت ، وعن سكونه لم سكن . فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له ، فيظهر له الباقي على نفسه ، فليثبت عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها فبالنرامة والضمان ، وبعضها برذ عنقه ، وبعضها بالمقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه . فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما ، وساعة ساعة ، في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة بن الصمة ، وكان بالرقعة ، وكان محاسبا لنفسه ، فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال . ياويلي ، ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ! ثم خر منشيا عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلا يقول . يالك ركنة إلى الفردوس الأعلى !

فكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة . ولورى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ الماعى ، والمكان يحفظان عليه ذلك ، أحصاه الله ونسره

## المرابطة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تعلم من مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير في حق الله تعالى ، فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة الماعى ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . بل ينبغي أن يعاقبها . فإذا أكل لقمة شبيهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع . وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر . وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة

سالكى طريق الأحرى ، قد روي عن منصور بن ابراهيم ، أن رجلا من المباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على نكحها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى حترت ودوي أنه كان في بنى اسرائيل رجل يتعبد في صومته ، فكنت كذلك زمانا طويلا ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بساقه فقال : ماهذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه ، وعصمه الله تعالى ، فندم . فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن نعمى الله تعودمى في صومعتى ! لا يكون والله ذلك أبدا . فتركها ملقاة في الصومعة فعميها الأمطار ، والرياح ، والتلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأتزل في بعض كتب ذكره ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبى يقول : أصابنى ليلة جنازة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت في قمى تأخر وأقصيرا ، فحدثنى قمى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء وأدخل الحمام ، ولأعنى على قمى . فقلت واهيما أنا ملل الله في طول عمرى ، فيجب له على حق ، فلا أجد في المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا في مرتعتى هذه ، وآليت أن لا أزعجها ، ولا أعصرها ، ولا أجفها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأباموسى كانا في بعض منازلهما ، فتكشفت جارية ، فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلعلم عينه حتى بقرت وقال : إنك للخطاة إلى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينعش على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر برفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يملك ، لأما بملك بصوم سنة ، فصامها . وقال مالك بن نعيم : جاء دباح التميمى يسأل عن أبى بد العصر ، فقلنا إنه نائم . فقال أوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ! ثم ولى منصفا . فأنبهه رسولا وقلنا . ألا نوقظه لك ؟ فجاء الرسول وقال . هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو ياتب نفسه ويقول . أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ ألكان هذا عليك ؟ ينالم الرجل متى شاء . وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن قمى عهدا لا أقضه أبدا لأؤسدك الأرض لنوم حولي إلا لمرض حائل ، أو لعل

زائل ، سواء لك ، أما تسحين ؟ كم توحيين ؟ وعن غيك لانتفين ؟ قال وجعل ينيك وهو  
لا يشعر عكاني . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن نعيم الدارى أنه نام  
ليلة لم يقم فيها يتعبد ، فقام سنة لم يني فيها عقوبة الذى صنع

وعن<sup>(١)</sup> طلحة رضي الله تعالى عنه قال . انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتمرغ في الرمضاء  
فكان يقول لنفسه . ذوق نار جهنم أشد حرا . أجيئة بالليل بطة بالهار ! فينما هو كذلك  
إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة ، فاتاه فقال : غلبني قمى . فقال له النبي  
صلى الله عليه وسلم « أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِّنَ اللَّهِ الَّذِي صَنَعْتَ أَمَا لَقَدْ فَتَحَتْ لَكَ أَبْوَابُ  
السَّمَاءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللَّهُ بِكَ الْغَلَائِكَةَ » ثم قال لأصحابه « تَرَوْدُوا مِن أَخِيكُمْ » فجعل  
الرجل يقول له يافلان ادع لى ، يافلان ادع لى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مُهِّمُ »  
فقال . اللهم اجعل التقوى زادهم ، واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي صلى الله عليه  
وسلم يقول « اللَّهُمَّ سَدِّدْهُ » فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهوراتها ؟ فقال ماعلى وجه  
الأرض نفس أبض إلى منها : فكيف أعطيها شهواتها !

ودخل ابن السكك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب ، فقال يادارد  
سجنت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تسذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت  
تعمل له . وعن وهب بن منبه ، أن رجلا تبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام  
سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمره ، ثم بئال حاجته فلم يسطها ، فرجع إلى  
نفسه وقال . منك أتيت ، لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال . يا ابن  
آدم ، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت ، وقد قضى الله حاجتك

وقال عبد الله بن قيس : كنا في غزاة لنا ، فغضر المدو ، فصيح في الناس ، فقاموا إلى  
المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول . أي نفسى ، ألم  
أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فأطستك ورجعت ؟ ألم أشهد مشهد كذا

( ١ ) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه نار جهنم أشد

حرا - الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا في حاشية النفس من رواية لبت بن أبي سليم عنه وهذا

منقطع أو مرسل ولا أعرف من طلحة هذا

وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت؟ والله لأعمرنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأمرقته اليوم ، فرمته ، فحمل الناس على عدم فكان في أوائلهم . ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشفوا ، فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات ، وهو ثابت يقا تل فو الله ما زال ذاك دأبه حتى رأته صريحا . فمددت به وبدايته ستين أو أكثر من ستين طنة . وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كقارعة ذلك . وأن عمر كان يضرب قدميه بالوة كل ليلة ويقول . ماذا حملت اليوم وعن جمع أنه رفع رأسه إلى السطح ، فوقع بصره على امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا . وكان الأنحف بن قيس لا يفارقه للصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه . ما حلك على أن صنعت يوم كذا كذا؟

وأسكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه ، فتفت شمرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه . ويحك ، إنما أريد بك الخير

ورأى محمد بن بشر دارد الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ؟ فقال : إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحا ما دام في الدنيا فهكذا كانت عقوبة أدلى الخزم لأنفسهم . والعجب أنك تماق عبيدك وأمتك . وأهلك ، وولدتك ، على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهي أعظم مدرك لك ، وأشد طغيانا عليك ، وضرك من طغيانها أعظم من ضرك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك مبيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة ، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له . ونفسك هي التي تنفص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمساقبة أولى من غيرها

## المرا بطة الخامسة

### المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه قرأها قد فارقت ممصية ، فينبئ أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت . وإن رآها تتواني بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد ،

فينبني أن يؤديها بتقبل الأوراد عليها ، ويلزمها ، فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه ،  
وتداركا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه  
حين فاتته صلاة العصر في جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم  
وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياء تلك الليلة . وأخر ليلة صلاة المغرب حتى  
طلع كوكبان ، فاعتق رقبتي . وقالت ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر . فاعتق رقبة .  
وكان بعضهم يحمل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشيا ، أو التصدق بجميع ماله ، كل  
ذلك مرابطة للنفس ومواخذة لها بما فيه نجاتها

فإن قلت : إن كانت نفس لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد ، فاسبيل معالجتها ؟  
فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعا ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين <sup>(١)</sup> ومن  
أنفع أسباب العلاج أن تطلب محبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة ، فتلاحظ أقواله  
وتقتدي به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعتزني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال  
محمد بن واسع ، وإلى اجتهداه ، فملت على ذلك أسبوعا . [ إلا أن هذا العلاج قد تعذر ،  
إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهد الأولين ، فينبني أن يسدل من  
المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه  
من الجهد الجيد ، وقد انقضى تميمهم ، وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فأكظم  
ملكهم ، وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم ، فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكسرة ،  
ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل ما يشتهي أبد الآباد نموذجاً بالله تعالى من ذلك

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء  
بهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> : « رَحِمَ اللَّهُ أُولَئِكَ يُحِبُّهُمْ النَّاسُ مَرْضًى

( ١ ) الأخبار الواردة في حق المجتهدين : أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بغير آيات  
لم يكتب من الثقلين ومن قام بمائة آية كتب من الثمانين ومن قام بألف آية كتب من القنطرين  
وله ولانساق وابن ماجه من حديث أبي هريرة بالسند صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فسطى  
وأيقظ امرأته ولقزمضى من حديث بلال عليه السلام قيام الليل فانه دأب الصالحين قبله . الحديث :  
وقال حريز ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك

( ٢ ) حديث رحم الله أولئنا نحبهم مرضى ومما يمرضى بالمجاهدة أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد  
في الزهد موقوفا على علي بن كاتم له قال فيه ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض

وَمَا هُمْ بِمَرْصُيَ » قال الحسن : أجهدتهم العبادة . قال الله تعالى ( وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْهُ وَقُلُوبُهُمْ وَجِيلَةٌ ) (١) قال الحسن : يسلون ماعملوا من أعمال البر ، ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « حُلُوِّيَ عِلْمِنَ طَالِ عُمُرُهُ وَحَسَنَ تَحْمَلُهُ » . ويروي أن الله تعالى يقول للملائكة : ما بال عبادي مجتهدين ، فيقولون إلهنا خوفهم شيئا يخافوه ، وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه . فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رأي عبادي لكانوا أشد اجتهادا

وقال الحسن : أدركت أفواما وصحبت طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطوئه بأرجلكم إن كان أحدهم ليمش عمره كله ماطوى له ثوب ، ولا أسر أهله بصنعة طعم قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط . وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، فترشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم يتاجون ربهم في فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها . وإذا عملوا السيئة أحرزتهم ، وسألوا الله أن يفرها لهم . والله يمازوا كذلك وعلى ذلك ، والله ماسلوا من الذنوب ، ولا نجوا إلا بالمفكرة

ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يسودونه في مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم . فقال مر له : يا فتى ، ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال يأمر المؤمنين ، أسقام وأمراض . فقال سألتك بالله إلا صدقتني . فقال يأمر المؤمنين ، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصفر عندي زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندي ذهبها وسحبرها ، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يسافون إلى الجنة والنار ، فأظلمت لذلك نهاري ، وأسهرت ليلي ، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه

وقال أبو نعيم : كان داود الطائي يشرب القنتيت ولا يأكل الخبز ، فقيل له في ذلك ، فقال :

(١) حديث طويل لمن طال عمره وحسن عمله : الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بنية رواه بصيغة من وهو مدلس ولا ترمي من حديث أبي بكر خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال

حسن صحيح وقد تقدم

بين مضج الخبير وشرب الفتيت فرأته خسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن في سقف بيتك جذعا مكسورا . فقال : يا ابن أخي ، إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر ، فما التفت عنة ولا يسرة ، فقبل له في ذلك ، فقال : إن الله عز وجل خلق الميتين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى . فكل من نظر بغير اعتبار كتب عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه متفتحتان من طول الصلاة . وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له .

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالمسواجر ، والمجود لله في جوف الليل ، وبحالة أقوام ينتقون أطايب الكلام كايقتني أطايب الثمر . وكان الأسود بن يزيد يمتد في العبادة ، ويصوم في الحر ، حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن ريس يقول له : لم تمذب نفسك ؟ فيقول كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ، ويصل حتى يسقط . فدخل عليه أنس بن مالك والحسن ، فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا . فقال إنما أنا عبد مملوك ، لأدع من الاستكانة شيئا إلا اجتت به . وكان بعض المجتهدين يصل كل يوم ألف ركعة حتى أتعبه من رجله ، فكان يصل جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى المصراحتي ثم قال : عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخلقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك .

وكان ثابت البناني قد حبيت إليه الصلاة ، فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصل لك في قبره فأنذني أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤي مضطجعا إلا في علة الموت . وقال الحارث بن سعد : مررت براهب ، فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه في ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأموال وم غافلون ! قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا عظم الأكر من ربهم . فبكي القوم عن آخرهم



ومن أبي محمد المخازلى قال : جاور أبو محمد الجري بمكة سنة ، فلم يسم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى صود ولا إلى حائط ، ولم يعد رجليه . فمهر عليه أبو بكر الكتانى ، فلم عليه وقال له : يا أبا محمد ، بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطنى فأعانتى على ظاهرى فأطرق الكتانى ومشى مفكرا

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلى ، فرأيتة قدمه كفيه يكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه . فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة . فقلت ولم بالله يفتح بكيت الدم ؟ فقال لولا أنك أحلفتى بالله ما أخبرتك . نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخفى عن واجب حق الله تعالى . وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لى الدموع . قال : فرأيتة بعد موته فى المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفرتى . فقلت له فإذا صنع فى دموعك ؟ فقال : قربنى ربي من وجل وقال لى : يفتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخفى عن واجب حقت ، فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعى أن لا تصح لى . فقال لى : يفتح ما أردت بهذا كله ؟ وعزنى وجلالى لقد سعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة

وفيل إن قوما أرادوا سفرا ، غادوا عن الطريق ، فأتوها إلى راهب منفرد من الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومته ، فقالوا ياراهب ، إنا قد أخطأنا الطريق ، فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء . فلم للقوم ما أراد . فقالوا ياراهب ، إنا سائلوك فهل أنت محيىنا ؟ فقال سلوا ولا تكتروا ، فإن النهار لن يرجع ، والمجر لا يمبود ، والطالب حثيث . فجبب القوم من كلامه فقالوا : ياراهب ، علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم . فقالوا : أو صنا . فقال : تزودوا على قدر سفركم ، فإن خير الزاد ما بلغ البنية . ثم أُرشدهم إلى الطريق ، وأدخل رأسه فى صومته

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين ، فناديته ياراهب فلم يجبنى ، فناديته الثانية فلم يجبنى ، فناديته الثالثة فأشرف علي وقال : يا هذا ما أنا براهب ، إنما الراهب من رهب الله فى سمائه ، وعظمه فى كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضى بقضائه

وحده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعلته ، وذلل لزمته ، واستسلم لقبدرته ،  
 وخضع لمهاجته ، وفكر في حساب وعقابه ، فبهاره صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار  
 ومساءلة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فكذب عقور ، حبست نفسي في هذه الصومعة  
 عن الناس لئلا أحترم . فقلت ياراهب : فإلذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال  
 يا أخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها ، لأنها عمل للعاصي والذنوب ، والمائل  
 من دنى بها عن قلبه ، وتاب إلى الله تعالى من ذنبه ، وأقبل على ما يقربه من ربه

وقيل لناود الطائي : لو سرحت لحيتك ؟ فقال إني إذا لفارغ  
 وكان أريس القرني يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحيي الليل كله في ركعة . وإذا كانت  
 الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود ، فيحيي الليل كله في سجدة

وقيل لما تاب عتبة الغلام : كان لا يشبأ بالطعام والشراب ؟ فقالت له أمه : لو رقت  
 بنفسك ؟ قال : الفرق أطلب ، دمي أنتب قليلا وأنتم طويلا  
 وحج مسروق فإنا لم نط إلا ساجدا . وقال سفيان الثوري : عند الصباح يحمد القوم  
 السرى ، وعند الليل يحمد القوم اللتى

وقال عبد الله بن داود : كان أحدم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه ، أي كان لا ينام  
 طول الليل . وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : غوى  
 يأمأوى كل شر . فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يكي ويقول : ذهب نصف عملي  
 وكانت ابنة الريح بن خثيم تقول له : يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟  
 فيقول : يا ابتاه ، إن أباك يخاف اليات

ولما رأت أم الريح ما يليق الريح من البكاء والسهر ، ناذته يا بني : لم لك قتلت قتيلًا ؟  
 قال : نعم يا أماه ، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيمقو عنك ، فوالله لو يملكون ما أنت فيه  
 لرحموك وعفوا عنك ؟ فيقول : يا أماه هي نفسي

ومن عمر ابن أخت بشر بن الحارث قال : سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأخى :  
 يا أخى ، جوفى وغواصرى تضرب ملي . فقالت له أمى : يا أخى ، تأذن لي حتى أصليح لك  
 وليل حساه بكف دفين عندي تنحساه برم جوفك ؟ فقال لها : ويحك ، أخاف أن يقول

من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري ايش أقول له . فبكت أمى ، وبكى معها ، وبكيت معهم قال عمر : ورأت أمى مايشتر من شدة الجوع ، وجعل ينفس نفسا ضيقا ، فقالت له أمى : يا أخى ، لبت أمك لم تلدى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك . فسمعت يقول لها : وأنا فليت أمى لم تلدى ، وإذ ولدتى لم يدردىها علي . قال عمر : وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أوبسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ، ثم جلس فجلس ، فقلت لأشغله عن التسبيح ، فكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى المشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فقلبت عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نومة ، ومن بطن لا تشبع . فقلت حمى هذا منه ، ثم رجعت ونظر رجل إلى أوبس فقال : يا أبا عبد الله ، مالى أك كأتك مريض ؟ فقال وما لأوبس أن لا يكون مريضا؟ يطعمُ المريض وأوبس غير طاعم ، وبنام المريض وأوبس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا أبا عبد الله ، ما أرى أن الجنة ترين فوقه ، وأن النار تسمر تحته ، كيف ينلم بينهما . وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن آدم فوجدته قد صلى المشاء ، فقمعت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ، ثم رى نفسه ، فلم يتقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا . فحاك ذلك فى صدرى ، فقلت له : رحمك الله ، قد نمت الليل كله مضطجعا ، ثم لم تجد الوضوء ؟ فقال كنت الليل كله جالسا فى رياض الجنة أحيانا ، وفى أودية النار أحيانا ، فهل فى ذلك نوم ؟ وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدم بصلى فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا . وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ، وتزل الماء فى إحدى عينيه فكثت عشرين سنة لا يعلم به أهله ، وقيل كان ورد سنون فى كل يوم خمسين ركعة ، ومن أبى بكر المطعمى قال : كان وددى فى شيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة ، أو أربعين ألف مرة ، شك الراوى . وكان منصور بن المتمر إذا رآته قلت : رجل أصيب بمصيبة ، منكسر الطرف ، منخفض الصوت ، ولط العنين ، إن حركته جاءت عينا بأربع . ولقد قالت له أمه

ما هذا الذي تمنع بنفسك ؟ بكى الليل عامته لاسكت ! لملك يابى أميت نفسا ، لملك قتل قتيل . فبقول يأثم ، أنا أعلم بما صنعت بنفسى

وقيل لامر بن عبد الله : كيف صبرك على سهر الليل وظأ الهواجر ؟ فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار ، وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول : ما رأيت مثلى الجنة نام طالبا ، ولا مثل النار نام هاربا .. وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يصبح . فإذا جاء النهار قال : أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال : من خاف أدلج . وعند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : ضليت خلف علي رضى الله تعالى عنه الفجر ، فلما سلم افتل عن يمينه وعليه كآبة ، فكنت حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أرى اليوم شيئا يشبههم ، كانوا يصبحون شعثا ، غربا ، صفرا ، قد بانوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحن بين أقدامهم وجباهم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر فى يوم الريح . وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكان القوم باتوا غافلين أىنى من كان حوله

وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول لنفسه : قولى فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكل منك لامن . فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضربه به ساقه ويقول : أنت أول بالضرب من دابتي . وكان يقول : أظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا ؟ كلا والله ، لنزاحهم عليه زحاما حتى يملوا أنهم قد خلقوا وراهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تقدمت ساقاه من أطول القيلم ، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام . وإنه مات وهو يساجد ، وإنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائى وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بمأثرة رضى الله عنها

أسلم عليها . فندوت يوما إليها ، فإذا هي تصل صلاة الضحى وهي تقرأ ( قن الله علينا  
وَوَكُنَّا عَذَابَ السَّوْمِ <sup>(١)</sup> ) وتبكي وتدعو وتردد الآية . فقامت حتى ملت ، وهي كما هي ،  
فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع : ففرغت من حاجتي  
ثم رجعت وهي كما هي ، تردد الآية وتبكي وتدعو

وقال محمد بن إسحق : لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأنسود حاجا اعتلت إحدى قدميه ،  
فقام يصلي على قدم واحدة ، حتى صلى الصبح بوضوء المشاة

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل  
وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سبوا الصالحين مغفرة الألوان من السهر ،  
ومشمس العيون من البكاء ، وذبول الشفاء من الصوم ، عليهم غيرة الخاشعين

وقيل للحسن : ما بال المتجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال لأنهم خلوا بالرحمن  
فألبسهم نوراً من نوره . - وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤمرني ،  
وتيمنتي ولا تمناني ، وخلقت معي عدواً ، وجعلته يجرى مني مجرى الدم ، وجعلته يراني  
ولا أراه ، ثم قلت لي استمسك ، إلهي كيف استمسك إن لم تمسكني ؟ إلهي في الدنيا المهوم  
والأحزان ، وفي الآخرة المقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا مضى الساعة  
وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه  
يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان  
السحر صاح صيحة . قال جعفر بن محمد : أخذت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى  
صياحه ، ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلاً عندنا بالحصب ، وكان له أهل  
وبنات ، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً ، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب  
المرحون ، أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترحلون ؟ فيثابرون ، فيسمع من  
ههنا ياك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا غاري ، ومن ههنا متوضي . فإذا طلع الفجر نادى

باعلى صوته . عند الصباح بحمد القوم السرى  
وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فمرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ،  
وتوكلوا عليه فسلموا الملق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم مصادن لصفاء اليقين ، ويوتا  
للعككة ، وتوايت العظمة ، وغزائن القدرة ، فهم بين الملق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم  
تجول في الملكوت ، وتلوذ بمحجوب القيوب ، ثم ترجع ومنها طوائف من لطائف  
الفوائد ، وما لا يمكن واصفا أن يصفه ، فهم في باطن أمورهم كالدياج حسنا ، وم في الظاهر  
متناذيل مذبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف ، وإنما  
هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير في بعض جبال بيت للقدس ، إذ هبطت إلى واد  
هناك ، فلذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تحييه لها دوي حال . فاتبعت الصوت ،  
فلذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ( يَوْمَ نَبْجِدُ كُلُّهُ  
نَفْسٍ مَا مَلَمَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا <sup>(١)</sup> ) إلى قوله ( وَنُبْجِدُكُمْ مِنْهُ نَفْسًا <sup>(٢)</sup> ) قال فجلست  
خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة غر منشيا عليه . فقلت وا أسفاه ،  
هذا لشقائي . ثم انتظرت إقامته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمته وهو يقول : أعوذ بك من  
مقام الكنايين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إهمراض النافلين . ثم قال :  
لك خشمت قلوب الخائفين ، وإليك فرغت آمال اللقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب المارفين  
ثم قض يده فقال : مالى وللدنيا ، ومال الدنيا لى . عليك يا دنيا بأبناء جلتك ، وألآف  
نبيك ، إلى عييك فاذهبي ، وإياهم فاعدمي . ثم قال : أين القرون الماضية ، ولهل البهور  
السافكة ، في التراب يلون ، وعلى الزمان يغنون . فناديته يا عبد الله ، أنا منذ اليوم خلقت  
أنتظر فراغك . فقال : وكيف يفرغ من يادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت  
إلى نفسه : أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ! ثم قال : أنت لها وللكل شدة  
أنوقع نزولها . ثم لها حتى ساعة وفرا ( وَبَدَأْتُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَخْشَوْنَ <sup>(٣)</sup> )  
ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخر منشيا عليه ، فقلت قد خرجت روحه .

فدوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ما غامرى ؟ هب لي إساءتي من فضلك ؛ وجلني بسترِكَ ، وأعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك . فقلت له : بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كنتي . فقال : عليك بكلام من ينفك كلامه ، ودع كلام من أوقته ذنوبه . إني لفي هذا للوضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدي ، فلم يجد هو ناعلي ليخرجني مما أنا فيه غيرك . فإليك عني باغدوع ، فقد عطلت علي لساني ، وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي . وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يميذن من سخطه ، ويتفضل علي برحمته . قال : فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا . فالتصرفت وتركته

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في مسير لي ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف علي فقال لي : يا هذا قم ، فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فاقبته ، فسمته وهو يقول ( كُلْ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ <sup>(١)</sup> ) اللهم بارك لي في الموت . فقلت وفيما بعد الموت . فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مثذر الخير ، ولم يكن له في الدنيا مستقر . ثم قال : يا من لوجه عنت الوجوه ، يرض وجهي بالنظر إليك ، وأملأ قلبي من المحبة لك ، وأجرني من ذل التوبيخ غدا عندك ، فقد آن لي الحياء منك ، وحان لي الرجوع من الأمراض عنك . ثم قال : لولا حلك لم يسعني أجل ، ولولا عفوك لم ينسطع فيما عندك أمل . ثم مضى وتركني ، وقد أنشدوا في هذا للمنى

بحيل الجسم مكتتب القواد	تراه بقمة أو بطن وادي
يتوح على معاص فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغشى ياعبادي
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الصفح من زلل العباد

وقيل أيضا

أد من التلذذ بالتواني	إذا أقبلن في حلال حسان
منيب فر من أهل رسال	يسبح إلى مكان من مكان

ليخل ذكره ويميشن فردا      وبظهر في العبادة بالأمانى  
 تلتذذ التلاوة أين ولى      وذكر بالقواد وباللسان  
 وعند الموت يأتيه بشير      يشر بالنجاة من الهوان  
 فيدرك ما أراد وما تنى      من الراحة في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القراءة في كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه في العبادات  
 غاية المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدت نفسك . فقال : كم عمر الدنيا ؟ قيل : سبعة آلاف سنة  
 فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ قيل : خمسون ألف سنة . فقال : كيف يميز أحدكم أن يعمل  
 سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! بئس أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف  
 سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان رجحك كثيرا ،  
 وكنت بالرغبة فيه جديرا . فكيف وممرك قصير ، والآخرة لا غاية لها

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مراعاة النفس ومراقبتها . فها تمردت نفسك  
 عليك ، وامتعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عز الآن وجود  
 مثلهم . ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فبو أنجح في القلب ، وأبست على الاقتداء  
 فابس الغبر كالماينة . وإذا هجرت عن هذا فلا تنفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن  
 إبل فمزي ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم ونهارهم ، وم العقلاء  
 والحكماء وذوو البصائر في الدين ، وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك . ولا  
 ترضى لها أن تنخرط في سلك الحق ، وتقع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن  
 حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أوفياء لا يطاق الاقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات  
 وقل لها يا فنى لا تستنكن أن تكوني أقل من امرأة ، فأخس برجل يقصر عن  
 امرأة في أمر دينها ودينها

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات . فقد روي عن حبيبة المدوية أنها كانت  
 إذا صلت التمة قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها ونهارها ، ثم قالت : الهى  
 قد غارت النجوم ، ونامت البيوت ، وغلقت للولك أبوابها ، وحل كل حبيب بحبيبه ، وهذا  
 مقام بين يدك . ثم قبل على صلاتها . فلما طلع الفجر قالت : الهى هذا الليل قد أدير ،



وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهناً، أم رددتها عليّ فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتني . وعزتك لو أنهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك . وروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل، وكانت مكثوفة البصر؛ فإذا كان في السحر نادت بصوت لها عزون، إليك قطع المابدون دجى الليالي يستيقنون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا نبيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين، وأن ترفنى لديك في عليين في درجة المقرين، وأن تلحقني ببيادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم المظماء، وأكرم الكرماء يا كريم . ثم تحز ساجدة فيسمع لها وجبة، ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شموانة، فكنت أرى مانعاً من النباحة والبكاء، فقلت لصاحب لي . لو أتيناها إذا غلت فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال أنت وذلك . قال فأتيناها فقلت لها : لورقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريد؟ قال فبكيت ثم قالت : والله لو ددت أني أبكي حتى تنفد دموعي، ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارية من جوارحي، وأنى لي بالبكاء، وأنى لي بالبكاء . فلم تزل تردد : وأنى لي بالبكاء، حتى غشي عليها . وقال محمد بن معاذ : حدثني امرأة من التميميات قالت : رأيت في منامي كأنني أدخلت الجنة، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل . خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدمها . فقلت ومن هذه المرأة؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شموانة . قالت فقلت أختي والله . قالت فينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجية تطير بها في الهواء، فلما رأيتها ناديت يا أختي أما ترين مكاني من مكانك؟ فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك، قالت فتبسمت إلي وقالت لم بأن تقدموك ولكن احفظي عنى اثنتين، أزمى الحزن قلبك، وقدى محبة الله على هواك ولا يضركمى مت . وقال عبد الله بن الحسن : كانت لي جارية وومية، وكنت بها منجبا، فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي، فانتبهت فالتفتها فلم أجدها، فقممت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول . بحبك لي ألا ماغفرت لي ذنوبي . فقلت لها : لا تقولى بحبك لي،

ولكن قولي بحبي لك ، فقالت : لا ، يا مولاي بحبه لي أخرجنى من الشرك إلى الإسلام ، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية ، فنزلت في بعض ديارنا ، قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لي : أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع ، قال فأشرف عليها فأراها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ، ثم غذيبتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكل بلائك عندها جيل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوب على معاصبك فلة بعد فلة ، أراها تظن أنك لا ترى سوء فعلها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شيء قدير .

وقال ذو النون المصري : خرجت ليلة من وادي كتمان ، فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول ( وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ )<sup>(١)</sup> ويبيكي . فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ، ويدها ركوة ، فقالت لي : من أنت ؟ غير فرقة مني . فقلت وجل غريب . فقالت يا هنا ، وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال فبكيت لقولها . فقالت لي : مال الذي أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قد فرح فأسرع في نجاحه قالت : فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت . يرحمك الله والصادق لا يبكي ؟ قالت : لا .

قلت : ولم ذلك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها وقال أحمد بن علي : استأذنا على عفيرة فخرجتنا ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا ، فسمعتها وهي تقول : اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشنقني عن ذكرك . ثم فتحت الباب ودخلنا عليها ، فقلنا لها : يا أمة الله ادعي لنا ، فقالت ، جعل الله قراكم في بيتي للمغفرة ، ثم قالت لنا . مكث عطاء السلي أربعين سنة ، فكان لا ينظر إلى السماء ، لحانت منه نظرة ، فغرم مشيا عليه ، فأصابه فتق في بطنه . فباليات عفيرة إذا رفعت رأسها لم تمص ، وبالياتها إذا عصت لم تصد

وقال بعض الصالحين : خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتبسها

في موضع بناحية السوق، وذهبت في بعض حوائجي، وقلت: لا تهرج حتى انصرف إليك قال فانصرف فلم أجد لها في الموضع. فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأني عرفت الغضب في وجهي، فقالت يا ولاي لا تسجل عليّ، إنك اجلسني في موضع لم أر فيه ذا كرام الله تعالى، فخفضت أن يخسف بذلك الموضع. فمجيئ لقولها. وقلت لها: أنت حرة فقالت سامعنا صنعت، كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عني أحدها وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، ثم بدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أنت على آية فيها ذكر النار بكيت، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عينها من البكاء. فقال بنو عمها. انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نمدلها في كثرة البكاء. قال فدخلنا عليها، فقلنا يا بريرة، كيف أصبحت؟ قالت أصبحت أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فتجيب. فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عينك منه، فقالت إن يكن لعيني عند الله خير فإضرهما مذهب منها في الدنيا. وإن كان لها عند الله شرف فيزبدها بكاء أطول من هذا. ثم أعرضت. قال فقال القوم قوموا بنا، فبي والله في شيء غير ما نحن فيه

وكانت معاذة المدوية إذا جاء النهار تقول: هذا يومى الذى أموت فيه. فأتعظم حتى تمسى. فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التى أموت فيها. فتصلى حتى تصبح وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة، فقامت إلى عراب لها، وقت أنا إلى ناحية من البيت، فلم تزل قائمة إلى السحر. فلما كان السحر قلت: ماجزاء من قوتنا على قيام هذه الليلة؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غداً

وكانت شموانة تقول في دعائها: إلهي ما أشوقني إلى لقاءك، وأعظم رجائي لجزائك، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين، ولا يطل عندك شوق المشتاقين. إلهي إن كان دنا أجلى ولم يقرّني منك عملي، فقد جعلت الاعتراف بالذنوب وسائل على، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك؟ وإن عذبت فمن أعدل منك هناك إلهي قد جرت على نفسى في النظر لها وبقى لها حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسدّها. إلهي إنك لم تزل بي برا أيام حياتي، فلا تقطع عني برك بسد مماتي. ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي

بإحسانه ، أن يسعني عند مماتي بقراءة . إلهي كيف أبأس من حسن نظرك بمدحاتي ، ولم تولني إلا الجليل في حياتي . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني ، فإن عبيتي لك قد أجازتني ، فتولت من أمري ما أنت أهله ، وعد فضلك على من غره جماله . إلهي لو أردت إهانتني لما هديتني ، ولو أردت فضيحتي لم تسترني ، فتعنى بحاله هديتي ، وأدم لي مابه سترتي . إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفيت فيها عمري . إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت نوابك

وقال الطواص : دخلنا على رحلة للمعبدة ، وكانت قد صامت حتى أسودت ، وبكت حتى صميت . وصلت حتى أقدمت ، وكانت تصلى قاضدة . فسلمنا عليها ، ثم ذكرنا لها شيئا من اللغو ليهون عليها الأمر ، قال فشمت ثم قالت : ملني بنفسى فترح فؤادي وكلهم كبدي . والله لو ددت أن الله لم يخلقني ولمأك شيئا مذكورا . ثم أنبلت على صلاتها

فليك إن كنت من الراجطين للرافقين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ، فيثبت نشاطك ، ويزيد حرصك . وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إن طلع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيها ذكرناه كفاية للمتبر . وإن أردت مزيدا فليك بالوظيفة على مطالعة كتب حلية الأولياء ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصغابة والفتابين ومن بدم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعمام ، والآن فإن خالفت أهل زمانك وأراك يجنون ، وسفروا بك ، فوافقهم فيما هم فيه وعليه ، فلا يجرى عليك إلا ما يجري عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدلى بحبل شهوة وتضع بتروبرها ، وقل لها : أرأيت لو هم سبل جارف يفرق أهل البيت ، ويبتوا على مواضعهم ولم يأكلوا حلوهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تقاربتهم وتركهم في سفينة تخلصين بها من الفرق ، قبل بختلج في نفسك أن للمصيبة إذا عمت طابت ، أم تركين مواقفهم ، وتستجلبينهم في صلبهم ، وتأخذين حذرهم مما همالك ؟ فإننا كنت تتركين مواقفهم خوفا من الفرق ، وعذاب الفرق لا ينادي إلا ساعة ، فكيف

لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال ! ومن أين تطلب المصيبة إذا صمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى الموم والمخصوص ! ولم يهلك الكفار إلا بغواضة أهل زمانهم حيث قالوا (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَرِّ مَا بَدَأْنَا مِنَّا) (١) فمليك إذا اشتغلت بماتية نفسك ، وحلها على الاجتهاد فاستصمت ، أن لا تترك ماتيتها وتوينيها ، وتقرىها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فمساها تخرج عن طينها

## المرايطة السادسة

في توبيخ النفس ومعاتبها

اعلم أن أحدى هدوك نفسك التي بين جنبيك . وقد خلقت أمانة بالسوء ، مباله إلى الشر ، فرارة من الخير . وأمرت بتزكيتها ، وتقرىها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها . ومنعها عن شهواتها ، وقطاعها عن لذاتها . فإن أهملتها جمعت وشردت ، ولم تنظر بها بعد ذلك . وإن لازمتها بالتوبيخ ، والماتية ، والمذل ، والملاية ، كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ، وزجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية . فلا تفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك . أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم ، عطف نفسك ، فإن اتمطك فط الناس ، وإلا فاستحي مني وقال تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (٢)

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جلهلها وغاوتها ، وأنها أبدا تبرز فطنتها وهدايتها ، ويشدد أنفها واستنكافها إذا نسجت إلى الحق ، فتقول لها يا حس ، ما أعظم جهك ، تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أحد الناس غباوة وحقا ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنت صائرة إلى إحداها على القرب ، فإلك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تحتطفين أوقدا فأراك ترين الموت بيذا وبراء الله فريا . أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن الهيد ما ليس بات ؟

أما ملهين أن الموت يأتي بنة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواعلة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأقسام يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضي إلى الموت ، فإلك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب . أما تدبرين قوله تعالى ( اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لأهية قلوبهم <sup>(١)</sup> ويحك يا نفس ، إن كانت جراتك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك ، فما أعظم كفرك . وإن كان مع عليك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك ، وأقل حياك

ويحك يا نفس ، لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأي جسارة تترصنين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ! أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيئات هيئات ، جربى نفسك ، إن ألهاك البطر عن أيمن عذابه فاحتسبي ساعة في الشمس ، أو في بيت الحمام ، أو فرجني أصبعك من النار ، لينبين لك قدر طاعتك . أم تفتقرين بكرم الله وفضله ، واستغنائاه عن طاعتك وعبادتك ، فما لك لا تمولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك . فإذا قصدك عدو فلم تمنعطين الحيل في دفعه ، ولا تكيينه إلى كرم الله تعالى ! وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدنار والدرهم ، فإلك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ، فلم لا تمولين على كرم الله تعالى حتى يثر بك على كثر ، أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كرم في الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ماسي

ويحك يا نفس ، ما أعجب فطاعتك ودعائك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِجْعُهَا ) <sup>(٢)</sup> وقال في أمر الآخرة ( وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ) <sup>(٣)</sup> فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة

(١) الأنبياء : ١٠٩ ، ١١٠ ، (٢) هود : ٦ ، (٣) النجم : ٣٩

وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفالك ، وأصبحت تنكاليين على طلبها تنكالب  
 الدهوش المستهتر ، و وكل أمرا لآخره إلى سميعك ، فأعرضت عنها إعراضا للغرور للسحق  
 ماهذا من علامات الإيمان . لو كان الإيمان باللسان فلم كان المناقون في الدرك الأسفل من النار ؟  
 ويحك يا نفس ، كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا ماتت انقلت وتخلصت  
 وهيات ، أتخسبين أنك تتركين سدى ، ألم تكوني نقطة من مني عني ، ثم كنت علقة  
 فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضاركا فأكثر  
 وأجلك أما تتفكرين أنه لماذا خلقك ، من نقطة خلقك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم  
 أمانك فأفكر ، أفتكذبتين في قوله ثم إذا شامأنترك ؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لأأخذين  
 حذررك ؟ ولو أن يهوديا أخبرك في الله أعلمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته  
 وجاهدت نفسك فيه ، أفتكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله تعالى في كتابه  
 المنزلة ، أقل عندك تأثيرا من قول يهودي بخبرك عن حدس ، وتخمين ، وظن ، مع نقصان  
 عقل ، وقصور علم ؟ والمجب أن لو أخبرك طفل بأن في يوبك عقرا لميت يوبك في الحال  
 من غير مطالبة له بدليل وبرهان ، أفسكان قول الأنبياء ، والعلماء ، والحكام ، وكافة الأولياء  
 أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ أم صارح جهنم ، وأغلاها ، وأنكالا ، وزقومها  
 ومقامعها ، وصديدها ، وموئها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لا تخمين  
 بألمها إلا يوما أو أقل منه ؟ ماهذه أفعال العقلاء . بل لو انكشف لبيها ثم حالك لضحكوا  
 منك ، وسخرخوا من عقلك . فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ،  
 فمالك تسوفين العمل ، والموت لك بالمرصاد ، ولله بحسبك من غير مهلة فإذا آمنت استعجال  
 الأجل . وهبك أنت وعدت بالإمهال مائة سنة ، أفتظنين أن من يطعم العائقة في حضيض  
 العقبة يفلح وبقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل  
 ليتنقه في التربة ، فأقام فيها سنين متعطلا ، بطالا ، يمد نفسه بالنفقه في السنة الأخيرة عند  
 رجوعه إلى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تحقيه النفس مما يطعم فيه بمدة  
 قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء نال من غير فقهه اعتادا على كرم الله سبحانه وتعالى  
 ثم هي أن العبد في آخر العمر نافع ، وأنموصل إلى الدرجات العلا ، فليل اليوم آخر محررك

فلم لا تستغفر فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أختنطرن يوماً يأتيك لا تسمر فيه مخالفة الشهوات ، هذا يوم لم يخلفه الله قط ، ولا يخلفه ، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا محال وجوده . أما تأملين مذكم تمدنين نفسك وتقولين غدا غدا ، فقد جاء الند وصار يوماً فكيف وجدته ، أما علمت أن الند الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس ، لا بل تمعنين عنه اليوم ، فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تنبت البعد بقلها ، فإذا عجز البعد عن قلمها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ! فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب بل من الغناء وباضة الهرم ، ومن التمزيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك

فإذا كنت أينما النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تمدنين الحكمة ، وأية محافة تريد على هذه المحافة ؟ ولعلك تقولين ما عنتني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات ، وقلة صبري على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأفجع اعتذارك ! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهرك فالتظر لها في مخالفتها ، قرب أكلة تمنع أكلات . وما تفولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشره طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام لينتم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طاللت مدته وليت شرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار في دركات جهنم



فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ! ما أراك تتوأنن عن النظر  
لنفسك إلا لكفرخني ، أو لحنى جلبي . أما الكفر الخفي فهو ضئف إيمانك بيوم الحساب ،  
وقلة معرفتك . بعظم قدر الثواب والمقاب . وأما الحنى الجلي فاعتناك على كرم الله تعالى  
وعفوه ، من غير التفات إلى مكروه ، واستدراج ، واستثنائه عن عبادتك ، مع أنك  
لا تعتمد على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعها من  
الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل . وبهذا الجبل تستحقين لقب  
الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « أَلَكَيْسُ مَنْ ذَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لَهَا  
بَعْدَ أَلَمَاتٍ وَالْأَلَمُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَنَحْنُ عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي »

وبحك يافنس ، لا ينبغي أن تترك الحيلة الدنيا ، ولا يترك بالله التورود ، فانظري  
لنفسك فما أسرك بهم لغيرك ، ولا تضیی أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك  
نفس فقد ذهب بعضك ، فاعتنى الصلحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والفنى قبل  
الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستمدى للأخرة على قدر بقائك فيها  
يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمنين له القوات ، والكسوة والحطب  
وجميع الأسباب ، ولا تسكلين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من  
غير جبة ، ولبد ، وحطب وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أنها النفس أنت  
زمهرير جهنم أخف بردا ، وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا  
كلًا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة . أفتظنين أنه  
البيد ينجو منها بشير سمي ؟ هيئات ، كما لا يدفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب  
فلا يدفع حر النار وبردها إلا بمحسن التوحيد وخذق الطاعات . وإنا كرم الله تعالى في  
أن عرفك طريق التحصن ، ويسر لك أسبابه ، لافي أن يدفع عنك العذاب دون حصنه  
كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استغراجها من  
بن حديد و حجر حتى تدفئ بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شرأ الحطب والجبة مما  
يستغنى عنه خالك ومولاك ، وإنا تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك ، فطاعتك

ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها ، وإنما هي طريقك إلى نجاتك . فبين أحسن قلنفسه ،  
ومن أساء فعلها ، والله غني عن العالمين

ويحك يا نفس اتزعي من جهلك ، وقبسي آخرتك بدنياك ، فإخلقكم ولا بمشكم إلا  
كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده ؛ وكما بدأكم تمودون ، وسنة الله تعالى لتجدين  
لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا وأنست بها ، فمسر  
هليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين في نفسك مودتها ، فاحسبي أنك غافلة  
من عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفروق بينك  
وبين محابك . أقترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فعدت بصره إلى  
وجه ملج يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لاهالة إلى مفارقتها ، أو معدود من العقلاء  
أم من الحق ، أم التملين أن الدنيا دار ملك الملوك ، ومالك فيها إلا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب  
المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> : « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ  
قَفَّتْ فِي رُوحِي أَحَبُّ مِنْ أَحَبِّتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَأَعْمَلُ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ تُجْزَى بِهِ  
وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ »

ويحك يا نفس أتملئين أن كل من ملئت إلى ملاذ الدنيا . ويأنس بها مع أن الموت من  
ورائه ، وإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتروّد من السم المهلك وهو لا يدري  
أوما تنظرون إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلموا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورش الله  
أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ أما تريد كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون  
ويؤمنون ما لا يدركون ؟ يبني كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ، ومقره قبر  
محفور تحت الأرض . فهل في الدنيا حق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يسر الواحد دنياه  
وهو مرتحل عنها يقبنا ، ويغزب آخرته وهو صائر إليها قطعا ؟ أما تستحيين يا نفس من  
مساعدة هؤلاء الحقى على حماقتهم ؟

واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تملين بالطبع إلى التشبه  
والاقتداء ، فقبسي عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المسكين على الدنيا

(١) حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَفَّتْ فِي رُوحِي أَحَبُّ مِنْ أَحَبِّتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَأَعْمَلُ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ تُجْزَى بِهِ » الحديث : تقدم في الطب وغيره

واقتدى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تستدين في نفسك العقل والذكاء  
 يأنفس ما أعجب أمرك ، وأشد جيلك ، وأظهر طغيانك ! هيبا لك ، كيف تبين من  
 هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولما لك يأنفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ،  
 أو ماتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من  
 على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت  
 ولا أحد من على وجه الأرض من عبدك وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر  
 من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ؟ ( هل تحبس منهم من أحد أو تسمع  
 لهم ركزا ) فكيف تبين يأنفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن  
 بقي ؟ هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك  
 الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إيدارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر عثلك  
 بل أمر دارك فضلا عن عثلك ؟ فإن كنت يأنفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجيلك  
 وهمى بصيرتك ، فالك لا تتركينها رفعا عن خسة شركتها ، ونزها عن كثرة عنائها ، وتوقيا  
 من سرعة فنائها ، أم مالك لا ترهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرا ؟ ومالك تفرحين  
 بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بذلك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويريدون  
 عليك في نعيمها وزينتها ؟ فأف لدينا يسبقك بها هؤلاء الأخصاء . فأجبهك ، وأخس  
 همتك ، وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرين من النبيين والصدقين ،  
 في جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صف النعال من جملة الحق الجاهلين أياما  
 قلائل . فإحسرة عليك أن خسرت الدنيا والدين

فبادري ويحك يأنفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا  
 يصلي عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يرضى عنك ربك بعد الموت ؟  
 ويحك يأنفس ، مالك إلا أيام معدودة هي بفنائك ، إن أجمرت فيها وقد ضمنت  
 أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضمنت منها لكنت مقصرة في حق نفسك ، فكيف  
 إذا ضمنت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يأنفس أن الموت موعدك ، والقبيريتك

والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؛ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتي عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالإيمان المملظة أنهم لا يرحلون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليستفتلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت في أمانيهم ، ويوم من همرك لو بيع منهم بالدنيا بمخافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضعين أيامك في الخفلة والبطالة ؟

ويحك يا نفس ، أما تستحيين ؟ ترينين ظاهرك للخلق ، وتبارزين الله في السر بالعظام أفنتسحين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ؟ تأتمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتدكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من المذرة ؟ وأن المذرة لا تطهر غيرها ؟ فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟

ويحك يا نفس ، لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك ويحك يا نفس ، قد جعلت نفسك حماراً للإبليس يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بسلك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الرمح في يديك . وكيف تعجبين بمملك مع كثرة خطاياك وزلللك ؟ وقد لمن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة ؟ وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك يا نفس ، ما أغدرك ! ويحك يا نفس ، ما أوقحك ، ويحك يا نفس ، ما أجهلك وما أجراك على المعاصي ! ويحك كم تقفدين فتتقصين ! ويحك كم تمهدين فتفقدن

ويحك يا نفس ، أنت تخيلين مع هذه الخطايا بماردة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا ؟ جموا كثيراً ، وبنوا مشيداً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح جميعهم يوراء ، وبنائهم قبورا ، وأملهم غرورا .

ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة ؟ أما لك إليهم نظرة ؟ أنتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلفين ؟ هيئات هيئات ، ساء ماتو همين . ما أنت إلا في هدم همرك منسقطت من بطن أمك . فأنى على وجه الأرض نصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان

وكلع الوجوه ، وبشرى بالذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن  
أو يرحم منك لكاء ؟

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والنظنة . ومن فطنتك  
أنك تقر حين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بتقصان عمرك ، وما تقع مال يزيد وعمر ينقص  
ويحك يا نفس ، ترضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي  
معرضة عنك . فكمن من مستقبل يوما لا يستكملها ، وكمن من مؤمل لند لا يبلغه . فأنت  
تشاهدتين ذلك في إخوانك ، وأقاربك ، وجيرانك ، فترين تحسرم عند الموت ثم لا ترجعين  
من جهاتك . فاحذري أيها النفس السكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا  
أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سره وعلايقته . فانظري يا نفس  
بأي بدن تقفين بين يدي الله ، وبأي لسان تحبين ، وأعددي للسؤال جوابا ، وللجواب  
صوابا ، واصل يتيه عمرك في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال لدار مقامة ، وفي دار  
حزن ونصب لدار نعيم وخلود . احملي قبل أن لا تملي ، اخرجي من الدنيا اختيارا  
خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات  
الدنيا ، قرب مسرور مغبون ، ووب مغبون لا يشمر . فويل لمن له الويل ثم لا يشمر  
يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، وبأكل ويشرب ، وقد حق له في كتاب الله أنه من  
وقود النار . فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسميك لها اضطرابا ، ورفضك لها  
اختيارا ، وطلبك للآخرة ابتدارا . ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة  
فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينهى ، واعلم يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للآخرة بدل ،  
ولا للجسد خلف . ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر

فأعطى يا نفس بهذه الموعظة ، وأقبل هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد  
رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا هذه الموعظة واعية . فإن كانت التساوة تمنك من  
قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التهجذ والقيام ، فإن لم تزل فبالموظبة على الصيام ، فإن  
لم تزل فبقلة الخاطئة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام والطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى  
أن الله قد طبع على قلبك وأقل على عينه ، وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه

فوقى نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له . فإن لم يبق فيك نجال للوعظ فانقضى من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نموذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اقترار وليس برجاه . فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ، وهل تسمع عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فسقت الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقي فيك موضع للرجاء ، فواظبي على النياحة والبكاء ، واستغثي بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وأدمعي الاستغاث ، ولا تحلي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك وينيك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبلبتك قد تفاقمت ، وتناديك قد طال ، وقد انقطع منك الحيل ، وراحت عنك الملل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ، ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الدليل ، وينيث الطالب للتلف ، ويحيب دعوة المضطر

وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجح فيك المظلات ؛ ولم يكسر لك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسؤول جواد ، والمستغاث به برهوف ، والرحمة واسعة ، والكرم قانص ، والمفو شامل . وقولي يا أرحم الراحمين ، يا رحيم ، يا حلیم ، يا عظيم ، يا كريم ، أنا المذنب المصير ، أنا الجرمي الذي لأقلع ، أنا المتأدي الذي لأستحي ، هذا مقام للتضرع للسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الفريق فجعلا غائتي وفرجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذني برّد عفوك ومنفرتك ، وارزقي قوة عصمتك يا أرحم الراحمين ، اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ، فقد قال وهب بن منبه : لما أعبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا رقا له دمة ، فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو عزون ، كتيب ، كظيم ، منكس رأسه ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ، ما هذا المجد الذي أرى بك ، قال يارب عظمت مصيبتى ، وأحاطت بي خطيئتي ، وأخرجت من ملجئكوت ربى ، فصرت في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة ، وفي دار النصب

بمد الراحة ، وفي دار البلاء بمد المافية ، وفي دار الزوال بمد القرار ، وفي دار الموت والفتاة بمد الخلود والبقاء ، فكيف لأبكي على خطيئتي ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ، ألم أسطفك لنفسي ، وأجملتك داري ، وخصصتك بكرامتي ، وحذرتك سخطي ، ألم أخلقك يدي ، وتفتحت فيك من روعي ، وأسجدت لك ملائكتي ، فعميت أمري ، ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي ؟ فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك ، يبدوني ، ويسبحوني ، ثم عصوني ، لأنزلهم منازل الماصين . فيسكن آدم عليه السلام عند ذلك ثمانية عام وكان عبيد الله الجبل كثير البكاء ، يقول في بكائه طول ليله : إلهي أنا الذي كلما طال صمري زادت ذنوبي : أنا الذي كلما همت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى . واعبيداه خطيئة لم تبيل وصاحبها في طلب أخرى . واعبيداه إن كانت النار لك مقبلا ومأوى . واعبيداه إن كانت المقامع رأسك تهباً : واعبيداه قضيت حوائج الطالين ولعل حاجتك لا تقضى وقال منصور بن عمار : سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول : يارب وعزتك ما أردت بمصيبتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سؤلت لي نفسي ، وأعاني على ذلك شقوتي ، وغرني سترك المرخي علي ، فمصيبتك يجلي ، وخالفتك بفعل ، فمن عذابك الآن من يستغذني ؟ أو يجمل من اعتمد إن قطعت حبلك عني ؟ واسواتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع الخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط ؟ وبلى ، كلما كبرت سني كثرت ذنوبي . وبلى ، كلما طال صمري كثرت معاصي ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما أن لي أن أستحي من ربي ؟

فهذه طرق التوهم في مناجاة مولا ، وفي معاناة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترخاء ، ومقصدهم من المعاناة التنبيه والاسترخاء . فمن أهمل المعاناة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعى ، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام

ثم كتاب المحاسبة والمراقبة ، يطلع كتاب التفكير إن شاء الله تعالى ، والحمد لله وحده ، وصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم





# كتاب التفكر

## كتاب التفكير

وهو الكتاب التاسع من ربيع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاه عزته نحوا ولا قطرا، ولم يجعل لمراق أقدام الأوهام،  
ومرر سهام الأنفام إلى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في يدهاء كبريائه  
والهة حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سُبُحات الجلال قسرا، وإذاهمت بالانصراف  
آيسة نوديت من سُرادات الجلال صبرا، ثم قيل لها أجيلى في ذل اليهودية منك فكرا  
لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا. وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك  
أمرا، فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف واثت عليك تنرى، وجددى لكل نعمة  
منها ذكرا وشكرا، وتأملى في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرًا، ونفعا  
وضرا، وعسرا ويسرا، وفوزا وخسرا، وجبرا وكسرا، وطبًا ونشرا، وإعانا وكفرا  
ومرفانا ونكرا. فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرا إمرا  
وخطرت بنفسك مجاوزة جد طاقة البشر ظلما وجورا، فقد انهبرت المقول دون مبادئ  
إشرافه، وانكصت على أعقابها اضطرابا وقهرا. والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن  
كان لم يمد سيادته فخرا، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا، وعلى آله وأصحابه  
الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا. ولعلوا هم المسلمين صدرا، وسلم تسليما كثيرا  
أما بعد: فقد وردت السنة بأن<sup>(١)</sup> تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وكثر الحث

### ﴿ كتاب التفكير ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة: ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة  
باستاد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في اللوزعات ورواه أبو منصور الفيلسوف في مسند  
الفرودس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة واستاده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول  
أبي عباس بلفظ خير من قيام ليلة

في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار، والنظر والافتكار، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأتوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والعلوم. وأكثر الناس قد عرفوا فضله وربته، لكن جهلوا حقيقة وعمقه، ومصلده ومورده، وعبراه ومسرحه وطريقه وكيفية. ولم يعلم أنه كيف يتفكر، وفيماذا يتفكر، ولماذا يتفكر، وما الذي يطلب به، أهو مراد لبيته أم لغيره تستفاد منه، فإن كان لغيره فما تلك الغيرة، أي من العلوم، أو من الأحوال، أو منهما جميعا. وكشف جميع ذلك مهم. ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير، ثم حقيقة التفكير وعمقه، ثم مجازي الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى

## فضيلة التفكير

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى، وأمر على المتفكرين فقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَظِيمًا وَنُسُوا عَنْ آلِهَتِهِمْ وَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا<sup>(١)</sup>) وقد قال<sup>(٢)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما: إن فوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره»

ومن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup>، أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال «ما لكم لا تتفكرون» فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل. قال «فبذلك فافهموا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضنا ينضأ نورها يسأها ويسأها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين» قالوا يا رسول الله، فأين الشيطان منهم؟ قال «ما يدرون خلق الشيطان»

(١) حديث ابن عباس أن فوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تهتدوا لهدى. بأبو نعيم في الحلية بالرفع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي

في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الزيادة بن بالغ متروكة

(٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالك لا تتفكرون فقالوا تفكروا في خلق الله الحديث: ورواه في جزء من حديث عبد الله بن سلام

أَمْ لَا ، قَالُوا مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، قَالَ : لَا يَذُرُونَ خُلُقَ آدَمَ أَمْ لَا ؟

ومن <sup>(١)</sup> عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن حمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ، ما يمنك من زيارتنا ؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : زُرْ غِيَا تَزُدَّ حُبًّا ، قال ابن حمير : فأخبرنا بأعجب شيء رأته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبككت وقالت : كل أمره كان محباً . أنا في ليلى حتى مس جلده جلدي ثم قال : ذَرَيْنِي أُتَبِّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، فقام إلى القرية فتوضأ منها ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى بل لحيتي ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح . فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : وَفِيحُكْ يَا بَلَالُ وَمَا يَغْنَمُنِي أَنْ أُبْكِي وَفَدَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَمَالَى عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَأْتِ إِلَّا أَوَّلَ الْبَابِ <sup>(٢)</sup> ) ثم قال : وَقِيلَ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا : قِيلَ لِلْأَوَّلَى : مَا غَايَةِ التَّفَكُّرِ فِيهَا ؟ قَالَ يَقْرَؤُنَ وَيَقْلَهُنَ . وعن محمد بن واسع ، أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر ، فأسأله عن عبادة أبي ذر ، فقالت : كان نهائماً جمع في ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة

وعن الفضيل قال : التفكر مرة تترك حسناتك وسيئاتك

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ المقل

وكان صفيان بن عيينة كثيراً ما يمثل بقول الفائل :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شيء له عبرة

وعن طاووس قال : قال الحواريون ليعسى بن مريم : يا روح الله ، هل على الأرض اليوم

مشك ؟ فقال نعم ، من كان منطقته ذكراً ، وصمته فكراً ، ونظيره عبدة فإنه مثلى

(١) حديث عطاء . انطلقت أنا وعبيد بن حمير إلى عائشة - الحديث : قال ابن حمير : فأخبرنا بأعجب شيء رأته من رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث : في نزول إن في خلق السموات والأرض وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والتفكير وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء

وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لونه ومن لم يكن جوده تكملاً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو

وفي قوله تعالى ( سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِتَغْيِيرِ الْأُمْنِ <sup>(١)</sup> ) قال أئمن قلوبهم التفتكر في أمرى

وعن <sup>(٢)</sup> أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ » فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال « النَّظَرُ فِي الْمَصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَالْإِعْتِبَارُ عِنْدَ حَيَاتِيهِ »

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت : لو تطالمت قلوب للتقين بفكرها إلى ما قد أذخر لها في حجب التيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقرر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يهليل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاه فيقول : يا لقمان ، إنك تديم الجلوس وحده ، فلو جلست مع الناس كان آس لك . فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهم للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم ، وما علم امرئ قط إلا عمل

وقال عمر بن عبد العزيز : التفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة

وقال عبدالله بن المبارك ومالسهل بن علي ، ورأى سكتاً متفكراً : أين بلغت ؟ قال الصراط

وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله . ما عصوا الله عز وجل

وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب

وبينا أبو شريح يمشي ، إذ جلس فتفتح بكسائه ، فجعل يبكي ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال :

تفكرت في ذهاب عمرى ، وقلة عملي ، واقتراب أجلي

وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء ، وقلوبكم التفكر

وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية . والفكر

في الآخرة يورث الحكمة ، ويحيي القلوب

( ١ ) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة - الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ بن جان في كتاب النظمه باستاد ضيف

وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكير يزيد الخوف  
وقال ابن عباس: التفكير في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه  
ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام كل حكيم، ولكن  
أنظر إلى همه وهواه. فإذا كان همه وهواه لي، جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم  
وقال الحسن: إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر،  
حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة

وقال اسحاق بن خلف: كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراءه، فتفكر  
في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويكي، حتى وقع في دار جاره له.  
فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف، وظن أنه لص. فلما نظر إلى داود  
رجع ووضع السيف وقال: من ذا الذي طرحتك من السطح! قال ماشرت بذلك.

وقال الجنيدي: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم  
بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر بحسن الظن لله عز وجل.  
ثم قال: يا لها من مجالس مأجلبها! ومن شراب مألله، طوبى لمن رزقه

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.  
وقال أيضا: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفریط  
والندم، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس  
وقوة في البصيرة، فتفكر قبل أن تنزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم. وقال  
أيضا: الفضائل أربع: إحداها الحكمة وقوامها الفكرة، والثانية الشفة وقوامها في الشهوة،  
والثالثة القوة وقوامها في الغضب، والرابعة المدل وقوامها في اعتدال قوى النفس  
فهذه أقاويل العلماء في الفكرة، وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

## بيان

حقيقة الفكر ونعمته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله  
أن من مال إلى العاجلة، وآثر الحياة الدنيسا، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإشارة

من العاجلة فله طريقان . أحدهما : أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإتيان من الدنيا ، فيقلده ، ويصدقه من غير بصيرة بتحقيق الأمر ، فيميل بعمله إلى إتيان الآخرة اعتقادا على مجرد قوله . وهذا يسمى تقليدا ، ولا يسمى معرفة .  
والطريق الثاني : أن يعرف أن الأبقى أولى بالإتيان ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإتيان . ولا يمكن تحقيق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإتيان إلا بالمعرفتين السابقتين . فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا ، واعتبارا ، وتذكرا ، ونظرا ، وتأملا ، تدبرا . أما التدبر ، والتأمل ، والتفكير ، فعبارة مترادفة على معنى واحد ، ليس تحتملها معان مختلفة . وأما اسم التذكر ، والاعتبار ، والنظر ، فهي مختلفة للمعاني ، وإن كان أصل اللفظ واحدا . كما أن اسم الصارم ، والمهند ، والسيف ، يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة : فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضع ، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الروائد . فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يتبرهن منهما إلى معرفة ثالثة . وإن لم يقع العبور ، ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين ، فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة . فمن ليس يطلب للمعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا . فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكّر تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى عن القلب ، وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير . والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفة أخرى . فالمعرفة تناج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخبرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصلت من ذلك تناج آخر . وهكذا يتماهى التناج ، ويتماهى العلوم ، ويتماهى الفكر إلى غير نهاية . وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت والعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فإعماهموا الزيادة في العلوم لتقديم رأس المال ، وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم . كاللبيد لبضاعته . فإنه لا يقدر على البيع . وقد علك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا .

فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ، ولكن ليس بحسن استعمالها ،  
وتأليفها ، وإتقان الأزواج للفضى إلى النتائج فيها

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهى فى القلب يحصل بالفطرة ،  
كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وذلك عزيز جداً . وقد تكون بالتعلم والممارسة ،  
وهو الأكثر . ثم للتفكير قد تحضره هذه المعارف ، وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية  
حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الإيراد ، فكم من إنسان  
يعلم أن الآخرة أولى بالإشارة علماً حقيقياً ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير  
عنه ، مع أنه لم يحصل معرفته إلا عن الممرتين السابقتين ، وهو أن الأبقى أولى بالإشارة ،  
وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإشارة .  
فمرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة

وأما ثمره الفكر فى العلوم ، والأحوال ، والأعمال . ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير  
نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح  
فالمعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر . فالتفكير إذا هو المبدأ والمفتاح  
للتغيرات كلها . وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكير ، وأنه خير من الذكر  
والتذكر . لأن الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير من عمل الجوارح . بل شرف  
المعمل لما فيه من الذكر . فإذا التفكير أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر  
ساعة خير من عبادة سنة . فقيل هو الذى ينقل من المكروه إلى المحاب ، ومن الرغبة  
والحرص إلى الزهد والقناعة . وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى . ولذلك قال تعالى  
( لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا <sup>(١)</sup> )

وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر ، فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن  
الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإشارة . فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً فى قلوبنا تغيرت  
القلوب إلى الرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا . وهذا ما عتينا به الحال إذا كان حال القلب  
قبل هذه المعرفة حب العاجلة ، والميل إليها ، والنفرة عن الآخرة ، وقلة الرغبة فيها .



وبهذه المعرفة تغير حال القلب ، وتبدلت إرادته ورغبته ، ثم أثر تغير الإرادة أعمال الجوارح في أطراح الدنيا ، والإنقال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات :

أولاهما : التذكر ، وهو إحضار للمعرفتين في القلب

وثانيتهما : التفكير ، وهو طلب للمعرفة المقصودة منهما

والثالثة : حصول المعرفة المطلوبة ، واستئارة القلب بها .

والرابعة : تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة

والخامسة : خدمة الجوارح للقلب ، بحسب ما يتجدد له من الحال . فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع ، فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة ، وتنهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر ، فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تنبث النار من الحديد ، وتغير القلب بسبب هذا النور حتى يعيل إلى ما لم يكن يعيل إليه . كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ، ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب ، كما ينهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يصره

فإذا عمرة الفكر العلوم والأحوال ، والعلوم لانهية لها ، والأموال التي تصود أن تقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد حريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه ، وأنه فيما ذابفكر ، لم يقدر عليه ، لأن مجارى الفكر غير محصورة ، وغرابة غير متناهية . نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية ، وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جليا ، فإن تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لمصطفى ، فإنها مشتتة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة ، فلنشير إلى ضبط المجامع فيها ليحصل الوتوف على مجارى الفكر

## بيان

بمجاى الفكر

اعلم أن الفكر قديمى فى أمر يتعلق بالدين ، وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين . وإن اغترضا ما يتعلق بالدين ، فلترك القسم الآخر . ونفى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى . فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمبود وصفاته وأفعاله ، لا يمكن أن يخرج من هذين القسمين . وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه . ولا حاجة إلى الفكر فى غير هذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسى ، وإما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته ، وجميع ما فى السموات والأرض وما بينهما

ونكشف لك المحصار الفكر فى هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائر إلى الله تعالى ، والمتشاق إلى لقائه ، يضاهى حال المشاق فلتتخذ العاشق المستهتر مثالا فقول : العاشق المستغرق المم بشقه لا يبدو فكره من أن يتعلق بمشوقه ، أو يتعلق بنفسه . فإن تفكر فى مشوقه فلما أن يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ، لينتم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ، ليكون ذلك مضعا للذة ومتقيا لمحبته . وإن تفكر فى نفسه فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتزده عنها ، أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها . فإن تفكر فى شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد المشق ، وهو نقصان فيه ، لأن المشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب ، حتى لا يترك فيه متسا لنيره فحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك ، فلا يبدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا

فلنبذا بالقسم الأول : وهو تفكره فى صفات نفسه ، وأفعاله نفسه ، ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر : فيتعلق بعلم المكشفة . ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب

ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والماعى ، وإلى باطن كالصفات النجيات والمهلكات التى عليها القلب ، وذكرنا تفصيلها فى ربح المهلكات والنجيات ، والطاعات والماعى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة ، وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف ، وعقوق الوالدین ، والسكون فى المسكن الحرام . ويجب فى كل واحد من المكروه التفكير فى ثلاثة أمور :

١ الأول : التفكير فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا قرب شيء لا يظهر كونه مكروها ، بل يدرك بدقيق النظر . والثانى : التفكير فى أنه إن كان مكروها فإلى طريق الاحتراز عنه والثالث : أن هذا المكروه هل هو متصف به فى الحال ، فيتركه ، أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه ، أو قاربه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه

وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات . فإذا جمعت هذه الأنسام زادت مجارى الفكر فى هذه الأنسام على مائة ، والمبد مدفوع إلى الفكر إما فى جميعها أو فى أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن المحصر هذا التقسم فى أربعة أنواع : الطاعات ، والماعى ، والصفات المهلكات ، والصفات النجيات . فلنذكر فى كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرهما ، وينفتح له باب الفكر ، ويتسع عليه طريقه

النوع الأول : الماعى ، ينبغى أن يفنئ الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة ، هل هو فى الحال ملابس لمصيبة بها فيتركها ، أو لا يلبسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ، أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر فى اللسان ويقول : إنه متعرض للنبيه ، والكذب ، وتركبة النفس ، والاستهزاء بالغير ، والممازاة ، والممازاة ، والغوص فيما لا يبنى ، إلى غير ذلك من المكروه . فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ، ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر فى أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالزملة والافتراء ، أو بأن لا يخالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا فى فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له . فهكذا يكون الفكر فى حيلة الاحتراز

ويتفكر فى ممه أنه يصنى به إلى النبيه ، والكذب ، وفضول الكلام ، وإلى اللهو

والبدعة ، وأن ذلك إما يسمعه من زيد وعمره ، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن النكح . فهما كان ذلك فيتفكر في بطله أنه إما يصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال ، فإن ذلك مكروه عند الله ، ومقوّر للشبهة التي هي سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام أو للشبهة ، فينظر من أين مطعمه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومكسبه ، وما مكسبه ، ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الإكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضالعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها <sup>(١)</sup> وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به

فكذلك يتفكر في أعضائه ، ففي هذا التقدر كفاية عن الاستقصاء ، فهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمرابة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها

وأما النوع الثاني : وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها ، وكيف يجزئها عن التقصان والتقصير ، أو كيف يجبر تقصانها بكثرة التوافل ، ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأعمال التي تتعلق بها بما يحبه الله تعالى ، فيقول مثلاً : إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة ، فلم لا أفعله ؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه ، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته ، فلم لا أفعله ؟ وكذلك يقول في سمه : إني قادر على استماع كلام مملوف ، أو استماع حكمة وعلم ، أو استماع قراءة وذكر ، فإني أمطّله وقد أنعم الله عليّ به . وأودعني لأشكره ، فإني أكفر نعمة الله فيه بتضييمه أو تمطيله ؟

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم ، والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح ، وبالسؤال عن أحوال الفقراء ، وإدخال السرور على قلب

( ١ ) حديث أن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام : أحمد بن حنبل في مسنده فيه مجهول وقد تقدم

زيد الصالح ، وصبرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أنصدق بالمال الفلاني ، فإن مستثن منه ومهما احتجت إليه رزقي الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أخرج مني إلى ذلك المال . وهكذا يفتش عن جميع أعضائه ، وجهلة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلما نه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر ، فيما يرغب في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله . وقس على هذا سائر الطاعات

وأما النوع الثالث : فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب . فيمر فيها بما ذكرناه في ربيع المهلكات ، وهي استيلاء الشهوة ، والغضب ، والبخل ، والكبر ، والمجب ، والرياء والحسد ، وسوء الظن ، والتفلة ، والغرور ، وغير ذلك . ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية استحقاقه ، والاستعداد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبدا تبعد بالخير من نفسها وتحلف . فإذا أذعت التواضع والبراءة من الكبر فيليني أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق ، كما كان الأولون يجرؤون به أنفسهم . وإذا أذمت الحلم تعرض انضبط يناله من غيره ، ثم يجرى بها في كظم النيط . وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ، ولذلك علامات ذكرناها في ربيع المهلكات . فإذا دلت العلامة على وجودها ففكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات هذه ، وتبين أن منشأها من الجهل والتفلة ، وخبث الدخلة . كما لو رأى في نفسه عيبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عملي يبدني وجارحتي ، وبقدري وإرادتي ، وكل ذلك ليس مني ولا إلهي ، وإنما هو من خلق الله وفضله عليّ ، فهو الذي خلقني ، وخلق جارحتي ، وخلق قدرتي وإرادتي ، وهو الذي حرك أعضائي بقدرته . وكذلك قدرتي وإرادتي ، فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ، ولا أقوم لنفسي بنفسي

فإذا أحس في نفسه بالكبر ، قرر على نفسه ما فيه من الخلة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر من الله كبير ، وذلك ينكشف بعد الموت . وكم من كافر في الحال

يموت مقر بالآله تعالى بنزوعه من الكفر، وهم من مسلم يموت شقيا بشيخ حاله عند الموت بسوء الخاتمة، فإذا عرف أن الكبر مهلك، وأن أصله الخفاة، فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يشاطي أفعال المتواضعين

وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشهره، تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة، كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه، وعن الملائكة المقربين أبعد. وكذلك يقرر على نفسه في النضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب، فمن يريد أن ينسج له طرق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات فهو التوبة، والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص والصدق في الطاعات، ومعة الله وتمظيمه، والرضا بأفعله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الرجع، وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكر المبد كل يوم في قلبه ما أتى بموزة من هذه الصفات التي هي القربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يشترها إلا علوم، وأن العلوم لا يشترها إلا أفعال

فإذا أراد أن يكنسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولا، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليمظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينميت له حال الندم وإذا أراد أن يستنير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه، وأياديه عليه، وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحتا بمضه في كتاب الشكر، فليطالع ذلك

وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتنفكر في جلال الله وجماله، وعظمته، وكبريائه، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه، كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير، وعذاب القبر، وحجابه، وعقابه، وموذيده،

ثم في هول النداء عند نفخة الصور ، ثم في هول المحشر فتدعى الخلائق على صنيده واحدة ،  
ثم في المناقشة في الحساب ، والمضايقة في التقدير والتقطير ، ثم في الصراط ودقته وحدته ،  
ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى  
اليمين فينزل دار القرار . ثم يحضر بند أحوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ،  
ومقامها وأحوالها ، وسلاسلها وأغلالها ، وزقوفها وصيدها ، وأنواع المذاب فيها ، وبيع  
صور الزبانية للوكنين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، وأنهم كلما أرادوا  
أن يخرجوا منها أعيدها فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ،  
وهلم جرا إلى جميع ماورد في القرآن من شرحها

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها ، وأشجارها وأنهارها ؛

وحورها وولدها ، ونعيمها المقيم ، وملكها الدائم

فهكذا طريق التفكير الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال عبودية ، أو التزه  
من صفات مذمومة . وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستمان به  
على تفصيل الفكر أما يذكر مجامعه فلا يوجد فيه أفق من قراءة القرآن بالتفكير ، فإنه  
جامع لجميع اللقائات والأحوال ، وفيه شفاء للعالمين ، وفيه ما يورث الخوف والرجاء ، والصبر  
والشكر ، والمحبة ، والشوق ، وسائر الأحوال ، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة .  
فينبغي أن يقرأ العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ، ولومائة  
مرة ، فقراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم . فليتوقف في التأمل فيها  
وليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ، ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر  
عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قدوة تدأوي جوامع الكلام ، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ، ولو تأملها العالم حق  
التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول ، فانظر  
إلى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحِبُّ مَنْ أَحْبَبْتَ »

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم: هدم

(٢) حديث أن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فأناك مفارقة - الحديث : هدم غير مرة ؛

كَلِمَاتِكَ مُفَكَّرَةٌ وَمِنْ مَآخِثَتِ كَلِمَاتِكَ مَيْتٌ وَأَعْمَلُ مَاخِثَتِ كَلِمَاتِكَ نَجْرِي بِهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ  
 الْكَلِمَاتِ جَامِعَةٌ حِكْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ ، وَهِيَ كَافِيَةٌ لِلتَّامِّلِينَ فِيهَا طُولَ السَّعْرِ ، إِذْ لَوْ وَقَفُوا  
 عَلَى مَعَانِيهَا وَغَلِبَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ غَلْبَةً يَقِينٍ لَاسْتَرْقَتِهِمْ ، وَلِحَالِ ذَلِكَ يَبْنُهُمْ وَبَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى  
 الدُّنْيَا بِالْكَلِيَّةِ . فَهَذَا هُوَ طَرِيقُ الْفِكْرِ فِي عُلُومِ اللَّامِلَةِ وَصِفَاتِ الْعَبْدِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَحْبُوبَةٌ  
 عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مُكَرَّوَةٌ . وَلِلْبَتْدَى يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْقِقُ الْوَقْتِ فِي هَذِهِ الْأَفْكَارِ حَتَّى  
 يَسْرُقَهُ بِالْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَقَامَاتِ الشَّرِيفَةِ ، وَيَزِدَّهُ بَاطِنُهُ وَظَاهَرُهُ عَنِ الْمَكَارِهِ ، وَلِيَعْلَمَ  
 أَنَّ هَذَا مِنْ أَفْضَلِ سَائِرِ الْمَبَادَاتِ فَلَيْسَ هُوَ غَايَةُ الْمَطْلُوبِ ، بَلِ الْمَشْغُولُ بِهِ مَحْجُوبٌ  
 عَنْ مَطْلَبِ الصَّدِيقِينَ ، وَهُوَ التَّنَمُّ بِالْفِكْرِ فِي جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَمَالِهِ ، وَاسْتَرْقَاقِ الْقَلْبِ  
 بِحَيْثُ يَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ ، أَيْ يَنْسَى نَفْسَهُ ، وَأَحْوَالَهُ ، وَمَقَامَاتِهِ ، وَصِفَاتِهِ ، فَيَكُونُ مُسْتَرْقِقُ  
 الْحَمِّ بِالْمَحْبُوبِ ، كَالْمَاشِقِ الْمُسْتَهْتَرِ عِنْدَ لِقَاءِ الْحَبِيبِ ، فَإِنَّهُ لَا يَتَفَرَّغُ لِلنَّظَرِ فِي أَجْوَالِ نَفْسِهِ  
 وَأَوْسَافِهَا ، بَلْ يَتَقَالَّبُ فِي النَّافِلِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ مُتَبَيِّ لِنَدَةِ الْعِشَاقِ

فَأَمَّا مَا ذَكَرْنَاهُ فَهُوَ تَحَكُّرٌ فِي عِمَارَةِ الْبَاطِنِ لِيَصْلَحَ لِلْقَرَبِ وَالْوَسَالِ ، فَإِذَا صَنَعَ جَمِيعَ  
 مَعْمَرِهِ فِي إِصْلَاحِ نَفْسِهِ فَتَى يَتَنَمُّ بِالْقَرَبِ ؟ وَلِذَلِكَ كَانَ الْخَوَاصُّ يَدُورُ فِي الْبُودَادِي ، فَلَقِيَهُ  
 الْحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ وَقَالَ : فِيمَ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَدُورُ فِي الْبُودَادِي أَصْلَحَ حَالِي فِي التَّوَكُّلِ . فَقَالَ  
 الْحُسَيْنُ : أَفَتَيْتَ مَعْرُكَ فِي مَعْرَانِ بَاطِنِكَ ، فَأَيْنَ الْفَنَاءُ فِي التَّوْحِيدِ ؟  
 فَالْفَنَاءُ فِي الْوَاحِدِ الْحَقِّ هُوَ غَايَةُ مَقْصِدِ الطَّالِبِينَ ، وَمُنْتَهَى نَيْمِ الصَّدِيقِينَ . وَأَمَّا التَّنَزُّهُ  
 عَنْ لَوَاصِفَاتِ الْمِلْهَكَاتِ فَيَجْرِي عِبْرَى الْخُرُوجِ عَنِ الْمَدَّةِ فِي التَّنْكَاحِ . وَأَمَّا الْإِنْصَافُ  
 بِالْصِفَاتِ لِلنَّجْمَاتِ وَسَائِرِ الطَّامَّاتِ فَيَجْرِي عِبْرَى تَهْيِئَةِ الْمَرْأَةِ جِهَازَهَا ؟ وَتَنْظِيفِهَا وَجْهَهَا  
 وَمَشْطَلِهَا شَعْرَهَا ، لِيَصْلَحَ بِذَلِكَ لِقَاءُ زَوْجِهَا . فَإِنَّ اسْتَرْقِقَتْ جَمِيعَ عَمَرِهَا فِي تَبَرُّثَةِ الرَّحِمِ  
 وَتَرْثِينَ الْوَجْهِ ، كَانَ ذَلِكَ حِجَابًا لَهَا عَنْ لِقَاءِ الْمَحْبُوبِ

فَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَقْعَمَ طَرِيقَ الدِّينِ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَجَالَسَةِ  
 وَإِنْ كُنْتَ كَالْعَبْدِ السَّوِّءِ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا خَوْفًا مِنَ الضَّرْبِ وَطَمَعًا فِي الْأَجْرَةِ ، فَدُونُكَ  
 وَإِتْمَابُ الْبَدَنِ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ ، فَإِنَّ يَنْتَكُ وَبَيْنَ الْقَلْبِ حِجَابًا كَثِيفًا ، فَإِذَا قَضَيْتَ حَقَّ  
 الْأَجْمَالِ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . وَلَكِنْ لِلْمَجَالَسَةِ أَقْوَامٌ آخَرُونَ



وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المأملة التي بين المبد وبين ربه ، فينبئ أن تتخذ ذلك عادتك ودينتك صباحا ومساء ، فلا تنفل عن نفسك وعن صفاتك البعده من الله تعالى . وأحوالك المقررة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مر يد فينبئ أن يكون له جريدة ثبتت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصي والطاعات ، ويعرض نفسه عليها كل يوم . ويكتفي من المهلكات النظر في عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ، وهي البخل ، والكبر ، والمحب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشدة الطعام ، وشدة الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : التندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة ، عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة . فمما كنني من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها ، وتزنيه قلبه عنها . ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على نحو أقل الرذائل عن نفسه . فيقبل على التسعة الباقية . وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع . وكذا يطالب نفسه بالانصاف بالمنجيات ، فإذا انصف بواحدة منها كالنوبة والتندم مثلا خط عليها ، واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشر .

وأما أكثر الناس من الممدودين من الصالحين فينبئ أن يشتوا في جرائم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالثنية ، والنميمة ، والمراء ، والنساء على النفس ، والإفراط في مادية الأعداء وموالة الأولياء ، وللداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يمد نفسه من وجوه الصالحين لا يفتك من جملة من هذه المعاصي في جوارحه . وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بمادة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يطلب عليهم نوع من المصيبة ؛ فينبئ أن يكون تقدم لها ، وتفكرم فيها لافي محاصم بمنزل فيها . مثالة العالم الورع ، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس

أو بالوعظ . ومن قبل ذلك تصدى لفتنة عظيمة ؛ لا يشجو منها إلا الصديقون . فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الومع في القلوب ، لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء ، والتزين والتصنع وذلك من المهلكات . وإن ردّ كلامه لم يخل عن غيظ وأتفه وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره . وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه ردّ الحق وأنكره . فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مفرور وضحة للشيطان . ثم مهما كان له ارتياح بالقبول ، وفرح بالثناء ، واستنكاف من الرد أو الإعراض ، لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء ، والله لا يحب المتكلفين . والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينشر الحق ، ويحسن موقفه في القلب ، إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو غدوع . وإنما يدورون حول طلب الجاه ، وهو يظن أن مطلبه الدين . ومهما لاختلاج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للوقر له المعتد لفضله أكثر احتراماً ، ويكون بقلائه أشد فرحاً واستبشاراً بمن يملأ في موالاة غيره ، وإن كان ذلك الثبر مستحقاً للموالاة ورعاً ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتأثروا بتأثير النساء فيشق على أحسدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره ، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ، ومستفيد منه في دينه

وكل ذلك وضع الصفات للمهلكات المستكنة في سر القلب ، التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مفرور فيها . وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات . فتنة العالم عظيمة ، وهو إما مالك وإما عالة ، ولا مطمع له في سلامة للعوام . فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة ، والاعتراف ، وطلب الخول ، والدافعة للفتاوى مهما سئل ، فقد كان المسجد يحوى في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى ، وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغي أن يتق شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ، فإن هذا الباب لو فتح لاندست العلوم من بين الخلق ، وليلقى لهم : إن دين الإسلام مستغن عن

فإنه قد كان ممورا قبلي ، وكذلك يكون بدي . ولو مت لم تنهم أركان الإسلام  
فإن الدين مستغن عنى . وأما أنا فلتستغنيا عن إصلاح قلبى . وأما أداء ذلك إلى  
اندراست العلم فغيايل يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حبسوا فى السجن ، وقيدوا بالقيود ،  
وتوعدوا بالنار على طلب العلم ، لكان حب الرئاسة والعلو يحملهم على كسر القيود ، وهم  
حيطان الحصون ، والغروج منها ، والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مادام الشيطان  
يحبب إلى الخلق الرئاسة ، والشيطان لا يفر عن عمله إلى يوم القيامة ، بل ينهض للنشر  
العلم أقوام لانصيب لهم فى الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>  
« إِنْ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ »<sup>(٢)</sup> « وَإِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ  
بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » . فلا ينبغي أن يمتد العالم بهذه التليسات فيشتغل بمخالطة الخلق .  
حتى يتربى فى قلبه حب الجاه والنساء والتعظيم ، فإن ذلك بذر التفاق . قال صلى الله  
عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « حُبُّ الْجَاهِ وَالْمَالِ يُنْبِتُ التَّفَاقُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ »  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « مَا ذُنْبَانِ صَارِيَانِ أَوْسَلَا فِي زُرِّيَّةٍ غَمٌّ بِأَكْثَرِ  
إِفْسَادٍ فِيهَا مِنْ حُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ »  
ولا ينقطع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس ، والمهرب من مخالطهم ، وترك  
كل ما يزيد جاهه فى قلوبهم . فليكن فكر العالم فى التنظن خلفايا هذه الصفات من قلبه ،  
وفى استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم للتي :

فأما أمثالنا فينبى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا يوم الحساب ، إذ لو رأنا  
السلف الصالحون : قالوا تعلما إن هؤلاء لا يؤمنون يوم الحساب ، فما أماننا أعمال  
من يؤمن بالجنة والنار ، فإن من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، وقد علمنا  
أن الحرب من النار يترك الشبهات . والحرام ، ويترك للمعاصي ، ونحن منهمكون فيها ،  
وأن طلب الجنة بكثير نوافل الطاعات ، ونحن مقصرون فى القرائن منها ، فلم يحصل لنا

(١) حديث أن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم : هدم .

(٢) حديث أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : هدم أيضا فى العلم

(٣) حديث حب المال والجاه ينبت التفاق فى القلب - الحديث : هدم

(٤) حديث ما ذنبان صاريان أوسلا فى زرية غم - الحديث : هدم

من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا ، والتكالب عليها ، ويقال لو كان هذا مذمومًا لمكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا ، فليتنا كُنّا كالعوام إذا متنا مات معنا ذنوبنا ، فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا ، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ، ويوقننا للتوبة قبل أن يتوفانا ، إنه الكريم اللطيف بنا ، النعم علينا

فيه مجارى أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة . فإن فرغوا منها انقطع النفاهم عن أنفسهم ، وارتقبوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته ، والتمتع بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الاتفكاك من جميع الهلكات ، والاتصاف بجميع النجيات . وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولًا مملولًا ، مكدرًا مقطوعًا ، وكان ضيقًا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالماشق الذي خلا بمشوقه ، ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى ، فتتنص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له في كمال التمتع إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه : وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات ، وهي حق ذات ومشوشات ، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات . فهذا التقدر كاف في التنبيه على مجارى فكر البعد في صفات نفسه المحبوبة والمكرهة عند ربه تعالى

النظم الثاني : الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان :

للقيام بالأعمال : الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه . وهذا مما منع منه حيث قيل : تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله . وذلك لأن المقول تحير فيه ، فلا يطبق مد البصر إليه إلا الصديقون ، ثم لا يطبقون درام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبحارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصير الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنه لا يطيقه ألبتة ، بل يختفي نهائياً ، وإن أعاد يتردد ليلًا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس ، فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطبق دوامه ، ويختفي على بصيرة لو أدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العشى ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والعشى واضطراب العقل . فالصواب إذاً أن لا يتعرض لمجارى الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر المقول لا تحتمله على التقدير اليسير للذي صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله تعالى مقدس عن السكان .

ومنزّه عن الأنظار والمجبات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالماء ولا هو  
متصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يلبثوا ساعه ومعرفة . بل ضفت  
طائفة من احتمال نقل من هذا ، إذ قيل لهم إنه يتعظم وتعالى عن أن يكون له رأس ،  
ورجل ، ويد ، وعين ، وعضو ، وأن يكون جسما متضمنا له مقدار وحجم ، فأنكروا هذا  
وعلّوا أن ذلك قدح في عظمة الله جلالة ، حتى قال بعض الحق من العوام : إن هذا وصف  
بطيخ هندي لا وصف الإله ، لظن للسكينة أن الجلالة والعلوية في هذه الأعضاء ، وهذا لأن  
الإنسان لا يعرف إلا نفسه ، فلا يستظم إلا نفسه . فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم  
المظمة فيه . نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة ، جالسا على سريره وبين يديه غلمان يتناولون  
أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم المظمة . بل لو كان  
للذباب عقل وقيل له ليس خالقك جناحان ، ولا يد ، ولا رجل ، ولا له طيران لأنكر ذلك  
وقال : كيف يكون خالقي أقص مني ! أف يكون مقصوص الجناح ، أو يكون زنا لا يتدر  
على الطيران ، أو يكون في آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصورى  
وعقول أكثر الخلق قريب من هذا القيل ، وإن الإنسان لجوهر ظالم كفار ، ولذلك  
أوجب الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تعبد عبادى بسفاتي فيكرونى ، ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون  
ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه ، اقتضى أدبه الشرع  
وصلاح الخلق أن لا يمرض لجارى الفكر فيه . لكننا تدلل إلى المقام الثانى ، وهو النظر  
في أفعاله ، وعجائز قدره ، وعجائب صنعه ، وبديع أمره في خلقه ، فإنها تدل على جلالة  
وكبريائه ، وتقدمه وتعالى ، وتدلل على كمال علمه وحكمته ، وعلى نقاذ مشيئته وقدرته فينظر  
إلى صفاته من آثار صفاته . فإننا لا نطبق النظر إلى صفاته ، كما أننا نطبق النظر إلى الأرض  
مهما استنارت بنور الشمس ، ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر  
وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر في الآثار يدل على  
المؤثر دلالة ما ، وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر  
من آثار قدرة الله تعالى ، ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلة أشد من العدم ، ولا نور أشهر  
من الوجود ، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس ، إذ قوام وجود الأشياء

بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس الضئيلة بنفسها . ومهما انكشف  
معض الشمس فقد جرت المادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ، ويمكن النظر  
إليها ، فيكون للماء واسطة ينض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك  
الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا ينهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال  
فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم : **تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى** .

## بيان

كيفية التفكير في خلق الله تعالى

اعلم أن كل مافي الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقته . وكل ذرة من الذرات  
من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمته وقدرته ،  
وجلاله وعظمته . وإحصاء ذلك غير ممكن ، لأنه لو كان البحر مدادا لتلك لفند البحر قبل  
أن ينفد عشر شبيرة ، ولكننا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالتلأل لما عدها فنقول :

الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها ، وكم من  
الموجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى ( **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** <sup>(١)</sup> ) ( **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ  
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** <sup>(٢)</sup> ) وقال  
( **وَنُنشِئُكُمْ فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ** <sup>(٣)</sup> ) وإلى ما يعرف أصلها وجلتها ولا يعرف تفصيلها ، فجعلنا  
أن نتفكر في تفصيلها . وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر  
لما التي لا ندركه بالبصر فكالملائكة ، والجن ، والشياطين ، والعرش ، والكرسی ،  
وغير ذلك ، وعمال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق وينفض ، فلننبدل إلى الأقرب إلى الأنفام  
وهي المدركات بحس البصر ، وذلك هو السموات السبع ، والأرض ، وما بينهما . فالسموات  
مشاهدة بكونها ، وشمسها ، وقرها ، وحركتها ، ودوراتها في طلوعها وغروبها .  
والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ، ومماتها ، وأنهارها ، وبحارها ، وحيوانها ، ونباتها .  
وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بشيئها ، وأمطارها ، وتليجها ، وورعدها ، وبرقها ،

وصواعقها، وشهبها، ووصاف رياحها. فلهذه هي الأجناس المتشعبة من السموات والأرض وما بينهما. وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف، ولانهاية لانشعاب ذلك واتساعه في اختلاف صفاته وحياته وشمائه الظاهرة والباطنة. وجميع ذلك مجال الفكر فلا تحرك ذرة في السموات والأرض من جماد، ولا نبات، ولا حيوان، ولا فلك، ولا كوكب، إلا والله تعالى هو محركها، وفي حركتها حكمة، أو حكمتان، أو عشر، أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية، ودال على جلالة وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه

وقد ورد القردان بالحث على التفكير في هذه الآيات، كما قال الله تعالى (إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ<sup>(١)</sup>) وكما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ<sup>(٢)</sup>) من أول القردان إلى آخره، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات

فمن آياته الإنسان المخلوق من الطينة. وأقرب شيء إليك نفسك، وفليك من المعجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضى الأعمار في الوقوف على عشر عشرة، وأنت غافل عنه فيما من هو غافل عن نفسه وجاهل بها، كيف تطمع في معرفة فيرك أو قد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ<sup>(٣)</sup>) وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال (قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ<sup>(٤)</sup>) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ<sup>(٥)</sup>) وقال تعالى (أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَتْنٍ يَمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى<sup>(٦)</sup>) وقال تعالى (أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَاءٍ مَبِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَقْلُومٍ<sup>(٧)</sup>) وقال (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ<sup>(٨)</sup>) وقال (وَأَنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَشْجَاعٍ<sup>(٩)</sup>) ثم ذكر كيف جعل النطفة علقه، والعلقة مضمة، والمضنة مضطماً فقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

(١) آل عمران : ١٩٠ (٢) الروم : ٢٥ (٣) القاريات : ٢١ (٤) ميس : ١٧ - ٢٢ (٥) الروم : ٢٠

(٦) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ (٧) للرسالات : ٢٠ - ٢٢ (٨) يس : ٣٧ (٩) الدهر : ٢

فِي قَرَارِ مَيْكِينَ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً <sup>(١)</sup> ( الآيَة

فذكر في ذكر النطفة في الكتاب المبرز ليس ليسم لفظه ويترك للتفكر في معناه .  
فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة ، لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت  
وأنتنت ، كيف أخر جدارب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى  
وأنتى الألفة والمحبة في فلوبهم ، وكيف قادم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف  
استخرج النطفة من الرجل بحركة الواقع وكيف استجلب دم الحيض من أمحاق العروق  
وجمه في الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة ، وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا  
وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي يضاء مشرفة علقه حمراء ، ثم كيف جعلها مضفة ، ثم كيف  
قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام ، والأعصاب ، والعروق ، والأوتار  
واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم ، والأعصاب ، والعروق الأعضاء الظاهرة ، فدور  
الرأس ، وشق السمع ، والبصر ، والأنف ، والفم وسائر المنافذ ، ثم مفايد الرجل وقسم  
رؤسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب ،  
والمعدة ، والكبد ، والطحال ، والرئة ، والرحم ، والمثانة ، والأمعاء ، كل واحد على شكل  
مخصوص ومقدار مخصوص لئلا يخلو من كل عضو من هذه الأعضاء  
بأقسام أخر ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة  
لوقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تطلت الدين عن الإبصار . فلو ذهبنا إلى  
أن نصف ما في أحاد هذه الأعضاء من المجائب والآيات لا تقضى فيه الأعمار ، فانظر الآن  
إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيقة رقيقة ، ثم جعلها قواما  
للبدن ومعادله ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة ، فنه صغير ، وكبير ، وطويل ،  
ومستدير ، ومجوف ، ومصمت ، وعريض ، ودقيق

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة يجملة بدنه ويمض أعضاءه ، فمقترا للتردد في  
حاجاته ، لم يحمل عظمه عظما واحدا ، بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة  
وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها ، وربط بعضها ببعض



بأوتار أنبتها من أحد طرفي المظلم ، وألصقه بالمظلم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي المظلم زوائد خارجة منه ، وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار المبدأ إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه . ولولا المفاصل لتمذر عليه ذلك . ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور ، فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه ، فنهاسته نخع التحف ، وأربعة عشر للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلع للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع ، وهي الأنياب والأضراس ، والثنايا . ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ، وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريكات وزيادات وتقصات لينطبق بعضها على بعض ، ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ، ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم المحز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم المعجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم المعصص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ، ثم وصل عظام الظهر بمظام الصدر ، وعظام الكتف ، وعظام اليدين وعظام المانة ، وعظام المعجز ، وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا تطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد المظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى المظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نقطة مخيفة رقيقة . وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، وإنما النرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ومدبرها ، وخالف بين أشكالها وأقمارها ، وخصصها بهذا العدد الخصوص ، لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلمه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره . فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها . وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها . فشتان بين النظرين ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك المظام وهي المضلات ، فخلق في بدن

الإنسان خمسة عشرة عضلة ، وتسعة عشر من عضلة ، والعضلة مركبة من لحم ، وعصب ، ورباط وأعشية ، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجتها ، فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدة العين وأجفانها ، لو نقصت واحدة من جهتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بمدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الأعصاب ، والموثق ، والأوردة ، والشرايين ، وعددها ، ومنازلها ، وانشعاباتها أصعب من هذا كله ، وشرحه يطول ، فلنذكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في آحاد هذه الأعضاء ، ثم في جملة البدن

فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن . وعجائب الماني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم . فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، وإلى بدنه وصفاته ، فترى به من العجائب والصفة ما يقضي به العجب : وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قليلة . فترى من هذا صنعه في قطرة ماء ، فاصنعه في ملكوت السموات وكواكبها ؟ وما حكمت في أوضاعها ، وأشكالها ، ومقاديرها ، وأعدادها ، واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها ، وتفاوت مشارفها ومنازلها ؟ فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هي أحكم خلقا ، وأتقن صنعا ، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات . ولذلك قال تعالى : ( أَلَيْسَ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءَ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ رِجْلَيْهَا وَأَخْرَجَ صُحَاهَا )

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا ، وما صارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع المني والإنس على أن يخلقوا للنطفة سحما ، أو بصرا ، أو عقلا ، أو قدرة ، أو علما ، أو روحا أو يخلقوا فيها عظاما ، أو عرقا ، أو عسبا ، أو جلدا ، أو شعرا ، هل يقدر على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته ، وكيفية خلقته بمد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالمعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأتق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان ، وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ، عظيم تمجيدك

من صفة النقاش وحذقه ، وخفة يده ، ونعم فطته ، وعظم في قلبك عمله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصنيع ، والقلم ، واليد ، والحائط ، والقدرة ، والعلم ، والإرادة ، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه ، بل هو من خلق غيره ، وإنما انتهى فعله الجمع بين الصنيع والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تمجيدك منه وتستعظمه ، وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة ، فخلقها خالقها في الأصلاب والثرائب . ثم أغرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسم أجزاعها للتشابة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم المظام في أرجائها ، وحسن أشكال أعضائها ، وزين ظاهرها وباطنها ، ورتب عروقها وأغصانها ، وجعلها يجري لنفاتها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها مهيمة ، بصيرة ، عالية ، ناطقة ، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها ، والبطن حاوياً لآلات نفاتها ، والرأس جامعاً لحواسها

فتفتح العينين ورتب طبقتيها ، وأحسن شكلها ولونها وهياكلها ، ثم حمأها بالأغذية لتسترها وتحفظها ، وتصفها ، وتدفع الأذى عنها ، ثم أظهر في مقدار علة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعه أطوارها ، فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ملاء مرآة ليحفظ سمعها ، ويدفع الهواء عنها ، وحوطها بصدفة فلاذنت لتجميع الصوت فترده إلى صياخها ، وتحتس يدبب الهواء إليها ، وجعل فيها تحريفات وأهواجاً لتكثر حركة ما يدبب فيها ، ويطول طريقه ، فينبه من النوم صاحبها إذا فصبها دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه ، وأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعها وأغذيتها ، وليستشقى بمنفذ للبخير روح الهواء ، فغذاً لقلبه ، وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجاءنا وممرها في القلب ، وزين الفم بالأستاذ لتكون آلة الطحن والكسر والقطع ، فأحكم أصولها ، وحدد رؤسها ، وبيض لونها ، ورتب صفوفها ، متساوية الرؤوس ، متناسقة الترتيب كأنها اليد للنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتتطبق على الفم فتسد منفذه ، وليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهياًها لخروج الصوت ، وخلق لساناً لدعوة الحركات

والنقطيمات ، لنقطع الصوت في مخارج غنطفة نختلف بها الحروف ، ليتع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، وصلاية الجوهر ورخاوته ، والطول ، والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ،

ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب بركة الشعر واستقواس الشكل ، وزين العينين بالأهداب

ثم خلق الأعضاء الباطنة ، وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لتضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة واليكنية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها بمحذب السوداء عنها ، والمرارة تخدمها بمحذب الصفراء عنها ، واليكنية تخدمها بمحذب المائية عنها ، والثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه في طريق الإحليل ، والمروء تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن

ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرض الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع ، وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد ، وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضما غير عام كانت مفرقة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرقة له ؛ ثم خالق الأنظار على رؤسها زينة للأنامل ؛ وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة . فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عديمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم . ولم يعم أحد مقامه في حك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استمان بنيره لم يصتر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، واو كنف  
الغطاء والفضاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ،  
ولا يرى المصور ولا آله ، فهل رأيت مصوراً أو فعلاً لا يس آتاه ومسنوعه ولا يلاقيه ،  
وهو يتصرف فيه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته ، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر ،  
كيف هداه السبل حتى تنكس ، ونحرك ، وخرج من ذلك المضيق ، وطلب الغذاء كأنه  
عائل بصير بما يحتاج إليه ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التئام الثدي ،  
ثم لما كان بدنه ضعيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف ،  
واستخرجه من بين الفرت والدم سائناً خالصاً ، وكيف خلق الثديين وجع فيهما اللبن  
وأثبت منهما حلتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً  
ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بمد المص تدريجاً فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل  
ثم كيف هداه للإمتصاص حتى يستخرج من ذلك للمضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع  
ثم أنظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه  
في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن الضعيف  
ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن ، فأثبت له الأسنان عند  
الحاجة لأقبلها ولا يمدّها ، فسبحانه كيف أخرج تلك النظام الصلبة في تلك اللينة  
ثم حنّ قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه  
فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه

ثم انظر كيف رزقه القدرة ، والتمييز ، والمقل ، والهداية تدريجاً حتى بلغ تكاملاً  
فصار صراحاً ، ثم شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، إما كفوراً أو شكوراً ، مطبياً أو ماصياً  
مؤمناً أو كافراً ، تصديراً لقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ  
شَيْئاً مِّدْ كُوراً) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً  
إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً<sup>(١)</sup> فانظر إلى اللطف والكرم ، ثم إلى

### القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية

والعجب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا، أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع هم إلى التفكير في النقاش والخطاط، وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اتدبر عليه، ولا يزال يستظمه في نفسه ويقول ما أحذقه، وما أكل صنفته وأحسن قدرته. ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره، ثم ينفل عن جانبه ومصوره، فلا تدعشه عظمتها، ولا يحيره جلاله وحكمته. فهذه نبذة من عجائب بدك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك، وأجلى شاهد على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك، مشغول بيطنك وفرجك، لا تبرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصة الإنسان التي حجبت البهائم عنها بمعرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل المبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم، فإنه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة للبييمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها، وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك، ثم في أنهارها، وبحارها، وجبالها، ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات

أما الأرض فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا، وسلك فيها سبلا فجاجا، وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارة لا تحرك، وأرسى فيها الجبال أو تادها تمنعها من أن تجرد، ثم وسع أكنافها حتى يحجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى (وَاللَّهُ يَبْدُوْنَاهَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِيُونَ وَالْأَرْضُ قَرْنُ شَاكَا قَنِيمَ الْمَاهِدُونَ<sup>(١)</sup>) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا<sup>(٣)</sup>)

(١) البقرة: ٤٧، ٤٨ (٢) الملك: ١٥ (٣) البقرة: ٢٢

وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبا . فظهرها مقسرة  
للأحياء، وبطنها مرقدة للأموات قال تعالى ( أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا <sup>(١)</sup> )  
فانظر إلى الأرض وهي ميتة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ، واخضرت وأنبئت  
عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ الصم الصلاب ،  
وكيف أودع المياه تحتها ، فقجر الينون وأسأل الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من  
الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا ، عذبا ، صافيا ، زلالا ، وجعل به كل شيء  
حي ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات ، من حب ، وعنب ، وقضب ، وزيتون ، ونخل  
ورمان ، وفواكه كثيرة لا تحصى ، مختلفة الأشكال ، والألوان ، والطعوم ، والصفات ،  
والأرايس ، يفضل بعضها على بعض في الأكل ، تسقي بماء واحد ، وتخرج من أرض واحدة  
فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ، فتي كان في النواة غلبة مطوقة بتناقيد

الرطب ؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ؟

ثم انظر إلى أرض البوادي وقش ظاهرها وباطنها ، فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنزل  
عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ، ألوانا مختلفة ، ونباتا متشابها وغير  
متشابه ، لسكل واحد طعم ، وريح ، ولون ، وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها  
واختلاف أصنافها ، وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعها ، وكيف  
أودع الله تعالى المقابير المنافع الغريبة ، فهذا النبات ينذى ، وهذا يقوى ، وهذا يحى ،  
وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المدة قع الصفراء من أعماق  
العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يقمع البلمم والسوداء ، وهذا يستحيل إليها  
وهذا يصنى الدم ، وهذا يستحيل دما ، وهذا يفرح ، وهذا ينوم ، وهذا يقوى ، وهذا  
يضعف ، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف  
على كلها ، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ، فالنخل  
تؤمر ، والكرم يكسح ، والزرع ينقى منه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت بيت

البذر في الأرض ، وبعضه بفرس الأعصان ، وبعضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر  
 اختلاف أجناس النبات ، وأنواعه ، ومتافهه ، وأحواله وعجائبه ، لا تقضت الأيام في وصف  
 ذلك ، فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات  
 ' ' ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض في الأرض  
 قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب  
 والفضة ، والفيروز ، واللؤلؤ وغيرها ، بعضها منطبقة تحت المطارق كالذهب ، والفضة ،  
 والنحاس ، والرصاص ، والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالفيروز واللؤلؤ ، وكيف هدى الله  
 الناس إلى استخراجها وتفتيتها ، واتخاذ الأواني والآلات والتقود والحلي منها

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط ، والكبريت ، والقطر ، وغيرها ، وأقلها الملح  
 ولا يحتاج إليه إلا لتطيبب الطعام ، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ، فانظر إلى  
 رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بمجهرها ، بحيث يجتمع فيها الماء الضافي  
 من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطيببا  
 لعلماك إذا أكلته فيتنأ عيشك

وما من جاد ، ولا حيوان ، ولا نبات ، إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ، ما خلق  
 شيء منها عبثا ، ولا لعبا ، ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي ، وعلى الوجه الذي  
 ينبغي ، وكما يليق بحلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
 وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ ) (١)

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى ، وانقسام ما يمشى  
 إلى ما يمشى على رجلين ، وإلى ما يمشى على أربع ، وعلى عشر وعلى مائة ، كما يشاهد في بعض  
 الحشرات ، ثم انقسامها في النافع ، والصور ، والأشكال ، والأخلاق ، والطباع ، فانظر  
 إلى طيور الجو ، وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ، ترى فيها من العجائب ما لا تشك  
 معه في عظمة خالقها ، وقدره ، ومقدرها ، وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستغنى ذلك ؟  
 بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقعة ، أو النحلة ، أو الضفدع ، أو الضفدع ، وهي من سفار الحيوانات



في بنائها بيتها ، وفي جمعها غنماها ، وفي إلفها زوجها ، وفي ادخارها لنفسها وفي حذنها  
في هندسة بيتها ، وفي هدايتها إلى حاجتها لم تقدر على ذلك

فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر ، فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما  
فرجة بمقدار ذراع فسادونه ، حتى يمكنه أن يصل بالغيط بين طرفيه ، ثم يبتدئ ويلقي  
الغالب الذي هو خيطه على جانب ليتصق به ، ثم يندو إلى الجانب الآخر فيحك الطرف  
الآخر من الغيط ، ثم كذلك يردد ثانيا وثالثا ، ويحمل بمد ما بينهما متناسبا تناسب هندسيا ، حتى  
إذا أحكم معاقده القمط ، ورتب الغيوط كالسدى ، اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى  
ويضيف بعضه إلى بعض ، ويحكم المقد على موضع لتقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى في جميع  
ذلك تناسب الهندسة ، ويحمل ذلك شبكة يقع فيها البق والقباب ، ويقعد في زاوية مترصدا  
لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع الصيد يدير إلى أخذه وأكله ، فإن عجز عن الصيد  
كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ، ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم ملق نفسه  
فيها بخيط آخر ، وبقي منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليه  
فأخذه ، ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى . أفترى أنه تعلم  
هذه الصنعة من نفسه ؟ أو تكون بنفسه ؟ أو يكونه آدمي أو طير ؟ أولاهاذي له ولا تعلم ؟  
أفبشك ذو بصيرة في أنه مسكين ، ضعيف ، عاجز ، بل القليل ، العظيم شخصه ، الظاهرة  
قوته ، عاجز عن أمر نفسه ، فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله ،  
وصورته ، وحر كته ، وهدايته ، وعجائب صنفته لظاهرة الحكيم ، وخالفه القادر العليم ؟  
فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق اللدبر ، وجلاله ، وكمال قدرته  
وحكمته ما تتعبر فيه الألباب والعقول فضلا من سائر الحيوانات

وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات ، وأشكالها ، وأغلاها ، وطباعها غير  
محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسا بكثرة للشاهد . نعم إذا رأى حيوانا  
غريبا ولو دودا تجدد تعجبه ، وقال سبحان الله ما أعجب ، والإنسان أعجب الحيوانات

وليس يشجب من نفسه . بل لو نظر إلى الأنعام التي ألها ، ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافها وفوائدها من جلودها ، وأصوافها ، وأوبارها ، وأشمارها ، التي جعلها الله لباسا خلقه ، وأكنا لحم في ظلمهم وإقامتهم ، وآنية لأشربتهم ، وأوعية لأغذيتهم ، وصوانا لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب ، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للوادي والمفازل البعيدة ، لا كثر الناظر التمجيد من حكمة خالقها وصورها ، فإنه ما خلقها إلا يعلم محيط بجميع منافها ، سابق على خلقه إياها ، فسبحان من الأمور مكتشفة في علمه من غير تفكير ، ومن غير تأمل وتدبر ، ومن غير استمارة بوزير أو مشير ، فهو العليم الخبير ، الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل التقليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب المارفين بتوحيده ، فالخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته ، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أتى على نفسه . وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى أن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم ، وبقيّة الأرض مستورة بالماء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> 'الأرض في أثير كالإسطبل في الأرض' ، فانسب اصطبلًا إلى جميع الأرض واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله . وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها ، فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سمته أضعاف سمّة الأرض

ولطمم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل الركاب عليها ، فرما تحس بالتيار إذا اشتملت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس . أو طير ، أو بقر ، أو إنسان ، إلا وفي البحر أمثاله وأضافه وفيه أجناس لا يسهل لها نظير في البر ، وقد ذكرت أوصافها

(١) حيث الأرض في البحر كالإسطبل في الأرض: هتمول وأجده

في مجلدات ، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه  
ثم أنظر كيف خلق الله اللؤلؤ وذوره في صدفة تحت الماء ، وأنظر كيف أنبت المرجان  
من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر  
ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفاس التي يقذفها البحر وتستخرج منه  
ثم أنظر إلى عجائب السفن كيف أسكنها الله تعالى على وجه الماء ، وسير فيها التجار  
وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أبقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق  
السفن ، ثم عرف للملاحين موارد الرياح ، ومهابها ومواقيتها  
ولا يستقصي على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات . وأعجب من ذلك  
كله ما هو أظهر من كل ظاهر ، وهو كيفية قطرة الماء ، وهو جسم رقيق ، لطيف ، سيال  
مشف ، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب ، سريع القبول للتطبيع كأنه  
منفصل ، مسخر للتصرف ، قابل للاتصال والانصال ، به حياة كل ما على وجه الأرض  
من حيوان ونبات ، فلو احتاج البعد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض  
وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك . ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن  
الأرض وملك الدنيا في إخراجها . فالحجب من الآدمي كيف يستظم الدينار والدرم  
ونفائس الجواهر ، وينفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستغراف  
عنها بذل جميع الدنيا فيها . فتأمل في عجائب المياه والأنهار ، والآبار والبحار ، قريبا  
متسع للفكر ومجال : وكل ذلك شواهد متظاهرة ، وآيات متناصرة ، ناطقة بلسان  
حالها ، مفضحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال حكته فيها ، منادية أرباب القلوب  
بنمليها ، قائلة لكل ذي لب أما تراني وترى صورتي ، وتركبي ، وصفاتي ، ومنافعي ،  
واختلاف حالاتي ، وكثرة فوائدِي ؟ أنظن أني كُوت نفسي ! أو خلقتني أحد من جنسي ؟  
أو ما تسبحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتقطع بأنما من صنعة آدمي  
عالم ، قادر ، صريد ، متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب المخطوط الإلهية المرقومة على صفحات  
وجوبي ، بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ، ثم  
ينفك قلبك عن جلالة صانعه ؟

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب ، لا للذين هم عن السمع مزولون ، توهمني في ظلة الأحشاء منموسة في دم الحيض ، في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حداثي ، وأجفاني وجبتي ، وخدي ، وشفتي ، قري الثقبوس يظهر شينا فشيئا على التدريج ، ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجها ، ولا خبر منها للام ، ولا للاب ، ولا للنطفة ، ولا للرحم ، أفأهذا النقاش بأجيب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة ، فونظرت إليها مرة أو مرتين لعلته ؟ فهل تقدر على أن تتلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يسم ظاهر النطفة ، وباطنها ، وجميع أجزائها ، من غير ملازمة للنطفة ، ومن غير اتصال بها لامن داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تمعجب من هذه العجائب ، ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظيره ، ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ، فبين الفاعلين من المباشرة والتباعد ما بين الفعلين ، فإن كنت لا تمعجب من هذا فتمعجب من عدم تعجبك ، فإنه أعجب من كل صعب ، فإن الذي أمي بصيرتك مع هذا الوضوح ، ومنك من التبين مع هذا اليان ، جدير بأن تمعجب منه : فسبحان من هدى وأضل ، وأغوى وأرشد ، وأشقى وأسعد ، وفتح بصائر أحيائه فشاهده في جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بمنزه وعلائه ؛ فله الخلق والأمر ، والامتنان والفضل ، والالطف والقهر ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقر السماء ومعدب الأرض ، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه ؛ وجمته مثل البحر الواحد ، والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة في سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر . فإذا حرك الله الهواء وجمله ريحا هابة ، فإن شاء جملة بشرا بين يدي رحمته ، كما قال سبحانه ( وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ<sup>(١)</sup> ) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات ، فتستمد للنماء ، وإن شاء جملة صفايا على المصاة من خلقته ، كما قال تعالى

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْمِسُ مُمْسِكٍ تَنْزِعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ تَخْلِ مُنْفِعٍ<sup>(١)</sup>) ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء، فالزرق المنفوخ يتعامل عليه الرجل القوي لينفسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضه على وجه الماء فيرسب فيه. فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل عيوف فيه هواء لا ينوص في الماء لأن الهواء ينقبض عن النوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيتملق بذيل رجل قوي متمتع عن الهوي في البشر. فالسفينة بعمقها تنشب بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والنوص في الماء. فسبحان من خلق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد، وعقدة تشد

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من النجوم، والعود والبرق، والأمطار، والثلوج، والشهب، والصواعق، فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بَرَكَةً<sup>(٢)</sup>) وهذا هو الذي بينهما، وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى: (وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ<sup>(٣)</sup>) وحيث تعرض للعد، والبرق، والسحاب، والمطر؛ فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك، وتسمع الرعد بأذنك، فالهيمية تشاركك في هذه المعرفة. فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى. فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فقبض عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها

وهذا أيضا باب يطول التفكر فيه، إذ لا مطلق في استقصائه، فتأمل السحاب الكثيف اللظلم كيف تراه يجمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل، ويمسك له في جو السماء، إلى أن يأذن الله في إرسال الماء، وتقطع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراد الله تعالى،

وعلى الشكل الذى شاهه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ، ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ، ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذى رسم لها لا تميل عنه ، فلا يتقدم المتأخر ، ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصبب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة ، أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة ، أو قرية واحدة ، لمجز حساب الجن والإنس عن ذلك . فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ، ولكل حيوان فيها من طير ، ووحش ، وجميع الحشرات ، والدواب ، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية ، التى في ناحية الجبل الفلاني ، تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني . هذا مع ما في انقصاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من المجائب التى لا تحصى

كل ذلك فضل من الجبار القادر ، وقهر من الخلاق القاهر ، مالأحد من المخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للغيان الجاحدين إلا الجبل بكيفيته ، ورجم الظنون بذكر سببه وعلمه . فيقول الجاهل للزور : إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه ، وإنما هذا سبب نزوله . ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ، ويفرح بها . ولو قيل له مامعنى الطبع ؟ وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا ، بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق ، فيمضى كل جزء من كل ورقة ، ويمرر إليها في تجاويف عروق شجرية صفار ، يروى منه الرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صفار ، فكان الكبير نهر ، وما انتشعب عنه جداول ، ثم ينتشعب من الجداول سواك أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تبسط في جميع مرض الورقة ، فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة لينفذها وينسجها ، وينسجها ، وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه .

فإن كان الماء يتحرك بطبيعته إلى أسفل ، فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك يجذب الجاذب  
 فالذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض ،  
 وجبار الملك والملوك ، فلم لا يحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية المائل  
 ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله  
 ومن أدرك الشكل وقاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا . فالأرض ، والبحار ،  
 والهواء ، وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات فطرة في بحر وأصغر . ثم  
 انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه ، فما من سورة إلا وتشتمل على  
 تفصيها في مواضع . وكمن قسم في القرآن بها ، كقوله تعالى ( وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ <sup>(١)</sup> )  
 ( وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ <sup>(٢)</sup> ) ( وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ <sup>(٣)</sup> ) ( وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا <sup>(٤)</sup> ) وكقوله  
 تعالى ( وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا <sup>(٥)</sup> ) ( وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَافَا <sup>(٦)</sup> ) ( وَاللَّيْلُ إِذَا تَلَافَا <sup>(٧)</sup> ) ( وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ <sup>(٨)</sup> ) ( فَلَا أُفْسِدُ بِالنَّفْسِ  
 الْجَوَارِ الْكُنَّسِ <sup>(٩)</sup> ) وقوله تعالى ( وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ <sup>(١٠)</sup> ) ( فَلَا أُفْسِدُ بِالنَّفْسِ الْجَوَارِ  
 الْكُنَّسِ <sup>(١١)</sup> ) ( قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ عَجَابِ النَّطْفَةِ الْقَذْرَةِ هَبْزٌ مِنْ مَعْرِضِهَا  
 الْأُولَى وَالْآخِرُونَ ، وما أفسم الله بها ، فذاظنك بما أفسم الله تعالى به ، وأحال الأرزاق  
 عليه ، وأضافها إليه ، فقال تعالى ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ <sup>(١٢)</sup> ) وأتى على  
 للتفكيرين فيه فقال ( وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ <sup>(١٣)</sup> )

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١٤)</sup> : « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَتَعَ بِهَا  
 مَبْتَلَهُ » أي تجاوزها من غير فكر . ودم المرصنين عنها فقال ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا  
 مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ <sup>(١٥)</sup> )

فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء ، وهي متغيرات على القرب والسموات  
 صلاب شداد ، محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله . ولذلك سماه الله تعالى محفوظا

( ١ ) حديث يدل أن قرأ هذه الآية ثم مسح بها بكت أي فوله تعالى - ويذكرون في خلق  
 السموات والأرض - فهدم

(١) البروج : ١ (٢) الطارق : ١ (٣) هاريت : ٧ (٤) الشمس : ٥ (٥) الشمس : ١٠

(٦) النجوم : ١٥ (٧) النجم : ١ (٨) الواقعة : ٧٥ (٩) هاريت : ٢٢ (١٠) آل عمران : ١٩١

(١١) الأنبياء : ٣٧

فقال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا نَحْنُوفًا<sup>(١)</sup>) وقال سبحانه (وَبَلَّغْنَا قَوَمَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا<sup>(٢)</sup>) وقال (أَلَيْسَتْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا فَنَفَعَتْ تَحْتُهَا فُتُورًا<sup>(٣)</sup>) .

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ، ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تعد البصر إليه ، فتري ذرة السماء وضوء الكواكب وتفرقها ، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد ، فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله (وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ<sup>(٤)</sup>) لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر ، فالترمان يعبر عنه بالملك والشهادة . وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالنيب والملكوت . والله تعالى عالم النيب والشهادة ، وجبار الملك للملكوت ، ولا يحيط أحد بشيء من علمه

إلا بما شاء ، وهو عالم النيب فلا يظهر على شيء أحدًا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها المائل فكرك في الملكوت ، ففسى بفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فتند ذلك ربعا يرجي لك أن تبلغ رتبة صر من الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجازة الأدنى . ولأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التي هي مقرك ، ثم قهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيدوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حلة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش ، والكرسي والسموات ، والأرض ، وما بينهما . فينك وبين هذه للفاوز العظيمة ، والمسافات الشاسعة والمقبات الشامخة ، وأنت بعد لم تفرغ من المقبة القريبة النازلة ، وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان برواحتك ، وتدعى معرفة ربك ، وتقول قد عرفته وعرفت خلقه قريبا ذا تفكير ، وإلى ماذا أطلع ؟

فأرفع الآن رأسك إلى السماء ، وانظر فيها وفي كواكبها ، وفي دوراتها ، وطلوعها ، وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومنازلها ، ودورها في الحركة على الدوام من غير قهر في حركتها ، ومن غير تقييد في سيرها ، بل تجري جيا في منازل مرتبة



بحساب مقدر . لا يزيد ولا ينقص ، إلى أن يطوبها الله تعالى على السجل للكتاب . وتدير عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها ، فبعضها يتيل إلى الحررة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللون الرماسي . ثم انظر كيفية أشكالها ، فبعضها على صورة القرب ، وبعضها على صورة الحمل ، والثور ، والأسد ، والإنسان ، وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ، ثم هي تطام في كل يوم وتغرب بسير آخر سفرها له خالقها ، ولولا طالعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولم تعرف المواقيت ، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت للمأش عن وقت الاستراحة ، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا ، والنوم سباتا ، والنهار ماعاشا . وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار ، والنهار في الليل ، وإدخاله الزيادة والتقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالاته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف ، والشتاء ، والربيع ، والخريف ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد التقيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا مطلق في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر . واعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ، ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ، ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التي يجنبه وبعده ، وليس على ذلك ما ذكرناه من أمضاء بذلك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة . وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء ، لافي كبر جسم ، ولا في كثرة معانيه . وليس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض ، فأنتم تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بمحاورها ، وقد اتفق النظارون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة <sup>(١)</sup> وفي الأخبار ما يدل على عظمها . ثم الكواكب التي تراها أسفرها مثل الأرض

(١) الحديث الدال على عظم الشمس : أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال في ثمر الله الحامية فولا ماتزعا من أمر الله لأهلك ما على الأرض ولطيفني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس لمة لعلك يرونها بالليل كل يوم

تأخى مرات ، وأكبرها ينتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض ، وبهذا تعرف ارتفاعها وبمدها ، إذ للبعد صارت ترى صفارا . ولذلك أشار الله تعالى إلى بدها فقال ( رَفَعَ سَكَنَهَا فَسَوَّاهَا <sup>(١)</sup> ) وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضمافا ، فانظر إلى كثرة الكواكب ، ثم انظر إلى السماء التى الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لائحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لاتشك أنها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير ، وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة . وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه

وانظر كيف عبر <sup>(٢)</sup> جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هَلْ زَالَتْ الشَّمْسُ ؟ » فقال : لا نعم . فقال : كَيْفَ تَقُولُ لَا نَعَمْ ، فقال : من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام . فانظر إلى عظم شخصها ، ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكفافها فى حدة العين مع صفرها ، حتى تجلس على الأرض وتفتح عينك نحوها فتزى جميعا

فهذه السماء بظلمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها ، بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ، ومن غير علاقة من فوقها ، وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه ، فالصعب منك أنك تدخل بيت غني قتراف مزوفا بالصين ، مموها بالذهب ، فلا ينقطع تسميح منه ، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ، وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه ، وإلى سقفه وإلى هوائه ، وإلى عجائب أمتعه ، وغرائب

لولا ذلك ماأنت على شيء الأخرقة

( ١ ) حديث بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام : اترمذى من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال وروى عن أيوب ويونس بن عبيد وطى بن زيد قالوا ولمسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ فى المظنة من رواية أبي نصر عن أبي ذر ورواه قتات الأانه لا يعرف لأبي نصر سماع من أبي ذر

( ٢ ) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام : لمأجد له أصلا

حيواناته ، ويدافع قومه ، ثم لا تتحدث فيه ، ولا تلتفت بقلبك إليه ، فها هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه ، بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التى هي أغس أجزاء هذا البيت ، ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلا أنه بيت ربك ، هو الذى انقرد بينائه وترتيبه ، وأنت قد نسيت نفسك ، ووبك ، وبيت ربك ، واشتغلت بطنك وفرجك ، ليس لك م إلا شهوتك أو حشمتك ، وغاية شهوتك أن تغلا بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة ، فتكون البهيمة فوقك بشعر درجات ، وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أومائة من معارفك فيناقون بالسهم بين يديك ، ويضربون خباثت الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم لراك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا التورور ، وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك ، وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل الخلة تخرج من جحرها الذى حفره فى قصر مشيد من قصور الملك ، رفيع البنيان ، حصين الأركان ، مزين بالجواري والنلمان ، وأنواع الدخائر والنفائس ، فلها إذا خرجت من جحرها ، ولقيت صاحبها ، لم تتحدث لو قدرت على التعلق إلا عن بيتها وغذائها ، وكيفية إدغارها ، فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهي بمنزل منه وعن التفكير فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها ويبتها إلى غيره ، وكما غفلت الخلة عن القصر وعن أرضه ، وسقفه ، وحيطانه ، وسائر بنيانه ، وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى ، وعن ملائكته الذين هم سكان ممواته ، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه الخلة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه الخلة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبنايع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف عن عجائبه ما الخلق غافلون عنه ، ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمارا طويلة لم تقدر على شرح ما فضل الله تعالى علينا عمرته وكل ما عرفناه قليل نزر حقيق بالإضافة إلى ما عرفه جلة العلماء والأولياء : وما عرفه قليل نزر حقيق بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وجملة ما عرفه قليل

بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفه الملائكة القربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما . ثم جميع علوم الملائكة ، والجن ، والإنس ، إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دهاء ، وحيرة ، وقصورا ، وهجزا أقرب ، فسبحان من عرف عباده ما عرف ، ثم خاطب جميعهم فقال ( وَمَا أُرِيتُمْ مِنْ أَلِيمٍ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(١)</sup> ) . فهذا يان معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى ، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لآحالة معرفة الخالق ، وعظمته ، وجلاله ، وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم ظاهرا بسبب معرفتك بعمقه ، فلا تزال تطلع على غريبة قريبة من تصنيفه أو شعره ، فتزداد به معرفة ، وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى أن كل كلمة من كلماته ، وكل بيت عجيب من أبيات شعره ، يزيد عيلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه ، والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا ، وإنما لكل عبد منهما بقدر مازق ، فلتنصهر على مآذركناه ، ولنصف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر ، فإننا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا ، وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فإن الطيبي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ، ويهدي بها من يشاء . فننظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، وأهتدي به . ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض ، لامن حيث ارتباطها بسبب الأسباب ، فقد شق واربدى ، فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يمجتنا مزالة أقدام الجبال بمنته ، وكرمه ، وفضله ، وجوده ، ورحمته

تم الكتاب التاسع من ربح النجيات ، والحمد لله وحده ، وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كتلى جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

# کتاب ذکر الموت وما بعده

## كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات  
وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسره به ظهور الأكاسرة ، وقصر به  
آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق  
فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللهود ،  
ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب  
إلى التمرغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضحج الوثير إلى  
المصرع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا  
وحرازا ، وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ فسيحان من انقرد بالقهر  
والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء  
ثم جعل الموت غلصلا للأشقياء ، وموعدا في حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنًا للأشقياء ،  
وحبسًا شيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام  
بالتقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض ، وله الحمد في الأولى والآخرة ،  
والصلاة على محمد ذي المجازات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، وعلى آله  
وأصحابه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فبغدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر  
ونكبر جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة مواعده ، والجنة أو النار  
مورده ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ،  
ولا تديير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تخرج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول  
إلا حوله ، ولا انتظار وتر بص إلا له ، وحقيق بأن يمد نفسه من الموت ويراه في أصحاب القبور ؟

فإن كل ما هو آت قريب • والبعيد ما ليس بآت . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>  
 « الْكَئِيسُ مَنْ ذَانَ نَفْسَهُ وَجَعَلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ » ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند  
 تجديد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ،  
 والنظر في المنبهات عليه

ونحن نذكر من أمر الموت ، ومقدماته ولاحقه ، وأسوال الآخرة ، والقيامة ،  
 والجنة ، والنار ، ما لابد للمبد من تذكره على التكرار ، وما لازمته بالافتكار والاستبصار  
 ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد ، فقد قرب لما بعد الموت الرحيل ، فما بقي من العمر  
 إلا القليل ، والخلق عنه غافلون ( اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ <sup>(٢)</sup> )  
 ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين

## السطر الأول

في مقدماته وتوابعه إلى نفحة الصور وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول : في فضل ذكر الموت والترغيب فيه

الباب الثاني : في ذكر ملول الأمل وقصره

الباب الثالث : في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت

الباب الرابع : في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

الباب الخامس : في كلام المجتصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

الباب السادس : في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

الباب السابع : في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفحة الصور

الباب الثامن : فيما عرفت من أحوال الموتي بالمكاشفة في المنام

﴿ كتاب ذكر الموت وما بهد ﴾

( ١ ) حديث الكيس من ما نفعه وعمل لما بعد الموت : قدم غير مرة

(١) الأنبياء : ١

## الباب الأول

في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا ، للكذب على غرورها ، المحب لشهواتها ، يغفل قلبه لاهمالة من ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه ، وأنتك هم الدين قال الله فيهم ( قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَقْرُونُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ <sup>(١)</sup> ) ثم الناس إما منهمك ، وأما تائب مبتدىء ، أو عارف متته ، أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيسذكره للتأسف على دنياه ، ويشغل بعمليته ، وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدة

وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت ليفيغته به من قلبه الخوف والغشية ، فيق بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يحتطفه قبل تمام التوبة ، وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت . ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره . وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه . فلا يمدح كراهها للقاءه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لاشغل له سواء ، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا

وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقاءه لحبيبه ، والمحبة لا ينسى قط موعده لقاء الحبيب . وهذا في غالب الأمر يستبطنه عجب الموت ، ويحب عيته ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة ، لأفلق من ندم . اللهم إن كنت تعلم أن الفقير أحب إلي من النفي ، والسقم أحب إلي من الصفة ، والموت أحب إلي من العيش ، فسهل علي الموت حتى ألقاك . فإذا التائب معذور في كراهة الموت ، وهذا معذور في حب الموت وعنيته

( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه )

( ١ ) حديث من كره لقاء الله كره لقاء الله لقائه : متفق عليه من حديث أبي هريرة

( ٢ ) الجملة : ٨



وأعلى منها رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ، وهو النهاية والتمتت .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا ، إذ ينقص عليه نعيمه ، ويكدر عليه صفوه لذته ، وكل ما يسكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة

## بيان

فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَكْثَرُوْا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ » معناه تنصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها . فتقبلوا على الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَوْ تَقْلَمُ أَلْبَابَكُمْ مِنْ أَلْمُوتِ مَا يَكُنُّ مِنْكُمْ أَدَمُ مَا كُنْتُمْ مِنْهَا حَيِّينَ »

<sup>(٣)</sup> وقالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله ، هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ أَلْمُوتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة .

والنفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « تُخَفُّهُ أَلْمُؤْمِنِ أَلْمُوتُ » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن للمؤمن ، إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ، ورياضة شهواته ، ومداومة شيطانه

(١) حديث أكثروا من ذكر هازم اللذات : الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث

أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يملك ابن آدم ما كلف منها ميمناً : البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم

(٣) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة : تقدم

(٤) حديث تخفف المؤمن للموت بابن أبي الدنيا في كتاب الموت : والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر

مرسلاً بسند حسن

فالموت إطلاع له من هذا العذاب ، والإطلاع تحفة في حقه

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَلَمُوتٌ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » وأراد بهذا السلم حقا ، المؤمن صدقا ، الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ، ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ، ولم يتدنس من المعاصي إلا بالعم والصنائع ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال <sup>(٢)</sup> عطاء الخراساني : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجلس قد استعمل فيه الضحك فقال « شُوبُوا تَحْلِسْكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَاتِ » قالوا وما مكدر اللذات ؟ قال « أَلَمُوتٌ »

وقال <sup>(٣)</sup> أنس رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ أَلَمُوتٍ فَإِنَّهُ يُغْنِيَنَّ الدُّنُوبَ وَيَرْزُقُهُ فِي الدُّنْيَا » . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « تَنَكَّرَ بِأَلَمُوتٍ مُتَرَقِّمًا » . وقال عليه السلام <sup>(٥)</sup> « كَفَى بِأَلَمُوتٍ وَاعِظًا »

<sup>(٦)</sup> وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال « أَذْكَرُوا أَلَمُوتَ أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَقَلَّمُونَ مَا عَلِمْتُ لَضَحِكُكُمْ قَلِيلًا وَكَبْكِيَّتُمْ كَثِيرًا » . <sup>(٧)</sup> وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ، فأحسنوا

( ١ ) حديث للموت كفارة لكل مسلم : أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين أنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء

( ٢ ) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بجلس قد استلهم الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات - الحديث : ابن أبي الدنيا في اللوات هكلما مرسل وروينا في أمالي الخلال من حديث أنس ولا يصح

( ٣ ) حديث أنس أكثرنا من ذكر الموت فانه يمحى الذنوب ويرزق في الدنيا : ابن أبي الدنيا في اللوات بإسناد ضعيف جدا

( ٤ ) حديث كثر بالموت مفرقا : الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس ومهر الله بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في الثبر والملة من رواية أبي عبد الرحمن الحلي مرسل

( ٥ ) حديث كثر بالموت واعظا : الطبراني ، والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الترهيد

( ٦ ) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت - الحديث : ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف

( ٧ ) حديث ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا التنا ، عليه فقال كيف كان ذكر

الثناء عليه ، فقال : كَيْفَ ذَكَرُ صَاحِبِكُمْ لِلْمَوْتِ ؟ قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت . قال : فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَاكَ . وقال ابن <sup>(١)</sup> عمر رضي الله عنهما : أُنِيتَ النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكْبَسَ الناس وأَكْرَمَ الناس يا رسول الله ؟ فقال : أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدَّهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْأَكْبَسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ .

وأما آثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى : فضع الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا وقال الربيع بن خثيم : ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بى أحدا ، وسألنى إلى ربي سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تمنى فيها الموت فلا نجده وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتناكرون للموت والقيامة والآخرة ،

ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنارة وقال إبراهيم التيمي شيئا نطعمنى لذة الدنيا ، ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله عز وجل وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهومها وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة . قطع ذكر الموت قلوب الخائفين ، فوالله ما ترام إلا والهنين

وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن ، فلما هو النار ، وأمر الآخرة ، وذكر الموت وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها فساوة قلبها ، فقالت أكرهى ذكر الموت يرق قلبك . ففعلت فرق قلبها . فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جُله دما وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة

صاحبكم للموت - الحديث : ابن أبي الدنيا فى الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن الباركة فى الزهد قال أنما لك بن مفلون فذكره بلافا زيادة فيه

(١) حديث ابن عمر أنيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكبس الناس الحديث : ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكاه بسند جيد

رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت عاقلاً قفاً إلا أصبته من الموت حذراً ، وعليه حزينا  
وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظمي ، فقال : لست أول خليفة توت .  
قال : زدني . قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك . فبكى  
همر لذلك : وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره ، فكان ينام فيه كل يوم مرات  
يستديم بذلك ذكر الموت ، وكان يقول : لو فارق ذكر الموت فلي ساعة واحدة لفسد .  
وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نَفَسَ على أهل النعم نعيمهم ،  
فاطابوا نعيماً لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لمنسبه : أكثر ذكر الموت ، فإن  
كنت واسع العيش ضيقه عليك ، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك  
وقال أبو سليمان الناراني : قلت لأمرؤ أنجيئ الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت :  
لو عصيت آدمياً ما انتهيت لقاءه ، فكيف أحب لقاءه وقد عصيته !

## بيان

الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلم أن الموت هائل ، وخطره عظيم ، وغفلة الناس عنه لفة فكرم فيه وذكركم له ،  
ومن يذكركم ليس يذكركم بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا ، فلا ينجح ذكر  
الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو  
بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة . أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر  
إلا فيه . فإذا باشر ذكر الموت قلبه ، فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه  
وسرووه بالدنيا ، وينكسر قلبه

وأنجح طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم  
ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محال التراب  
الآن حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزؤا في قبورهم ، وكيف أوملوا نساءهم ، وأيتعوا  
أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم وبحالهم ، وانقطعت آثارهم . فهما  
تذكر رجل رجلاً ، وفعل في قلبه حاله وكيفية موته ، وتوم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده  
وتأمله للمعيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة

والشباب ، وميله إلى الفجح والاهو ، ونفثته عما بين يديه من الموت الذريع ، والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدت رجلاه ومقاعله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدير لنفسه مالا يحتاج إليه إلى عشرين سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر ، وهو غافل عما يراد به ، حتى جاء الموت في وقت لم يحسبه ، فأنكشف له صورة الملك ، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار . فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلم ، وغفلته كمفاتهم ، وستكون عاقبته كما قبتهم . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعدت نفسك كأحدم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو راحا إلى الله عز وجل تضمونه في صدع من الأرض ، قد توسد التراب ، وخلف الأحياء ، وقطع الأسباب ؟ فلازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول للقباب ومشاهدة للمرضى ، هو الذي يحدث ذكر الموت في القلب ، حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستمد له ، ويتجافى عن دار القرور . وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه . ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ، ثم بكى فقال : والله لو لا الموت لكنت بك مسرورا ، ولو لا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

## الباب الثاني

في طول الأمل ، وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفية معالجته

### فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر <sup>(١)</sup> : « إِذَا أُصِيبْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِإِلْسَاءِهِ وَإِذَا أُمْسِنْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ بِمَوْتِكَ »

(١) الباب الثاني في طول الأمل

(١) . حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبت فلا تحدث نفسك بالإساءة . الحديث : ابن حبان ورواه البخاري .

وَمِنْ صِغَرِكَ لَسَيِّمِكَ فَإِنَّكَ يَاعَبْدَ اللَّهِ لَا تَدْرِي مَا أَسْأَلُكَ غَدًا ۝

وردى<sup>(١)</sup> علي كرم الله وجهه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنْ أَسْأَلْتُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصَلْتَانِ أَتْبَاعُ الْهُوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا أَتْبَاعُ الْهُوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَإِنَّهُ الْهَبُّ لِلدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُمْضِي وَإِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ أَلَا إِنَّ الدِّينَ أَبْنَاءُ وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءُ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ ارْتَحَلَتْ مُوَلِّيَتُهَا أَلَا إِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ ارْتَحَلَتْ مُفْلِحَتُهَا أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي يَوْمٍ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ أَلَا وَإِنَّكُمْ تَوْشِكُونَ فِي يَوْمٍ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ ۝

وقالت<sup>(٢)</sup> أم المنذر : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنْ اللَّهِ ، قَالُوا وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « تَجْمَعُونَ مَالًا تَأْكُلُونَ وَتَأْمَلُونَ مَالًا تَذَرُكُونَ وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ

وقال<sup>(٣)</sup> أبو سعيد الخدري : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أَلَا تَمُوجُونَ مِنْ أَسَاكَةِ الْشَّهْرِ إِلَى شَهْرٍ إِنْ أَسَاكَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ وَالَّذِي تَقْبِسُ يَدَيْهِ مَا طَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ شَقَرِي لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أَنِّي وَاصِلُهُ حَتَّى أَقْبِضَ وَلَا لَقَعْتُ لَقْعَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي لَا أُسِيْمُهَا حَتَّى أَغْصَّ بِهَا مِنَ الْكُتُوبِ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا بَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَتَفَلَّحُونَ فَعَدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَالَّذِي تَقْبِسُ يَدَيْهِ إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَا تَوْعَدُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝

من قول ابن عمر في آخر حديث كني في الدنيا كأنك غريب

( ١ ) حديث من أنشد ما خلف عليهما خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل - الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلامها ضعيف

( ٢ ) حديث أم المنذر أيها الناس أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى قَالُوا وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَجْمَعُونَ مَالًا تَأْكُلُونَ الْحَدِيث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم

( ٣ ) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أَلَا تَمُوجُونَ مِنْ أَسَاكَةِ - الحديث : ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف

وعن <sup>(١)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج بهريق الماء فيمسح بالتراب ، فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب . فيقول « ما يدريني لئلي لأبْلُغُهُ » . وروى <sup>(٢)</sup> أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ، ففرز عودا بين يديه والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده . فقال « هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا الْأَجَلُ وَذَلِكَ الْأَمَلُ يَتَمَاطَأُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الْأَجَلُ دُونَ الْأَمَلِ » وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْمُونَ مِثَّةً إِنْ أَخْطَأَتْهُ اثْنَانِ يَأْتِيَا وَفَقَعَ فِي الْهَرَمِ » قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الخوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الخوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الخوف شوارع إليه فأبها أمر به أخذه ، فإن أخطأته الخوف قتله الهرم ، وهو ينتظر الأمل

قال عبد الله : <sup>(٤)</sup> خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال « أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « هَذَا الْإِنْسَانُ ، لِلْخَطِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ » وَهَذَا الْأَجَلُ مُجِطٌّ بِهِ وَهَذِهِ الْأَغْرَاضُ ، لِلْخَطوطِ الَّتِي حَوْلَهُ تَنْهَشُهُ ، إِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا . « وَذَلِكَ الْأَمَلُ » يعني الخط الخارج . وقال <sup>(٥)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ حَقِيقَ مَتْنِ اثْنَتَيْنِ الْحَرْمِ وَالْأَمَلِ » وفي رواية « وَتَنْشُبُ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحَرْمُ عَلَى الْمَالِ وَالْحَرْمُ عَلَى الْقَمْرِ »

( ١ ) حديث ابن عباس كان يخرج بهريق الماء فيمسح بالباب فأقول للماء منك قريب فيقول ما يدري لي

لأبْلُغُهُ ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبرار بسند ضعيف

( ٢ ) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه - الحديث : أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظه والزهري في الأمل من رواية أبي التوكل التاجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده

حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي التوكل مرسل

( ٣ ) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون مئة - الحديث : الترمذي من حديث عبد الله ابن الشيخ وقال حسن

( ٤ ) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا - الحديث : رواه البخاري

( ٥ ) حديث أنس يهرم ابن آدم ويقي معه اثنتان الحرص والأمل : وفي رواية ويشتب مع اثنين الحرص على المال والحرص على القمر ورواه مسلم بإلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ

الأول بإسناده صحيح

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « بِنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّمْدِ وَبَيْنَاكُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ »

وقيل بينا عيسى عليه السلام جالس ، وشيخ يعمل بمسحاة يشربها الأرض ، فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل . فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة . فقال عيسى : اللهم اردد إليه الأمل . فقام فجعل يعمل . فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فألقيت المسحاة واضطجعت . ثم قالت لي نفسى والله لا بد لك من عيش ما بقيت . فممت إلى مسحاتى

وقال الحسن <sup>(٢)</sup> : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال « فَصَرُّوا مِنَ الْأَمَلِ وَتَبَشُّوا آجَابَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » <sup>(٣)</sup> وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُيَا تَمْنَعُ خَيْرَ الْآخِرَةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ سَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ الْفَنَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ »

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لوعنت متى أجلى خشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى من على عباده بالنفلة عن الموت . ولولا النفلة ما نهضوا بهيش ، ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولا هما مامشى المسلمون فى الطرق . وقال الثوري : بلغنى أن الإنسان خلق أحمق ، ولولا ذلك لم يهناه العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : ثلاث أعجبتني حتى أضحكنتي : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يفطن عنه ، وضاحك ملء فيه

( ١ ) حديث بجا أول هذه الأمة باليقين والزهدي وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل : ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لمية عن عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده

( ٢ ) حديث الحسن أكلهم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال صرروا من الأمل - الحديث : ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسل

( ٣ ) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فدعاه اللهم انى أعوذ بك من أمل يمنع حير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير للمات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل : ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفى إسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب



ولا يدري أسأخط رب السالمين عليه أم راض . وثلاث أحزنتني حتى أبكتني  
 قراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى  
 الجنة يؤسرني أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زبارة بن أبي أوفى بعد موته في  
 المنام ، فقلت : أي الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري :  
 الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل التلظظ ولا لبس العباءة . وسأل الفضل بن  
 فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب . ثم دعاه  
 فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن : يا أبا سعيد ،  
 ألا تنسل قيصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيركم  
 والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم : أنا كرجل مادعنه والسيف عليه ، ينتظر  
 متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي : لو أمليت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت  
 عظيما . وكيف أمثل ذلك وأرى الفجائع تنشى الخلائق في ساعات الليل والنهار  
 وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذه يقال له أبو هاشم الرماني ، وفي طرف  
 كسائه شيء مصرور ، فقال له أستاذه : إيش هذا معك ؟ فقال : لو زادت دفنها إلي أخ لي  
 وقال : أحب أن تغفر عليها . فقال شقيق ، وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الابد !  
 لا كلمتك أبدا . قال : فأغلق في وجهي الباب ودخل

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن لكل سفر زادا لعمالة ، فتروا  
 لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاب ما أعد الله من ثوابه وعقابه  
 ترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتفسو قلوبكم ، وتنفادوا لعدوكم ، فإنه  
 والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مساءه ، ولا يمشي بعد صباحه ، وربما  
 كانت بين ذلك خطفات المنايا . وكم رأيت ورأيت من كان بالدنيا منترا . وإنما قرع عين  
 من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة . فأما  
 من لا بدأوي كلفا إلا أسابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله من  
 أن آمركم بما أهي عنه نفسي ، فتخسر صفقتي وتظهر عييتي ، وتبدو مسكتي في يوم

يبدو فيه النحي والفقير، والموازين فيه منصوبة. لقد عنيتم بأمر لو عنيتم به النجوم  
لا نكدت، ولو عنيتم به الجبال لقاتب، ولو عنيتم به الأرض لتشققت. أما  
تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة: وأنكم صائرون إلى إحداهما

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد: فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما  
الموت، ونحن في أصناف أحلام، والسلام

وكتب آخر إلى أخ له: إن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب،  
وللتقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه ديب، فبادر قبل أن تنادي بالرحيل  
والسلام. وقال الحبيب: كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ أمه خلف ظهره، وأجله  
بين عينيه. فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمه بين عينيه، وأجله خلف ظهره.

وقال عبد الله بن ميمون: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول صحته، أما رأيت ميتا قط  
من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذاً قط من غير علة؟ إنك لو فكرت  
في طول صورك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك. أيأ لتسحبه فتترونها؟ أم بطول العافية تمرحون؟  
أم الموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترئون؟ إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة  
مالك، ولا كثرة احتشادك. أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب، وغصص، وندامة  
على التفريط، ثم يقال رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت، رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل  
زول الموت. وقال أبو زكريا التيمي: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام،  
إذا أتى بحجر مقثور، فطلب من يقرؤه، فأتى يوهب بن منبه، فإذا فيه: ابن آدم، إنك  
لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من مملك،  
ولقصرت من حرصك وحيلك. وإنا يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك  
أملك وحشمك، وفارقك الوالد والقريب، ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك  
عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل اليوم القيامة قبل الحسرة والندامة. فبكى سليمان بكاء شديداً  
وقال بعضهم: رأيت كتاباً من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف:  
سلام عليك، فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنني أحذرك متحولاً من  
دار مهلك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، قصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها،

فيا تيك منكر وتكبر فيمعدانك ويفتبرانك ، فإن يكن الله ملك فلا بأس ، ولا وحشة ، ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع ، وضيق مضجع ، ثم تبلغك صبيحة الجحش ، وتفتح الصور . وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق ، وخلاء الأرض من أحيائها ، والسموات من سكانها ، فباحث الأسرار ، وأسمرت النار ، ووضعت الموازين ، وحيى بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين . فكيف من مفتضح ومستور ، وكمن هالك وناج ، وكمن معذب ومرحوم ، فيألت شرى ما حالى وحالك يومئذ ؟ ففي هذا ما هدم اللذات ، وأسلى من الشهوات ، وقصر عن الأمل ، وأيقظ النائمين ، وحذر الغافلين . أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام

وخطب عمر بن عبد العزيز خمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى . وإن لكم معادا يحكمكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم . فغاب وشقي غدا عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض . وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف وأتقى ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا بياق ، وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أسلاب المالكين ، وسيخلف بدمكم الباقون ، ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نجه ، واتقطع أملة ؛ فتضمونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممدد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأجباب ، وواجه الحساب ؛ وأيم الله إنى لأقول مقاتلي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى . ولكنها سنن من الله عاذلة ، أمر فيها بطاعته ، وأنهى فيها عن معصيته ، واستغفر الله ، ووضع كفه على وجهه وجعل يبكي حتى بليت دموعه لحيته . وما عاد إلى محاسنه حتى مات . وقال التميمي بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة ، فلو أتاني ما أحبيت تأخير شيء من شيء

وقال الثوري : رأيت شيئا في مسجد الكوفة يقول : أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أتاني ما أمرته بشيء ، ولا نهيت عن شيء ، ولألى على أحد شيء ، ولا لأحد عندي شيء

وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من هند القصار !  
وقال أبو محمد بن علي الراهد : خرجنا في جنازة بالكوفة ، وخرج فيها داود الطائي ، فانبذا  
فقمعد ناحية وهي تدفن ، فحيث فقمعدت قريامنه ، فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه  
البعيد . ومن طال أمه ضعف عمله . وكل ما هو آت قريب  
واعلم يا أخى أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم ، وأعلم أن أهل الدنيا جميعا  
من أهل القبور ، إنما يندمون على ما يخلفون ويضرحون بما يقدمون . فإندم عليه أهل  
القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون ، وفيه يتنافسون ، وعليه عند القضاة يختصمون  
وروي أن مروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة . قال محمد بن أبي توبة : فقال لي  
تقدم : فقلت : إني صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها . فقال معروف : وأنت  
تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى ! نموذ بالله من طول الأمل ، فإنه يمنع من خير العمل  
وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم . دار كتب الله  
عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظن عنها . فكتم من عامر موقوف عما قليل بحرب ، وكتم  
من مقيم منقطع عما قليل يظمن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضر تكتم من  
الذئبة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . إنما لدينا كنيء ظلال قلص فذهب ، يئنا ابن آدم  
في الدنيا ينافس وهو قرير العين ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه يوم حنقه فسلبه آثاره ودنياه ،  
وصير لقوم آخرين مصانمه ومغناه . إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر . إنها تسر قليلا وتحزن  
طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة  
الحسنة وجوهم ؟ للمجيبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟  
أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعض بهم الدهر ، فأصبحوا في  
ظلمات القبور . الوحا • الوحا ثم النجا النجا

## بيان

السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل ، والآخر حب الدنيا  
أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها ، وبشهواتها ، ولذاتها ، وعلائقها ، ثقل على قلبه

• الوحا الوحا : ألمعة السرعة

مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيخفى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ، ويقدر تواجب البقاء وما يحتاج إليه من مال ، وأهل ، ودار ، وأصدقاء ، ودواب ، وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر ، موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ، فلا يقدر فربه . فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له ، سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيقة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدير هذا الولد ، وجهازه ، وتدير مسكن له ، أو تفرغ من فهر هذا العدو الذي يشمت بك . فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا ينحوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال آخر ، وهكذا على التدرج يؤخر يوما بعد يوم ، وبغضبه شغل إلى شغل ، بل إلى أشغال ، إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسب ، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصباحهم من سوف ، يقولون واحزناء من سوف . والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعو إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول للمدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيات ، فأيفرغ منها إلا من أطرحها

فأقصى أحسد منها لباته وما انتهى إلى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا ، والأنس بها ، والنفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم " أَجِبْتُ مَنْ أَحَبَّتْ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ " وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يموت على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد . وإن كان ذلك بعيد

فالمرض فجأة غير بيد . وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا  
ولو تفكر هذا الناقل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب ، وشباب ، وشباب ،  
وكهولة ، ومن صيف ، وشتاء ، وخريف ، وريبع ، من ليل ونهار ، لعظم استنصاره ،  
واشتغل بالاستعداد له . ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل ،  
وإلى النفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ، ولا يقدر  
نزوله به ووقوعه فيه . وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ، ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن  
هذا قد تكرر عليه وألفه ، فهو مشاهدة موت غيره . فأما موت نفسه فلم يألفه ، ولم يتصور  
أن يألفه ، فإنه لم يقع . وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر ،  
وسيله أن يقيس نفسه بشيء ، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ، ويدفن في قبره . ولعل  
اللبن الذي ينطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري ، فتسوف به جهل محض

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع  
بالتفكر الصافي من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة

وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجها من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذي أعيا  
الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر ، وبما فيه من عظيم  
العقاب وجزيل الثواب . ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل من قلبه حب الدنيا ،  
فإن حب الخطيئة هو الذي يحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة  
الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها ، وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى  
المغرب . وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منقصر ، فكيف يفرح بها  
أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ! فتسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها  
الصالحين من عباده . ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من  
الأثريان والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم للموت في وقت لم يحسبوا . أما من كان مستعداً  
قد فاز فوزاً عظيماً . وأما من كان منوراً بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبيناً

فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان  
للعالة ، وكيف تفتت عظامها ، وليتفكر أن الدود يبدأ بمحدثه البني أولاً أو اليسرى ،

فاعلى بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى . وكذلك يفكر فيما سوره من عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، ومن الحشر ، والنشر ، وأحوال النيام ، وقزع النداء يوم العرس الأكبر . فأمثل هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه ، وتدعره إلى الاستعداد له

## بيان

مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون . فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى ( يَوْمَ أَخَذْنَاهُم مِّنْ عَهْدِهِمْ يَوْمَ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ <sup>(١)</sup> )

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه . وهو الذي يجب الدنيا حبا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الشَّيْخُ شَابٌ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنْ التَّفَتْ تَرْقُوتَاهُ مِنْ الْكِبَرِ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ »

ومنهم من يأمل إلى سنة ، فلا يشتغل بتدبير ماوراءها ، فلا يقدر لنفسه وجودا في عام قابل . ولكن هذا يستمد في الصيف للشتاء ، وفي الشتاء للصيف . فإذا جمع ما يكفيه لسته اشتغل بالمباداة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ، ولا في الشتاء ثياب الصيف

ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستمد إلا نهاره ، وأما اللذ فلا . قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد ، فإن يكن غد من آجالكم فشتا في فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم  
ومنهم من لا يماز أمه ساعة ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « يَا عَبْدُ اللَّهِ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالسَّاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّالِحِ »

(١) حديث الشيخ شاذي في حب طلب الدنيا وإن التفت رقوقته من الكبر الالدين اتقوا قليل مالم يلهجده هذا  
اللفظ في الصحيحين من حديث أبي هريرة قلب الشيخ شاذي في حب اثنين طول الحياه وحب المال

(١) القرعة ٩٠

« الترقوة : مقدم الحلق في اعلى الصدر حيث يترق فيه النفس

ومنها من لا يقدر البقاء أيضا ساعة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيسم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول : لَمَلِي لَأَبْلُغُهُ .

ومنها من يكون الموت نصب بينه ، كأنه واقع به ، فهو ينتظره . وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع . وفيه ورد ما نقل عن <sup>(١)</sup> «مأذبن جبل رضي الله تعالى عنه ، لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ، ما غطت خطوة إلا ظننت أنني لأتبعها أخرى . وكما نقل عن الأسود وهو حبشي ، أنه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له فائل ما هذا ؟ قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني

فهذه مراتب الناس . ولكل درجات عند الله . وليس من أملة مقصود على شهر كن أملة شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل . وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، وإنما يظهر ذلك بأعماله ، فإنه يستقي بأسباب دجا لاحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أملة . وإنما علامة التوفيق أن يصكون الموت نصب بين لا ينفل عنه ساعة . فليستمد الموت الذي يرد عليه في الوقت . فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته ، وفرح بأنه لم يضع نهاره ، بل استوفى منه حظه ، وأدخره لنفسه . ثم يستأنف مثله إلى الصباح ، وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الندم وما يكون فيه . فمثل هذا إذا مات سعد وغم ، وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة ، والحياة له مزيد

فليكن الموت على بالك يأسكين ، فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد فارقت المنزل وقطعت المسافة ، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه

(١) حديث سؤاله لما ذن عن حقيقة إيمانه فقال ما غطت خطوه الاظننت اني لا أتبعها أخرى : أبو نعيم في الحلية

من حديث أنس وهو ضعيف



## بيان

المبادرة إلى العمل وحذر الله التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان ويتنظر قدوم أحدهما في غده ، ويتنظر قدوم الآخر به  
شهر أو سنة ، فلا يستمد للذي يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستمد للذي يتنظر قدومه  
غدا . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر عيى الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدّة ،  
ونسي ما وراء المدّة ، ثم يسبح كل يوم وهو منتظر السنة بكاملها ، لا ينقص منها اليوم  
الذي مضى . وذلك عنده من مبادرة العمل أبدا ، فإنه أبدا يرى لنفسه متمسكا في تلك  
السنة ، فبؤخر العمل ، كما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا غَيَّ  
مُظْلِمًا أَوْ فَقْرًا مُنْهِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُقْبِدًا أَوْ مَوْتًا مُخْرِجًا أَوْ لَلْجَالِ  
قَالَهُ جَالٌ شَرٌّ غَائِبٌ يَنْتَظِرُ أَوَّ السَّاعَةِ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ »

وقال <sup>(٢)</sup> ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يظهدهم : انتم خمس  
قبل خمس شبابك قبل مريمك وصيحتك قبل سيقك وغناك قبل فقرك وفراغك  
قبل شغلك وحياتك قبل موتك »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « تَمَتَّانِ مَعْبُودٌ فِيمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ »  
أي أنه لا يتنعمهما ، ثم يرف قدرهما عند زوالهما  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ النَّزْلُ إِلَّا إِنْ  
سَلِمَ اللَّهُ فَإِلَيْهِ إِلَّا إِنْ سَلِمَ اللَّهُ الْجَنَّةُ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاءَ

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غي مضطرب أو فقر أو مرض أو هرج أو موت أو لال جال . الحديث : الترمذى من حديث  
أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا الغناء . الحديث : وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد  
ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ الصنف وفيه من لم يمس .

(٢) حديث ابن عباس انتم خمس شبابك قبل مريمك . الحديث : باب في الدنيا فيه جنانة حسن  
ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسل .

(٣) حديث نعمتان مغبون فیهما کثیر من الناس الصحة والفراغ . الحديث : الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم .

(٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ للنزل . الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن .

(٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . الحديث : الترمذى وحسنه من حديث أبي بن كعب .

الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ» (١) : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غفلة نادى فيهم بصوت رفيع «أَتُنْكُمُ الْمَنِيَّةَ رَابِئَةً لَّازِمَةً إِمَّا بِشَقَاوَةٍ وَإِمَّا بِسَمَادَةٍ» وقال (٢) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَنَا النَّذِيرُ وَالْمَوْتُ الْمُنِيرُ وَالسَّاعَةُ الْمَوْعِدُ» . وقال (٣) ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السف فقال «مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا فِي مِثْلِ مَا مَقَى مِنْهُ» : وقال صلى الله عليه وسلم (٤) «مِثْلُ الدُّنْيَا كَمِثْلِ قُوبٍ شَقِيٍّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَمَلِّئًا بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ قَبُولُكَ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ» . وقال (٥) جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته ، واهمرت وجنتاه ، كأنه منذر جيش يقول «صَبَّحْتُمْ وَمَسَيْتُمْ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وقرن بين أصبعيه . (٦) وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ( قَدْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُبَدِّلَهُ بَشَرَهُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ ) (٧) فقال «لَا النَّوْرَ دَخَلَ الصَّدْرَ أَفْطَحَ» فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال «نَعَمْ، الْحَفَاةُ عَنْ دَارِ الْفُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ تَرْوِيلِهِ» . وقال السدي : (الَّذِي خَلَقَ أَلْوَتَ وَلِطْيَاءَ لِيُنْكُو بِكُمْ أُنْكُمُ أَحْسَنَ تَحْمَلًا) (٨) أي أيكم أكثر الموت ذكرا ، وأحسن له استعدادا ، وأشد منه خوفا وحذرا

(١) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غفلة نادى فيهم بصوت رفيع أُنْكُمُ الْمَنِيَّةَ . الحديث : ابن أبي الدنيا

في قصر الأمل من حديث زيد السليبي مرسل

(٢) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت والغير والساعة للوعد : ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين

(٣) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السف فقال ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مقي منه : ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن والترمذي نحوه

من حديث أبي سعيد وحسن

(٤) حديث مثل الدنيا مثل قوب شقي من أوله إلى آخره . الحديث : ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح

(٥) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واهمرت وجنتاه . الحديث : مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له

(٦) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فَن يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يُبَدِّلَهُ بَشَرَهُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ فقال إن اللوواد دخل القلب أفصح . الحديث : ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم

(٨) الأنعام : ١٢٥ (٩) مائة : ٤

وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء إلا وسناد ينادى : أيها الناس ، الرجل الرجل .  
وتصديق ذلك قوله تعالى ( إِنهَا لَإِخْدَىٰ أُنْكَبَرٌ يَذِرُ اللَّبَنَ لِرَبِّهِ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ  
أَوْ يَتَأَخَّرَ <sup>(١)</sup> ) في الموت . وقال مسجيم مولى بنى نعيم : جلست إلى هاشم بن عبد الله  
وهو يصلى ، فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال : أرحنى بحاجتك فإني أبادر قلت وما تبادره ؟  
قال ملك الموت رحمك الله . قال فقصت عنه ، وقام إلى صلاته

ومرّ داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال : دعني إنما أبادر خروج نفسي  
قال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للأخرة  
وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه : ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ،  
ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ، حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعته ولا يراني

وكان الحسن يقول في موعظته : المبادرة المبادرة ، فإنما هي الأنفاس لو حبست انتقطت  
عنكم أعمالكم التي تنقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله أمراً نظر إلى نفسه ، ويكفي  
على عدد ذنوبه . ثم قرأ هذه الآية ( إِنَّمَا نَعُدُّهُمْ عِدَّةَ <sup>(٢)</sup> ) يعنى الأنفاس ، آخر العدد  
خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك

واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهداً شديداً ، فقيل له لو أمسكت أو رفقت  
بنفسك بعض الرفق ؟ فقال إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس . مجراها أخرجت جميع  
ما عندها . والذي بقى من أجل أقل من ذلك : قال فلم يزل على ذلك حتى مات ، وكان يقول  
لا مراثة : شدى رحلك ، فليس على جهنم ممبر

وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله ، اتقوا الله ما استعظمتم ، وكونوا قوما صريح  
بهم فاتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للموت فقدأ ظلكم ،  
وترحلوا فقد جدّ بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة ، بلديرة بقصر للذة .  
وإن غايها يجده الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحمل بالقوز أو الشقوة  
لمستحق لأفضل المدة . فالتقي عند ربه من ناصح نفسه ، وقدم توبته . وغلب شهوته ،  
فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له والشيطان موكل به ، عينه التوبة ليسوفها ، ويزين

إليه المعصية ليرتكبها ، حتى تهجم ميتته عليه أغفل ما يكون عنها : وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به . فيألفها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وأن ترد به أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا يظطره نعمة ، ولا تنصر به عن طاعة الله معصية ، ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سمع الدعاء ، وإنه بيده الخير دائما فقال لما يشاء وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ( فَتَنَّمْ أَنْفُسَكُمْ <sup>(١)</sup> ) قال بالشهوات والذلات ( وَزَيَّنْهُمْ <sup>(٢)</sup> ) قال بالتوبة ( وَارْتَبَتْهُمْ <sup>(٣)</sup> ) قال شككم ( حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ <sup>(٤)</sup> ) قال الموت ( وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُورُ <sup>(٥)</sup> ) قال الشيطان

وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام فلا تمل ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما يحضرنكم

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والمارية مؤداة . <sup>(١)</sup> وقال أبو عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه ، فقال : مرحبا بكم وأهلا ، حياكم الله بالسلام : وأحلنا وإياكم دار المقام : هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم وأتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر ورحمكم الله أن تسمعوه <sup>(٢)</sup> هذه الأذن ، وتخرجوه عن هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائجا ، لم يضع لينة على لينة ، ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم فشم إليه ، ألوحا ألوحا ، النجا النجا . علام ترجون ؟ أنيتم ورب الكعبة كأنتكم والأمر منا ، رحم الله عبدا جعل الميث عيشا واحدا ، فأكل كسرة ، وليس خلقا ، ولزق بالأرض ، واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ، وابتنى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك

وقال عاصم الأحول . قال لي فضيل القاشي وأنا سائله : يا هذا لا يشانك كثرة الناس عن نفسك ، فإن الأمر يخلص إليك دونهم . ولا تقل أذهب ههنا وههنا ، فبنقطع عنك الزمارة

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم . الحديث : ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن جبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه

في لاشيء ، فإن الأمر محفوظ عليك ، ولم تر شيئا قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا  
من حسنة حديثه لدنوب قديم

### الباب الثالث

في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عنه

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ، ولا هول ، ولا عذاب ، سوى  
سكرات الموت بمجرد ما ، لكان جديرا بأن ينتنص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره  
ويفارقه سهوه ووغفته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ، ويظم له استمداده ، لاسما وهو  
في كل نفس بصده . كما قال بعض الحكماء : كرب يد سواك ، لا تدرى متى يتشاك  
وقال لقمان لابنه : يا بني ؛ أسر لا تدرى متى يلفاك ، استعمله قبل أن يفجاك  
والحجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس الله : فانتظر أن يدخل  
عليه جندي فيضربه خمس خشبات ، لتكدرت عليه لذته وقصد عليه عيشه . وهو في كل  
نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو عنه غافل . فما  
لهذا سبب إلا الجهل والغرور

واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها . ومن لم يذوقها  
فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في  
النزع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذي يشبهه فهو أن كل عضو لاروح فيه  
فلا يحس بالألم . فإذا كان فيه الروح فالدرك للألم هو الروح . فبها أصاب المصنوع  
جرح أو حرق سرى الأثر إلى الروح ، فيقدر ما يسرى إلى الرفح تألم . والمؤلم يفرق  
على اللحم ، والدم ، وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم . فإن كان في الآلام  
ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! والنزع عبارة  
عن مؤلم نزل بنفس الروح ، فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزائه  
الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . فلما أصابته شوكة فالألم الذي  
يحمده إنما يجرى في جزء من الروح بلقي ذلك للوضع الذي أصابته الشوكة .

وإعما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تنوص في سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار ، فتحس الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب للموضع الذي منه الحديد فقط ، فكان لذلك لم الجرح دون ألم النار . فإلم التزع يهجم على نفس الروح ، ويستغرق جميع أجزائه ، فإنه للتزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ، ونشر بالناشير ، وقرض بالمقاريض . لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان للتناول المباشر نفس الروح . وإنما يستنثت المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه . وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه ، وتصاد على قلبه ، ويبلغ كل موضع منه ، فهد كل قوة ، وضعف كل جراحة ، فلم يتركه قوة الاستئانة . أما العقل فقد غشبه وشوشه . وأما اللسان فقد أبسكه . وأما الأطراف فقد ضمها . ويود لو قدر على الاستراحة بالأيمن واليسار والاستئانة ، ولكنه لا يقدر على ذلك . فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وعمريرة من حلقه و صدره ، وقد تغير لونه وأريد ، حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله . فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحديقتان إلى أعالي أجفانه ، وتنقلص الشفتان ، وتنقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الاثنيان إلى أعالي موضعهما ، وتختصر أنامله . فلا تمل سمن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه . ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ، لامن عرق واحد ؛ بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا ، فتبرد أولا قدماه ، ثم ساقاه ، ثم غذاؤه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فمقد ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، وينلق دونه باب التوبة

ومحيط به الحسرة والندامة. <sup>(١)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَا كَمْ يُتَرَفَّرُ» وقال مجاهد في قوله تعالى (وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَصَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) <sup>(٢)</sup> قال: إذا عين الرسل فتمت ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت، فلا تسأل من علم مرارة الموت وكرهه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(٣)</sup> «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ عَمْدَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ» والناس إنما لا يميزون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية. ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت، حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الجواريين ادعوا الله تعالى أن يهون علي هذه السكره، يعني الموت، فقد خفت الموت مخافة أوقفني من اللوت على الموت وروي أن قرا من بني إسرائيل مروا بقبرة، فقال بعضهم لبعض: لو دعوت الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه، فدعوا الله تعالى، فإذا هم برجل قد قام وبينه أثر السجود، قد خرج من قبر من القبور، فقال ياقوم: ما أردتم مني؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة اللوت من قلبي

وقالت عائشة رضي الله عنها: لأعبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي أنه عليه السلام <sup>(٤)</sup> كان يقول «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْقَصَبِ وَالْقَصَبِ وَالْأَتَمِلُ اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى الْمَوْتِ وَمَوْنَهُ عَلَيَّ» وعن الحسن <sup>(٥)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر اللوت وغصته وأله فقال

#### (الباب الثالث في سكرات اللوت)

- (١) حديث ابن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ: الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر
- (٢) حديث كان يقول اللهم هون علي عهد سكرات اللوت: تقدم
- (٣) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ الروح من بين الصبب والقصب والأتمل: الحديث: ابن أبي الدنيا في كتاب اللوت من حديث صمة بن غيلان الجعفي وهو مفضل سقط منه الصحابي والتابعي
- (٤) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر اللوت وغصته وأله فقال هو قمر ثلاثه ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكنا مرسل ومرسله هات

« هُوَ قَدْزُ ثَلَاثِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ » . « وَسُئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْمَوْتِ وَشَدَّتْهُ فَقَالَ « إِنَّ أَهْوَنَ أَلْمُوتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ فَقَدْ تَخْرُجُ الْحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إِلَّا وَمَعَهَا صُوفٌ » . « وَدَخَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَرِيضٍ ثُمَّ قَالَ « إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَلْقَى مَائِنُهُ عِرْقٌ إِلَّا وَيَأْتِيهِ لِلْمَوْتِ عَلَى جَدَّتِهِ »  
وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا ماتوا . والذي نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت على فراش

وقال الأوزاعي : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره  
وقال شداد بن أوس : للموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن . وهو أشد من نشر بالناسير ، وفرض بالمقاريض ، وغلي في القدور . ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما اتضعوا ببئس ، ولا لقوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يلينها بعمله شدد عليه الموت ليلبلغ بسكرات الموت وكر به درجته في الجنة . وإذا كان للكافر معروف لم يجز به ، هوّن عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض ثيل له : فأنث كيف تجده ؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض . وكان نفسى يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم « مَوْتُ الْفَجَاءَةِ رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَسَفٌ عَلَى الْفَاجِرِ » . وروى عن « مكحول » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَوْ أَنَّ شَجَرَةً مِنْ شَعْرِ الْمَيِّتِ وَضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَارْضَ كَلَامُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى »

( ١ ) حديث سئل عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حكة . الحديث : ابن أبي الدنيا يسه

من رواية شهر بن حوشب مرسل

( ٢ ) حديث دخل على مريض فقال إني لأعلم ما يأتي مائنه عرق الأوبان الموت على حديث : ابن أبي الدنيا يسه  
من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في اللرض والتكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسل  
مع اختلاف ورجله ثقات

( ٣ ) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر : أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال وأخفته أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخفته أسف

( ٤ ) حديث مكحول وإن شجرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما نوا - الحديث : ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي مسيرة رفعه وفيه لو أن الشجرة وزادوا في يوم القيامة لتعفن هولأذاها هولأضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وأبو مسيرة هو عمرو ابن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد



لأن في كل شجرة الموت، ولا يقع الموت بشيء إلا مات  
وروي<sup>(١)</sup> لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كاهها لذابت  
وروي أن ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت يا إسماعيل ؟  
قال كسوء جمل في صوف رطب ثم جذب فقال : أما إنا قد هونا عليك  
وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى  
كيف وجدت الموت ؟ قال وجدت نفسي كالصفيحة حين يقلى على القلي ، لا يموت فيستريح  
ولا ينجو فيطير . وروي عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة حية تسليخ بيد القصاب  
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل  
يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ »  
« فاطمة رضي الله عنها تقول : واكرهه لكرهك بأبيه ! وهو يقول « لَا كَرْبَ عَلَيَّ  
أَيُّكَ بَعْدَ الْيَوْمِ » . وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب ، حدثنا  
عن الموت . فقال نعم يا أبا عبد المؤمن : إن الموت كمصن كثير الشوك أدخل في جوف  
رجل ، وأخذت كل شوكه برق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذما أخذوا حتى ما بقي  
وقال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِنَّ أَلْعَبْدَ لَيَمَاجُ كَرْبِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ  
الْمَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ عَلَيْكَ السَّلَامُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » : فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن  
للمنهمكون في المعاصي وتتناول علينا مع سكرات الموت بقية التواهي ! فإن دواهي الموت ثلاث  
الأولى : شدة النزاع كما ذكرناه

( ١ ) حديث لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كاهها لذابت له أصلا : ولعل الصنف لا يورده

حديثاً فإنه قال وروي

( ٢ ) حديث أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم  
هون علي سكرات الموت : متفق عليه من حديث عائشة

( ٣ ) حديث أن فاطمة قالت واكرهه لكرهك بأبى : الحديث : البخاري من حديث أنس يلفظ واكرهه  
أباه وفي رواية لابن خزيمة واكرهه

( ٤ ) حديث أن العبد ليماج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض : الحديث ؟

الباعية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ، ودخول الروح والظوف منه على القلب  
فلو رأى صورته ! التي يقبض عليها روح العبد للذنب أعظم الرجال قوة لم يطلق رؤيته .  
فقدروى عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن ترين صورتك  
التي تقبض عليها روح الفاجر . قال لا تطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض منى . فأعرض  
عنه ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود ، قائم الشعر ، مستن الريح ، أسود الثياب ، يخرج  
من فيه ومناخيره لبيب النار والدخان . ففتش على ابراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد  
ملك الموت إلى صورته الأولى . فقال يا ملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة  
وجهك لكان حسبه . وروى <sup>(١)</sup> أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا خَيْرًا وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أَغْلَقَ الْأَبْوَابَ فَأَغْلَقَ ذَاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ فَأَشْرَفَتْ امْرَأَتُهُ فَإِذَا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ مَنْ أَدْخَلَ هَذَا الرَّجُلَ لَيْنَ جَاءَ دَاوُدُ لِيَكْفِيَنَّ بَيْنَهُمَا فَجَاءَ دَاوُدُ فَرَأَاهُ فَقَالَ مَنْ أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ أَنَا الَّذِي لَا أَهَابُ الْمُلُوكَ وَلَا يَمْنَعُ مِنِّي الْجَبَابِقُ فَقَالَ فَأَنْتِ وَأَنْتِ إِذَا مَلَكَ الْمَوْتُ وَزَمَلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَانَهُ ، وَرَوَى أَن عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِمَجْجَبَةٍ فَضَرَبَهَا بِرِجْلِهِ ، فَقَالَ : تَسْكُنِينَ ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ ، فَقَالَ : هَذَا مَكَانُ الْمَوْتِ ، وَكَذَا ، بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَلَكِي عَلَى تَاجِي ، وَحَوْلِي جُنُودِي وَحَشَمِي ، عَلَى سُرُرٍ مَلَكِي ، إِذَا بَدَأَ الْمَوْتُ ، فَنَزَلَ مِنِّي كُلُّ مَعْصُومٍ عَلَى حِيَالِهِ ثُمَّ خَرَجَتْ نَفْسِي إِلَيْهِ ، فَيَالَيْتَ مَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الْجُلُوعِ كَانَ فِرْقَةً ، وَيَالَيْتَ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْآسَنِ كَانَ وَحْشَةً . فَهَذِهِ دَاهِيَةٌ يَلْقَاهَا الْمَصَاتُ ، وَيَكْفَاهَا الْمَطْعِمُونَ . فَقَدْ حَكَى الْأَنْبِيَاءُ بَعْدَ سَكْرَةِ الْزَمَرِ ، دُونَ الرُّوْعَةِ الَّتِي يَدْرِكُهَا مَنْ يَشَاهِدُ صُورَةَ مَلِكِ الْمَوْتِ كَذَلِكَ . وَلَوْ رَأَاهُ فِي مَنَامِهِ لَيْلَةً لَتَنَصَّصَ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ عَمْرِهِ ، فَكَيْفَ بِرُؤْيَاهُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ وَأَمَّا اللَّطِيفُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَجْمَلَهَا . فَقَدْ رَوَى عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا خَيْرًا ، وَكَانَ لَهُ بَيْتٌ يَتَبَدَّدُ فِيهِ إِذَا خَرَجَ**

رواه في الأربعين لأبي عدي ابراهيم بن هذيل عن أنس وأبو عدي هالك

( ١ ) حديث أبي هريرة . ان داود كان رجلا خيرا - الحديث : أحمد بإسناد جيد نحوه . وابن أبي الدنيا في كتاب الموت يفتله

أغلقه . فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت ، فقال من أدخلك داري ؟ فقال أدخلنيها بها . فقال أنا بها . فقال أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك . فقال من أنت من الملائكة ؟ قال أنا ملك الموت . قال هل تستطيع أن ترى الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب ، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة للملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترامى له ملكاه الكاتبان عمله . فإن كان مطيعا قال له . جزاك الله عنا خيرا ، فرب مجلس صدق أجلسنا ، وعمل صالح أحضرنا . وإن كان فاجرا قال له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا ، وعمل غير صالح أحضرنا ، وكلام قبيح أسمعنا ، فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شخص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبدا

الدهاية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار ، وخوفهم قبل المشاهدة . فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم ، واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن يخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نعمة ملك الموت بأحد البشريين ، إما بأشريا عدو الله بالنار ، أو بأشريا ولي الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أبواب الألياب . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «<sup>(١)</sup> لَنْ يُخْرَجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَقْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(٢)</sup> مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » فقالوا . كلنا نكره الموت . قال « لَيْسَ ذَلِكَ بِذَلِكَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا فُرِجَ لَهُ لُحْمًا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ »

وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل . قم فانظر

(١) حديث ابن ماجة أخرجه من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار : ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوف لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام علي نفس أن يخرج من الدنيا حتى يعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عباد بن الصامت ما يشهد لذلك أن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وأن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته - الحديث : حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه - الحديث : متفق عليه من حديث عباد بن الصامت

أي ساعة هي . فقام ابن مسمود ، ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء . فقال حذيفة . أعوذ بالله من صباح إلى النار . ودخل مروان على أبي هريرة . فقال مروان . اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة . اللهم اشدد ، ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا على الدنيا ، ولا جزعا من فراقكم ، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بحجة أم بنار

ودوي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> أنه قال « إِنَّ اللَّهَ إِذَا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ قَالَ يَأْتِكَ الْمَوْتُ إِذْ هَبَّ إِلَى فَلَانٍ فَأَتَى بِرُوحِهِ لِأَرْبَعَةِ حَسَنٍ مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَّغَهُ قَوَاعِدَهُ حَيْثُ أَحَبَّ فَيَنْزِلُ مَلَكَ الْمَوْتِ وَسَعَةً خَمْسًا ثَلَاثَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبَانُ الرَّيْحَانِ وَأَبْصُولُ الزُّفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبَشَارَةٍ سَوَى إِشَارَةِ صَاحِبِهِ وَتَقُومُ الْمَلَائِكَةُ مَتْنِينَ يُخْرُجُ رُوحُهُ مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ فَلَاذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ لِإِبْلِيسُ وَصَغَ يَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ ، قَالَ « فَيَقُولُ لَهُ جُنُودُهُ مَا لَكَ يَا سَيِّدُ نَأَى يَقُولُ أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هَذَا الْقَبْدُ مِنَ الْكَرَامَةِ أَنْ كُنْتُمْ مِنْ هَذَا فَأَكُونُ قَدْ جَبَدْنَا بِهِ فَكَأَنَّ مَقْصُومًا » وقال الحسن : لراحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى

فيوم الموت يوم سروره ، وفرحه ، وأمنه ، وعزه ، وشرفه

وقيل لجابر بن زيد عند الموت . ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى الحسن . فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن فضع طرفه إليه ثم قال . يا إخواناه ، الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة . وقال محمد بن واسع عند الموت : يا إخواناه ، عليكم السلام إلى النار أو يسهو الله . وتعني بعضهم أن يبقى في النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب فحوف سوء الخاتمة قطع قلوب المارقين ، وهو من الدوامي العظيمة عند الموت ولهذا ذكرنا معنى سوء الخاتمة ، وشدة خوف المارقين منه في كتاب الخوف والرجاء ، وهو لا يثق بهذا الوضع ، ولكننا لا نطول بذكره وإعادته

(١) حديث ابن الله أنارضى على عبده قال يملك الموت اذهب الى فلان فأنى بروحه لأرجه - الحديث :

ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث محمد الهادي بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع ولقد ساق من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح إذا حضر الميت أنه ملائكة الرحمة بجمرة بيضاء فيقولون أخرجي رائحة مرضية هناك إلى روح الله وريحان وروى راض غير غضبان - الحديث :

## بيان

ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون؛ ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

أما الصورة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(١)</sup> «أَرْقُبُوا أَلْمِيَّتَ عِنْدَ ثَلَاثَ إِذَا رَسَعَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَبَيَسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ وَإِذَا قَطَّ غَطِيطَ الْخُنُوقِ وَاحْمَرَّتْ لَوْنُهُ وَأَرْبَدَتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ»

وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وفي رواية <sup>(٣)</sup> «حَذِيقَةً» «فَلَهَا تَهْدِمُ مَاقِلَهَا مِنْ الْخَطَايَا». وقال عثمان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَرُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» وقال عبيد الله «وَهُوَ يَشْهَدُ» وقال عثمان: إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زلده إلى الجنة.

وقال عمر رضي الله عنه: أحضروا موتاكم وذكروهم؛ فإنهم يرون ما لا ترون، ولتقوم لا إله إلا الله. وقال <sup>(٥)</sup> أبو هريرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «حَضَرَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَجُلًا يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَقَالَ لِحَبِيْبِهِ فَوَجَدَ حَرْفَ لَسَانِهِ لَا صِفًا يَحْكِيهِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَفَرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ»

(١) حديث أرقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه - الحديث: الترمذي الحكيم في تواتر

الاصول من حديث سلمان ولا يصح

(٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله: تقدم

(٣) حديث حذيفة قالها تهتم ما قبلها: تقدم

(٤) حديث من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة: تقدم

(٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا - الحديث: ابن أبي عمير في كتاب المحتضرين والطيوان واليبقى في الشعب وإسناده جيد الآن في رواية

البيهقي رجلا باسم وسى في رواية الطبراني أصح بن عبي بن طلحة وهو ضعيف

ويبنى الملقن أن لا يلع في الثقلين ، ولكن يتلف ، فربما لا ينطق لسان المريض ، فيشق عليه ذلك ، ويؤدي إلى استقالة الثقلين ، وكرهيته للكلمة ، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة . وإنا معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق ، كان قدومه بالموت على عبوه غاية النعيم في حقه . وإن كان القلب مشعوقا بالدنيا ، ملتفتا إليها ، متأسفا على لذاتها ، وكانت الكلمة على رأس اللسان ، ولم ينطق القلب على تحقيقها ، وقع الأسر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يفضل الله تعالى بالقوله

وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت . وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء ، وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله <sup>(١)</sup> دجل وأمة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ قال أعرفني ذنوبي ، وأعرفت على هلكة ، ولكن أرجو رحمة ربي فكبر وأمة ، وكثر أهل البيت بكبيره ، وقال الله أكبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء »  
<sup>(٢)</sup> ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت ، فقال « كيف تجدك » ، قال أرجو الله وأخاف ذنوبي . قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما جئتما في قلب قبدي في مثل هذا الموضع إلا أعطاه الله الذي يرجو وأمنه من الذي يخاف »

وقال ثابت البناني : كان شاب به حدة ، وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له . يا بني ، إن لك يوما فاذا ذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه ، وجعلت تقول له يا بني ، قد كنت أحذرك مصرحك هذا وأقول إن لك يوما . فقال يا أمه ، إن لي ربا كبيرا للمروف ، وإنني لأرجو أن لا يمدني اليوم بعض مروه . قال ثابت . فرحمه الله بحسن ظنه به . وقال جابر بن وداعة : كان شاب بهرق فاحضر ، فقالت له أمه يا بني توصني بشيء ؟ قال نعم خاتمي لانسليتيه ، فإن فيه ذكر الله تعالى ، فعمل الله يرحمني . فلما دفن روى في المنام فقال . أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتي ، وأن الله قد غفر لي

( ١ ) حديث مغل وأمة بن الأسقع على مريض قال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن

عبدي بي فليظن بي ما شاء ابن حبان بالرفع منه وقد هدم وحمد والبيهقي في الشعب بهجما

( ٢ ) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي الحديث : هدم

ومرض أعرابي ، فقيل له إنك نموت . فقال أين يذهب بي ؟ قالوا إلى الله قال فما كراهي أن أذهب إلى من لا يرى الخبير إلا منه  
وقال أبو المتمر بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يا متمر ، حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن صله همد موته لكي يحسن ظنه بربه

## بيان

الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ، واسمه عزرائيل ، وله عينان ، عين في وجهه ، وعين في قفاه ، فقال يا ملك الموت ، ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان ، كيف تصنع ؟ قال أَدْعُو الْأَرْواحَ لِإِذْنِ اللَّهِ فَتَكُونُ بَيْنَ أَصْبَعِي هَاتَيْنِ . وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه ، يتناول منها ما يشاء . قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام : مالي لأأراك تمعدل بين الناس ، تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إلي فيها أسماء . وقال وهب بن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليليسها ، فلم تعجبه ، فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بمد صررات . وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب ، فركب أحسنها . فجاء إبليس فنفض في منخره نفخة ، ففلاه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول ، وهو لا ينظر إلى الناس كبرا . فجاءه رجل رث الهيئة ، فسلم فلم يرده عليه السلام . فأخذ بلجام دابته ، فقال أرسل اللجام فقد تمايلت أمرا عظيما . قال إن لي إليك حاجة . قال أصبر حتى أتزل . قال لا الآن . فقهره على الجام دابته . فقال اذكرها . قال هو سر . فأدنى له رأسه ، فسأره وقال : أنا ملك الموت . فقهره لون الملك ، واضطرب لسانه ؛ ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي ، وأقضي حاجتي ، وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا . فقبض روحه ، فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقي

عبدا مؤمنا في تلك الحال ، فلم عليه فرد عليه السلام ، فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك . فقال مات . فصاره وقال : أنا ملك الموت . فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته علي ، فو الله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن لقاء منك . فقال ملك الموت : انقض حاجتك التي خرجت لها . فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى ، قال فاختبري علي أي حال شئت أن أبض روحك ، فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إني أمرت بذلك ، قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ، ثم أبض روحي وأنا ساجد . فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله للزني : جمع رجل من بني إسرائيل مالا ، فلما أشرف على الموت قال لبنيه : أروني أصناف أموال . فأني نسي كثير من الخيل ، والإبل ، والرقيق ، وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه . فرآه ملك الموت وهو يبكي . فقال له ما يبكيك ؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك . قال فاهله حتى أفرقه . قال هي ماتت انقطعت عنك المهلة . فبلا كان ذلك قبل حضور أجلك ! فقبض روحه

وروي أن رجلا جمع مالا فأوعى ، ولم يدع صنفا من المال إلا أخذ به ، وابتى قصرا ، وجعل عليه باين وثيقين ، وجمع عليه حرسا من غلمان ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما ، وقعد على سريره ، وودع إحدى رجليه على الأخرى وم يأكلون . فلما فرغوا قال : يا نفس أنعي لسنين ، فقد جمعت لك ما يكفيك . فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خفاق من الثياب ، وفي عنقه بخلة يشبه بالساكين . فقرع الباب بشدة عظيمة فرما أفزعه وهو على فراشه . فوثب إليه الثلمان وقالوا : ما شأنك ؟ فقال ادعوا إلي مولاكم . فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال نعم : فأخبروه بذلك . فقال هلا فسلم به وقلتم : فقرع الباب فرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس . فقال أخبروه أئني ملك الموت . فلما سمعوه أثنى عليهم الزعب ، ووقع على مولاهم القل والتخضع . فقال قولوا له قولنا ، وقولوا هل تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال : اصنع في مالك ما أنت صانع ، فأني لسع بخارج منها حتى أخرج روحك . فأمر بماله حتى وضع بين يديه ، فقال حين وآه لملك الله من مال أنت شغلني من عبادة ربي . ومنمتني أن أنحني لربي . فأطلق الله المال فقال : لم تسبني وقد حكمت تدخل على المسلمين بي : ويرد للفقى عن باهم ؟



وكنتم تنكح المتنجاتى ، وتجلس مجالس الملوك بنى ، وتنفقنى فى سبيل الشرف لا أمتنع منك ، ولو أنفقتنى فى سبيل الخير ففعلت . فقلت وابن آدم من تراب ، فطلى بى ، ومنطق بأى . ثم قبض ملك الموت روحه فسقط

وقال وهب بن منبه : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ، ما فى الأرض مثله ، ثم عرج إلى السماء ، فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض ، فأثابتها وقد ولدت مولودا ، فرحمها لتربها ، ورحمت ولدها لصغره وكونه فى الفلاة لا تمهد له بها فقالت الملائكة : الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته . فقال ملك الموت : سبحان اللطيف لمن يشاء

قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان ، دفع إلى ملك الموت صحيفة . فيقال اتبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة . قال فإن البدي ليرس الثراس ، وينكح الأزواج ، ويبنى البنيان ، وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدري

وقال الحسن : ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات ، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه ، وانقضى أجله ، قبض روحه . فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول : والله ما أكلت له رزقا ، ولا أنفيت له عمرا ، ولا انتقصت له أجلا . وإن لى فيكم لنودة بعد عودة ، حتى لا أبقي منكم أحدا . قال الحسن : فوالله لو يرون مقامه ، ويسمون كلامه ، لذهلوا عن ميتهم ، ولبكوا على أنفسهم

وقال يزيد الرقاشى : بينا جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس فى منزله . قد خلا بعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته ، فتأثر إليه فزعا مضطبا ، فقال له من أنت ؟ ومن أدخلك على دارى ؟ فقال له الذى أدخلنى الدار فربها . وأما أنا فالتى لا يمنع منى الحجاب ، ولا أستاذن على الملوك ، ولا أخاف صولة للتسلطين ، ولا يتمتع منى كل جبار عنده ولا نبيطان يريد . قال فسقط فى يده الجبار ، وارتد حتى سقط منكبا على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له ، فقال له : أنت إذا ملك الموت . قال أنا هو . قال فهل أنت بميل حتى أحدث عهدا ؟ قال هيئات انقطعت مدتك ، وانقضت أنفاسك ، ووقعت عظامك

فليس إلى تأخيرك سبيل . قال فلان أين تذهب في ؟ قال إلى عملك الذي قدمته : وإلى بيتك الذي مهدته قال فلان لم أقدم عملا صالحا . ولم أمهد بيتا حسنا . قال فلان لعلني ، بزراعة للشوى . ثم قبض روحه ، فسقط ميتا بين أهله . فن بين صارخ وبالك

قال يزيد الرقائبي : لو سلمون سوء للتقلب كان المويل على ذلك أكثر وعن الأعمش ، عن خيشة قال : دخل ملك للوت على سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من هذا ؟ قال هذا ملك اللوت . قال لقد رأيته ينظر إلي كأنه يريدني . قال فإذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصني منه فأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند . ففعلت الريح ذلك . ثم قال سليمان للملك اللوت بعد أن أتاه ثانيا : رأيته تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال نعم : كنت أتعجب منه ، لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريية ، وكان عندك ففجيت من ذلك

### الباب الرابع

في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

## وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

أعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا ، وفلا وقولا . وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيه ونبيه ، وكان صفيه ، ورسوله ، ونبيه . فانظر هل أمهله ساعة عندا قضاء مدته ؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجذوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها من جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان . بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن . فاشتد مع ذلك في الزرع كربه وظهر أظنه ، وترادف قلقه وارفع حنينه ، وتغير لونه وهرق جبينه ، واضطربت في الاقبح والانبساط شماله وعينه ، حتى بكى لمصرع من حضره ، واتعجب تشده جاله من شاهد منظره . فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب

الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل ساعه إذ كان الحق نصيرا ، وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيئات ، بل أمثل ما كان به مأمورا ، واتباع ما وجدته في اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام الحمود ، والخص المودود . وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض . فالحجب أنا لانتم به ، ولسنا على ثقة فيما نلقاه . بل نحن أسراء الشهوات ، وقرناء المصائب ، فما بنا لا تمطعصرع محمد سيد الرسلين ، وإمام المتقين ، وحبيب رب العالمين ؛ لئلا نظن أننا مخلدون ، أو تورم أنامع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيئات هيئات ، بل نتيقن أننا جميعا على النار واردون ، ثم لا يجزئنا إلا التيقن . فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون . لا بل علمنا أنفسنا إن كنا كذلك لنال الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين . وقد قال الله رب العالمين ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا <sup>(١)</sup> )

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين . فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ما وقفوا له من الخافقين . ثم انظر إلى سيد الرسلين ، فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين ، وقائد المتقين . واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ، وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى . قال <sup>(٢)</sup> ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أتنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال « مَرَحَبًا بِكُمْ حَيًّا كُمْ اللَّهُ أَوْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ أَنْصَرَكُمُ اللَّهُ وَأَوْصِيَكُمُ بَقَوَى اللَّهِ وَأَوْصِيَكُمُ بِكُمُ اللَّهُ

﴿ الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

( ١ ) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أتنا عائشة حين دنا الفراق الحديث : رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله بن مسعود وغيره وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هنا من مرة وإنما هو عن أخره من مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة \* قلت وقد روى من غير ماوجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ورواه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنها متقطعة وضعفت والحسن العربي لما يرويه عن مرة كثر رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلَا تَتْلُوا عَلَى اللَّهِ فِي بِلَادِهِ وَعِيَادِهِ وَقَدْ ذُنَا أَلْجَلُ وَالْمُتَقَلِّبُ  
إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْاَلْمُتَقَلِّبِ إِلَى جَنَّةِ الْاَلْاَوْى وَإِلَى الْاَلْكَاسِ الْاَلْاَوْى قَانَرُ وَالْاَلْاَوْى أَنْفُسِكُمْ  
وَعَلَى مَنْ دَخَلَ فِي دِينِكُمْ بِعَدِي مَنَى السَّلَامَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ »

وروي <sup>(١)</sup> أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته « مَنْ لَأْمَتِي بِعَدِي ؟ »  
فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أدخله في أمته وبشره بأنه أسرع الناس  
خروجاً من الأرض إذا بشوا ، وسيدم إذا جموا ، وأن الجنة بجمرة على الأمم حتى تدخلها  
أمته . فقال « الْآنَ قَرَّتْ عَيْنِي » . وقالت <sup>(٢)</sup> عائشة رضي الله عنها أمرنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أن نتسلى بسبع قرب من سبعة آبار . فقلنا ذلك ، فوجد راحة ، فخرج  
فصل بالناس ، واستغفر لأهل أحد . ودعا لهم ، وأوصى بالأنصار فقال « أَمَا بَعْدُ بِأَمْتَشَرِ  
الْمُاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحْتَ الْاَلْاَنْصَارُ لَا تَزِيدُ عَلَى هَيْئَتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ  
وَإِنَّ الْاَلْاَنْصَارَ هَيْئَتِي » الَّتِي آوَيْتُ إِلَيْهَا فَأَكْرُمُوا كَرِيمَهُمْ » يعني محسنهم « وَتَجَاوَزُوا  
عَنْ مُسِيئَتِهِمْ » ثم قال « إِنَّ عِبَادًا خَيْرَ بَيْنِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ فَاحْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ »  
فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، وعظ أن أنه يريد نفسه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم  
« عَلَى رِسْكَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ سُدُّوا هَذِهِ الْاَلْاَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ  
فَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَمْرًا أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصُّغْيَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ » قالت <sup>(٣)</sup> عائشة رضي الله عنها  
فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي ، وفي يوي ، وبين سمرى ونعمري وجمع الله بين يوتي  
ورقه عند اللوت ، فدخل على أخي عبد الرحمن ويده سواك ، فجعل ينظر إليه ، فعرفته  
أنه يعجبه ذلك ، فقلت له آخذك ؟ فأولماً برأسه أي نعم . فتأولته إياه ، فأدخله في فيه ،

( ١ ) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتي بعدي فأوحى الله تعالى إلى جبريل  
أن بشر حبيبي أني لا أدخله في أمته - الحديث : الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديثه  
طويل فيه من لأمتي للصفاة من بعدي قال بشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت  
الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسي واستأنده ضعيف  
( ٢ ) حديث عائشة أم المؤمنين أن تسلى بسبع قرب من سبعة آبار فقلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصل بالناس  
واستغفر لأهل أحد - الحديث : البخاري في مسنده وفيه إبراهيم المختار يختلف فيه من محمد  
ابن إسحق وهو مدلس وقد روى بالتحفة

( ٣ ) حديث عائشة قضي في بيتي وفي يوي وبين سمرى ونعمري وجمع الله بين يوتي ورقيه عند اللوت .  
الحديث : متفق عليه

فاشدد عليه . فقلت أليه لك ؟ فأومأ برأيه أي نعم فليته . وكان بين يديه ركوة ماء ، فجعل يدخل فيها يده ويقول « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ الْمَوْتَ لَسَكْرَاتٍ » ثم نصب يده يقول « الرِّفِيقُ الْأَعْلَى الرِّفِيقُ الْأَعْلَى » فقلت إذا والله لا يخننا

وروى <sup>(١)</sup> سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأيت الانتصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلاً ، أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه ، على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكائهم وإشفاقهم . ثم دخل عليه الفضل ، فأعلمه بمثل ذلك . ثم دخل عليه علي رضي الله عنه ، فأعلمه بمثله . فديده . وقال ها فتناولوه . فقال « مَا تَقُولُونَ ؟ » قالوا تقول نخشى أن تموت . وتصاحج نساؤم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج متوكئاً على عليٍّ والفضل ، والعباسُ أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخطو برجليه ، حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَّغَنِي أُنْكُمْ تَحْمُودٌ عَلَيَّ الْمَوْتُ كَأَنَّهُ اسْتِشْكَارٌ بَيْنَكُمْ وَالْمَوْتُ وَمَا تَنْكَرُونَ مِنْ مَوْتٍ بَيْنَكُمْ أَلَمْ أَنْعِ إِلَيْكُمْ وَتَنَعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ هَلْ خُلِدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فَيَسُنَّ بُعِثَ فَأُخْلِدَ فِيكُمْ إِلَّا إِنِّي لَأَجِدُ بَرِيٍّ وَإِنَّا لَأَجِدُونَ بِهِ وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِالْمَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ خَيْرًا وَأَوْصِي الْمَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ (وَالْعَصْرِ) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا <sup>(٢)</sup> ) إلى آخرها وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استيظاء أمر على استيغاله فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَجْعَلُ لِنَجَلَةٍ أَحَدٍ وَمَنْ غَالَبَ اللَّهُ غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللَّهُ خَدَعَهُ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُشَدُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا أَرْحَامَكُمْ وَأَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأيت الانتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلاً أطافوا

بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكائهم وإشفاقهم فذكر الحديث في خروجه متوكئاً معصوب

الرأس يخطو برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر فذكر خطبته بطولها وحديث

مرسل ضعيف وفيه تنكارة ولم أجد له أصلاً وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي روى

عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعد ليس بالقوي

فَنُفِّلَكُمْ أَنْ تُعْصِبُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُواكُمْ النَّارَ أَلَمْ يُؤَسِّسُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيارِ أَلَمْ  
يُؤَيِّرُواكُمْ عَلَى أَهْلِيهِمْ وَبِهِمْ الْمَصَاعِدُ أَلَا قَدْ وُلِّيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبَلْ مِنْ  
عُصْبِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ أَلَا وَلَا تَسْتَأْذِنُوا عَلَيْهِمْ أَلَا وَإِنِّي قَرِطٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ  
لَا حَافُونَ بِي أَلَا وَإِنْ مَوَّعِدْكُمْ الْخَوْضُ حَوْضِي أَعْرَضُ بِمَا بَيْنَ بَصَرِي الشَّامِ  
وَسَمْعَاهُ أَلَيْسَ يُصَبُّ فِيهِ مِزَابُ الْكُوثَرِ مَا أَشَدَّ يَأْكُنًا مِنَ اللَّبَنِ وَاللَّيْنِ مِنَ الزُّبْدِ  
وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ مَنْ قَرِيبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا حَبْنَاؤُهُ الْوُلُؤُ وَبَطْنَاؤُهُ الرِّسْكُ مَنْ  
خُرِمَتْ فِي الْخَوْضِ غَدَا حَرِمَ الْخَيْرُ كُلُّهُ أَلَا قَدْ أَخْبَرْتُ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَدَاً فَلْيَكْفِفْ  
لِسَانَهُ وَبَدَهُ لَأَيِّمًا يَتَّبِعِي ۚ قَالَ الْعَبَّاسُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، أَوْسَ بَقَرِيشٍ . قَالَ : « لَأَيِّمًا أَوْسِي  
بِهَذَا الْأَمْرِ قَرِيشًا وَبِالنَّاسِ نَبِيْعَ الْبَقَرِيشِ بَرِّهُمْ لِبَرِّهِمْ وَطَاجِرُهُمْ لِفَاجِرِهِمْ فَاسْتَوْصُوا  
أَلَمْ قَرِيشٍ بِالنَّاسِ خَيْرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تُوبٌ تُغَيِّرُ النِّعَمَ وَتُبْدِلُ الْقَسَمَ فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ  
بَرَّهُمْ أَكْتَمْتُمْ وَإِذَا جَرَّ النَّاسُ عَفْوُهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ( وَكَذَلِكَ نُوَلِّيُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا  
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » )

وروى " ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي  
الله عنه « سَلْ يَا أَبَا بَكْرٍ » فقال يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قَدْ دَنَا الْأَجَلُ وَتَدَلَّى »  
فقال ليهنك يا نبي الله ما عند الله ، فليت شمري عن منقلبنا فقال « إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ  
الْمُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى وَالْكَأْسِ الْأَوْفَى وَالرَّفِيقِ الْأَعْلَى  
وَالْخَطِّ وَالنَّيْسِ الْهَمْنَا » فقال يا نبي الله ، من بلى غسلك ؟ قال « رَجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي  
الْأَدْنَى فَلَا دَنْيَ » قال فقيم تكفئك ؟ فقال « فِي رِيَابِي هَذِهِ وَفِي حُلِيِّي ثَمَارِيَّةٌ وَفِي يَاسِي  
مُصَرٍّ » فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكىنا وبكى . ثم قال « مَهْلًا فَقَرَّ اللَّهُ لَكُمْ »

( ١ ) حديث ابن مسعود إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا  
الأجل قال قد دنا الأجل - الحديث : في سؤالهم من بلى غسلك وقيم تكفئك وكيفية الصلاة  
عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف  
عن ابن مسعود وهو مهمل ضعيف كاهنهم

وَجَزَاكُمْ عَنْ بَيْتِكُمْ خَيْرًا إِذَا غَسَلْتُمُونِي وَكَفَفْتُمُونِي فَصَمَوْنِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي  
هَذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (هُوَ  
الَّذِي يُصَلِّيَ عَلَيْكُمْ وَتَلَايَكُمُ<sup>(١)</sup>) ثُمَّ يَأْذَنُ لِلتَّلَايَكَةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَيَّ فَأُولُو مَنْ  
يَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَيُصَلِّيَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيلُ ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ  
الْمَوْتِ مَعَ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ التَّلَايَكَةُ بِأَجْمَعِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَنْتُمْ  
فَادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا زُمَرَةٌ زُمَرَةٌ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَلَا تُؤْذُونِي  
بَنَزْكِتِي وَلَا صَنِيعَةٍ وَلَا رَنَّةٍ وَلْيُبْدَأْ مِنْكُمْ الْإِمَامُ وَأَهْلُ بَيْتِي الْأَدْنَى فَلَا أَدْنَى ثُمَّ  
زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصَّبْيَانِ « قَالَ فَمَنْ يَدْخُلُ الْقَبْرَ ؟ قَالَ « زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الْأَدْنَى  
فَالْأَدْنَى مَعَ مَلَائِكَةٍ كَثِيرَةٍ لَا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَكُمْ . قُومُوا فَأَدُّوا عَنِّي إِلَى مَنْ  
بَعْدِي . » وقال<sup>(٢)</sup> عبد الله بن زمة . جاء بلال في أول شهر ربيع الأول ، فأذن بالصلاة ،  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ » فخرجت فلم أجد أحضرة  
الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر . فقلت قم يا عمر فصل بالناس ، فقام عمر ،  
فلما كبر وكان رجلا صبيحا . سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير ، فقال « أَيْنَ  
أَبُو بَكْرٍ يَا بَنِي اللَّهِ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ » قالوا ثلاث مرات « مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ  
بِالنَّاسِ » فقالت عائشة رضي الله عنها ، يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، إذا قام في  
مقامك غلبه البكاء . فقال « إِنْ كُنْ صَوْنِيحَاتِ يُوسُفَ مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ »  
قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر . فكان عمر يقول لعبد الله بن زمة بعد  
ذلك : ويحك ماذا صنعت في ؟ والله لولا أني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث عبد الله بن زمة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة قال النبي صلى الله عليه وسلم  
مرؤا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أجد أحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر  
الحديث : أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة أنا أبا بكر رجل رقيق  
الآخره . ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مرؤا من صلى بالناس وقال يا أيها الله ذلك وللؤمنون  
مرتين وفي رواية له قال لا لا ليصل للناس ابن أبي حنيفة يقول ذلك مضطربا وأما ما أخره  
من قول عائشة فني الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله أنا أبا بكر رجل رقيق  
إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء . فقال إنكن صواحبنا يوسف مرؤا أبا بكر فليصل بالناس

أمرك ماقلت . فيقول عبد الله : إني لم أر أحداً أولى بذلك منك . قالت عائشة رضي الله عنها : وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضاً أن لا يكون الناس يحبون رجلاً صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبداً إلا أن يشاء الله فيصعدونه ويمنون إليه ، ويتشامون به ، فإذا الأمر أمر الله ؟ والقضاء قضاءؤه ، وعصمه الله من كل مأخوف عليه من أمر الدنيا والدين

وقالت (٧) عائشة رضي الله عنها : فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأوا منه خفة في أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحواليجهم مستبشرين ، وأخلاقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فمدنا نحن على ذلك ، لم تكن على مثل حالنا

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولت خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحواليجهم مستبشرين وأخلاقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فمدنا نحن على ذلك لم تكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجني عن هذا الملك يستأذن علي - الحديث : بطوله في محيى ملك اللوت ثم ذهابه ثم محيى جبريل ثم محيى ملك اللوت ووفاته صلى الله عليه وسلم : الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الالام وأوصى الله إلى ملك اللوت أن اهبط إلى حيي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأرفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك اللوت واستئذانه في قبضه فقال يا ملك اللوت أين خلقت حيي جبريل قال خلفته في ساء الدنيا وللأسك بمزونه فيك لما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقمع عند رأسه وذكر بشاره جبريل له بأعدائه له وفيه أدن يا ملك اللوت فأتته إلى ماأمرت به - الحديث : وفيه فدنا ملك اللوت يمالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كرهه لذلك إلى أن قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد الله بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطني ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولاً فقال له عن ربك كيف تمجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك اللوت وملك الهواء إسماعيل وإن جبريل دخل أولاً فأتاه ثم استأذن ملك اللوت وقوله امض لماأمرت به وهو منكر أيضاً فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب - الحديث : ورواه أيضاً من حديث ابن عباس في محيى ملك اللوت أولاً واستأذنه وقوله أنبئك يتركك اتسلام فقال أين جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك اللوت حتى نزل عليه جبريل - الحديث : وفيه المختار ابن نافع منكر الحديث قال البخاري وابن حبان



في الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْرِجْنِي عَنْ هَذَا الْمَلِكُ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ » فخرج من في البيت غيري ، ورأسه في حجرى ، فجلس وتحت في جانب البيت ، فتأبى الملك طويلا ، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجرى ، وقال للنسوة : « أَذْخُلْنَ » فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَجَلُ يَاعَائِشَةُ هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ جَاءَنِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِي وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنٍ فَإِنْ لَمْ تَأْذِنِي لِي أَرْجِعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِي دَخَلْتُ وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِي فَكَأَنَّمُرُّكَ فَقُلْتُ أَكْفُفُ عَنْكَ حَتَّى يَأْتِيَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذِهِ سَاعَةُ جِبْرِيلَ » فقالت عائشة رضي الله عنها . فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي ، فوجئنا وكأنا ضربنا بصاحبة ما نحير إليه شيئا ، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا . قالت وجاء جبريل في ساعته . فسلم فرفقت حسه ، وخرج أهل البيت ، فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك ؟ وهو أعلم بالذي تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا ؛ وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق ، وأن تكون سنة في أمتك . فقال : « أَجِدُنِي وَجِئًا » فقال : بأبشر ، فإن الله تعالى أراد أن يملك ما أعد لك . فقال : « يَا جِبْرِيلُ إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ » وأخبره الخبر فقال جبريل . يا محمد ، إن ربك إليك مشتاق ، ألم يملك الذي يريد بك ؛ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ، ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متم شرفك ، وهو إليك مشتاق . قال : « فَلَا تَبْرَحْ إِذَا حَتَّى يَجِيءَ » وأذن للنساء فقال : « يَا فَاطِمَةُ أَذْنِي » فأكبت عليه ، ففاجأها ، فرفقت رأسها وعيناها تدمع ، وما تطيق الكلام . ثم قال : « أَذْنِي مِنِّي وَأَسْأَلُكَ » فأكبت عليه ، ففاجأها فرفقت رأسها وهي تضحك ، وما تطيق الكلام . فكان الذي رأينا منها عجبا . فسلطنا بعد ذلك فقالت : أخبرني وقال : « إِنِّي مَيِّتٌ أَلِيزَمُ » فبكيت ، ثم قال : « إِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُلْهِقَكَ بِي فِي أَوَّلِ أَهْلِي وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِنِّي » فضحك . « وَأَذِنْتَ لِابْنَيْهِ مِنْهُ » فشمهما ؛ قالت وجاء ملك الموت ، فسلم واستأذن ، فأذن له

فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال : أَلْحَقْنِي بِرَبِّي الْآنَ ، فقال لي من يومك هذا ، أما إن  
ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد من أحد ترده عنك ، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن  
غيرك ، ولكن ساعتك أمامك . وخرج . قالت وجاء جبريل فقال : السلام عليك يا رسول  
الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا ، طوي الوحي ، وطويت الدنيا ، وما كان لي في  
الأرض حاجة غيرك ، ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي . لا والله يبعث محمدا  
بالحق ، مافي البيت أحد يستطيع أن يحبر إليه في ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحد من رجاله  
لعظم ما يسمع من حديثه ، ووجدنا وإشفاقنا . قالت فمعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم  
حتى أضع رأسه بين ثديي ، وأمسكت ب صدره ، وجعل يضي عليه حتى يغلب ، وجهته  
ترشح رشحاً ما رأيت من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك المرق ، وما وجدت رائحة شيء  
أطيب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق : بأبي أنت وأمي ، ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من  
الرشح فقال : يَا عَائِشَةُ إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِينَ تَخْرُجُ بِالرَّشْحِ وَنَفْسُ الْكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ  
شِدْقَيْهِ كَنَفْسِ الْحِمَارِ ، فعند ذلك ارتمتنا ، وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده  
أخى ، بعث إلي أبي ، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يمضي أحد . وإنما صدم الله  
هنا لأنه ولده جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أخفي عليه قال : بَلِ الرَّفِيقُ الْأَخْفَى هَ كَأَنَّا الْخَبِيرَةُ  
تعاد عليه . فإذا أطاق الكلام قال : الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ إِنَّكُمْ لَا تَرَوْنَ كَوْنَنَا سَكِينٍ مَآسِلُنَا  
جَمِيعًا الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ هَ كَانَ يَوْسَى بِهَا حَتَّى مَاتَ وَهُوَ يَقُولُ الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ ،

قالت (١) عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع  
الضحى واتصاف النهار يوم الإثنين . قالت فاطمة رضي الله عنها : مالتيت من يوم الإثنين ؟  
والله لا تزال الأمة تصاب فيه بسقطية . وقالت أم كلثوم : يوم أصيب علي كرم الله وجهه  
بالكوفة مثلاً : مالتيت من يوم الإثنين ؟ مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه  
قتل علي ، وفيه قتل أبي ، فالتقت من يوم الإثنين ؟

(١) خدبت عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين  
رواه ابن عبد البر

وقالت عائشة<sup>(١)</sup> رضي الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقحم الناس حين ارتفعت الرنة ، وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بشو به ، فاختلقوا فكذب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فأتكلم إلا بعد البعد ، وخطأ آخرون فلاشوا الكلام بشير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان هر بن الخطاب فيمن كذب بموته ؛ وعلي فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج هر على الناس وقال ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ، وليرجته الله عز وجل ، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت . إنما واعد الله عز وجل نجا واعد موسى ، وهو آتاكم . وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يميت . والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا . وأما علي فإنه أقعد فلم يرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا ، يؤخذ يديه فيجاء به ويذهب به . ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس ، فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبي بكر ، حتى جاء العباس فقال : والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ( : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَیِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ <sup>(٢)</sup> )

<sup>(١)</sup> وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج ، فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه ، ثم أكب عليه فقبّله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ،

( ١ ) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بشو به فاختلقوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فأتكلم إلا بعد البعد وخطأ آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون وكان هر بن الخطاب من كذب بموته وعلي فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج هر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت - الحديث : إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده لأصلا وهو منكرو

( ٢ ) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه فقبّله ويكنى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث : إلى آخر قوله وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ : البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها أبكر أقبل على فرس من سكته بالسبع حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطج بواب حجرة فكشف عن وجهه

ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس ، من كان يبعد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يبعد رب محمد فإنه حي لا يموت . قال الله تعالى ( وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ لَأَنزِلَنَّهُمْ عَلَىٰ آخِفٍ بِكُمْ <sup>(١)</sup> ) الآية . فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية <sup>(٢)</sup> أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر ، دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعيناه تهلان . وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ، فأكب عليه ، فكشف عن وجهه ، وقبل جبينه وخديه ، ومسح وجهه ، وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ، ونفسي ، وأهلي ، طبت حيا وميتا ، انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعمت عن الصفة ، وجلت عن البكاء . وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعمت حتى صرنا فيك سواء . ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس . ولولا أنك نهيت عن البكاء لأفقدنا عليك ماء البيون : فأما ما لا نستطيع بغيره عنا فكمد وأذكر مخالفه أن لا يرحان . اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا بأحمد صلى الله عليه عليك عند ربك ، ولتكن من بالك ، فلولا ما خلقت من السكينة لم يقم أحد لما خلقت من الوحشة . اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا وعن ابن عمر ، أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأبني ، عجز أهل البيت عجباً معه أهل المصلى كما ذكر شيئا ازدادوا ، فإسكن عجبهم إلا تسليم رجل على الباب صبت جلد قال : السلام عليكم بأهل البيت ( كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ <sup>(٣)</sup> ) الآية <sup>(٤)</sup> إن في الله خلفاً من كل أحد

ثم آك عليه قلبه وبكى ثم قال بأبي وأمي أنت والله لا يجمع الله عليك موتين أما لولا أن كنت عليك قد يميتا ولما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس - الحديث : وفيه والله لكان الناس لم يسلوا أن الله أنزل هذه الآية تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيها

( ١ ) حديث أن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه - الحديث : إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب الزهاد من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف جاء أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح فكشف الثوب عن وجهه - الحديث : إلى آخره

( ٢ ) حديث ابن عمر في سماع التعزية بصلى الله عليه وسلم أن في الله خلفاً من كل أحد ودواك لكل رغبة ونجاة

( ٣ ) آل عمران : ١٤٤ ( ٤ ) المنكوث : ٥٧

ودركا لكل رغبة ، ونجاة من كل غفاة ، فآله فارجوا ، وبه فتقوا . فاستموا له وأنكروا . وقطعوا البكاء . فلما انقطع البكاء فقد صوته ، فاطلع أحدهم فلم ير أحدا . ثم عادوا فبكوا ، فناداهم منذ آخر لا يرفون صوته ، يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل رغبة ، فآله فاطموا ، وبأمره فاعملوا : فقال أبو بكر : هذا الحضر والبسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم واستوفى التمتع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم ، بخطبة جدنا الصلاة علي النبي صلى الله عليه وسلم ، غمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فله الحمد وحده . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . اللهم فصل على محمد عبدك ، ورسولك ، ونيبك ، وحبيبك ، وأمينك ، وخيرتك ، وصفوتك ، بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك

من كل غفاة فآله فارجوا وبه فتقوا ثم معناه آخر منه ان في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فاعملوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الحضر والبسع : لم أجد فيه ذكر البسع وأما ذكر الحضر في التوبة فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال أنكره الأصحاب قلت بل قد رواه الحاکم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يكون فدخل عليهم رجل طويل شعر للتكبير في ازار ورداء يتحلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بسادتي باب الباب فيكي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال ان في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فآله تعالى فأنبوا ونظروه اليك في السالة فانظروا فان للصاب من في عبره الثواب ثم هذب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الحضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبراني في الأوسط واستاده ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت فسمع حبه ولا ترى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ان في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فآله فتقوا وابتاه فارجوا فان للبروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تمرؤن من هذا هو الحضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه الخطاط بين علي بن الحسين وبين جده علي وللبروف عن علي بن الحسين مرسل من خبر ذكر علي كرواه الشافعي في الام واليس فيه ذكر الحضر

اللهم واجعل صلواتك ، ومما فاتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وإمام المتقين ، محمد قائد الخير ، وإمام الخير ، ورسول الرحمة . اللهم قرب زلفته ، وعظم برهانه ، وكرم مقامه ، وابشئه مقاماً محموداً يفيطه به الأزلون والآخرون ، وانقذاً بتمامه المحمود يوم القيامة ، واخلفه فينا في الدنيا والآخرة ، وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة . اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد . أيها الناس ، إنه من كان يبعد محمداً فإن محمداً مات ومن كان يبعد الله فإن الله حي لم يموت . وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً ، فإن الله من وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ<sup>(١)</sup>) ولا يشفلكم الشيطان هوى نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان بالغير تعجزوه ، ولا تستنظروه فيلق بكم ويفتنكم وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال : يا صبر ، أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا . كذا وكذا ، ويوم كذا . كذا وكذا ، وقال تعالى في كتابه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ<sup>(٢)</sup>) فقال : والله لكانى لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا . أشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الحديث كما حدث ، وأن الله حي لا يموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وصلوات الله على رسوله ، وعند الله نخسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبي بكر

وقالت عائشة رضي الله عنها : لما اجتمعوا لنفسه قالوا : والله ما ندري كيف نفسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنجزده عن ثيابه كما نصنع بموتانا ؟ أو نفسله في ثيابه ؟ قالت فأرسل الله عليهم النوم ، حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائماً . ثم قال قائل لا يدري من هو : غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه : فاتهبوا ففعلوا ذلك . ففسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبضه ، حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال علي كرم الله وجهه : أردنا خلق قبضه فنودينا لا نخلعوا عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ثيابه ، فافررناه ، فمسلناه في قيصر كما تنسل موتانا مستلقيا ، مانشامان  
 'يقلب لنا منه عضو لم يبلغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحيفا في البيت  
 كالريح الرخاء ، ويصوت بنا ارققوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون  
 فبكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك سبدا ولا لبا إلا دفن  
 معه . قال <sup>(١)</sup> أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيعته ، وفرشت ثيابه عليها التي كان  
 يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في  
 حياته لبننة على لبننة ، ولا وضع قصبة على قصبة . ففي وفاته عبرة تامة ، وللمسلمين به أسوة حسنة

### وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، جاءت عائشة رضي الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت  
 لممرك ما ينفي التراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر  
 فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا . ولكن قولي ( وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ أَكُونَتْ بِأَلْحَى  
 ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ نَحِيدٌ <sup>(١)</sup> ) انظروا ثوبي هذين ، فأغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن  
 الحى إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامي عصمة للأرامل  
 فقال أبو بكر : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخلوا عليه فقالوا ألا تدعوك  
 طيبيا ينظر إليك ؟ قال قد نظر إلي طيبى ، وقال إني فعال لما أريد  
 ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يسوده ، فقال يا أبا بكر ، أوصنا . فقال  
 إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذن منها إلا بлагتك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو

( ١ ) حديث أبي جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبننة على لبننة  
 ولا وضع قصبة على قصبة أما وضع المفرش والقطيفة فالتى وضع القطيفة شفران مولى رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث  
 عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فقد تقدم أيضا

في ذمة الله ، فلا تحقرت الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك  
ولما قتل أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر  
رضي الله عنه ، فقال الناس له : استخلفت علينا غليظا ، فماذا تقول لربك ؟ فقال أقول :  
استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه ، فجاء فقال : إني  
موصيك بوصية ، اعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل ، وأن الله حقا في الليل لا يقبله في  
النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة ، وإنما قتلت موازين من قتلت موازينهم  
يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن  
يقتل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ،  
وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ،  
وتجاوز من سيئاتهم . فيقول القائل أنا دون هؤلاء ، ولا أبلغ مبلغ هؤلاء . فإن الله ذكر  
أهل النار بأسوأ أعمالهم ، وزد عليهم صالح الذي عملوا ، فيقول القائل أنا أفضل من  
هؤلاء . وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ، ولا يلقى  
يديه إلى التهلكة ، ولا يتنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكون  
غائب أحب إليك من الموت ولا بذلك منه . وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب  
أبغض إليك من الموت ولا بذلك منه ، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من  
الصحابة ، فقالوا بإخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا ، فإننا نراك لما بك .  
فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات ، جعل الله روحه في الأفق المبين .  
قالوا وما الأفق المبين ؟ قال قاع بين يدي العرش ، فيه رياض الله ، وأنهار وأشجار ،  
يشاء كل يوم مائة رحمة . فن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان .  
اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين ، فريقا للنعيم  
وفريقا للسم . فاجعلني للنعيم ، ولا تجعلني للسم . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا ،  
وميزهم قبل أن تخلقهم ، فجعلت منهم شقيا وسعيدا ، وغويا ورشيدا ، فلا تشقني  
بما صيكت . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها ، فلا محيص لها مما علمت



فاجلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء ؛ فأجل مشيتك أن أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات الابداء ، فلا يشترك شيء إلا بإذنك ، فأجل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر ، ووجعت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فأجلني من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار ، ووجعت لكل واحدة منهما أهلا ، فأجلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت يقوم الضلال ، وضيق به صدورهم ، فأشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور ، ووجعت مصيرها إليك ، فأحيني بعد الموت حياة طيبة ، وتريني إليك زلني . اللهم من أصبح وأمسى تقته ورجاؤه غيرك فأنت تقني ورجائي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل

### وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أصيب صر ، ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأى خلا قال استوا ، حتى إذا لم يرفهيه خلا تقدم فكبر . قال وربما قرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس . فها هو إلا أن كبر ، فسمته يقول : تلتني أبو أكلبي السكب ، حين علمته أبو لؤلؤة . وطار الملج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد عينا أو شملا إلا علمته حتى طعن ثلاثة عشر رجلا . فأت منهم تسعة . وفي رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برتسا . فلما علم الملج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه . فأما من كان يلي صر فقد رأى ما رأى . وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر ، غير أنهم قد صر صر ، وهم يقولون سبحان الله سبحان الله ، فعلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس ، انظر من تلتني قال فتأب ساعة ثم جاء فقال : غلام للغيرة بن شعبة . فقال عمر رضي الله عنه ، فأنله الله ، فقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل مني يدي رجلا مسلما . فلو كنت

أنت وأبوك تحبان أن يكثر الملوچ بالمدينة . وكان العباس أكثرهم رفيقا . فقال ابن عباس : إن شئت فعلت . أي إن شئت قتلنا . قال بعد ما تركتموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلكم ، وحجوا حبكم ، فاحتل إلى بيته ، فاطلقنا معه . قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . قال قتائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس . فأتى بنيذ فشرّب منه ، فخرج من جوفه . ثم أتى بلبن فشرّب منه ، فخرج من جوفه . ففرّوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فدخلت ، ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لآعلي ولآلى . فلما أدير الرجل إذا إزاره عس الأرض ، فقال ردوا علي الغلام . فقال يابن أخى ، ارفع ثوبك فإنه أبقي لثوبك ، وأتيت لربك . ثم قال : يا عبد الله انظر ما عليّ من الدين . فعصبوه فوجدوه ستة وعشرين ألفا أو نحوه . فقال إن وقى به مال آل عمر فأدّه من أموالهم ، وإلا فسل في بنى عدي بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل في قرش ، ولا تدم إلى غيرهم وأدّ عنى هذا المال . انطلق إلى أم المؤمنين عائشة ، فقل عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين . فأتى لست اليوم للمؤمنين أميرا . وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدوها قاعدة تبكى . فقال بقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت كنت أريدّه لنفسى ، ولأورثنه اليوم على قصى . فلما أفيل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعوني ، فأسنده رجل إليه ، فقال مالدريك ، قال الذى تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شيء أم إني من ذلك ، فلذا أنا قبضت فاحملوني ، ثم سلم وقل : يستأذن عمر . فإن أذنت لى فأدخلوني ، وإن ردتى ردوني إلى مقابر المسلمين

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قننا ، فوجلت عليه ، فبكت عنده ساعة . واستأذن الرجال ، فوجلت داخلا ، فسمعنا بكاءها من داخل . فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف . فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فهم راض . فسمى عليا وعثمان ، والزبير ،

وملحة ، وسعدا ، وعبد الرحمن . وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التزوية . فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك ، وإلا فليستن به أيكم أمر ، فإنني لم أزله من عجز ولا خيانة . وقال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ، ويحفظ لهم حرمتهم . وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن ينفق عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأنصار خيرا ، فلم يردده الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدو ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم من رضا منهم . وأوصيه بالأعراب خيرا ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل لهم من وراءهم ، ولا يكلفهم إلا طاعتهم قال فلما قبض خرجنا به ، فانطلقتنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر وقال : يستأذن عمر بن الخطاب . فقالت أدخلوه . فأدخلوه في موضع هناك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال <sup>(١)</sup> « قَالَ لِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبْكُ الْإِسْلَامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ » . وعن <sup>(٢)</sup> ابن عباس قال : وضع عمر على سريره ، فكشفه الناس يدهون ويصلون قبل أن يرفع ، وأنا فيهم ، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي ، فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال : ما خلقت أحدا أحب إلي أن أتى الله بتل محله منك . وأيم الله إن كنت لأظن ليجمعنك الله مع صاحبيك ، وذلك أتى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَغَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ » ، فإني كنت لأرجو أن لأظن أن يجمعك الله معهما

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليك الإسلام على موت عمر : أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة

من حديث أبي بن كعب يستخيف جبا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدهون ووصل فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث : يفتن عليه

## وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام : أتيت أختي عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا بأخي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة ، وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان ، حصرك . قلت نعم . قال عطشوك ، قلت نعم . فأدلى إلي دلو فيه ماء ، فشربت حتى رويت ، حتى أتني لأجد برده بين يدي وبين كفتي ، وقال لي . إن شئت نصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا . فاخترت أن أفطر عنده . فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح بماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا . قال والذي نفسى بيده ، لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن <sup>(١)</sup> ثمامة بن حزن القشيري قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه ، فقال اتقوا بصاحبيكم الذين ألباكم علي . قال فجئى بهما كأنهما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال : أنشدكم بالله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستمذب غير بئر رومة ، فقال « مَنْ يَشْتَرِي رُومَةَ يَحْمِلْ ذُلُّهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشترىها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنون أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أتى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم . قال أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَشْتَرِي بِقَعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَرِيذَهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشترىها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنون أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثياب بعجة ، ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فنحرا الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال « اسْكُنْ تَبِيرٌ فَأَعْلَيْكَ الْآتِي وَصِدْقٌ وَشَهِيدَانِ » قالوا اللهم نعم . قال الله أكبر شهدوا إلى ورب الكعبة أتى شهيد

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيري شهدته الدار حين أشرف عليهم عثمان . الحديث : الترمذي وقال حسن والنسائي

وروي عن شيخ من صبيّة : أن عثمان حين ضرب والداه تسبيل على لحيته جعل يقول :  
 لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أستعديك عليهم ، واستعينك  
 على جميع أموري ، وأسألك العبر على ما تبليّني

## وفاة .. على كرم الله وجهه

قال الأصمعي الحنظلي : لما كانت الليلة التي أصيب فيها عليّ كرم الله وجهه ، أتاه ابن التياح  
 حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة ، وهو مضطجع متثاقل ، فماد الثانية وهو كذلك ،  
 ثم عاد الثالثة ، فقام على عيشى وهو يقول :

أشد حيا زيمك للموت فإت الموت لايفكا  
 ولا تمزع من الموت إذا حل بواديك

فلما بلغ الباب الصغير ، شد عليه ابن ملجم فضربه ، فخرجت أم كلثوم ابنة عليّ رضي  
 الله عنه ، فجعلت تقول : مالي ولصلاة النداء ، قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة النداء ،  
 وقتل أبي صلاة النداء . وعن شيخ من قريش : أن عليا كرم الله وجهه لما ضرب ابن ملجم ، قال فزت  
 ورب الكعبة . وعن محمد بن علي ، أنه لما ضرب أوصى بنيه ، ثم لم ينطق إلا بـ لا إله إلا الله حتى قبض  
 ولما قتل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، دخل عليه الحسين رضي الله عنه ، فقال يا أخى  
 لأي شيء تمزع ؟ تقدّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى عليّ بن أبي طالب ،  
 وهما أبواك ، وعلى خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وهما أمّاك ، وعلى حمزة  
 وجعفر ، وهما عمّاك . قال يا أخى ، أقدم على أسلم أقدم على مثله

وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال : لما نزل القوم بالحسين رضي الله  
 عنه ، وأيقن أنهم قاتلوه ، قام في أصحابه خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد تزل من  
 الأمر ما ترون ، وإن الدنيا قد تغيرت ، وتكرت ، وأدبر مروفها ، وانشرت حتى لم يبق  
 منها إلا كصباة الإناث . ألا حسبي من عيش كالمرعى الويل . ألا ترون الحق لا يعمل به ،  
 والباطل لا يتناهى عنه . ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى ، وإنى لأرى الموت إلا سعادة ،  
 والحياة مع الظالمين إلا جرمًا

## الباب الخامس

في كلام مختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال : أعمدوني . فأقعد ، لجعل يسبح الله تعالى ويذكره ، ثم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد المحرم والانحطاط ، ألا كان هذا وغصن الشيايبه نضر ريانا وبكى حتى هلا بكأوه وقال : يارب ارحم الشيخ العاصي ، ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة ، وانقض الزلة ، وعد بحملك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق بأحد سواك . وروي عن شيخ من قریش ، أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه ، فرأوا في جلده غصونا . فحمد الله وأثني عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ماجربنا ورأيانا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا ، وباستلنا ذنا ببيشتنا ، فالبشتنا الدنيا أن قضت ذلك منا حالا بعد حال ، وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأغلقتنا ، واستلأمت إلينا . أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار

ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس ، إني من زرع قد استحصده ، وإني قد وليتكم ، ولن يليكم أحد من بدني إلا وهو شر مني ، كما كان من قبلي خيرا مني . ويا يزيد ، إذا وفي أجلى قول غلى رجلا ليبي ، فإن الليب من الله بكان ، فليتم النسل ، وليجهر بالتكبير . ثم أهد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقراصة من شعره وأظفاره ، فاستودع القراصة أنفي ، وففي ، وأذني ، وميني ، واجعل الثوب على جلدي دون أكفائي . ويا يزيد ، احفظ وصية الله في الوالدین ، فإذا أدرجتوني في جدي ، ووضعتوني في حفرتي ، فتولوا معاوية وأرحم الراحمين .

وقال محمد بن عتبة : لما نزل بمعاوية الموت قال : ياليتني كنت رجلا من قریش بندي طوي ، وأني لم أل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة ، نظر إلى غيال بجانب دمشق يلوي ثوبا بيده ، ثم يضرب به المنسلة ، فقال عبد الملك : ليتني كنت غسلا آكل من كسب يدي يوما يوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئا . فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرم الموت يتنون ما نحن فيه ، وإذا حضرا

الموت لم تدن مام فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه . كيف  
تجهدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى ( وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ  
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُكُمْ مَا عَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ )<sup>(١)</sup> الآية ، ومات

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، امرأة عمر بن عبد العزيز . كنت أسمع  
عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتى ولوساعة من نهار . فلما  
كان اليوم الذي قبض فيه ، خرجت من عنده ، جلست في بيت آخر بيني وبينه باب ،  
وهو في قبة له فسمعتة يقول ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي  
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ )<sup>(٢)</sup> ثم هذا ، فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما ، فقلت  
لوضيف له : انظر أنا هم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت وقيل لما حضره  
الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ؟ قال أحذركم مثل مصرى هذا ، فإنه لا بد لكم منه

وروي أنه لما تقل عمر بن عبد العزيز دمي له طيب ، فلما نظر إليه قال : أرى الرجل  
قد سقى السم . ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره وقال . ولا تأمن الموت أيضا على  
من لم يسق السم . قال الطيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت  
ذلك حين وقع في بطنى قال فتعالج يا أمير المؤمنين ، فإني أخاف أن تذهب نفسك . قال ربي  
خير مذهوب إليه . والله لو علمت أن شفاي عند شجرة أذننى مارفت يدي إلى أذننى  
فتناولته . اللهم خر لعمري لقائك . فلم يلبث إلا أياما حتى مات

وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك  
سدتا ، وأظهر بك عدلا . فبكى ثم قال : أليس أوقف فأشغل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله  
لو عدلت فيهم خلفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله ، إلا أن يلقنها الله حجتها  
فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات  
ولما قرب وقت موته قال : أجلسوني . فأجلسوه فقال أنا الذي أمرتني فقصرمت  
ونهيته فمضيت ؟ ثلاث مررات ولكن ، لا إله إلا الله . ثم رفع رأسه فأخذ النظر ، فقيل  
له في ذلك ، فقال : إني لأرى خضرة مام بإنس ولا جن . ثم قبض رحمه الله

وسمى من هرون الرشيد أنه اتقى أكفانه يده عند اللوت ، وكان ينظر إليها ويقول  
(مَا أَتَى عَلَى مَا كَيْتَ فَكَيْتَ عَلَى سُلْطَانِيَّةٍ )  
وفرش المؤمنون ماذا واضطجع عليه ، وكان يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه  
وكان المتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فملت  
وكان المتصم يضطرب على نفسه عند موته ، فقيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين .  
قال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة  
وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ، وقد نظر إلى صناديق لبنيه من يأخذها بما فيها ليه كان بيرا  
، وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لي ، فإن الناس يقولون إنك لا تنفرد لي . فكان  
عمر بن عبد العزيز تبعه هذه الكلمة منه ، وينبئه عليها . ولما حكى ذلك للحسن  
قال : أياها ؟ بل نعم . قال عسى .

## بيان

أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة

والتابعين ، ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضر معاذ رضي الله عنه الوفاة قال . اللهم إني قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك  
اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار  
ولكن لظن الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حاق الذكر . ولما  
اشتد به النزع ، ونزع ترما لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : رب  
ما أخفني خفتك ، فوعزت لك إنك تعلم أن قلبي يحبك  
(١) ولما حضرت سلمان الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما يبكي جزما على الدنيا ،  
ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون مبلنة أحدنا من الدنيا كزاد  
الراكب . فلما مات سلمان نظر في جميع ممتلكاته فإذا قيمته بضمة عشر درهما

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مبلنة  
أحدنا من الدنيا كزاد الراكب : أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم



ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته : وإحزنناه . فقال : بل وإطربناه ، غدا تأتي الرحبة  
محمدًا وحزبه . وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال ( لِمِثْلِ هَذَا  
فَلْيَمِثِلْ أَنْتَا مِلُّوْتُ<sup>(١)</sup> ) . ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى . فقيل له ما يبكيك ؟  
قال : أنتظر من الله رسولاً يشرني بالجنة أو بالنار

ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : والله ما يبكي لذنب أعلم  
أني أتيت به ، ولكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبه هيناً وهو عند الله عظيم

ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما يبكي جزعاً من الموت  
ولا حرصاً على الدنيا ، ولكن أبكي على ما يغفوني من ظلم الهواجر ، وعلى قيام الليل في الشتاء  
ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال : وأبعد سفراه وأثقل زاداه  
ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر  
فقال له ما يبكيك ؟ قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم ، وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً  
قال اسكت ، فإني سألت الله تعالى أن يمحيني حياة الأغنياء ، وأن يعينني موت الفقراء .  
ثم قال له : لقي ، ولا تمد علي ما لم أتكلم بكلام ثان

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت ، فقال له نجوت فقال ما أمكنك بعد  
وبكى بعضهم عند الموت ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال آية في كتاب الله تعالى ، قوله  
مَنْ جَهِلَ ( لِمَا يَتَّقِي اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ<sup>(٢)</sup> )

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال : إن امرأ هذا أوله لجدير  
أن يتقى آخره ، وإن امرأ هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله  
وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال تزعج ، وكانت يوم الجمعة ويوم التبروز  
وهو يقرأ القرآن ، ففهم قلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ فقال ومن أولى بذلك مني ،  
وهو ذا تطوى صحيفتي

وقال رويم : حضرت وفاة أبي سيد الخراز وهو يقول :

حينئذ قلب المارفين إلى الذكر  
أدبرت كؤوس المنايا عليهم  
هو مهبوب جوالته بمسكوك  
فأجسامهم في الأرض قتلى بمجه  
فأمرسوا إلا بقرب حبيبهم  
وما عرجوا من مس يؤس ولا ضر

وقيل للجنيذ . إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت . فقال لم يكن بمسبب  
أن تطير روحه اشتيافا : وقيل لشيء التون عند موته . مات شهي . قال أن أعرفه قبل موته بلحظة  
وقيل لبعضهم وهو في الزرع . قل الله . فقال إلى متى تقولون الله ، وأنا محترق بالله  
وقال بعضهم . كنت عند بشاد الدينوري ، فقدم فقير وقال . السلام عليكم ، هل هنا  
موضع تغليف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال فأشاروا إليه بمكان ، وكان ثم عين ماء ،  
فبعدد الفقير الوضوء ، وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ، ومد رجليه ، ومات  
وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا ، فقال لها موى  
فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفت إليه وقالت . قد مت . ووقعت ميتة  
ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروزباري قالت . لما قرب أجل أبي علي الروزباري  
وكان رأسه في حجرى ، فتح عينيه وقال . هذه أبواب السماء قد فتحت ، وهذه الجنان قد  
زينت ، وهذا قائل يقول . يا أبا علي قد بلغت الرتبة القصوى ، وإن لم تردها . ثم أنشأ يقول  
وحقك لا نظرت إلى سواكا بين مودة حتى أراكا  
أراك مذبذبي بفتور لحظ وبالعند الموزد من حياكا  
وقيل للجنيذ قل لا إله إلا الله . فقال مانسته فأذكره

وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ، ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال  
عليّ درم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف ، فاعلى قلبى شغل أعظم منه . ثم قال :  
وضئى للصلاة ، فقلت ، فنسبت تحليل لحية ، وقد أمسك على لسانه ، فقبض على يدي  
وأدخلها في لحية ، ثم مات . فبكى جعفر وقال : ما تقولون في رجل لم يقته في آخر عمره  
أدب من آداب الشريعة . وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر : وكان يشق عليه : كأنك

تُحب الحياة ؟ فقال : التذمُّم على الله شديد

وقيل لصالِح بن مسار : ألا توصي بانيك وعيالك ؟ فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره . ولما احتضر أبو سليمان الداراني ، أتاه أصحابه فقالوا : أبشر فإنك تقدّم على رب غفور رحيم ؛ فقال لهم : ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسب بالصغير ، ويمافيك بالكبير . ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له : بأوصنا . فقال احفظوا مراد الحق فيكم . واحتضر بعضهم ، فبكت امرأته ، فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت عليك أبكي فقال : إن كنت بأكية فأبكي على نفسك ، فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته ، فقالت كيف نمجّدك ؟ فأنشأ يقول

كُفْتُ أَشْكُرُ إِلَى طَيْبِي مَابِي      وَالَّذِي بِي أَصَابِي مِنْ طَيْبِي  
فَأَخَذْتُ الْمَرْوَةَ لِأَرْوَحِهِ فَقَالَ : كَيْفَ يَجِدُ رِيحَ الْمَرْوَةِ مَنْ جُوفُهُ بِحَرِّقٍ ؟ ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ  
الْقَلْبُ حَرِّقٌ وَالذَّمْعُ مَسْبُوقٌ      وَالْكَرْبُ مَجْتَمِعٌ وَالصَّبْرُ مَفْتَرِقٌ  
كَيْفَ الْقَرَارُ عَلَى مَنْ لَا فَرَارَ لَهُ      مِمَّا جَنَاهُ الْهَوَى وَالشُّوقُ وَالْقَلَقُ  
يَارِبُ إِنْ يَكُ شَيْءٌ فِيهِ لِي فَرَجٌ      فَاثْنِ عَلَيَّ بِهِ مَا دَامَ بِي رَمَقُ  
وَحَكِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ الشَّيْلِ      دَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ ، فَقَالُوا لَهُ : قُلْ  
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَأَنْشَأَ يَقُولُ

إِنْ يَتَأَنَّتْ سَاكِنُهُ      غَيْرُ مَحْتَاجٍ إِلَى السَّرِجِ  
وَجْهَكَ الْمَأْمُولُ حَبْتًا      يَوْمَ يَأْتِي النَّاسَ بِالْحُجُجِ  
لَا أُنَاحَ اللَّهُ لِي فَرَجًا      يَوْمَ أَدْعُو مِنْكَ بِالْفَرَجِ

وحكي أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال : أعذرنِي فَإِنِّي كُنْتُ فِي وَرْدِي . ثُمَّ وَلَّى وَجْهَهُ إِلَى الثُّبَّةِ وَكَبَّرَ وَمَاتَ . وَذِيلُ السَّكَنَانِي لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ مَا كَانَ صَلاَةً ؟ فَقَالَ لَوْلَمْ يَقْرَبْ أَجَلِي مَا أَخْبَرْتُمْ بِهِ . وَفَقْتُ عَلَى بَابِ قَلْبِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَكَلِمًا مَرَّتْ فِيهِ غَيْرُ اللَّهِ حَبِيبَةً عَنْهُ

وحكي عن المتمر قال : كُنْتُ فِيْمَنْ حَضَرَ الْحَكَمَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ جَاءَهُ الْحَقُّ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ هُوَ عَلَى سَكْرَاتِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ كَانَ وَكَانَ ، فَذَكَرَتْ عَاسَتُهُ ، فَأَفَاقَ فَقَالَ : مَنْ لِمَنْ لَتَكَلَّمَ ؟

قلت أنا : فقال له ملائكة : انزل عليه السلام يقول لي : إني بكل سعي رقيق ، ثم طوى  
ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة ، شهده حذيفة فوجده قلنا : فقال : يا أبا عبد  
هذا أولن ألقى والجرح ، فقال يا أبا عبد الله ، وكيف لا ألقى ولا أجرح وإني لا أعلم أني  
صليت الله في شيء من عملي ، فقال حذيفة : وإيحاء لهذا الرجل الصالح ، يحلف عند موته  
أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله

ومن المتأخرين قال . دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة وهو عليل ، وهو يقول  
يحكك أن تعمل ما تريد ، فارقني . ودخل بعض الشايخ على مشاء الدينوري في  
وعد وفاته فقال له . قل الله تعالى وصنع ومن باب الدعاء ، فضحك ثم قال . منذ ثلاثين سنة  
تعرض علي الجنة بما فيها فله أمرها طرف

وميل لرويم عند الموت . قل لا إله إلا الله . فقال لا أحسن غيره .  
ولما حضر الثوري الوفاة قيل له . قل لا إله إلا الله . فقال أليس ثم أمر  
ودخل الثوري على الشافعي رحمه الله عليهما في مرثته الذي توفي فيه ، فقال له . كيف  
أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال أصبحت من الدنيا راحلا ، وللاخوان مفارقة ، وللسوء عملي  
ملايا ، وللكأس للنية شارباً ، وعلى الله تعالى وارداً ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة  
فأعنيها ، أم إلى النار فأعزها . ثم أنشأ يقول

ولما هم قتي وضافت مناهي جمعت وجاءني نحو عفوك سلمة  
تعاظني ذنبي فلما فرغته بفوك ربي كان عفوك أعظما  
فازلت فاعف عن الذنب لم تزل تجود وتمفو منة وتكرما  
ولولاك لم ينوي إبليس مايد لكيف وقد أغوى صفيك آدم

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة ، سئل عن مسألة . فدمعت عيناه وقال يأتي ،  
باب كنت أدفع خمسا وتسعين سنة ، هوذا يفتح الساعة لي ، لا أدري أيفتح بالسعادة  
أو بالشقاوة ، فأق لي أولن الجواب . فهذه أقاويلهم . وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم  
فقلب على بعضهم أطوف ، وعلى بعضهم الرجاء ، وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل  
واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم

## الباب السادس

في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

أعلم أن الجنائز عبدة البصير، وفيها تنبيه وتذكير لأهل النفقة، فإنها لا تزيد مشاهدتها إلا مساواة، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون، ولا يفكرون أن المخلولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسابهم، واقترض على القرب زمانهم. فلا ينظر هبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها، فإنه محمول عليها على القرب، وكأن قد، ولعله في قد أو بعد غد؛ وروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإننا على الأثر وكان مكحول المشقى إذا رأى جنازة قال: اعدوا فإننا راحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة، يذهب الأول والآخر لاعتقل له. وقال أسيد بن حضير: ماشهدت

جنازة خدتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه

ولما مات أخو مالك بن دينار. خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا ترحمني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا أعلم ما دمت جيا. وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعتي لحزن الجميع

وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنا باكيا

فكنا كان خوفهم من الموت، والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يفكر أفرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يفكر واحد منهم إلا ماشاء الله في جنازة نفسه، وفي حاله إذا حمل عليها. ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المماص والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر، والأحوال التي بين أيدينا، فصرنا نلهو، وننقل، ونشتغل بما لا يستينا، فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة، فإن أحسن لأحوال الحاضرين على الجنائز بكائهم على الميت، ولو عقلا لبكوا على أنفسهم لاعلى الميت فنظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت، فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة. وجه ملك للموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق

وخوف الخاتمة وقد آمن . وقال أبو عمرو بن العلاء . جلست إلى جرير وهو على  
كاتبه شرا ، فأطلت جنازة فأسك وقال . شيتني والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول  
ترونا الجنائز مقبلات وتلو حين تذهب مديرات  
كروعة ثلثة لخار ذئب فلما غاب حادت رائعات

فن آداب حضور الجنائز التفكير والتنبه ، والاستعداد ، والمشي أمامها على هيئة  
التواضع كما ذكرنا آداب وسننه في فن الفقه

ومن آداب حسن الظن باليت وإن كان فاسقا ، وإسامة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها  
بالصلاح ، فإن الخاتمة خطيرة لا تدرك حقيقتها . ولذلك روي عن عمر بن ذر أنه مات واحد  
من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو  
وصلى عليها ، فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله يا أبا فلان ، فلقد صحبت مرثدا  
بالتوحيد ، وضرت وجهك بالسجود . وإن قالوا مذهب وذو خطايا ، فن منا غير مذهب  
وغير ذي خطايا ؟ . ويحكى أن رجلا من اللنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي  
البصرة ، فلم يجد امرأته من يبينها على حمل جنازته ، إذ لم يدرك بها أحد من جيرانه لكثرة  
فسقه . فاستأجرت حمالين ، وحملتها إلى المصلى ، فاصلى عليه أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن  
فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرآته كالمتنظر للجنازة ، ثم قصد  
أن يصلى عليها . فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد ؛ فصلى  
الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه ، فقال قيل لي في المنام أنزل إلى  
موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلى عليه فلانة مغفورة له . فزاد تعجب  
الناس ، فاستدعى الزاهد امرأته ، وسألها عن حاله ، وأنه كيف كانت سيرته . قالت كما  
حرف ، كأن طول نهاره في المأخور مشغولا بشرب الخمر . فقال انظري هل تعرفين منه  
شيئا من أعمال الخير ؟ قالت نعم ، ثلاثة أشياء . كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح  
يبدل ثيابه ، ويتوضأ ، ويصلى الصبح في جماعة ، ثم يسود إلى المأخور ، ويشغل بالفسق  
والذاني أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يقيم أو يقيم ، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه  
إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في غلام الليل

فيكي ويقول يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الحديث ؟ يعني قد  
فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره  
وعن صلة بن أشيم ، وقد دفن أخ له ، فقال على قبره  
فإن تنج منها تنج من ذى عظمة ولا فاني لا أخالك ناجيا

## بيان

سأل القبر وأقوالهم عند القبور

قال <sup>(١)</sup> الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهدهم الناس ؟ قال : « من لم ينس القبر »  
والنبي وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يبقى ولم يمدّ قدّامين أياميه وعدّ نفسه  
« من أهل القبور » . وقيل لملي كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت للقبرة ؟ قال إني أجدم  
غير جيران ، إني أجدم جيران صدق ، يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « ما رأيت منظرًا إلا والقبر أنفع منه »  
وقال <sup>(٣)</sup> عمر بن الخطاب رضي الله عنه . خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى  
اللقابر ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكوا فقال « ما يبكيكم ؟ »  
قلنا يبكي لبائسك قال « هذا قبر أمي أمتة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها  
فأذن لي فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى عليّ فأذكرني ما يذكر أولئك من الرقة »  
وكان <sup>(٤)</sup> عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسل

( الباب السادس في أقوال السارفين على الجنائز واللقابر )

( ١ ) حديث الضحاك قال رجل يارسول الله من أزهدهم الناس قال من لم ينس القبور والى - الحديث : تقدم

( ٢ ) حديث ما رأيت منظرًا إلا والقبر أنفع منه : تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة

( ٣ ) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم

الحديث : وفيه هذا قبر أمتة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي - الحديث : وتقدم

في آداب الصحبة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه

ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه ايوب بن هاني ضعه ابن معين

وقال ابو حاتم صالح

( ٤ ) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه ان القبر أول منازل الآخرة : الترمذي

وحسنه ابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة

من ذلك وقيل له . تذكر الجنة والتار فلا تبكى ، وتبكي إذا وقفت قبر ! فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ الْفَتِيرَ أَوَّلُ مَنْ تَزَالُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ نَبَأَ مِنْهُ حَاسِبُهُ فَمَا بَمَدَّةُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَسْجُ مِنْهُ فَمَا بَمَدَّةُ أَشَدُّ »

وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة ، فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه ! فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه ، فأحييت أن أقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول . أنا بيت الدود وبيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة . هذا ما أعددت لك ، فما أعددت لي ؟

وقال أبو ذر : ألا أخبركم يوم قمرى ؟ يوم أوضع في قبرى . وكان أبو الدرداء يقدم إلى القبور ، فقيل له في ذلك . فقال أجلس إلى قوم يذكرونى مبادئ ، وإذا قتلتم نسايتونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول . يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى ، وكأنى بى أكون مثلهم . ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر ، وقال عمر بن عبد العزيز ليمض جلساته ! يا فلان ، لقد أرتقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربته بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ، ويمر فيه الصديد ، وتخرقه الدبدبان مع تنير الريح ، ولى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال ثم شق شقة خر منشيا عليه . وكان يزيد الرقاشى يقول : أيها المقبور فى حفرته ، والمتخلى فى القبر بوحدته ، الستأنس فى بطن الأرض بأعماله ، ليت شمرى بأى أعمالك استبشرت ، وبأى إخوانك اغتبطت . ثم يبكى حتى يبل عمامته ، ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى . وكان إذا نظر إلى القبور خاركها ينحور الثور

وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يفكر نفسه ، ولم يدع لهم ، فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول : يا أماء ، ليتك كنت بى عقيا ، إن لابتك فى القبر حبسا طويلا ، ومن بعد ذلك منه رحيلا . وقال يحيى يابن معاذ : ابن آدم ، دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه . إن أجبتك من دنياك ، واشتغلت بالرحلة إليه



دخلها وإن أجبت من تبرك منتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن غلواهرك ، إنما البواهي في بواطك

وكان عطاء السلي إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : يا أهل القبور ، متى فواموتاه ، وما ينتم أحمالكم فوا عملاه . ثم يقول : فدا عطاء في القبور ، فدا عطاء في القبور . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح . وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجدّه وروضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجدّه حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرا ، فكان إذا وجد في قلبه نساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ، ثم يقول ( رَبِّ اَرْجِنُونِي لَعَلِّي اُتَمَلُّ صَالِحًا فَيَا تَرَكْتُ )<sup>(١)</sup> يرددها ، ثم يرد على نفسه ، يارب ، قد رجعتك فاعمل

وقال أحمد بن حرب . تتمجّب الأرض من رجل يمد مضجعه ، ويسوى فراشه للنوم فتقول : يا ابن آدم ، لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء ؟

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى . ثم أقبل على قتال : يا ميمون ، هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لغاتهم وعيشتهم ، أما ترام مرعى قد حلت بهم اللثلاث ، واستحكّم فيهم البلى ، وأصابته الهوام مقيلا في أبدانهم . ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحدا أنتم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله . وقال ثابت البناني : دخلت المقابر ، فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : يا ثابت ، لا يفرنك صوت أهلها ، فكلم من نفس منومة فيها . ويروي أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن ففعلت وجبها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الزايا وجلت .

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واحتكفت عليه سنة ، فلما مضت السنة للموت الفسطاط ودخلت المدينة ، فسموا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا ما فسدوا ؟

فسموا من الجانب الآخر ، بل يشوا فانتلبوا .

وقال أبو موسى التميمي : توفيت امرأة الفرزدق ، فخرج في جنازتها وجوه البصرة  
وفهم الحسن . فقال له الحسن : يا أبا فراس ، ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال شهادة  
أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تماضي      أشد من القبر التهابا وأضيحا  
إذا جاءني يوم القيامة قائدا      حنيف وسواق يسوق الفرزدقا  
لقد خاب من أولاد آدم من مشى      إلى النار مخلول القلادة أزرقا  
ولم أنشدوا في أهل القبور :

فب بالقبور وقل على ساحاتها      من منكم النمرور في ظلماتها  
ومن المكرم منكم في قمرها      قد ذاق برد الأمن من روعاتها  
أما السكون لدى البيوت فواحد      لا يستبين الفضل في درجاتها  
لو جابوك لأخبروك بالسن      نصف الحقائق بمد من حالاتها  
أما المطيع فتأزل في روضه      يغضى إلى ماشاء من دوحاتها  
والجرم الطافي بها متقلب      في حفرة يأوئى إلى حياتها  
وعقاب تسمى إليه فروجه      في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها      إذا كنت في القبر قد ألدوكا  
فكيف أذوق لطم الكرى      وأنت يمينك قد وستوكا

ثم قالت : يا ابناء ، ليت شمري بأي خديك بدأ الدود ؟ فصق داود مكانه وخر مغشيا عليه  
وقال مالك بن دينار . مررت بالمقبرة فانشأت أقول :

أبيت القبور فناديتها      فأين للمطم والمحتضر  
وأين للسيد بسلطانه      وأين للمزكي إذا ما افتخر

قال . فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فاعجب      وماتوا جميعا ومات الغيب

تروح وتنفذ بنات الشرى      نذحو دما من تحت السورى  
فيا سالى عن أناس مذورا      أمالك فيما ترون من  
قال : فرجعت وأنا باليه

أيات وجبت مكتوبة على العبد .

ووجد على قبر مكتوبا على قبر .

تأجيك أجدات وعن صوت      وسكاتها تحت التراب خفيت  
أيا جامع الدنيا لنسير بلاغه      لمن تجمع الدنيا وأنت تميزت  
ووجد على قبر آخر مكتوبا

أيا فاني أما ذاك فواسع      وعبرك معمود الجوانب عكم  
وما ينفع المقبور عمران قبره      إذا كان فيه جسمه يتهم  
وقال ابن السماك : مررت على المتابر فإذا على قبر مكتوب .

عمر أقاربى جنات قبري      كأن أقاربى لم يمرقوني  
ذو لليراث يقتسمون مالي      وما يألون أن جعلوا ديوني  
وقد أعنوا سهامهم وماشوا      فيالله أسرع مانسوتي  
ووجد على قبر مكتوبا

إن الحبيب من الأحباب مختلس      لا يمنع الموت بواب ولا حرس  
فكيف تفرح بالدينا ولقتها      يامن يعد عليه اللفظ والنفس  
أصبحت يا غافلا في النقص منقسا      وأنت دهرك في الذات منقس  
لا يرحم الموت ذا جهل لفرته      ولا التي كان منه العلم يقتبس  
كم أخرس الموت في قبر وقت به      من الجواب لسانا ما به خرس  
فدكان قصرك مسوزا له شرفه      قتيبك اليوم في الأجدات سندرس  
ووجد على قبر آخر مكتوبا

وقفت على الأجرة حين صفت      قبورهم كأفراس الرهسان  
فلسا أن بكيت وفاض دمي      رأيت عيشاي بينهم مكاني  
ووجد على قبر طيب مكتوبا

قد قلت لما قال لي قائل قد صار لقمان إلى رمله  
فأين ما يوصف من ماله وحذقه في الماء مع جسده  
هيئات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه  
ووجد على قبر آخر مكتوبا

يا أيها الناس كان لي أمل قصري عن بلوغي الأجل  
فليتق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل  
ما أنا وحدي قلت حيث ترى كل إلى مثله سينقل

فهذه آيات كتبت على قبور لتقصير سكانها من الاعتبار قبل الموت، والبصير هو  
الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم، فيستمد للحق بهم، ويعلم أنهم  
لا يرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم. وليتحقق أنه لو مرض عليهم يوم من أيام عمره  
الذي هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بمخافيرها، لأنهم عرفوا قدر  
الأعمال، وانكشفت لهم حقائق الأمور. فلما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك  
المقصر به تقصيره فيخلص من العقاب، ويستزيد الموفق به رتبته فيضاعف له الثواب  
فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت قادر على  
تلك الساعة، وأملك تقدر على أمثالها، ثم أنت مضى لها. فوطن نفسك على التحسر على  
تضييدها عند خروج الأمر من الاختيار، إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار  
فقد قال بعض الصالحين: رأيت أخا لي في الله فيما يرى النائم، فقلت يا فلان عشت الحمد لله  
وب المالين، قال لأن أقدر على أن أقولها، يعني الحمد لله رب المالين، أحب إلي من الدنيا  
وما فيها. ثم قال: ألم ترجيت كانوا يدفنونني، فإن فلانا قد قام فعلى ركنين، لأن أكون  
أقدر على أنه أسلبها أحب إلي من الدنيا وما فيها

## بيان

ألا ويلهم عند موت الولد

سبق على من مات ولده أو قريب من أقاربه، أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة  
على كائنا في سفره، يسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا ينظم عليه تأسفه

لعله أنه لاحق به على القرب، ونيس بينهما إلا تقدم وتأخر. وهكذا الموت، فإن معناه السبق إلى الوطن، إلى أن يلحق المتأخر. وإذا اعتقد هذا قل جزءه، وحزنه، لاسيما وقد وزد في موت الولد من الثواب ما يبرزى به كل مصاب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَأَنْ أَدُمَّ سَقَطًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخْلَفَ مِائَةَ قَارِسٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر عمل الولد من القلب. وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام، غزن عليه حزنا شديدا، فقيل له: ما كان عدله عندك؟ قال: مله الأرض ذهابا. قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك؟ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَمُوتُ لِأَخِيهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَوْلَادِهِ يَحْسِبُهُمْ إِلَّا كَأَنَّهُ جَنَّةٌ مِنَ النَّارِ» وقالت امرأة من رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو انسان؟ قال: «أَوْ اثْنَانِ»

وليخلص الوالد الدماء لولده عند الموت، فإنه أرجى دماء وأقرب إلى الإجابة. ووقف محمد ابن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له، وأخافك عليه، غفقت رجائي وآمن خوفي. ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد غفرت له ماوجب له عليه، فاغفر له ماوجب لك عليه، فإنك أجود وأكرم. ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ماصرفه من برى، فهب له ماصرفه من طاعتك.

ولما مات ذر بن عمر بن ذر، قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وسمه في لحده فقال: يا ذر لقد شغلنا الحزن لك من الحزن عليك، ظلت شمرى ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم قال: اللهم إن هذا ذر، متمتع به مامتتى، ووفيته أجله ورزقه ولم تغلظه. اللهم وقد كنت أزمته طاعتك وطاعتى، اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تمذه. فأبكى الناس، ثم قال متناصرا فيه: ما علينا بذلك من خصاصة يا ذر.

(١) حديث لأن أدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله: لإيجاد فيه

ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أئمنه بين يدي أحب إليه

من فارس أخلفه خلق

(٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحسبهم - الحديث: يندم في التبع

وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فقلد مضينا وتركناك ، ولو أقنا ما نفعناك  
ونظر رجل إلى امرأة باليرة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة ، وما ذاك إلا من قلة  
الحزن . فقالت يا عبد الله ، إني لنى حزن ما يشركنى فيه أحد . قال فكيف ؟ قالت إن زوجى  
ذبح شاة فى يوم عبد الأضنى ، وكان لى صبيان مليحان يلعبان ، فقال أكبرهما للآخر .  
أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاة ؟ قال نعم . فأخذه وذبحه ، وما شعرنا به إلا منسحقا  
فى دمه . فلما ارتفع الصراخ هرب الصلّام فلجأ إلى جبل ، فرمقه ذئب فأكله ، وخرج  
أيوة يطلبه ، فأت عطشا من شدة الحر . قالت فأردنى الدهر كما ترى  
فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع  
فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها ، وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر

## بيان

زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكّر والاعتبار . وزيارة قبور الصالحين مستحبة  
لأجل التبرك مع الاعتبار . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> نهى عن زيارة القبور  
ثم أذن فى ذلك بعد : روى عن علي رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> أنه قال  
« كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَرَوُّوْهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ بِالْآخِرَةِ غَيْرَ  
أَنْ لَا تَقُولُوا هُجْرًا »<sup>(٣)</sup> . وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى ألف مقنع ، فلم  
يُمرّ بها كذا أكثر من يومئذ<sup>(٤)</sup> . وفى هذا اليوم قال « أُذِنَ لِي فِي الزِّيَارَةِ دُونَ الْاسْتِفْخَارِ »

- (١) حديث نهى عن زيارة القبور ثم أذنه فى ذلك : مسلم من حديث بريدة . وقد تسم
- (٢) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا : رواه  
أحمد وأبو يعلى فى مسنده وابن أبي الدنيا فى كتاب القبور والنظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى  
غير أن لا تقولوا هجرا وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابتة قال البخارى لم يصح  
وربيعة ذكره ابن حبان فى الثقات
- (٣) حديث زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى ألف مقنع فلم يمرّ بها كذا أكثر من يومئذ : ابن أبي الدنيا  
فى كتاب القبور . من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأفسس متروك ورواه بنحوه  
من وجه آخر كذا منه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يؤذن له فى الاستفخار لها
- (٤) حديث وقال فى هذا اليوم أذن لى فى الزيارة دون الاستفخار : تعلّق فى الحديث قبله من حديث بريدة

كما أوردنا من قبل . وقال <sup>(١)</sup> ابن أبي مليكة : أفلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر ، فقلت يالأم المؤمنين من أين أفلت ؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن . فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها ولا يبنى أن يتمسك بهذا فيؤذن للفناء في الخروج إلى المقابر ، فإنهم يكثرن المخرج على رؤس المقابر ، فلا يفي خير زيارتهن بشرها ، ولا يخلون في الطريق من تكشف وتبرج وهذه عظامهم ، والزيارة سنة ، فكيف يحتمل ذلك لأجلها ؟ نعم لأبأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها ، وذلك بشرط الاقتصار على الدماء ، وترك الحديث على رأس القبر . وقال <sup>(٢)</sup> أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **زُرِ الْقُبُورَ تَذَكَّرَ بِهَا الْآخِرَةُ وَاعْسَلِ الْمَوْتَى فَإِنَّ مَسَاجِدَ جَسَدِ خَلْقٍ مَوْعِظَةٌ بِلِقَاءِ وَصَلٍ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يُخْرِجَ نَفْسٌ مِنَ الْحَيِّينَ فِي ظِلِّ اللَّهِ** ،

وقال ابن أبي مليكة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> : **زُورُوا مَوْتَكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِزَّةً** ،

وعن نافع ، أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر مهاجرة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده

وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> : **مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبِيهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ**

أعلم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن استغفر لأبي  
لم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي

( ١ ) حديث ابن أبي مليكة أفلت عائشة يوما من المقابر فقلت يالأم المؤمنين من أين أفلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنها قالت نعم ثم أمر بها :  
ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد

( ٢ ) حديث أبي ذر زر القبور تذكّر الآخرة واعسل الموتى فإن مساجد جسد خلق موعظة بليغة - الحديث :  
ابن أبي الدنيا في القبور والحاجم بإسناد جيد

( ٣ ) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلّموا عليهم وصلوا عليهم - الحديث : ابن أبي الدنيا له  
هكذا مرسلًا وإسناده حسن

( ٤ ) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا : الطبراني في الصغير والواوسط  
من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان بره وهو مشهور محمد

فَقَرَأَ لَهُ وَكَتَبَ بِهَا . وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> :  
 « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالِدَاهُ وَهُوَ قَاتِلُهُمَا فَيَدْعُو اللَّهَ لَهَا مِنْ بَعْدِهَا فَيَكْتُمُ اللَّهَ  
 مِنْ آبَائِهِ » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> : « مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَّهَتْ لَهُ شَفَاعَتِي ،  
 وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٣)</sup> : « مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال كعب الأحبار : ما من جُرْ يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة  
 حتى يحفوا بالنبر ، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حتى إذا أمسوا  
 هرجوا وهبط منهم ، ففسنوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا  
 من الملائكة يوقرونه .

والمتحجب في زيارة القبور أن يقف مستدير القبلة ، مستقبلا بوجهه الميث ، وأن يسلم ، ولا  
 يسبح القبر ، ولا يسمه ، ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى قال نافع : كان ابن عمر رأته مائة مرة  
 لأولئك كثير ، يحيي إلى القبر فيقول : السلام على النبي السلام على أبي بكر . السلام على أبي ، وينصرف  
 وعن أبي أمامة قال : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف ، فرفع

يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف  
 وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> : « مَا مِنْ رَجُلٍ  
 يَمُوتُ فَقَدْ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عَنْدَهُ إِلَّا اسْتَأْذَنَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ »  
 وقاله سليمان بن سعيد : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت  
 يا رسول الله ، هؤلاء الذين يأونك ويسلمون عليك ، أتفقهم سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم

ابن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء الجعفي مترك

( ١ ) حديث ابن سيرين أن الرجل يموت والداه وهو قاتل لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله  
 من البارين : ابن أبي الدنيا في هو مرسل صحيح الاستاذ ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عتبة  
 ابن أبي العزار عن محمد بن حجاج عن أنس قال ورواه الملت بن الحجاج عن ابن حجاج

عن قتادة عن أنس ويحيى بن عتبة والمثل بن الحجاج كلاهما ضعيف

( ٢ ) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي : تقدم في أسرار الحج

( ٣ ) حديث من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة : تقدم فيه

( ٤ ) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الاستأذان يورد عليه حتى يقوم : ابن أبي الدنيا

في القبور وفيه محمد بن عثمان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث

ابن أبي عمير هو صحيح عبد الحق الأشيلي



وقال أبو هريرة . إذا مرّ الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه  
 وإذا مرّ بقبر لا يعرفه وسلم عليه ، رد عليه السلام  
 وقال رجل من آل عاصم الجعدي : رأيت صاحباً في منابى بعد موته بسنتين ، قلت  
 أليس قد مت ؟ قال بلى . قلت أين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا وقر  
 من أصحابي ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني ، فتتلاق أخباركم .  
 قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيئات بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال قلت  
 فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ، ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت  
 إلى طلوع الشمس . قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها . قال لفضل يوم الجمعة وعظمه  
 وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة ، فقيل له لو أخرت إلى يوم الإثنين . قال بلني  
 أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ، ويوما قبله ، ويوما بعده  
 . وقال الضحاك : من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته . قيل  
 وكيف ذاك ، قال لمكان يوم الجمعة  
 وقال بشر بن منصور . لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبابة فيشهد الصلاة  
 على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال . آس الله وحشتكم ، ورحم غريبتكم  
 وتجاوز من حيثانكم ، وقبل الله حسناتكم . لا يزيد على هذه الكلمات . قال الرجل .  
 فأسميت ذات ليلة ، فانصرفت إلى أهلي ، ولم آت المقابر فأدعوا كما كنت أدعو ، فبينما  
 أنا نائم ، إذا بمخلوق كثير قد جاءوني ، فقلت ما أنتم ، وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر  
 قلت ما جاء بكم ، قالوا : إنك قد عودتنا منك هدية منذ انصرافك إلى أهلك . قلت وما هي ؟  
 قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها . قلت فإني أعود لذلك . فأتوا كتما بعد ذلك  
 وقال بشار بن غالب النجرائي : رأيت رابعة المدوية المابدة في منابى ، وكنت كبير  
 الدماء لها ، فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور ، وخمرة يتناديل  
 الحرير قلت : وكيف ذلك ؟ قالت وهكذا دعاء للمؤمنين الأحياء إذا دعوا الموتى فاستجيب لهم  
 جعل ذلك الدماء على أطباق النور ، وخمر يتناديل الحرير ، ثم أتني به الميت ، فقيل له هذه

هدية فلان إليك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا نَلَيْتُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا كَالْتَرِيقِ  
فَالْتَرِيقُ يَنْتَظِرُ دَعْوَةَ تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ فَإِذَا لَحِقَتْهُ كَانَتْ  
أَحْسَبَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَإِنْ هَذَا بِأَلَا حَيَاةَ لِلْأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالِاسْتِغْفَارُ »  
وقال بعضهم: مات أخ لي، فرأيت في المنام قتلت ما كان حاله بحيث وضعت في قبره  
قال أنثى لآت بشهاب من ناز، فلو أن داعيا دعا لي رأيت أنه سيفرض بي به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له . قال <sup>(٢)</sup> « سعيد بن عبد الله الأزدي :  
شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في الزرع ، فقال ياسعيد ، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا  
وسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَسَوْفَ نُسَمِّعُ عَلَيْهِ التَّرَابَ فَلْيَتَمَّ  
أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ يَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَلَا يُحِيبُ ثُمَّ يَقُولُ  
يَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانَةَ الثَّانِيَةَ فَإِنَّهُ يَسْتَوِي فَأَعِدْنَا ثُمَّ يَقُولُ يَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانَةَ الثَّالِثَةَ فَإِنَّهُ  
يَقُولُ أُرْسِدْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَلَكِنْ لَا تَسْمَعُونَ فَيَقُولُ لَهُ إِذَا كُنَّا مَخْرَجَتْ عَلَيْهِ مِنْ  
الدُّنْيَا شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّكَ رَضِيتَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ  
دِينًا وَيُعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَالْقُرْآنَ إِمَامًا فَإِنْ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا يَتَأَخَّرُ كُلُّ  
وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَيَقُولُ أَنْطَلِقْ يَا مَا بَعْدُنَا عِنْدَ هَذَا وَقَدْ لَقِّنَ حُجَّتَهُ وَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّ  
وَجَلَّ حَاضِرًا دُونَهُمَا » فقال رجل يارسول الله ، فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال فلينسبه إلى حواء  
ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . دوي عن علي بن موسى الحداق قال : كنت  
مع محمد بن حنبل في جنازة ، ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل

( ١ ) حديث مالك في قبره الاكثريق للثوث ينتظر دعوة تلاحه من أبيه أو من أخيه أو صديق له  
الحديث : أبو منصور الديلي في مستند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي  
ابن عبد الواحد قال للدهي حدث عن هشام بن عمر بحديث باطل

( ٢ ) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال شهدت أبا أمامة الباهلي - وهو في الزرع فقال ياسعيد أذامت  
فاصنعوا بي كما أمرنا - رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أذامت أحدكم فسوف نسمع عليه التراب  
فلينم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة - الحديث : في تلقين الميت في قبره الطبراني  
هكذا يستند ضعيف

ضريح يقرأ عند القبر، فقال له أحمد: يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة قلما خرجنا من  
 القباير قال محمد بن تدامة لأحد: يا أبا عبد الله، ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلي؟  
 قال ثقة. قال هل كتبت عنه شيئا؟ قال نعم. قال أخبرني مبشر بن إسماعيل، عن  
 عبد الرحمن بن النلاء بن الجلاج، عن أبيه، أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة  
 البقرة وخاتمتها. وقال: سمعت ابن عمر يوصي بذلك. فقال له أحمد: فارح إلى الرجل  
 فقل له يقرأ. وقال محمد بن أحمد اللروزي، سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا دخلتم القباير  
 فافرحوا بفاتحة الكتاب، وللمؤذين، وقل هو الله أحد، واجعلوا ثواب ذلك لأهل القباير  
 فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة، فنزلت الخندق، فتطهرت  
 وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فتمت، ثم تنبّهت، فإذا صاحب القبر  
 يشتكيني يقول: لقد آذيت منذ الليلة، ثم قال: إنكم لاتملكون ونحن نعلم ولا نقدر على  
 العمل. ثم قال: للركعتان اللتان وكنتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله عنا  
 أهل الدنيا خيرا، أفرهم السلام، فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال

فالمقصود من زيارة القبور لزيارة الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغي  
 أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه ولغيره، ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار بأن  
 يصور في قلبه لليت كيف تفرقت أجزاءه، وكيف يبعث من قبره، وأنه على القرب  
 صليح به، كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال: كانت عجوز في عبد القيس  
 متمدة، فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المهراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى  
 القبور، فبنتي أنها عوتبت في كثرة إتيانها للقباير فقالت: إن القلب القاسي إذا جفأ لم  
 يلين إلا رسوم البلى، وإنى لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها،  
 وكأني أنظر إلى تلك الوجوه التمتعة، وإلى تلك الأجسام المتغيرة، وإلى تلك الأجفان  
 الدسمة، فيألمها من نظرة لو أشر بها العباد فلويهم ما أنكل مرارتها للأنفس، وأشد ثقلها  
 للآبدان. بل ينبغي أن يحضر من صورة الليت ما ذكره عمر بن عبد العزيز، حيث دخل  
 عليه فقيه، فتمجب من تميز صورة لكثرة الجهد والعبادة، فقال له يا فلان، لو رأيته

بعد ثلاث وقد أدخلت قبري ، وقد خرجت الحدقتان فسانا على الحدين ، وتقلصت الشفتان عن الاسنان ، وخرج الصديد من الفم ، وانفتح الفم ، وتنا البطن فعلا الصدر ، وخرج الصلب من الدبر ، وخرج الدود والصديد من المناخر ، رأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت ، وألا يذكر إلا بالجميل . قالت عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا مَاتَ حَاجِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلَا تَقْعُوا فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا تَسْبُوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضُوا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لَا تُذَكِّرُوا مَوْتَكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَأْتُوا وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَنْفُسُهُمْ مَا هُمْ فِيهِ »

وقال <sup>(٤)</sup> أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا عليها شرا ، فقال عليه السلام « وَجِبَتْ » ومروا بأخرى ، فأتوا عليها خيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَجِبَتْ » فسأله عمر عن ذلك فقال « إِنْ هَذَا أَتَيْنِي عَلَيْهِمْ خَيْرًا كَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَهَذَا أَتَيْنِي عَلَيْهِمْ شَرًّا كَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ » وقال <sup>(٥)</sup> أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ أَلْبَدَ كَيْمُوتُ فَيُنْتَبِى عَلَيْهِ الْقَوْمُ الثَّنَاءُ يَدْلُمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عِبْدِي عَلَى عِبْدِي وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عِبْدِي »

(١) حديث إمامات حاجبكم فدعوه ولا تقعوا فيه : أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد

(٢) حديث لا تسبوا الأموات فاتهم قد أفضوا إلى ما قدموا : البخاري من حديث عائشة أيضا

(٣) حديث لا تذكروا موتكم إلا بخير - الحديث : ابن أبي الدنيا في الوتر هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة جيد مقصرا على ما ذكر منه هنا بلفظ هلككم وذكره بالزيادة صاحب مستدرك الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني

(٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت . الحديث : متفق عليه

(٥) حديث أبي هريرة أن العبد يموت فينتبى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك - الحديث : أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل ما من عبد مسلم يموت فيشده له ثلاث أبيات من جبرانه الأدنين خير الأقال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبدي على ما علموا وغفرت له ما علموا

## الباب السابع

في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفعه الضرر

## بيان

حقيقة الموت

اعلم أن الناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأ فيها . فظن بعضهم أن الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأي الملحدين . وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ، ولا يتألم بمقاب ، ولا ينتم شواب مادام في القبر ، إلى أن يمادى في وقت الحشر

وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما الثاب والمغيب هي الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تموت ولا تحشر أصلا

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنتقل به الآيات والأخبار ، أن الموت منتهى تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما ممدة وإما منعمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد من طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى أنها لتبطن باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن ، والنم ، والكفة ، ويتم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيمتلئ بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما يحكم به على كل عي من عباد

وإنما تمطل الجسد بالموت يضاهي تمطل أعضاء الزمن بسداد مزاج فيه ، وبسدة

تقع في الأعصاب تنعم نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح الماتة ، الماتة ، المدركة ، باقية مستعملة لبعض الأعضاء ، وقد استصحب عليها بعضها والموت عبارة عن استمضاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات ، والروح هي المستعملة لها . وأعني بالروح المنى الذي يدرك من الإنسان للعلوم ، وآلام القوم ، ولذات الأفراس . ومهما يطل تصرفها في الأعضاء لم يطل منها العلوم والإدراكات ، ولا يطل منها الأفراس والقوم ، ولا يطل منها قبولها للآلام والذات . والإنسان بالحقيقة هو المنى المدرك للعلوم وللآلام والذات وذلك لا يموت ، أي لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانه خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة . فالوقت زمانه مطلقة في الأعضاء كلها . وحقيقة الإنسان نفسه وروحه ، وهي باقية . ثم تغير حاله من جهتين .

أحدهما : أنه سلب منه عينه ، وأذنه ، ولسانه ، ویده ، ورجله ، وجميع أعضائه . وسلب منه أهله ، وولده ، وأقاربه ، وسائر معارفه : وسلب منه خيله ، ودوابه وغلاته ، ودوره ، وعقاره ، وسائر أملاكه . ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان ، وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن للزلم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل ، وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال ، والألم واحد في الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان من أمواله وإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم . فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به واستريح إليه ، ويمتد بوجوده ، فيعظم تحمره عليه بعد الموت ، ويصعب شقاؤه في مفارقتها ، بل يلتصق قلبه إلى واحد واحد من ماله . ووجهه ، وعقاره ، حتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به . وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ، ولم يأنس إلا به ، عظم نسيه ، وتمت سعادته ، إذ خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه الموانع والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة

والثاني : أنه يكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة ، كما قد يكشف للشيخ

ما لم يكن مكشوفاً في النوم . والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوى في سر قلبه ، وكان يشغله عن الاملاخ عليه شواغل الدنيا . فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سبئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له ( كَفَى بِنَفْسِكَ أَيَّوَمَ عَلَيْكَ حَسِيباً <sup>(١)</sup> ) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس ، وقبل الدفن ، وتشتمل فيه نيران الفراق ، أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية ، دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بفراقته بقية الزاد ، إذ لم يكن يريد الزاد لئنه ، وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة ، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده ، واستغنى عنه

وهذه أنواع من المذاب والآلام عظيمة ، تهجم عليه قبل الدفن ، ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من المذاب ، وقد يبقى عنه . ويكون حال المتنعم بالدنيا ، المطمئن إليها ، كمال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره ، وملكه ، وحريره ، اعتماداً على أن الملك يتساهل في أمره ، أو على أن للملك ليس يدري ما يتأطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بئته ، وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجنائاته ذرة ذرة ، وخطوة خطوة ، وللملك قاهر متمسك ، وغيور على حرمه ، ومتقمم من الجنة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في المصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف ، والحجة ، والحياء ، والتحسر ، والتندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا ، المطمئن إليها ، قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نموذج بالله منه ، فإن الخزي والافتضاح وهتك السترا أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع ، وغيرها . فهذه إشارة إلى حال الميت عند اللوت : شاهداً أولاً البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين . وتشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة . ثم لا يمكن كشف النقطاء عن كنه حقيقه اللوت ، إذ لا يعرف اللوت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة

حقيقة الروح في نفسها، وإدراك ماهية ذاتها<sup>(١)</sup> ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول: الروح من أمر ربى، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة أما الآيات: فأورد في الشهداء، إذ قال تعالى (وَلَا تَحْصِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَا عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرَجِحْ<sup>(٢)</sup>) ولما<sup>(٣)</sup> قتل صناديد قريش يوم بدر نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدْتَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فقبل بإرسول الله أنناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم: وَالَّذِي تَفْنِي بَيَدِهِمْ لَا تَنْفَعُ هَذَا التَّكْلَامَ مِنْكُمْ إِلَّا أَنْتُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ، فهذا نص في بقاء روح الشقي، وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص في أرواح الشهداء، ولا يتخلو الميت عن سعادة أو شقاوة.

وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>: «الْقَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ» وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير جال فقط، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أمه.

«اروى» أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الْمَوْتُ الْقِيَامَةُ قَبْلَ مَاتَ قَدْ لَامَتْ وَيَأْتُهُ»

#### ( الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر )

(١) حديث أنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أن يتكلم في الروح: متفق عليه من حديث

ابن مسعود في سؤال اليهودي عن الروح ويؤول قوله تعالى ويشتاؤك عن الروح وقد تقدم

(٢) حديث ثمانية من قتل من صناديد قريش يوم بدر يافلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا - الحديث ٤

سلم من حديث عمر بن الخطاب

(٣) حديث القبر إما حفرة من حفرة النار أو روضة من رياض الجنة: الترمذي من حديث أبي سعيد

وقدم في الزجاء والحروف

(٤) حديث أنس الموت للقيامة من مات فقد ماتت قوامته ابن أبي الدنيا في الموت باستاد طريف وقد تقدم



وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ عَذْوَةٌ وَعَشِيَّةٌ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّ النَّارَ يُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تَبْتَغِيَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال كنا مع علقمة في جنازة ، فقال : أما هذا فقد قامت قيامته وقال علي كرم الله وجهه : حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار

وقال <sup>(٢)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ غُرْبًا مَاتَ شَهِيدًا وَوَقِيَ فِتْنَانَاتِ الْقَبْرِ وَغُدْيَ رِيحٍ عَلَيْهِ يَرْزُقُهُ مِنَ الْجَنَّةِ » وقال مسروق : ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في اللحد ، قد استريح من نصب الدنيا ، وأمن عذاب الله

وقال يعلی بن الوليد : كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء ، فقلت له . ما تحب لمن تحب ؟ قال الموت . قلت فإن لم يموت ! قال يقل ماله وولده . وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب لله المال والولد لأنه فتنة وسبب للانسان بالدنيا ، والأنس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء ، فكل ما سوى الله ، وذكره . والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لاغصالة . ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه ، فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذي ذكره حال من يخاف من الدنيا وتبرم بها ، ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحجب عن محبوه ، ومقاساة الشهوات تؤذيه ، فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات ، وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير حائق ولا دافع ، وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات

( ١ ) حديث إمامنا أحمد كرم الله وجهه عليه مقعده بالقدوة والمشي - الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر

( ٢ ) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتنة القبر ولين ما به منه ضعف وقال قتادة

لقبر وقال ابن أبي الدنيا فتان

وَأَكَلَ اللَّذَاتِ لِلشَّهَادَةِ الَّذِينَ تَلَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَأَنَّهُمْ مَا أَقْدَمُوا عَلَى الْقِتَالِ إِلَّا قَاطِعِينَ  
 فَتَفَتَّمْهُمْ عَنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا، مُشْتَاقِينَ إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ. رَاضِينَ بِالْقِتْلِ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِهِ. فَإِنْ  
 نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا فَقَدْ بَاعَهَا طُلُوعًا بِالْآخِرَةِ، وَالبَائِعُ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُهُ إِلَى الْمَبِيعِ. وَإِنْ نَظَرَ إِلَى  
 الْآخِرَةِ فَقَدْ اشْتَرَاهَا وَتَشَوَّقَ إِلَيْهَا، فَمَا أَعْظَمَ فَرْحُهُ بِمَا اشْتَرَاهُ إِذَا رَأَاهُ، وَمَا أَقْلَ التَّفَانَةِ  
 إِلَى مَا بَاعَهُ إِذَا فَارَقَهُ. وَتَجَرَّدَ الْقَلْبُ لِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ يَتَّفِقُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَلَكِنْ  
 لَا يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ عَلَيْهِ فَيُتَتَبَرُّهُ، وَالْقِتَالُ سَبَبٌ لِلْمَوْتِ، فَكَانَ سَبَبًا لِإِدْرَاكِ الْمَوْتِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ  
 فَلَهُذَا عَظُمَ النِّعَمُ، إِذْ مَعْنَى النِّعَمِ أَنْ يَنَالِ الْإِنْسَانُ مَا يَرِيدُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَلَهُمْ مَا

يَشْتَهُونَ<sup>(١)</sup>) فَكَانَ هَذَا أَجْمَعَ عِبَارَةً لِمَا فِي لَدَاتِ الْجَنَّةِ

وَأَعْظَمَ الْمَذَابِ أَنْ يَنْجِيَ الْإِنْسَانُ مِنْ مَرَادِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ  
 مَا يَشْتَهُونَ<sup>(٢)</sup>) فَكَانَ هَذَا أَجْمَعَ عِبَارَةً لِمَقْوِيَّاتِ أَهْلِ جَهَنَّمَ

وَهَذَا النِّعَمِ يَدْرِكُهُ الشَّهَادَةُ كَمَا اقْطَعَ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرٍ، وَهَذَا أَمْرٌ أَنْكَشَفَ لِأَرْبَابِ  
 الْقُلُوبِ بُورَ الْيَقِينِ، وَإِنْ أُرِدْتُ عَلَيْهِ شَهَادَةً مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَجَمِيعُ مُحَادِثِ الشَّهَادَةِ تَدُلُّ  
 عَلَيْهِ، وَكُلُّ حَدِيثٍ يَشْتَمِلُ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مُنْتَهَى نَيْمِهِمْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى: فَقَدْ رَوَى عَنْ<sup>(٣)</sup>  
 مَائِثَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْجَابِرِ «أَلَا أُبَشِّرُكَ  
 بِكِبَارٍ؟» وَكَانَ قَدْ اسْتَشْهَدَ أَبُوهُ يَوْمَ أَحَدٍ، فَقَالَ عَلَى بَشْرِكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ. فَقَالَ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ  
 وَجَلَّ قَدْ أَحْبَبَ أَبَاكَ وَأَقْدَمَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ عَنِّي عَلِيٌّ عَبْدِي مَا شِئْتُ أُعْطِيكَ فَقَالَ  
 يَا رَبِّ مَا مَهْدَنُكَ حَقٌّ هِيَكَ أَعْنَى عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ  
 فَأَقَاتِلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّكَ إِلَيْهَا لَا تَرْجِعُ»

وَقَالَ كَسْبٌ: يَوْجُدُ رَجُلٌ فِي الْجَنَّةِ يَبْكِي، فَيُقَالُ لَهُ لِمَ تَبْكِي وَأَنْتَ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ أَبِي  
 لَأَنِّي لَمْ أَقْتُلْ فِي اللَّهِ إِلَّا قَتْلَةً وَاحِدَةً، فَكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ أَرُدَّ فَأَقْتُلَ فِيهِ ثَلَاثًا

(١) حَدِيثُ مَائِثَةَ الْأَشْبَارِ بِالْجَابِرِ - الْحَدِيثُ: وَفِيهِ أَنَّ اللَّهَ أَحْبَبَ أَبَاكَ فَأَقْدَمَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ - الْحَدِيثُ:  
 ابْنُ أَبِي هَدْيَا فِي لُؤْلُؤِ إِسْنَادِهِ فِيهِ ضَعْفٌ وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَنٌ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ  
 الْأَشْبَارِ بِأَنَّ اللَّهَ بِهِ أَحْبَبَ قَاتِلَ بَنِي يَرْسُولَ اللَّهِ - الْحَدِيثُ: وَفِيهِ قَالَ يَاعْبُدِي عَنِّي عَلَى  
 لِسَانِكَ قَالَ يَرْسُولُ تَحِيَّتِي فَأَقْتُلَ فِيكَ كَافِيَةَ قَاتِلِ الرَّبِّ سَبْعًا أَوْ سَبْعِينَ عَنْ نِسْمِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ، ويكون مثاله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكفاف ، لا يبلغ طرفه أنصاه ، فيه أنواع الأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والطيور ، فلا يشتهي العود إلى السجن للعظم . وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً (١) فقال لرجل مات « أَصْبَحَ هَذَا مُرْتَحِلاً عَنِ الدُّنْيَا وَرَكَعاً لِأَهْلِهَا فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلَا يَسْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا لَا يَسْرُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ » فمركب هذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا ، كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنْ مَثَلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا بَكَى كُلٌّ عَزْرَجِهِ حَتَّى إِذَا رَأَى الضُّوْءَ وَوَضِعَ لَمْ يَجِبْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَاتِهِ » وكذلك المؤمن يخرج من الموت ، فإذا أفضى إلى ربه لم يجب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لا يجب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن فلانا قد مات . فقال (٣) « مُسْتَرْحٍ أَوْ مُسْتَرْحٍ مِنْهُ » أشار بالمستريح إلى المؤمن ، وبالمستراح منه إلى الفاجر ، إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا صرنا ابن عمر ونحن صبيان ، فنظر إلى قبر ، فإذا جمجمة بادية ، فأمر رجلاً فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً ، وإنما الأرواح التي تعاقب وتتاب إلى يوم القيامة

( ١ ) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره

أن يرجع إلى الدنيا كالابن أحدهم أن يرجع إلى بطن أمه : ابن أبي الدنيا من حديث

عمرو بن دينار مرسله ووجهه ثقات

( ٢ ) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على عزجه حتى

إذا رأى الضوء ووضع لم يجب أن يرجع إلى مكانه : ابن أبي الدنيا فيه من رواية يقيه عن جابر

ابن غانم السلق عن سليم بن عامر الجنائري مرسله هكذا

( ٣ ) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه : متفق عليه

من حديث أبي قتادة يلقط مرسله بخلافه فقال ذلك وهو عبد ابن أبي الدنيا في الموت بالثقة

الذي أورده للمصنف

وعنه عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وسو يعلم ما يكون في أهله بعده ،  
وإنهم ليسوا به ويكفونوه ، وإنه لينظر إليهم

وقال مالك بن أنس : بلغني أن أرواح المؤمنين مرسله تذهب حيث شاءت

وقال <sup>(١)</sup> النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول  
« أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُوتُ فِي جَوْهَا فَأَنَّ اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمْ  
مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ »

وقال <sup>(٢)</sup> أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَقْضُوا مَوْتَكُمْ بِسَيِّئَاتِ  
أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَاءِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ »

ولذلك قال أبو الردهاء : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً آخرى به عند عبد الله  
ابن ربيعة ، وكانت قد مات ، وهو مثله

وسئل عبد الله بن عمرو بن الماص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : في  
حواصل طير يرض في غل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة

وقال <sup>(٣)</sup> أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ أَلَمِيَّتَ  
يَعْرِفُ مَنْ يُسْأَلُهُ وَمَنْ يُحْمِلُهُ وَمَنْ يُدْكِيهِ فِي قَبْرِهِ »

وقال صالح المري : بلغني أن الأرواح تتلاق عند الموت ، فتقول أرواح الموتى للروح

( ١ ) حديث النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدنيا كمثل الذباب يموت في جوفها فأَنَّ اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ : ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أنس عن النعمان من قوله اللَّهُ وَرَوَاهُ بِكَمَالِهِ الْأَزْدِيُّ فِي الضَّعْفَاءِ وَقَالَ لَا يَصِحُّ اسْتَدَاهُ وَذَكَرَهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ فِي الْمَرْجِعِ وَالتَّحْقِيقِ بِكَمَالِهِ فِي تَرْجَمَةِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ السَّكُونِيِّ رَوَاةٌ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ كَلَامَهُمْ كَمَا قَالَ الْأَزْدِيُّ لَا يَصِحُّ اسْتَدَاهُ وَذَكَرَ ابْنَ جِبَانَ فِي الثَّقَاتِ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ

( ٢ ) حديث أبي هريرة لا تقضوا موتكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور : ابن أبي الدنيا وللحافظ إسناده ضعيف ولا يحد من رواية من سمع أناسا عن أنس أن أعمالكم تعرض على أوليائكم وعشائرهم من الأموات - الحديث ؟

( ٣ ) حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يعرف من يسأله ومن يحمله ومن يدكيه في قبره برواه أحمد بن حنبل ورواه عنه جماعة معوية وأما ابن معوية فله نسبة عبد الملك بن حسن

التي تخرج إليهم . كيف كان مأواك ؟ وفي أي الجسد كنت ؟ في طيب أو خبيث ؟  
وقال عبيد بن عمير . أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا ما فعل فلان  
فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا  
وعن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب  
وقال مجاهد : إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره

وروى <sup>(١)</sup> أبو أيوب الأنصاري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **إِنَّ نَفْسَ**  
**الْمُؤْمِنِ إِذَا قُبِضَتْ تَلْقَاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا يُتَلَقَّى الْبَشِيرُ فِي الدُّنْيَا**  
**يَقُولُونَ أَنْظِرُوا أَحَاكُم حَتَّى يَسْتَرْجِعَ قَائِلُهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ فَيَسْأَلُونَهُ**  
**مَاذَا فَعَلَ فَلَانٌ وَمَاذَا فَعَلْتَ فَلَانَةٌ وَهَلْ تَزَوَّجْتَ فَلَانَةً فَلَمَّا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ**  
**قَبْلَهُ وَقَالَ مَاتَ تَحِيَّيَ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ذَهَبَ بِهِ إِلَى أَهْلِ الْمَأْوَى ،**

## بيان

### كلام القبر الميت

وكلام الموتي إما بلسان المقال ، أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من  
لسان المقال في تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> **« يَقُولُ الْقَبْرُ لِلْبَيْتِ**  
**حِينَ يُوَضَّعُ فِيهِ وَيَحْكُ يَا بَنِي آدَمَ مَا غَرَّكَ بِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي بَيْتُ الْفِتْنَةِ وَيَتُ**

(١) حديث أبي أيوب ان نفس المؤمن اذا قبضت تلتقيها أهل الرحمة من عند الله كالتلقي البشير يقولون  
انظروا احاكم حتى يسترجع : ابن ابي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين باسناد  
ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابي ايوب باسناد جيد ورفعه ابن ماعذ في زوائد  
على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث  
ابى هريرة باسناد جيد

(٢) حديث يقول القبر للبيت حين يوضع فيه ويحك يا بني آدم ما غررك بي انك تعلم اني بيت الفتنة الحديث  
ابن ابي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وابو احمد الحاكم في الكنى من حديث  
ابى الهيثم بن الجهم باسناد ضعيف

الْأَلَمَةِ وَرَيْسُ الْوَحْدَةِ وَرَيْسُ الدُّورِ تَأَعَّرَكَ بِي إِذْ كُنْتُ نَحْمِي فَقَذَا فَإِنْ كَانَ  
مَعِي لِمَا أَجَابَ قَتَهُ مُجِيبُ الْقَبْرِ يَقُولُ أَرَأَيْتَ أَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمُرُوفِ  
وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ يَقُولُ الْقَبْرِ إِنِّي إِذَا أَتَحَوُّ عَلَيْهِ خَضِرًا وَيُؤَدُّ جَسَدُهُ نُورًا وَتَصْنَعُ  
رُوحُهُ لِي إِلَهًا تَمَآلَى وَالْقَذَاذُ هُوَ الَّذِي يَسْتَمُ رِجَالًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى ، هَكَذَا فَسِرَهُ الرَّاوى

وقال عبيد بن عمير اللبني : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرة التي يدفن  
فيها . أنا بيت الظلمة والوحدة والافتراق ، فإن كنتَ في حياتك لله مطيعا كنت  
ذلك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك قمة . أنا الذي من دخلني  
مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلني عاصيا خرج مشبورا

وقال محمد بن صبيح : بلتنا أن الرجل إذا وضع في قبره فسلم ، أو أصابه  
بعض ما يكره ، ناداه جيرانه من اللقي : أيها للتخلف في الدنيا بسد إخوانه  
وجيرانه ، أما كان لك فينا متبر ؟ أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة ؟ أما رأيت  
انقطاع أصداننا هنا وأنت في اللمة ؟ فهلا استدركت ما فات إخوانك ! وتناديه بقاع  
الأرض . أيها للتر بظاهر الدنيا ، هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض  
من فرته الدنيا إليك ، ثم سبق به أجله إلى القبور ، وأنت تراه محمولا تهاداه أحبه  
إلى للنزل الذي لا بد له منه

وقال يزيد الرقاشي : بلنى أن ليت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ؛ ثم أنطقها الله  
فتألت : أيها العبد اللعور دق حفرته ، انقطع عنك الأخلاء والأهلون ، فلا أنيس لك اليوم عندنا  
وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة ، الصلاة ، والصيام  
والحج ، والجهاد ، والصدقة ، قال فتجىء ملائكة الملائب من قبل رجله ، فتقول الصلاة  
إليك منة فلا سبيل لكم عليه ، فقد أحال إلى القيام لله عليها . فيأتونه من قبل رأسه .  
فيقول للصيام : لا سبيل لكم عليه ، فقد أحال على الله في دار الدنيا ، فلا سبيل لكم عليه ،  
فيأتونه من قبل جسده ، فيقول للحج والجهاد : لا سبيل لكم منة ، فقد أنصب لله سبيل منة

وحج واجاهد لله ، فلا سبيل لكم عليه ، قال فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كفوا  
عن صاحبي ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى  
ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه

قال فيقال له : ههنا طبت حيا وطبت ميتا . قال وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرش له فراشا  
من الجنة : ودثارا من الجنة ، ويفسح له في قبره مد بصره ، ويؤتى بتعديل من الجنة  
فيستقي بهوره إلى يوم يبعث الله من قبره

وقال <sup>(١)</sup> عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة . بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قال وإن أُميتَ يُقْعَدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشِيْمِهِ فَلَا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إِلَّا قَبْرُهُ يَقُولُ وَيَحْكُ  
ابْنُ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حُذِرْتَنِي وَحُذِرْتَ ضَيْقِي وَتَنِي وَهُوَ لِي وَدُوْدِي فَمَاذَا أَعْدَدْتَ لِي ؟

( ١ ) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أُميتَ وهو يسمع  
خطو مشيحه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم - الحديث : ابن أبي الدنيا في التوبور  
هكذا مرسل ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم ير له





كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

المجلد السادس عشر

دار الشعب

١٤٠٠ هـ / ٢٠١٩ م



## بيان

عذاب القبر وسؤال منكرو ونكير

قال <sup>(١)</sup> البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ، ثم قال « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » ثلاثا ثم قال « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي قَبْرِهِ مِنَ الْآخِرَةِ بَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً كَانُوا وَجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَتَمِّمُ خُوطِهِ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّةَ بَصَرِهِ فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يُجِيبُ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صِيدَ بِرُوحِهِ قِيلَ أَيُّ رَبِّ عَبْدِكَ فَلَانْ يَقُولُ أَرْجِعُوهُ فَأَرْوَهُ مَا عَدَدْتُ لَهُ مِنْ الْكَرَامَةِ قُلْتُ وَعَدْتُهُ ( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ <sup>(٢)</sup> ) الْآيَةُ . وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نَفْسِهِ لَهَا لِمِمْ إِذَا وَلَوْ أُمْدُ بَرٍّ حَتَّى يُقَالَ يَا مَعْذَا مِنْ رَبِّكَ وَمَا دُنَيْكَ وَمَنْ تَبْتَكَ أَفَيَقُولُ رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي الْإِسْلَامُ وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ فَيَنْتَهَرُ إِيَّاهُ انْتِهَارًا شَدِيدًا وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى النَّاسِ فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ نَادَى مُنَادٍ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَهُوَ مَتْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ( يَبْتَكَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ <sup>(٣)</sup> ) الْآيَةُ ثُمَّ بَايَعَهُ آتَى حَسَنُ الْوَجْدِ طَيْبُ الرِّيْعِ حَسَنُ الثَّيَابِ فَيَقُولُ أَبَشِرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَّتْ فِيهَا قِيَمٌ مُقِيمٌ فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَيَسْرَكَ اللَّهُ بِحَبِيرٍ مِنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ وَاللَّهُ مَا عَلِمْتُ أَنْ كُنْتُ تَسْرِبًا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا قَالَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنْ ابْأَفْرِشُوا لَهُ مِنْ قَرَشٍ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيُفْرِشُ لَهُ مِنْ قَرَشٍ الْجَنَّةِ وَيُفْتَحُ

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله

صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم اني اعوذ بك من عذاب القبر - الحديث:

بطوله أبو داود والحاكم بكاه . وقال صحيح على شرط الشيخين وضعه ابن حبان ورواه

النسائي وابن ماجه مختصم

لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ يَقُولُ اللَّهُمَّ قَبَّلْ يَوْمَ السَّاعَةِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَبَنَاتِي قَالَ وَأَمَّا  
 الْكَافِرُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الْأَخِرَةِ وَانْفِطَحَ مِنَ الدُّنْيَا تَرَكْتُ لِإِبْنِ مَلَأْنِيكَ  
 فَلَا ظِلَّ إِذْ مَتَّعْتُمْ يَكُوبَ مِنْ نَارٍ وَسَرَّائِيلَ مِنْ قَطْرَانٍ فَيَخْتَوِ شَوْئَهُ فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ  
 لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَعُلِقَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ  
 مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَسْكُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُمِدَ بِرُوحِهِ نُبَذَ وَبِيلَ أَيُّ رَبِّ  
 قَبَّلَكَ فَلَنْ يَكُنْ مِنْهُمْ مُنْجِيَةً سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَا عَدَدْتُ لَهُ  
 مِنَ النَّارِ لَأَيُّ وَقَدْنُهُ (هَيْهَاتَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ<sup>(١)</sup>) الْآيَةُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفَقَ  
 لِمَاحِيهِمْ إِذَا وَلَوْ أَمْ مَذِيرِينَ حَتَّى يُقَالَ لَهُ يَا هَذَا مِنْ رَبِّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَمَا دِينُكَ؟  
 يَقُولُ لَا أَذْهَبُ فَيُنَادَى لِأَدْرَيْتَ ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ مُتَتِنُ الرِّيحِ قَبِيحُ الثِّيَابِ  
 يَقُولُ أَبَشِرْ بِسَخَطِ اللَّهِ وَبِعَذَابِ أَلِيمٍ مُقْبِعٍ يَقُولُ بَشِّرْكَ اللَّهُ بِشَرِّ مَنْ أَنْتَ؟  
 يَقُولُ أَنَا مَلَكَتُ أَنْبِيَاءُ وَاللَّهُ إِنْ كُنْتُ لَسَرِيحًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ بَطِينًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ  
 لَعَزَّكَ اللَّهُ شَرًّا يَقُولُ وَأَنْتَ فَخَزَّكَ اللَّهُ شَرًّا ثُمَّ يَقْبِضُ لَهُ أَصَمُ أُمَمِي أَبْكَسُكُمْ مَعَهُ  
 مِنْ زَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ عَلَى أَنْ يُبْلِغُوهُمَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا لَوْ ضَرَبَ  
 بِهَا جَبَلٌ صَارَ تُرَابًا فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَابًا ثُمَّ تَعَوَّذُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَضْرِبُهُ بِهَا  
 بَيْنَ قَيْنَيْهِ ضَرْبَةً يَسْمُومُهَا مِنْ عَلَى الْإِلَاحِ رَضِينَ لَيْسَ الثَّقَلَيْنِ قَالَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنْ أَفْرِشُوا  
 لَهُ لَوْحَيْنِ مِنْ نَارٍ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيُفْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ مِنْ نَارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ  
 إِلَى النَّارِ . قال محمد بن علي : ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله

الحسنة وأعمال السيئة . قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته

وقال<sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتَضَرَ  
 أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِحَرِيرَةٍ فِيهَا مِسْكٌ وَصَبَايُرُ الرِّيحَانِ فَتَسْلُ رُوحَهُ كَمَا تَسْلُ

(١) حديث أبي هريرة أن المؤمنين إذا حضروا الملائكة بحريرة فيها مسك وصابائر الريحان . الحديث :

ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبرار يلفظ للمنصف

الشجرة من ألحيين ويُقال أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومترضية عنك إلى رُوح الله وكرامته فإذا أخرجت رُوحه وضمت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبُعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أُنْتُهِمَ لِمَا تَرَكَهُ يَمُجَّجٌ فِيهِ حَمْرَةٌ فَتُزَعَرُ رُوحُهُ انْتِزَاعًا شَدِيدًا وَيُقَالُ أَيْتَهَا النَّفْسُ أَخْبِثِي أَخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطَةً عَلَيْكَ إِلَى هَوَانِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وَضُمَّتْ عَلَى تِلْكَ الْخَمْرِ قُرَى وَإِنْ لَهَا نَيْسَبٌ وَيُطَوَّى عَلَيْهَا السُّحُوبُ وَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى سِجِّينَ .

وعن محمد بن كعب القرظي ، أنه كان يقرأ قوله تعالى ( حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجُونِ ) لَتَلِي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ <sup>(١)</sup> قال أي شيء تريد ؟ في أي شيء ترغب ؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال ، وتفرس الفراس ، وتبنى البنين ، وتشقق الأنهار ؟ قال لا لَتَلِي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ . قال فيقول الجبار . كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، أي ليقولها عند الموت . وقال <sup>(٢)</sup> أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ وَرَحْبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُغِيثُ حَتَّى يَكُونَ كَأَقْصَيْنِ نَيْلَةٍ أَنْبَذَ هَلْ تَذَرُونَ فِيمَا ذَا أَنْزَلْتُ ( فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً مَنَسْكَ ) <sup>(٣)</sup> قالوا الله ورسوله أعلم قال « عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ يَسْلُطُ عَلَيْهِ سَمَةٌ وَتَسْمُونَ تَنِينًا هَلْ تَذَرُونَ مَا تَتَّبِعُونَ تَسْمَةٌ وَتَسْمُونَ حَيَّةٌ لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ يَخْدِشُونَهُ وَيَلْحَسُونَهُ وَيَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ »

ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والقاربات تعدد الأخلاق المذمومة من الكبر ، والرياء ، والحسد ، والغل ، والحقد ، وسائر الصفات ، فإن لها أصولاً ممدودة ، ثم تنشعب منها فروع ممدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام : وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات ، وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين ، والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذي إتياء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها ، وإن مقدار .

( ١ ) حديث أبي هريرة للؤمن في قبره روضة خضراء ورحب له في قبره سبعون ذراعاً الحديث : ورواه ابن حبان

(١) المؤمنون : ١٠٠٤٩٩ (٢) طه : ١٢٤

هدما لا يوقف عليه إلا نور النبوة . فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة ، وأسرار خفية ، ولكنها عند أبواب البصائر واضحة . فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها . بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة وزيارته ، ولان شاهد شيئا من ذلك ، فواجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟

فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا :

أحدها : وهو الظاهر والأصح والأسلم ، أن تصدق بأنها موجودة ، وهي تلدغ الميت ، ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ؟ فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحح أصل الإيمان باللائكة والوحي أم عليك . وإن كنت آمنت به ، وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة ، فكيف لا يجوز هذا في الميت ؟ وكان الملك لا يشبه الأدميين والحوانات ، فالحيات والمقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حياتنا ، بل هي جنس آخر ، وتلدغ بحاسة أخرى

للقام الثاني : أن تذكر أمر النائم ، وأنه قد برى في نومه حية تلدغه ، وهو يتألم بذلك ، حتى تراه يصبح في نومه ، ويرق جبينه ، وقد يزعج من مكانه . كل ذلك يدركه من نفسه ، ويتأذى به كما يتأذى القبطان ، وهو يشاهده ، وأنت ترى ظاهره ساكنا ، ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة في حقه ، والمذاب حاصل ، ولكنه في حلق غير مشاهد . وإذا كان المذاب في ألم اللدغ ، فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد

للقام الثالث : أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم ، بل الذي يلقاك منها وهو السم . ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم . فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان المذاب قد توفر ، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من المذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في المادة . فإنه لو خلق في الإنسان لغة الواقع مثل ما من غير مباشرة صورة الواقع ، لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه ، لتكون الإضافة للتعريف بالسبب ،

وتكون ثمة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب: والسبب يراد لثمة لائقاته، وهذه الصفات المبهكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت، فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات. وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب المشق مؤذيا عند موت المشوق، فإنه كان لقيذا فطرات حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتنع منه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال. بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب اليت، فإنه قد سلط المشق في الدنيا على نفسه، فصار يشق ماله، وعقاره، وجاهه، وولده، وأقاربه، ومعارفه، ولوا أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فإذا ترى يكون حاله؟ أليس يعظم شقاؤه، ويشدد عذابه، ويتنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط. ولا جاه قط، فكنت لأنأذى بفراقه؟ قالوت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا، فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه، ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على مفاته من نعيم الآخرة، والحجاب عن الله عز وجل، فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله، والتنتم به، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته، وحسره على مفاته من نعيم الآخرة أبد الآباد، وذل الرد والحجاب عن الله تعالى، وذلك هو العذاب الذي يمدب به، إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم، كما قال تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمُعْجُزُونَ ثُمَّ لَأَنَّهُمْ لَسَّالُوا الْجَحِيمَ<sup>(١)</sup>)

وأما من لم يأنس بالدنيا، ولم يحب إلا الله، وكان مشتاقا إلى لقاء الله، فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاسات الشهوات فيها، وقدم على محبوبه، وانقطعت عنه الموانئ والصوارف، وتوفر عليه النعم مع الأمن من الزوال أبد الآباد، ولثل ذلك فليعمل الماملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب، آثر الصبر على لدغ العقرب. فإذا ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب، وجبه للفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه، فليستمد لهذه اللدغات، فإن الموت يأخذ.

منه قرصه ، و مركبه ، و داره ، و عقاره ، و أهله ، و ولده ، و أحبابه ، و معارفه ، و يأخذ منه  
 جاهه و قبوله ، بل يأخذ منه سمعه ، و بصره ، و أعضائه ، و ينأس من رجوع جميع ذلك إليه .  
 فإذا لم يجب سواه ، و قد أخذ جميع ذلك منه ، فذلك أعظم عليه من المقارب و الحيات .  
 و إنما لو أخذ ذلك منه و هو حي فيعظم عقابه ، فكذلك إذا مات ، لأننا قد بينا أن المعنى الذى  
 هو للدرك للآلام و اللذات لم يمت ، بل عذابه بعد الموت أشد ، لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب  
 يشغل بها حواسه من مجالسة و محادثة ، و يتسلى برجاء العود إليه ، و يتسلى برجاء العوض  
 منه ، و لا سواة بعد الموت ، إذ قد انسد عليه طرق التسلى ، و حصل اليأس ، فإذا كل قيص  
 له و منديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ، و معذبا به . فإن  
 كان مخفا فى الدنيا سلم ، و هو المعنى يقولهم نجا الخفون . و إن كان مثقلا عظم عذابه  
 و إنما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير ، فكذلك  
 حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين . و هو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>  
 « صاحبُ الدرهم أخفُ حساباً من صاحبِ الدرهمين » و مامن شئ من الدنيا يتخلف  
 هناك عند الموت إلا و هو حصرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر ، و إن شئت فاستقل .  
 فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحصرة ، و إن استقلت فلست تخفف إلا عن  
 ظهرك . و إنما تستكثر الحيات و المقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا  
 على الآخرة ، و فرحوا بها ، و اطمأنوا إليها

فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر و عقابه ، و فى سائر أنواع عذابه  
 رأى أبو سعيد الخدرى أبنا له قدماء فى المنام ، فقال له يابني عظمي . قال لا تخالف  
 الله تعالى فبا يريد . قال يابني زدنى قال يا أبت لا تطيق . قال قل ، قال لا تجعل بينك وبين الله  
 قيصا . فلبس قيصا ثلاثين سنة

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول  
 و أنكر ما بعده . و منهم من أنكر الأول و أثبت الثانى . و منهم من لم يثبت إلا الثالث .  
 و إنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان ، و أن من ينكر

( ١ ) حديث صاحب الدرهم أخف حساباً من صاحب الدرهمين : لم أجده له أصلا



بعض ذلك فهو لغنيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه ومجائب تديره ، فينكر من أعمال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه ، وذلك جبل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة في التمثيل ممكنة ، والتصديق بها واجب . ورب عبد يقابب بنوع واحد من هذه الأنواع ، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نموذجاً لله من عذاب الله قلبه وكثيره .

هذا هو الحق فصدق به تقليداً ، فيز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً ، والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ، ولا تشتغل بعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان ، فإن أهملت العمل والمباداة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذ سلطان وجسه ليقطع يده ويمدع أنفه ، فأخذ طول الليل يفكر في أنه هل يقطعه بسكين ، أو بسيف ، أو بموسى ، وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل المذاب عن نفسه ، وهذا غاية الجهل . فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم ، أو نعيم مقيم ، فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل المقابب والثواب فضول وتضييع زمان

## بيان

سؤال منكرو ونكبر وصورتهما ولفظ القبر وبقية القول في عذاب القبر

قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إِذَا مَاتَ التَّبَعُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرَقَّانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي النَّبِيِّ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَقُولَانِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيَنُودُ لَهُ فِي قَبْرِهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ دَعُونِي أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ فَيُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَتَأَمَّرُ كَنُومَةِ الْمَرْئُوسِ الَّذِي لَا يُرْفُظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْتَغِيَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ لَا أَدْرِي كُنْتَ أَسْنَعُ النَّاسِ يَقُولُونَ

(١) حديث أبي هريرة إذا مات الميت أتاه ملكان أسودان أرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير

الحديث : التي معنى وحسن وابن حبان مع اختلاف

فَمِنْكُمْ وَكُنْتُمْ أَقْوَمُ قِيلَ لَئِنْ كُنَّا بِشَيْءٍ أَنْتَ قَوْلُ ذَلِكَ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَلَنْتِي  
عَلَيْهِ فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَصْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ مُتَذَبِّحًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ  
تَحْتِهِ ذَلِكَ . . . ومن لعطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
لعمرو بن الخطاب رضي الله عنه « يَا عُمَرُ كَيْفَ بِكَ إِذَا أَنْتَ مُتَّ فَأَنْتَلِقَ بِكَ قَوْمُكَ  
فَقَالُوا لَكَ ثَلَاثَةٌ أَذْرُجُ فِي ذِرَاعٍ وَشِبِيرٍ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْكَ فَفَسَلُوكَ وَكَفَّنُوكَ وَحَطُّوكَ  
ثُمَّ احْتَسَلُوكَ حَتَّى يَصْنُوكَ فِيهِ ثُمَّ يَهَيِّكُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ وَيَذْفُونُكَ فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْكَ  
أَتَاكَ قَتْنَا الْقَبْرِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ أَصَوَاتُهُمَا كَالرَّغْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ  
يَحْرُانِ أَشْمَارُهُمَا وَيَبْتَخَنَانِ الْقَبْرِ بِأَنْيَابِهِمَا قَتْلُكَ وَتَرْتَرَاكَ كَيْفَ بِكَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ »  
فَقَالَ عُمَرُ وَيَكُونُ مَعِيَ مِثْلُ عَقْلِ الْآنَ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ إِذَا كَفَيْكُمَا

وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت ، إنما يتغير البدن والأعضاء ، فيكون  
الميت حائلا ، مدركا ، عالما بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شيء . وليس العقل  
للمدرك هذه الأعضاء ، بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض ، بل الذي لا ينقسم في نفسه  
هو المدرك للأشياء . ولوتناثر أعضاء الإنسان كلها ، ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي  
لا يتجزأ ولا ينقسم ، لكان الإنسان العاقل بكأله قاعا باقيا . وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك  
الجزء لا يحل بالموت ، ولا يطرأ عليه العدم

وقال محمد بن المنكدر : بلغني أن الكافر يسلم عليه في قبره دابة مياه ، صماء ،  
في يدها سوط من حديد ، في رأسه مثل غرب الجمل ، تضربه به إلى يوم القيامة ، لا تراه  
فتنتبه ، ولا تسمع صوته فتزجره

وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاخترشته ، فإن أتاها

( ١ ) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت  
مت فأنتلق بك قومك فسادوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر . الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب  
التبوير هكذا مرسل ورجله تقات قال البيهقي في الاعتقاد رويته من وجه صحيح عن عطاء  
ابن يسار مرسل قلت ووصه ابن بطي في الأمانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد  
من حديث عمر وقال غريب بهذا الاستاد ضرره مفضل ولا أحمد وابن حبان من حديث جعله  
ابن عمر قال عمر أريد البنا غفونا قال نعم كيبكم اليوم فقال عمر بيه الحبر

من قبل رأسه جاء قراءته القرآن ، وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء ، لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية ، فيقول : أما إني لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه ، وأهله ، وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك في مضجعتك ، فتم الأخلاء أخلاقك ، ولم الأصحاب أصحابك

وعن <sup>(١)</sup> حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فجلس على رأس القبر ، ثم جعل ينظر فيه ، ثم قال « صُنْطَةُ الْمُؤْمِنِ فِي هَذَا صُنْطَةُ رُؤْسِهَا حَايِلَةٌ » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ لِقَبْرِ صُنْطَةٍ وَكُوسِلِمٍ أَوْ تَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَّاسَةٍ بَنِي مَعَاذٍ »

وعن أنس قال : <sup>(٢)</sup> توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فساءنا حاله ، فلما اتهبنا إلى القبر فدخله التبع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا يارسول الله رأينا منك شأنا قم ذلك ؟ قال « ذَكَرْتُ صُنْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ فَأَتَيْتُ فَأَخْبَرْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَفَّفَ عَنْهَا وَلَقَدْ صُنْطَتِ صُنْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا مَا يَنْتَلِهَا قَبْرَيْنِ »

## الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن مناهج الاعتبار ، تعرفنا أحوال الموتى على الجلالة ، واتقسامهم إلى سعداء وأشقياء .

( ١ ) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر

فيه - الحديث : رواه أحمد بسند ضعيف

( ٢ ) حديث عائشة أن القبر صُنْطَةُ لَوْسَمٍ أَوْ تَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لِحَا سَعْدٍ بِنِ مَعَاذٍ : رواه أحمد بإسناد جيد

( ٣ ) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة - الحديث : وفيه

لقد صُنْطَتِ صُنْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا مَا يَنْتَلِهَا قَبْرَيْنِ : ابن أبي هادي في اللوت من رواية سليمان

الاعمش عن أنس ولم يسع منه

ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلاً، فإنما إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات، وكيف ختم له. وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى على القاب، وهو غامض بمعنى على صاحب التقوى، فكيف على غيره، فلاحكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ<sup>(١)</sup>) فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه. وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت، فلا يرى بالعين الظاهرة، وإنما يرى بعين أخرى، خلقت تلك العين في قلب كل إنسان، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية، فصار لا يصر بها، ولا يتصور أن يصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه. ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام، فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه، والوفا في عالم الملكوت، فشاهدوه وأخبروا. ولذلك<sup>(٢)</sup> رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منقطة القبر في حق سعد بن معاذ، وفي حق زينب ابنته. وكذلك حال أبي جابر لما استشهد، إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس ينهما ستر ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجاتهم منهم. وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة، إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية، وأعني بها المشاهدة في المنام، وهي من أنوار النبوة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلهذا لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق. ومن أكثر كذبه لم تصدق رؤياه، ومن أكثر فساده ومعاصيه أعظم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً، وهو إشارة

(الباب الثامن في أحوال الوفا بالمشاهدة)

(١) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منقطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك

حال أبي جابر لما استشهد: تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله

(٢) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة: تقدم

(٣) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعك فتوضأ

وضوءك لأصلاة الحديث:

إلى طهارة الباطن أيضا ، فهو الأصل ، وطهارة الظاهر بمنزلة التمسك والتسكلة لها ونهيا صفا  
الباطن انكشف في حدة القلب ماسيكون في المستقبل ، كما <sup>(١)</sup> انكشف دخول مكة  
لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، حتى نزل قوله تعالى ( لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا  
بِالْحَقِّ <sup>(٢)</sup> ) ولما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدتها صحيحة  
والرؤيا ومعرفة النيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع فطرة آدمي ،  
وهو من أوضاع الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كفتلهم عن سائر عجائب  
القلب وعجائب العالم . والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة ، فلا يمكن  
ذكره ، علاوة على علم المعاملة ، ولكن القدر الذي يمكن ذكره هنا مثال فهمك المقصود ،  
وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تترامى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ما قدره  
الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى ، يعرف  
عنه تارة بالروح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين كما ورد في القرآن . فجميع ما جرى  
في العالم وما يسير في مكتوب فيه ، ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين . ولا تظن  
أن ذلك اللوح من خشب ، أو حديد ، أو عظم ، وأن الكتاب من كغند أو رق ، بل يبنى  
أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته  
وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم  
أن ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن  
وقلبه ، فإنه مسطور فيه ، حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزأ جزأ  
لم تشاهد من ذلك الخط أحرفا ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر  
فمن هذا النمط يبنى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وفضاء ،  
واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فأمر وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكائنات  
صورة تلك المرآة تترامى في هذه ، إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم  
العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى  
( ١ ) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم : ابن أبي حاتم في تفسيره من  
رواية مجاهد مرسلا ،

حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت . فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفقته ، تلا لا فى مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لا يدوم وهو الغالب . وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورد الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت . ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورد على القلب . فإذا تخلص منه ومن الخيال ، وكان صافيا فى جوهره ، ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع فى قلبه شيء مما فى اللوح ، فأتقن الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما . إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل ، وليس مانعا للخيال من عمله وعن تحركه . فإيقع فى القلب يتدبره الخيال فيحاكيه بئال يقاربه ، وتكون التخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها ، فبقى الخيال فى الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المبرر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعانى ، فيرجع إلى المعانى بالنسبة التى بين التخيل والمعانى

وأمثله ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير ، ويكفيك مثال واحد ، وهو أن رجلا قال لابن سيرين : رأيت كأن يدي غاما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان . قال صدقت . فأنظر أن روح الختم هو النعم ، ولأجله يراد الختم ، وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال أليف النعم عند الختم بالغائم ، فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ، ولا يبق فى الحفظ إلا الصورة الخيالية

فهذه نبرة سيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه ، وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو محجب من المجائب ، وهذا لأنه يشبه من وجه ضئيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الريب ، حتى صار النائم يعرف ماسيكون فى المستقبل . فإذا ترى فى الموت الذى يحرق الحجاب ، ويكشف الغطاء بالكلية ، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما مغفوفة بالأنكال والخازى والفضائح ، نموذ بالله من ذلك ، وإمامكنا بنعيم مقیم وملک كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للإشقياء وقد انكشف الغطاء (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ<sup>(١)</sup>) (وقال) (أَسْخِرْ هَذَا

أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اسْتَوْفَاهَا فَاسْتَبْرُوا لَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَّلَهُ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُعْزِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ<sup>(١)</sup> ) واليهم الإشارة بقوله تعالى ( وَيَذَاهِبُ مِنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ<sup>(٢)</sup> ) فأظم السواد وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب اللوت من المجائب والآيات فلم يحظر قط ياله ، ولا اختلج به ضيقه . فلو لم يكن للعالم ثم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال ، أن الحجاب عساير تغم ، وما الذي ينكشف عنه النطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ، لكان ذلك كافيا في استتراق جميع السر

والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا ، وأعجب من ذلك فرحنا بأمرنا ، وأهليتنا وبأسبابنا ، وذريتنا ، بل بأعضائنا ، وصمتنا ، وبصرنا ، مع أننا لم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن<sup>(٣)</sup> أين من يفت روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين : أحب من أحببت فلأنك مفارقة ، ومض ماشئت فلأنك ميت ، وعمل ماشئت فلأنك عجزى به ؟ فلا جرم لما كان ذلك مكشوقا له يمين اليقين كان في الدنيا . كما ير سبيل<sup>(٤)</sup> لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبه على قصبه<sup>(٥)</sup> ، ولم يخلف دينارا ولا درهما ، ولم يتخذ خلييا ولا خليلا . ثم قال<sup>(٦)</sup> : لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ مَا جِئْتُكُمْ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ فبين أن خلاة الرحمن تحللت باطن قلبه ، وأن حبه تمكن من حبة قلبه ، فلم يترك فيه نفسا خليل ولا حبيب . وقد قال لأمت ( إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ<sup>(٧)</sup> ) فلما أمت من أئمه ، وما أتبه إلا من أرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه ملأها إلى الله واليوم الآخر ، وما صرف إلا عن الدنيا والحطوط المأجلة . فيقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلك سبيله الذي سلكه . ويقدر ما سلك سبيله فقد أتته ، ويقدر ما أتته فقد صرت من أئمه ، ويقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابته .

( ١ ) حديث أن روح القدس نث في روعي أحب من أحببت فأنك مفارقة : الحديث هدم

( ٢ ) حديث لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه : هدم أيضا

( ٣ ) حديث لم يخلف دينارا ولا درهما : هدم أيضا

( ٤ ) حديث لو كنت متخذ خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن ما جئتكم خليل الرحمن : هدم أيضا

والتحفت بالذين قال الله تعالى فيهم ( فَأَمَّا مَنِ ظَنَّنَىٰ وَأَأْتَرُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَاِنَّ الْجَحِيمَ )<sup>(١)</sup>

فلو خرجت من ممكن التروور ، وأنصفت نفسك يارجل ، وكلنا ذلك الرجل ، لملت أنك من حين تصبح إلى حين تسمى لا تسمى إلا في الخطوظ الماجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لاجل الدنيا ، ثم تطعم أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! ما بعد ظنك ، وما أبرد طمعك ( أَفَتَجْمَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَرَمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَتَحَكَّمُونَ<sup>(٢)</sup> )  
وتدريج إلى ما كنا فيه وبصده فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده . ولنذكر الآن من اللامات الكاشفة لأحوال اللوق ما ينظم الاتضاع به ، إذ ذهب النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا اللامات .

## بيان

منامات تكشف عن أحوال الموق والأعمال النافعة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> وقد قال عليه السلام دَمَنَ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَنَبَّأُ بِي ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فرأيت لا ينظر إلي ، فقلت يارسول الله ماشأني؟ فأنصت إلي وقال : ألسنت المقبل وأنت صائم؟ قال والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا وقال العباس رضي الله عنه . كنت وداعا لعمر ، فاشتيت أن أراه في المنام ، فإ رأيت إلا عند رأس الحول ، فرأيت يمسح المرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغي ، إن كان مرشئ ليهد لولا أني لقيته رؤفا رحيا .

وقال الحسن بن علي . قال لي علي رضي الله عنه . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنبح لي الآية في منامي ، فقلت يارسول الله ، ما لقيت من أمك ! قال ادع عليهم . فقلت اللهم أبدلي بهم من هو خير لي منهم ، وأبدلهم بي من هو شر لهم مني فخرج فصر به ابن ملجم

( ١ ) حديث من رأى في المنام قد رأى فان الشيطان لا يتخيل بي : متفق عليه من حديث أبي هريرة

( ٢ ) الفزعات : ٣٧ ( ٣ ) التام : ٣٥ ، ٣٦



وقال بمصر الشيوخ . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله استغفر لي ، فأعرض عني . فقلت يا رسول الله إن سفيان<sup>(١)</sup> بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله ، أنك لم تسأل شيئا فقلقت لا . فأقبل علي فقال غفر الله لك وروي عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لهب ، مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر ، حزنت عليه ، وأمنى أمره . فسألت الله تعالى حولاً أن يرزقني إياه في المنام . قال فرأيت يلقب ناراً ، فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار في العذاب ، لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الإثنين في كل الأيام والليالي ، قلت وكيف ذلك؟ قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة أمة إياه ، فقرحت به ، وأعققت وليدة لي فرحابه ، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة الإثنين وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجاً ، فصحبني رجل كان لا يقوم ، ولا يتمد ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم . فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك . خرجت أول مرة إلى مكة ومسى أبي ، فلما انصرفنا غمت في بعض المنازل ، فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي : قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ، قال فقممت مذموراً ، فكشفت الثوب عن وجهه ، فإذا هو ميت أسود الوجه . فداخاني من ذلك رهب . فبينما أنا في ذلك النعم ، إذ غلبتني عيني فتمت ، فإذا على رأسي أبي أربعة سرودان معهم أعمدة حديد ، إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين ، فقال لهم تنحوا . فمسح وجهه بيده ، ثم أتاني فقال قم فقد ييض الله وجه أباك . فقلت له من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقال أنا محمد . قال فقممت فكشفت الثوب عن وجه أبي ، فإذا هو أبيض فاتركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسا عنده ، فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتني بصلي ومعاوية ، فأدخلا بيتا ، وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر مائل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقل  
قال لا : رواه مسلم وقد تقدم

علي رضي الله عنه وهو يقول : قضى لي ورب الكعبة . وما كان بأسرع من أن يخرج  
مباوية على أثره وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة  
واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله  
وكان ذلك قبل قتله ، فأنكره أصحابه . فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه  
زجاجة من دم ، فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى ؟ قتلوا ابني الحسين ، وهذا دمه ودم  
أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي رآه  
ورؤي الصديق رضي الله عنه ، فقيل له إنك كنت تقول أبدا في لسانك : هذا  
أوردني الموارد ، فإذا فعل الله بك ؟ قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة

## بيان

منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متما الدورق في المنام ، فقلت ياسيدي ما فعل الله بك ؟ فقال  
دبري في الجنان ، فقيل لي بامتتم هل استحسنتم فيها شيئا ؟ قلت لا ياسيدي . فقال  
لواستحسنتم منها شيئا لو كلتكم إليه ، ولم أوصلك إلي  
ورؤي يوسف بن الحسين في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفرت لي . قيل بماذا ؟  
قال ما خلطت جدا بهزل

وعن منصور بن اسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار في النوم ، فقلت ما فعل الله بك ؟  
قال ألو قفني بين يديه ، فنفرتي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا ، فإني استحييت أن أقر به .  
فأوقفتني في العرق حتى سقط لحم وجبي . فقلت ما كان ذلك الذنب ؟ قال نظرت إلى غلام  
جميل فاستحسنته ، فاستحييت من الله أن أذكره

وقال أبو جعفر الصيدلاني : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، وحوله  
جماعة من الفقراء فيبنا نحن كذلك إذا انشقت السماء ، فنزل ملكان ، أحدهما بيده شئيت ،  
ويده الآخر إبريق . فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمس يده ،  
ثم أمر حتى غلبوا ، ثم وضع الطشت بين يدي ، فقال أحدهما للآخر : لا تصب على يده

فإنه ليس منهم : فقلت يا رسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت المرء مع من أحب ؟ قال بلى : قلت يا رسول الله فإني أحب وأحب هؤلاء الفقراء . فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم

وقال الجنيد : رأيت في المنام كأنى أتكلّم على الناس ، فوقف على ملك فقال : أقرب ماتقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت حمل خفي عيزان وفي . فولى الملك وهو يقول : كلام موفق والله . ورؤي يجمع في النوم ، فقيل له كيف رأيت الأمر ؟ فقال رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة

وقال رجل من أهل الشام للملاء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة . فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمرا فمعضمت منه ، فأشخص رجلا يقتلني وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولا تنفره

وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلى في النوم فقلت له رحلك الله ، لقد كنت طويل الحزن في الدنيا . قال أما والله لقد أعقبت ذلك راحة طويلة وفرحا دائما . فقلت في أي الدرجات أنت ؟ فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والآية

وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام أي الأعمال أفضل عندهم ؟ فقال : الرضا وفصر الأمل وقال يزيد بن مذحور : رأيت الأوزاعي في المنام ، فقلت : يا أبا عمرو ، دلتني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال : بما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ، ثم درجة المحزونين . قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكي حتى أغلقت عيناه

وقال ابن عيينة : رأيت أخى في المنام ، فقلت يا أخى ما فعل الله بك ؟ فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي ، وما لم أستغفر منه لم يغفر لي

وقال علي الطلحي : رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا ؛ فقلت من أنت ؟ فقالت حوراء . فقلت زوجيني ففسك . قالت اخطيني إلى سيدي وأميرى . قلت وما مهرك ؟ قالت حبس ففسك عن آفاتها

وقال ابراهيم بن اسحاق الحربى : رأيت زيدة في المنام ، فقلت ما فعل الله بك ؟ قالت غفر لي . فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت

أجوبها إلى أربابها وغفر لي بندي

ولما مات سفيان الثوري رمى في المنام، فقيل له ما فعل الله بك؟ قال وضعت أول قدمي على الصراط، والثاني في الجنة

وقال أحمد بن أبي الخوارى: رأيت فيما يرى النائم جارية مارأيت أحسن منها وكان يتلألاً وجهها نوراً، فقلت لها ما ذا صنوه وجهك؟ قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فسمحت به وجهي، فمن ثم صنوه وجهي، كما ترى وقال الكتاني: رأيت الجنيد في المنام، فقلت له ما فعل الله بك؟ قال طاحت تلك الإشارات، وذهبت تلك المبارات، وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل ورئت زيدة في المنام، فقيل لها ما فعل الله بك، قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري. لا إله إلا الله أدخل بها قبري، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي، لا إله إلا الله ألقى بها ربي

وربى بشر في المنام، فقيل له ما فعل الله بك، قال رحمى ربي عز وجل وقال: يا بشر لما استحييت مني؟ كنت تخافني كل ذلك الخوف؟

وروي أبو سليمان في النوم، فقيل له ما فعل الله بك؟ قال رحمى، وما كان شيء أضرت علي من إشارات القوم إلي

وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في النوم شاباً لم أر أحسن منه، فقلت له من أنت؟ قال الثقوي. قلت فأين تسكن؟ قال كل قلب حزين. ثم التفت وإذا امرأة سوداء فقلت من أنت؟ قالت أنا السقم. قلت فأين تسكنين، قالت كل قلب فرح مرح. قال فانتبهت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبة

وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن إبليس وتب علي، فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها، ففتب بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإني أخاف من نور يكون في القلب وقال السجعي: رأيت إبليس في النوم عشى عريانا، فقلت ألا تستحي من الناس؟ فقال بالله هؤلاء ناس؟ لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة، بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار يده إلى أصحابنا الصوفية

وقال أبو سعيد الخراز ، كنت في دمشق ، فرأيت في المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فجاء فوقف عليّ وأنا أقول بيثنا من الأصوات وأدق في صدري ، فقال شر هذا أكثر من غيره .

وعن ابن عينة قال : رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة ، يطير من شجرة إلى شجرة ، يقول لئلا هذا فليعمل الماملون . فقلت له أوصني . قال أقال من معرفة الناس ودوي أبو حاتم الرازي ، عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثوري ، فقلت مافل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي      هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد  
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى      بصيرة مشتاق وقلب مريد  
فدونك فأختر أي قصر أردته      وزدني غنى منك غير بيد

ورؤي الشبل بعد موته ثلاثة أيام ، فقيل له مافل الله بك ؟ قال ناقشني حتى أبست ، فلما رأى يأسى تمعدني برحمته .

ورؤي جعوني بن عامر بعد موته في المنام ، فقيل له مافل الله بك ؟ قال غفر لي وجعلني حجة على المحبين .

ورؤي الثوري في المنام ، فقيل له مافل الله بك ؟ قال رحني . فقيل له ما حال عبد الله ابن المبارك ؟ فقال هو ممن يبيع على ربه في كل يوم مرتين .

ورؤي بعضهم فمثل عن حاله ، فقال حاسبونا فصدقوا ، ثم منوا فأعتقوا  
ورؤي مالك بن أنس ، فقيل له مافل الله بك ؟ قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان ابن عفان رضي الله عنه عند رؤيته الجنائز ، سبحان الحي الذي لا يموت .

ورؤي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري ، كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادي : ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض  
ورؤي الجاحظ ، فقيل له مافل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غيري .      يسرك في القيسامة أن تراه

ورأى الجنيد : إيليس في المنام عريانا ، فقال ألا تستحي من الناس ؟ فقال وهو لا ناس ؟

الناس لقولهم في مسجد الشومرية ، قد أصابوا جسدی ، وأحرقوا كبدی . قال الجنيد : فلما انتهت غدوت إلى المسجد ، فرأيت جماعة قد وضوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يترك حديث الجنيد .

وروي النصراباذي بحكمة بعد وفاته في النوم ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال عوتبت كتاب الأشراف ، ثم نوديت يا أبا القاسم ، أبعث الاتصال انفصال ؟ فقلت لا إذا الجلال فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي .

ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة ، فقالت يا عتبة ، أنا لك عاشقة ، فانظر لاتصل من الأعمال شيئا فيحال بيني وبينك . فقال عتبة : طلقت الدنيا ثلاثا ، لأرجع إلى عليها حتى ألتاك .

وقيل رأى أيوب السخيتاني جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها ، فرأى لليت بمضهم في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ، قال غفر لي وقال : قل لأيوب ( قُلْ لَوْ أَنَّمْ تَعْلَمُ كُنْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ )<sup>(١)</sup>

وقال بمضهم : رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نورا ، وملائكة نزولا ، وملائكة صعودا . فقلت أي ليلة هذه ؟ فقالوا ليلة بات فيها داود الطائي وقد زخرقت للجنة لتقديم روحه

وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصلوكي في المنام ، فقلت أيها الشيخ ، قال دع التشييع . قلت تلك الأحوال التي شاهدها ، فقال لم تغن عنا . فقلت ما فعل الله بك . قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها المعجز

وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسي المعلم في النوم ، فقال لي : قل لأبي سعيد الصفار للوژب .

وكان على أن لا نحول عن الهوى فقد وحياء الحب حلتم وما حلنا  
قال فانتبهت فذكرت ذلك له ، فقال كنت أزور قبره كل جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة  
وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته ، فقلت أليس قدمت ؟ قال بلى

قلت فما صنع الله بك؟ قال غفرلى مغفرة احاطت بكل ذنب. قلت ففبان الثوري، قال بخ بخ، ذلك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وقال الربيع بن سليمان: رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام، قلت يا أبا عبد الله، ما صنع الله بك؟ قال أجلسنى على كرسى من ذهب وثر على اللؤلؤ الرطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن، كأن مناديا ينادى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ<sup>(١)</sup>) واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه. وقال أبو يعقوب القارى الدقيق رأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس ينبؤونه قتل من هذا؟ قالوا أويس القرنى. فأنبئه قتل وصنى رحلك الله. فكلح فى وجهى قتل مسترشد فأرشدنى أرشدك الله. فأقبل على وقال: اتبع رحمة ربك عند محبته، واحذر قمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك، ثم ولى وتركنى وقال أبو بكر بن أبى مريم. رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى، قتل ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بمد كل جهد. قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل، قال البكاء من خشية الله وقال يزيد ابن نامة: هلكت جارية فى الطاعون الجارف، فرأها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة. قالت يا أبت قدما على أمر عظيم، نل ولا نمل، وتملن ولا تملن، والله لتسبيحة أو تسبيحتان، أو ركعة أو ركعتان فى فسحة حمل أحب إلى من الدنيا وما فيها.

وقال بعض أصحاب عتبة الغلام: رأيت عتبة فى المنام. قتل ما صنع الله بك؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى يثك. قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى، فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت: يا هادي المضلين، ويا راحم المذنبين، ويا مقبل عثرات العائرين، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، آمين يا رب العالمين

وقال موسى بن حماد: رأيت سفيان الثورى فى الجنة، يطير من نخلة إلى نخلة،

ومن شجرة إلى شجرة . فقلت يا أبا عبد الله ، بم نلت هذا ؟ قال بالودع . قلت فما بال  
على بن ماص ؟ قال ذلك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب  
ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام . فقال : يا رسول الله عظمي .  
قال نعم من لم يفتقد النقصان فهو في نقصان . ومن كان في نقصان فالموت خير له  
وقال الشافعي رحمه الله عليه : ذهني في هذه الأيام أمر أمضى وآلتي ، ولم يطلع عليه  
غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي ، فقال لي يا محمد بن إدريس ،  
قل اللهم إني لأملك لنفسى نقصاً ، ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً . ولا  
أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ، ولا أتقى إلا ما وقيتنى . اللهم فوقنى لما تحب وترضى  
من القول والعمل في عافية . فلما أصبحت أعدت ذلك ، فلما ترحل النهار أعطاني الله  
عز وجل طلبتي ، وسهل لي الخلاص مما كنت فيه ، فليكن هذه الدعوات لاتنفلوا عنها  
فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى ، وعلى الأعمال المقربة إلى الله زلتى  
فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار ، إما في الجنة أو في  
النار ، والحمد لله حمد الشاكرين

## السطر الثاني

من كتاب ذكر الموت ، في أحوال الميت من وقت نفخة الصور

إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار ، وتفصيل ما بين يديه من الأحوال والأخطار  
وفيه بيان نفخة الصور ، وصفة أهل المحشر وأهل ، وصفة عرق أهل المحشر ، وصفة  
طول يوم القيامة ، وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساليبها ، وصفة المسائلة عن الذنوب  
وصفة الميزان ، وصفة الحسماء ورد للظالم ، وصفة الصراط ، وصفة الشفاعة ، وصفة الحوض  
وصفة جهنم وأهوالها ، وأنكالتها ، وحياتها ، وعقاربها ، وصفة الجنة وأصناف نعيمها ،  
وعدد الجنان ، وأبوابها ، وغرفها ، وحيطانها ، وأنهارها ، وأشجارها ، ولباس أهلها ،  
وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم ، وصفة الحور العين والولدان ، وصفة النظر إلى  
وجه الله تعالى ، وباب في سعة رحمة الله تعالى ، وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى



## صفة

نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الليث في سكرات الموت ، وخطره في خوف العاقبة ، ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لنكر وتكبر وسؤالهما ، ثم لذاب القبر وخطره إن كان مفضوا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه ، من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور ، والمرض على الجبار ، والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسماء وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأحوال لا بد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبت من قلبك دواعي الاستعداد لها

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويده أفتدتهم . ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستادام لحرق الصيف وبرد الشتاء ، وتهاونهم بحر جهنم وزمهر برها ، مع ماكتشفه من المصائب والأحوال . بل إذا مثلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ، ثم غفلت عنه قلوبهم . ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم ، فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ، ثم مده لتناوله ، كان مصدقا بلسانه ، ومكذبا بسله . وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى شَتْنَى ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتَنِي وَكَذْبِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي أَمَا شَتْنُهُ إِيَّايَ يَقُولُ إِنْ لِي وَفِيَّ وَأَمَا تُكَذِّبُنِي فَقَوْلُهُ لَنْ يُعَذِّبَنِي كَمَا بَدَأَنِي

وإنما تتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم الأمثال تلك الأمور . ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات ، وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة

(الشرط الثاني من وقت نفخة الصور)

(١) حديث قال الله تعالى شتنى ابن آدم وما ينبغي له أن يشتنى وكذبى وما ينبغي له أن يكذبنى الحديث : البخارى من حديث أبي هريرة

النفذة مثل هذا الآدمي المصور ، المائل ، المتكلم ، المتصرف ، لا شدة تقور باطنه  
عن التصديق به . ولذلك قال الله تعالى ( أَوَلَمْ يَرَهُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَلَاذًا  
مَوْ حَصِيمٌ مُبِينٌ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُنْفِكَ سُدَى أَلَمْ يَكُ  
نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عُلُقَةً فَنَحَلَقَ فَسَوَى فَجَعَلَ مِنْهُ الزُّوْجَيْنِ  
الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى <sup>(٢)</sup> )

ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه ، واختلاف تركيب أعضائه ، أعاجيب تزيد على  
الأعاجيب في بنيه وإمادته . فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك  
في صنعه وقدرته ! فإن كان في إيمانك ضعف فتو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن  
الثانية مثلها وأسهل منها . وإن كنت توى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ،  
وأكثر فيها التفكير والاعتبار ، لتسلم من تلك الراحة والقرار ، فتشتغل بالنشأة للعرض  
على الجبار ، وتفكر أولافها يفرح مع سكان القبور ، من شدة فزع الصور ، فإنها صبيحة  
واحدة تفرج بها القبور عن ربوس الموتى ، فيثورون دفعة واحدة ، فتوم تفسك وقد وثبت  
متنبها وجهك ، مضربا بدتك من فركك إلى قدمك من تراب قبرك ، مبهوتا من شدة  
الصعقة ، شاغص العين نحو التلاء ، وقد تار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها  
بلازم ، وقد أزهيم الفرع والرب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم ، والنوم ، وشدة  
الانتظار لمآلة الأمر ، كما قال تعالى ( وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَافٍ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَلَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ <sup>(٣)</sup> )  
وقال تعالى ( فَلَإِذَا نُفِخَ فِي النُّفُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ  
عَسِيرٌ يَسِيرٌ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
مَا يَنْظَرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً  
وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ  
فَالْأُولَى يَكُونُ لَنَا مَنْ بَشَاتْنَا مِنْ مِرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ <sup>(٥)</sup> )  
فلو لم يكن بين يدي الأهل تلك النفخة ، لكان ذلك جديرا بأن يبقى ، فإنها

(١) يس : ٧٧ : (٢) التوبة : ٣٦ : (٣) الزمر : ٦٨ : (٤) المدثر : ٨ : إلى ١٠ : (٥) يس : ٤٨ : إلى ٥٢

نقطة وصيعة يصنع بها من في السموات والأرض ، يعني يموتون بها لإمّن شاء الله وهو بعض الثلاثة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « كَيْفَ أَنْتُمْ وَمُصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ أَتَقَمَ الْقَرْنَ وَخَتَى الْجَلْبِيَّةَ وَأَصْنَى بِالْأَذْنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » قال مقاتل : الصور هو القرن . وذلك أن إسرائيل عليه السلام وأضع فاه على القرن كهية البوق ، ودائرة رأس القرن كمرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ، ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى . فإذا نفخ صمق من في السموات والأرض ، أي مات كل حيوان من شدة القزع لإمّن شاء الله ، وهو جبريل ، وميكائيل ، وإسرائيل وملاك اللوت . ثم يأمر ملك اللوت أن يتقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرائيل . ثم يأمر ملك اللوت بموت ، ثم يلبث المخلوق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيي الله إسرائيل ، فيأمره أن ينفخ الثانية . فذلك قوله تعالى ( ثُمَّ يُنْفِخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَأْمٍ يَنْظُرُونَ <sup>(٢)</sup> ) على أرجلهم ينظرون إلى البعث

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « حِينَ بُعِثَ إِلَيَّ بُعِثَ إِلَى مُصَاحِبِ الصُّورِ فَأَخْبَرَنِي بِهِ إِلَى فِيهِ وَقَدَّمَ رَجُلًا وَآخَرَ أُخْرَى يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ أَلَا فَاتَكُونُوا النَّفْخَةَ » ففكر في المخلوق وذلم ، وانكسارم ، ولست أكنهم عند الانبعاث عروفا

(١) حديث كيف أنتم ومُصاحب الصور قد اتقَمَ القرن وخَتَى الجلبية - الحديث : الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ أن صاحب القرن يأبدها أو في أبيها فتران

بإحاطان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه المجيب بن أرملة : يختلف فيه

(٢) حديث حين بُعث إلى بيت إلى صاحب الصور فأخبرني به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرسته الحديث : لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرائيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما

رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتب السلسلة من حديث أبي هريرة أن الله جل جلاله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرائيل فهو واضع على

فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر : قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي

الشيخ ما طرف صاحب الصور مد وكل به مستند ينظر نحو العرش فإذا أن يؤمر قبل أن

يرد إليه طرفه كأنه عليه كوكبان عدلان : رواهها غيره

من هذه الصفة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سادة أوشقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من المتفرجين والأغنياء للتسعين ، فلوك الأرض في ذلك اليوم أذل لعل أرض الجمع ، وأصغرم ، وأحقرم ، يوطؤن بالأقدام مثل القز . وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال ، منكسة رهوسها ، مختلطة بالخلائق بمد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدلست بها . ولكن حشرتهم شدة الصفة ، وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والنوحش منهم . وذلك قوله تعالى ( وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ <sup>(١)</sup> ) ثم أقبلت الشياطين المردة بمد تمردها وعتوها ، وأذعنت خاشعة من هيئة المرض على الله تعالى ، تصديقا لقوله تعالى ( فَوَرَّيْكَ لَتَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاءً <sup>(٢)</sup> ) فتفكر في حالك وحال قلبك هناك

## صفة

أرض الحشر وأهله

أثم انظر كيف يساقون بمد البعث والنشور حفاة ، عراة ، غرلا ، إلى أرض الحشر ، أرض يضاء ، قاع صفصف ، لاترى فيها عوجا ولا أمثا ، ولا ترى عليها روبة يمتدح الإنسان وراءها ، ولا وهددة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط ، لا تفاوت فيه ، يساقون إليه زمرًا . فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أنظار الأرض ، إذ ساقهم بالرافعة تقيها الرادفة . والرافعة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ، وتلك الأبصار أن تكون خاشعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ

(١) حديث عشر الناس يوم القيامة على أرض يضاء . عراء كقرص النسي ليس فيها مسلم لأحد متفق

(٢) التفسير ٥٠ (٣) مسلم ٢٨٨

يَتَضَاءُ عَقْرَاءُ كَفَرَضِ النَّبِيِّ لَبَسَ فِيهَا . فَلَمْ يَلْحَدِ ، قَالَ الرَّايُ : وَالْمَعْرَةُ بِيَاضِ إِيْسَى  
بِالنَّاصِعِ ، وَالتَّقَى هُوَ التَّقَى عَنِ الْقَشْرِ وَالنَّخَالَةِ ، وَمَعْلَمُ أَيِّ لَابَنَاءِ يَسْتَرْ ، وَلَا تَقَاوَتْ  
يَرْدُ الْبَصَرِ . وَلَا تَقْنُنُ أَنْ تَكُنِ الْأَرْضُ مِثْلَ أَرْضِ الدُّنْيَا ، بَلْ لَا تَسَاوِيهَا إِلَّا فِي  
الْأَسْمِ ، قَالَ تَمَالَى ( يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَلِلَّسَّوَاتِ<sup>(١)</sup> ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
يَزَادُ فِيهَا وَيَنْقُصُ ، وَتَذْهَبُ أَشْجَارُهَا ، وَجِبَالُهَا ، وَأَوْدِيَّتُهَا ، وَمَا فِيهَا ، وَغَدَاً مَدَّةُ  
الْأَدِيمِ الْمَكَاطِي ، أَرْضُ يِضَاءٍ مِثْلَ الْفِضَّةِ ، لَمْ يَسْفِكْ عَلَيْهَا دَمٌ ، وَلَمْ يَعْمَلْ عَلَيْهَا خُطْبَةً  
وَالسَّوَاتِ تَذْهَبُ شِسْبًا ، وَقَرَاهَا ، وَنَجْوَمُهَا

فَانْظُرْ يَا سَكِينُ فِي هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَّتِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ عَلَى هَذَا  
الصِّعِيدِ تَنَافَرَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ نَجُومُ السَّمَاءِ ، وَطَلَسَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَأُظْلِمَتِ الْأَرْضُ  
لِحُجُودِ سَرَاجِهَا ، فَيَتَنَامُ كَذَلِكَ إِذْ دَارَتِ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِ رَدُوسِهِمْ ، وَانْتَشَقَتْ مَعَ غُلْظِهَا  
وَشِدَّتِهَا خَمْسِمِائَةَ أَمَامَ ، وَلِلْمَلَائِكَةِ قِيَامٌ عَلَى حَافَتِهَا وَأَرْجَائِهَا ، فَيَا هَوْلَ صَوْتِ انْتِشَاقِهَا  
فِي سَمْعِكَ ، وَبَاهِيَةِ يَوْمٍ تَنْشَقُ فِيهِ السَّمَاءُ مَعَ صَلَاتِهَا وَشِدَّتِهَا ، ثُمَّ تَهَارُ وَتَسِيلُ  
كَالْفِضَّةِ الْمَذَابَةِ تَحَالُظُهَا صَفْرَةٌ ، فَصَارَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ ، وَصَارَتِ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ،  
وَصَارَتِ الْجِبَالُ كَالْمُهْنِ ، وَاشْتَبَكَ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمُبْثُوثِ ، وَمِثْلُ حَفَاةٍ ، عَرَاةٍ ، مَشَاةٍ  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(٢)</sup> « يُمِيتُ النَّاسُ حَفَاةٌ عَرَاةٌ غُرْلًا » قَدْ أَجْمَعَهُمُ  
الْعَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومُ الْآذَانِ » قَالَتْ سُودَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاوِيَةٌ  
الْحَدِيثِ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَسْوَاتُهُ ! يَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ ؟ فَقَالَ شَغَلَ النَّاسُ  
عَنْ ذَلِكَ بِهِمْ ( لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ يُدْرَسَانُ يُعْتَبَرُ<sup>(٣)</sup> ) فَأَعْظَمَ يَوْمٌ تَنْكَشِفُ  
فِيهِ الْمَوَارِثُ ، وَيُؤْمِنُ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ وَالْإِنْتِفَاتُ . كَيْفَ وَبَعْضُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى

عليه من حديث سهل ابن سعد وفضل البخاري قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلنا من قول سهل

أو غيره وأدرجها مسلم فيه

(١) حديث يمت الناس حفاة عراة غرلا قد أجمعهم العرق وبلغ شحوم الأذان قالت سودة رواية الحديث  
وأسواته - الحديث : التلوي والنوى وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي الثالثة  
وأسواته : ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلفة وهي الثالثة وأساته .

(٢) إبراهيم : ٤٨ (٢) عبي - ٣٧

« غرلا : أي من » خبر اختان .

بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةً أَصْنَفٍ رُكْبَانًا وَشَقَاةٌ وَعَلَى وَجُوهِهِمْ » فقال رجل يا رسول الله ، وكيف يشون على وجوههم ؟ قال : « الَّذِينَ أُنْشَأَهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخْشِيَهُمْ عَلَى وَجُوهِهِمْ » في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به . ولولم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف ، لأنكر تصور المشي على غير رجل . والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تنكر شيئا من مجائب يوم القيامة لخالفته قياس ما في الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت مجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل للشاهدة ، لكنت أشد إنكارا لها : فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريا ، مكشوبا ، ذليلا ، مدحورا ، متحيرا ، مبهوتا ، منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسادة أو بالشقاوة ، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة

### صفة العرض

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع ، من ملك ، وجن ، وإنس ، وشيطان ، ووحش ، وسبع ، وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضايف حرها ، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أذنبت من رموس المالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب المالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون ، فن بين مستظل بالعرش ، وبين مضح لحر الشمس ، قد صهرته بحرما ، واشتد كربه وعمه من وهجا . ثم تدافست الخلائق ، ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الحجة والحياء من الاقتضاح ؛ والاختراة عند العرض على

( ١ ) حديث أبي هريرة بغير الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث - رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذي أنشأه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشي على وجهه يوم القيامة

جبار السماء ، فاجتمع ومعج الشمس ، وحر الأنفاس ، واختراق القلوب بنار الحياة والخوف ، ففاض الرق من أصل كل شرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ الرق ركبته ، وبعضهم حقوه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه

قال <sup>(١)</sup> ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَنْسِبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشِيْعِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذُنَيْهِ » وقال <sup>(٢)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَفْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ غَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سِتِّيْنِ بَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ وَيَنْلُغُ آذَانَهُمْ » كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح

وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « يَمَّا شَاحَصَةُ أَبْصَارُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى السَّمَاءِ قِيلَ لَهُمْ ائْتَرَقُوا مِنْ شِدْوِ الْكَرْبِ »

وقال <sup>(٤)</sup> عتبة بن حامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَذْنُو الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَفْرَقُ النَّاسُ فَيَنْسِبُ أَحَدُهُمْ حَقِيْقَةً وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْلُغُ أَنْصَافَ سَاقَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْلُغُ رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْلُغُ فَعْدَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْلُغُ قَائِدَهُ » وأشار بيده فأجلها فاه « وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْطَلِجُ ائْتَرَقُوا » وضرب بيده على رأسه هكذا

فتأمل يأسك في عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول :

( ١ ) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى ينسب أحدهم في رشيعة إلى أنصاف أذنيه : مضاف عليه

( ٢ ) حديث أبي هريرة يفرق الناس يوم القيامة حتى يذهب غرقهم في الأرض سبعين ذراعا - الحديث : أخرجه في الصحيحين كما ذكره الصنف

( ٣ ) حديث قياما شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب : ابن حدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني : ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا ظن أن كان يتعمد الكذب لكن له لقب عليه

( ٤ ) حديث عتبة بن طاهر تذنو الشمس من الأرض يوم القيامة يفرق الناس منهم من يلغ عرقه وفيه الحديث رواه أحمد وفيه ابن أبي عمير

رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار . وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً ، فإنك واحد منهم ، ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق .  
واعلم أن كل عرق لم يخرج به التعب في سبيل الله من حج ، وجهاد ، وصيام ، وقيام ، ومردد في قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر ، فسيخرجه الجياه والخوف في صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب . ولوسلم ابن آدم من الجهل والغرور لعل أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمراً ، وأنصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويلة مدته

## صفة

طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ، ولا يشربون فيه شربة ولا يجردون فيه روح نسيم . قال كسب وقنادة ( يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ <sup>(١)</sup> ) قال يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبد الله <sup>(٢)</sup> بن عمرو : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كَيْفَ يَكُنْ إِذَا جَمَعَكُمْ اللَّهُ كَيْمَا تُجْمَعُ النَّبَلُ فِي الْكِتَابَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ »

وقال الحسن . ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة ، لا يأكلون فيها أكلة ، ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا ، واحتترقت أجوافهم جوعاً ، انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آية قد آنحراها ،

(١) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف يكون إذا جمعهم الله كما يجمع النبل في الكتابة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمر : ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر لما بن أبي حاتم راوياً غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن ابن ميسرة الحفري أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون



واستبد لفحها . فلما بلغ اليهود منهم مالا ضافه لهم به ، كلم بعضهم بمنا في طلب من يسكرم على مولاه ليشفع في حقهم ، فلم يسلقوا بنى إلا دضهم وقال : دعوى قصى قصى ، شغلنى أمرى عن أمر غبرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى ، وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لا يعلكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا

فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه ، حتى يخف عليك انتظار الصبر من المامى في محرك المختصر

واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا الموت ، لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات ، فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيَخَفُّ عَلَى الْبُؤْسَيْنِ حَتَّى يَكُونَا أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيَهَا فِي الدُّنْيَا »

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين ، فإدام يبق لك قس من محرك فالأمر إليك ، والاستعداد يديك ، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال ترمح رجلا منتهى لضروره ، واستحق محرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا ، وتبك يسيرا

( ١ ) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون

عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا : أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقدرواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد يؤمن ذلك على المؤمن كعدلى النفس للغروب إلى أن تقرب : ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظن نفسه بلقظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة

## صفحة

يوم القيامة وجواحه واساميه

فلنستمد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، اللديد زمانه ، القاهرة سلطاناه ، القريب  
أوانه : يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والكواكب من هولاه قد انتثرت ،  
والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعمار  
قد هطلت ، والوحوش قد خشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان  
قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ،  
والأرض قد مدت

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ  
يصد الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ،  
وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، وللك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك  
فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية  
يوم نسف الجبال ونرى الأرض بارزة

يوم ترج الأرض فيه رجا ، ونسف الجبال بسا ، فكانت هباء منبها  
يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش  
يوم تذهل فيه كل مرضة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى  
الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار  
يوم تنسف فيه الجبال نسفا ، فتركها عاصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمنا  
يوم ترى الجبال تحسبا جامدة وهي تمر مر السحاب  
يوم تنشق فيه السماء تكون وردة كالدخان ، فيومئذ لا يستل من ذنبه  
إس ولا جان

يوم يمنع فيه المصنى من الكلام ، ولا يستل فيه عن الإجماع ، بل يؤخذ  
 بالنواصي والأقصاد  
 يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود  
 لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا  
 يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت ، وتشهد ما قدمت وأخرت .

يوم تخمرس فيه الألسن ، وتنطق الجوارح  
 يوم شيب ذكره سيد المرسلين ، إذ قال له الصديق رضي الله عنه ، أراك قد شبت  
 يا رسول الله . قال (١) « شَيْبَتْنِي هُوْدُ وَأَخَوَاتُهَا » وهي الواقعة ، والمرسلات ، وعم  
 يتساءلون ، وإذا الشمس كورت . فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة تلك  
 أن تجميع القرآن ، وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا  
 بأن تنشق مرزاتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين . وإذا قممت بحركة اللسان  
 فقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها  
 وأكثر من أساميها ، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود  
 بكثرة الأسماء تكرير الأسماء والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ،  
 فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر ، وفي كل نعت من نعوتها معنى فاحرص  
 على معرفة معانيها

ونحن الآن نجمع لك أساميها ، وهي يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الندامة ،  
 ويوم المحاسبة ، ويوم المسائلة ، ويوم اللساقة ، ويوم المناقشة ، ويوم المنافسة ،  
 ويوم الزلزلة ، ويوم السمعة ، ويوم الصاعقة . ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ،  
 ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الناشئة ، ويوم الداهية ، ويوم الآزفة ،  
 ويوم الحافزة ، ويوم الطامة ، ويوم الصاخة ، ويوم التلاق ، ويوم التفراق ،  
 ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب ، ويوم اللاب ،

(١) حديث شيبني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت : الترمذي وحسنه  
 والحاكم وصححه وقد تقدم

ويوم المذاب ، ويوم الفرار ، ويوم القرار ، ويوم اللقاء ، ويوم البقاء ،  
ويوم القضاء ، ويوم الجزاء ، ويوم البلاء ، ويوم البكاء ، ويوم الحشر ،  
ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الوزن ، ويوم الحق ، ويوم الحكم ،  
ويوم الفصل ، ويوم الجلسع ، ويوم البعث ، ويوم الفتح ، ويوم الخزي ،  
ويوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم الدين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ،  
ويوم المسير ، ويوم النفخة ، ويوم الصيحة ، ويوم الرجفة ، ويوم الرجعة ،  
ويوم الزجرة ، ويوم السكرة ، ويوم الفزع ، ويوم الجزع ، ويوم المنتهى ،  
ويوم المأوى ، ويوم البقاة ، ويوم الميعاد ، ويوم المصاد ، ويوم القاق ، ويوم المرق ،  
ويوم الانتصار ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتشار ، ويوم الانشقاق ، ويوم الوقوف ،  
ويوم الخروج ، ويوم المخلود ، ويوم التفتابن ، ويوم عبوس ، ويوم مملوم ،  
ويوم موعود ، ويوم مشهود ، ويوم لاريب فيه . ويوم تبلى السرائر ، ويوم  
لايجزى قس عن نفس شيئا ، ويوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لاينفى مولى  
عن مولى شيئا ، ويوم لاتعك قس لنفس شيئا ، ويوم يدعون إلى نار جهنم  
دعاً ، ويوم يسحبون في النار على وجوههم ، ويوم تقلب وجوههم في النار ،  
ويوم لايجزى والد عن ولده ، ويوم يضرب المرء من أخيه وأمه وأبيه ، ويوم  
لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيمتذرون ، يوم لاصد له من الله ، يوم هم بارزون ،  
يوم هم على النار يفتنون ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم  
ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، يوم ترد فيه المصادير ، وتبلى السرائر ، وتظهر  
الضائر ، وتكشف الأستار ، يوم تخضع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل  
فيه الانفبات ، وتبرز الخفيات ، وتظهر الخطينات . يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد  
ويصيب الصغير ، ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ، ونشرت الدواوين  
وبرزت الجحيم ، وأعلى الجحيم ، وزفرت النار ، ويثس الكفار ، وسمرت النيران ،  
وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان  
فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستوز

واستترت عن الخلائق فقارفت النجور، فهاذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر النافلين، يرسل الله لنا سيد المرسلين، وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نوت يوم الدين، ثم يعرفنا غفلتنا، ويقول ( اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مَنْ ذُكِّرَ مِنْ رَبِّهِمْ أَنْ تَكُنْ إِلَّا أَسْمُوعُهُ وَهُمْ يَكْتُمُونَ لِأَهِيَّةٍ فَلَوْ بِهِمْ <sup>(١)</sup> ) ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ( اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ <sup>(٢)</sup> ) ( إِيَّاهُمْ بِرَوْضَةٍ بَيْدَا وَنَرَاهُ قَرِيْبًا <sup>(٣)</sup> ) ( وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيْبًا <sup>(٤)</sup> ) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً، فلا تدبر معانيه ولا تنتظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأسمائه، ولا تستمد للتخلص من دواحيه، فنمود بالله من هذه الغفلة إن لم يداركننا الله بواسع رحمته

### صفة المسألة

ثم تفكر يامسكين بمد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاعا من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير، والتقدير والتقدير. فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها، وشدة عذابها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام، وأشخاص منخام غلاظ شداد، أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرش على الجبار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ فِيهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا مَا يَنْ شَفَرِي عَيْنِيهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ » فاطنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرش؟ وترام على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم، مستشعرين مما بينا من غضب الجبار على عباده وعند زلوعهم لا يبق ني، ولا صديق، ولا صالح، إلا ويخرون لأذنتهم خوفاً من

(١) حديث أن الله عز وجل ملكا ما بين عينيهِ مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ

(٢) الأنبياء: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، القمر: ١٠، المارج: ١٠، ١١، ١٢، الأحزاب: ١٣

أن يكونوا مالمأخوذين ، فهذا جال للقرين ، فما ظنك بالمصاة الجرمين ؟  
وعند ذلك يادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أنيكم ربنا ؟  
وذلك لعظم موكبهم ، وشدة هيئتهم . فتفرع الملائكة من سؤالهم لإجلال  
خالقهم عن أن يكون فيهم ، فتادوا بأصواتهم مزهين ليسيهم عما توهه أهل  
الأرض ، وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ، ولكنه آت من بعد . وعند ذلك تقوم  
الملائكة صفا محدقين بالخالق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع  
وهيبة الخوف والمهابة لشدة اليوم ، وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله <sup>(١)</sup> ( فَلَنَسْأَلَنَّ  
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقْصِفَ عَنْهُمْ بَيْلِهِمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ )  
وقوله ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٢)</sup> ) فيبدأ سبحانه بالأنبياء  
( يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ  
الْغُيُوبِ <sup>(٣)</sup> ) . فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتنسى علومهم من  
شدة الهيبة ، إذ يقال لهم ماذا أجبت وقد أرسلتم إلى الخلائق ، وكانوا قد علموا  
قدهم عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا ،  
إنك أنت علام الغيوب . وهم في ذلك الوقت صادفون ، إذ طارت منهم المقول ،  
وانعمت الملام ، إلى أن يقوهم الله تعالى ،

فيدعى نوح عليه السلام ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيقال لأمته  
هل بلغتكم ؟ فيقولون ماأنا من نذير . ويؤتى بيسى عليه السلام ، فيقول  
الله تعالى له : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ؟ فيبقى  
متشطحاً تحت هيئة هذا السؤال سنين ، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على  
الأنبياء بتل هذا السؤال . ثم تقبل الملائكة ، فينادون واحدا واحدا ،  
ياإيلان بن فلانة ، هلم إلى موقف المرض . وعند ذلك ترمد الفرائص وتضطرب  
الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ، ولا تعرض  
تباع أصالهم على الجبار ، ولايكشف سترهم على ملا الخلائق

• وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور المرش ، وأشرقت الأرض بنور دها ،  
وأيقن قلب كل عبد بإفبال الجبار لمساواة العباد ، وظن كل واحد أنه ما يراه  
أحد سواء ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه . فيقول الجبار سبحانه  
وتعالى عند ذلك : يا جبريل انتني بالنار . فيجيب لها جبريل ويقول : يا جهم  
أجيب خالقك ومليكك . فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائه أن  
ثارت ، وفارت ، وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تنبئها وزفيرها ،  
وانتهضت خزنها متروبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره  
فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فرما وربما  
قتسافطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين . يوم ترى كل أمة جانبية ، وسقط  
بعضهم على الوجوه منكبين . وينادى المصاة والظالمون بالويل والثبور ، ويضلعي  
الصدقون قسى قسى . فينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف  
خوفهم ، وتخاذلت قواهم ، وظنوا أنهم مأخوذون . ثم زفرت الثالثة ، فتسافط  
الخلائق على وجوههم ، وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ،  
وانهضت عند ذلك قلوب الظالمين ، فلبنت الحناجر كأطنين ، وذهلت المقول من  
السعداء والأشقياء أجمعين . وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال : ماذا أجبت  
فلذا رأوا ما قد أفهم من السياسة على الأنبياء ، اشتد الفزع على المصاة ، فقر الوالد  
من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقي كل واحد منتظرا لأمره

ثم يؤخذ واحد واحد ، فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره  
وعلايته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه . قال أبو هريرة<sup>(١)</sup> : قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا  
يوم القيامة ؟ فقال « هل تُنْصَرُونَ فِي دُؤْمِيَةِ الشَّمْسِ فِي الظُّهْرِ لَيْسَ دُؤْمُهَا سِتَابٌ ،  
قَالُوا لَا قَالَ « قَبْلَ تُنْصَرُونَ فِي دُؤْمِيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُؤْمُهُ سِتَابٌ »  
قَالُوا لَا قَالَ « كَوَالِدِي نَفْسِي يَدِي لَأُنْصَرُونَ فِي دُؤْمِيَةِ رَبِّكُمْ قِيلَ قِيلَى الْبَدَةِ

(١) حديث أبي هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تنصرون في دؤمية الشمس في الظهر ليس

دوها سحاب . الحديث : حنف عليه دون لوه ليلتي البدر الخ قاضيه بها سلم

فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أَكْرَمْتُكَ وَأَسَوَّدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ  
رِئَاسُ وَتَرْبَعٌ . فَيَقُولُ أَتَبْدُ إِلَى قَبُولِ أَطْنَنْتَ أَنْكَ مُلَاقِي قَبُولِ لَا فَيَقُولُ  
فَأَنَا أَنَهَاكَ كَمَا نَسِيتِي .

فقوم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بمضديك وأنت واقف بين يدي الله  
تعالى يسألك شفاهاً ، فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ؟ ففما ذا أبليت ؟ ألم أمهل لك  
في العمر ؟ ففما ذا أفنيت ؟ ألم أرزقك المال ، فمن أين اكتسبته ؟ وفما ذا أفقته ؟ ألم  
أكرمك بالعلم ؟ فإذا علمت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياتك وخجلتك وهو يعد  
عليك إنعامه ومساميك ، وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك  
(١) قال أنس رضي الله عنه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم  
قال « أَتَذَرُونِي بِمِ أَضْحَكُ ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم . قال « مِنْ عَطَايَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ  
يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلُمِ . قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِزُ عَلَى  
نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ أَلَيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبًا وَبِالْكَرَامِ الْكَارِبِينَ  
شُهُودًا قَالَ فَتَحْتَمُّ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لَا زَكَاهَ انْطَبَحَ قَالَ فَتَسْطِيقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُحَلِّي  
نَيْتَهُ وَيَبْنِي الْكَلَامَ فَيَقُولُ لِأَعْضَائِهِ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَمَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلٌّ »  
فتسود بالله من الاقتضاح على ملائكة الخلق بشهادة الأعضاء . إلا أن الله تعالى وعد  
المؤمن بأن يستر عليه ، ولا يطلع عليه غيره . (٢) سأل ابن عمر رجل فقال له :  
كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فقال قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم « يَذْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَصْغَحَ كَنَفُهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتُ  
كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ عَمِلْتُ كَذًا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي  
سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ »

(١) حديث أنس أندرون م أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من عطاية العبدية - الحديث رواه مسلم

(٢) حديث سأل ابن عمر رجل قال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى

الحديث رواه مسلم



وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ سَرَّ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَتَهُ سَرَّ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فهذا إما يرجي لعبس مؤمن ستر على الناس عيوبهم ، واحتل في حق نفسه تقصيرهم ، ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ، ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدبر بأن يحازي بثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك ، أليس قد قرع صمك النداء إلى العرض ؟ فيكنيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر ، وفرائصك مرتدة ، وجوارحك مضطربة ، ولونك متغير ، والعالم عليك من شدة الهول مظلم . فقد رفسك وأنت بهذه الصفة تنخطى الرقاب ، وتخرق الصفوف ، وتتقاد كما تتقاد الفرس المجنوب ، وقد رفع الخلائق إليك أبعاصهم فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة ، حتى أنهى بك إلى عرش الرحمن ، فرموك من أيديهم ، وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم اذن مني . فدونت منه بقلب خائف عزون وجل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذي لا ينادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسبتها فتذكرتها ، وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فانكشف لك من مساوئها فكم لك من خجل وجبن ، وكم لك من حصر وعجز ، فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه ، وبأي لسان تجيب ، وبأي قلب تنقل . ما تقول

ثم تفكر في عظم جاثلك إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً ، إذ يقول يا عبيدي أما استحييت مني فبارزني بالقيح ، واستحييت من خلق فأظهرت لهم الجليل ؟ أكنيت أهون عليك من سائر عبادي ؟ استخففت بنظري إليك فلم تكدرت ، واستعظمت نظري غيري . ألم أنم عليك ؟ فإذا عرفت في ؟ أغلنت أني لأراك وأنتك لاتلقاني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَبَيْنَهُ اللَّهُ رَبُّهُ »

( ١ ) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة : قسم

( ٢ ) حديث ما منكم من أحد إلا وبه الله رب العالمين . الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر عن

أبي حاتم ينفذ إلا سيكلمه الحديث

أَلَمْ يَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تُرْجَانٌ ۚ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) ۚ لَيَقْفَنَ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أَنْصَحْ عَلَيْكَ أَلَمْ أُؤْتِكَ مَالاً؟ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً؟ فَيَقُولُ بَلَى ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ فَلَيَقِفْ أَحَدُكُمْ النَّارَ وَلَوْ يَشِقُّ تَحْمُوقُ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَيَكَلِمَةُ طَيِّبَةٍ ۚ

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخارو الله عز وجل به كما يخارو أحدكم بالقر ليلة البدر ، ثم يقول يا ابن آدم ، ما غرتك بي ؟ يا ابن آدم ما علمت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت الرسلين ؟ يا ابن آدم أَلَمْ أَكُنْ رَقِيباً عَلَى عَيْنِكَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ بِهَا إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ ؟ أَلَمْ أَكُنْ رَقِيباً عَلَى أَذْنِكَ ؟ وهكذا حتى عد سائر أعضائه

وقال مجاهد : لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله من أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه

فأعظم ما يسكن بحيانك عند ذلك ويخطر بك ، فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فمند ذلك يعظم سرورك وفرحك ، وينبئك الأولون والآخرون ، وإما أن يقال لللائكة خذوا هذا المبد السوء فتلوه ، ثم الجحيم صلوه ، وعند ذلك لوبكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديراً بعظم مصيبتك ، وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله ، وعلى ما بست آخرتك من دنيا دينته لم تبق منك

## صفة الميزان

ثم لا تغفل من الفكر في الميزان ، وتطالع الكتب إلى الأيمان والشمال ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة ، فيخرج من النار عنق

(١) حديث يقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجان - الحديث : البخاري من

حديث عدي بن حاتم

أسود فيلقطهم لقط الطير الحب ، وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار ، وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها . وقسم آخر لاسيئة لهم ، فينادى مناد يقيم المحادون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشله تجارة الدنيا ولا يميها عن ذكر الله تعالى ، وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها . ويبقى قسم ثالث ، وهم الأكثرون ، خلطوا محلا صالحا وآخر سيئا ، وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الثالب حسناتهم أوسيتاتهم ، ولكن يأتي الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند المفور ، وعده عند العقاب ، فتطير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات ، وينصب الميزان ، وتشخص الأبصار إلى الكتب أنتع في اليمن أوفى الشمال ، ثم إلى لسان الميزان أعيل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تعطش فيها عقول الخلائق

وروى <sup>(١)</sup> الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر مائسة رضي الله عنها ، فنفس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها . فقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتبه فقال « ما يبكيك يا مائسة » قالت ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهلكم يوم القيامة ؟ قال « والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن كإن أحدا لا يذكر إلا نفسه إذا وضعت الموازين ودونت الأعمال حتى ينظر ابن آدم كيف ميزانه أم ينقل وعند المحض حتى ينظر أيسره بأخذ كتابه أو يشمله وعند الصراط »

وعن أنس قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن تقل ميزانه نادى للملك بصوت لسمع الخلائق : سيد فلان سعادة

(١) حديث الحسن أن مائسة ذكرت الآخرة فبكت - الحديث وفيه قتال ما يبكيك يا مائسة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهلكم يوم القيامة - الحديث : أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت قتال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس واستاده جيد

لا يشقى بعدها أبداً . وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لا يسمع بعدها أبداً .

وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وأيديهم مقامع من حديد ، عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إِنَّهُ يَوْمَ يُنَادِي اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ <sup>(١)</sup> . يَقُولُ لَهُ قُمْ يَا آدَمُ فَأَبَتَتْ بَعَثَ النَّارَ يَقُولُ وَكَمْ بَعَثَ النَّارَ يَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ نَسْمَانَةً وَنِسْمَةً وَتَسْمُونَ » فلما سمع السحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعدن أصحابه قال « اَعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا قَوْلَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدَيْهِ إِنَّ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتْ مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَتْهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال « يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » قال فسررتي من القوم فقال « اَعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا قَوْلَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدَيْهِ مَا تَسْمُونَ فِي النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَالنَّسَمَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالرَّقِيقَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّائِيَةِ »

## صفة

الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره ، وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ( فَأَمَّا مَنْ قَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ نَارُ حَاقِيَةٍ <sup>(٢)</sup> ) واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله ، وخطراته ولخطاته ، كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنها قبل أن

(١) حديث يقول الله يا آدم قم فأبته بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف نسمانة وتسعون - الحديث : متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد هدم

توزنوا . وإعنا حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ،  
ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بحبة ،  
ويستحل كل من تعرض له بلسانه ، ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم ،  
حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب  
وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصاؤه ، فهذا يأخذ يده ، وهذا يقضي  
على ناصيته ، وهذا يملق بلبه . هذا يقول ظلمتني ، وهذا يقول شئتني ، وهذا  
يقول استزأتني ، وهذا يقول ذكرتني في التوبة بما بسوءني ، وهذا يقول  
جاورتني فأسأت جوارى ، وهذا يقول ظلمتني فنشفتني ، وهذا يقول بايستني  
فنبئتني وأخفيت عني عيب سلتك ، وهذا يقول كذبتني في سر متاعك ، وهذا  
يقول رأيته محتاجا وكنت غنيا فأطمتني ، وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت  
قاترا على دفع الظلم عني فداهنت الظالم ومارعتني ، فينا أنت كذلك وقد أنشب  
الخصماء فيك مغالبهم ، وأحكوا في تلاييك أيديهم ، وأنت مبهوت متحير من  
كثرتهم ، حتى لم يبق في همرك أحد عاملته على درم ، أو جالسته في مجلس ،  
إلا وقد استحق عليك مظلمة بنية ، أو خيانة ، أو نظير بين استحقار ، وقد  
ضعفت عن مقاومتهم ، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من  
أيديهم ، إذ فرغ سمعك نداء الجبار جل جلاله ( الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا  
كَسَبَتْ لِأَظْلَمَ الْيَوْمِ <sup>(١)</sup> ) فمذ ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، وتوقن نفسك بالبوراء  
وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ( وَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا  
يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُنْظَرَفِينَ مُغْشًى  
رُؤُوسُهُمْ لَیَزِيدَنَّ إِلَيْهِمْ ظُرْمُهُمْ وَأَفْزَدَتْهُمْ هَوَاةٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ <sup>(٢)</sup> )  
فما أشد فرحك اليوم بتفضضك بأعراض الناس ، وتناولك أموالهم ،  
وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل ، وشوهدت  
بخطاب السياسة ، وأنت مفلس فقير ، عاجز مبین ، لا تقدر على أن ترد حقا ،

أو تظهر عذرا ، فمعد ذلك تؤخذ حسنة منك التي تميت فيها عمرك ، وتنقل إلى خصمائك  
 موصيا من حقوقهم . قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل  
 تدرون من الفليس ؟ قلنا الفليس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع  
 قال « الفليس من أتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي  
 وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مالك هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيمطى  
 هذا من حسنة هذا وهذا من حسنة وإن قويت حسنة قبل أن يقضي ما عليه  
 أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار »

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم ، إذ ليس لك حسنة من آفات الزمان  
 وماكيد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدعها خصماؤك  
 وأخذوها . ولعلك لو حسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ،  
 لمست أنه لا ينقص منك يوم إلا ويحرق على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى  
 جميع حسناتك ، فكيف يقبض السبائات من أكل الحرام والشبهات ، والنقص  
 في الطاعات ، وكيف ترجو الخلاص من الظالم في يوم يقتصر فيه للجماة من القراء ،  
 فقد روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال <sup>(٢)</sup>  
 « يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان ؟ قلت لا . قال « ولكن الله يدري وسيقضي  
 بينهما يوم القيامة » .

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ  
 يُخَافِيهِ إِلَّا أَتَاهُمْ أُنْزُلُهُمْ <sup>(١)</sup> ) إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم ، والوابه  
 والطير ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القراء ، ثم يقول  
 كوني نرايا . فذلك حين يقول الكافر بالإنبي كنت نرايا

(١) حديث أبي هريرة هل تدرون من الفليس قلنا الفليس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع

الحديث : تقدم

(٢) حديث بأبذر أندي فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن ربك يرى وسيقضي بينهما : أحمد من رواية  
 الشيخ لم يسموا عن أبي ذر

فكيف أنت يا مسكين في يوم ترى صيفتك خالية عن حسنات طال فيها  
تعبك ، فتقول أين حسناتي ؟ فيقال نقلت إلى صحيفة خصائك . وترى . صيفتك  
مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك ، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك ،  
فتقول يارب هذه سيئات ما قارفتها قط ، فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم ،  
وشتمتهم ، وقصدتهم بالسوء ، وظلمتهم في اللبايمة ، والمجاورة ، والمخاطبة ،  
والناظرة ، والذاكرة ، والدارسة ، وسائر أصناف العامة قال <sup>(١)</sup> ابن مسعود :  
قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يُبْسَ أَنْ تُبَدَّ الْأَصْنَامُ  
بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ سَبَرَمَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِالْمَحْفَرَاتِ وَهِيَ  
الْمُؤَبَّاتُ فَاتَّقُوا الظُّلْمَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّهُ يُبَدِّلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ  
مِنْ الطَّعَامَاتِ فَيَرَى أَنَّهُمْ سَيُنْجِيَهُ قَا يَزَالُ عَبْدُ يَحْيَى يَقُولُ رَبِّ إِنَّ فُلَانًا  
ظَلَمَنِي بِعَظْمَةٍ فَيَقُولُ امْنَحْ مِنْ حَسَنَاتِهِ قَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ مِنْ  
حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ وَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ سَفَرٍ تَزَلُّوا بِغَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ  
حَطَبٌ فَتَقَرَّقَ الْقَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَسُوا أَنْ أُعْظِمُوا فَارْهَمُوا وَصَنَعُوا مَا أَرَادُوا  
وَكَذَلِكَ الدُّنُوبُ ۝**

<sup>(٢)</sup> ولما نزل قوله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ  
رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ <sup>(١)</sup>) قال الزبير : يا رسول الله ، أياكرد علينا ما كان بيننا  
في الدنيا مع خواص الدنوب ؟ قال : **نَعَمْ لَيَكْرَرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إِلَى**

(١) حديث ابن مسعود أن الشيطان قد أبس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سبرضى بكم بعادون  
ذلك المحفرات وهي اللوجات - الحديث : وفي آخره وإن مثل ذلك مثل سفر تزلوا بغلاة  
الحديث : رواده أحمد والبيهقي في الشعب مفتعرا على آخره إياكم وغفرت الدنوب فأنهم يجتمعون  
على الرجل حي يهلكه وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لمن مثالا الحديث وأسناده  
جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر أن الشيطان قد أبس أن يبدد  
الصالحين في جزيرة العرب ولكن في التمرين بينهم

(٢) حديث لا نزل قوله تعالى أنك ميتوأنهم ميتون ثم أنكم يوم القيامة عند ربكم تختمون  
الله أياكرد علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظه والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح

كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ ، قَالَ الزَّيْبَرُ : وَاللَّهِ إِنْ الْأَمْرَ لَشَدِيدٌ  
فَاعْظُم بِشِدَّةِ يَوْمٍ لَا يَسْمَحُ فِيهِ بِمُخْطَوءَةٍ ، وَلَا يَتَجَاوَزُ فِيهِ عَنْ لُطْمَةٍ ، وَلَا عَنْ كَلِمَةٍ ،  
حَتَّى يَنْتَقِمَ لِلْعَظَامِ مِنَ الظَّالِمِ . قَالَ <sup>(١)</sup> أَنَسٌ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
يَقُولُ : « يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ عُرَاءَ غُبَرَا بَيْنَهُمَا » قَالَ قُلْنَا مَا بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ « لَيْسَ مَعَهُمْ  
شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ يَبْدُو كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَّبَ  
أَنَا إِلَيْكَ أَنَا اللَّهُ يَا نَبِيَّ لَا تَتَّبِعْنِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلَا أَحَدٍ مِنْ  
أَهْلِ النَّارِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَتَنَصَّهُ مِنْهُ وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ  
وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَتَنَصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةِ ، فَلَنَا وَكَيْفَ  
وَإِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ مِنْ وَجَلٍ عُرَاءَ غُبَرَا بَيْنَهُمَا ؟ فَقَالَ « بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فَاتَّقُوا  
اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ »

وَمُظَالِمِ الْعِبَادِ بِأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ ، وَالتَّعَرُّضِ لِأَعْرَاضِهِمْ ، وَتَضْيِيقِ قُلُوبِهِمْ ، وَإِسَاءَةِ  
الْخَلْقِ فِي مَعَاشَرَتِهِمْ ، فَإِنْ مَا بَيْنَ الْمَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ خَاصَّةً فَالْمَغْفِرَةُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ ، وَمَنْ  
اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ مَظَالِمٌ وَقَدْ تَابَ عَنْهَا ، وَعَسَّرَ عَلَيْهِ اسْتِحْلَالُ أَرْبَابِ الْمَظَالِمِ ، فَلْيَكْثِرْ  
مِنْ حَسَنَاتِهِ لِيَوْمِ الْقِصَاصِ وَلْيَكْثِرْ بَعْضُ الْحَسَنَاتِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ بِكَمَالِ الْإِخْلَاصِ ،  
بِحَيْثُ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ، فَمَسَاهُ يَقْرِبُهُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَيُنَالُ بِهِ لُطْفَهُ  
الَّذِي يُادِخِرُهُ لِأَحِبَّاءِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَفْعِ مَظَالِمِ الْعِبَادِ عَنْهُمْ ، كَمَا رَوَى عَنْ <sup>(٢)</sup> أَنَسٍ ،  
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : يَدِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
جَالِسٌ ، إِذْ رَأَيْنَاهُ يَضْحَكُ حَتَّى يَبْدُو ثَنَابُهُ . فَقَالَ عُمَرُ : مَا يَضْحَكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ  
بِأَنْتَ وَأَمِي ؟ قَالَ « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَنِيَا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّ الْوَزِيرَةِ فَقَالَ  
أَحَدُهُمَا يَا رَبِّ خُذْنِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى أُعْطِيَ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ »

(١) حديث أنس يحشر العباد عرءا غبرا بينهما قلنا ما بينهما قال ليس معهم شيء . الحديث : قلت ليس من حديث

أنس وإنما هو عبيد الله بن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غزلا مكان عبرا

(٢) حديث أنس يديننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثنابه فقال عمر

ما ضحكك يا رسول الله بأبي وأمي قال رجلان من أمتي جنيا بين يدي رب العالمين الحديث

بطوله ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرک وقد تقدم



فَقَالَ يَارَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ فَقَالَ اللَّهُ تَمَكَّى لِلطَّالِبِ تَجَفَّ تَمَتَّعْ  
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ قَالَ يَارَبِّ يَتَحَمَّلُ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي •  
قَالَ وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَكَاءِ ثُمَّ قَالَ « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ  
عَظِيمٌ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ » قَالَ « فَقَالَ اللَّهُ  
لِلطَّالِبِ ارْزُقْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ فِي الْحِجَابِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ  
مِنْ فِضَّةٍ مَرْتَفِعَةً وَنُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِالْأُزُلُفِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا  
أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا قَالَ لَمَنْ أَعْطَاكِ الشَّيْءَ قَالَ يَارَبِّ وَمَنْ  
يَمْلِكُ نَعْتَهُ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ عَفْوُكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ يَارَبِّ  
إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ قَالَ اللَّهُ تَمَكَّى خُذْ يَدَ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ • ثُمَّ قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ « اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ  
اللَّهَ يُصْلِحُ لَكُمْ أَلْوَمِينَ » وَهَذَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَنَالُ بِالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ  
اللَّهِ ، وَهُوَ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ

فَتَفَكَّرِ الْآنَ فِي نَفْسِكَ إِنْ خَلَّتْ صِفَتُكَ عَنِ الْمَظَالِمِ ، أَوْ تَلَطَّفَ لَكَ حَتَّى عَفَا  
عَنكَ ، وَأَبْقَيْتَ بِسَعَادَةِ الْأَبَدِ ، كَيْفَ يَكُونُ سُرُورُكَ فِي مَنْصَرَفِكَ مِنْ مَفْصَلِ  
الْقَضَاءِ ، وَقَدْ خَلَعَ عَلَيْكَ خِلْمَةَ الرِّضَا ، وَعَدْتَ بِسَعَادَةِ لَيْسَ بَعْدَهَا شَقَاءٌ ، وَبَنِيمَ  
لَا يَدُورُ بِمَحَاشِبِهِ الْفَنَاءِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ طَارَ قَلْبُكَ سُرُورًا وَفَرَحًا ، وَابْيَضَ وَجْهُكَ  
وَاسْتَبَارَ ، وَأَشْرَقَ كَمَا يَشْرُقُ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَتَوَهَّجَ تَبَخَّرَكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ رَافِعًا  
رَأْسَكَ ، خَالِبًا عَنِ الْأَوْزَارِ ظَهْرَكَ ، وَنُصْرَةً نَسِيمَ النِّعَمِ وَبَرْدَ الرِّضَا يَتَلَاوَأُ مِنْ  
جَنِينِكَ ، وَخَلَقَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَإِلَى حَالِكَ ، وَيَنْبُطُونَكَ فِي  
حُسْنِكَ وَجَمَالِكَ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَمْشُونَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ ، وَيُنَادُونَ عَلَى رُءُوسِ  
الْأَشْهَادِ هَذَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ، وَقَدْ سَعِدَ بِسَعَادَةِ لَا يَشِي  
بَعْدَهَا أَبَدًا . أَقْرَبَى أَنَّ هَذَا الْمَنْصَبَ لَيْسَ بِأَعْظَمَ مِنَ الْكَأَةِ الَّتِي تَنَالُهَا فِي قُلُوبِ  
الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا بِرَهَائِكَ ، وَمَدَامَتِكَ ، وَتَعْنَمِكَ ، وَتَزِينِكَ ؟ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ

خير منه ، بل لانسبة له إليه ، فتوصل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي ،  
والنية الصادقة في معاملتك مع الله ، فلن تدرك ذلك إلا به  
وإن تكن الأخرى والياد بالله ، بأن خرج من صميمتك جرعة كنت تحسبها  
هبة وهي عند الله عظيمة ، ففتك لأجلها ، فقال عليك لعنتي يا عبد السوء ،  
لا تحبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ، ثم تنضب  
للالكة لنضب الله تعالى فيقولون . عليك لعنتنا ولعنة اخلائك أجمعين ، وعند  
ذلك تتلألأ إليك الزبانية وقد غضبت لنضب خالقها ، فأقدمت عليك بغطايتها ،  
وزمارتها ، وصورها النكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملاء  
الخلق ، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك ، وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى  
بالويل والنبور ، وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا ،  
وتنادى باللائكة ويقولون ، هذا فلان بن فلان ، كشف الله عن فضائحه وغايبه  
ولعنه بقبائح مساويه ، فتش شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . وربما يكون ذلك بذنب  
أذنبته خفية من عباد الله ، أو طلبا للمساكنة في قلوبهم ، أو خوفا من الاقتضاح عندم  
فما أعظم جهلك إذ تحتزم عن الاقتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا  
للقرصة ، ثم لا تعشى من الاقتضاح العظيم في ذلك الملا العظيم ، مع التمرض  
لسخط الله وعقابه الأليم ، والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم . فهذه أحوال  
وأنت لم تشمر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط

### صفة الصراط

ثم شكر بعد هذه الأحوال في قول الله تعالى ( يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى  
الْجَنَّةِ وَفِئَةٍ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا <sup>(١)</sup> ) وفي قوله تعالى ( فَأَعْدُوهُمْ  
إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ <sup>(٢)</sup> ) فالناس بعد هذه الأحوال  
يساقون إلى الصراط ، وهو جسر محدود على متن النار ، أحد من النيف ، وأدق

من الشعر ، فن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط  
الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا ، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ،  
تعثّر في أول قدم من الصراط. وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك  
إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع  
سممك شهيق النار وتنيطها ، وقد كلفت أن تعثي على الصراط مع ضعف حالك ،  
واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وتقل ظهرك بالأوزار المأنة لك عن المشي على  
بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك  
فأحسست بحدته ، واضطرتت إلى أن ترفع القدم الثانية ، والخلالق بين يديك  
يزلون ويشثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب ، وأنت تنظر  
إليهم كيف ينسكسون فتسفل إلى جهة النار ردوسهم ، وتعلو أرجلهم ، فباله  
من منظر ما أظلمه ، ومرتقى ما أصعبه ، وعجاز ما أضيقه

فانظر إلى حالك وأنت ترحف عليه ، وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ،  
تلثفت عينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون في النار ، والرسول عليه السلام يقول  
يارب سلم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة  
من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ، ولم ينفعك ندمك  
فناديت مالد يل والثبور ، وقلت هذا ما كنت أخافه ، فيا ليتني قدمت لحياتي ،  
يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ليتنا ليتني لم أنخذ فلانا خليلا ، يا ليتني كنت  
ترابا ، يا ليتني كنت نسيا منسيا ، يا ليت أُمّى لم تلدن . وعند ذلك تحتطفك التيران  
والعباذ بالله ، وينادى النادى اخسوا فيها ولا تكلمون ، فلا يبق سبيل إلا الصباح  
والأنين ، والتنفس والاستنائة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين  
يديك ، فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات  
جهنم . وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا ، وبلاستمداد له منهاونا ، فما أعظم  
خسرانك وعليتانك ، وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يمتك على السعى في طلب رضا  
الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ؟ فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط ،

خارجاً قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلت ، فذاك به هولا وفزعا ورعبا  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يُضْرَبُ الصِّرَاطُ مِثْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ  
فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَخْرُجُ بِأَمْنِهِ مِنَ الرَّسْلِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرَّسْلُ  
وَدَعْوَى الرَّسْلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلَّابِيٌّ مِثْلُ شَوْكِ  
السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ » قالوا نعم يا رسول الله . قال « كَلَّانِهَا مِثْلُ  
شَوْكِ السَّعْدَانِ فَغَيْرُ أَنَّهُ لَا يَفْلَحُ قَدْرُ عَظْمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى تَحْتَطِيفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ  
فِيْنَهُمْ مَنْ يُؤْتِي بِعَتَلَةٍ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ يُخْرِجُهُ ثُمَّ يَنْجُو » وقال <sup>(٢)</sup> أبو سعيد  
الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ  
وَعَلَيْهِ حَنَّكَ وَكَلَّابِيٌّ وَخَطَّاطِيْفٌ تَحْتَطِيفُ النَّاسَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ  
مَلَائِكَةٌ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ فَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْبَرَقِ وَمِنْهُمْ  
مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْمَجْرِيِّ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَقْبِلُ سَيْفًا  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْجُو سَبَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُوا خَبْرًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْحَفُ رَحْفًا فَأَمَّا أَهْلُ  
النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ وَأَمَّا نَاسٌ قَلِيلٌ يَخْذُلُونَ  
بِذُنُوبٍ وَخَطَايَا فَيُخْرَجُونَ فَيَكُونُونَ نَفْسًا ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي الشَّقَاةِ » وذكر إلى  
آخر الحديث ، وعن <sup>(٣)</sup> ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال  
« يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَقَاتِلَ يَوْمَ مَعْلُومٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً  
أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصَلَ الْقَضَاءِ » وذكر الحديث إلى أن ذكر  
وقت سجود المؤمنين قال « ثُمَّ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ارْزُقُوا رُؤُسَكُمْ فَيَرْفَعُونَ  
رُؤُسَهُمْ فَيَنْطِيطُهُمْ نُورُهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَيَنْتَهِي مَنْ يُعْلَى نُورُهُ مِثْلَ الْجَبَلِ

(١) حديث ينسب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج بهنم من ظهري عليه من حديث أبي هريرة

في أثناء حديث طويل

(٢) حديث أبي سعيد يشرح الناس على جسر جهنم وعليه حنك وكلابي وخطاطيف - الحديث :

متفق عليه مع اختلاف ألفاظ

(٣) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين ليقاتل يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخت أبقارهم

إلى الله ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث :

يطرحه رواد ابن عدي والحاكم وقد تضمن منه مختصراً

الْعَظِيمِ يَسْمَى بِمَنْ يَدْبُو وَمِنْهُمْ مَنْ يُطَوُّ نُورَهُ أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُطَوُّ نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُطَوُّ نُورَهُ أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلًا يُطَوُّ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ فَيَقْبِضُهُ مَرَّةً وَيُخْبِئُ مَرَّةً فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ فَمَشَى وَإِذَا أَظْلَمَ قَامَ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَرُورَهُ عَلَى الصَّرَاطِ عَلَى قَدَرِ نَوْرِهِ فَفَنَّهُمْ مِنْ يَمْرُكَطِ الْعَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرُكَطِ الْبَرْقِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرُكَطِ السَّحَابِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرُكَطِ كَافَقِضِ السَّكَاكِبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرُكَطِ الْفَرْسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرُكَطِ الرَّجْلِ ، حَتَّى يَمْرُكَطِ الَّذِي أُعْطِيَ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يَجْهَوُ عَلَى وَجْهِهِ وَيُدْبُو وَرَجْلَيْهِ ، تَجْرُ مِنْهُ يَدٌ ، وَتَمْلُقُ أُخْرَى ، وَتَمْلُقُ رَجْلٌ ، وَتَجْرُ أُخْرَى ، وَتَنْصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارَ . قَالَ « فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ فَإِذَا خُلِصَ وَقَفَّ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا إِذْ تَجَاوَيْتُ مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُهَا فَيُطَلَّقُ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَنْتَسِلُ »

وقال (١) أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصَّرَاطُ كَعَدَةِ السِّيفِ أَوْ كَعَدَةِ الشَّعْرَةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُنْجُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَإِنْ جَبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَخِذُ بِحُجْرَتِي وَإِنِّي لَأَقُولُ يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ فَأَنْزِلْهُنَّ وَالزَّالَّاتِ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ »

فهذه أحوال الصراط وعظائمه ، فطول فيه فكرك ، فإن أسلم الناس من أحوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأحوال في الدنيا أمنها في الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كرفة النساء تدمع عينك ، ويرق قلبك حال السماع ، ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى هوك ولبلك ، فأذا من الخوف في شيء . بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، فلا ينجيكَ إلا خوف يمتنع عن معاصي الله تعالى ، ويحثك على طاعته

( ١ ) حديث أنس الصراط كعد السيف أو كعد الشعرة - الحديث : الصحيح في الشعب وقال هذا إسناده ضعيف

قال ودروي عن زياد الغيري عن أنس مرفوعاً الصراط كعد الشعرة أو كعد السيف قال

وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة

وأبعد من رقة النساء خوف الحتمي ، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استغثت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المأصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ، ووراء حصن ، فإذا رأى أبواب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين ، وأستعين بشدة بنيانه ، وإحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه . فأتى ينقذ ذلك عنه من السبع ! وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقاً ، ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ، ولا مبيود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده ، وأمره غطر في نفسه

فإن عجزت عن ذلك كله فكن عبداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حريصاً على تعظيم سنته ، ومتشوقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ، ومتبركاً بأدعيتهم فمساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم ، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة

## صفة الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين ، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعاة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعاة العلماء والصالحين . وكل من له عند الله جاه وحسن ماملة ، فإن له شفاعاة في أهله ، وقربائه ، وأصدقائه . ومعارفه . فكن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعاة ، وذلك بأن لا تحقر آدمياً أصلاً ، فإن الله تعالى خبياً ولايته في عبادته ، فلعل الذي ترزديه عينك هو ولي الله ، ولا تستنصر معصية أصلاً ، فإن الله تعالى خبياً غضبه في معاصيه ، فلعل مقت الله فيه . ولا تستحق أصلاً طاعة ، فإن الله تعالى خبياً رضاه في طاعته ، فلعل رضاه فيه ، ولو الكلمة الطيبة ، أو اللقمة ، أو النية الحسنة ، أو ما يجري مجراه وشواهد الشفاعاة في القرآن والأخبار كثيرة . قال الله تعالى ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى <sup>(١)</sup> )

(١) الضحى : هـ

روى <sup>(١)</sup> عمرو بن الماص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قول إبراهيم عليه السلام ( رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَن تَبْعِي فَإِنَّهُ يَبْغِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ <sup>(٢)</sup> ) وقول عيسى عليه السلام ( إِنَّ كُفْرَتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَادُكَ <sup>(٣)</sup> ) ثم رفع يديه وقال « أُمِّي أُمِّي » ثم بكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يسئلك ؟ فأناه جبريل فسأله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمك ولانسوك وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرَّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْفَنَائِمُ وَلَمْ يَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَزُرَّابُهَا مَطُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكُلُّ نَبِيٍّ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » وقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ . وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ وَأَنَا أَوَّلُ شَاغِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ يَبْدَى لَوَاهِ الْحَمْدِ تَحْتَهُ آدَمُ قَبْلَ دُونِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ »

(١) حديث عمرو بن الماص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم رب

إني أسألك كثيرا من الناس فن تبغي فانه من ومن عصاني فانك غفور رحيم وقول عيسى

صلى الله عليه وسلم ان كفرتهم فانهم عاديك ثم رفع يديه ثم قال أمي أمي ثم بكى - الحديث :

وفيه يا جبريل اذهب الى محمد قل اناسئريك ولانسوك في أمك قلت ليس هومن حديث

عمرو بن الماص وانما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن الماص كارهوا مسلم واهله

سقط من الاحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ

(٢) حديث أعطيت خمسًا لم يعط أحد قبلي - الحديث : وفيه وأعطيت الشفاعة متفق عليه من حديث

جابر اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير نظر : الترمذي

وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح

(٣) حديث أناسيدون آدم ولا نفر - الحديث : الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري

(٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أخشى - دعوى شفاعة لأمتي يوم القيامة : متفق عليه من حديث

أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة

فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتِيءَ دَعْوِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنْصَبُ لِلْأَنْبِيَاءِ مَنَابِرٌ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا وَيَتَّقِي مَنِيرِي لِأَجْلَسٍ عَلَيْهِ قَائِمًا يَنْتَظِرُ يَدَيَّ رَبِّي مُتَمِيبًا خَافَةً أَنْ يَبْعَثَ بِي إِلَى الْجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمَّتِي بِمَسَدِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا مُحَمَّدُ وَمَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ ؟ فَأَقُولُ يَا رَبِّ عَجِّلْ حِسَابَهُمْ فَإِنَّكَ أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطِيَ صَكَكَ بِرِجَالِ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَحَتَّى أَنْ مَالِكًا حَاظِرَ النَّارِ يَقُولُ يَا مُحَمَّدُ مَا تَرَكْتَ النَّارَ لِنُصْبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ بَقِيَّةٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَأُشْفِعَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرِ مِمَّا عَلَيَّ وَجْهُ الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَنٍ »

وقال (٣) أبو هريرة : أني رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فرفع إلي الذراع وكانت تعجبه ، ففهِسَ مِنْهَا نِهْشَةً ثُمَّ قَالَ « أَنَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَذَرُونَ مِنِّي ذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسَمُّهُمْ الدَّاهِي وَيَفْزَعُهُمُ الْبَصَرُ وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيُبْلَغُ النَّاسُ مِنَ الْقَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَا تَرَوْنَ مَا نَفَعَكُمْ بَلَّغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِأَدَمٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ يَدِيهِ وَفَضَّ فَيْكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ

(١) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويتقون منبري لأجل أن يجلس عليه قائم بين يدي

ربي منصبا - الحديث : الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت الباقى ضعيف

(٢) حديث أني لأشفع يوم القيامة لأكثر ما على وجه الأرض من حجر ومدن - أحمد والطبراني - بن حديث

بريدة بسند حسن

(٣) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يمججه فنهض

منها نهضة ثم قال أنا سيد الناس - الحديث : بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا

السابق مع ذكر خطأ إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجه مسلم



أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ إِلَّا تَرَى مَا نَدَّ بَلَنَّا فَيَقُولُ لَهْمُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
 إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَنْصَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَنْصَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ  
 وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَمَضَيْتُهُ نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى  
 نُوحٍ قِيَّاثُونَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ  
 الْأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ  
 فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَنْصَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَنْصَبُ بَعْدَهُ  
 مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي  
 أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ قِيَّاثُونَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ  
 أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ  
 فِيهِ فَيَقُولُ لَهْمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَنْصَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا  
 يَنْصَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي كُنْتُ كَذِبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ وَبَدَّكُمْ نَفْسِي أَذْهَبُوا  
 إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى قِيَّاثُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ  
 يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَلِّتْ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ  
 أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَنْصَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ  
 وَلَنْ يَنْصَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي أَذْهَبُوا  
 إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيَّاثُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ  
 يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَامَا إِلَى مَرْبِّمِ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتُ النَّاسَ  
 فِي الْإِيمَانِ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
 إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَنْصَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَنْصَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ  
 وَلَمْ يَذْكُرْ دَنَابًا نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيَّاثُونِي فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَغَفَرَ  
 اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذُنُوبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ  
 فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي نَحْتِ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ لِي مِنْ

مَكِيدِهِمْ وَحَسَنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ  
أَرْزُقْ رَأْسَكَ سَلْ نَطْمَ وَأَشْفَعْ تُشْفَعْ فَأَرْزُقْ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمِّي أُمِّي يَا رَبِّ  
فَيَقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَذْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَأَحْسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَلْبَابِ الْإِيمَنِ مِنْ  
أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ثُمَّ قَالَ  
« وَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ  
وَجِدَّةَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »

وفي حديث آخر هذا السياق بعينه ، مع ذكر خطايا إبراهيم ، وهو قوله  
في السكواكب هذا ربي ، وقوله لأهلهم بل فله كبيرهم هذا ، وقوله إني سقيم  
فهذه شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولأحد أمته من الدماء والصالحين  
شفاعة أيضا ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «<sup>(١)</sup> يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ  
وَجُلٍّ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رِيْمَةٍ وَنُضْرَةٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(٢)</sup> يُقَالُ لِلرَّجُلِ قُمْ يَا فُلَانُ فَاشْفَعْ فَيَقُومُ الرَّجُلُ  
فَيُشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ وَلِلْأَهْلِ أَلَيْتَ وَلِلرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ »  
وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «<sup>(٣)</sup> إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ  
الْجَنَّةِ يُشْرَفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيُنَادِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَقُولُ

(١) حديث يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتي أكثر من ريمة ومضر : رويناه في جزء أبي عمر بن السالك

من حديث أبي امامة إلا أنه قال مثل أحباطين ريمة ومضر وفيه فكان للشيخة يرون أن ذلك

الرجل عثمان بن عفان واستاده حسن والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله

ابن أبي الجعد يدخل الجنة بشفاعته الرجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا سواك قال سواي

قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أوريا

(٢) حديث يقال للرجل قُمْ يَا فُلَانُ فَاشْفَعْ فَيَقُومُ يَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ وَلِلْأَهْلِ الْبَيْتِ وَالرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدْرِ

عَمَلِهِ : الترمذي من حديث أبي سعيد أن من أمتي من يشفع للناس ومنهم من يشفع للقبيلة

الحديث : وقال حسن والبرزاني من حديث أنس أن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة

(٣) حديث أنس أن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار

ويقول يا فُلَانُ هَلْ تَرْفُقُ يَقُولُ لَا وَاللَّهِ مَا تَرْفُقُ مِنْ أَنْتَ يَقُولُ أَمَا الَّذِي مَرَرْتُ بِهِ فِي الدُّنْيَا

يَوْمًا فَاسْتَفَيْتَنِي شَرِبَ نَسِيجَتَكَ - الحديث : في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور

الدهلي في مسند الترمذي بسند ضعيف

يَا قُلَانُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ يَقُولُ لَا وَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ مِنْ أَنْتَ؟ يَقُولُ أَنَا الَّذِي مَرَرْتُ  
بِي فِي الدُّنْيَا فَاسْتَفَيْتَنِي شَرِبَةً مَاءً فَسَقَيْتُكَ قَالَ قَدْ مَرَرْتُ قَالَ فَاسْتَفَعْ لِي  
بِهَا عِنْدَ رَبِّكَ قَسَّيْتُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ وَيَقُولُ إِنِّي أَشْرَفْتُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ  
فَنَكَدَانِي وَجُلُّ مِنْ أَهْلِهَا فَقَالَ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ قُلْتُ لَا مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي  
اسْتَفَيْتَنِي فِي الدُّنْيَا فَسَقَيْتُكَ فَاسْتَفَعْ لِي عِنْدَ رَبِّكَ فَسَقَيْتَنِي فِيهِ فَيُسْقِعُهُ اللَّهُ فِيهِ  
قِيَوْمَ مَرُّ بِهِ فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ .

وعن أنس <sup>(١)</sup> قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا  
إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَنَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا يَسْأَلُوا لِرَؤَاةِ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ  
يَبْدِي وَأَنَا أَسْكُرُهُمْ وَلَدَ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنِّي أَقُومُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ  
فَأُكْتَسَى حَلَّةٌ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ  
يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي »

وقال <sup>(٣)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم معهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم  
فقال بعضهم : هبنا ! إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا ، اتخذ إبراهيم خليلا .  
وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمة تكليما . وقال آخر . فبئس كلة الله وروحه .  
وقال آخر آدم اصطفاه الله . فخرج لهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال « قَدْ  
سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَتَجَبُّكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَمُوسَى نَبِيُّ  
اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَهُوَ  
كَذَلِكَ أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا حَامِلُ رِوَاةِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ »

(١) حديث أنس أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا - الحديث : الترمذی وقال حسن غريب  
(٢) حديث فأكسى حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش - الحديث : الترمذی من حديث  
أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح

(٣) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا  
دنا منهم معهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم هبنا إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ  
إبراهيم خليلا - الحديث : رواه الترمذی وقال غريب

وَأَنَا أَوَّلُ شَائِعٍ وَأَوَّلُ مُشْنَعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ  
يُحْرَمُ حَلَقُ الْجَنَّةِ فَيُفْتَحُ اللَّهُ لِي فَأَدْخِلُنِي وَسَيِّ فَقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ  
وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ ،

## صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد  
اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا عله ،  
وفي الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا قال <sup>(١)</sup> أنس :  
أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغفاده فرفع رأسه متبسما ، فقال له يارسول الله  
لم ضحكك ؟ فقال : آيَةٌ أَنْزَلْتُ عَلَى آتِفَا ، وقرأ ( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )  
إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ <sup>(٢)</sup> حتى ختمها ثم قال « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا  
الله ورسوله أعلم ؟ قال : إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَذْيُهُ رَيْ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ  
عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَتُهُ عَدَدُ بُحُورِ السَّمَاءِ .

وقال <sup>(٣)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَتَنَا أَنَا أُسِيرُ فِي الْجَنَّةِ  
إِذَا نَهَرَ حَافَتَاهُ قَبَابُ الْوُلُؤِ الْمُجَوَّفُ قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ  
الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَضْرَبَ أَلْمَلِكُ يَدَهُ فَإِذَا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ »

وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(٤)</sup> « مَا بَيْنَ لَابَتَيْ حَوْضِي  
مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ أَوْ مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَنَحْمَانَ »

(١) حديث أنس أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغفاده فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله

لم ضحكك فقال آية نزلت على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر رواء مسلم

(٢) حديث أنس بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافناه قباب الؤلؤ المجوف - الحديث : الترمذي وقال

حسن صحيح ورواة البخاري من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء

الحديث : وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث أنس ما بين لابتى حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة ونحمان : رواه مسلم

وروى <sup>(١)</sup> ابن عمر إنه لما نزل قوله تعالى ( إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ <sup>(٢)</sup> ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ شَرَابُهُ أَشَدُّ يَكْنَسًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ أَلْسَلٍ وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ الْأَوْكُوتِ وَالْخُرْجَانِ »

وقال <sup>(٣)</sup> ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدْنِ إِلَى عَمَانَ الْبَلَقَاءُ مَأْوُهُ أَشَدُّ يَكْنَسًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ أَلْسَلٍ وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نَجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرِبَ كَمْ يَطْمَأُ بِنَدَاهَا أَبَدًا أَوَّلُ النَّاسِ وَزُودًا عَلَيْهِ فَقَرَاهُ الْمُنَاجِرِينَ » فقال عمر ابن الخطاب : ومن هم يا رسول الله ؟ قال « هُمُ الشُّعَثُ رُؤُوسُ الدُّنُسِ يَا أَبَا الْقَيْنِ لَا يَنْكَبُونَ الْتَمَتَّمَاتِ وَلَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السُّدَدِ » فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكمت التتمعات : فاطمة بنت عبد الملك ، وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله لاجرهم لأدهن رأسي حتى يشمت : ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ

<sup>(٤)</sup> وعن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، ما آتية الحوض ؟ قال « وَالْقَرَى نَفْسٌ مُخْتَلِفٌ بِيَدِهِ لَا يَنْتَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ وَكُلُوا كَيْهَا فِي الْفَيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ كَمْ يَطْمَأُ آخِرُ مَا عَلَيْهِ يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ عَرَضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَانَ وَإِلَآةٍ مَأْوُهُ أَشَدُّ يَكْنَسًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ أَلْسَلٍ »

(١) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أنهر

في الجنة حافاه من ذهب - الحديث : الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه

البارقي في مستنده وهو أقرب إلى لفظ الصنف

(٢) حديث ثوبان انه حوض ما بين عدن الى عمان البقا - الحديث : الترمذي وقال غريب وابن ماجه

(٣) حديث أبي ذر قلت يا رسول الله ما آتية الحوض قال والذي نفسي بيده لا يئته أكثر من عدد

نجوم السماء - الحديث : رواه مسلم

ومن <sup>(١)</sup> سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْصًا  
وَأَسْمُهُمْ يَتَّبِعُهُونَ أَهْلَهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةٌ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ وَارِدَةً .  
فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة  
الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومفترا وهو يظن أنه راج ، فإن الراجي للحصاد  
من بث البذر ، ونقى الأرض ، وسقاها الماء ، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات  
ودفع الصواعق إلى ثوان الحصاد . فأما من ترك الحراثة أو الزراعة ، وتنفية الأرض  
وسقيها ، وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة ، فهذا مفترو متمن  
وليس من الراجين في شيء . وهكذا رجاء أكثر الخلق ، وهو غرور الحق ،  
نموذ بالله من الغرور والنفلة ، فإن الغرور بالله أعظم من الغرور بالدينا .  
قال الله تعالى ( فَلَا تَقْرَأُكُمْ الْحَبَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَصْرُفْكُمْ بِاللهِ الْغُرُورُ <sup>(٢)</sup> )

## القول

في صفة جهنم وأهوالها وانكاسها

يأيتها الناقل من نفسه ، المفرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا للمشرفة على  
الانقضاء والزال ، دع التفكير فيما أنت مرتحل منه ، واصرف الفكر إلى  
موردك ، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل ( وَإِنْ مَنَّكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا  
كَأَنَّهُ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا <sup>(٣)</sup> )  
فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة في شك . فاستشعر في قلبك هول  
ذلك المورد ، فمساك تستمد النجاة منه . وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا  
من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوا ينتظرون حقيقة  
أنابها ، وتشفيق شفائها ، إذ أحاطت بالجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت

( ١ ) حديث سمرة أن لكل نبي حوصا وانهم ليتباهون بهم أكثر واردة - الحديث : الترمذي وقال غريب

قال وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم

مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح

عليهم نار ذات لهب ، وسموا لها زفيراً وجرجرة تصمع عن شدة النبط  
والنصب ، فند ذلك أيقن المجرمون بالطب ، وجثت الأمم على المركب ، حتى  
أشفق البراء من سوء القلب ، وخرج اللنادى من الزبانية قائلاً : أين فلان بن فلان  
للسوء فقمه في الدنيا بطول الأمل ، المضيع صره في سوء الميل ؟  
فيأدرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بمطائم التهديد ، ويسوقونه إلى المذاب  
الشديد ، ويتكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له (ذَنْ إِنَّكَ أَنْتَ أَتَرِزُ الْكَرِيمَ<sup>(١)</sup>)  
فأسكنوا داراً ضيقة الأرباء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخذ فيها الأسير  
ويومد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم ، ومستقرم الجحيم ، الزبانية تقببهم  
والهناوية تجمعهم . أمانهم فيها المهلاك ، ومالمهم منها فكاك . قد شدت  
أقدامهم إلى النواصي ، واسودت وجوههم من ظلمة الماصي . ينادون من  
أكنافها ، ويسبحون في نواحيها وأطرافها ، يامالك قد حق علينا الوعيد ، يامالك  
قد أقتلنا الحديد ، يامالك قد نضجت منا الجلود ، يامالك أخرجنا منها فإنا  
لأنود . فتقول الزبانية هيئات لات حين أمان ، ولاخروج لكم من دار الهوان  
فاغسبوا فيها ولا تسكلون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مايتهم عنه تمودون .  
فند ذلك يقنطون ، وعلى ماقرطوا في جنب الله يتأسفون . ولاينجيهم الندم ،  
ولاينفيهم الأسف ، بل يكون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار  
من تحتهم ، والنار عن أيمنهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرق في النار ، طمامهم  
نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار . فهم بين مقطعات النيران ،  
وسرايل القطران ، وضرب المقامع ، وثقل السلاسل ، فهم يتجلبجون في مضايقها  
ويضططمون في دوكلاتها ، ويضطربون بين غواشيتها . تفل بهم النار كنلي القدور  
ويهشون بالويل والمويل ، ومها دعوا بالبور صب من فوق رؤسهم الحميم ،  
يصهر به مافي بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم ،  
فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتقطع من المطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود

أحداً منهم ، ونمط من الوجنات لحومها ، وتمط من الأطراف شعورها بل جلودها . وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها . قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطه بالروق وعلائق المصّب ، وهي تنشّ في لفح تلك النيران وم مع ذلك يتنون الموت فلا يموتون .

فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواد من الخيم ، وأعميت أبصارهم ، وأبكت ألسنتهم ، ونصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيمهم وأقداسهم ، وهم يعيشون على النار بوجوههم ، ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم . فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهابوة وعقاربها منبثقة بطواهر أعضائهم .

هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أحوالهم ، وتذكر أيضاً في أودية جهنم وشماها ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «  
« إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شَيْبٍ فِي كُلِّ شَيْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثُمْبَانٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ لَا يَنْتَهِي الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ حَتَّى يُوَاقِعَ ذَلِكَ كُلَّهُ »

وقال «<sup>٢</sup> عليّ كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَعَوَّذُوا بِاللّهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ أَوْ وَادِي الْحُزْنِ » قيل يا رسول الله وما وادي أو جب الحزن؟ قال « وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعدّه الله تعالى للقرّاء المرأين »

#### ﴿ القول في صفة جهنم ﴾

( ١ ) حديث أن في جهنم سبعين ألف وادٍ في كل واحد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثمان وسبعون ألف عقرّب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله : لم أجده هكذا يجمعت وسألت

بعده ماورد في ذكر الحيات والعقارب

( ٢ ) حديث عليّ تَعَوَّذُوا بِاللّهِ مِنْ جِبِّ الْحُزْنِ أَوْ وَادِي الْحُزْنِ - الحديث : رواه ابن عدى بلفظ وادي

الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وأبو ماجه

من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضمنه ابن عدى وتقدم في ذم الجب والرجاء



فهذه سعة جهنم وانتصاب أوديتها ، وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشبهاتها .  
وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ،  
الأعلى جهنم ، ثم سقر ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السمير ، ثم الحجيم ، ثم الهاوية . فانظر  
الآن في عمق الهاوية ، فإنه لأحد لعمقها ، كما لأحد لعمق شهبوات الدنيا . فكما  
لا ينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه ، فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا  
إلى هاوية أعمق منها . قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم  
نسمننا وجبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ » قلنا : الله  
ورسوله أعلم . قال « هَذَا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ بَيِّعِينَ عَامًا . الْآنَ  
اِشْتَبَى إِلَى قَرَارِهَا »

ثم انظر إلى تفاوت الدرجات ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً .  
فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت ، فمن منهمك مستكثر كالفرق فيها  
ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناول النار لهم متفاوت ، فإن الله  
لا يظلم مثقال ذرة ، فلا تترادف أنواع المذاب على كل من في النار كيفما كان  
بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه . إلا أن أقلمهم عذاباً لو عرضت  
عليه الدنيا بمخاضها لافترس بها من شدة ما هو فيه : قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنْ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِنَتَلَيْنِ مِنْ  
نَارٍ يَنْفِي دِمَاعُهُ مِنْ حَرَارَةٍ تَعْلِيهِ »

فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه : ومما تشككت  
في شدة عذاب النار ، تقرب أصيبتك من النار ، وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت

(١) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمننا وجبة - الحديث : وفيه هذا حجر

أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ - الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث أن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة من ينتعل بنتين من نار - الحديث : متفق عليه  
من حديث النعمان بن بشير

في القياس ، فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار ، عرف عذاب جهنم بها . وهيات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار غاصوها طائعين هربا مما هم فيه ، وعن هذا عبر في الأخبار حيث قيل <sup>(١)</sup> « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطافها أهل الدنيا . بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال <sup>(٢)</sup> » أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوقَدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْتَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَبَيَّ سَوْدَاهُ مُظْلِمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَا رَبِّ أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا فِي تَقْسِينِ نَفْسٍ فِي الشَّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فِي الشَّتَاءِ مِنْ زَمْزَرِهَا » وقال أنس بن مالك : يوقى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار ، فيقال انعموه في النار غمسة ، ثم يقال له هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول لا . ويوقى بأشد الناس ضرا في الدنيا ، فيقال انعموه في الجنة غمسة . ثم يقال له هل رأيت ضرا قط ؟ فيقول لا

وقال أبو هريرة لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ، ثم تنفس رجل من أهل النار لما تروا

وقد قال بعض العلماء في قوله ( تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ <sup>(١)</sup> ) إنها لفحتهم لفحة واحدة ، فما أبقت لحا على عظم إلا ألقتة عند أعقابهم

ثم انظر بعد هذا في نتن الصيد الذي يسيل من أبدانهم حتى يفرقون فيه ،

(١) حديث أن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطافها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك لما نفع بها أحد ولإبزار من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتفنى عليكم

(٢) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احترت - الحديث : تقدم

(٣) حديث اشكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين - الحديث : متفق عليه

من حديث أبي هريرة

وهو النفاق . قال <sup>(١)</sup> أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 « لَوْ أَنَّ دُلُوكَ مِنْ غَسَاقِ جَهَنَّمَ أَلْتَقَى فِي الدُّنْيَا لَأَتَتْهُنَّ أَهْلُ الْأَرْضِ ، هَذَا  
 شَرَابُهُمْ إِذَا اسْتَقَاتُوا مِنَ الْمَطَرِ فَيَسْقِي أَحَدَهُمْ ( مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا  
 يَسْكَاذُ يُسَيِّفُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » ) ( وَإِنْ  
 يَسْتَنِيثُوا بِمَاءِ عَمَاءٍ كَانَتْ لَهْلِ بَشَرِي الْوُجُوهُ يَنْسُ الشَّرَابُ وَسَائِرُ مَرْفَقَاتِهِ » )  
 ثم انظر إلى طعاسم وهو الزقوم ، كما قال الله تعالى ( ثُمَّ لَأَنُكْمُ أَهْلُهَا  
 الصَّالُونَ الْمَكْذُوبُونَ لَا يَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ فَيُلَاقُونَ فِيهَا الْبُطُونَ فَتَأْرِبُونَ  
 عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَتَأْرِبُونَ شُرْبَ الْحَمِيمِ » ) ( وقال تعالى ( لَهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ  
 فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤَانُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَأَلَوْنَ  
 مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ عَلَىهَا لَسُوءًا مِنْ حِمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى  
 الْجَحِيمِ » ) ( وقال تعالى ( تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ » ) ( وقال  
 تعالى ( إِنَّ لَدُنَا أُنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا » )  
 وقال <sup>(٢)</sup> ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ  
 الزُّقُومِ قَطَرَتْ فِي بَحَارِ الدُّنْيَا أَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَتَابِعَهُمْ فَكَيْفَ  
 مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ ذَلِكَ »

وقال <sup>(٣)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارْغَبُوا فِيمَا رَغِبَ اللَّهُ  
 وَاحْذَرُوا وَخَافُوا مَا خَافَ اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ فَإِنَّهُ لَوْ

(١) حديث أبي سعيد الخدري وأن دلوا من غساق ألقى في الدنيا لأن أهل الأرض : الترمذي وقال  
 إنما نعرفه من حديث وشد بن سعد وفيه ضعف

(٢) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معانيهم  
 الحديث : الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٣) حديث أنس ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا ما خافكم فيه من عذاب الله وعقابه من جهنم  
 الحديث : لم أجده استنادا

(١) إرمي : ١٦ ، ١٧ ، (٢) الكهف : ٢٩ ، الواقعة : ٥١ - ٥٥ (٣) الصافات : ٦٤ - ٦٨ (٤) النازية : ٥٤

(٦) للزوم : ١٣ ، ١٣

كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ تَسْكُمُ فِي دُنْيَاكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا حَيَاتُكُمْ لَكُمْ وَلَوْ  
كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ النَّارِ تَسْكُمُ فِي دُنْيَاكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا حَيَاتُكُمْ عَلَيْكُمْ .  
وقال (١) أبو الدرداء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُلْقَى عَلَى أَهْلِ  
النَّارِ الْجُلُودُ حَتَّى يَبْدَلَ مَا مِمَّ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيَسْتَيْشُونَ بِالطَّعَامِ فَيَمَاتُونَ  
يَطْعَامُ مِنْ صَرِيحِ لَا يَسِينُ وَلَا يُشْنَى مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَيْشُونَ بِالطَّعَامِ فَيَمَاتُونَ  
يَطْعَامُ ذِي فُصَّةٍ قَبْذُ كُرُونَ أَنْتُمْ كَمَا كَانُوا يُجْرُونَ النَّصْنَ فِي الدُّنْيَا  
يَشْرَابُ فَيَسْتَيْشُونَ بِشَرَابٍ قَبْزُ لَيْمٍ الْخَبِيمِ بِكَلَالِيْبِ الْحَدِيدِ فَلَمَّا  
دَنَتْ مِنْ وَجْهِهِمْ شَوَتْ وَجْهِهِمْ فَلَمَّا دَخَلَ الشَّرَابُ بَطُونَهُمْ قَطَعَ مَا فِي  
بَطُونِهِمْ فَيَقُولُونَ أَذْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ قَالَ فَيَدْعُونَ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ أَنْ أَذْعُوا  
رَبِّكُمْ يُخَفِّفُ هُنَا بَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ فَيَقُولُونَ أَوْ لَمْ تَكْ تَأْيِسْكُمْ وَرُسُلَكُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا تَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ قَالَ  
فَيَقُولُونَ أَذْعُوا مَا لَكُمْ فَيَدْعُونَ فَيَقُولُونَ يَا مَالِكُ لِيَقْبِضْ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ  
فَيُجِيبُهُمْ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ ، قَالَ الْأَعْمَشُ أَنْبَتُ أَنْ يَنْ دَعَاهُمْ وَيَنْ إِبَاجَةَ مَالِكِ  
يَا هُمْ أَلْفَ عَامٍ . قَالَ : فَيَقُولُونَ أَذْعُوا رَبِّكُمْ فَلَا أَحَدَ خَيْرَ مِنْ رَبِّكُمْ  
فَيَقُولُونَ رَبَّنَا عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ  
عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ فَيُجِيبُهُمْ اخْمُؤَا فِيهَا وَلَا تَكَلُّوْنَ قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ  
يُخْسِئُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا فِي الزَّفِيرِ وَالْحُسْرِ وَالْوَيْلِ .  
وقال (٢) أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ( وَيُسْقَى )

(١) حديث أبي الدرداء ، يلقي على أهل النار الجلود حتى يبدل ما مِمَّ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيَسْتَيْشُونَ بِالطَّعَامِ  
الحديث : الترمذی من رواية سمرة بن عتيبة عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء  
قال إمامي والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عتيبة  
عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله

(٢) حديث أبي أمامة في قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يشجره ولا يكاد يسيغه قال بقرباليه - الحديث :  
الترمذی وقال غريب

مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ<sup>(١)</sup> ) قَالَ « يُقْرَبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّمُهُ فَإِذَا أَذْبَنِي مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ فَوَقَمَتْ فَرْوَةٌ رَأْسَهُ فَإِذَا ثَرِبَتْ قَطَعَ أَسْنَاهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ( وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَسْفَارَهُمْ<sup>(٢)</sup> ) وَقَالَ تَعَالَى ( وَإِنْ يَسْتَفِشُوا يُفَاكُوا بِمَاءٍ كَاتِلِمْ يَشْوَى الْوُجُوهُ<sup>(٣)</sup> )

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم . فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها ، وإلى شدة سمومها ، وعظم أسنائها ، وفضاضة منظرها ، وقد سلطت على أهلها وأغربت بهم ، فهي لا تقتر من النش والدغ ساعة واحدة . قال<sup>(١)</sup> أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَفْرَعُ لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوِّكُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلُحَاظَيْهِ »<sup>(٢)</sup> يعني أشداه « فَيَقُولُ أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَذَلِكَ » ثم تلا قوله تعالى ( وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَخُونَ بِنِآئِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ قَعْلِهِ<sup>(٣)</sup> ) الآية

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «<sup>(١)</sup> إِنْ فِي النَّارِ لَحَبَاتٍ مِثْلُ أُفْتَاكِ الْبَحْتِ يَلْسَعُنُ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ مَخَوْنَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا وَإِنْ فِيهَا لَمَقَارِبَ كَالْبَيْتِ الْكُفَى يَلْسَعُنُ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ مَخَوْنَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا »

وهذه الحيات والمقرب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل ، وسوء الخلق ، وإيذاء الناس . ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثله ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار ، فإن الله تعالى يريد قه أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحمون بلفح النار ، ولدغ المقارب والحيات ، من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي . قال<sup>(٢)</sup> أبو هريرة

( ١ ) حديث أبي هريرة من آتاه مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع - الحديث :

البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه

( ٢ ) حديث أن في النار لحيات مثل أفتاق البخت يلسعن اللسعة - الحديث : أحمد من رواية ابن أبيه

عن دواع عن عبد الله بن الحارث بن جزة

( ٣ ) حديث أبي هريرة ضربن الكافر في النار مثل أحد - الحديث رواه مسلم

(١) إبراهيم : ١٦ ، ١٧ ، محمد : ١٥ ، الكهف : ٩٩ ، آل عمران : ٨٧٠

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « يُرْسَلُ السَّكَافِرُ فِي النَّارِ بِمِثْلِ أَخِي وَغُلَظُ  
يَجْلِدُهُ مِيزَرُهُ ثَلَاثَ » وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «<sup>(١)</sup> شَفَتُهُ  
الْغُلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَأَلْعَلْنَا قَالَصَةُ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهُ » وَقَالَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ «<sup>(٢)</sup> إِنْ الْكَافِرُ كَتَبَ لِسَانَهُ فِي سِجِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتَوَاطُؤِهِ النَّاسُ »  
وَمَعَ عَظَمِ الْأَجْسَامِ كَذَلِكَ تَحْرِقُهُمُ النَّارُ مَرَاتٍ ، فَتَجِدُ جُلُودَهُمْ وَلَحُومَهُمْ . قَالَ  
الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَمَالَى ( كُلَّمَا نَصِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا <sup>(٣)</sup> ) قَالَ  
تَأْكُلُهُمُ النَّارُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةً ، كُلُّ أَلْفٍ مِنْهُمْ قِيلَ لَهُمْ عُدُّوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا كَانُوا  
ثُمَّ تَفَكَّرَ الْآنَ فِي بَكَاءِ أَهْلِ النَّارِ وَشَهيقِهِمْ ، وَدَعَائِهِمْ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ ، فَإِنْ  
ذَلِكَ يَسْلُطُ عَلَيْهِمْ فِي أَوَّلِ الْقَائِمَةِ فِي النَّارِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
«<sup>(٤)</sup> يُؤْتَى بِمِجَنَّمٍ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ  
مَلَكٍ » وَقَالَ <sup>(٥)</sup> أَنَسُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ  
النَّارِ الْبُكَاءُ فَيَكُونُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ثُمَّ يَكُونُ الدَّمُ حَتَّى يَبْرَى فِي  
وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأَخْذُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا الشُّمُونُ لَجَرَّتْ »

وَمَا ذَامَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي الْبَكَاءِ وَالشَّيْقِ ، وَالزَّفِيرِ ، وَالِدَعْوَةِ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ ،  
فَلَهُمْ فِيهِ مَسْتَرُوحٌ . وَلَكِنَّهُمْ يَمْنَعُونَ أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَسْبٍ :  
لَأَهْلِ النَّارِ خَمْسَ دَعَوَاتٍ ، يُمْنِيهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَرْبَعَةٍ ، فَلِذَا كَانَتْ الْخَامِسَةُ  
لَمْ يَتَكَلَّمُوا بَعْدَهَا أَبَدًا : يَقُولُونَ ( رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَتْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا  
بذُنُوبِنَا قَهْلًا إِلَى خُرُوجِهِ مِنْ سَبِيلٍ <sup>(٦)</sup> ) فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مِجَالَهُمْ ( ذَلِكُمْ

( ١ ) حَدِيثُ شَفَتِ الْغُلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالْعَلَى قَالَصَةُ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهُ : التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ  
وَقَالَ حَسَنٌ مُجِيبٌ خَرِيبٌ

( ٢ ) حَدِيثُ أَنَّ الْكَافِرَ يُرْسَلُ لِسَانَهُ فِي سِجِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتَوَاطُؤِهِ النَّاسُ : التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْخَارِقِ  
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ غَرِيبٌ وَأَبُو الْخَارِقِ لَا يُعْرِفُ

( ٣ ) حَدِيثُ يُؤْتَى بِمِجَنَّمٍ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ - الْحَدِيثُ : مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمُودٍ

( ٤ ) حَدِيثُ أَنَسُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْبُكَاءُ فَيَكُونُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ - الْحَدِيثُ : أَبِي نَاجِيَةٍ مِنْ رِوَايَةِ  
يَزِيدَ الرِّقَاشِيِّ عَنْ أَنَسٍ وَالرِّقَاشِيُّ ضَعِيفٌ

يَا نَهْ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْآخِرِ  
 أَنْكَبِيرُ (١) ثم يقولون ( رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا <sup>(٢)</sup> )  
 فَيَجِيبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ( أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْنَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ <sup>(٣)</sup> )  
 فيقولون ( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ <sup>(٤)</sup> ) فَيَجِيبُهُمُ اللَّهُ  
 تَعَالَى ( أَوْ لَمْ نُنْعِزْكُمْ مَا بُدِّعُوا فِيهِ مِنْ ذِكْرٍ وَجَاءَ كُفْرًا لِلزَّيْغِ فَذُوقُوا  
 قَارِ لَظَائِمَ الْيُسُوفِ <sup>(٥)</sup> ) ثم يقولون ( رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا  
 ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَلَنْ نَعُدَّهَا قَلْبًا غَيْرَ الْيُسُوفِ <sup>(٦)</sup> ) فَيَجِيبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى  
 ( اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ <sup>(٧)</sup> ) فلا يتكلمون بعدها أبداً ، وذلك غاية شدة العذاب  
 قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى ( سَوَاءٌ  
 عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ نَحِيصٍ <sup>(٨)</sup> ) قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا  
 مائة سنة ، ثم صبروا مائة سنة ، ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا  
 وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٩)</sup> « يُؤْتَى بِالْمُوتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ  
 أَسْلَحَ فَيَذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ يَا أَهْلَ  
 النَّارِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ »

وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليتي كنت ذلك الرجل  
 وروى الحسن رضي الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي ، فقيل له لم تبكي ؟  
 فقال أخشى أن يطرحني في النار ولا يالي

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة . وتقصيل غمومها ، وأحزانها ، وغمها  
 وحسرتها ، لانهاية له . فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة  
 فوت نعيم الجنة ، وفوت لقاء الله تعالى ، وفوت رضاه مع عليهم بأنهم باعوا

( ١ ) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أسلح فيذبح : البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث  
 أبي سعيد وقد تقدم

( ١١ ) غافر : ١٢ ( ١٢ ) المجدة : ١٢ ( ١٣ ) ابراهيم : ٤٤ ( ١٤ ) طه : ٣٧

( ١٥ ) الزمر : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ( ١٦ ) ابراهيم : ٢١

كل ذلك بشئ بخسٍ دراهم ممدودة ، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا  
أياماً قصيرة ، وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منفضة ، فيقولون في أنفسهم  
واحسرتنا ! كيف أهلكنا أنفسنا بمصيان ربنا ، وكيف لم نكف أنفسنا الصبر  
أياماً قلائل ، ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه ، وبقينا الآن في جوار رب  
المالين ، متممين بالرضا والرضوان ! فيها حسرة هؤلاء ، وبقد فاتهم ما فاتهم ،  
وبلوا بما بلوا به ، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها -

ثم إنهم لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم ، لكنها تعرض عليهم ،  
فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( " يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاسٍ مِنَ النَّارِ  
إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَهَا وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّ  
اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا نُودُوا أَنْ اسْرِفُوهُمْ عَنْهَا لَا نَمِيبَ لَهُمْ فِيهَا قَبَرٌ جَمُوعٌ  
بِحَسْرَةٍ مَارِجَةٍ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ يَعْثُلُهَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ  
قَبْلَ أَنْ نُرَبَّنَا مَا أَرَيْنَا مِنْ تَوَالِكَ وَمَا أُعِدَّتْ فِيهَا لِأَوْلِيَانِكَ كَانَ أَهْوَنَ  
عَلَيْنَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارِزٌ تُعْمَوْنِ بِالْغَطَائِمِ  
وَإِذَا لَقِيتُمْ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخَيَّبِينَ تَرَاوَدَّ النَّاسُ بِخِلَافٍ مَا تُنْطَوْنِ مِنْ  
تَلَوْبِكُمْ هِنُومُ النَّاسِ وَلَمْ تَهَابُونِ وَأَجَلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجَلُونِ وَتَرَكْتُمُ النَّاسَ  
وَلَمْ تَقُولُوا لِي قَالِيَوْمَ أَذِيقُكُمْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ مَعَ مَا خَرَسْتُمْ مِنْ  
الْثُّيُوبِ الْغَلِيمِ .

قال أحمد بن حرب : إن أحداً يؤثر الظل على الشمس ، ثم لا يؤثر  
الجنة على النار !

وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح  
هدأ بين أطباق النار يصبح  
وقال داود : إلهي لاصبر لي على حر شمسك ، فكيف صبرني على حر نارك !

( ١ ) حديث يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها - الحديث :  
رواه في الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هدية هالك



ولا صبر لي على موت رحمتك ، فكيف على موت هذا بك !  
 فانظر يأسك في هذه الأحوال ، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها  
 وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون ، وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه .  
 قال الله تعالى ( وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَى إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي قَفْلَةٍ وَهُمْ  
 لَا يُؤْمِنُونَ <sup>(١)</sup> ) ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة ؛ بل في أنزل الأزل ،  
 ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء  
 فالحجب منك حيث تفضحك وتلهو ، وتشغل بحفريات الدنيا ، ولست  
 تدري أن القضاء بماذا سبق في حقلك

فإن قلت : فليت شعري ماذا موردي ؟ وإلى ماذا مآلي ومرجعي ؟ وما الذي  
 سبق به القضاء في حق ؟ فلك علامة تستأنس بها ، وتصدق رجاءك بسببها .  
 وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلامي لما خلق له . فإن كان  
 قد بسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعث عن النار . وإن كنت لا تقصد شيئا  
 إلا وتحيط بك المواقف فتدفعه ، ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك  
 مقضي عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة الطر على النبات ، ودلالة النيران  
 على النار ، فقد قال الله تعالى ( إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ <sup>(٢)</sup> )  
 فأعرض نفسك على الآيتين ، وقد عرفت مستقرك من الدارين ، والله أعلم

## القول

في صلة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك النار التي عرفت همومها ونعمومها ، تقابلها دار أخرى ، فتأمل  
 نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من أحدهما استقر لراحة في الأخرى . فاستقر  
 الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم ، واستقر الرجاء بطول الفكر

(١) صريح : ٩٠ (٢) الاخطار : ١٣ : ١٤

في النسيم المتيم للموعد لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف ، وقدها  
 بزمام الرجا إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تال الملك العظيم : وتسلم من المذاب الأليم  
 فتذكر في أهل الجنة ، وفي وجوههم نضرة النسيم ، يُسْقَوْنَ من رحيق  
 عنتوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر ، في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض  
 فيها بسط من المبقرى الأخضر ، متكئين على أرائك ، منصوبة على أطراف أنهار  
 مطردة بالخر والسمل ، مخوفة بالفلان والولدان ، مزينة بالخور العين من الخيرات  
 الجمان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان ، يمشين في  
 درجات الجنان ، إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سيمون ألفا من  
 الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتعير فيه الأبصار ، مكملات بالتيجان  
 للرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكولات ، غنجات ، عطرات ، آمنتات من الهرم  
 والبؤس ، مقصورات في الخيام ، في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات  
 الجنان ، فأصارت الطرف عين ، ثم بطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس  
 من مئين ، يضاء لذة للشاربين . ويطوف عليهم نخدام وولدان كأمثال اللؤلؤ  
 للكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، في مقام أمين ، في جنات وعيون ، في جنات  
 ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم ،  
 وقد أشرقت في وجوههم نضرة النسيم ، لا يرهقهم قمر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون  
 وبأنواع التحف من ربهم يتباهدون ، فهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون  
 فيها ولا يحزنون ، وهم من رب النون آمنون ، فهم فيها يتمتعون ، ويأكلون من  
 أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا ، في أنهار أراضيا من فضة ،  
 وحصباءها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ، ونباتها زعفران ، ويمطرون  
 من معاب فيها من ماء النسرين ، على كشبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأي  
 أكواب ، بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فيه من  
 الرحيق المختوم ، مزوج به السليل المذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره  
 يدو الشراب من ورائه برقه وجمته ، لم يصنعه آدمي فيقصر في نسوة صنمته ،

ونحسب صناعته ، في كعب حادم يخسب صباه وجهه الشمس في إشرافها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته ، وحسن أصداغه ، وملاحة أصدائه فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ، ولا تخل الفجائع بمن نزل بغنائها ، ولا تنظر الأحداث بعين التنبير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ، ويتنهأ بيمش دونها ! والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت ، والجوع ، والمطر ، وسائر أصناف الحداثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنقص من ضرورته . كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفي أنواع السرور ممتعون ، لهم فيها كل ما يشتهون ، وهم في كل يوم بغناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، ويتألون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنات ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون ؛ وهم من زوالها آمنون . قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُنَادِي مُنَادٍ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْبُوا فَلَا تَقْوُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ( وَتُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ )"

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرا القرمان ، فليس وراءه الله تعالى بيان . واقرا من قوله تعالى ( وَلَئِنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ) إلى آخر سورة الرحمن . واقرا سورة الواقعة ، وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها ، بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولا :

#### ( القول في صفة الجنة )

( ١ ) حديث أبي هريرة ينادي منادان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد

(١) الأعراف : ٤٣ (٢) الرحمن : ٤٦

عدد الجنان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ( وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ) قال (١) « جَنَّاتٌ مِنْ فَتْحَةِ آيَاتِهِمَا وَمَا فِيهَا وَجَنَّاتٌ مِنْ ذَهَبٍ آيَاتِهِمَا وَمَا فِيهَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبَرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ »

ثم انظر إلى أبواب الجنة فلها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَتَقَى زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا وَالْجَنَّةُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ » فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ما لي أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعي أحد منها كلها ؟ قال « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ »

وعن عاصم بن ضمرة ، عن علي كرم الله وجهه ، أنه ذكر النار فمطمع أمرها ذكرها لأحفظه ، ثم قال ( وَيَسِيقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها ، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينا تسمى جريدان ، فعدوا إلى إحداها كما أمروا به ، فشربوها منها ، فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ، ثم عدوا إلى الأخرى ، فتطهروا منها ، فخرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ، ولا تشمت رؤسهم ، كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة ، فقال لهم خزنتها : سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين . ثم تلقاهم الولدان ، يعطفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشر بأعد الله لك من الكرامة كذا . قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض

( ١ ) حديث جنتان من فتحة آياتهما وما فيها وجنتان من ذهب آياتهما وما فيها - الحديث : متفق عليه من حديث أبي موسى

( ٢ ) حديث أبي هريرة من أنفق زوجين من الله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة - الحديث : متفق عليه

أزواجه من الحور العين ، فيقول قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا  
فقول أنت رأيت ، فيقول أنا رأيته وهو بأمرى . ويستغفها للفرج حتى تقوم  
إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه ، فإذا جنبل اللؤلؤ  
فوقه صرح أحر ، وأخضر ، وأصفر ، من كل لون . ثم يرفع رأسه فينظر إلى  
سقفه ، فإذا مثل البرق . ولولا أن الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره . ثم  
يطأ طأ رأسه ، فإذا أزواجه ، وأكواب موضوعة ، وغارق مصنوفة ، وزداني  
مبثوث . ثم اتكأ فقال : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا  
الله ، ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا ، وتقيمون فلا تظنون أبدا .  
وتصحون فلا تمرضون أبدا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « آتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَابَ الْجَنَّةِ فَاسْتَفْتَحَ  
فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ يَقُولُ بِكَ أُبْرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ  
قَبْلَكَ » . ثم تأمل الآن في غرف الجنة ، واختلاف درجات الملوك فيها ، فإن  
الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة ،  
والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتات ظاهرا ، فكذلك فيها يجازون به تفاوت ظاهري .  
فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى ، فقد  
أمرك الله بالسابقة والمتنافسة فيها ، فقال تعالى ( سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ  
رَبِّكُمْ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَفِي ذَلِكَ قِيلَتْ نَفْسُ الْمُسْتَفْسُونَ <sup>(٣)</sup> ) .

والمعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم ، أو ببلع بناء ،  
ثقل عليك ذلك ، وصانق به صدرك ، وتنقص بسبب الحسد عيشك . وأحسن  
أحوالك أن تستقر في الجنة ، وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك ، بطائف  
لا توازيها الدنيا بمذاخيرها . فقد قال <sup>(٤)</sup> أبو سعيد الخدري : قال رسول الله

(١) حديث آدم يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد - الحديث - مسلم

من حديث أنس

(٢) حديث أبي سعيد أن أهل الجنة ليراهن أهل النرف فوهم كاتراون الكواكب - الحديث :

(٣) الحديث : (٤) الطهفين : ٣٩

صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ النَّارِ فَوْضَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ  
الْمَكْرُوبُ أَتْلَازِي فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِتَسْأَلَ مَا بَيْنَهُمْ ، قَالُوا  
يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَلِيْنَهَا غَيْرُهُمْ . قَالَ « بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ  
رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ »

وقال أيضا « (١) « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ اتَّلَى لِبَرَاهِمُ مَنْ نَحْتُمُ كَمَا تَرَوْنَ  
النَّجْمَ الطَّالِحَ فِي أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِ السَّمَاءِ وَإِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنْبِيَاءُ ،  
وقال « (٢) جابر : قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَلَا أُحَدِّثُكُمْ  
بِمَرْفَعِ الْجَنَّةِ » قَالَ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَأَيِّنَا أَنْتَ وَأَمْسَا .

قَالَ « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ عُرُفًا مِنْ أَصْنَافِ الْجَنَّةِ كُلِّهِ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا  
وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَفِيهَا مِنَ النَّجِيمِ وَاللَّذَاتِ وَالشُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا  
أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلِمَنْ هَذِهِ  
النُّفُوسُ ؟ قَالَ « لِمَنْ أَفْضَى السَّلَامُ وَأَطْمَنَ الطَّعَامُ وَأَدَامَ الصِّيَامُ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ  
وَالنَّاسُ رِيَاءً » قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَطْلِقُ ذَلِكَ ؟ قَالَ « أُنْبِيءُ يُطِيقُ  
ذَلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَنْ لَبَّى أَعَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْضَى  
السَّلَامَ وَمَنْ أَطْمَنَ أَهْلُهُ وَبَيْتُهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْمَنَ الطَّعَامُ وَمَنْ  
صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ وَمَنْ صَلَّى  
أَنْبِيَاءَهُ الْآخِرَةَ وَصَلَّى الْفَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ رِيَاءً » بَعَثَ  
اليهود والنصارى والمجوس

« (٣) وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ ( وَمَا كُنْ طَيِّبَةً فِي جَنَّتِكَ

مُتَّقٍ عَلَيْهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

( ١ ) حَدَّثَنَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لِيَرَاهُمْ مِنْ عَنَانٍ كَأَيَّامِ النَّجْمِ الطَّالِحِ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَابْنُ مَاجَةَ

مَنْ حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ

( ٢ ) حَدَّثَنَا جَابِرُ الْأَحْمَدِيُّ بِمَرْفَعِ الْجَنَّةِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَأَيِّنَا أَنْتَ وَأَمْسَا إِنَّ فِي الْجَنَّةِ عُرُفًا مِنْ أَصْنَافِ

الْبُيُوتِ - الْحَدِيثُ : أَبُو نَيْبٍ مِنْ رِوَايَةِ الْحَسَنِ عَنْ جَابِرٍ

( ٣ ) حَدَّثَنَا سُلَيْمٌ عَنْ قَوْلِهِ كَمَا لَمْ يَكُنْ طَيِّبَةً فِي جَنَّتِكَ عَدَنُ قَالَ قُصُورٌ مِنْ لُزُلٍ - الْحَدِيثُ :

أَبُو الشَّيْخِ ابْنُ جَابِرٍ فِي كِتَابِ السُّلْطَانَةِ وَالْأَجْرَى فِي كِتَابِ التَّحْفَةِ مِنْ رِوَايَةِ الْحَسَنِ

عَدَنُ<sup>(١)</sup> . قال « قُسُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فِي كُلِّ قَصْرِ سَبْعُونَ دَارًا مِنْ يَأْتُونَ  
أَحْمَرَ فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ يَتْنًا مِنْ زُمُرٍ أَخْضَرَ فِي كُلِّ يَتْنٍ سَرِيرٌ عَلَى كُلِّ  
سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحَوَرِ أَلْيَنَ  
فِي كُلِّ يَتْنٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ فِي  
كُلِّ يَتْنٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً وَبُطْطَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ غَدَاقٍ ، بِعْنَى مِنَ الْقُوَّةِ  
« مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعُ »

## صفة

حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل في صورة الجنة ، وتفكر في غبطة سكانها ، وفي حسرة من حرمها لقناعاته بالدنيا  
عوضاً عنها . فقد قال<sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَائِطَ  
الْجَنَّةِ لَبَيْتَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبَيْتَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُهَا مِسْكٌ »  
<sup>(٢)</sup> وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « دَرَمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِثْلُ خَالِصٍ »  
وقال<sup>(٣)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْقِيَهُ  
اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَمْرَ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهَا فِي الدُّنْيَا وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَكِّنُوهُ

ابن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح  
والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة  
على قول الجمهور

( ١ ) حديث أبي هريرة أن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك  
الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمشهور ورواه  
البراء من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح  
( ٢ ) حديث سئل عن تربة الجنة فقال درهمك بياض مسك خالص : مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن عباس  
سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره

( ٣ ) حديث أبي هريرة من سره أن يسقيه الله الحمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه  
الله الحمر فليتركها في الدنيا : الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح  
من لبس الحمر في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الحمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة

الله الطير في الآخرة فليترك في الدنيا. (١) أنهار الجنة تصجر من تحت ليل  
أو تحت جبال الملك (٢) ولو كان أدنى أهل الجنة حيلة عدلت بحيلة أهل  
الدنيا جميعا لكان ما يحلبه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من  
حلية الدنيا جميعا

وقال (٣) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة  
شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها فرقوا إن شئتم  
(وَاللَّيْلُ مَمْدُودٌ) (٤)

وقال (٥) أبو أمامة . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون :  
إن الله عز وجل ينفخ بالأعراب ومساكنهم . أقبل أعرابي فقال . يا رسول الله  
قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة  
تؤذي صاحبها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هي ؟ قال السدر ، فإن لها  
شوكا . فقال وقد قال الله تعالى ( فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ) (٦) يخضد الله شوكه  
فيجعل مكان كل شوكه عمرة ثم تنفتح الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا  
من الطعام ما منها . لونها يشبه الآخر .

وقال جرير بن عبد الله . زلنا الصفاح ، فإذا وجعل قائم تحت شجرة قد  
كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للنلام انطلق بهذا النطع فأظله . فانطلق فأظله  
فما استيقظ فإذا هو سلمان ، فأخبرته أسلم عليه . فقال . يا جرير ، تواضع لله ، فإن

(١) حديث أنهار الجنة تصجر من تحت ليل أو تحت جبال الملك : الغيبي في التنبيه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لو كان أدنى أهل الجنة حيلة عدلت بحيلة أهل الدنيا جميعا لكان ما يحلبه الله به في الآخرة

أفضل من حلية أهل الدنيا جميعا : الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن

(٣) حديث إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها . الحديث : متفق عليه

من حديث أبي هريرة

(٤) حديث أبي أمامة أبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي

قال السدر - الحديث : ابن الجوزي في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سلم بن عامر مهسلا

من غير ذكر لأبي أمامة



من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة . هل تدري ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت لا أدري . قال ظلم الناس بعضهم بعضا . ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صنعه فقال . يا جرير ، لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده . قلت يا أبا عبد الله ، فأين النخل والشجر ؟ قال أصولها اللؤلؤ والذهب ، وأعلامها الثمر

## صفة

لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم وأرائكهم وعيابهم

قال الله تعالى ( يُعَلِّقُونَ فِيهَا مِنْ أَسَادٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ <sup>(١)</sup> ) والآيات في ذلك كثيرة . وإنما تفصيله في الأخبار ، فقد روى <sup>(٢)</sup> أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْتَمِلُ لِأَيَّاسٍ لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْتَنُ شَبَابُهُ فِي الْجَنَّةِ مَالًا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ قَلْبٍ يَنْتَرِ »

<sup>(٣)</sup> وقال رجل . يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة ، أخلق مخلق ؟ أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَمَّ تَنْسَجُونَ مِنْ جَاهِلٍ نَسَّأَ عَالِمًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلْ يَنْسَجُ عَنْهَا نَمْرُ الْجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ » وقال <sup>(٤)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ دُمْرَةٍ تَلْبِغُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً أَتْبَدِرُ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا

( ١ ) حديث أبي هريرة من يدخل الجنة ينعم ولا يأس ولا تلبى ثيابه - الحديث : رواه مسلم دون قوله في الجنة مالا عين رأت الخ فاتفق عليه الشياخان من حديث آخر لأبي هريرة قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت - الحديث :

( ٢ ) حديث قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلقا أم تنسج نسجا - الحديث : النسائي من حديث عبد الله بن عمرو

( ٣ ) حديث أبي هريرة أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر - الحديث متفق عليه

وَلَا يَتَحَلَّوْنَ وَلَا يَتَنَوَّلُونَ آيَاتِهِمْ وَأَسْطَاطَهُمْ مِنَ الْقَضِيَّةِ وَالْفَضِيَّةِ وَرَشْتَهُمْ  
إِلَيْكَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يَرَى مَنُحَ سَاقِيَا مِنْ وَرَاءِ النَّحْمِ مِنْ  
الْطَّنِّ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ  
بِكُرَّةٍ وَعَشِيَّةٍ ، وفي رواية ، « عَلَى كُلِّ زَوْجِيَّةٍ سِتُونَ حُلَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> في قوله تعالى ( يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ  
ذَهَبٍ <sup>(٢)</sup> ) قال « إِنَّ عَلَيْهِمُ التَّيجَانَ إِنْ أَذَى لَوْلُؤَةٌ فِيهَا نَفْسٌ مَا يَنْ  
لُتَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « اثْنَيْتُهُ دُرَّةٌ مَجُوقَةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُونَ  
مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِسُؤْمَيْنِ أَهْلُ لَا يَرَاهُمُ الْآخَرُونَ » رواه البخاري  
في الصحيح . قال ابن عباس . الخيمة درة مجوقة ، فرسخ في فرسخ لها  
أربعة آلاف مصراع من ذهب

وقال <sup>(٤)</sup> أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى  
( وَفُوشٍ مَرْفُوعَةٍ <sup>(٥)</sup> ) قال « مَا يَنْزِلُ الْفَرَّاشِينَ كَمَا يَنْزِلُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ »

## صفة

طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة المذكور في القرآن ، من الفواكه ، والطيور السمان ،  
والنن ، والساوى ، والسل ، واللبن ، وأصناف كثيرة لا تحصى . قال الله تعالى

( ١ ) حديث في قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ابن عليم التيجان أدنى لؤلؤة فيها نفى

ما بين الشرق والغرب : الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا تعرفه

الا من حديث رشد بن سعد

( ٢ ) حديث الخيمة درة مجوقة طولها في السماء ستون ميلا - الحديث : عزاء للسنن البخاري وهو متفق

عليه من حديث أبي موسى الأشعري

( ٣ ) حديث أبي سعيد في قوله تعالى وفوش مرفوعة قال ما بين الفرائش كابين السماء والأرض : الترمذي

بلفظ ارتفاعها لسكابين السماء والأرض خمسمائة سنة وقال حبيب لا تعرفه الا من حديث

ورشد بن سعد

(كَلِمًا زُرُّوْنَا مِنهَا مِن مَّزْمَةٍ زُرُّنَا فَأَكُوا هَذَا الَّذِي زُرُّنَا مِن قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُشْتَبِهًا<sup>(١)</sup>)

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة . وقد قال <sup>(٢)</sup> « نوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه خبر من أحبار اليهود ، فذكر أسئلة إلى أن قال : فن أول إجابة : « بنى على الصراط . فقال « فقرأه المهاجرين » قال اليهودي : « لما تحفتم نحن يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد الخوف » قال فاعذروا على أمرها ؟ قال « يُنْعَرُ لَهُمْ نَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ رِيا سَكُنُ فِي أَطْرَافِهَا » قال فما شرابهم عليه ؟ قال « مِن عَيْنٍ فِيهَا كُسَى سَلْسِيلًا » قال صدقت

وقال <sup>(٣)</sup> زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ياأبا القاسم ، ألسن تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه . إن أقرأى بها خصته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَطْطَى فَوْقَ يَأْتِيَةِ رَجُلٌ فِي الْمَطْعَمِ وَالشَّرْبِ وَالْحِمَاجِ » فقال اليهودي : فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ الْإِنْسَانِ فَإِذَا أَتَبَطْنُ قَدْ صَمَرَ »

وقال <sup>(٤)</sup> ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ تَنْتَظِرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْرُوبًا »

(١) حديث نوبان جاء خبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فن أول الناس إجابة بنى على الصراط فقال قرا المهاجرين قال اليهودي لما تحفتم نحن يدخلون الجنة فقال زيادة كبد الخوف الحديث : رواه مسلم زيادة في أوله وآخره .

(٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال ياأبا القاسم ألسن تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون - الحديث : وفيه حاجتهم هرق يفيض من جلودهم مثل للسك النساء

في الكبرى بإسناد صحيح

(٣) حديث ابن مسعود أنك تنتظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشروباً البزار بإسناد ضعيف

وقال<sup>(١)</sup> حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْرًا أَمْثَالَ الْبَحَّانِي » قال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة يارسول الله . قال : « أَنْتُمْ مِنْهَا مَنْ بَأْ كُلِّهَا وَأَنْتُمْ مِنْ بَأْ كُلِّهَا يَا أَبَا بَكْرٍ »

وقال عبد الله بن عمرو في قوله تعالى ( يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ<sup>(٢)</sup> ) قال : يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب ، كل صحيفة فيها لون ليس في الأخرى مثله . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ( وَبِزَجَاجَةٍ مِنْ تَنْبِيمٍ<sup>(٣)</sup> ) قال : يزوج لأصحاب الجن ، ويشربه المقربون صرفا .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ، في قوله تعالى ( خِتَانُهُ مِسْكٌ<sup>(٤)</sup> ) قال : هو شراب أبيض مثل الفضة ، يمتصون به آخر شراهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذر روح إلا وجد ريح عليها .

## صفة

الخور العين والولدان

قد تكرر في الترمذاني وصفهم ، ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال<sup>(٥)</sup> : « غَدَوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابٌ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ أَوْ مَوْضِعٌ قَدِيرٌ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ أَمْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ النَّبَةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَمَاتَتْ وَلَلَّاتِ مَا بَيْنَهُمَا رَائِعَةً وَلَتَصِفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا » يعني الحمار

(١) حديث حذيفة أن في الجنة طيرا أمثال البحاني - الحديث : عريب من حديث حذيفة ولأحمد

من حديث أنس بإسناد صحيح أن طير الجنة كأمثال البخت ترمي في شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير لناعمة قال أكلتها أنهم منها عالمنا بلانا وإن أرجو أن تكون من يأكل منها وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه هر الكور وقال فيه طير أعناقها كلسناق الجزر

قال عريان هذه لناعمة - الحديث وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن

(٢) حديث غمرة في سبيل أروحة خير من الدنيا وما فيها - الحديث : البخاري من حديث أنس

(٣) الخرفه : ١٧ (٤) التطقيف : ٢٧ (٥) التطقيف : ٢٦

وقال <sup>(١)</sup> أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ( كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالزُّجَّاجُ ) <sup>(٢)</sup> قال « يَنْظُرُ إِلَى وَجْهَهَا فِي خَدِّهَا أَصْبَى مِنَ الْيَرَّةِ وَإِنْ أَذَى لَوْلُؤُهُ عَلَيْهَا لَنُصِي مَا بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ نَوْبًا يَنْقُذُهَا بِعَرِّهِ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ » وقال <sup>(٣)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أُسْرِى بِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَوْصِيًا يُسَى الْيَدُخْ عَلَيْهِ خِيَامُ الْوَلُؤِ وَالزُّجَّاجِ الْأَخْضَرِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ فَقُلْنَا السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقُلْتُ يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا النَّدَاءُ قَالَ هَؤُلَاءِ الْمَقْصُورَاتُ فِي الْخِيَامِ اسْتَأْذَنَ رَبِّي فِي السَّلَامِ عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَكُنَّ فَهَلَفْنَ يَقُلْنَ نَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا وَنَحْنُ الْقَالِدَاتُ فَلَا نَقْطَعُنَّ أَبَدًا » وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ( سُوْرٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ) <sup>(٤)</sup>

وقال مجاهد في قوله تعالى ( وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ) <sup>(٥)</sup> قال : من الحبس ، والفانط ، والبول ، والبصاق ، والنخامة ، واللى ، والولد

( ١ ) حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالزُّجَّاجُ قال تنظر إلى وجهها في خدِّها أصبى من اليرَّة - الحديث : أبو يسى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لمية ورواه ابن المبارك في الزهد والرفائق من رواية أبي الهيثم عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل دون ذكر أبي سعيد والترمذي من حديث ابن مسعود ابن المرأة من لسان أهل الجنة يرى يابض مخ ساقها من وراء سبعين حلة - الحديث : ورواه عنه موقوفها قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان انتان يرى مخ سوقها من وراء اللحم

( ٢ ) حديث أنس لما أُسْرِى بِي دَخَلْتُ فِي الْجَنَّةِ مَوْصِيًا يُسَى الْمَرْحِ عَلَيْهِ خِيَامُ الْوَلُؤِ وَالزُّجَّاجِ الْأَخْضَرِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ - الحديث : وفيه ابن جرير قال هَؤُلَاءِ لِلْمَقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ وفيه فطفتن يفلن عن الرَّاغِبَاتِ فَلَا نَسْخَطُ : أي أحده هكذا بضمه والترمذي من حديث علي بن أبي حمزة في الجنة لجمتها للحوار المعين يرفقن أصواتنا لم نسمع الحلائق منها يفلن عن الحائضات فلا يبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الرَّاغِبَاتِ فَلَا نَسْخَطُ ملوحي لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب النظم من حديث ابن أبي أوفى بسد ضيف يجمعن في كل سبع أيام يفلن بأصوات - الحديث :

وقال الأوزاعي ( في شُكْلِ قَاكُوهٖ )<sup>(١)</sup> قال : شغلهم اقتضاض الأبناز  
 وقال وجل : يارسول الله ، أياض أهل الجنة ؟ قال « يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ  
 مِنْ الْقُوَّةِ فِي الْيَوْمِ الرَّاحِدِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ »  
 وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى معه ألف خادم

كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه  
 وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ  
 تَحْتَهَايَةَ حُورَاءٍ وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ بَكْرٍ وَتَمَانِيَةَ آلَافٍ نَيْبٍ يُعَارِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ  
 مِنْهُنَّ بِقَدَارِ عُمْرِهِ فِي الدُّنْيَا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ سَوْقًا مَا فِيهَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ  
 إِلَّا الصَّوْرُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَإِذَا اشْتَبَى الرَّجُلُ صُورَةَ دَخَلَ فِيهَا وَإِنْ فِيهَا  
 لَمْ يَجْمَعْ الْخَوَرُ الْبَيْنَ بَرَقْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعْ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا يَقْلُنَ نَحْنُ  
 الْخَلَائِقَاتُ فَلَا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا تَبَاسُ وَنَحْنُ الرَّاحِضَاتُ فَلَا نَسْحَطُ  
 قَطُّوْنِي لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ »

وقال<sup>(٤)</sup> أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ  
 الْخَوَرُ فِي الْجَنَّةِ يَتَنَبَّهْنَ نَحْنُ الْخَوَرُ الْحَسَنُ خَبْنًا لِأَزْوَاجِ كِرَامِ »

(١) حديث قال وجل يارسول الله أياض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد  
 أفضل من سبعين منك : الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة

كذا وكذا من الجلع قيل أويطيق ذلك قال يعطى قوة مائة  
 (٢) حديث أن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خبيثة حوراء وأربعة آلاف بكر وتمانية آلاف نيب يمانق  
 كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا : أبو الشيخ في طبقات الهدى وفي كتاب العظمة من حديث

ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناق لهن واستاده ضعيف وهدم قبله بحديث  
 (٣) حديث أن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء - الحديث : الترمذي فرقه  
 في موضعين من حديث على وقد تقدم بضه قبله هذا بحديثين

(٤) حديث أنس أن الخور في الجنة يتنبهن نحن الخور الحسن خبنا لأزواج كرام : الطبراني  
 في الأوسط وفيه الحسن بن داود للتكدي قال البخاري يشككون فيه وقال ابن عدي  
 أوجوه لا بأس به

وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى ( فِي رَوْحَةٍ يُخْبَرُونَ <sup>(١)</sup> ) قال  
 السماع في الجنة  
 وقال <sup>(٢)</sup> أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا مِنْ غَنِيٍّ  
 يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَبِجِلْسٍ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الْخَوَرِ أَلَيْنِ  
 يُفَنِّيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَلَيْسَ بِزِمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ  
 بِتَحْنِيدِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ »

## بيان

جمل مغرفة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى <sup>(٣)</sup> أسامة بن زيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه  
 « أَلَا هَلْ مُشَمَّرٌ لِلْجَنَّةِ إِنْ الْجَنَّةُ لَأَخْطَرُ لَهَا مِنْ رَبِّ الْكَيْفَةِ نُورٌ تَلَا لَأُ  
 وَرِيحَانَةٌ تَهْتَرُ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَهَرٌّ مُطَرَّدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ فَنَجِيحَةٌ وَزَوْجَةٌ  
 حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي حَبْرَةٍ وَنَمَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا وَنَضْرَةٌ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ بَيْتَةٌ سَلِيمَةٌ  
 قَالُوا : نَحْنُ الْمَشْمُرُونَ لَهَا بِرَسُولِ اللَّهِ . قَالَ « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » ثُمَّ  
 ذَكَرَ الْجِهَادَ وَحُضَّ عَلَيْهِ

<sup>(٤)</sup> وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل في الجنة  
 خيل فإنها تعجبني ؟ قال « إِنْ أَحْبَبْتَ ذَلِكَ أُتَيْتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ سَمَرَاءٍ

( ١ ) حديث أبي أمامة ماس جدد يدخل الجنة الا يجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الخمر الين  
 ينشانه بأحسن صوت سمع الانس والجن وليس بزمارة الشيطان ولكن بتحنيد الله وتقديره

الطبراني بإسناد حسن

( ٢ ) حديث أسامة بن زيد الأهل من مشمر الجنة ان الجنة لا خطر لها - الحديث : ابن ماجه وابن حبان

( ٣ ) حديث جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فانها تعجبني - الحديث :

الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه للسجود مختلف فيه ورواه ابن المبارك

في الزهد بلفظ الضعف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذي وهذا أصح

وقد ذكر أبو موسى القاسمي عبد الرحمن بن سابط في حديثه في الصلاة ولا يصح له صحبة

فَطَلِبُكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ »  
 وقال له رجل إن الإبل تعجنى ، فهل فى الجنة من إبل ؟ فقال : « يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنَّ  
 أُذْخِلْتَ الْجَنَّةَ فَلَكَ فِيهَا مَا شِئْتَ فَخَسَّكَ وَلَدَّتْ عَيْنَاكَ »  
 وعن <sup>(١)</sup> أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ  
 مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُؤَلِّهُ لَهُ الْوَلَدُ كَمَا يَشْتَتِي يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ وَشَبَابُهُ فِي  
 سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> : « إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ  
 اشْتَقَّ الْإِخْوَانُ إِلَى الْإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرٌ هَذَا إِلَى سَرِيرِ هَذَا فَيَلْتَقِيَانِ  
 وَيَتَحَدَّثَانِ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ بَالِغِي نَدَّكَ يَوْمَ كَذَا رَفَى  
 تَحْلِسُ كَذَا فَدَعَوْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنَا »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ جُرَدٌ مُرْدٌ يَبِضُّ جِمَادًا  
 مَكْحُولُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ سِتُونَ فَرَاغًا فِي  
 مَرَضٍ سِتِيَةٍ أَذْرُوعٌ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> : « أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ

(١) حديث أبى سعيد أن رجلا من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حمله وفصاله ونشأته  
 فى ساعة واحدة : أبى ماجه والترمذى وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم فى هذا  
 فقال بعضهم فى الجنة جماع ولا يكون وفصاله ولا حمى من حديث أبى رزىن يلدوهم مثل  
 ولدناكم فى الدنيا ويلتذون بهم غير أن لا نواله

(٢) حديث إذا استقر أهل الجنة فى الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا  
 البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لا نطه يروى عن أنس صلى الله  
 عليه وسلم الأبهذا الاستاد تغرد به أنس أبى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهانى  
 فى الترغيب والترهيب مرسلادون ذكر أنس

(٣) حديث أهل الجنة جرد مرد يبيض جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين - الحديث : الترمذى من حديث  
 معاذ وحسن دون قوله يبيض جعادودون قوله على خلق آدم إلى آخره ورواه أبىنا من حديث  
 أبى هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد مكمل وقال غريب وفى الصحيحين من حديث  
 أبى هريرة على صورة أديم آدم ستون فراسا

(٤) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم - الحديث : الترمذى من حديث أبى حنيفة  
 مقطعا من أوله إلى قوله وأن عليهم التيجان ومن هنا يستاده أيضا وقال لا تعرفه إلا من حديث  
 ورشد بن سعد



وَنُتْنَانٍ وَسَبْمُونَ زَوْجَةً وَيَنْسَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبْرَجِدٍ وَيَأْتُونَ  
كَمَا يَتَنُ النِّجَابِيَّةَ إِلَى صَنْعَاهُ وَإِنَّ عَلَيْهِمُ النَّجْجَانَ وَإِنَّ أَذَى لَوْلُؤَةٍ مِنْهَا لَتَنِيهِ  
مَائِينَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « نَظَرْتُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِذَا الرِّثَاءَةُ مِنْ رُمَانِيَا  
كَخَلْفِ الْبَعِيرِ الْفَتْبِ وَإِذَا طَيْرُهَا كَالْبَيْخَتِ وَإِذَا فِيهَا جَارِيَةٌ قُلْتُ يَا جَارِيَةُ  
لِمَنِ أَنْتِ فَقَالَتْ لِرَبِّ بْنِ حَارِثَةَ وَإِذَا فِي الْجَنَّةِ مَالًا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ  
سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

وقال كعب: خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده، وكسب التوراة بيده، وعمرى  
الجنة بيده، ثم قال لها تكلمى فقالت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ <sup>(٢)</sup>)

فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا . وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جللتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها من ماء غير آسن ، وأنهار  
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال ، وأنهار  
من خمر لذة للشاربين ، لا تسفه الأحلام ، ولا تصدع منها الرؤوس ، وإن فيها  
ملا عَيْن رَأَتْ ، وَلَا أَذُن سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . ملوك ناصمون  
أبناء ثلاث وثلاثين ، فى من واحد ، طولهم ستون ذراعا فى السماء ، كحل ،  
جرد ، مرد ، قد آمنوا المذاب ، وأطمأنت بهم الدار . وإن أنهارها لتجرى على  
ضراض من ياقوت وزبرجد ، وأن عروقتها ، ونخلها ، وكرمها اللؤلؤة ، ونمارها  
لا يعلم علمها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم  
فيها خيلا وإبلا هفافة ، رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت ، يتراوون فيها  
وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها

(١) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كخلف البعير الفتب وإذا طيرها كالبخيت - الحديث :  
رواه الترمذى فى تفسيره من رواية أبى هريرة العبدى عن أبى سعيد وأبى هريرة عن عمارة  
ابن حريث ضعيف جدا وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يقول الله أعددت لعباده  
الصالحين مالا عَيْن رَأَتْ وَلَا أَذُن سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ

سبعين حلة ، فلبسها ، فبرى منح ساقها من وراء تلك السبعين حلة ، قد طهر الله الأخلاق من السوء ، والأجساد من الموت ، لا يمتشطون فيها ، ولا يبولون ، ولا يتغوطون وإنما هو جشاه وورشح مسك . لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً : أما أنه ليس ليل يكر ، الندو على الرواح ، والرواح على الندو . وإن آخر من يدخل الجنة وأدنام منزلة ليمد له في بصره وملكة مسيرة مائة عام ، في قصور من الذهب والفضة ، وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أنفسه كما ينظر إلى أدناه ، يندى عليهم بسبعين ألف صحيفة من ذهب ، ويراح عليهم بثلاث في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ، ويمجد طم آخره ، كما يمجد طم أوله وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار ، في كل دار سبعون ألف بيت ، ليس فيها صدم ولا ثقب

وقال عجمد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة ، يرى أنفسه كما يرى أدناه ، وأرفهم الذي ينظر إلى ربه بالتدأة والمشى

وقال سعيد بن السيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة

صواري من ذهب ، وسوار من لؤلؤ ، وسوار من فضة

وقال أبو هريرة رضي الله عنه . إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء ، إذا مشيت مثنى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة ، وهي تقول : أين الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد . وترك الدنيا مهر الآخرة وقال أيضاً : في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس .

فيا أيها لمن يختار المذلة في طلب ما يفتنى ، ويترك المز في طلب ما يبقى

## صفة

الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى ( الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَاتِ وَزِيَادَةً<sup>(١)</sup> ) وهذه الزيادة هي النظر

إلى وجه الله تعالى . وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ، وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة . وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يتقدمه أهل البدعة . قال <sup>(١)</sup> جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَمُوتُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا <sup>(٢)</sup> ) وهو مخرج في الصحيحين

وروى مسلم في الصحيح ، عن <sup>(٣)</sup> صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ( الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى وَزِيَادَتُهَا ) قال : « إِنَّا دَخَلْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يَنْجِزَ كُفُومَهُ فَكُلُوا مَا هَذَا الْبُخَارُ مِنْكُمْ يَنْفُلُ مَوَازِينًا وَمِيزَانًا وَجُوهَنَا وَمُيَدِّنَا الْجَنَّةَ وَنُجْرِنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَبَرَّعَ الْحِجَابَ وَبَنَظَرُونُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ »

وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة . وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى . وكل ما فصلناه من التمتع عند هذه النعمة ينسى . وليس السرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة لشيء من لقات الجنة إلى لذة اللقاء . وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا ، فلا ينبغي أن تكون همه العبد من الجنة بشيء سوى لقاء اللولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في الرعى

( ١ ) حديث جرير كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم - الحديث : هو في الصحيحين كأذكر للصنف

( ٢ ) حديث صهيب في قوله تعالى الذين أحسنوا الحسنى وزيادة قوله صلى الله عليه وسلم كأذكر للصنف

نختم الكتاب بباب في

## سعة

رحمة الله تعالى على سبيل التفاضل بذلك

فقد <sup>(١)</sup> كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب القائل . وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة : فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم في التفاضل . ونرجو أن يختم ما قبلنا بالتخير في الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ) وقال تعالى ( كُلُّ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ سَجْمًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ) <sup>(٢)</sup> وقال تعالى ( وَمَنْ يَمْكُلْ سَوْءًا أَوْ يظْلِمْ نَفْسَهُ نُمَسِّكْهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ) <sup>(٣)</sup> ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم ، أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ، ونستغفره من أحوالنا التي لا توافقها أحوالنا ، ونستغفره من أذعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل علم وصل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستملناها في معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متعفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تربنا للناس في كتاب سطرناه ، أو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه

( باب في سعة الرحمة )

( ١ ) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب القائل : متفق عليه من حديث انس في أثناء حديث ويحيى بن القائل الصالح الكلمة الحسنة ولهما من حديث أبي هريرة وغيرهما القائل قالوا وما القائل قال الكلمة العاطلة يسعها أحدكم

أواستفدناه . ونرجو بعد الاستفجار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا  
أوكتبه ، أوسمه ، أن نكرم بالمغفرة ، والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات  
ظاهرا وباطنا ، فإن الكرم عظيم ، والرحمة واسعة ، والجود على أصناف الخلائق  
فانص ، ونحن خلق من خلق الله عز وجل لاوسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه ،  
فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ لِلَّهِ تَمَالِي مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً  
وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ فِيهَا يَتَرَاحَمُونَ  
وَأُخَرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وروى أنه <sup>(٢)</sup> « إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَخْرَجَ اللَّهُ تَمَالِي كِتَابًا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ  
فِيهِ : إِنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي ، وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مِثْلًا أَهْلُ الْجَنَّةِ  
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٣)</sup> « تَجَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
صَاحِبًا يَقُولُ ابْشِرُوا مَسْخَرِ الْمُسْلِمِينَ لِإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ  
مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا »  
وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « يُشْفَعُ اللَّهُ تَمَالِي آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ  
تَجْمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ وَعِشْرَةِ أَلْفٍ أَلْفٍ »

( ١ ) حديث أن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها واحدة بين الجن والانس - الحديث : مسلم

من حديث أبي هريرة وسلمان

( ٢ ) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه أن رحمتي سبقت غضبي - الحديث :

متفق عليه من حديث أبي هريرة لما تقى الله الخلق كتب عنده فوق العرش أن رحمتي سبقتي

غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي

( ٣ ) حديث إذا تجلى لنا يوم القيامة صاحبا يقول ابشروا مسخر المسلمين فإنه ليس منك أحد إلا قد جعلت

مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا : مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل

مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فمأواك من النار ولأبي داود أمي أمة مرحومة لأعذابها

عليها في الآخرة - الحديث : وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى

أيضا يتجلى الله ربنا لنا صاحبا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدة فيقول

ارفضوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه طي بن زيد بن جندب

( ٤ ) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرون ألف - الحديث : الطبراني

من حديث أنبي بإسناد ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ يَا رَبَّنَا فَيَقُولُ لِمَ فَيَقُولُونَ رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ فَيَقُولُ قَدْ أُوجِبْتُ لَكُمْ مَغْفِرَتِي »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ قَالُوا بَلَى فَيَقُولُونَ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مَتْنَا فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأَخَذْنَا بِهَا فَيَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا قَالُوا فَيَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ مَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ فَيَخْرُجُونَ فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ الْكُفَّارُ قَالُوا يَا كَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَيَخْرُجُ كَمَا أَخْرَجُوا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) <sup>(٤)</sup>

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « اللَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَوَّلِدَةِ الشَّيْطَانِ يَوْمَ لَدَيْهَا »

وقال جابر بن عبد الله : من زادت حبهاته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل

(١) حديث أن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم - الحديث : أحمد

والطبراني من حديث حماد بسند صحيح

(٢) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام : الترمذي

من حديث أنس وقال حسن غريب

(٣) حديث إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله منهم من أهل القبيلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا

مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذا أنتم متنا في النار - الحديث : في إخراج أهل

القبيلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين

النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بسند صحيح

(٤) حديث أنه أرحم بعبده المؤمن من الوائدة الشفاعة بولسها : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب

في أوله قصة لقائه من النبي إذ وجعت صيا في البهي فأخذته فالتفت يطنها فارضت

الجنة بنير. حساب . ومن استوت حسنة وسينته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : يا موسى ، استغاث بك قارون فلم تنه . وعزنى وجلالى لو استغاث بى لأغنته وعفوت عنه

وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى . ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيمدو أحدهما فى سلسله حتى يقتحمها ، ويتلکأ الآخر ، فيؤمر بردهما ، ويسألهما عن فعلهما . فيقول الذى عدا إلى النار : قد حذرت من وبال المصيبة ، فلم أكن لأنمرض لسخطك ثانية . ويقول الذى تلکأ : حسن ظنى بك كان بشمرنى أن لا ردنى إليها بمد ما خرجت منى . فيأمر بهما إلى الجنة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يُنَادِى مُنَادٍ مِّنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا أُمَّةٌ مُّحَمَّدٍ أَمَّا مَا كَانَ لِي بِكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُ لَكُمْ وَقَبِلْتُ التَّيْمَاتُ فَتَوَاهَبُوا وَأَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرِجْمَتِي »

ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ( وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ) فقال الأعرابي والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقمكم فيها : فقال ابن عباس : خذوها من غير فقه

وقال <sup>(٢)</sup> الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت ، فبكيت ، فقال مهلا لم تبكى ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة بأمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوا بينكم وادخلوا الجنة برحمتى ربوتهم فى سبعين أسمى الاسعد القشبرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البغوى قال الخطيب ليس بقعة

(٢) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار : من هذا الوجه وانفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلقط آخر

لَمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا حَدَّثَكُمْوه ، إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا ، وَسَوْفَ أَحَدُكُمْوه الْيَوْمَ  
وَقَدْ أَحْصَيْتُ بِنَفْسِي . سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « مَنْ شَهِدَ  
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ »

وَقَالَ (١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْوَانَ النَّبَاسِيُّ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
« إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِسُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ  
عَلَيْهِ نِسْتَةً وَتِسْبِينَ سِجِلًا كُلَّ سِجِلٍ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ  
مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَتَلْتَمِذُ كَتَبْتَنِي الْمَافِظُونَ ؟ يَقُولُ لَا يَارَبِّ يَقُولُ أَفَلَا عُدْرُ ؟  
فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا عَظَمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ  
فَيُخْرِجُ بِلِطَافَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ  
فَيَقُولُ يَارَبِّ مَا هَذِهِ الْبِلَافَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجِلَاتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تَعْظُمُ قَالَ  
فَتَرُوضُ السَّجِلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالْبِلَافَةُ فِي كَفِّهِ قَالَ فَطَاشَتِ السَّجِلَاتُ وَتَقَلَّتِ  
الْبِلَافَةُ فَلَا يَقْضِي شَيْءَ اسْمِهِ اللَّهُ تَعَالَى »

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آخِرِ حَدِيثٍ طَوِيلٍ يَصِفُ فِيهِ الْقِيَامَةَ  
وَالصِّرَاطَ (٢) « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ  
مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ  
نَدْرُ فِيهَا أَحَدًا يَمُنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ  
بَصْفٍ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا  
لَمْ نَدْرُ فِيهَا أَحَدًا يَمُنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ  
يَارَبَّنَا لَمْ نَدْرُ فِيهَا أَحَدًا يَمُنْ أَمَرْتَنَا بِهِ » فَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ يَقُولُ :

(١) حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْوَانَ أَنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِسُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُهُ

لِسِتَةٍ وَتِسْبِينَ سِجِلًا فَذَكَرَ حَدِيثَ الْبِلَافَةِ : ابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ

(٢) حَدِيثُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ

خَلْقًا كَثِيرًا - الْحَدِيثُ : فِي أَخْرَاجِ الْوَحِيدِينَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى لَاهِلِ الْجَنَّةِ فَلَا أَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ

إِيَّاهُ أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ كَمَا ذَكَرَ السَّيْفُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ



إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) (١) قال « فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أزعم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يمسكوا خيراً قط قد عادوا جحماً فيلقينهم في نيران في أفواه الجنة يقال له نهز الحباية فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حيل السيل إلا تزوتها تكون مما يلي الحبر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفى وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض » قالوا يارسول الله كأنك كنت ترى بالبادية. قال « فيخرجون كالزؤلور في رقابهم ألحوايتهم يترفعهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة يغير عمل عبدهم ولا تحير قدموه ثم يقول أدخلوا الجنة كما رأيتم فهو لكم فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم نعط أحداً من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما عو أفنل من هذا فيقولون ياربنا أي شيء أفنل من هذا؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً » رواه البخاري ومسلم في صحيحهما

وروى البخاري أيضاً عن (١) ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ يُخَرِّجُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ فَرَأَيْتُمْ سَوَاداً كَثِيراً فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونُ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً فَذُ سَدِّ الْأَفْقِ فَقِيلَ لِي انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا فَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً فَقِيلَ لِي هَؤُلَاءِ أَشْكَارُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ شُبُهُونُ أَلْفَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فنفرك الناس ولم يبين لهم رسول الله

(١) حديث ابن عباس عرضت على الامم يمر النبي مع الرجل والنبي مع الرجلان والنبي مع أحد

الحديث: إلى قوله سبحانه بها مكانة رواه البخاري

صلى الله عليه وسلم . فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ، ولكن قد آمنّا بالله ورسوله ، هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَهَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يحملني منهم يا رسول الله . فقال « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « سَيِّفَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ »

وعن <sup>(١)</sup> عمرو بن حزم الأنصاري قال : تقيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع . فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدثَ حدثٌ . قال « كَمْ بَحَثْتُ إِلَّا خَيْرٌ » إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفًا لَيَسَّابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ الْمُرِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّي مَا جَدًّا وَاجِدًا كَرِيمًا فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا سَبْعِينَ أَلْفًا قَالَ قُلْتُ يَا رَبِّ وَتَبَلَّغْ أُمَّتِي هَذَا قَالَتْ أَسْأَلُكَ لَكَ أَتَدَدَّ مِنَ الْأَعْرَابِ »

وقال <sup>(٢)</sup> أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عَرَضَ لِي جِبْرِيلُ فِي جَانِبِ الْحَرَةِ فَقَالَ بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ نَعَمْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى »

- ( ١ ) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه أن ربي وعدي أن يدخل من أمة الجنة سبعين ألفا لأصحاب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البيهقي في البعث والنشور والاحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولا احمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزده فقال قد استزده فاعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزده قال قد استزده فاعطاني هكذا وفرج عبد الله ابن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحق عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف
- ( ٢ ) حديث أبي ذر عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة - الحديث : متفق عليه بلفظ أناني جبريل فبشرني وفي رواية لهما أناني أت من ربي

قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى  
قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ ۝

وقال <sup>(١)</sup> أبو الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَلَيْسَ خَافَ مَقَامَ  
رَبِّهِ جَنَّاتٍ <sup>(٢)</sup>) قُتِلَتْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى يَارَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ (وَلَيْسَ خَافَ  
مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ <sup>(٣)</sup>) قُتِلَتْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى ؟ فَقَالَ (وَلَيْسَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ  
جَنَّاتٍ <sup>(٤)</sup>) قُتِلَتْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى يَارَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ ۝ وَإِنْ دَخَلَ أَنْفُسِهِ  
أَبَى الدَّرْدَاءَ ۝

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> ۝ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى  
كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَلَلِ قَتِيلٌ لَهُ هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ ۝

إدروى مسلم في الصحيح عن <sup>(٦)</sup> أبي بردة ، أنه حدث عمر بن عبد العزيز ؛  
عن أبيه أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ۝ لَا يَمُوتُ وَجُلٌّ مُسْلِمٌ  
إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ تَمَكَّالَ مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ۝ فاستحلفه عمر بن  
عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، خلف له .

ودروى أنه <sup>(٧)</sup> وقف صبي في بعض المنازى يشادى عليه فيمن يزيد في يوم  
صائفه شديد الحر ، فبصرت به امرأة في خباء القوم ، فأقبلت تشتد ، وأقبل

(١) حديث أبي الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولئن خاف مقام ربه جنتان قُتِلَتْ وَإِنْ زَنَى  
وإن سرق - الحديث : رواه أحمد بإسناد صحيح

(٢) حديث إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل قَتِيلٌ لَهُ هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ  
رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تدهم

(٣) حديث أبي بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال  
لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً : عزاء الضعيف رواية مسلم وهو كذلك

(٤) حديث وقف صبي في بعض المنازى يشادى عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة  
الحديث : وفيه الله أرحم بكم جميعاً من هذه بأنها متفق عليه مختصراً مع اختلاف من حديث  
عمر بن الخطاب قال قسم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب قاتل امرأة من النبي تسمى

أصحابه خلفه ، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على  
البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت ابني ابني . فبكى الناس وتركوا  
مام فيه . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر  
فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أُعْجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هَذِهِ لِبَنِيهَا » قالوا نعم . قال  
صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ بِكُمْ جَمِيعًا مِنْ هَذِهِ بَابْنِهَا »  
فتفرق المسلمون - على أفضل السرور وأعظم البشارة

فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ،  
فندرجو من الله تعالى أن لا ياملنا بما نستحقه . ويتفضل علينا بما هو أهله ،  
بمنه وسعة جوده ورحمته

---

اذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته بطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أزرون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخاري  
فلما امرأة من السبي قد غلب عليها كسبي اذ وجدت صبياً - الحديث - ❦

والحمد لله تعالى عوداً على بدء ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد في كل حركة وهذه - ويقول مؤلفه  
عبد الرحمن بن الحسين العراقي اني أكملت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٥١ وأكملت تبليص هذا المختصر  
منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الاول سنة ٧٩٠ انتهى

# كتاب الاملاء

## كتاب الإملاء

في إشكالات الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما خصص وعظم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء البعوث إلى  
العرب والمجتم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكثيرا ، سألتَ يَسْرَكَ الله لمراتب  
العلم تصعد مراقبها ، وفرت لك مقامات الولاية تحمل مفاياها عن بعض ما وقع في  
الإملاء للقلب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشيء  
من المخطوط الملكية قدّمه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطعام ،  
وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحمال ، وذمار أهل الإسلام ، حتى  
طننوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، ومطالعتة ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة  
بإطراحه ومتابذته ، ونسبوا ثمليه إلى ضلال وإضلال ونبذوا قراءه ومتحلّيه بزيف  
في الشريعة ، واختلال ، فإلى الله إنصرفهم ومآبهم ، وعليه في العرض الأكبر إيقافهم  
وحسابهم ، (سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ<sup>(١)</sup>) (وَيَسْأَلُهُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ  
يَنْقَلِبُونَ<sup>(٢)</sup>) (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحَيِّطُوا بِهِ لَعَلَّكُمْ يُهْذَلُونَ<sup>(٣)</sup>) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ  
يَسْتَنَظِرُونَ مِنْهُمْ<sup>(٤)</sup>) ولكن الظالمون في شقاق بعيد ، ولا عجب فقد توى أدلّاه  
الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق  
متشبّهين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة  
متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متماطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك  
لطلب الدنيا أو عجة ثناء ، أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ،

وتألفوا جميعا على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم في الأمر ، وتصافوا بأسرم على الخديعة ، والمكر ، إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزدروا عليهم ، أولئك الجهال في علمهم الفقراء في طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون ، ولا ينجح تأبهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارث الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال التقية ودرجات النجاة ، وخصوصية البلاء ، وكرامة الأوتاد ، وفوائد الأقطاب ، وفي هذه أسباب السعادة وتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من بضائهم ، حجبا عن الحقيقة بأربع ، بالجل والإصرار ، وعجة الدنيا وإظهار الدعوى ، فالجهل أورثهم السفه ، والإصرار أورثهم التهاون ، وعجة الدنيا أورثتهم طول النفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء (والله من وراءهم محيط<sup>(١)</sup>) (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ<sup>(٢)</sup>) فلا يغررك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ، ولا يذهلك عن الاشتغال بصلاح نفسك تخرمهم وطنياتهم ، ولا يفونك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكان قد جمع الخلائق في صعيد (وجاءت كُلُّ نَفْسٍ مِّمَّا سَاقَتْ وَشَهِيدٌ<sup>(٣)</sup>) وتلى (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ<sup>(٤)</sup>) فيآله من موقف قد أذهل ذوى المقول عن التال والقيل ، ومتابعة الأباطيل ، (فَاعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ<sup>(٥)</sup>) ولا تطع كل أفاك أثم (وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتَطَقَتْ أَنْ يُنْفَخِيَ تَقَفَّ فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلِّمْ فِي السَّمَاءِ فَتُلِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنْ الْجَاهِلِينَ<sup>(٦)</sup>) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً<sup>(٧)</sup>) (وَاصْبِرْ حَتَّى يَخُضُّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَبِيرٌ الْحَاسِبِينَ<sup>(٨)</sup>) (كُلُّ نَفْسٍ هَالِكَةٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهَ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ<sup>(٩)</sup>) ولقد جئناك بحول الله وقوته ، وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من

(١) البروج : ٢٠ (٢) سبأ : ٤٧ (٣) ق : ٢١ ، ٢٢ (٤) الأعراف : ١٩٩ (٥) الأنعام : ٣٥

(٦) هود : ٦١٨ (٧) يونس : ١٠٩ (٨) القصص : ٨٨

تخصيص الكلام بالمثل الذي ذكر فيه الأفلام إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفاً على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور في المجالس تحية الداخل وحديث المجالس ، فساعدتنا أمانيتك ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملاننا هذا ياناً غيره مما عدّوه مشكلاً ، وصار لعقولهم الضعيفة غبلاً ومضللاً ، ونحن نستعبد بالله من الشيطان ، ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان وتضرع إليه في المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان

## ذكر مراسم

الأمثلة في المثل

ذكرت رزقك الله ذكراً وجملك تمقل نبيه وأمره ، كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولقطة التوحيد تنافي التقسيم في الشهود كما ينافي التكرير التمديد ، وإن صبح انقسامه على وجه لا يندفع ، فهل تصح تلك القسمة فيما يوجد ، أو فيما يقدر ورغبة مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها ، إن كان يقع بينهم التفاوت ، وما وجه تشبيلها بالجوز في القشور واللبوب ، ولم كان الأول لا ينفع ، والآخر الذي هو الرابع لا يحمل إفشاؤه ؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن : إفشاء سر الربوبية كفر أين أصل ما قالوه في الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والتقريب والتبديد ، والصديقية وسائر مقامات الولاية ، ودركات المخالفة إنما هي مأخذ شرعية ، وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ، ومخاطبة الجمادات للعقلاء ، وبماذا تسمع تلك المخاطبة أبحاسة الآذان ، أم يسمع القلب ؟ وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الالهي ؟ ، وما حد عالم الملك وعالم الجبروت ، وحد عالم الملكوت ؟ ، وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ ، وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون متقدها منزهاً عجللاً ؟ ، وما معنى الطريق في ، فإنك بالوادي المقدس طوى ، ولعله يشدد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان في غير الوادي الذي سمع فيه ، وسى عليه السلام كلام الله تعالى ؟ ، وما معنى



فلستم بمرّ قليل لما يوحى ؟ وهل يكون مباح القلب بغير سره ، وكيف يسمع لما يوحى من ليس بني ، أذلك على طريق التميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أمرار الإله ، وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع في النداء إذا سمع . أهلّ أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين ، وما الذي أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ، وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ، وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه ، وما الذي يمنعه من البقاء في الموضع الذي وصل إليه وهو أرفع من الذي خلفه ، وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء ، لو وصلوا مارجعوا ما وصل من رجع ، وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيباً ، ولا أكل صنماً ، ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود ، وعجزاً يناقض القدرة الإلهية ، وما حكم هذه العلوم المكنونة ، هل طلبها فرض ومنسوب إليه ، أو غير ذلك ، ولم كسبت المشكل من الألفاظ ، واللفظ من العبارات ، وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يجتبره ويمتنع فأبال من ليس شارعاً انتهى جملة مراسم الأسئلة في المثل فأسأل الله تعالى أن يعلي علينا ما هو الحق عنده في ذلك ، وأن يجرى على سنتنا ما يستضاء به في ظلمات المسالك ، وأن يم بفعه أهل البإدى والمدارك ، ثم لا بد أن أمهد مقدمة وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية

أما المقدمة : فالنرض بها تبين عبارات انفراد بها أرباب الطريق تفضض معانيها على أهل القصور ، فنذكر ما يفضض منها ، ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على ما يكون من كلامنا مختصاً بهذا الفن في هذا ، وغيره ، فيتوقف عليه فهم مناه من جهة اللفظ ،

وأما القاعدة : فنذكر فيها الاسم الذي يكون سلوكنا في هذه العلوم عليه ، والست الذي ننوي بمقصدنا إليه ، ليسكون ذلك أقرب على التأمل وأسهل على الناظر للتفهم

وأما الوصية: فنقصدها تعريف ماعلى من نظر فى كلام الناس وأخذ نفسه بالإطلاع على أغراضهم فيما ألقوه ، من تصانيفهم وكيف يكون نظره فيها وإطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أؤكد عليه أن يتعلمه من ظهورها ، فسردها عنها ، وغلت فى وجوههم الأبواب ، وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترتيب ، وولجوا على الرضا بالحبيب ، لكشف لهم كثير من حجب النيوب ، ( والله يهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ <sup>(١)</sup> )

## المقدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجماهير والعموم، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع، والصنائع على ضربين ، طيبة وجميلة ، فالجميلة كالهناء والحرف ، ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاهم ، ويتسلطون أصول صناعتهم ، والجميلة هي العلوم المحفوظة بالقوانين المدلة ، بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضاً ألفاظ اختصوا بها لا يشاركون فيها غيرهم ، إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما فى صورة اللفظ دون المعنى أو فى المعنى وصورة اللفظ جميعاً ، وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور ، وأرباب الصنائع ، وإعنا ممينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب فى التسليم ، واختيار لفظ دون غيره، وحد بطرفين ، مبدأ وغاية ، ومالم يكن كذلك فلا نسميه صناعة ، كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من بعدم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذى هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها ، لانسميا عندهم صناعة ونسميا بذلك عند ضبطها ، بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسادين بالسادة ، والملقين بالصرفية ، والمتشبهين بالفقراء ، والمعرفين

بالرفعة ، والمعزي إليهم ، والعلم والعمل ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها ، فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر ما ينمض منها ، إذ قد يقع منا عند ما نذكر شيئاً من علومهم ، ونشير إلى غرض من أغراضهم ، فلم نر أن يكون ذلك بنير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولا حرج في ذلك عقلاً وشرعاً ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير

فن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح والطوالع ، والتهاب ، والنفس ، والسر والوصل والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتخلي والتخلي ، والتجلى ، والملة والأزجاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والنفرة والحرية واللطفية ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحلم ، والزوائد والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبة والرهبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد فنذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن ، بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم في علومهم أكثر مما ذكرنا ، فإنما قصدنا أن نريك منها أعمقها ودستورها ، تعلم به إذا طرأ عليك ما لم نذكره لك ههنا ، إذ لها مبحث وإلها سبيل فنقطابه بعد ذلك على وجهه

فأما السفر والطريق : فالمراد بهما سفر القلب بآلة الفكر في طريق المقولات وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر في لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التي بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام ، وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والتهى ، وتعلق الترض فيها ، والمراد بها ، ومنها فإذا خلقوا نواحيها ، وقطعوا معاطيها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه ، أعرض وأطول من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية ، النفس والمعدو والدنيا ، فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على فيرجها أعظم منها في الانتساب ، وأعرض بنير حساب ، من ذلك سر القدر ، وكيف خفي بحكم في الثلاثين ، وقادم بلطف في عنف ، وشدة في لين ، وبقوة في ضعف ،

وباختيار في جبر ، إلى ماهو في مجاريه لا يخرج المخلفون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب ، مثل العلم الآلهي واللوح المحفوظ ، واليمين الكتابية ، وملائكة الله يطوفون حول العرش ، بالبيت الممور وهم يسبحونه ، ويقصدونه وفهم كلام الخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطي منها إلى معرفة الخالق للكل ، والمالك للجعب ، والقادر على كل شيء ، فتشام الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة ، فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحضررون حيث غاب أهل الدعوى ، ويعيرون ما عصى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى والحال : منزلة المبد في الحين فيصفوه في الوقت حاله ووقته وقيل هو ما يتحول فيه المبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفتارة وتغير أخرى قيل له حال ، وقال بعضهم ، الحال لا يزول فإذا زال لم يكن حالا

والمقام : هو الذي يقوم به المبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فتي أقيم المبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ، حتى ينقل منه إلى غيره

والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل المبد في معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم مكانك من قلبي هو القلب كله فليس شيء فيه غيرك موضع والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن مدنه ، مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظا

والطوابع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ، فيطمس سلطان نورها الأتزان ، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب

والذهاب : هو أن ينيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محو بها

والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطلق شرها

والسر : ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق ، وسر السر مالا يحس به السر

والسر: ثلاثة سر العلم، وسر الحال، وسر الحقيقة، فسر العلم حقيقة المألين بالله عز وجل، وسر الحال معرفة مراد الله في الحال من الله، وسر الحقيقة ما وُفقت به الإشارة

والوصل: إدراك الفئات

والفصل: فوت ما ترجوه من محبوبك

والأدب: ثلاثة. أدب الشريعة وهو التعاق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة:

والثاني: أدب الخدمة وهو التشمع عن الملامات والتجرد عن الملاحظات

والثالث: أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة

والرياضة: اثنان. رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب

وهو صحة المراد

والتحلل: التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال

والتخلي: اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق

والتجلى: هو ما يتكشف للقلوب من أنوار النيوب،

والعلة: تنبيه عن الحق

والانزعاج: انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأفئس والوحدة

والمشاهدة: ثلاثة. مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ومشاهدة

للحق وهي رؤية الحق في الأشياء، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب

والمكاشفة: أتم من المشاهدة وهي ثلاثة، مكاشفة بالعلم: وهي تحقيق الإصابة

بالفهم ومكاشفة بالحال: وهي تحقيق رؤية زيادة الحال، ومكاشفة بالتوحيد: وهي تحقيق

صحة الإشارة

واللوائح: ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من التسمو من حالة إلى حالة

أتم منها، والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها.

والتلوين: تلوين المبدأ في أحواله، وقالت طائفة: علامة الحقيقة. رفع التلوين

بظهور الاستقامة، وقال آخرون: علامة الحقيقة. التلوين لأنه يظهر فيه تدرج

القادر ، فيكسب منه المبد النبوة .

والنبوة : غيرة في الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ، فالنبوة في الحق برؤية الفواشش والمناهى ، والنبوة على الحق هي كتمان السرائر ، والنبوة من الحق ضنه على أوليائه

والحرية : إقامة حقوق المبودية فتكون لله عبدا وعند غيره حرا واللطيفة : إشارة دقيقة للمنى تلوح في الفهم ولا يسمها العبارة والفتوح : ثلاثة . فتوح المباداة في الظاهر : وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الخلاوة في الباطن : وهو سبب جذب الحق بإعطائه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والونم والرسم : معنيان يحريان في الأبد بما جريا في الأزل

والبسط : عبارة عن حال الرجاء

والقبض : عبارة عن حال الخوف

والفناء : فناء الماصى ، ويكون فناء رؤية المبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك والبقاء : بقاء الطامعات ، ويكون بقاء رؤية المبد قيام الله سبحانه على كل شيء والجمع : التسوية في أصل الخلق ، وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلاخلق والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، وإذا جمع بينهما فقصده وجد

عين التحمل : إظهار غاية المخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء

والزوائد : زيادات الإيعان بالنبيب واليقين

والإرادات : ثلاثة : لإرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى : وذلك موضع التقنى ، وإرادة

الحظ منه : وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه : وذلك موضع الإخلاص

والريد : هو الذى صح له الابتلاء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم

والمراد : هو المعارف التى لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال

والمقامات .

والهمة : ثلاثة . همة مئية : وهي تحريك القلب للنبي ، وهمة إرادة : وهي أول صدق المرید ، وهمة حقيقة التصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجليل . فإن الأمر إذا والمطلب جد ، والآخرة مقبلة ، والدنيا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد والزاد طفيف ، والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند النافذ البصير زد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة النوائيل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد ، فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورة الأنبياء وقد شرف منهم الزمان ولم يبق إلا المترحمون ، وقد استحوذ على أكرهم الشيطان واستنواهم الطغیان وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً ، فصار يرى المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومانر الهدى في أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيالوا إلى الخلق أن لا علم إلا قنوى حكومة تستعين به القضاء على فصل الخصام ، عند تهاوش الطعام أو جدل يتدفع به طالب المباحة إلى الخيلة والإغغام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواقعظ إلى استتراج العوام ، إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ، فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، وهي جمع المهمة بصفاء الإلهام

والثغرية : ثلاثة . غربة عن الأوطان من أجل حقيقة التقصد ، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال ، وغربة عن الحق من حقيقة الدعش عن المعرفة

والاصطلام : نمت ، وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها والمنكر : ثلاثة . مكر موم : وهو الظاهر في بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو في سائر الأحوال ، ومكر خفي في إظهار الآيات والكرامات والرغبة : ثلاثة . رغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق

والرهبة : رهبة النبي لتحقيق أمر السبق والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقدته والوجود : تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندم ، ونشئل بعضهم عن

الوجد والوجود فقال ، الوجد ما تطالبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ما يجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكن والوجود مع التمكن

والتواجد : استدعاء الوجد . والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد القاعدة : وأما القاعدة التي يبنى عليها هذا الفن بأسره ، فذلك اجتذاب أرواح المائى والإشارة إلى البعد في القرب ، قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى ، قصدا ذاتيا لا على ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ، ومعرفة العلوم في الانصراف ومصاحبة القدر بالمساعدة ، وبالمرحوف ومعاونة الوجودات الحس ، الثاني ، والحس ، والخيالى ، والمقل ، والشهوى حسبما فهم من الشرع ، وثبت معناه في المحفوظ من الوحي ، وفلما أدرك شيء من المعجز ، والعلم لا ينال براحة الجسم ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَكُمْ <sup>(١)</sup> ) ( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا <sup>(٢)</sup> )

## والوصية

أيها الطالب للعلوم ، والناظر في التصانيف ، والمستشرف على كلام الناس ، وكتب الحكمة ، ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ، وفي الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به ، وتلك إلى نفسك ، أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره ، من فهم ، أو علم ، أو حفظ أو إمام متبع ، أو صفة ميز ، أو ما شاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ، ونكصت على عقبيك ، وخسرت في الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك ( فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيُتِمِّلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يَشْرِكْ بِمِلَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا <sup>(٣)</sup> ) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبتت معه غيره ، ولاحظت بالحقيقة سواء ، ورؤية غيره دونه تسمى القلب ، وتهتك السر ، وتوجب اللب ، وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ، ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن

(١) الطلاق : ٤ ، ٥ (٢) الطلاق : ٣ (٣) الكيف : ١١٥



يستغنى عنه في الظاهر ، وله إليه كثير حاجة في الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه ، فالمأني أوسع من المبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يدبر عنه ، واطمح بنظر فليك في كلامه إلى غاية ما يحتمل ، فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصده ، ولا تقطع له بصحة ، ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه ، حتى يزول الإشكال عنك ، بما تتيقن من معانيه ، وإذا رأيت له حسنة وسيئة فأنشر الحسنة ، واطلب المآذير السيئة ، ولا تكن كالقالبية تنزل على أقدر ما تجده ، ولا تمجّل على أحد بالتخطئة ، ولا تبادر بالتجديل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشمر ، فلكل عالم عورة ، وله في بعض مآثي به احتجاج ، وتاهيك ماجرى بين وليّ الله تعالى الخضر وكنيته موسى ، على نبينا وعليهما السلام ، وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بحال ، أو اختلال ، فخذ مظهر لك علمه ، ودع ما اعتاص عليك فهمه ، وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتي لك ، فاحفظها ، وتذكيري إياك فلا تذهل عنه

اسمع وصيتي إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد بردى بك الخلف .  
وأزيدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء ، لكي يعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك في ذلك أكبر منفعة ، ولي في وصفهم أبلغ غرض ، قال علماؤنا :  
العلماء ثلاثة . حجة ، وحجاج ، ومحجوج ، فالحجة : عالم بالله وبأمره وآياته ، مهتما بالغشية لله سبحانه ، والورع في الدين ، والزهد في الدنيا ، والإيثار لله عز وجل ، والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة ، وإطفاء نار البدعة ، قد أغرس التشككين ، وأغهم المتخرصين ، برهانه ماطع ، وآياته قاطع ، وحفظه ما ينزع ، شواهد بينة ، ونجومه نيرة ، قد هي صراط الله المستقيم ، والمحجوج : عالم بالله ، وبأمره ، وآياته ولكنه فقد الغشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد في الدنيا ، والرغبة والحرص ، وبعده من بركات علمه محبة الملوك والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لمبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مقتون بدم علمه ، مقتر بدم معرفته ، مخذول بدم نصرته ، شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستحلاف

بالجبال من عباده ، وغفره بقاء أميره ، وصلة سلطانه وطاعة القاضى والوزير والحاجب له ، قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه ، والاتباع له ، ومن يكون بعده قنوة به ، ومراده من الدنيا مثله فى مثل هذا ضرب الله المثل حين قال ( وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْخَالِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ <sup>(١)</sup> ) فويل لمن صحب مثل هذا فى دنياه ، وويل لمن تبه فى دينه ، وهذا هو الذى أكل بدينه ، غير منصف لله سبحانه فى نفسه ، ولا ناصح له فى عبادته ، تراه إن أعطي من الدنيا رضى بالدحة لمن أعطاه ، وإن منع رش بالدم لمن منعه ، وقد نسي من قسم الأرزاق ، وقدّر الأقدار ، وأجرى الأستباب ، وفرغ من الخلق كلمهم ، فعمود بالله من المحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى ، وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذى نحب فيه ، نقصدى أن يعلم من ذهب من الناس ، ومن بقي ، ومن أبصر الحقائق ، ومن عمي ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ، ومن غوى ، فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا ، وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة

غاب الدين إذا ما حدثوا صدقوا وظنهم كيقين إن هم حد سوا  
وذلك لما سبق فى القضاء من ظهور الفساد ، وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم . وعدم الصنف الثالث على غربته ، وأعز شيء على وجه الأرض وفى الغالب ما يقع عليه فى الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى ، وسخافة ، واجترار ، وعجب بغير فضيلة ، ورياء ، يجنون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد ، وأرسان العوام ، وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ، وأخذان لموائد السوء ، وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين

مثل البهائم جهال بخالقهم لهم تصاور لم يعرف لمن حبا  
كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والنيابة الفسا  
( فَأَحْذَرْتُمْ اللَّهَ أَنْتُمْ يَوْمَ فَكَوْنُكُمْ )<sup>(١١)</sup> (لِتَحْذَرُوا الْبَاطِلَ إِنَّهُمْ يَحْذَرُونَ اللَّهَ لِأَنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ )<sup>(١٢)</sup> أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم التافلون  
أولوا النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا اصدقوا  
ولناخذ في جواب مأسأت عنه ، على نحو ما رفعت فيه ، وأستوهب الله فتود  
البصيرة ، وحسن السريرة ، وغفران الجبرية ، وهو ربى ورب كل شيء ، وإليه المصير .

## استدأ الأجوبة

عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم فى الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبها لمواقة الغرض  
فى التمثيل به ، وذكرى أن المترض وسوس ، أو باطواطر هجس ، بأن لفظ  
التوحيد ينافى التقسيم ، إذ لا يخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذى ليس بزايد عليه ،  
فذلك لا يتقسم بالجنس ولا بالفصل ولا بنفى ذلك ، ولما لئن خلق بوصف المكلفين  
الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ، فذلك أيضا لا يتقسم من حيث انتسابهم إليه  
بالمقل ؛ وذلك لضيق المجال فيه . ولهذا لا يتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلک  
حق بين مسلكين باطلين ، أحدهما : الشرك ، والثانى : الإلهاس ، وكلا الطرفين كفر  
والوسط إيمان محض وهو أحد من السيف ، وأضيق من غط الظل ، ولهذا قال  
أكثر المتكلمين : يتناول إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبين والمرسلين وسائر  
مهم المرسلين ، وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هي علومهم ، ومذهبهم فى ذلك  
معروف ، ونحن لانم فى هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ، ومقابلة الأقوال  
بالأقوال ، بل بقصد إزالة غبر الإشكال ، ورد ما ملن به أهل الضلال والإضلال  
واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه ههنا بشيء قدح به

المفترض ، أو هجس به الخطار ، وإنا المستعمل ههنا من أمثاله ماتتيز به بعض الأشخاص ، بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيدا ، على جهة تفرد بها ، لا يشاركها فيها غيرها ، فن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحدًا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ماشرع في الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه ، والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ، ولا برهان يربط به سمى أيضا موحدًا ، على معنى أنه يعتقد التوحيد ، كما يسنى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيًا ، والحنبلي حنبليًا ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده ، وسمى من أجله بشكوكه المعارضة له ، فيسمى موحدًا ، لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي وفقية ، ومناه يرف الجدل والفقہ والنحو .

وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جلته حتى لا يئيد فيه فضلًا لغيره ، إلا على طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ماعده ، سابقًا له مع الذكر والفكر مصاحبًا من غير أن يمتريه ذهول ولا نسيان له ، لأجل اشتغاله بشيره كالمعادة في سائر العلوم ، فهذا يسمى موحدًا ، ويكون التقصد بالمسمى من ذلك البالغة فيه

فأما الصنف الأول : وهم أرباب النطق المفرد ، فلا يضربون في التوحيد بسهم ، ولا يفوزون منه بنصيب ، ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله في الحياة إلا مادام الظن بهم ، أن قلب أحدهم موافق للسانه ، كما يفرد القول عليه بمد هذا إن شاء الله عز وجل وأما الصنف الثاني : وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أروا لثبوت أو المبالغ ؛ يخبر عن توحيد الله عز وجل ، أو يأمر به ، ويلزم البشر قول لا إله إلا الله النبي عنه ، فقبولوا ذلك ، واعتقدوه على الجملة ، من غير تفصيل ولا دليل ، فتسبوا إلى التوحيد ، وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذي هو منهم ، وبمنزلة من كثر سواد قوم فهو منهم

وأما الصنف الثالث والرابع : فهم أرباب البصائر السليمة ، الذين نظروا بها إلى أنفسهم ، ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها ، فأروا ، على كل منها خطأ منطبقا

فيها ، ليس بمربي ، ولا سرياني ، ولا عبراني ، ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءته من لم يستعجم عليه ، وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الخطم الإلهي المكتوب على صفحة كل مخلوق ، المنطبع فيه من مركب ومفرد ، وصفة وموصوفة وحي ، ومجاد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، ومظلم ونير ، وهو الذي يسمى تارة بسلامة ، وتارة بسمة ، وتارة بأثر القدرة ، وتارة بآية ، كما قال الشاعر : ولا أدري  
عن سماع أو رؤية قلب

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلو قرؤا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه ، وشرحه أبدية ماله والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق في ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ، فتركوا الكتابة والمكتوب ، وترقوا إلى معرفة الكتاب ، الذي أحدث الأشياء وكونها ، ولا يخرج عن ملكة شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ <sup>(١)</sup> ) فخلصت لهم التفرقة والجمع ، وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره ، وعقلت أنها عقلت توحيد ، فسبحان من يسرها لذلك ، وفتح عليها بما ليس في سمعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير ، لكن الصنف الثالث : لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موجدا لديه فيما لا يزال ، وهم المقربون ، والصنف الرابع : لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل ، وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم : فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ، فأما من عدت عنده فهو كافر إن كان في زمن الدعوة ، أو على قرب يمكن وصول علمه إليه ، أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا صنف مبعد عن مقام هذا الكلام ، وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقابدا في عقده ، أو عالما به ، والمقلدون هم الموام ، وهم أهل المرتبة الثانية في الكتاب ،

فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخار كل واحد أن يكون بلغ الناية التي أعدت لصفه دون النبوة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ . فالتقى لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون ، وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا الناية التي أعدت لهم ، وهم الصديقون ، وهم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والإثبات ، وعصور بين المبادئ والنابات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ، ودعوى غير صافية ، ثم لا بد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ، ومزيد شرح ، وبسط بيان ، تعرف منه باذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام واتقسام أهله فيه بحسب الطاقة والامكان ، بما يحريه الواحد الحق على القلب واللسان

## بيان

مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أبواب النطق المجرد أربعة أصناف ، أحدهم : نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يستقدوا معنى ما نطقوا به ، لما لم يعلموه لا يتصورن صحته ولا فساد ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأ ولا صوابه ، إذ لم يشعروا عليه ولا أرادوا فهمه . إما بعد مهمهم وقلة أكتراثهم ، وإما لنفورهم من التسب وخوفهم أن يكلفوا البحث مما نطقوا به ، أو يبدوا لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما يمس ذلك فإن التزموا فلا فلاح لأراحات أبدانهم العاجلة ، وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئاً من ذلك ، وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منفصلة وملاذهم مكدرة ، من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب ، أو يمرض عليه ولكنه يخش منه مخافة أن يتطلع منه ، على ما يشير عنه بعض ملاذه من الأطعمة ، والأشربة والأنكحة ، أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها ، أو يرتكيبها على رقيه ، وخوف أن يصيبه صورة ما يلزم ضرورة منها ، فيدع قراءة الطب رأساً ، سئل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به ، وهل اعتقدوه ؟ فيقولون لانعلم فيه ما يستمد ، وما دعانا النطق إلا لمساعدة الجماهير ، وانحرافاً لظهار القول في الجهم التفسير ، ولا نعرف

هل ماقلناه بالحقيقة من قبل العرف والتكبر ، ولا شك أن هذا الصنف الذي أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسألة للساكنين ، أحدم في التبر إذ يقولان من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لا دريت ولا تليت ، وسماء النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب والصنف الثاني : نطق كما نطق الذين من قبلهم ، ولكنهم أضافوا إلى قولهم مالا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ماقلت السبابة طائفة من الشيعة القدماء إن عليا هو الإله ، وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه ، وكانوا في زمنه غرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ، ثم أصحاب نطقه مثل هذا التكبر ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك « سَتَفَرِّقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الزَّانِقَةَ » والصنف الثالث : نطقوا كأنطق الصنفان المذكوران قبلهم ، ولكنهم آثروا التكذيب ، واعتقدوا الرد ، واستنبطوا خلاف مظاهر منهم ، من الإقرار وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ، فهؤلاء الناقضون الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله ( وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي عُتْيَانِهِمْ بِمَكْرٍ )<sup>(١)</sup>

والصنف الرابع : قوم لم يعرفوا التوحيد ، وما نشؤا عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ، ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خاطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين ، والإقرار بهما ، فقالوا لانعلم مقتضى هذا اللفظ ، ولا نقل معنى الأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا الرضا وغمهمو بلامه فسكنوا إلى ما قيل لهم ، ونطقوا بالشهادتين ظاهرا ، وهم على الجبل بما يمدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه ، من قبل أن يأتي منه استنهام أو تصور يمكن أن يكون له معه معتقد ، فبرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم

عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار . تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف في الحكم عند الله عز وجل ، قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الدهن وفرط البلادة أن يدعوا الى التطق ، فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ، ثم يدعوا إلى تهم للمنى بكل وجه ، فلايتأتى منهم قبول لما يمرض عليهم تهمه ، كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا في الوجود كثير ، ولأنهم على أحد مثله بخلود في النار ، ولابد أن هذا الصنف بأسره ، أعنى المخترم قبل تحصيله المقدم مع هذا البليد البعيد بعض مآذكره النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة ، الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته ، حين يقول تعالى : فرغت شفاعة الملائكة والتبيين ، وبقيت شفاعةي وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ، ويدخلون الجنة ، ويكونون في أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على للمنى

وحكم الصنف الأول ، والثاني ، والثالث ، أجمعين أن لايجب لهم حرمة ، ولايكون لهم عصمة ، ولاينسبون إلى إيمان ولاإسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة المالكين ، فإن عثر عليهم في الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين ، وإن لم يثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون : ( تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ <sup>(١)</sup> )

## فصل

ولما كان اللفظ المنتهى عن التوحيد إذا انفرد عن المقد ، وتجرد عنه ، لم يقع به في حكم الشرع منقمة ، ولأصاحبه بسببه نجاة ، لإلمدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، والبدان تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله ، حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى ، فهو لايمتثل ولايرفع في البيوت ، ولايحضر في المجالس ، أي مجالس الطعام ، ولاتشبه النفوس ، لإلامادام منظويا على مطعمه ، صونا على لبه ، فإذا أزيل عنه



بكسر أو علم منه أنه منطوق على فراغ ، أو سوس ، أو طعمه فاسد ، لم يصلح لشيء ، ولم يبق فيه غرض لأحد ، وهذا لا يخفاء في صحته ، والنرض بالتشيل تقرب ماضض إلى نفس الطالب ، وتسهيل ماعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق المثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ، ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه

## فصل

فإن قلت : فإلّا الذي صدّه هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر ، والبحث ، حتى تملوا ، أو من الاعتقاد حتى تخلصوا ، من عذاب الله ، وم في الظاهر قادرون على ذلك ، وما المانع الخفي الذي يمنعهم وأبدم عنه ، وم يملون أن ماعليهم كبير مؤنة ، ولا عظيم نفقة ؟

فاعلم أن هذا السؤال يفتح باباً عظيماً ، ويبرز قاعدة كبيرة ، يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ، ولكن لابد إذا وقع في الأسجاع ، ووعته قلوب الطالبين ، واشتافت إلى سماع الجواب عنه ، أن نورد في ذلك قدر ما يقع به الكفاية ، وتقع به النفوس بحول الله وقوته ، ثم ماسبق في العلم القديم لا تجري بخلافه المقادير ، فهم من ذلك بإرادة الله عز وجل ، جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلائية ، والشيم الذاتية ، والطباع السبعية ، وغلبتها عليهم والملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، وكذلك قال عليه السلام ، والقلوب بيوت تولى الله بناءها يده ، وأعداها لأن تكون خزائن علمه ، ومشارك مكنوناته ، ومهيطة ملائكته ، ومناشئ أنواره ، ومهابت نفحاته ، وبحال مكاشفاته ، ومجاري رحمته ، وهياها لتحصيل المعرفة به ، فتي كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ، ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله ، إذ هي الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه ، وهم الوفود منه بالخيرات والموصولون إليه وعنه ، بالباقيات الصالحات ، ولولا تلك الأخلاق المذمومة ، التي حلت فيهم وهي التي ذم الكلب لأجلها لما احترمت للملائكة بإذن الله عن حلولها فيها

وهي لا تخلو من غير تنزل به ، ويكون معها ، فحينما حلت حل الخير في ذلك القلب بمحلولها ، وإنما هي لها غيما وجدت قلبا خاليا ، ولو حينما من الدهر وزمنا نزلت عليه ، ودخلته ، وثبتت ماعندها من الخير عنده ، فإن لم يظهر على الملائكة مازجها عنه من تلك الأخلاق للذمومة ، بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة ، ثبتت عنده ، وسكنت فيه ، ولم تبرح عنه ، وعمرته بقدر سعة البيت وانسراحه من الخير ، فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها ، واستماتت بغيرها ، حتى يتلى البيت من متاعها وجهازها ، وهو الإيمان بالله والصالح ، وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرقت ذلك البيت طارقت شيطان ، ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك ، ويثبت فيه خلقا مذموما لا يوجد إلا في الكلب ، وهو متاع الشيطان ، قاله الله وطرده عن ذلك المل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى ، من قبل النفس ولم يجد الملك نصره ، وهو عزيم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ، ونهب المتاع ، وغرب البيت بعد صمائه ، وأظلم نوره ، وضاق بعد انسراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى ، وضل واعتدى

فإن قلت : فيزلي أصناف هذه الأخلاق للذمومة ، التي صدت هؤلاء الأصناف للذكورين عن اعتقاد الإيمان ، وفترت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم ، بكشف معاني التوحيد ، ومنعهم من الحلول فيها ، حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها فاعلم أن الأخلاق التي لا يمتنع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة ، والتي في قلوب هؤلاء منها معظمها ، وهي الطمع في غير خيبر ، والحرص على فإن حقير أما الصنف الأول : فإنهم رجسوا وخافوا أن تبدو لهم حصة ما يشغلهم عن لذاتهم وينقص طيبهم مارغبوا فيه من راحتهم ، وتكدر لديهم منال شهواتهم ، فأبقوا أمرهم على ما هم عليه

وأما الصنف الثاني والثالث : فصدتهم أيضا خوف وجزع ، وحرص على مآلئهم من تهويل أحدهم أن يزول ، ومؤانسة أضياعهم أن تتغير وتذهب ،

ومواساة لإيلافهم أن تقطع ، واستغفالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلزموه وفرارا من شرائطه ، وما يصعبه من الأعمال ، والوظائف ، إذ يمتثلوه ، والكلب ماذم لصورته ، وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الشهائس ، والجيزم من الصبر على ما يصد من الفضائل ، حتى احترمت للملائكة أن تدخل بيتا فيه كآب فإن قلت : فكيف آمن من كفر ، وأطاع من عصى ، واعتدى من ذل ، إذا كانت للشياطين لا تفارق قلب الكافر والماصي والضال ، بما تثبتون من الأخلاق للذمومة التي هي كلاب نابحة ، وذئاب عادية ، وسباع دارة ، وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة للملائكة ، وهي لا تدخل موصفا يحمل فيه شيء مما ذكرنا ، وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ، ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم .

فاعلم أن هذا يستدعي أصنافا من علم القلوب ، ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام للعلوم ، والقول والمضى في جواب ما سألت عنه ، أن للشيطان غفلات وللأخلاق للذمومة عذمت ، كما أن للملائكة لها من القلوب غيبات ، ولتواتر الخير عليها قرات ، فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ، ولوزمنا ما فر ودخل فيه ، وأراه ما عنده من الخير ، فإن صادف منه قبولا ، ولما عرض عليه من الخير نشوتا وتروما ، أورد عليه ما يعلل ويستغرق لبه ، وإن صادف منه صموا ، وسمع منه بمنزلة الشياطين استغاة وبالأخلاق السكلانية استمانه ، وحل عنه وتركه ، ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملك أوترغة شيطان فإن قلت : فأني يمت فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأي كلب أدخل بيت القلب ، كلب الخلق أو بيت اللين ، وكلب الحيوان

فاعلم أن الحديث خارج على سبب . ومناه وجهه أن المقصود بالأخبار هو بيت اللين ، وكلب الحيوان معلوم ، ولا يترك في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ما قلناه ويستنبط من مفهومه ما نبهناك عليه ، ويخطئ منه إلى ما أشرنا لك نحوه ، ولا نكرر في ذلك ، إذا دل عليه العلم ، وجهه الاستنباط ، ولم تجبه القلوب المستضائة

ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحدا ، ولا مجزع من تشجيع  
جاهل ، ولا من تغور مقلد ، فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل  
الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافى معناه ، ومشابه له من الجهة التي تصلح  
أن يمدىها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « رَبُّ مُبْتَلًى أَوْفَى  
مِنْ سَامِعٍ وَحَامِلٍ يَقُو إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »

## سؤال

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَدْخُلِ الْمَلَأِكَةُ بَيْنَنَا رَفِيه  
صُورَةٌ » وعلم السبب الذي جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يمدى من سببه ويترقى  
منه إلى مثل مارتق من الحديث الآخر ، فهذا كما قيل : الحديث شجون ، وأتبعنا  
هذا الباب مايقرب منه ويمدد علينا التخلص عنه ، نعم . يترقى منه إلى قريب من  
ذلك وشبهه ، ويكون هذا الحديث منبها عليه ، وهو أن الصورة المنعوتة قد  
اتخذت آلهة ، وعبدت من دون الله عز وجل . وقد نبه الله عز وجل قلوب  
المؤمنين على عيب فعل من رضي بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال  
غفرا عن إبراهيم عليه السلام حيث قال ( أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ ) والله خَلَقَكُمْ  
وَمَا تَحْمِلُونَ <sup>(١)</sup> فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه  
ماعبد من دون الله سبحانه أو ما حكمي به ما هو على مثاله ، ويترقى من ذلك المعنى إلى  
أن القلب الذي هو بيت بناء الله ليكون مهيأ للملائكة ، وعلا للذكر ، ومعرفة  
عبادته وحده دون غيره ، فإذا حل فيه مبدود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقر به  
الملائكة أيضا

فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى متافرة للملائكة لكل صورة مموما ، وما ذكرته  
تليلا ينبني أن لا يقتضى إلا متافرة ماعبد ، أو ما نعت على مثاله

قلنا: تشابهت الصور المنحوتة كلها في المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله، وهو مضارعة ذى الأرواح، ومانحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح، فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة  
فلن قيل: فإوجه الترخيص فيما رقم فى ثوب، فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها وإنما المقصود الثوب الذى رقت فيه  
فلن قيل: فإبال الثياب رخص فى عاكاتها بالتصوير، وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة

فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تملق عليها يوم فى السنة فاخر ثيابها، وحلى نساؤها، لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام، ولو كان ذلك مأسال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحمل لهم ذات أنواط، حتى أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى، كالملائكة وأنتمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعليّ رضي الله عنه؛ ولم يعبثوا مانحت على شكل النبات، فلم تبيد من هذه إلا ذات روح، فما أبعد عن دركها من حرمة الله تعالى إياها، فله الحمد وهو أهله.

## بيان

أصناف أهل الاعتقاد المجرى

وأما أهل الاعتقاد المجرى عن تحصينه بالعلم، وتوثيقه بالأدلة، وشذبه بالبراهين فقد انقسموا فى الوجود إلى ثلاثة أصناف  
أحدهم: صنف اعتقدوا مضنون ما ألفوا به، وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب، أسروا فى أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا، وذلك لقرط بدمهم وغلف طبائهم، واعتياص طرق ذلك عليهم، ويقع عليهم اسم الموحدين

ونحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، والسلف الصالحين رضي الله عنهم ، ثم لم يلبثنا أنه اعترض أحد إسلامهم ، ولا أوجب عليهم الخروج منه ، والمعروف عنه ، ولا كلفوا مع تصور فهمهم وبهمهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة ، وقراءة البراهين . وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ما هم عليه ، وهؤلاء عندي معذورون يمدحهم ، ومقبولون بما توافوا عليه من إفرارهم وعقدتهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه ( لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا <sup>(١)</sup> ) ولا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدى لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم ، وسلامة توحيدهم ، إن شاء الله عز وجل

والصف الثاني : اعتدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق ، واعتدت مع ذلك أنواعا من الخبايل ، قام في غيبتها أنها أدلة ، وطأتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع في هذا كثير ممن يشار إليه ، فضلا عن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعم عليهم تلك الخبايل بالقدح ، ويطلبها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ، ولا أسفوا لما يأتي به ، وترفعوا إلى أن يحاربوه لما يحلمهم عليه من سوء الفهم ؛ أو رداء الاعتقاد ، وعندهم أن جميع تلك الخبايل في باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فهم من يستقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر ، المطلع على العلوم ، ومنهم من يكون دليله خبراله ، ومنهم من يكون دليله بمض غمليات آية أو حديث صحيح ، ولمعري أنهم يبنون إذا صادفوا السنة باعتقادهم ، ولم يقموا في شيء من الضلال ، أن يتركوا على ما هم عليه ، ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ، لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة ، أو ترسخ في نفوسهم بدعة يمسر انحلالها ، أو يسموا في تكفير مسلم وتغليله ، بل هناك أسباب كثيرة وأعلم أن اعتقاد الخلائق وعليها من أغذية النفوس ، فمن رغب في أكتنيتها لم يقطع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوي به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمع همة إلى ما هو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيل ، وإنما يهلك من لا بلنة له ولا يبعدها ، أو يبعدها ولكنها تكون مشابهة ممن جاء بمضرة بدعة ، وسعوم

كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان ، وقلمنا بين الصنف الثاني والأول من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يستقدونه دليلا ، غير أنهم أوثق رباطا من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككم ربما شكوا ، وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء في الأغلب لا سبيل إلى انحلال عقودهم ، إذ لا يرون أنفسهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا

والصنف الثالث : أقرروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وندموا النظر أيضا ، ولكنهم لمدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ، ومعه من الدكاء والقطنة واليقظ ، مالم ينظروا لملعوا ، ولو استدلووا لتحقيقوا ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ، ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستقلوا الأعمال الموصلة إليه وتعموا بالعمود في حضيض الجبل ، فهؤلاء فيهم أشكال عند كثير من الناس في البداية ، ويتردد حالهم في النظر ، وهل يسمون عصاة أو غير ذلك ، يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والانتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف التكلين في الدوام على الإطلاق ، من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم

ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور ، أن الجهل لا يغلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان ، حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة ، حكم عليه بالسكون ؛ وكذلك الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ماله من الصفات ،

فلنا : فلئن صح ذلك في الصفات التي هي أعراض ، فقد لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الإيمان ، والكفر والهداية والضلال واللبدة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الأعراض ، وإنما ذكرت لك هذا في مرض الشك ، في شوب مانورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ، ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم ، وعجزهم عن العبادة ، ووجوب العبادة في الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ، لأن أولئك سلبوا الإيمان ممن لم يصدر اعتقاده

من دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة في صحة الإيمان وإثبا فروا عن الشناعة الظاهرة ، فشنوا عن الجمهور بهذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم أمثوا يقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما هجرت العامة عن سرد الدليل ، وتمظم العبارة عنه ، وأنه لا يجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ ، واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ، ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد ، لاعتقدوا وعدوا من هذه المعارف كثيرا ، ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك

واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية ، هكذا يقول : إنما افتقر الناس إلى النسبية ، ولم يمتحنوا على العبارة على مواضع السلام ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم في تقييمها بالزوال إلى مألوفه من العبارات ، وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه ، وسارعوا إلى الفينة ، ومثال هذا كمن نسي شيئا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه . وغفل عنه لأجل غيبتة ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لأنه كان مارقا بما غاب عنه ، لكنه ناس له أو غافل عنه ، ولولا عرفاته به ما وجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه . وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع علم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ، ليس من غرضنا في هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه في الإحياء أهل التناول والإغلال ، فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك في مراقي الزلف ، ما ينفي فيها بإذن الله عز وجل

## فصل

في بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى ، هو من تمة ماجري ، فلتعلم أن ما منهم صنف آلا وله على التقريب ثلاثة أحوال ، لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضروري ،



فانص الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان هل ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التفاوت كما سبق  
الحالة الثانية : أن لا يستقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف ، إذا قرء ولم تنصب إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمناً أو مسلماً أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حي لا غير ، وأمثال هذه التقديرات، ويخلو من اعتقاد باقي الصفات ، خلوا كاملاً لا ينظر بياله ، ولا يعتقد فيها حقاً ولا باطلاً ولا مواباً ولا خطأ ، ولكن التقدير الذي يعتقد من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره

الحالة الثالثة : أن يعتقد الوجود كإفناء ، والوحدانية والحياة ، ويكون فيها يعتقد في باقي الصفات ، على ما لا يوافق الحق ما هو عليه بما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذي يدل عليه العلم ، ويستلزم من ظواهر الشرع ، أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ، ومسلح خلاص ، ووصف إيمان ، أو إسلام ، وسواء في ذلك المصنف الأول والثاني من أهل الاعتقاد ، وبيقى المصنف الثالث على احتمالات النظر كما نبهناك عليه

وأما أهل الحالة الثانية : وهي الانقصار على الوجود للفرد ، أو الوجود ووصف آخر معه ، مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التي للكمال والجلال وأركانها ، فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم في صورة للسألة ما يخرج صاحب هذا المقعد عن حكم الإيمان والإسلام ، وللتأخرون مختلفون ، فكثير خاف أن يخرج من اعتقاد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبية صلى الله عليه وسلم من الإسلام ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان ، وضفاه النساء والأثيماء على هذا بلا مزيد عليه ، لو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أو قضاء أو كلام أو ما شاكل ذلك ، وهل له صفات منوية ليست هي هو ، ولا هي غيره .  
وبما وجدوا يجهلون هذا ولا يقولون وجه ما يخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقاد وجود الله ووحديته مع الإقرار بالنبوة ، من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم

قد رفع القتال والقتل ، وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام ، لمن قال ، لا إله إلا الله  
واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر ،  
وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا ممن قالها في صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها  
إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيات الأعمال البدنية ، والكف عن أذى المسلم ،  
ولم يلبثنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولاهل الله تعالى عالم يعلم ، أو عالم  
بنفسه ، وهو باق ببقاء ، أو باق بنفسه ، وأشياء هذه المعارف ، ولا يدفع ظهور هذا  
إلا مبادئ ، أو جاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب  
في الشرع ، أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه ، وأبى أن يذعن لتعلم  
ما زاد على ما عنده ، لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه ، والحكم عليه بالخلود في النار عسر  
جدا ، أو خطر عظيم ، مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله ، دخل الجنة ، ولملك  
تقول : قد قال في مواطن أخرى إلا بجمتها ، ثم تقول اعتقاد باقي الصفات التي بها يكون  
اعتقاد جلال الله جل وعز وكأله من حقها ، ثم هي من حقها عند من بلغه أمرها ،  
وسمع بها أن يستفهمها ، وأمان خلا من اعتقادها ولم يقوله أن يلقاها ولم يسمع بها  
فقيه مرى هذا النظر ، وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ ، وفي مثله يخاف أن يطلق  
عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول في الآخرة أخرجوا من  
النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من للثقال إلى القدرة والحرولة  
من الإيمان ، إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط ، فإيادك أن يكونوا هؤلاء  
وأما لهم المرادين ، لأن التدبير وقع في الإيمان لافي الأعمال

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان  
إذا لم يصحبها معرفة ، ولم يقصدها دليل ، فكيف بين قاته اعتقاد بعضها أو كلها

قلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ، ونهناك على بعد أهله عن وجه  
الحق فيه ، وأنهم أرباب تمسك ، ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك ، لبدا له  
أنه تسبب إلى ما يظهر له من تصوره عن معرفة ، شرطها في إيمان غيره ، ولآثر من حسه  
الركون إلى ما رأياه أولى من رأيه وأحق بالصواب ، ولعل من مذهبه ثم بعد ذلك تراهم

حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم، لم يبقوا اسم الكفر عليهم، ثم يرضوا على الاستجابة إن كانت من مذهبه، ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق، فإذا تأملت هذا لم تحف عليك عيب مآثله، وتقص مآثله إليه، فلنرجع إلى مانحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل أما أرباب الحالة الثالثة: وهي اعتقاد البدعة في الصفات أو بعضها، فإن حكنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا، وإسلامهم، حققنا أسر هؤلاء فيما اعتقدوه إذ لم يقيموا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إصصال المذم، لأن هؤلاء قد حصل لهم في المقدم ما هو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم، وأصيبوا فيما وراء ذلك، فإن أمكن ردمهم في الدنيا، وزجرهم عنه، إن أظهرنا المنع عن الإفلاح، والرجوع بالمقوية المؤلمة، دون قتل كان ذلك، وإن فاتوا بالموت لم تقصرم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم، والله أعلم بالناجى والمهلك من خلقه، والطيع والماسى من عباده هكذا ينبغي أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بين الرافة والرحمة، ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده، فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين، وفيهم معنى قوله عز وجل (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا<sup>(١)</sup>).

فإن قلت: وابن أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في القسدية «إِنَّهُمْ خَبْرُ مَذْهَبِ الْأُمِّيَّةِ» وقوله صلى الله عليه وسلم «سَتَفُوقُ أُنْسِي إِلَى ثَلَاثِ وَسِتِّينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» وقال عن قوم يخرجون على حين فرقة من الناس «يَقُولُونَ يَقُولُ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُّ الْبَهْمُ مِنَ الرِّمِيَّةِ» والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه، مما توجب في الظاهر تكفيرهم بالإطلاق

فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء، فقد أبى عليهم دينهم، وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم، وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه، فليقع التعاكم عند العالم الأكبر

أُويد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم . فهو عليه الصلاة والسلام حين قال نبوس هذه الأمة أننا فهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق ، وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار ، فما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال يعرفون من الدين كما يعرف السهم من الرمية ، فقد قال متصلا بهذا القول ، وتمازى في الفرق ، وما موضع هذا التمازى من المثل الذي ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى ، وتذكر شيئا وتذلل عن غيره ، عليك بالعدل تكن من أهله ، واستعمل التفتن تشاهد المجائب المعجبة ، وتفهم قول الله ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا <sup>(١)</sup> )

## فصل

ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضميما ، وتفرده عن المعرفة قريبا ممن رآه ألقى عليه شبه القشر الثاني من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صونا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طامعا للمحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجملة فهو لمن لا شيء معه خير من فقده ، وكذلك اعتقاد التوحيد ، وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضميما فهو في الدنيا والآخرة ، وعند لقاء الله عز وجل خير من التمثيل والكفر ومتى ركب أحد هذا فقد وقع في أعظم الحرج والنكر

## بيان

أبواب المربة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام في هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود  
أحدها : أن يتكلم في الأسباب التي توصل إليه ، والمسالك التي يمر عليها نحوه ،  
والأحوال التي يتغلغل بحصوله كما ندره المزمع الملبى ، واختار ذلك ورضاه وصماه  
الصراط المستقيم .

والحد الثاني : أن يكون الكلام في عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يسرور  
السالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه ، وانكشافه له بالمشاهدة  
والحد الثالث : في ثمرات ذلك التوحيد وما ياتي أهله به ، ويظلمون عليه بسببه ،  
ويكرمون به من أجله ، ويتحققون من فوائد المزيد من جهته

أما الحد الأول : فالكلام عليه ، والبيان له ، والكشف لدقائقه ، وتذلل للصغير والكبير  
مأمور به ، مشدد في أمره ، متوعد بالنار على كتمه ، فيه بعث الأنبياء ، ومن أجله أرسل  
الرسول ، وبيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناه وحيه المسحف والكتب  
وليقيم التفقه في القلوب بتحقيقه وتصديقه ، أيدت الرسل بالمعجزات ، والأولياء والأنبياء  
بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وعليه أخذ الله الميثاق على  
الذين أوتوا الكتاب ليبينه للناس ولا يكتنونه ، وفيه أنزل الله ( يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ  
مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ <sup>(١)</sup> ) وإياه عني رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بقوله « مَنْ سِئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكُتِمَ الْجَمُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُلْجِمُ  
مِنْ نَارٍ » وجميع ذلك محصور في اثنتين العلم بالمبرة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على  
آيتين الحرص الشديد ، والنية الخالصة ، والسر في تحصيلهما اثنان ، نفاقة الباطن ،  
وسلامة الجوارح ، ويسمى جميع ذلك بعلم الماملة

وأما الحد الثاني : فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيها  
بأمر تارة ، وبالتصريح أخرى ، ولكن على الجملة بما يناسب علوم الطواهر ، ولكن  
يشرف بذلك الريب الخاذق على بعض المراد ويضم منه كثيرا من المقصود ، ويتكشف  
له جُل ما يشار إليه إذا كان سالما من شرك التعصب ، بعيدا من هوة الهوى ،  
نظيفا من دنس التقليد

وأما الحد الثالث : فلا سبيل إلى ذكر شيء منه ، إلا مع أهله بسد عنهم به على  
سبيل التذكار ، لا على التعلم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه ،

لأن الحد الأول فيه محض النصح للخلق ، واستنقاذهم من غمرة الجهل ، والتنكيب بهم من مهادى المطب ، وقودهم إلى معرفة هذا المقام ، وما وراءه مما هو أعلى منه بما لهم فيه الملك الأكبر ، وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان ، وأقيم عليه واضح البرهان ، وهو يومئذ الطريق ، وأول سبيل السعادة ، فن عجز عن ذلك كان عن غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالنائب عليه الوصول ، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ومن وصل شاهد ، ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ، ونهاية المرغوب والمحجوب ، ومن قعد حرم الوصول وما بعده ، ( فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا <sup>(١)</sup> ) ومن غاب لم تنفذه الأخبار ؛ ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأبضا فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة ، وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب ، كان فيه زيادة محنة ، وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لثراية العلم ، وكثرة غموضه ودقة معناه ، وعلوه في منازل الرفعة وبعمده بالجملة والتفصيل ، من جميع ماعهد في عالم الملك والشهادة ، وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل ما نشئوا عليه ، ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ، ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل ، كما قال عز وجل ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ <sup>(٢)</sup> ) وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف شيء له من علمها وحقائقها في الدنيا ، وأبضا فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورهما إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ، ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتباعد ، فلهمنا أسروا بالكتم إشفافا على من حجب من العلم ولهمنا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لَا تَحْدُثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ فَيُؤْثِرُوكُمْ أَوْ يُبَدِّلُوا أَنْ يُكَذِّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَا حَدَّثَ

أَحَدُكُمْ قَوْمًا بِمَحْدِثٍ لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَأَنَّ عَلَيْهِمْ قِنْتُةٌ ، وعلى هذا يخرج قول المشايخ : إفساء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم فلو باعوا واعية الخير ، إنه ولي كل صالح ، وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه في كتب الرواية والدراية ، ومثلت منه الطروس ، وكثرت به في المحافل الدروس ، وهو غير محبوب عن طالب ، ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجهال به أن يتلموه ، والعلماء أن يذلوه ويعلموه ، فلا نبيد فيه ههنا قولاً ، ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة ، وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تمديد إلى محدودات الشرع فلننثن العنان إلى الكلام بالذي يليق بهذا الحال والمقام ، فنقول :

أرواب المقام الثالث في التوحيد ، وهم المقربون ، على ثلاثة أصناف ، وعلى الجملة فكلمهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لأنحة ، وعانوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة ، وسمعوا جميعاً تدل على توحيده وتقريده راشدة واضحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بنيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بحفي أسرارهم ، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، واقتسامهم في تلك المعرفة كاتقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلاً ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر ، أو كثيراً منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلثم فيه ، متوقف على الانهماك في قراءته ، ومن حافظ في تلاوته غير متوقف في شيء منه ، وكلهم ينسب إليه ويمد في المشهد والمغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضاً منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات ، أو كثير منها ، وربما كان فيها يقرأ من الصفحات ما ينم عليه ، ومن قارىء لجميعها متفهم لها ، لكن بنوع نعب ، ولزوم فكرة ، ومداومة عبادة ، ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها ، نافذ البصيرة في رؤية حقيقتها ، مفتوح السمع ، تناطقه الأشياء في فراغه وشغله ، وبحسب ذلك اختلف أحوالهم ، في الخوف والرجاء والتبضع والبسط والبقاء والبقاء ولا مزيد على هذا المثال ، فهو أصلح لنوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال ،

وعلمت لم يسمي أهل هذه المرتبة مقرين ، فذلك ليدعم عن ظلمات الجبل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ، ولأقرب من المعارف العالم ، والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز في لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعقلين هما في هذا الفن أحد الحالتين ، عماء البصيرة ، وانطماس القلب ، والخلو من معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعد مأخوذ من البعد عن محل الراحة والمزلق الواجب ، وموضع العماره والأنس ، والانتقطاع في مهامه القفر وأمكنة الحوف ، ومظان الانفراد والوحشة

والحالة الثانية : عبارة عن اتقاد الباطن ، واشتغال القلب ، وانتساح الصدر ، بنور اليقين والمعرفة والمقل ، وعماره البيت بمشاهدة ماغلب عنه أهل الغفلة واللغو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل

لملك تقول أرى بعض آئمة الكلام عن حقوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولا سهم ، وأراهم عند الجمهور في الظاهر . وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى ، وقادة الخلق إلى مرشدتهم ، ومجاهدون أبواب النحل المردية . وللعل الضالة المهلكة ، وقد سبق في الإحياء أنهم مع العوام في الاعتقاد سواء ، وإنما فاروقهم بإحسانهم حراسة عقودهم

فاعلم أن مارأيت في الإحياء صحيح ، ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ولا ينسب عن الشاذين ، إذا كانوا منصفين ، وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط ، لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فاروقهم بالجدل عن الانخرام ، والجدل علم لفظي ، وأكثره احتيال وهمي ، وهو عمل النفس ، وتخليق الفهم ، وليس بشرة المشاهدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والنث ، وشاع في حال النضال إيراد القطعي وما هو حكمه من غلبة الظن ، وإبداء الصحيح ، وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه ، إنما هو علم التوحيد ، وفهم الأحوال ومعرفة باليقين التام ، والدلم المضارع للضروري ، بأن لا إله إلا الله ، إذ لا فاعل غيره ، ولا حاكم في الدارين سواء ، ومشاهدة القلوب لما يجيب من التوب ، ومن أين للنازلي على الناظر ، وساطع الكلام مثل هذا المقام



بل هو من خدام الشرع ، وحراس متبعية من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ، ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأوارء ، ومشارك الاستبصار والمدار في أوقات الضرورات والاختيار ، وبين ما يراد لوقت حاجته إن دعت وخصام صاحب بدعة ومناظرة ذي منالمة بما ينص على ذوى اليقين الميئس ، ويشغل الذهن ، ويكدر النفس ، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع علمه فيما مضى من الزمان إليهم ، لا نقول في أكثرهم إنهم لا يحسنون غيره ، ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواء بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ما ذكرنا ، فهم نصرأ لكنهم لم يبدوا من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس ، والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم في وقتهم من البدع ، وظهر من الأهواء وشاع من تشنيت كلمة أهل الحق ، وتجراً العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم ، والمنازعة لهم ، والسمي في اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراءها وإهلاك ذوى الكيد في احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات ، وكشف أحوال أرباب المقامات ، ووصف فقه الأرواح والنفوس ، وتقمم كل ناطق وجامد ، فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص ، وهم مكفيون المؤنة ، والمامة أحق بالحفظ ، وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد ، والتصدق على ذى بلنة من العيش ، فكيف إن كان عن غناء ، وأيضا فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء المارفين مع أهل الإلحاد والزنيغ ، لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ منع أهل المناد ، والتمادي على النبي وسبيل الفساد ، فكما لا يقال السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لا يقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأمصار ، ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في النالاب إلا علوم آخر ، كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم ، وذلك لنلبة الجهل على أكثرهم ، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم عن ذكرنا لجهلت العبارات ، وانقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين ، بنير طريق علم الكلام

والجندل ، يتحلون بالمقامات المذكورة ، وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذهم عنهم  
الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ،  
لما خافوا دروس الإسلام ، وأن يضعف ويقل أهله ، ويرجع البلاد والعامه إلى الكفر  
كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم ، والمبعوث لدعوة  
الحق عليه السلام ، وأوأن الجهاد والرباط في ثمر العدو والغزو في سبيل الله ، وضرب  
وجوه الكفر بالسيف ، وإدخال الناس في دين الله ، أولى بهم من سائر الأعمال ، وأحق  
من تدريس العلوم كلها ، ظاهرا وباطنا ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على  
الأقل ، وهم في حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى  
الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عنه ، ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن  
مشتغلا بهم ، ذاذا لهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مرادهم وصلاحهم ، كان  
الهلاك إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك أن فسد حال العموم للخصوص قدر ،  
ولا يظهر لهم نور ، ولا يتقربون على شيء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بصامة ،  
واقدر كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الريغ  
والضلال والهلاك أشد ، واللفظ بهم في تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان  
أهل القوة وذوى البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله  
عليه وسلم يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فيما يمنه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف  
أن يفرض على أمته ، حين علم من أكثرهم الضعف ، ولم يكره لهم وفيه زيادة الأجر ،  
وكثرة الثواب والترب من الله تعالى ، ولكن خاف عليهم أن يقموا في تضییع الفرض ،  
فيكون عليهم كغل من الوزر ، ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان  
رضي الله عنه يقوم فلم ينهه ، ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه ، حتى  
جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه ، وقال لعائشة رضي الله عنها  
« لَوْلَا حِدَاثَانُ عَهْدِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ رَدَدْتُ عَلَى قَوَاعِدِ إِزْرَائِيْمِ » وقال  
للانصار « أَمَا تَرَوْنَ أَنَّ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاهِ وَأَتَبِيعُ قَدْ ذَهَبُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ » ومع ذلك فالذي حفظ عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة

من بعده ، وفتناه الأمصار ، وأعان التكتلين من الإشارات لتلك العلوم للذكورة  
كثير لا يحصى ، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم ، ووقفه مثلهم فانصد تجسد ، وتصد  
لاقتباس الحديث والتواخي ومصنفات العلوم توفى ( وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ  
خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ <sup>(١)</sup> )

## بيان

المرتبة الرابعة

وهو توحيد الصديقين : وأما أهل المرتبة الرابعة ، فهم قوم رأوا الله سبحانه  
وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في الدارين غيره ، ولا اطعموا  
في الوجود على سواء ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا  
من المعرفة في هجرام ، فكان هجير أبي بكر الصديق رضي الله عنه لإلهه إلا الله ،  
وكان هجير عمر رضي الله عنه أكبر ، وكان هجير عثمان رضي الله عنه سبحانه الله ،  
وكان هجير علي رضي الله عنه الحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر  
لم يشهد في الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصديق وسمي به كما علمت ،  
وكان يقول : لا إله إلا الله ، وكان عمر يرى مادون الله صنيرا مع الله في جنب عظمته ،  
فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله تعالى ، إذ الكل قائم به  
غير معرى من نقصان والتقام بنيره مملول ، فكان يقول : سبحانه الله ، وعلي لا يرى  
نعمة في الدفع والرفع والمطاء والمنع ، في المكروه والمحبوب ، إلا من الله سبحانه ، فكان  
يقول : الحمد لله ، وأهل هذه المرتبة على الجملة في حال خصوصهم فيها صنفان ، يريدون  
ومرادون ، فالرديدون في الغالب لا بد لهم من أن يحلوا في المرتبة الثالثة ، وهي توحيد  
المقرين ، ومنها ينتقلون وعليها يمبرون إلى المرتبة الرابعة ، ويتكئون فيها ، ومن أهل  
هذا المقام يكون التقطب والأوتاد والبلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة ، يكون التقباء  
والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم

فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحادوث والتقديم ، والمألوه والإنه ،

ثم ندعم أن الإله واحد ، والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا ، أذلك على طريق قلب الأعيان ، فتعود الحوادث قديمة ، ثم تتحد بالواحد فترجع هي هو ، وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما ينفي عن إطالة القول فيه ، وإن كان على طريق التخيل للولي لا حقيقة له فكيف يحتاج به ، أو كيف يمدّ حالا للولي أو فضيلة لبشر

الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ، ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعتزى الولي تخييل فتخيّل ما لا حقيقة له ، وإنما هو ولي محبتي ، وصديق مرزقي ، خصه الله تعالى بمعرفة على سبيل اليقين ، والكشف التام ، وكشف لقلبه ما لو رآه يصوره عبانا ما زاد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه ، فما أطمّ مصيبتك وما أعظم الزاء فيك ، حين فتشت الخلق بمبارك ، وكلهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لاسبب لإنكارك إن صح ، إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحدا ما لم ترزق ، أو ينحصر من المعرفة ما لم تنحصر فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لا يخرج منه ، وما اطلع عليه لا ينسب منه ، وما ذكره من ذلك لا ينسأ ولا في حال نومه وشغله ، وهذا موجود فبين كثر اهتمامه بشيء ، وثبت في قلبه حاله إنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده في شغله ونومه كما لا يفقده في يقظته وفرغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي المتكبر في رتبة الصديقين مخلوقا كان حيا أو مجادا صغيرا أو كبيرا ، لم يره من حيث هو هو ، وإنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة ، وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ، ثم أدام القهر عليه في الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهورة آثارها في المخلوقات ليست لتبصر الموصوف الذي هو الله عز وجل له ألهمت الولي عن غيره ، وصار لم ير سواه ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكر في سر القلب وخير المعرفة ولا بالإدراك في ظاهر الحس ، دون ما كان موجودا به وصار عنه قانيا ، فبعد هذا على من أصبح أفت أن لا يحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو المهيّ العظيم

## فصل

وأما معنى إنشاء سر الربوية كفر فيخرج على وجهين أحدهما : أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفتي وتعظيما لما ارتكبه

وبتراض هذا بأن يقال لا يصح أن يسمى هذا كفرا ، لأنه ضد الكفر ، إذ الكفر الذي سمي على معناه سائر ، وهذا المفتي للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ، والإعلان من الكتم ، واندفاع هذا حين بأن يقال ، ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر ، وارتكاب النهي ، فمن رد إحسان محسن ، أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجنتين إحداهما : من جهة الاشتقاق ، ويكون إذ ذاك اسما ينهي عن وصف

والثانية : من جهة الشرع ، ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد لشكر المنعم ، فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ، ولا يفرنك المبارات ، ولا تحجبك التسميات ، وتقطعن لخداعتها ، واحترس من استدراجها ، فإذا من أظهر ما أمر بكتمه كان كمن كتم ما أمر بنشره ، وفي مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع ، قوله صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا كُمْ قَسَلَةٌ عُقُوبُهُمْ » وفي ارتكاب النهي عصيان ، ويسمى في باب القياس على المذكور كفرا بالبدن ،

وقسمة أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء فرأس الإنسان تشابه سماء العالم ، من حيث إن كل ما علا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم ، من حيث إن الكواكب أجسام مشقة تستمد من نور الشمس فتضيء بها ، والحواس أجسام لطيفة مشقة تستمد من الروح ، فيضيء بسلك المدركات . وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضاء العالم ، ونور نباته ، وحركة ضواريه . وجوانه

وحياته ، فيها تظاهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل في الظاهر نحو أجزاء بدنه ، ونبات شجره ، وحاول حياته ؛ وجمعت الشمس وسط العالم ، وهي تطلع بالتهار ، وتغرب بالليل ، وجمعت الروح وسط جسم الإنسان ، وهي تنيب بالنوم ، وتطلع باليقظة ونفس الإنسان تشابه القمر ، من حيث إن القمر يستمد من الشمس ، ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس ، والروح خالف النفس ، والقمر آية محو ، والنفس مثلها ، ويمحو القمر في آن لا يكون ضياؤه منه ، ويمحو النفس في آن ليس عقلها منها ، ويمتري الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، ويمتري النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهور ، وفي السالم نبات ومياه ورياح وجبال ، وحيوان ، وفي الإنسان نبات ، وهو الشجر ، ومياه وهو المروق ، والدموع والريق والدم ، وفيه جبال ، وهي العظام ، وحيوان وهي هوام الجسم ، خُصِلت المشابهة على كل حال ، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ، ومنها ماهي لنا غير معروفة ، ولا مملوئة ، كان في استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه ما يحصل به لقوى القول تشبيه وتمثيل

فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجمعت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا فلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف في ذلك

فأقول : فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على ما يعلم لا على ما يحفل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان

فإن قلت : فقد سبق في الإحياء أنهما شيء واحد ، وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح ، فالذي سبق في الإحياء ورأيت في هذه الإجابة ، وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن ، وذلك أن لها معنى يسمى بالروح تارة ، وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ، ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر يتفرد باسم النفس فقط ، ولا يسمى بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام في أحد وجوبي الإضافة التي في ضمير صورته ، والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به ، فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر ، سميع بصير ، عالم مرید ، متكلم ، فاعل ، وخلق آدم عليه السلام ، حيا ، قادرا ، عالما ، سميعا ، بصيرا ، مریدا ، متكلمًا ، فاعلا ، وكانت لآدم عليه

السلام صورة محسوسة ، مكنونة مخلوقة ، مقدرة بالفعل ، وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة تلفظ فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الأسماء المقفوظ بها لا غير ، وفراراً أن تثبت صورة لله تعالى ، ويطلق عليها حالة الوجود ، فافهم هذا ، فإنه من أدق ما يقرع سمك ، ويلج قلبك ، ويظهر لمقلتك ، ولهذا قيل لك ، فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود ، تكن مشبها مطلقاً ومعناه تيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين ، على نفسك بالتشبيه معتقداً ، ولا تنكر كما قيل : كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلب بالتوراة ، أي تلبس بدينهم وتريد أن لا تنسب إليهم ، أي لا تقر التوراة ولا تعمل بها ، وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة ، منزهاً عجللاً ومقدساً مخلصاً ، أي ليس تعتقد من الإضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعاني ، تلك المعاني للسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال ، وقد حفظ من الشبلي رحمة الله عليه ، في معنى ما ذكرناه من هذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث ، فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات ، لا على الذات .

فإن قلت ، فكذا قال ابن قتيبة في كتابه المعروف بتناقض الحديث ، حين قال هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه في ذلك ، وأقيمت عليه الشناعة به ، وأطرح قوله ، ولم يرصنه أكثر العلماء وأهل التحقيق .

فاعلم أن الذي ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضاً عنه ، وأبلغ في الإنكار عليه . وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذي أئمتنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهل عن تعقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة ، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات ، وهو أثبتنا حالة للذات ، فأين من لب الجوز ، تشور تفرقع ، والذي ينلب على الظن في ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التي أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود ، بتأييد الله تعالى بالصبر عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف وعلاء الدهش ، فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو

موجب عند ذوى القصور تشبيها ، وبين التأويل الذى ينفىه ، فأثبت المنى المرغوب عنه ، وأراد تقي ما خاف من الوقوع فيه : فلم يأت له اجتماع ما رام ، ولا نظام ما اقترف فها هو صورة لا كالصورة ، ولكل سائطة لاقطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه

## فصل

ومنى قاطع الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد ، والوادى المقدس عبارة عن مقام التكليم موسى عليه السلام ، مع الله تعالى فى الوادى وإنما قدس الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، وأقيم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه غذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه وإلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ الموضح لا تأثير لها وإنما هى ظروف

## فصل

ومنى فاستمع أى سر قلبك لما يوحى ، فملكك نجد على الناوهدى ، وملكك من سرادقات الزنتادى بما نودى به موسى ، إني أنا ربك ، أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد الزيد ، وحوادث الصدق ، ونماز المعارف ، وارتياح سلوك الطريق ، وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب ، كما يقول أدن الرأس ، ووسع الأذان ، وما يوحى أي ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك ، أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة حقيقية ، أو ضرب مثل مع العلم بتأويله ، ومعنى لملك حرف ترويح ، ومعنى ان لم تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال ، أو إضافة دعوى إلى النفس أو نوع بما وصلت إليه ، واستعداد به عن غيره ، وسرادقات الجدد ، هي حجب الملكوت ، وما نودى به موسى ، هو علم التوحيد التى وسعت العبرة اللطيفة عنه بقوله حين قال له ياموسى إني أنا الله لا إله إلا أنا ، والنادى بلسه أزلا وأبدا ، هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أنزل الأزل ، قبل أن يخلق موسى لا إلى أول ، وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما لا يتغير هو ، إذ ليست صفاته المنوية لغيره ، وهو الذى لا يحول ولا يزول ، وقد ذل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم ، حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة



وعياذ بالله من أين يحتمل هذا القول ما حلوه من المذهب اليسوا وم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر للولاية كبيرة وفوض إليه صلا عظيما ، وجاه حياه خطيرا ، وهو ينادي باسمه أو بأمره بما ينشئ من أمره ، ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى ، لم يشارك المولى المخلوع عليه ، والمفوض إليه في شيء مما ولي وأعطى ، ولم تجب له بسماعه ومشاهدته أكثر من حظوة القربة ، وشرف الحضور ، ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة لمخاطب بالولاية ، والمفوض إليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل في طرقة ذلك ، بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذي يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ، فلا يجتمع أن يسمع ما يوحى لنبيه من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام ، وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودا بذلك ، بحلوه في هذا المقام الذي هو المرتبة الثالثة فقط ، بل قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضغافا ، فجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون في أطرافه لأن هذا المقام الذي هو المرتبة الثالثة ، ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مبادئها أقرب منه إلى غايتها ، فمن لم يفهم درجات المقام ، وخصائص النبوة ، وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها ، والطمع على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، غاسب بظنه ويقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه خطاته ، غلما منه يقظاته وغفلاته (مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ<sup>(١)</sup>)

فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ، ونداء كلامه ، والله تعالى يقول (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ۚ إِنَّكَ الْبَاقِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ عَلَىٰ بَعْضِ مَنُومٍ ۚ كَلَّمَ اللَّهُ نُوْحًا وَقَرَّبَهُ نَحْنُ ۚ وَكَانَ الْبَاقِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّضْفِيلِ ، وهذا لا يصلح أن يكون لنبيه ليس بنبي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد

بأدر الشك المارض في مسالك الحقائق فنقول : ليس في الآية ما يرد ماقلنا ، ولا يكسره  
لأننا ما أوجبنا أنه كلمة قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدا

وانما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه ليس من يسمع  
كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمة وقد حكى أن عاقبة من بنى  
إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذى خاطب به موسى حين كلمه ثم اذا ثبت ذلك لم يجب  
لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة في نبوته ورسالاته على أن أقول نفس ورود  
الخطاب إلى السامعين من الله تعالى ، يمكن الاختلاف فيه فيكون النبي المرسل يسمع  
كلام الله تعالى عز وجل القائل القديم ، بلا حجاب في السمع ، ولا واسطة بينه وبين  
القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة ، مما يلقى في روعه ، ومما ينادى به في  
سمعه أو سره ، وأشبه ذلك كما ذكر أن قوم موسى عليه السلام ، حين سمعوا كلام  
الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتا كالشبور وهو القردان ، فإذا صح ذلك فيبتاين  
للقائمت اختلاف ورود الخطاب ، فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذى هو صفة له بلا كيف ولا  
صورة نظم الحروف ، ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضا ، سمعوا صوتا مخلوقا جعل  
لهم علامة ودلالة على صحة التكليم وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضرورى ، وسمى  
ذلك الذى سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهي الحروف المطلوبة  
القرآن كلام الله تعالى إذ هي دلالة عليه

فإن قلت : فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته  
وفقه أمره ونهيه ، وفهم مراده وحكمه ، يلحقه العلم الضرورى فيها أرى بأنه الشيء  
المرسل ، إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دورته ، ولو كان عوضا منه آخر عنه ومقامه مقامه  
فاعلم أن الذى أوجب متورك ودوام ذلك ، واعتراضك على المعلوم بالجهل ، وعلى  
الحقائق بالخيال ، أنك بعيد عن غور المطالب ، بعيد في شرك الماخطب ، بعيد صوب  
الصوت ، بعيد صخب السحاب ، إن الذى استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة  
سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر ،  
وبينهما ما بين من استحق التواجة بالخطاب والقصد به ، وبين من لا يستحق أكثر من

سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما ، مما يوجب تقورا ، وتباين ما بينهما ، فإن فهمت الآن وإلا فقد عني لاندري بمجال .

فإن قيل : ألم يقل الله تعالى ( فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ <sup>(١)</sup> ) وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب ، وعلم ما في المكوث ومشاهدة الملائكة ، وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل التيوب ، فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟

قلنا : في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق ، والمشاهدة الصورة ، أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ، ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة أو حمل بما جاء به ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه ، وقال « إن يكن منكم محدثون فمعرض » أو كما قال « المؤمن ينظر بنور الله » وفي الترمذ المزني ( قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ <sup>(٢)</sup> ) فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قدر عليه ، ولم يكن نبيا ولا رسولا ، وقد أنبا الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية ، وصدقه فيه حين قال ( فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلًا دَكَّاهُ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا <sup>(٣)</sup> ) وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور في الآية ، وإن رام أحد المدافعة بالاحتياط لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر ، وما أنبا الله سبحانه ، وأظهر عليه من العلوم الغيبية ، وهو بمد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول ( إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ <sup>(٤)</sup> ) فدل على أن في الآية حذف مضاف معناه ما تقدم

وانظر الى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه ، أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهي من غيب الله ، وشواهد الشرع كثيرة جدا ، يمجز

التأويل ويلهو للماند ، هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما تقتل الكفاة ويحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي ، الذي بواسطته تنجلي المعلوم وتنكشف النيوب ، فني لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة أو إلقاء معنى في روع ، أو ضرب مثل في يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عبادي في يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا ، ويكون فائدة الإخبار بهذا في الآية ، الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لا تنصل إليها نفسه ، ولا مخلوق سواء إلا بالله تعالى ، حين أرسل إليه الملك بذلك ، وبهتة الله حتى يترأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق على أنه لا يرد عليه شيء من علم ، أو معرفة ، أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيتته ، ويحتمل وجه آخر ، وهو أن يكون معناه والله أعلم ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى ، يريد من سائر خلقه ، وأصناف عبادي ، ويكون معنى من رسول أي من يد رسول من الملائكة

## فصل

ومعنى ولا يتخطى رقاب الصديقين إن قلت : ما الذي أوصله إلى مقامهم ، أو جاوز به ذلك ، وهو في المرتبة الثالثة حال المقر بين ما وصل حيث ظننت ، فكيف يجاوزه ؟ وإعنا خاصة من هو في رتبة الصديقين عدم السؤال ، لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصة من هو في رتبة القرب كثرة السؤال ، طمعا في بلوغ الآمال ، ومثالمها فيما أشير إليه مثال إنسانين دخلا في بستان ، أحدهما : يعرف جميع أنواع نبات البستان ، ويتحقق أنواع تلك الثمار ، ويعلم أسماءها ومنافعها ، فهو لا يسأل عن شيء مما رآه ، ولا يحتاج إلى أن يخبر به ، والثاني لا يعرف مما رأى شيئا ، أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقي ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال مما يمد عنه حاله ويختلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما في ذلك الوقت أو الأبد

وتلك الماوم التي كانت لاتنال بالكسب ، وإنما تنال بالمنع ، فقبل له لاتنخط رقاب  
الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لا يخطر به ، وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم  
فارجع إلى الصديق الأكبر ، فانتد به في حاله وسيوته ، فساك ترزق مقامه ، فإن لم يكن  
فتبقى على حالة القرب وهي تنال الصديقية ، فهذا منها

## فصل

ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى ، إما أنه لما وصل  
إليه بالسؤال صرف إليه مالات به من الأحوال ليحكم ما بقى عليه من الأعمال بما قال  
المصطفى صلى الله عليه وسلم للذي سأله أن يعلمه غرائب العلم ، « إِذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا  
هُنَاكَ وَتَعَدَّ ذَلِكَ غَرَائِبَ الْعِلْمِ » وأما صفة انصرافه فإنه نهض بالبحث  
ورجع بالتذكر وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام في ذلك الموضع بعد  
وصوله إليه فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ، ومسكنه عالم الملك ، ولم يفارقه بعد الموت  
وطول التيب عنه لا يمكن في العادة ، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله  
تعالى أراد عمارة الدنيا ، وقد سبق في علمه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ومعنى قول أبي سليمان  
الداراني لو وصلوا ما رجعوا إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص  
والذي طمع الناظر في الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه إذا لم يصلح لذلك  
ولم يصف ولم يخلص أعماله

## فصل

ومعنى أن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيبا ، ولا أكل  
صنما ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا ، يناقض الكرم الإلهي ، وإن لم يكن  
قادرا عليه كان ذلك عجزا ، يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه  
اختيارا ، وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال ادخل إخراج العالم من  
الصمد إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرنا ، وما الفرق بينهما ، وذلك لأن تأخيرها بالعالم

قبل خلقه عن أن يخرج من المدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل فإذا فعل فليس في الإسكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ، ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم بحجاري أفضاله ، ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه ، بعلمه ، وإرادته ، وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ، ونهاية الاتقان ، ومبلغ جودة الصنع ، ليكمل كمال ما خلق دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً على كماله في صفات جلاله الموجبة لإجلاله فلو كان ما خلق ناقصاً بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ، ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود من خلقه ، كما يظهر على ما خلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ماصنع من النقصات قطعاً ، وما يحمل عليه من القدرة على أكل منه ظناً ، إذ خلق للخلق عقولاً وجعل لهم فهماً ، وعرفهم ما أكن ، وكشف لهم ما حجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكأله دلهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرم بمحزّه ، فتعالى الله رب العالمين ، الملك الحق المبين .

وأيضاً فلا يتراض هنا ويتزبه ، إلا من لا يعرف مخلوقاته ، ولم يصرف الكلام الصحيح في مشابه ذلك أصلاً في العلم ، أو كان نسخاً له ومعنى تقيس عليه غيره ، وأما انكشافه بخبر من رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق المخبر ، إذ أفشاء لتسير أهله ، وأهداه لمن لا يستحقه ، كما روي عن عيسى على نبينا وعليه السلام ، لا تملقوا الدر في عناق الخنازير ، وإنما أراد قطاع العلم غير أهله ، وقد جاء لاتعموا الحكمة أهلها ، فتظلموا ، ولا تضموا عند غير أهلها فتظلموها .

وأما سر الصلح الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لتلويب صنيفة بطلت الأحكام ، في حقها لمن يطلع عليه في ذلك السر من معرفة مآل الأنبياء ، وعوائب الخلق ، وكشف أسرار العباد ، وما يظن من مقدوره ، فمن عرف نفسه مثلاً أنه من أهل الجنة لم يصل ، ولم يصم ، ولم يتب نفسه في خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار ، كل انهما كه فلا يحتاج إلى تمب زائد ، ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبه ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه ، وإن كان كشفها من مخبر

استروح الضيف إلى ما يسمع من ذلك ، فيتمطل وينخرم حاله ، وينحل ثيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على ما يقدر لاعلى ما يوجد ، ولذلك جعله مقرونا بحرف لو ، الدال على امتناع الشيء ، لامتناع غيره ، كما يقال : لو كان للإنسان جناحان لطار ، ولو كان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان البشر ملكا لفقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم .

## فصل

وأما خطاب العقلاء للجهادات فغير مستنكر فقد نذب الناس الديار ، وسألوا الأطلال واستنخبوا الآثار وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم « أُسْكِنُ أَحَدُكُمْ قَرْعًا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَشَهِيدَانِ » وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عن شق أنهارها ، وفجر بحارها ، وفق أهواها ، ورتق أهواها وأرسي جبالها ، إن لم تجنبك أجابتك اعتباراً ، وإنما الذي يتوقف على الأذهان ويتحير في قوله السامعون ، وتمتع منه القول ، هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات ، ففي هذا وقع الإنكار ، إذا اضطرب النظر ، وكذب في تصحيح وجوده والسمع من الاعتبار ، ولكن لتسلم أن تلقى الكلام للعقلاء ، ممن لم يقل عنه في الشهود يكون على جهات ، من ذلك سماع الكلام الذاتي ، كما تلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حبري سلم عليه في طريقه قبل مبته

ومنها تلقى الكلام في حسن السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويمتري هذا سائر الحواس ، كمثل ما يسمع النائم في منامه ، من مثال شخص من غير مثال والمثال المرئي للنائم ليس له وجود في بصره ، وأما ما يحده غير النائم في البقطة فيها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادي السلم باسم خلى يهودي فآتله ، وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقاً ، ويذهب عنه معنى الحجرية ؛ أو يوكل بالحجر من يسلم عنه ممن يستمر من الأبصار في المادة من الملائكة والجن ، أو يكون كلام يخلق الله

من وجل في أذن السامع ، ليفيده العلم باختفاء اليهودي ، حتى يقتله وكما يقال في العرض الأكبر يوم القيامة ، إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص ، وفي الخلائق مثل اسم للنادى به كثير ، وقد قالت العلماء : أنه لا يسمع النداء في ذلك الجمع إلا من نودي ، فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق المنادى في حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه في اسمه ، ولا يكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة في الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقنع .

ومنها تلقى الكلام في العقل ، وهو المستفاد بالمعرفة ، المسوع بالقلب ، المفهوم بالتقدير على اللفظ السمي لسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوادم حين رأيته وكبر للرحمن حيث رآني  
فقلت له أين الذين عهدتهم حوالبك في عيش وخفض زمان  
فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن الذي يبقى على الحدثات  
وفي أمثال العوام قال الحافظ للوند لم تشقني ؟ فقال الوند للحافظ سل من يدقني ، فلو كانت العبارة تنأت منها ما عبرت إلا بما قد استعير لها ، وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخباراً عن السماء والأرض حين ( قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ) (١) وفي قوله تعالى ( إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ) (٢) ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى يُوْنُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ عِبَاءُ تَانِ قَطْرُوَانِيَتَانِ يَلْبِي وَتُجْبِيهُ الْجِبَالُ وَاللَّهُ يَقُولُ لِيَبْنِيكَ يَا يُوْنُسُ » فقوله كَأَنِّي يدل على أنه تخيل حالة سبقته لم يكن لها في الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات ، وتلك الحالة منه سلفت ، وفي هذا الحديث منه إخبار عن الوجود الخيالي في البصر ، والوجود الخيالي في السمع .

ومنها تلقى الكلام بالشبه ، وهو أن يسمع السامع كلاماً أو صوتاً من شخص حاضر ، فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام في صوت أبي موسى



الأشعري ، إذ سمعه يترنم بالقرآن « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزْمِيرِ آلِ دَاوُدَ »  
ومزمير آل داود قد عدمت وزدبت ، وإنما شبه صوته بها ، وكذا إذا سمع المرید صوت  
مزمار ، أو عود نجاة على غير قصد ، يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها ، بما فجأ صوته  
من ذلك

فهذه مراتب الوجود ، فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ، ولم يترك غلط في  
بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد ،  
وقد رآه أسود وجهه بالحبر ؛ فقال له ما بال وجهك وقد كان أبيض أشقر موتقا ، والآن  
قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال : سل الحبر فإنه كان مجموعا في الهبرة التي  
هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجى ظلمك وعدوانا ، فقال :  
صدقت ، ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات اعمل الفكر ، وجدد النظر ، وحل  
الكلام إلى أجزائه التي ينتظم منها جملة ما بلك ، فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة  
ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ، وبأي لسان  
خاطب الكاغد ، وكيف غطابة الكاغد ، وهو ليس من أهل النطق ، وفيما صدق الناظر  
الكاغد ، ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ، فيبدوا لك ههنا من الناظر هو ناظر  
للقلب ، فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاج ، التي أعمرت بسراج  
النار إلى خير المعرفة الملقب بسر القلب ، شيئا بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى  
شعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن ، واشتغال السر بطلوع نيران  
كواكب المعارف الداهية بإذن الله تعالى ، ظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله  
تعالى على سبيل الإشارة بالله كذا لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والحبر كناية عن  
أنفسهما لا عن غيرهما ، وجمعهما مبدأ طريقه ، وأول سلوكه ، إذ هما في عالم الملك والشهادة  
الذي محل جولة الناظر . في حال نظره ، وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب  
فلاجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعي ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الالهي ،  
الذي هو أبين وأدل على الفهم منه ، وأما غطابة الناظر الكاغد وهو جاد ، فسبق الكلام  
على مثله ، ومراجم الكاغد له ، فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا فليكن الكلام في الحس

بما ينشئ عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء في الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيقلقه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة ، والمقل ، وتصديق الناظر للكافذ في عذره وإحاطته على الخير ، لم يكن لمجرد قوله بل بشهادة أولى الرضا والمدل ، وهو البحث ، والتجربة لم تكن ، وشهادة النفس وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها ، مثل عن أجزاء عالم الملك وأما ماسمته في حد عالم الجبروت ، فذلك من القدرة المهددة إلى العقل . والعلم ، الموجودين في الإنسان المستقرة في القوة الوهمية المدركة جميع ما لا يستدعي وجوده جسما ولكن قد يمرض له أنه في جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب ، وعطف أمها ، فتنبع المطف وتنفرد من العداوة .

وأما ماسمته في حد عالم الملكوت ، وذلك من العلم الإلهي إلى ماوراء ذلك مما هو داخل فيه ، ومعدود منه فسر القلب الذي يأخذ به عن الملائكة ، ويسمع به ما بعد مكانه ورق مناه ، وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أي شيء حقائق هذه المذكرات ، وما كنه كل واحد منها ، على نحو معرفتك لا جزء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا يتنفع بسماعه مع عدم المشاهدة . والله قد عرفك بأسمائها ، فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة ، لملك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات ، إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات ، ومن كفر فإن الله غني حميد

## فصل

وللفرق بين العلم المحسوس في عالم الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت ، أن العلم كما اعتقدته مجسما ، بطيء الحركة بالفعل سريع الانتقال بالهلاك ، مخلفا عن مثله في الظاهر عموما لا تحت تهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل في أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم ، والجهل ، والمدل ، والظلم ، والشك ، والصدق ، والإفك ، فالعلم الإلهي عبارة عن خلق الله في عالم الملكوت غنص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة في عالم الملك : يرى من أوصاف مادي به القلم المحسوس كليا ، مصرفا يتميز الخالق بحكم

إرادته على ما سبق به علمه في أزل الأزل ، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل  
باسمي به ، غير أنه لا يكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين عين الآدمي وعين الله عز  
وجل ، أن عين الآدمي كل علمت مركبة من عصب استمعى بشؤها ، وعقل تفضل  
أدراؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ، ولحم تمتد ، وجلد غير جلد ، وموصلة كمثلها في  
الضمف والانتقال ، ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال ، وعين الله تعالى هي عند  
بعض أهل التأويل ، عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرة وليست  
بجراحة ولا جسم ، وعند آخرين إنها عبارة عن خلق لله واسطة بين القلم الإلهي ،  
النافس العلوم ، المحدث وغيرها ، وبين قدرته التي هي صفة له صرف بها العيون الكاتبة بالقلم  
المذكور بالخط الإلهي المشهود على صفحات المخلوقات الذي ليس بعربي ولا عجمي ،  
يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم وتستجمع على القارئ إذا كانوا عبيد شهواتهم  
ولم يشارك عين الآدمي إلا في بعض الأسماء ، لأجل الشبه اللطيف الذي بينهما  
بالفعل ، وتقريبا إلى كل نافع الفهم عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر

## فصل

وحد عالم الملك مظهر للحواس ، ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض ،  
وصحة التمييز ، وحد عالم الملكوت ما ألوجهه بيجانه بالأمر الأزلي بلا تدريج ، وبقي  
على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ، وحد عالم الجبروت :  
هو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك ، خفي بالقدرة الأزلية  
بما هو من عالم الملكوت

## فصل

ومعنى إن الله خلق آدم على صورته ، فذلك على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله  
عليه وسلم ، وللملأمة فيه وجهان .  
فهم من يرى للحديث سببا ، وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم  
فتها وقال « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » وتأولوا عود الضمير على المضروب

على هذا لا يكون الحديث مدخل في هذا الموضوع لم يردده مورد آخر في غير هذا الموطن ويكون الايمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث ، واثباته في غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويصر ، فليبق السبب على حاله ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل وبحسن الاحتجاج به في هذا الموطن

والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذي في صورته عائدا إلى الله سبحانه ، ويسكون معنى الحديث ، أن الله خلق آدم على صورته ، هي إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فاذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ، ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة ، وعلى أي جهة يحتمل في الاعتقاد الملقى على الله سبحانه فقها وجهان أحدهما : أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة ، واليمين على أحد الأوجه .

والوجه الآخر : أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بمجملته ، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاءه بالعالم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلا شك متشابهتان ، فالذي نظرت في تحليل صورة العالم الأكبر قسمه على أنحاء من القسمة ، وقسم آدم عليه السلام ، كذلك فوجد كل نحو من منها شبيبين ، فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسين ، أحد القسمين : ظاهر محسوس كعالم الملك ، والثاني : باطن معقول كعالم للمسكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس ، كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى باطن ، كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك

وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعالم إلى عالم الملك : وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم المسكوت : وهو الباطن في العقول ، وإلى عالم الجبروت : وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منها ، والإنسان كذلك انقسم

إلى ما شابه هذه القسمة ، فالما شابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة ، وقد عطفها والمما شابه  
لعالم الملكوت ، فقل الروح والمقل والقدرة والإرادة وأشياء ذلك ، والمما شابه لعالم  
الجبروت فكلا لإدراكات الموجودة بالحواس ، والقوى الموجودة بأجزائه ،  
والوجه الثاني : أن يكون معناه كفرا للسامع ، بخلاف الوجه الأول ، ويكون هنا  
مطابقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم : لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ فُتُؤُوهُمْ أَثَرِ يَدُونِ  
أَنْ يَكْذِبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فن حدثت أحدا بما لم يصله عقله ، ربما سارع  
إلى التكذيب ، وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها ، فقد كفر  
ولو لم يقصد الكفر ، فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر  
ولا تظنه بأنفسها ، وهي كفار بلا رب ، وهذا وجه واضح قريب ، ولا تفتت إلى  
ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ، ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين  
في العلم ، حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذي هو تنقيض الإيمان والإسلام بتملق غيره  
وتلحق قائله وهذا لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء ، الذين يكفرون بالمصالح  
وأهل السنن لا يرضون بذلك ، وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر ، وعبد الله بالقول  
الذي ينزه به ، والعمل الذي يقصد به التمتع بوجهه ، الذي يستزيد به إيمانا ومعرفة له  
سبحانه ثم يكفره الله تعالى على ذلك بقوله المزيد ، وينيله ما شرف من المنع ، ويريه أعلام  
الرضا ، ثم يكفره أحد بشير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لا يخرج عنه إلا بنبذ وإطراحه  
وتركه ، واعتقاد ما لا يتم الإيمان منه ، ولا يحصل عقارته وليس في إفشاء سر الولي  
ما يحصل به تناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يريد إفشائه وقوع الكفر من السامع له ، فهذا  
عانت متعود وليس برلي ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لآعالة كافر ،  
وعلى هذا يخرج قوله تعالى (وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا  
بِغَيْرِ عِلْمٍ <sup>(١)</sup>) ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى ما يحد له من المساواة والبغضاء ،  
فيل له أخطأت وأثمت من غير تكفير ، وإنه إما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فهو كافر بالإجماع

## سؤال

فإن قيل : فامعنى قول سهل رحمه الله تعالى : ونسب إليه الإلهية سر لو انكشف  
لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت  
الأحكام ، وجاء في الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة  
في حق الضمفاء ، فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقض ، والكامل من لا يطلق نور  
معرفة نور ورعه ، وهذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق بها بما فرع  
من الكلام فيها آنفا ، ونأظر إليه إذا ما أدى إنشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم كفر  
فالجواب إن الذى قاله رحمه الله وإن كان مستجمعا فى الظاهر ، فهو قريب المسلك بإد  
للتأمل الذى يعرف مصادر أغراضهم ، ومسالك أفوالهم الإلهية ، ومن وصل إليه اليقين  
الذى لولاه لم يكن نبيا ، لا يخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار  
الشمس ، التى هي فائبة عنها ، بأن كانت القلوب ضئيفة طرأ عليها من الدخس والاصطلام  
والخيرة والتيه ما يهرى القول ، ويفقد الحس ، ويقطع عن الدنيا وما فيها ، وذلك لضعفه ،  
ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة فى حقه أن يعرفها ، أو يعقل ما جاء من قبلها إذ قد  
شغل عنها ما هو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لمجزئه عن حمل ما يطرأ عليه ،  
كما حكى أن شابا من سالكى طريق الآخرة ، عرض عليه أبو يزيد ، ولم يره من قبل ،  
فلما رآه انكشف له ذلك ، وكان فى مقام الضمفاء من المريدين ، فلم يطلق جملة فوات به ،  
وإما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه فتبطل النبوة فى حق الخبر ، حين  
نهى أن لا يفشى فأفشى ، أو أمر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة  
النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلهذا قيل فى ذلك بطلت النبوة فى حقه

فإن قيل : فلم لا تكفروه على هذا الوجه ، إذا بطلت النبوة فى حقه بإخباره  
فلنا : ما بطلت فى حقه جميعا ، وإنما بطل فى حقه منها ما خالف الأمر الثابت من  
قبلها ، وبعد هذا من الكلام على تغليب حق الإنشاء ، وقد سبق الكلام عليه فى معنى  
إنشاء سر الربوبية كفر ، وأما سر النبوة الذى أوجب العلم لمن رزقها ، أو رزق معرفتها

على الجنة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبي ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع المحنة له ، بالأمر المتوجه عليه بطلبه ، والبحث عنه ، والتفكير فيه ، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء لو وقعت له واقعة لم يحتاج إلى النظر فيها ، ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك ، أو ضرب مثل ، يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ ، أو إلقاء في روع ، فيعود مخبراته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيبها الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ، ولا تنزه في عجائبها ، ولا لاحظ للملكوت بصرف قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه ، ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم ، وأن النار أقصى المذاب الأليم ، وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدرجات ، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من المدم التي هو نبي محض إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح ، وقدره منازل وجعله لميقات ، فن حي وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل ، وشقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجليل وخفي ، وغني وفقير ، وأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاحد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسما ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والكل قائم به موجود بقدرته ، وياق بعلومه ، ومته إلى أجله ، ومصرف بعيشته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكمل جهل من لا يجده إلا قدماه ، ولا من يصرفه إلا استبداده ، ولا ملكة إلا ملكه فيعود الحدث قديما ، والمربوب ربا ، والملك مالكا ، فيعود الخلق من خلق الله كره ، تعالى الله عن جهل الجاهلين ، وتخيل المتوهين ، وزيف الزائفين

## فصل

وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ، ورفق هذه الدرجات ، واستفهام هذه المخاطبات ، أي من قبيل الواجبات أو المندوبات أو المباحات فاعلم أن المسئول عنه على ضربين ، أحدهما : ما هو في حكم للبأدى ، والثاني : في حكم النايات ، فأما الذي هو في حكم المبادئ فطلبه فرض على كل أحد ، بقدر بذل الجهد وإفراغ الوسع ، وجب ما يقدر عليه من المباداة ، وذلك ما تضمنه أصول علم اللاملة ، مثل

إخلاص التوحيد، والصدق في العمل، وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء، والتزين بالصبر والشكر، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهي واجبة، قال الله تعالى ( فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ <sup>(١)</sup> ) وقد سبق التنبيه عليه، وأما الذي هو في حكم الغايات مثل انقلاب الميثاق، والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإيجابات، والتوكل بالتجريد، وحقيقة علم معاني التوحيد وسير معاني التقرير، وأوصاف أهل آيات اليقين، فهو درجات ومقامات، ومنازل ومراتب، ومنع يخص الله تعالى به من شاء من عباده، من غير أن يقال بطلب ولا بحث ولا تعليم، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال، أرجع لا تتخطى رقاب الصديقين، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته، وولايته، وهي مراتب الصدق في العلم، وبركات الإخلاص في العمل، فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه، فطلبه والعمل به شتان من هذه المعاني، فليس في شيء من الحقيقة، وإن كان حقاً غير أن حاله معلول، إما مقتون بدنيته، أو معجوب بهواه، وربك على كل شيء قدير.

## فصل

وأما لأي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون المبارات، والرموز دون التصريحات، وبالتشابه من الألفاظ دون المحسكات، وإن كان قد سبق هذا من الشارح فيها له أن يتحقق به من كلف، ويتلو من بعيد، ولكن للعلم رجال مخصوصون فإلّا من لم يحمل شارحاً، ولم يمتثل لنير أن يسلك ذلك

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ورث العلم ليتجمل بعلمه، ويحل فيه كحلّه، والنبى صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى، وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه، فما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثله، ومالم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهداه، فإن أخطأ كان له أجز، وإن أصاب كان له أجران



ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بالوم للمعاملات وأشاد بما وراهما بما لا يغميه إلا أرباب التخصيص ، كما قال الله عز وجل ( وَمَا يَغْنَمُ إِلَّا أَرْبَابُ النَّخْلِ ) فلم يكن الوارث تمدد عن حكم الوارث ، كما حكى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال .  
لأنى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادين

أحدهما : هو الذى بثته فيكم ، وأما الثانى ، فلو بثته لحزمت السكين على هذا البلوم وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء ، فى القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفى اتباعه الفوز بحب الله ، وبمد الله مع الجماعة ، وفوق كل ذى علم عليم ، وقد أفدناك من طرائف ما عندنا ، وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ، وإلى الله يرد العلم بما دق وجل ، وكثر وقيل ، وعظم وصغر ، وظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله تعالى ، وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ، فاستنزل ما عند ربك وخالفك من خير ، واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر ، بقرأة السبع المثاني والقرآن العظيم التى أمرت بقرأتها فى كل صلاة ، وكذا عليك أن تميدعها فى كل ركعة ، وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، أن ليس فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى القرآن مثلهما ، وفى هذا تنبيه بل تصریح بأن يكثر منها بما ضمننت من القوائد ، وخصمت به من الدخائر والموائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعتقل ما خلقت له واعرف ما أعد لك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراد ، وهادى من جاهد فى سبيله وكاف من توكل عليه ، وهو الذى الكريم

اتمنى الجواب مما سألت عنه ، وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله تعالى المبادئ بين حيلات قلوب البشر أن يصرف عنا حجب الكدورات والأهواء ، ومراتب التنين ، فيبده مجارى المقدورات ، وهو إله من ظهر وغير ، واليه يرجع من آمن وكفر ، ومجازى الخلائق بتبسم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر ، وكافى الضمير وعلى آله السادات النور ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين



# كتاب تعريف الأحياء بفضائل الأرحياء

للأستاذ الفاضل العلامة :

الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله المهدوسي

بأعلى قبس الله به

## كتاب تعريف الأحياء بمضائل الإحياء

### بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق لنشر الحاسن وطيبها في أحسن كتاب ، وجعل ذلك قرة  
لأعين الأحياء ، وذخيرة ليوم المآب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي  
أحيا إحياء شريته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين  
وجميع الأصحاب ، ماشرقت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت حمة روحانية  
مصنفة الولي للوهوب ، إلى إسعاف ملازمي مطالته ومحبيه بالمطلوب .

ويعد : فإن الكتاب العظيم الشأن ، المسمى إحياء علوم الدين ، المشهور بالجمع  
والبركة والنفع بين العلماء الماملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المشايخ المارفين  
للتسبب إلى الإمام النزالي رضي الله عنه ، عالم العلماء ، وارث الأنبياء ، حجة  
الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتجهدين ، مقتدى  
الأئمة ، مبين الحل والحرم ، زين الملة والدين ، الذي باهى به سيد المرسلين  
صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء ، ورضي عن النزالي وعن سائر العلماء المجتهدين .  
لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير في باب ،  
ولم ينسج على مواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة ، والطريقة  
والحقيقة كاشفا عن النواضع الخفية ، مبينا للأسرار الدقيقة . رأيت أن أضع  
وسالة تكون كالسوان والدلالة ، على صباية صباية ، من فضله وشرفه ، ورشعة  
من فضل جامه ومصنعه ، ورتبه على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .

فالقدمة في عنوان الكتاب ، وللقصد في فضائله وبعض المدائح وانتفاء من  
الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطن بسببه فيه ، والخاتمة في ترجمة  
المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

## المقدمة

في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى . تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق . والباطنة أيضا قسمان : ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات الحمودة ، وقد بنى الإمام الغزالي رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين على هذه الأربعة أقسام ، فقال في خطبته : ولقد أسست على أربعة أرباع : ربيع العبادات وربع الماديات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربيع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج ، كتاب تلاوة القرآن ، كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربيع الماديات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب الصحة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كتاب أخلاق النبوة

وأما ربيع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، كتاب رياضة النفس ، كتاب آفة الشهوتين البطن والفرج ، كتاب آفة اللسان ، كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والإرياء ، كتاب الكبر والعجب ، كتاب الفرور .

وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهدي ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والرضا ، كتاب البنية والصدق والإخلاص ، كتاب المرافقة والمحاسبة ،

كتاب التفكير ، كتاب ذكر اللوت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربيع العبادات ، فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها مما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطالع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات .

وأما ربيع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغنى المتدين عنها .

وأما ربيع الملهكات : فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإمائه وتركه النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم المعاملات التي بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع المنجيات : فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التي يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حداً وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، ومخرجها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والمقلد .

## المقصد

في فضل الكتاب المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ،

والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حبيباتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه قصصوا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، ومن من أفردوا فيها علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المغانى ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساطين العلوم ، فاجتنتى غمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المغانى ، فلم يصطف من كواكبها إلا السيادة ، وجلبت عليه عرائس أسرار اللعاني ،

فلم ترق في عينه منهن إلا بادية التضارة ، جمع رضي الله عنه فأوحى ، وسعى في إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسمى ، فقله دره ، من طلم عتق عبيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل ، محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه ، من القوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه ، وأملى بيد أنه في العلوم صاحب القدر الملقى ، إذ كان رضي الله عنه ، من أسرار العلوم بحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيات لا يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرت في فواراة العلم ، والعمل والملا ، والفهم ، والدكا أصلها ، وفروبعها في السماء ، مع كونه رضي الله عنه ، ذا الصدر الرحيب ، والتريعة الثابتة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه ، أن الفقيه العلامة ، قطب اليمن اسماعيل بن محمد الحضرمي ، ثم اليمنى ، سئل عن تصانيف الغزالي فقال : من جملة جوابه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، سيد الأنبياء ، ومحمد بن إدريس سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي ، سيد المصنفين ، وذكر اليافعي أيضا ، أن الشيخ الإمام الكبير ، أبا الحسن علي بن حرزم ، الفقيه المشهور المغربي ، كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين ، وكان مطاعا ، مسموع الكلمة ، فأصر بجميع ماخفر به ، من نسخ الإحياء ، وم يحرقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أنبل ابن حرزم ، قال الغزالي هذا خصي يارسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم ثبت إلى الله ، وإن كان شيئا حصل لي من بركتك ، واتباع سنتك ، بغذلي حتى من خصي ، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ، ورقة ورقة من أوله إلى آخره ، ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال نعم والذي بعثك

بالحق إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال  
الصدّيق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه عليّ بن حرزم عن القميص ، وأن  
يضرب ويمجد ، حد المفتري ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصدّيق  
رحمى الله عنه ، وقال يارسول الله لعله ظن خلاف سنتك فأخطأ في ظنه ، ف رضي الإمام النزالي  
وقبل شفاعة الصدّيق ، ثم استيقظ ابن حرزم ، وأثر السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب  
إلى الله ، عن إنكاره على الإمام النزالي واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر  
السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالى ، ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى  
النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح يده الكريمة على ظهره ، فعوفي وشفي بإذن  
الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ، ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ، وصار  
من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله تعالى .

قال الباقى : رونا ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرنى بذلك ولي الله عن  
ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير ، القطب شهاب الدين أحمد  
ابن الملق الشاذلى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، العارف بالله ياقوت الشاذلى ، عن شيخه  
الشيخ الكبير العارف بالله أبو العباس المرسى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، شيخ الشيوخ  
أبي الحسن الشاذلى ، قدس الله ارواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزم . قال : وقال  
الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزم رحمه الله يوم  
مات ، وأثر السياط على ظهره ، وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله : وكان أدرك الإمام  
النزالي واجتمع به ، قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفى سعد بن علي بن أبي هريرة  
الاسفرايىنى يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحى ، زين القراء جمال الحرم ، أبا الفتح  
الشامى بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوماً ، فطراً على حال وأخذنى  
عن نفسي فلم أقدر أن أفك ولا أجلس لشدة ما به ، فوقمت على جنبى الأيمن ، تجاه  
الكعبة المظفة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسي النوم ، فأخذتني سنة  
بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في أكمل صورة ، وأحسن زي من  
القميص والمامة ، ورأيت الأنعة ، الشافى ، ومالكاً وأبا حنيفة ، وأحمد ، رحمهم الله يعرضون



عليه مذهبهم واحداً بعد واحد وهو ، صلى الله عليه وسلم يقرؤم عليها . ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بطرده ، وإما تفتقدت أنا وقلت يا رسول الله هكذا الكتاب ، أعنى إحياء علوم الدين معتقدي ، ومعتقد أهل السنة والجماعة . فلو أذنت لي حتى أقرأ عليك ، فأذن لي ، فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد : بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلى قول الغزالي ، وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم إلي كافة العرب والمجم ، والجن والإنس ، فرأيت البشاشة في وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت وقال : أبني الغزالي وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : ها أنا ذا يا رسول الله . وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام ، وناولته يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتركبها ، وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، أشد سروراً بقرائه أحد عليه ، مثل ما كان بقرائه عليه الإحياء ، ثم انتهيت والسمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكانت تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها ، نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين

## فصل

أثنى على الإحياء ، عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارف الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد . فقال فيه الحافظ : الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه ، أنه من أجل كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يشغل الوجود إلى الساحل ، بل مزج فيه علي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه ، خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم التالي ، إلى آخر ما ذكره ، مما الأولي بنا في هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر

محاسن الإحياء ، يظهر للمحب والمبغض رشد رغبة

وقال عبد الناصر القارسي : في مثال الإحياء أنه من تصانيفه الشهورة التي لم يسبق إليها ، وقال فيه النوروي : كاد الإحياء أن يكون قرمانا ، وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو حيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضل علوم النزالي ، أي والإحياء جماعيا ، كما سيأتي أنه البحر المحيط ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبد الله البیدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه قلا . وروي عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه وأماوده وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم ، علوم وأسرار عظيمة ، ومفاهيم غزيرة غير التي قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد ، أتتني على كتاب الإحياء ، بما أتتني عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ، ومن كلامه رضي الله عنه عليكم يا إخوتي بتابعة الكتاب والسنة ، أي الشريعة المشروحة في الكتب النزالية ، خصوصا كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهدة ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس ، ومن كلامه : عليكم بالكتاب ، والسنة أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا وفكرا واعتبارا واعتقادا ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين ، للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله وقمنا به . ومن كلامه وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالي ، في كتابه العظيم الشأن ، للملقب بأحوية الزمان إحياء علوم الدين ، الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه ومعمل بما فيه ، فقد استوجب محبة الله ، ومحبة رسول الله ، ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، في الدنيا والآخرة وصار عالما في الملك والملكوت .

ومن كلامه الجليل العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء ومن كلامه : اطلوا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل في لحظة ، كحضور سواد

الحبر بوقوع الزاج في المقص والماء، وتأثير كتب النزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن ومن كلامه: أجمع العلماء المارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب، وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام للنزالي، ومحبة كتبه، فإن كتب الإمام النزالي، لباب الكتاب والسنة، ولباب المعقول والمنقول، والله وكيل على ما أقول.

ومن كلامه: أنا أشهد سرّاً وعلاية، أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين، فهو من المهتدين. ومن كلامه: من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق المارفين بالله وطريق العلماء بالله، أهل الظاهر والباطن، فعليه بمطالعة كتب النزالي، خصوصاً إحياء علوم الدين، فهو البحر المحيط. ومن كلامه: أشهدوا على أن من وقع على كتب النزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة. ومن كلامه: من أراد طريق الله ورسوله ورضاها فعليه بمطالعة كتب النزالي، وخصوصاً البحر المحيط إحياء أعجوبة الزمان. ومن كلامه: نطق معاني معنوى القراءان، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الانقياء، بل جميع أرواح الملائكة، بل جميع فرق الصوفية، مثل المارفين والملاطمية، بل جميع سر حقائق الكائنات والمقولات، وما يناسب رضا الذات والصفات، أجمع هؤلاء المذكورون، أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهر وأقرب إلى رضا الرب، كتابته النزالي ومحبة كتبه، وكتب النزالي قلب الكتاب والسنة، بل قلب المعقول والمنقول، وأنفع يوم ينفخ اسرافيل في الصور، وفي يوم تفر النافور، والله وكيل على ما أقول ( وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ <sup>(١)</sup> )

ومن كلامه: كتاب إحياء علوم الدين، فيه جميع الأسرار، وكتاب بداية الهداية، فيه التقوى، وكتاب الأربعين، الأصل فيه شرح الصراط المستقيم، وكتاب منهاج العابدين، فيه الطريق إلى الله، وكتاب الخلاصة في الفقه، فيه النور. ومن كلامه: السر كله في اتباع الكتاب والسنة، وهو اتباع الشريعة، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين، للسمي أعجوبة الزمان.

ومن كلامه : يخ يخ لمن طالع إحياء علوم الدين ، أو كتبه ، أو سمعه .  
وكلامه رضى الله عنه ، في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه  
والحث على العمل بها ، خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كانت سيدي ووالدي الشيخ  
العارف بالله تعالى ، شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أهل الزمان  
جمعت كلام الشيخ عبد الله ، في الغزالي وسميته الجوهر المتلالي ، خصوصا من كلام  
الشيخ عبد الله في الغزالي ، فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقني الله لذلك تحقيقا لرجائه ، ورجاء  
أن يتناولني دعاء الشيخ عبد الله رضى الله عنه ، فإنه قال : غفر الله لمن يكتب كلامي في  
الغزالي ، وناهيك بيشارة في هذه العبارة ، التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ،  
لا يحازف في مقال ، ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هذا من الشرف للغزالي وكتبه  
مالا يحتاج معه إلى مزيد ( إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو  
شعيد<sup>(١)</sup> ) فإن العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل  
وإذ اتصدي العيدروس لترفيفه فقد أغنى ترفيفه عن كل ترفيف ، ووصف الشهادة منه خير  
من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى أن بعض العوام حصلها  
لمارأى من ترغيبه فيه ، وأزم أخاه الشيخ عليا قراءته ، فقرأ عليه مدة حياته خمس  
وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم  
إن الشيخ عليا أزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فغتمه عليه أيضا خمس  
وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن ، التزم بطريقة  
النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة  
ويقول : لا أترك تحصيل الإحياء أبدا ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ .  
قلت : وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله  
العيدروس رضى الله عنه ، مدعنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ، وأمر  
بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة ، ففلازمته ميراث عيدروسى ،  
وتوفيق قدوسى ، فن وفقه الله لامتهاله والعمل بما فيه واستعماله بلوغ الرتبة العليا ،

وجاز شرف الآخرة والدينا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف  
لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس قلت :  
وهو صحيح فإني مع خسيس تصدى وقسوة قلبي أجد عند مطالعتي له من انبعاث  
الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالا يزيد عليه ، ثم يفتقر برجعى إلى ما أنا فيه ، وبخلطة  
أهل الكنايات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وماذا لك  
إلا لثمي أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده ، والرد بالكافر هنا  
فيا يظهر الجاهل لميوب النفس ، المحبوب عن إدراك الحق أي فبمجرد مطالعته  
للكتاب المذكور يشرح الله صدره ، وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر من قلب  
متشط كان حريا أن ينعط به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الدين لاخوف  
عليهم ولا من يمزنون ، رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ، ويؤخذ عنهم  
بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وحممهم عالية ،  
وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرمان أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأشاحيت بهجة  
وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولملومهم  
وقبحهم آوار ونفع متظاهر ، حتى تجمد الرجل له العلم القليل ، وبمد ذلك ينتفع  
به كثير ، لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ، ولم ينتفع  
به مثله ، لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمرا ظاهرا مبهودا ، وشيئا  
عجريا موجودا ، فانظر إلى نفع الناس ، بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى ،  
والتنبيه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجل في المرية والإرشاد في علم  
الكلام ، وانتشارها مع أن ماحوت من العلم في فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء  
في هذه الفنون في مثل أجرام هذه الكتب أصناف ما فيها ، مع تحقيق تحرير المبرات  
وتشقيق للماني ، وتلخيص الحدود بعد هذا ، فالنفع بهذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ،  
لأن العلم بمزيد التقوى ، وقوة سر الإيمان ، لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ،  
كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يضمنه

الله في القلب قلت وما أنشدہ الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه، انفسه فيه قوله :

أخى اتبه والزم سلوك الطرائق  
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة  
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق  
وإجلال أذكار للمعاني ضواحا  
عليك بإحياء العلوم ولها  
وكم من لطيفات لدى اللب منهل  
كتاب جليل لم يصنف  
فكم في بديع اللفظ يحلى عرائسا  
مسانيه أنصحت كالبدور سواطعا  
وكم من عزيزات زهت في مجابها  
وكم من لطيف مع بديع وتحفة  
بساتين عرفان وروض لطائف  
رعى الله صبارا تماقي جنانها  
وشطف من ذا كي جناها فواكها  
خضم طلى حتى علا فوق من علا  
فإن لم بهذا القول تؤمن تجربن  
وارجع طرفا في بديع جلالها  
ترى في بدور الحي أقدار قد بدت  
فكم انتهت صبا وكم قشعت صمى  
فيفضي براح الحب سكران مغرما  
ويعسى يتادبها طريقا يبابها  
صلاة على سر الوجود شفيما  
وأصحابه أهل للسكران والملا

يسارع إلى المولى بمجد وسابق  
وقانون قلب القلب بحر الرقائق  
وشرب حيا صفو راح الحقائق  
يهاج حسن جاذب للخلائق  
وأسرارها كم قد حوى من دقائق  
وكم من مليحات سبت لب حاذق  
فله ولا بعده مثل له في الطرائق  
وكم من شموس في حماء شوارق  
على در لفظ للمعاني مطابق  
محبة من غير كفؤ مسابق  
حلوتها كالتهد تعلقو للقائق  
وجنة أنواع العلوم الفوائق  
بروح ويندو بين تلك الحقائق  
بساحل بحر بالجواهر دافق  
بشامخ مجد مشرق بالحقائق  
وأقبل على تلك المعاني وعانق  
وطف في حماء منشدا كل سابق  
بالي جمال مدهش لب عاشق  
وكم قد سعت في غربها والمشارق  
أصم عن المذال غير موافق  
منم عيش في الربوع النوادر  
محمد المختار غير الخلائق  
وعترته وراث علم الحقائق

## فصل

وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفي التحقيق لإشكال أو أخبار وآثار تكلم في سندها . فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمى بالأجوبة ، وأسوق لك نبذة من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت بسرك الله لمراتب العلم تصعد مرافقها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحمل معاليها ، عن بعض ما وقع في الإملة المقلب بالإحياء ، مما أشكل على من حجب وقصر فهمه ، ولم يفرق بشيء من الحظوظ المالية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطعام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحمال : وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعة ، وأفتوا بالهوى ، مجردا على غير بصيرة ، بإطراحه ومناذته ، ونسبوا بماله إلى ضلال وإنلال . ورووا قراءه ومتعليه بزيغ عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال ( سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَهُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِالَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٌ يَنْقَلِبُونَ <sup>(١)</sup> ) ثم ذكر آيات أخرى في المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفصله ، ثم ذكر عذر المعتزدين ، بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجبل وفلة الدين ، بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال : حججوا عن الحقيقة بأربعة ، الجهل ، والإصرار ، وغلبة الدنيا وإظهار الدعوى ، ثم بين ما وروثه عن الأربعة المذكورة ، فالجهل أورثهم السخف ، إلى آخر ما ذكره . وأما ما اعترض به من تضمنه أخبارا وآثارا موضوعا أو ضعيفا ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشى منه التنوع لئلا يقع في الموضوع ، وحاصل ما أجيب به عن النزالي ومن الجيبين الحافظ العراقي أن أكثر ما ذكره النزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج ، وغير الأكثر وهو في غابة القلة ، رواه عن غيره أو اتبع فيه غيره متبرئا منه بنحو صيغة روي . وأما الاعتراض عليه أن فيها ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط لما تقرر أن يعمل به في الفضائل ، وكتابه في الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ في اشتغال كتبهم على الضعيف بكثرة النبه على صفه

تارة والمسكوت عنه أخرى، وهذه كتب الفقه للمتقدمين، وهي كتب الأحكام لا الفضائل  
توردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها، حتى جاء النووي رحمه الله في التأخرين  
ونبه على ضعف الحديث، وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقي، قال عبد الناصر الفارسي  
سبط القشيري، ظهرت تصانيف النزالي وفشت، ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه  
ولا لما آثره إلى آخر ما ذكره، وبما يدل على جلالة كتب النزالي، ما نقل ابن السمعاني  
من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم، كأن الشمس طلعت من مغربها، مع تعبير ثقافت المعبرين  
يبدعة تحدث، فحدثت في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه، ومن أنه لما دخلت  
مصنفاته إلى المغرب، أمر سلطانها علي بن يوسف بإحراقها، لتوجه اشتغالها على الفلسفة  
وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك، فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير، ووثب  
عليه الجند، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد، في عكس ونكد، بعد أن كان عادلا.

## خاتمة

في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه وعنا به ونفعنا بعلومه وأسراره

وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم

أما ترجمته رضى الله عنه : فهو الإمام زين الدين، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد  
ابن محمد النزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الذي انتشر فضله  
في الآفاق وفاق، وورق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأكبر  
في جزالة العبارة وسهولتها، وحسن الإشارة، وكشف المضلات، والتبحر في أصناف  
العلوم، فروعها، وأصلحها، ودرسوخ القدم في منقولها ومعقولها، والتحكم والاستيلاء  
على إجمالها وتفصيلها، مع ما خصه الله به من الكرامة، وحسن السيرة والاستقامة، والهدى  
والنزوف عن زهرة الدنيا، والإعراض عن الجهات الفانية، وإطراح الحشمة والتكلف،  
قال الحافظ العلامة ابن عساكر: والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أحمد البافى، والفقيه  
جمال الدين عبد الرحمن الإسني رضى الله تعالى، ولدا الإمام النزالي بطوس سنة خمس وأربعمائة  
وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه، ثم قدم نيسابور ولأزم دروس إمام الحرمين وجد



واجتهد ، حتى تخرج في مسدة قريية ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتجسس به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محلا عظيما ، لماو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطاً لرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام التزالي فيها اتفاقات حسنة ، من مناظرة الفحول فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بندگان ، للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الكل بتدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بندگان ، على الأمراء ، والوزراء ، والأكابر ، وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى ، فترك بندگان ، وخرج مما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتتلا بأسباب التقوى ، وأخذ في التصانيف للشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين وغيره ، التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قبل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم سار إلى القدس ، مقبلا على مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الثمائل ، حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس ، لازما بيته ، مقبلا على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، ودعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة ، مرشد الضالين ، وبيد الطالبيين ، دون أن يرجع إلى ما انحلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى ، يوم الإثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة ، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أغراضه ، بما خصه بها في دنياه .

قبل وكانت مسدة التنظية للفرزالي ثلاثة أيام على ماحكي في كرامات الشيخ سعيد السعدي تقع الله به ، وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد الياقبي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت ، إلى الشيخ الكبير القطب الرباني ، شهاب الدين أحمد الصياد اليمني الزيدي ، وكان معاصرا للفرزالي ، تقع الله بهما ،

قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ، إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة ، وإذا عصبة من اللؤلؤ الكرام قد نزلوا وصمم خلع خضر ، ومركوب قميص ، فوقفوا على قعر

من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من صماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع ، وخرق بعدها ستين حجابا ، ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى .

ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفى أمتك حبر هكذا ؟ قال : لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالنزالي . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم : منهم الشيخ الإمام الحافظ بن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يحدث لها دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه كان على رأسى المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه .

وروي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعنى عمر ابن عبد العزيز والشافعي ، ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته ، البسيط ، والوسيط ، والوجيز والخلاصة في الفقه ؛ وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله في أصول الفقه المستصفي ، والمنخول والمنتهل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار المسلم ، والمقاصد والضنون به على غير أهلها ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب باقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس في الوحدة ، وكتاب القرية إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم

وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب القريضة إلى مكارم الشريعة  
وكتاب مبادئ الغايات ، وكتاب كيمياء المعادة ، وكتاب تليس إبليس ، وكتاب  
نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتحليل  
وكتاب المقاصد ، وكتاب إجماع العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب  
الرسالة الدنية ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ،  
وكتاب القول الجليل في الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الأمالى  
وكتاب في علم أعداد الوقت وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء في الرد على  
المشكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .  
وقال يحدّثه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقبليشى المحدث الصوفى صاحب  
كتاب النجم والكواكب .

أبا حامد أنت المخلص بالمجد	وأنت الذى علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء تحيى نفوسنا	وتنقذنا من طاعة النازع المردى
فربع عبادات وعادته التى	يمافها كالدّر نظم فى العقد
ومثالها فى المهلكات وإنه	لننج من الهلك المبرح والبعد
ورابها فى المنجيات وإنه	ليسرح بالأرواح فى جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر	ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله فى كتابه المنقذ  
من الضلال ما صورته ،

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية  
المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك مفاصيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق  
مع تباين المسالك والطرق ، وما استأجرت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى  
يفاجع الاستبصار ، وما استنفدت أولا من علم الكلام ، وما احتوته من طرق أهل  
التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته تالفاً من طرق أهل التفلسف

وما ارتضيته آخر من طارق أهل التصوف ، وما تحلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن  
أقاويل أهل الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم بينداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى إلى  
معاودته بنيسابور بعد طول المدة . فابتدعت لاجابتك إلى طلبتك ، بعد الوقوف على  
صدق رغبتك . فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوقفا منه ، وملتجئا إليه  
اعلموا أحسن الله إرشادكم ، وألأن إلى قبول الحق اقتيادكم . أن اختلاف الخلق فى  
الأديان واللبل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق  
غرق فيه الأكثرون ، وما يحا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، ( كلُّ  
سَرْبٍ بِمَا لَتَيْتِهِمْ فَرَحُونُ )<sup>(١)</sup>

ولم أزل فى عنوان شبابى مذ راقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى أن أناف  
السن على الحسنيين ، أقتحم بركة البحر العميق ، وأغمرته غوض الجسور ، لا غوض الجلبان  
الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ،  
وأنتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل  
حق ومبطل ، ومسن ومبتدع ، لأعادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا  
ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته  
ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادته ، ولا صوفيا إلا وأحرص  
على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا  
معتلا إلا وأجسس وراءه للتنبه لأسباب جراته فى تعطيله وزندته ، وقد كان التمتعش  
إلى درك حقائق الأمور دأبى ودينى من أول أمرى وريمان عمرى ، غريزة من الله ،  
وقطرة وضعا الله فى جبلى ، لا باختيارى وحيلى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ،  
وانكسرت عنى العقائد المروية على غرب عهد منى بالصبا ، فإذا رأيت صيدان التنصارى  
لا يكون لهم نشء إلا على التنصر ، وصيدان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على اليهود ،  
وصيدان الإسلام لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبي

صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيَهُ وَيُنَصْرَانِيَهُ وَيُمَجْسَانِيَهُ » فتحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقبة العقائد المارضة بتقليد الوالدين ، والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليديات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى أولا : إننا مطلوبى العلم بمحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ماهي ، فظهر لى أن العلم اليقين هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبق معه ريب ، ولا يقارنه إمكان النلط كالوم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ، ينبئ أن يكون مقارنا للنقص ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا ، من يقلب الحجر ذهابا ، والمصائبنا ، لم يورث ذلك شكا وإمكانا ، فإني إذا علمت أن المشرة أكثر من الواحد ، لو قال لى قائل ، الواحد أكثر من المشرة ، بدليل أنى أقلب هذه المصائبنا ، وقلبي وشاهدت ذلك منه ، لم أشك فى معرفتى لكذبه ، ولم يحصل معى منه إلا التجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته ، فلا ثم علمته ، أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين ، فهو علم لائق به ، وكل علم لا أمان معه ، ليس بيلم يقيني ، ثم قنشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا ، عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا فى الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس ، لامطمع فى اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولا : لأبين أن يقينى بالمحسوسات ، وأمانى من النلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليديات ، أو من جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، وهو أمان محقق ، لا تجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بمجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكننى أشكك نفسى فيها ، فانهى بعد طول التشكك بى إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم إلى ابتدأت لعلم الكلام ، فخصته وعلقته ، وطالمت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزى على الخروج عن بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم

يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة ، إلا حمل عليها جند الشهوة جملة ، فيغيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني ، بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخيل ، وإن لم تستمد الآن للآخرة فتى تستمد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فتى تقطعها ، فعند ذلك تنبمث بالرغبة وينجزم الأمر على الحرب والقرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريمة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل المريض . والشأن العظيم الخالى عن التكدير والتنقيص ، والأمر السالم الخالى من منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تيسر لك المعاودة ،

فلم أزل أردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي ، قريبا من ستة أشهر ، وأولها رجب من سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جازز الأمر حد الاختيار إلى الاضطراب ، إذ قلل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطيبها لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الحضم وصرى الطعام والشراب ، وكان لا تنسأغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة ، وتمدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ، ومته سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم ، ثم لما أحسست بهجزي ، وسقط بالسكية اختياري ، التجأت إلى الله التجاه المضطر الذى لا حيلة له ، فغابني الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن المال والجاه ، والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على غرضي فى المقام بالشام ، فتلطفت بطوائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم أن لا أعاودها أبدا ، واستهزأ بي أئمة العراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الإعراض مما كنت فيه سببا دغيا ، إذ غلظنا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس

في الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستثمار من جهة الولاة ، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجأهم في التماق في الإنكار علي ، واهراض عنهم ومن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر مجاوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم ، ففارقت بغداد ، وفارقت ما كان مبي من مالي ، ولم أذكر من ذلك إلا قدار الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم ليعال أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريبا من سنتين ، لاشغل إلا الزلة والخلوة والرياسة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلت من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على قمتي ، ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاستعداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بمد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، ونم سرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن وعادته ، بمد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت الزلة ، حرصا على الخلوة ؛ وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ، ومهمات الليال ، وضرورات المعيشة ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفوني الحال ، إلا في أوقات منفرة ، لكن مع ذلك لا أقطع علمي عنها ، فيدفعني عنها الموائق ، وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها ، والقدر الذي ينبغي أن نذكره ، ليتفهم به ، أني علمت يقينا ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى للأخلاق ، بل لوجع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشريعة من الملل ، لينفروا شيئا من سيرتهم ، وأخلاقهم ، ويدلوها بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يضاهيه .

وبالجملة : ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم في الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ، وهو أنوارها بالإضافة إلى ماتحت الاختيار . انتهى

قال المراقى : فلما فذت كلكه ، وبمد صيته ، وعلت منزلته ، وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتافت إلى الأخرى ، فأطرحها ؛ وسعى في طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز : إن لي نفساً نواقة لما نالت الدنيا تافت إلى الآخرة ، قال بعض العلماء : رأيت الغزالي رضى الله عنه في البرية وعليه مرقعة ويده عكازه وركوة ، فقلت له يا إمام أليس التدريس يبعث أفضل من هذا؟ فنظر إلي شذرا وقال : لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل تركت هوى ليلي وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادتنى الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

إنهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه .



فهرست الجزء السادس عشر

صفحة	٢٩٢٧	بيان عذاب القبر وسؤال منكر وتكبر
٢٩٧٤	٢٩٣٠	كيفية التصديق بشئ غير مشاهد
٢٩٧٦		بيان سؤال منكر وتكبر وصورتها
٢٩٧٨	٢٩٣٣	وضففة القبر وبقيّة القول في عذاب القبر
٢٩٧٩	٢٩٣٤	عدم تضر العقل بالموت
٢٩٨٢	٢٩٣٥	الباب الثامن فيما عرف من احوال الموتى بالكشفة في المنام
٢٩٨٤	٢٩٣٧	كلمة يسيرة في الرؤيا
٢٩٨٦	٢٩٤٠	بيان منامات تكشف عن احوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة
٢٩٨٧	٢٩٤٢	بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم اجتمع
٢٩٩١	٢٩٤٨	الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في احوال البيت من وقت نقطة الصدور
٢٩٩٤	٢٩٤٩	صفة نغمة الصور
٣٠٠٠	٢٩٥٢	صفة ارض المحتر واحله
٣٠٠١	٢٩٥٤	صفة العرق
	٢٩٥٦	صفة طول يوم القيامة
	٢٩٥٧	تخفيف الانتظار من المطيع لله
	٢٩٥٨	صفة يوم القيامة ودواهي واساميه
	٢٩٥٩	اسامي يوم القيامة
	٢٩٦١	ابتداء الانبياء بالسؤال
	٢٩٦٣	صفة المسألة
	٢٩٦٤	مشافهة المولى للخلائق يوم القيامة
	٢٩٦٥	مخاطبة الرب للعبد
	٢٩٦٦	معاتبه المولى للعبد
	٢٩٦٨	اختلاء المولى بكل عبد على انفراده
	٢٩٦٩	صفة البراز
	٢٩٧٠	صفة الخصماء ورد المظالم
	٢٩٧٢	تعلق المظلومين بالمظالم ومطالبته منهم
		الفلس من تعطى حسنته لخصومة
		الحث على العفو واصلاح ذات البين
		المساقل بحاسب نفسه قبل ان يحاسب
		بالحاسب
		صفه الصراط
		احوال الناس على الصراط
		صفه الشفاعة
		شفاعته صلى الله عليه وسلم للناس عامة
		شفاعة الرء لآخيه
		صفه الحوض
		القول في صفه جهنم واهوالها وانكالها
		حالة من مصيرهم جهنم
		شراب اهل جهنم وطعامهم
		بكاء اهل جهنم
		ازدياد كرب اهل جهنم بعرض نعيم الجنة عليهم
		القول في صفه الجنة واستاناف نعيمها
		عدد الجنان ، ابواب الجنة
		غرف الجنة
		صفه حائط الجنة وارضيه
		واشجارها وانهارها ، صفه تربة الجنة
		صفه لباس اهل الجنة وقوشمهم وسرهم وارتكهم وخيامهم
		صفه طعام اهل الجنة
		شراب اهل الجنة
		صفه العور العين والولدان
		بيان جمل مفرقة من اوصاف اهل الجنة وردت بها الاخبار
		مسألة اهل الجنة في الحياة
		صفه البرقة والنظر الى وجه الله تبارك وتعالى
		سعة رحمة الله تعالى على سبيل
		التفاوت بذلك
		رحمة الله تسبق غضبه

## فهرست كتاب الاملاء

صفحة	كتاب الاملاء	صفحة
٢٠٥٢	فصل في بيان اصناف اهل الاعتقاد	٣٠٢٦
٢٠٥٣	بحوث فقهية	٣٠٢٧
٢٠٥٤	فقهيات عظيمة	٣٠٢٨
٢٠٥٥	التحدث في التكفير	٣٠٣٠
٢٠٥٦	فصل	٣٠٣١
	بيان ادواب المرتبة الثالثة وهو توحيد	
	القربين	
٣٠٥٧	وعيد كاتم العلم	٣٠٣٢
٣٠٥٨	مخاطبة الناس على قدر عقولهم	
٣٠٥٩	المقربون وصفاتهم	
٣٠٦٠	امتياز اهل الكلام عن العوام	
٣٠٦٢	تفضيل المصلحة العامة على الخاصة	
٣٠٦٣	بيان المرتبة الرابعة	
٣٠٦٣	الصدّيقون وصفاتهم	
٣٠٦٤	كلمة في انحاء الصفات	
٣٠٦٥	فصل	
٣٠٦٨	فصل	
٣٠٧٢	فصل	
٣٠٧٣	فصل ، فصل	
٣٠٧٥	فصل	
٣٠٧٨	عالم الجبروت ، عالم الملكوت ، فصل	
٣٠٧٩	فصل ، فصل	
٣٠٨٢	سؤال	
٣٠٨٣	فصل	
٣٠٨٤	فصل	
٣٠٨٨	كتاب تعريف الاحياء بفضائل الاحياء	
٣٠٨٩	المقدمة	
٣٠٩٠	المقصد في فضل الكتاب	
٣٠٩٣	فصل	
٣٠٩٩	فصل	
	خاتمة في الإشارة الى ترجمة المصنف	
٣١٠٠	رضى الله عنه	
	السفر والطريق	
	الحال ، المقام ، المكان ، الشطح ،	
	الطوائف ، الذهب ، النفس ، السر	
	الوصل ، الفصل ، الادب ، الرياضة	
	التعلى ، التخلّى ، التجلى ، الملة	
	الانزعاج ، المشاهدة ، المكاشفة ،	
	اللوائح ، التلوين	
	النيرة ، الحرية ، اللطيفة ، الفتح	
	الوسم والرسم ، البسط ، القبض	
	الفناء ، البقاء ، الجمع ، الفرقة	
	حين التحمل ، الزوائد ، الارادات	
	المريد ، المراد	
	الهمة ، الغربة ، الاصطلام ، المكرم	
	الرفبة ، الرعية ، الوجد ، الوجود	
	الوجد ، والوجود ، التواجد ، القاعدة	
	الوصية	
	ابتداء الاجوبة عن مراسم الأسئلة	
	بيان مقام اهل النطق بالمجرد وتميز	
	فرقهم	
	فصل	
	فصل	
	سؤال	
	بيان اصناف اهل الاعتقاد المجرد	
	اهل الاقرار	
	اهل الاعتقاد	
	اهل النظر مع التبذل ، اشكال الرد	
	عليه	
	مستطراد	



# الشعب

٩٤ شعراء قصيدة السيل والتمثيل  
الطبعة ١٩٨٠







